

الساق على الساق في ما هو الفاريق

الشدياق

To PDF: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)

## تنبيه من المؤلف

الحمد لله الموفق إلى السداد والملمهم إلى الرشاد. وبعد فإن جميع ما أودعته في هذا الكتاب فإنما هو مبنيّ على أمرين أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها فيندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس وقد ضمنت منهما هنا أشهر ما تلزم معرفته وأهم ما تمس الحاجة إليه عن نمط بديع ولو ذكر على أسلوب كتب اللغة مقتضباً على العلائق لجاء مملاً وقد راعيت سرده مرة على ترتيب حروف المعجم ومرة نسقته بفقر مسجعة وعبارات مرصعة. ومن ذلك القلب والأبدال كما في التورور والثورور والتوتور والترتور وتمطي وتمتي وتمطط وتمدد. ومنه إيراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى من حرف واحد منحروف المعجم نحو الغطش والغمش والبهز والبز والبغز والحفز تنبيهاً على إن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من أسرار اللغة العربية التي قل من تنبه لها. وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سميته منتهى العجب في خصائص لغة العرب. فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتهاج والبداح والبراح والأبطح والأبلنداح والجح والرحرح والمرتدح والروح والتركح والتسطيح والمسفوح والمسمح في قولهم أن فيه لمسحاً أي متسعاً والساحة والانسياح والشدحة والشرح والصفحة والصلدح والاصلنطاح والمصلفح والطح والمفرطح والفشح والفتح والفلطحة إلى آخر الباب. ويلحق به ألفاظ كثيرة خفية الاتصال لا تدرك إلا بإمعان النظر نحو الأسجاع والتسريح والسماحة والسنع. ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البراخدة والتيد والثأد والثعد والمثعد والمثغد والثوهد والثهمد والخبنداة والخود والرادة والرخودة والرهادة والعيرد والفرهده والأملود والفلهود والقرهده والقشدة والمأد والمرد والمغد والملد إلى آخر الباب. ويلحق به من الأمور المعنوية الرغد والسرهدة والمجد وغير ذلك. وربما عادلوا في بعض الحروف أي راعوا فيها الإكثار من النقيض فإن حرف الدال يشتمل أيضاً على ألفاظ كثيرة تدل على الصلابة والقوة والشدّة. وذلك نحو التأدد والتأكيد والتأييد والجلعد والجلمد والجمد والحديد والسحد والسخذود والسهمد والتشدد والصفد والصلد والصلخد والصفغد والعجرد والتعجلد والعرد والعربد والعرقدة والعصلد والعطود والعطرده والعدل إلى آخره. ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو أرم وأزم وثرم وثلّم وجذم وجرم وجزم وجلّم وحزلم وحسّم وحطم وحلقم وخذم وخرم وخزم وخضم إلى آخر الباب. ويلحق به من الأمور المعنوية حمّ الأمر أي قضي وحرّم وحتم وحزم فإن معنى القطع ملحوظ فيها. ويكثر في هذا الحرف أيضاً معنى الظلام والسواد. ومن حرف

الهاء الحمق والغفلة والرثاء أي قلة الفطنة نحو آله وأمه وبله والبوهة وتفه والتوه والدله والسبه وشده لغة في دهش أو مقلوب منه وعته وعله وغمه وغمه ووره. وقس على ذلك سائر الحروف. ومن هذا الغريب أيضاً كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني نحو أجرهذ وأسمهر وكل ذلك مشار إليه في هذا الكتاب فينبغي التفطن له.

وقد طالعت كتاب المزهري في اللغة للإمام السيوطي رحمه الله مما ذكر فيه خصائص اللغة نقلاً عن الإمام اللغوي ابن فارس فلم أجده تعرض لهذا النوع بل ربما أورد من الخصائص أحياناً ما لا ينبغي إيراده كجعله مثلاً لإطلاق لفظة الحمار على البليد منها. ومن ذلك الغريب النادر من الألفاظ وذلك نحو قولي أكهى في صفة الرجل المتقرف من البرد قال في القاموس أكهى سخن أطراف أصابعه بنفس. ونحو العنقاش للذي يطوف في القرى يبيع الأشياء. والضوطار وهو من يدخل السوق بلا راس مال فيحتال للكسب والذئابة أي بقية الدين. وثرمل يقال ثرمل الطعام لم يحسن أكله فأنثر على لحيته وفمه.

ويتكظكظ وهو أن ينتصب الإنسان عند الأكل قاعداً كلما امتلأ بطنه. ونحو الجلهزة والتلحد والوزم والأرغال وغير ذلك مما فسر بعضه وترك الباقي فراراً من تكبير جرم الكتاب. والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن فمن هذه المحامد ترقى المرأة في الدراية والمعارف بحسب اختلاف الأحوال عليها كما يظهر مما أثرت عن الفارياقية. فإنها بعد أن كانت لا تفرق بين الأمرد والمحوق اللحية وبين البحر الملح وبحر النيل تدرّجت في المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة وتنتقد الأمور السياسية والأحوال المعاشية والمعادية في البلاد التي رأها أحسن انتقاد. فإن قيل إنه قد نقل عنها ألفاظ غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب فلا يمكن أن تكون قد نطقت بها. قلت إن النقل لا يلزم هنا أن يكون بحروفه وإنما المدار على المعنى. ومن تلك المحامد أيضاً حركات النساء الشائقة وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا وذكرته في هذا الكتاب لا بل قد أودعته أيضاً معظم خواطرهن وأفكارهن وكل ما أختص بهن.

### فاتحة الكتاب

طَلَقَ اللسان وللسخيف سخيفا

وحشوته نقطاً زهت وحروفا

وخلاعة وقناعة وعُزُوفاً

هذا كتابي للظريف ظريفاً

أودعته كلما وألفاظاً حلت

وبداهة وفكاهة ونزاهة

كالجسم فيه غيرُ عضوٍ تعشق  
فصلّته لكن على عقلي فما  
قعرّته بمحافر الأفكار كي  
لفقّته وخصفته بيدي فقل  
أفرغت فيه كل حبرٍ راقه  
وكأنما بيدي قد نمقته  
ألّفته والليل أسود حالك  
تبلّته لك دون طاهي القوم بالرّب  
وتصخ ما بك من طُلاطة ومن  
يُغنيك عن مين الطبيب وسحله  
قد أنبتت غصراء أرض سطوره  
فتشمّ منها عرف كل ربّلة  
وترى الملعظة الشناط بجبها  
ووراءها وأمامها مرمورة  
وإذا بدت لك من خلال حروفه  
فإذا عجزت عن المؤونة واستقلت  
فاختر هداك الله ما تهوى ولا  
غيري من الوصّاف في ذا صنفوا  
إذ كان ما قالوه مبذولاً ولم  
لكن كتابي أو أنا بخلاف ذا  
لا عيب فينا غير أنك لا ترى  
فهو اليّتم المستحيل إخاؤه  
الفضل لي ولصاحب القاموس إذ  
حلبت به رأسي خلافاً للنسا

المستور منه وتحمد المكشوف  
مقياس عقلك كان لي معروف  
يسع الكلام وسمته تجويفا  
نعم الكتاب ملففاً مخصوفا  
وله برّيت من اليراع ألّوفا  
حتى أتى مستحكما مرصوفا  
فلذاك جاء مسخماً مسجوف  
لات في تزيل منك خلّوفا  
ضرّس فتلقم بعد ذاك الفوفا  
ما من جراه تخازم الحثروفا  
روضاً وجنّات تروق وريفا  
دهساء يفتن حسنّها الغطريفا  
والفارض القرطاس والسرعوفا  
وغرائق ما أن تزال أنوفا  
ردح وثائر فاخطبن رشوفا  
وجدت في أعقابهن الهيّفا  
تتراخ عن أن تدرك الحرنوفا  
لكنهم لم يحسنوا التصنيفا  
يتقصّ منهم واصف موصوفا  
نكفي الحفيّ الحدّ والتعريفا  
ضواً لنا في فننا وحريفا  
وهو الفريد فكن عليه عطوفا  
من لجه قلّتي غداً مغروفا  
عاماً وكل العام كان خريفا

لكن تولد في 3 أشهر  
لم أدرِ رجلته أو مخطته أو  
عانيت فيه من الزجير أجازك  
وقطعت سرته على أهل الحجي  
ما كان من ظئر له عندي سوى  
قدماً عليه توحمت نفسي ولم  
ورشحت لذات قبيل نتاجه  
أولدت لي ولدين لا لك ثم ذا  
عهدي إلى ولدي أن يتحدّيا  
ليؤمناه من الحريق احتمي  
إني بريء منهما أن يعدلا  
من كان يرغب فيه فهو موفق  
في الليل يسمع منه غطغة

وحبا على عجل وشب لطيفا  
بصقته أو ألقته ثم كنيها  
المولى عناء لا يُكال جزيفا  
وعلى اسمهم لا يبرحن موقوفا  
فكري ومع ذا خلته مسروفا  
يك شوقها عن نحوه مسروفا  
حتى إذا باشرت عدت نشوفا  
لك ثالثاً لا لي فعلة القوفا  
أسلوبه وبدفتيه يطيفا  
أحد عليه لكونه حريفا  
عنه ويتحذا عليه حليفا  
أو لا فقد ضلّ السبيل وايفا  
يطيب نعاسه بدوامها وحجيفا

ولربّ نور ساطع يغدو إذا  
وكبير بطن ضاق عنه وفاتك  
كالزئبق الفرار ينظره ولا  
يهوي هويّ الريح في الوادي إذا  
هو خير داحٍ للذي لم يرض من  
أن تتله يطربك حسن بُغامه  
فيه ترى في لبرد مشتى ثم أن  
وإذا ثقلت من الطعام وغيره  
وإذا اتخذت حديقة فاغرس بها  
تغنيك عن نصب الخيال بها فلو

قابلته يوماً به مكسوفاً  
ذي شرّة عنه يخيم ضعيفاً  
يستطيع يمسك من قفاه صوفاً  
ما هيح ثم يسنم الشنعوفاً  
لعب الزمان ولهوه خذروفاً  
أو تُلغّه يسمعك منه عزيفاً  
ثارت خجوجة السهام مصيفاً  
تلقى به من ثقلة تخفيفاً  
منه كليّات تزدك قطوفاً  
أضحى شظاظاً لصحها لا خيفاً

إنني ضمنت لك الفدور فما ترى  
كلا ولا مستقلاً نوماً ولا  
لا تقدمن على ركوب الصعب إن  
حتى إذا تُعتعت أصبح عاصماً  
إنني لا علم والسداد يدلني  
فاخفه أنت بكل حرف باتر  
هو حصرم في طرف من يغتابه  
وهو الحديد القاطع الماضي الذي  
إن شئت تلبسه على علاته  
ولقد أجزتك سفه أو لعقه  
لكن حذار من الزيادة فيه أو  
إذ ليس فيه من محل قابل  
لو كان يعشق جامد لجماله  
ولئن نرحت عن الأنام فإنه  
وإذا تخاصم كاذبان فلحية  
حتى كأن الشعر من لحييهما  
وحياة رأسك أن رأسي عارف  
كلا ولا أقطا ولا حشفا ولا  
لكن بقرني حكة هاجت على  
من كان يؤجر كي يؤلف خطبة  
ما راح من قولي فخذة وما تجد  
لا بد أن تجد الصيارف مرة  
ولرب دينار يجر إليك من  
لا يعلقن بزجاج عقلك ما ترى

من بعده عزهاً ولا منجوها  
أرقاً ولا تشكو صدى وعجوها  
لم تتخذة صاحباً ورديفا  
لك أن تزل فتخطى الخرnofa  
إن الجناح يرى الأبليل مخيفا  
قد خط فيه يكفّ عنك كفيفا  
ما زال أن ذكر اسمه مطروفا  
يبيري العظام ويحسم الشرسوف  
فاهناً به أو لا فدعه نظيفا  
أو أن تخف قيثاً فخذة مدوفا  
أن ترتأي استعماله محذوفا  
للحذف أو لزيادة تنقيفا  
لغدا الورى طراً به مشغوفا  
يمشي إليه حيث كان زحوفا  
الأشقى يغدر شعرها منتوفا  
قطن الحشايا ناعماً مندوفا  
إنني به لن أستفيد رغيفا  
خزاً على وتدي ولا كرسوفا  
إنني أعالج مرة تأليفا  
فهو الخلق بأن يعد عسيفا  
من زائف فاتركه لي ملفوفا  
بين الدراهم درهماً مزبوفا  
تهوى بلحيته وليس مشوفا  
فيه من الصدا القديم كثيفا

من كان في بلد لطيفاً طبعه  
 لا ترفسن ما سرّ من لأجل ما  
 إن المصنف لا يكون مصنفاً  
 أو ليس أن الضرب مثل الصنف في  
 حاشاك أن تقضي عليّ تهافتاً  
 فتقول قد كفر المؤلف فاحشدوا  
 فتهيج أرباب الكنائس هيجة  
 بيني وبينك من صلات مودة  
 لا تربئراً إلى القتال ولا إلى  
 إن كنت إحساناً أتيت فدونك  
 لا تشتمن أبي ولا أمي ولا  
 إثمي على أنفي يناط مدلداً  
 ولربّ فسق اللسان مبادئ  
 ونزیه نفس أن يزرر ذا زوجة  
 كلب الكواعب ليس يعدي غيره  
 ماذا على مهدٍ إلى إخوانه  
 سهرُ الليالي محكماً تفصيله  
 أرأيت ذا كرم يردّ  
 أو ليس أن الدهر مازحاً

فأشتق من خرف الجنى ومن  
 دع عنك تعبیس الأسود وكن أحياناً  
 من أضحك السلطان صوت ردامه  
 تمت بهذا البيت فاتحتني وقد  
 حصف تهي الأظفار منه حصيفاً  
 لأبي الحصين مراوغاً يهفوفاً  
 فهو الذي في الناس عدّ عريفاً  
 صيرته لبنائها تسقيفاً

كلفت حرفاً واحداً تكليفاً

لا تقرأن من بعده شيئاً ولو

بك رجلك اليسرى له تاريفاً

فتكون قد أزلفت ثم تجاوزت

نصيحتي راحت سدى وظيفاً

إني أرى كالريح في أذنيك عرف

## الكتاب الأول

### إثارة رياح

مه صه أسكت اصمت أنصت اييس أعقم أسمع ائذن أصخ أصغ أعلم أي شرعت في تأليف كتيبي هذا  
المشتمل على أربعة كتب في ليالي راهضة ضاغطة أحوجتني إلى الجوار قائماً حتى لم أجد لصُبُور أفكار  
ما يسدّه عن أن يتبعق على ميزاب القلم في وجوه هذه الصحائف. فلما رأيت القلم مطواعاً لأناملي  
والدواة مطواعاً للقلم في نفسي لا بأس إن أقفو القوم الذين ييضعون وجوههم بتسويد الطروس فإن كانوا  
قد أحسنوا فأنا أعدّ أيضاً من المحسنين. وأن كانوا قد أساءوا فلعل عدد كتبهم يحتاج إلى تكملة فيكون  
كتابي على كل حال متصفاً بالكمال. لأن ما كمل غيره كان جديراً بأن يكمل نفسه. فمن ثم أتوقف  
فيما قصدته ولم أتخاش أن أودعه من الألفاظ الشائقة الرائقة والمعاني الفائقة الآفقة كل ما خفّ على  
السمع، ولذا للطبع. مع عملي إنه لا يكاد مؤلف يعجب الناس جميعاً.

وكأني بمتعنت يقول في نفسه أو لغيره لو كان المؤلف أجهد قريحته في تأليف كتاب مفيد لا يستحق أن  
يثنى عليه. لكني أراه قد أضاع وقته عبثاً بذكر ما لا ينبغي ذكره جيناً. وحيناً بذكر ما لا يجدي نفعاً.  
والجواب عن الأول: ومحترس من مثله وهو حارس. وعاد الحيش يحاس. وحذ من جذع ما أعطاك.  
وشحمتي في قلعي. وأهتبل هبلك. وعين الرضى عن كل عيب كليلة. وعن الثاني: أربع على ظلك.  
وأرق على ظلك. وأرقاً على ظلك. وق على ظلك. وكأني بآخر يقول حديث خرافة يا أم عمرو.  
وجوابه وكم من غائب قولاً سليماً. ثم كأني بحoque عظيمة من الجلاذي والنهاميين والأهمة والوففة  
والوفهة والوهفة والأبيلين والزرارة والقمامسة وأمامهم الجاثليق الأكبر. وأمام هذا العسطوس الأعظم  
وهو يضجون ويعجبون ويجأرون وينعرون ويلجبون ويصخبون ويزأطون ويلغطون ويتقترنون ويتوغرون  
ويتوعدون ويتهددون ويتدمرون ويتنكرون ويتنمرون ويتشذرون ويتشذرون ويتغذرون وينحمون  
وينهمون ويلغمون. فأقول لهم مهلاً مهلاً إنكم قضيتهم عمركم كله في حرفة التأويل فيما يضركم لو  
أولتم ما تنكرونه في كتابي من أول وهله. وتمحلتكم كما هو دأبكم لأن تجعلوا منه حسناً ما يظهر قبيحاً



ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته فاحشاً. فإن أبا نواس قد أوجب عليكم ذلك مذ معين من السنين بقوله:

لا تحظر العفو إن كنت امرأةً ورعاً فإن حذرَكَ بالدين إزاء

وبقوله:

كن كيفما شئت أن الله ذو كرم وما عليك إذا أذنبت من باسٍ

إلا أثنتين فلا تقربهما أبداً الشريك بالله والأضرار بالناس

فأما أن قلتم إن عباراته صريحة بحيث لا تقيل التأويل. فأقول لكم إنكم بالأمس كنتم تخطأون وتحضرون وتقرأون وتلحنون وتلكنون وتغلطون وتوهمون وتعفكون وتلبكون وتلتكون وتلفتون وتعصدون وتخلطون وتخطلون وتهذون وتهذرون وتحصرون وتلخون وتلخللون وتعجمون وتجمعون وتقدمون وتلفون وتبليتعون وتتلهيعون وتلغلغون وتلقلقون وتقلقلون وتترترون وتثرثرون وتحصرون وتفرفرون وتجمعون وتمجمجون وتمغمغون وتمغمغون وتمغنغون وتمغنغون وتبععون وتبغبغون وتوتغون وتضعغون وتعيون وتفهبون فمتى جاءكم العلم حتى فهمتموها.

وإن قلتم أن بعضها وهو السيئ مفهوم وبعضها غير مفهوم. قلت لعل ما لم تفهموه هو الحسنات التي تذهب السيئات فلا ينبغي لكم على أية حالة كانت تحرقوه. ولعمري لو لم يكن من شافع لقبوله وأجرائه عند الأدباء وعندكم آنستم أيضاً مجرى كتب الأدب سوى سرد ألفاظ كثيرة من المترادف لكفى. بل فيه من ذكر الجمال وأهله أدام الله عزهن إعظامه وتقريظ مؤلفه حيا ثم تأيينه بعد مفارقتة إياهن برغم أنفه.

على إني أعرف كثيراً من الوفهة الكرام المشهود لهم بالفضل بين الأنام لا يتخرجون من قولهم شيء مجمع وشيء متملك وشيء مفرم وشيء أزيب وشيء مهذف وشيء قازح وبكبك. ومن ذكر الكعشب والكعشب والكعشم والجلهوم والعركوك والأكنم والأختم والخشيم والحزنب والدعكنة والجدجد والنيذج والبوص والنامة والبلغص والقلذم والأكبس والضرطمي والحضر والهيدب والمحلوس والبوص والعضط والعصارطي والخميش والجشماء والبداء والفسشوش والبطعاء والمهلوسة والمرصوفة والمستودفة والخالقة والشارقة والخبوق والخبوق والغفوق والربوخ والمخرقة والسلقلق والشقا والمتلاحمة والخجام والخجوم والأتوم والشريم والهوجل والمتكأ والحلقية والمرفوعة والمصوص والمنفاض والميراص والعضوض والمنخار والشفيرة والزخاخة والبخاخة والجخنة والشفلح والعنبلة والجليع ومن العلوز والقنب والنوف والخنتب والأيل والبيظ والشعرورين والختار والأشعر والطبق والأسكتين والحسكلتين والعتل والقحجق

والمأنة والجعب والطرث والعكيز والمعجرم والعجارم والويل والفنجليس والفلسطين والحطاط والكوتعة والجوفان والمتك والحوقة والكوشلة والقصة والدلة ومن الأقماد والتوتيد والأستعداد والتنشخ والشمذ والفهر والأفهار والوجس والنشنة والاستخلاط والتشيط والهكاع والفحة والسغم والأكسال والعم والزجل والحقق والنيطل والعترو والطروح والعجيز والفنخر والاختضار والترفع والأصفاد والعصد والحمق والتفعل والتبازخ والعروة والأسواع والسباع والألهاط والعصد والرفع والعفل والقرنة والكين والطوطة ومن ذكر الأرزب والبزباز والفاعوسة والخرنوف والمشرح والغضارطي والمصوص والخاب والزردان والطبريز والفلهم والقباب واللهوم والحجوم والمزخة والنغغ والخشنفل والمعرفط والمقرنط والفوق والقوق ولركوة والقحفليز والعفلق وغير ذلك من أدوات النصب ومن البنودة والجعي والحذافة والنصب ومن البنودة والجعي والحذافة والحذفة والحوارة والخفاقة والعزاقة والحسة والحشة والخبثة والرماعة والصماري والرثم والطبيخة والحماء والعواء والعزلاء والجمعاء والسحماء والقنقصة والفرقة والصفارة والنبور والنباعة والنباعة والوباعة والجوانة والخوانة والصوانة والبرعث والبعثط وغير ذلك من أدوات الحزم ومن الآداف والبزار والجميع والجعثوم والاذامي والحوقل المطول والمطول والزلقطة والخدرنق والسحادل والضبيز والعلعل والدوقل والقسطيبنة والفنطيس والشاقول والقهبليس والعردل والقسطبير والجواجز والقزميلة والمتثر والدوسر والسهمدر وغير ذلك من أدوات الجر ومن ذح وذحا ودح ودحي ورصع ورطاً وشفتن وشكز وضهز وطعز وطنح وعزط وعزلب وقرفط وقنطر وقسير وقحطر وقمطر ولطرز ولمج ولمذ ومشق ومتر ومهج ومعج ونيرج وزخزخ ودعظ. وكنت أخلق في وجوههم عند ذكرهم ذلك فلم أكن أرى عليها حمرة الخجل ولا صفرة الوجل بل كانت ناضرة مستبشرة مبتهجة مسفرة. فإن أبي المنكر إلا عناداً وتقاضاني جدول أسمائهم قلت له هاك أوله يبتدئ بالألف وآخره بالياء. فاحسبوني إذاً وافهاً من هؤلاء.

ثم أن شرطي على القارئ ألا يسطر من الألفاظ المترادفة في كتابي هذا على كثرتها. فقد يتفق إن يمر به في طريق واحدة سرب خمسين لفظة بمعنى واحد أو بمعان متقاربة. وإلا فلا أجز له مطالعته ولا أنهؤه به. على إن لا أذهب إلى الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد وإلا لسموها المتساوية وإنما هي مترادفة بمعنى إن بعضها قد يقوم مقام بعض. والدليل على ذلك إن الجمال مثلاً والطول والبياض والنومة والفصاحة تختلف أنواعها وأحوالها بحسب اختلاف المتصف بها فخصت العرب كل نوع منها باسم ولبعد عهدهم عنا تظنيها. بمعنى واحد. وقس على ذلك أنواع الحلبي والمأكول والمشروب والملبوس والمفروش والمركوب. لا بل عندي ولا أخشى من أن يقال أولك عند أنه إذا كان اسمان مشتقين من مادة واحدة وكانا يدلان على معنى واحد كالخجوج والخجوجة مثلاً للريح الشديدة المر وإن يكون الاسم الزائد في

اللفظ زائدا في المعنى أيضا. إن شئت أذعنت أولا فعاندا.

هذا وأنا قد ألفتة وما عندي من الكتب العربية شيء أراجعه واعتمد عليه غير القاموس. فإن كنتي كانت قد فركتني فاعتزلتها، غير إن مؤلفة رحمه الله لم يغادر وصفا في النساء إلا وذكره. فكأنه كان أهم أن سيأتي بعده يغوص في قاموسه على جمع هذه اللآلئ في مؤلف واحد متنسق لتكون أعلق بالذهن وارسخ في الذكر.

ولولا إني خشيت غيظ الحسان عليّ لكنت ذكرت كثيراً من مكايدهن وحيلهن ومحالهن لكنتي إنما قصدت بتأليف التقرب إليهن وترضيهن به. وإني آسف كل الأسف على أنهن غير قادرات على فهمه لجهلهن القراءة لا لغوص العبارة إذ لا شيء يصعب على فهمهن مما يؤول إلى ذكر الوصل والحب والغرام. فهن يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلثم ولا قصور ولا ترج وحسي أن يبلغ مسامعهن قول القائل أن فلاناً قد ألف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات. فقال إنهن زحرف الكون. ونعيم الدنيا وزهاها. وغبطة الحيوة ومناها. وسرور النفس ومشتهها وعلق القلب. وقرة العين. وانتعاش الفؤاد. وروح الروح. وجلاء الخاطر. وتعلل الفكر. وهو البال. وجنة الجنان. وأنس الطبع. وصفاء الدم. ولذة الحواس. ونزهة الألباب. وزينة الزمان.. وبهجة المكان والباءة بل أقول غير متحرج عرف الآلهة إذ لا يكاد الإنسان يبصر جميلة إلا ويسبح الخالق. بذكرهن يلهج اللسان. ولخدمتهن تسعى القدم. وتحمل الأعباء. وتتحشم المشاق ويهون الصعب ويتجوع الصاب. ويقاسي الضر ولرضائهن يذل العزيز. ويذل النفيس. ويذل المصون. وإن خلاق الرجل من دونهن حرمان. وفوزه خيوز وهناؤه تنغيض. وأنسه وحشة. وشبعه جوع. وارتواؤه ظمأ. ورقاده أرق. وعافيته بلاء. وسعادته شقاوة. وطوبى له كالزقوم. والتنسيم كالغسلين. فإذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع إحدى سيداتي هؤلاء الجميلات وسرت به وفرحت. ورقصت ومرحت. رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة أن تبلغه أيضاً مسامع جارها. وأملت من هذه أيضاً أن تطالع به صاحبها حتى لا يمضي أسبوع واحد إلا ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها. وكفاني ذلك جزاء على تعبي الذي تكلفته من أجلهن. إلا وليعلمن إني لو استطعت أن أكتب مديحهن بجميع أصابعي وأنطق به بكل من جوارحي لما وفي ذلك بمحاسنهن. فكم لهن علي من الفضل حين بدون في أفخر الحلل ومسمن وبأحسن الحلبي. ونظرن إليّ شافنات. حتى أبت إلى حفشي وأنا أتعثر بأفكاري وخواطري. فما كادت يدي تصل إلى قلم إلا وقد تدفقت عليه المعاني وساحت على القرطاس. فأورثني بين الناس ذكراً وفخراً. ورفعن قدري على قدر ذوي البطالة والفراغ. نعم أن من بينهن من نفست علي بطيفها في الكرى. ولكنها معذورة في كونها لم تكن تعلم إني أتكلف النوم. بعد أن رأيت

عيني من جمالها ما يبهـر العقل ويـلـبـلـ البـال.

فأما إذا تعنت عليّ أحد بكون عبارتي غير بليغة. أي غير متبلة بتوابل التجنيس والترصيع والاستعارات والكنائيات. فأقول له أي لما تقيدت بخدمة جنابه في إنشاء هذا المؤلف لم يكن يخطر ببالي التفتازاني والسكاكي والأمدي والواحدي والزحشري والبستي وابن المعتز وابن النبيه وابن نباتة. وإنما كانت خواطري كلها مشغلة بوصف الجمال. ولساني مقيداً بالإطراء على من أنعم الله تعالى عليه بهذه النعمة الجزيلة. وبغبطة من حوّل عزّ وجلّ عزة الحسن وبرّثاء من حرّمه منه. وفي ذلك شاغل عن غيره. على أي أرجو أن في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ما يغني عن تلك المحسنات استغناء الحسناء عن الحلي ولذلك يقال لها غانية. وبعد فإنّي قد علمت بالتجربة إن هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها المؤلفون كثيراً ما تشغل القارئ بظاهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى.

ولعمري انه ليس في هذا الكتاب شيء يعاب سوى وجدانك الفاريق فيه تارة يحشر في سرب الغواني. وتارة يدمق عليهن وهن آمانات في حجالهن أو في حديقة أو في زاوية على السرير. ولكن لم يكن لي بد من ذلك. إذ الكتاب موضوع على قص أخباره وعلم أحواله. فقد بلغني أن كثيراً من الناس أنكروا وجود هذا المسمى فقالوا أنه من قبيل الغول والعنقاء. وبعضهم قال أنه قد ظهر مرة في الزمان ثم اختفى عن العيان. وذهب غير واحد إلى أنه مسخ بعد ولادته بأيام. ولم يعلم بأي صورة تلبس وإلى أي شكل استحال. وزعم قوم أنه صار من جنس النسناس. وقال غيرهم إنه صار من نوع الجن. وأثبت بعض إنه استحال امرأة. فإنه لما رأى أن المرأة أسعد حالاً من الرجل في هذه الدنيا المسماة دنيا كانت لا يبيت إلا هو جائر إلى ربه بالدعاء لأن يصيره أنثى. فتقبل الله ذلك منه وهو على كل شيء قدير. فرأيت والحالة هذه من بعض ما يجب عليّ أن أعرف هؤلاء المختلفين فيه بحقيقة وجوه على ما فطر عليه. ما عدا التغيير الذي عرض له عن جهد المعيشة وسوء الحال ومقاساة الأسفار ومخالطة الأجانب والاحتكاك. وعلى الخصوص من تلفيع الشيب. والمجاورة من حد الشباب إلى سن الكهولة. فإذا قد علم ذلك فأقول كان مولد الفاريق في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها إلى الجدي أو التيس والسرطان ماشٍ على قرن الثور، وكان والده من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح مرحى مرحى إلا أن دينه ما كان أوسع من دنياهما وصيتهما أكبر من كيسهما برحى برحى وكان لطبل ذكرهما دويّ يسمع من بعيد. ولزوابع شأنهما عجاج ثناء يثور في الجبال والبيد. ولتكرير العفاة واعتشاء الوفود لديهما. تعطلت سبل دخلهما. ونزحت بئر فضلهما فلم يبق فيها إلا نزازات يلقي فيها المحقق المحروم سداداً من عوز. فكانا يجودان به أيضاً من عوز السداد وه وه فلذلك لم يعد في طاقتهما أن يبعثاه إلى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية. وإنما

جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها ويح ويح وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الأولاد هناك لا غير أفّ أف وليس قولي إهم يتعلمونه مؤذنا بأنه يفهمونه. معاذ الله. فإن هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد في طاقة بشر أن يفهمه غُط غُط وقد زاده إهياماً وغموضاً فساد ترجمته إلى اللغة العربية وركاكة عبارته حتى كاد أن يكون ضرباً من الأحاجي والمعنى رُط رط وإنما جرت عادة أهل تلك البلاد بأن يدرّبوا فيه أولادهم على القراءة من غير أن يفهموا معناه. بل فهم معانيه عندهم محذور تفّ تف وكما أنهم لا يفقهون معنى وحا وميم وقاف مثلاً. فكذا لا يفهمون عبارة الكتاب المذكور إذا قرأوها طيخ طيخ.

والظاهر أن سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعايتهم المساكين أن يتفقهوا أو يتفقهوا. بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة أع أع إذ لو شاؤوا غير ذلك لاجتهدوا في أن ينشئوا لهم هناك مطبعة تطبع فيها الكتب المفيدة سواء كانت عربية أو معرّبة سر سر فكيف ترضون يا سادتنا الا عزة لعبيدكم الأذلة أن تربي أولادهم في الجهل والعمه عزوى عزوى وإن يكون معلموهم لا يعرفون العربية ولا الخط والحساب والتاريخ والجغرافية ولا شيئاً غير ذلك مما لا بدّ للمعلم من معرفته تعزى تعزى فكم لعمرى من ملكات براعة وحذق من الله تعالى بها على كثير من هؤلاء الأولاد. غير أنه لفقد أسباب العلم وعدم ذرائع التأديب والتخريج طفئت جذوتها فيهم على صغر بحيث لم يمكن أن يستقبحها بهم تنف التحصيل على كبر أوه أوه هذا وإنكم بحمد الله من المتمولين المثرين. لا يعجزكم أن تنفقوا كذا وكذا كيساً على إنشاء مدارس وطبع كتب مفيدة أيه أيه فإن لبطرك الطائفة المارونية دخلاً له وقع عظيم، وقدر جسيم، بحيث يمكنه أن يحيي به قلوب طائفته هذه التارزة التي لا هم لها في المنافسة والمباراة في شيء بين من سبقوهم إلى كل علم وفضل هيس هيس وإنما همهم أن يتعلموا بعض قواعد في نحو اللغتين العربية والسريانية لجرد العلم بما فقط من دون فائدة آه آه إذ لم يعلم إلي الآن أن واحداً منهم ترجم كتاباً أو كراسة مفيدة في هاتين اللغتين ولا أن البطرك أمر بطبع كتاب لغة فيهما تغ تغ ولو إنه أنفق نصف دخله في كل سنة على تحصيل أسباب العلم بدل هذه الولائم والمآدب التي يهيئها لزواره. أو لو كان كل من الأمراء والمشايخ الكرام ينفل شيئاً معلوماً في كل سنة لأجل هذه المصلحة الخيرية أو لو بعث من قبله إلى البلاد الإفريقية وكلاء يجمعون من ذوي الخير والإحسان فيها مبلغاً يخصصه بما نحن بصددده. لأحمد كل من في الشرق والغرب فعله جنح جنح ولكن إذا تعنى أحد سادتنا هؤلاء لأن يبعث إلى إخوانه الإفرنج حنا أو متى أو لوقا لجمع المال فإنما يبعثه لبناء كنيسة أو صومعة آح آح مع أن الإنسان

مذ يولد إلى أن يبلغ اثنتي عشرة سنة لا يمكنه أن يدرك شيئاً على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة ويمكنه في خلال ذلك أن يتعلم ما يفيد في مدرسة أو كتاب شع شع فهل تعدوني يا سادة بإنشاء مكاتب وطبع كتب حتى لا أطل عليكم هذا الفصل. فإن بقلي منكم لحزازات حاكة وبصدي عليكم ملامات صاكة أخ أخ لأن خليصي الفاريق في دولتكم السعيدة لم يمكنه أن يتعلم في قريته غير الزبور وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة أخ أخ لأن معربه لم يكن يعرف العربية وقس عليه سائر الكتب التي طبعت في بلادكم وفي رومية العظمى مع مع ومعلوم أن الغلط إذا تأصل في عقل الصغير شب معه ونمى فلم يعد ممكناً بعد قلعه.

فهل من سبب لهذا الشين والعييب سوى إهمالكم وسوء تصرفكم في السياسة المدنية والكنائسية أفواه أفواه.

أتحسبون إن الركاكة من شعائر الدين ومعالمه وفرائضه وعزائمه وإن البلاغة تفضي بكم إلى الكفر والإلحاد. والبدعة والفساد مطغ مطغ أم حسبتم أن تلك الأبيات العاطلة قد أفحمت ذلك المسلم العالم عن المجادلة والمناضلة يع يع إما بعروقتكم دم يهيجكم إلى حب الكلام الجزل الفخم. وإلى البلاغة والبله. ونق العبارة على موجب القواعد المقررة. والإفصاح عما يخطر ببالكم دون الحشو المخل. والاعتراض الممل. والتعقيد الممل. والإخلاء المسل. وقولكم في جوز الجملة في جوز الجملة الخ. وجعلكم الفعل الثلاثي رباعياً. وبالعكس. واستعمالهم ما يتعدى منه بالباء متعدياً بفي وبالعكس. وأجرائكم المتعدي لازماً وبالعكس. والمهموز معتلاً وبالعكس وعدم فرقكم بين اسمي الفاعل والمفعول. فتقولون هم محسودون مني أي حاسدون لي وما أشبه ذلك قه قه وليس كتابي هذا درة الثين في أوهام القسيسين حتى أستوعب فيه ذكر أغلاطكم وأوهامكم ايحي ايحي وإنما المقصود من ذلك أن أبين لكم أن أدمغتمكم قد سقيت اللحن والركاكة من وقت ذهابكم إلى الكتاب وقراءتكم فيه كتاب الزبور إلى أن تصيروا كهلاً ثم شيوخاً دح دح وإنه ما دتم على هذه الحال فلن يرجي لكم من ابلا وب وب.

ثم أن الفاريق أقام عند معلمه ريثما ختم الكتاب المذكور. وبعد ذلك أوجس منه العلم أن يربكه في مسائل تصعب عليه فينفضح بها. فأشار علي والده بأن يخرج من الكتاب ويشغله بنسج الكتب في البيت به به فلبث على هذه الحالة مدة طويلة فاستفاد منها ما أمكن لمثله أن يستفيد من تجويد الخط وحفظ الألفاظ بد بد وكان أهل البلاد يفضلون حسن الخط على كل ما تصنعه اليد. فعندهم إن من يكتب خطأ حسناً هو الذي أفق بين أقرانه في الفضل. ومع اشتها ذلك فلم يكن حاكم البلاد يستخدم من الكتاب إلا من بدأت العين خطه وعاف الذوق السليم كلامه عيط عيط أشعاراً بأن الخط لا يتوقف إلا على

الحظ. وإن إدارة لا تفتقر إلى تهذيب الكلام. تع تع وإن كثيرا قد نالوا المراتب السامية والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف حس حس غير أن الفارياب لم يكن قرير العين بهذه الحرفة. إذ كان يعتقد أن الرزق الذي يأتي كشق القلم لا يكون إلا ضيقا وي وي نعم أن كثيرا من الناس قد نالوا العيش الواسع الهني. والخير المتتابع الوفي. من مورد هو بالنسبة إلى شق القلم رحب لكنه بالنسبة إلى شرهم وسرفهم ضيق واه واه غير أن الفارياب وقتئذ كان غرا لا تجربة له ولا خبرة فكان يحكم على العبيد بالقریب. ولا شيء أقرب إلى عين الكاتب من لسان قلمه وعارض قرطاسه. أو أدنى إلى قلبه من الكلام الذي يكتبه والبيب من قنع بالحرفة التي يتعاطاها ولم يشق عليه أمت الشق ولم يشترئ إلى ما ليس يحسنه شع شع.

### انتكاسة حاكية وعمامة واقية

قد كان من طبع الفارياب كما هو دأب جميع الأحداث أيضا يحاكي في الزي والأطوار والكلام من كان متميزا في عصره بالفضل والدراية. وإنه رأى ذات يوم قرزاما معتما بعمامة كبيرة مدورة. وكان هذا القرزام يحسب وقتئذ من فحول الشعراء فأحب الفارياب أن يكون له مثل هذه العمامة على صغر رأسه. فكان إذا مشى يميل رأسه منها يمنة ويسرة كالقاضي الذي يخرج في الأسواق بعد صلوة الجمعة ويسلم على الناس. واتفق أن أباه سار مرة إلى دار الحاكم واستصحبه معه وأركبه مهرة له. وكان هو راكباً حصانا. فمكثا هناك أياماً. فعن للفارياب يوما من الأيام أن يركض المهرة في الميدان وكان الحصان مربوطا في جانب. فأجرى المهرة نصف شوط حتى إذا قابلت مربوط أليفها التفتت إليه كالمشييرة إن فارسها غير حدير بركوبها بين جياد الأمير. فما كان من الفارياب إلا أن سقط على أم رأسه. وأقبلت المهرة تجري إلى الحصان وغادرته مجندلا على الجدالة. ولو كان فارسا مجيدا لما تركته على تلك الحالة بل كانت تنتظره حتى يقوم.

ثم أنه قام بعد ذلك يحمد الله على كبر عمامته فإنها هي التي وقت رأسه عن إحدى الشجرات العشر وهي القاشرة الحارصة الباضعة الدامية المتلاحمة السمحاق الموضحة الهاشمة المنقلة الآمة الدامغة. ولكنه قام محقوا ويومئذ عرف إن لكبر العمامة فضلا ومزية. وظن أن اتخاذ العمامة الكبيرة عند أهل بلاده إنما هي لوقاية رؤوسهم فقط لا لتحسين وجوههم. فإن العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه وتشوه الوجه الصغير فضلا عن كونها توجع الرأس وتمنع صعود الأبخرة من مسامه كما نص عليه الساعور الأكبر. فإن قيل إذا كان سبب اتخاذ العمامة الكبيرة إنما هو لوقاية الرؤوس لا للزينة والتحسين فمال بال الذين يرقدون ليلا

يتعممون. فهل يخافون أن تتدحرج رؤوسهم عن مصادغهم فيسقطوا في مهواة في بيتهم. مع إن فرشهم تكون على الأرض. قلت أن منشأ هذه العادة هو أن نساء تلك البلاد يتخذون في رؤوسهن هذه القرون التي يقال لها هناك طنابير. وهي تكون من فضة أو ذهب في طول الذراع وغلط الرسغ. فإذا بات الرجل مع امرأته حاسر الرأس أو كان على رأسه غطاء رقيق لم يأمن أن تنطحه بقرنها على قرنه فتمنيه بإحدى الشجاج المذكورة. فإن أبيت إلا اللجاجة وقلت ما سبب هذه القرون الحسية. هل هي دليل على التذكير بالقرون المعنوية عند مخالفة الرجل لامرأته. أو عند تقتيره عليها أو أجفاره عنها. أو هي من قبيل الزينة أو من بطر النساء وشرهن بحيث إذا شتمن رائحة الأيسار من أزواجهن رأين أن كل مجس من أجسامهن قمين بالحلي والزينة. إذ كن يعتقدن أن المستور منها عن عيون الناس غير مستور عن عيونهن وعيون بعولتهن. وإن كان في المسألة خلاف عظيم، وتحليل وتحريم. وإن في التزين بحلي غير ظاهر للذة عظيمة. فإن مجرد العلم بإحراز شيء ثمين يسر صاحبه. كما لو أحرز إنسان كترًا في حرز محبوب فإنه يفرح به من غير أن ينظر إليه. قلت إما التذكير بالقرون المعنوية فغير مظنون في نساء تلك البلاد لكونهن من ذوات العرض والتصاوان. ولا سيما نساء الجبل. وفضلاً عن ذلك فإن هرواة الزوج ومقامع أهله وأهل امرأته وعيون الجيران أيضاً تمنعها عن الاتصاف بالصفة الزوجية التامة. أما في المدن فإن هذه الصفة أقوى وأفشى. وإنما كان اتخاذ هذه القرون في الأصل منوطاً للبراقع. وكانت في مبدأها صغيرة قصيرة ثم طالت وكبرت بطول الزمن وكبر الدينار. وكلما زاد إيسار الرجل وماله زاد قرن امرأته طولاً وضخامة. وهنا فائدة لا بد من ذكرها، وهي أن لفظة القرن من الألفاظ التي اشترك فيها جميع اللغات كالصابون والقطّ والمزج وغيرها. وقد شهرت عند جميع المؤلفين بأنها كناية عن كذا وكذا من طرف زوجها. إلا عند المؤلفين من اليهود فإن الصفة القرنية في كتبهم من الصفات الحميدة. ولذلك فكثيراً ما تسمع في كتاب الزبور ارتفع قرني، وأنت رافع قرني وأني أنطح بقربي وما أشبه ذلك. وفي كلا الاستعمالين غموض وإيهام. أما غموض استعمال القرن عند المؤلفين من غير اليهود كناية عن خيانة المرأة زوجها فلان هيئة القرن على عضو مخصوص من أعضاء الإنسان. وحقيقته أيضاً لا تدل على حيوان مخصوص. فإن الثور والوعل والتميس والكركدن في ذلك سواء، ولفظه كذلك غير مشتق من فعل يشير إلى خيانة أو ضمد.

فما علة هذا الاستعمال، وقد استفتيت في هذه المسألة المشككة كثيراً من المتزوجين المجريدين. فكلهم كان يتخيف ألواناً عند سؤالي له. ويجمعهم في كلامه ويقوم من عندي وقد خجل ووجم. فإن فتح الله الآن على أحد ممن يطالع كتابي هذا في فهم حقيقة ما يراد من هذا الحرف عرفاً واصطلاحاً. وفي بيان سبب استعماله كناية عن الضمد فليفضل بالجواب منة وإحساناً. فأما استعماله من مؤلفي اليهود كناية عن



العزة والقوة والمنعة والغلبة فإنه يرد عليه ما ورد على الأول من أن كثيراً من الحيوانات قد اشترك فيه. ومنها ما هو غير ذي قوة ولا بأس. فأنظر اختلاف الناس في لفظة واحدة ومعنى واحد. أما العمامة، فإن اشتقاقها فيما أرى من عم بمعنى شمل لأنها تعم الرأس وهي على أشكال مختلفة. فمنها الحلزوني، والكعكي والإطاري، والمكوري، والمقوري، والقهقوري، والقرطلي والقبلي. وكلها على أصنافها أحسن من هذه الأجران التي تلبسها رؤساء المارونية في الدين فلينظروا وجوههم في مرآة حلية.

### نوادير مختلفة

كان للفاريق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح وإمعان النظر فيه ولالتقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب: فإن أباه قد أحرز كتباً عديدة في فنون مختلفة، وكان أي الفاريق يتهافت منذ حدثته على النظم من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة. فكان مرة يصيب ومرة يخطئ، مع اعتقاده إن الشعراء أفضل الناس وأن الشعر أجل ما يتعاطاه الإنسان. فقرأ يوماً في بعض الأخبار عن شاعر كان في حديثه أبله مغفلاً، ثم صار أمره إلى أن نبغ فينظم القصائد المطولة وأجاد، فما حكي عنه أنه سكر يوماً فقعده في نحو ناموس وجعل يخطب منه خطبة أبي العبر طرد طبك طلندي بك يك نك من البلوعة. وأنه أراد يوماً أن يتسور حائطاً ليتناول من بعض الثمر فوق في فخ كان نصبه صاحب البستان للحيوانات.. وأنه قال يوماً لأمه إن عند فلان خادمة نظيفة غسلت اليوم باب دارها فجاء أسود يلعب. وأنه رأى يوماً صبيّاً قد قلع أحد أضراسه فسار واقترض درهماً وقال للحجام اقلع ضرسى أنا أيضاً فإنه غير قاطع في الأكل. ولعل ينبت لي في مكانه ضرس أحد منه. وقيل له يوماً قد دنت عنك حكايات من حمقك كثيرة فقال بودي لو أن أحداً يقرأها علي لأضحك ومرض أخوه يوماً فقال أبوه لزوجته قد أضره الطعام الذي أكله أمس. فقال نعم قد أضر الأكل والخادمة معاً. فقال أبوه ما دخل الخادمة هاهنا. فقال لعلها أعطته ما لم يجب. ورأت أمه على ثيابه دماً فقالت له ما هذا الدم. قال قد وقعت فجرى دمي وهو أحسن. فقد يقال من وقع وجرى منه دم صح وتقوى. وجرح يده بسكين فرمى بها وقال هذي السكين لا تساوي شيئاً. فقال أبوه لو كانت كذلك لما جرحت يدك فقال كل إنسان يجرح يده في الدنيا سواء بسكين أو غيرها. وقال مرة قد رأيت في السوق جنباً أبيض كالزفت. وقيل له لم لا تغسل يدك أغسلها فتعود وسخة في الحال. ولست أقدر على تنظيفها لكون دمي وسخاً. ورأى ذات يوم رجلاً مصلوبين فقال لأمه يا أم إذا عاشت هؤلاء الرجال أيضاً أفيقدر الذين صلبوهم على صلبهم مرة أخرى. وكان قوم يسألون عن منزل شخص فقال أنا أعرف مقره. قيل كيف عرفته. قال قد رأيت الرجل يمشي في السوق

على رجليه. وقال يوماً من الثمانية إلى التسعة يمضي الوقت أسرع من الستة إلى السبعة. وقيل له أتحب اللحم أكثر من السمك قال أظن أني أحب هذا أكثر. وقال له أبوه إذا كنت تغيب عنا أفتحسن أن تكتب لنا كتاباً. قال نعم أكتبه وأجيء به أوصله إليكم. وسمع أباه يثني على حزنه اشتراه وكان به فرحاً. فقال قد كانت ساعة سعيدة إنكم لم تشتروه. ورأى أباه يكتب كتاباً فقال له هل تستطيع يا أبت أن تقرأ ما تكتبه. فقال له كيف لا وأنا الذي كتبت. قال أما أنا فلا أستطيع. ورأى أباه يتأسف على طير فقدته. فقال له بارك الله في الساعة التي طار فيها. فقال له يا أحمق إنا نتأسف على فقدته قال له ولم لم تبني له داراً. قال أو بُني للطائر دار. قال إنما أعني عودين يجعلان من هنا وهناك. ووصف مرة حيوانات رآها فقال ورأيت أيضاً خنزيراً أكبر مني وشكا وجعاً في رجله فقال ليت هذي الرجل تبلى. وكان أبوه يفسر له معنى أنقذ بأن قال له إذا وقع أحد في النار مثلاً وذهبت وأخرجته منها فلذلك هو الإنقاذ. قال ولكنه قد احترق فكيف أنقذه. وعلى فرض إنني وضعت هذا السفود في النار ثم أخرجته منها أفيكون ذلك أيضاً إنقاذاً. وفسر له يوماً آخر معنى يلوم فقال إذا أبطأ عليك شخص في شيء وقلت له لم تكاسلت فذلك يكون لوماً. فقال وأقول له أيضاً لم كبرت لم صغرت لم قصرت. ولا مته أمه على نحره عند الكلام فقال لها ألا لا تلوميني ولكن لومي روحي. وأراد أبوه أن يخرج في يوم ماطر ثم عدل خوفاً من المطر. فقال لأمه يا أمه من عمّ الله أنا لم نخرج اليوم فإن الهواء كان طيباً. واشترت له أمه ثوباً فصلته قال لها أو يزول لون هذا الثوب. قالت لا أدري. قال أرجو أن يزول فلعله يصير أحسن. وقالت له أو ان الشتاء وهو لا بس قميصاً فقط البس ثوبك فوق القميص. فقال لها لا لأني أبرد به أكثر. ولا مته أبوه على قراءته بصوت صلق فقال له لم هذا الصلق في القراءة قال لا أقدر أن أصرخ أكثر. وخفي عليه يوماً معنى الزيارة فقالت له أمه إذا سرت اليوم إلى السيدة فلانة لأنظرها فقد زرتها. قال قد فهمت إنك تسيرين إليها كي تخدعيها. وقالت له أمه إن فلانة التي تحسن إليك

قد ماتت فسكت ساعة ثم قال. قد حزنت عليها كما حزنت على موت أمي. الله يبعثها إلى الجنة هي وزوجها حالاً. وقال يوماً لوالده أن معلمنا اليوم قد اشترى قضيماً ليضرب به الأولاد ولكنهم يغضبونه عمداً حتى يضربهم به فينكسر فأستريح أنا أيضاً. وقال لأمه وقد مرضت إذا جئت بك بالطبيب ولم يشأ الله أن يشفيك فما الحاجة إلى دواء. لها مرة أخرى استعملي هذا الدواء فلعلك ترضين. وأراد يوماً أن يوقد النار فقال أردت أن أطفئها فما انطفأت. وقالت له أمه سر إلى فلانة وقل لها لأي شيء تخافين من أمي إنما هي بشر من بني آدم مثلك. فقال أقول لها تقول لك أمي لأي شيء تنفرين منها إنما هي من بني الحيوانات مثلك. وقال مرة في شيء أعجبه تبارك الله من كل عين. وقيل له يوماً أن فلاناً يريد أن يأخذك إلى مدرسته ليلملك. فقال بعثه الله إلى الجنة قال له أبوه أتريد أن تميته. قال فكيف أقول إذاً. قال أطل الله

عمره. قال طوله الله. وقال لأمه أتعطيني الليلة من تلك الحلواء. فقال الله أن عشنا إلى الليلة. قال نحن نعيش إلى غد فكيف لا نعيش إلى الليل - انتهى.

فطالع بذلك أحد الألباء في بلاده وقال له قد ظهر لي أن هذا الكلام أبله مأموه. أو مدله توه. أو مسمه مسبوه. أو عمه مشدوه. أو نمه معتوه. فكيف صار بعد ذلك شاعراً. فقال له يحتمل أن كلامه هذا كان قد تعمده ليضحك به أبويه. أو أنه كان بليد البادرة ولكنه حديد الفاكرة. فإن من الناس من يدهش للسؤال فلا يكاد يجيب إلا خطأ. فإذا عمل فكرة في خلوة أحسن كل الإحسان. أو أنه قصد بذلك أن يكون نبها مشهوراً بين الناس ولو بحماقة ورقاعة. فإن أكثر الناس يحاول الشهرة بأي وجه كان. فمنهم من يتعاطى الترجمة للكتب والتعليم وهو لا يدري شياً. ولكنه يفرح بأن يضع اسمه في أول الكتاب وبأن يحشيه بعبارات ركيكة وأقوال سخيصة من عنده أو بأن يروي عنه فيقال فلان كذا وكذا ويكون قوله خطأ وهذراً. ومنهم من يتربع في صدر المجلس بين إخوانه وإقرانه ويطلق يحكي لهم حكايات عن بلاد بعيدة ويخلط كلامه ببعض ألفاظ تعلمها من لغة العجم. فيقول لهم مثلاً صان فاصون. وباردون موسيو. ودنكوي. وفاري ول. إشارة إلى إنه أطلال السياحة في بلاد فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وتعلم لغاتهم وهو يجهل لغته التي نشأ عليها. ومنهم من يتخذ له عمامة كبيرة يضاهي بها بعض العلماء. فإن كبر العمامة يدل على كبر الرأس. وكبر الرأس يدل على جودة العقل وصواب الرأي. ومنهم من يتكلف محاكاة لهجة ما ممن عرفوا بالفصاحة فتراه يتشدد ويجمع ويستعمل ألفاظاً في غير محلها.

وبعد فلا ينبغي أن يكون الشاعر عاقلاً أو فيلسوفاً. فأن كثيراً من المجانين كانوا شعراء. أو كثيراً من الشعراء كانوا مجانين. وذلك كأبي العبر وبهلول وعليان وطويس ومزبد. وقد قالت الفلاسفة إن أول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام. فأن الشعر العلماء المتوقرين لا يكون إلا مكرزماً.

فلما سمع الفاريق ذلك زهد في الشعر ورغب عنه إلى حفظ الألفاظ الغربية لكنه لم يلبث أن رجع إلى خلقه الأول. وذلك أن أباه أخذه معه إلى بعض القرى البعيدة ليحيي المال المضروب على سكانها إلى خزنة الحاكم. فأنزله أهلها منزلاً كريماً. وكان بالقرب من منزله جارية بديعة الجمال فجعل الفاريق على صغره ينظر إليها نظر المحب الراي جرياً على عادة الأغرار من العشاق. من أنهم يبتدون العشق في جاراهم استخفافاً للطلب واستشفاعاً بالجارية. كما أن عادة الجارات تهنيء جيرانهن وتغديرهم إشارة إلى إنه لا ينبغي البحث عن الطبيب البعيد إذا أمكن التداوي عند القريب. غير أن المحنكين في الحب يبعدون في الطلب ويرودون أنزح منتجع. لأنهم لما جعلوا دأهم وديدهم إشباع النفس من هواها كان عندهم السعي في ذلك فرضاً واجباً. ووجدوا في الإبعاد والنصب لذة عظيمة. إذ من فتح فاه رجاء أن تتساقط الأثمار

فيع لم يعد إلا مع العاجزين. والحاصل أن الفاريق هوى جارته لأنه كان غراً. وإنها هي استهوته وأطعمته لكونها جارة. ولأن منزلته من حيث كونه مع أبيه كانت تميل الناس إليه. غير أن مدة إقامته هناك لم تطل. وأضطر إلى الرجوع مع أبيه وقد بقي كلفاً بالجارية. فلما حان الفراق بكى وتحسر وتنفس الصعداء. ونخره الوجد لأن ينظم قصيدة يعبر بها عن غرامه فقال من جملة أبيات.

### أعادر عندها والله روعي

### أفارقتها على رغم وأنى

وهي أشبه بنفس شعراء عصره الذين يقسمون أيماناً مغلفة بأنهم قد عافوا الطعام والشراب شوقاً وغراماً. وسهروا الليالي الطويلة وجداً وهياماً. وإنهم ناسمون وقد ماتوا وكفنوا وحنطوا ودفنوا. وهم عند ذلك يتلهون بأي لهوة كانت. ثم أنه لما أطلع أبوه على تلك البيات الفراقية لأمه عليها ونهاه عن النظم. فكأنما كان قد أغراه به. فإن من طبع الأولاد في الغالب الخلاف لما يريد منهم آباؤهم ثم أنه فصل من تلك القرية حزناً كثيراً متيماً مفتوناً.

## شروع وطنبور

قد كان أبو الفاريق آخذاً في أمور ضيقة المصادر. غير مأمونة العواقب والمصاير. لما فيها من إلقاء البغضة بين الرؤس. وشعب أهل البلاد ما بين رئيس ومرؤوس. فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز مشهور بالنجدة والبسالة والكرم. غير أنهم كانوا صفر الأيدي والأكياس والصندوق والصوان والهميان والبيوت. ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كروياً كانت لا تميل إلى أحد إلا إذا استمالها بالمدور مثلها وهو الدينار. فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه. فالسيف والقلم قائمان في خدمته. والعلم والحسن حاشدان إلى طاعته. ومن كان ذا بسطة في الجسم وفضل في المناقب فلا يفيد طوله وطوله بغير الدينار شيئاً. وهو على صغر حجمه يغلب ما كان كبيراً ثقیلاً من الأوطار ولبانات النفس. فالوجوه المدورة خاضعة له آيان برز. والقذود الطويلة منقادة إليه كيفما دار والجباه العريضة الصليطة مكبة عليه والصدور الواسعة تضيق لفقده.

فأما ما يقال من أن الدروز هم من ذوي الكسل والتواني وإنهم لا ذمة لهم ولا ذمام فالحق خلاف ذلك. أما وسمهم بالكسل فأحرى أن يكون ذلك مدحاً لهم. فإنه ناشئ عن القناعة والزهد. غير أن الصفات الحميدة التي يتنافس فيها الناس متى جاوزت الحد قليلاً التبت بنقيضها. فالإفراط في الحلم مثلاً يلتبس بالضعف. وفي الكرم يلتبس بالتبذير. وفي الشجاعة بالتهور والمغامرة. لا بل الإفراط في العبادة والتدين يلتبس بالهوس والخيال. هذا ولما كانت الدروز في القناعة إذ لا ترى من بينهم أحداً يقتحم القفار ويخوض

البحار في طلب الأزاء وفي التأنق في الملبوس والمطعوم ولا من يُسَفِّ للأُمور الخسيسة ويدنق فيها. أو من يبشر الصنائع الشاقة ظن فيهم الكسل والتواني. ومعلوم أنه كلما كثر شره الإنسان ونهمه، كثر نصبه وكده ونهمه. فالتجار من الإفرنج على ثروتهم وغناهم أشقى من فلاحي بلادنا. فنرى التاجر منهم يقوم على قدميه من الصباح إلى الساعة العاشرة ليلاً. وأما أن الدروز لا عهد لهم ولا ذمة فإنما هو محض افتراء وبهتان. إذ لم يعرف عنهم إنهم عاهدوا بشيء ثم نكثوا به دون أن يحسّوا من المعاهد إليه غدراً. أو أن أميراً منهم أو شيخاً رأى امرأة جاره النصراني تغتسل يوماً فأعجبته بضاضتها وتبيلتها وبوصها. فبعث إليها من تملق لها أو غصبها. وأنت خبير بأن كثيراً من النصاري عاثشون في ظلهم. ومستأمنون في حماهم. وأنهم لو خيروا أن يتركوا مستأمنهم هذا ليكونوا تحت أمن مشايخ النصاري لأبوا. وعندني أن من كان يرعى حرمة الجار في حرمة كان خليقاً بكل خير. ولم يكن ليخونه في غيرها. فأما ما جرى من التحزب والتألب بين طوائف الدروز وغيرهم فإنما هي أمور سياسية لا تعلق لها بالدين. فبعض الناس يريدون هذا الأمير حاكماً عليهم وبعضهم يريد غيره.

وكان أبو الفاريق ممن يحاول خلع الأمير الذي وقتئذ والياً سياسة الجبل. فأنحاز إلى أعدائه وهم من ذوي قرابته فجرت بينهم مهاوش ومناوش غير مرة. وآل الأمر بعدها إلى فشل أعداء الأمير. ففروا إلى دمشق يلتمسون النجدة من وزيرها فوعدهم ومناهم. وفي تلك الليلة التي فروا فيها هجمت جنود الأمير على وطن الفاريق ففر مع أمه إلى دار حصينة بالقرب منها لبعض الأمراء.. فنهب الناهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به أوقات الفراغ. فلما إن سكنت تلك الزعازع رجع الفاريق مع أمه إلى البيت فوجداه قاعاً صفصفاً.

ثم رد الطنبور عليه بعد أيام. فإن من نهبه لم يجد في حمله منفعة ولم يقدر أن يبيعه إذ العازفون بآلات الطرب في تلك البلاد قليلون جداً. فأعطاه لقسيس تلك القرية كفارة عما نهب. فرده القسيس على الفاريق.

وكأني بمعترض هنا يقول ما فائدة هذا الخبر البارد. قلت أن وجود الطنابير في الجبل عزيز جداً كما ذكرنا. فإن صنعة الإلحان والعزف بالملاهي يسم صاحبها بالشين. لما في ذلك من التطريب والتنصي والتشويق. والقوم هناك يغنون في الدين ويحذرون من كل ما يلذ الحواس. لذلك لا يشاءون أن يتعلموا الغناء والعزف بإحدى آلات الطرب أو يستعملوا في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشايخ الإفرنج خشية أن يفضي بهم ذلك إلى الإلحاد. فعندهم إن كل فن من الفنون اللطيفة كالشعر والإيقاع مثلاً والتصوير مكروه. ولكن لو أنهم سمعوا ما يتغنى به في كنائس مشايخهم المذكورين من الموشحات أو ما يعزف به

على الأرغن من اللحون التي ولع الناس بها في الملاعب والمراقص ومحال القهوة استجلاً للرجال والنساء، لما رأوا في الطنبور إثماً. فإن الطنبور بالنسبة إلى الأرغن كالغصن من الشجرة وكالفخذ من الجسم. إذ لا يسمع منه إلا طنطنة وفي الأرغن طنطنة ودندنة وخنخنة ودمدمة وصلصلة ودربلة وجلجلة وقلقلة وزقرقة ووقوقة وبقبقة وفقفقة وطقطقة ودقدقة وققعقة وفرقعة وشخشخة وجرجرة وغرغرة وخرخرة وقرقرة وبربرة وطبطبة ودبدبة وكهكهة وقهقهة وبعبع وبعبة وزمزمة وهمهمة وحممة وطمطة وتأتأة ودأأة وضأأة ويأبأء وقأأء وصهصلق وجلنبلق وغطيط وجخيف وفحيف وحفيف ونشيش ورنين ونقيق وطنين وعجيج وأرير ودوي وخرير وأزير وهرير وصرير وصرير وشخب وصي وموا وغاق غاق وغق غق وطاق طاق وشيب شيب ومي ميء وطبخ طبخ وقيق قيق وخازباز وخاق باق. فإن هذا كله هداك الله من طن طن. فإن قيل إن الرغبة عن العزف به إنما هو لكونه يشبه الإلية. قيل فما بال النساء يدخلن الكنائس وعلى رؤوسهن هذه القرون الفضة وهي تشبه فنيطيسة الخنزير أجلك الله عن ذكره تشبه كذا وكذا. فقد تبين لك إن اعتراضك غير وارد. وإن ذكر الطنبور كان في محله. فإن أبيت إلا العناد وتصديت لأن تخطئي وتعقبي بزلة وبغير زلة. وزمت أن تبدي للناس براعتك في الانتقاد عليّ أمسك عن إتمام هذا الكتاب. ولعمري لو إنك علمت سبب شروعي فيه وهو التنفيس عن كربك وتسلية خاطرك لما فتحت فاك عليّ بالملامة في شيء فقابل الإحسان أصلحك الله بالإحسان وأصبر عليّ حتى أفرغ من غزل قصتي. وبعد ذلك فإن لخاطرك إن تلقي بكتابي في النار أو الماء فافعل.

ولنعد الآن إلى الفاريق فنقول أنه أقام مع والدته في البيت يتعاطى النساخة. وأنه لم يلبث أن ورد عليه نعي والده في دمشق. فتفطر قلبه لهذا الفجع وود لو بقي الطنبور عند ناهبه. وكانت أمه تنفرد في كل صباح وتندب زوجها وتتحسر عليه وتذرف المدامع لفقده. فإنها كانت من الصالحات المتحبات لأزواجهن عن خلوص ووداد وصدق وفاء. وكانت تظن أن أبنها لا يراها في انفرادها حتى لا يزيد حزنها برؤيتها إياه يبكي لبكائها. لكن الفاريق كان ينظرها في خلوتها ويبكي لوحشتها ووحدها أشد البكاء. فإذا رجعت كفكف عبراته وتشاغل بالكتابة أو بغيرها. ومذ ذلك الوقت عرف أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده فعكف على النساخة. غير إن هذه الحرفة مذ خلق الله القلم لا تكفي المحترف بها ولا سيما في بلاد لوقع قرشها طنين ورنين. ولرؤية دينارها تكبير وتعويذ إلا ذلك جود من خطه ورق من فهمه.

### قسيس وكيس وتحليس وتلحيس

قرأ الفصل المتقدم ثم أتاه خادمه يدعوه للعشاء فترك الكتاب وقام يستقبل الكأس والطاس والقدرح والكوب مما اختلفت أشكاله وتفاوتت مقاديره. ثم أقبلت عليه إخوانه يسامرونه فمنهم من قال له إني ضربت اليوم جاريتي ونزلت بها إلى السوق على عزم أن أبيعها ولو بنصف ثمنها. وذلك لأنها أجابت سيدتها جواباً سخيلاً. ومنهم من قال له وأنا أيضاً ضربت أبنائي أشد الضرب لأني رأيتهم يلعب مع أولاد الجيران ثم حبسته في الكنيف وهو باق إلى الآن فيه. وبعضهم قال وأنا أيضاً خرجت اليوم على زوجتي بأن تطلعني على جميع ما يخطر ببالها ويخلع صدرها من الأفكار والهواجس. وبما تحلمه أيضاً في الليل من الأحلام التي تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام. أو من دخان الغرام قبل المنام. وقلت لها أن لم تخبرني باليقين أضريت بك أبانا القسيس فيكفرك ويحظر عليك ثم يستخرج منك كل ما تكتمين وتضمين ويطلع على كل ما تسترين وتخفين وتصونين وعلى ما تحذرين منه، وتحرصين عليه، وترتاحين له وتقبلين إليه وتكلفين به. وقد خرجت من داري غضباناً متمراً وجزمت بأن لا أصالحها إلا إذا كانت تقص عليّ أحلامها. وبعضهم قال إن مصيبي في بنيتي أعظم. وذلك إنما بعد أن تمشطت اليوم وتعصبت وتعطرت وتطييت وتوسطت وتبرقشت وتزينت وتبرجت، وتزيغت وتضرجت وتزخفت وتزيرجت وتشوفت وتسرجت وتنقشت وترقشت وتزهنعت وتبرقت وتحلفت وتزوقت وتقينت وتزلقت وتزيرقت وتألقت جلست بالشباك لتتظر الواردين والصادرين. فنهيتها عن ذلك فأنصرفت ثم خالفتني فرجعت إلى موضعها. وأوهمتني إنما تخيط هناك بعض ملبوس لها. فكانت كلما غرزت بالأبرة غرزة تنظر نظرتين. فقامت إليها مستشيطاً غيظاً وجذبها بشعرها الذي مشطته وعقصته فطلع بيدي منه خصلة وهاهي معي. وهيهات إن تنتهي عن غيها ولو نتفت شعرها كله. فإنها كالمهرة الجاحدة بغير عنان. لا يردها لكم بالأكف ولا ضرب بعيدان نعم أن من ملأ أعصاله بألوان الطعام وأذنيه بمثل هذا الكلام فلا بد وأن يكون قد نسي. ما جرى على الفاريق من الوقوع الحسي والمعنوي ومن فجعه بنعي أبيه. ومن إقباله على نسخ الكتب من ذلك جودة الخط فمن ثم اضطرت إلى الإعادة. وأزيد هنا أن أقول:

إنه لما شاعت براعته في النسخ أرسل إليه من اسمه على وزان بعير بيعر يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه. وليس الغرض من ذلك إفادة أحد من العالمين. وإنما كان إمساكاً للحوادث من أن تنفلت من مدار الأيام. أو تنفك من سلسلة الأحوال. فأن كثيراً من الناس يرون أن إحضار الماضي وجعله حالاً منظوراً من الأمور العظيمة. ولذلك كانت الإفرنج حراساً على تقييد كلما يقع عندهم. فخرج عجوز من بيتها صباحاً وعودها إليه في الساعة العاشرة وهي تقود كلباً لها. والرياح عاصفة والمطر واكف لا يفوت أقلامهم ولا يعدو خواطرهم. ففي مقدمة ديوان Lamartine أعظم شعراء

الفرنساوية الموجودين في عصرنا وهو ديوان الذي سماه التأمل الشعري ما ترجمته. وكانت العرب يدخنون التبغ في قصبات لهم طويلة وهم ساكتون وينظرون إلى الدخان متصاعداً كأعمدة زرقاء لطيفة إلى أن يضمحل في الهواء اضمحلالاً يشوق الرائي. والهواء إذ ذاك شفاف لطيف إلى أن قال: ثم أن صحي من العرب جعلوا التعبير في محال من شعر المعزي ووضعوها في أعناق الخيل وهي حول خيمني. وأرجلها مربوطة في حلق من حديد وهي غير متحركة. ورؤوسها مخفوضة إلى الأرض مظلمة بنواصيها الشعثة. وشعرها أشهب براق يخرج منه دخان تحت أشعة الشمس الحامية وكانت الرجال قد اجتمعت تحت ظل زيتونة من أعظم ما يكون. وفرشوا تحتهم على الأرض حصيراً شامياً وأخذوا في الحديث والحكايات عن البادية وهم يدخنون التبغ وينشدون أشعار عنتر وهو من شعراء العرب الذين اشتهروا بالحماسة والرعاية أي رعاية البهائم والبلاغة وقد بلغت أشعاره منهم مبلغ التنبك في الأركيلة. وحين كان يرد عليهم من الأبيات ما يؤثر في حسهم أكثر كانوا يرفعون أيديهم إلى آذانهم ويطرقون برؤوسهم ويصرخون تارة بعد تارة الله الله الله. إلى أن قال في وصف امرأة رآها تبكي عند قبر زوجها وكان شعرها مسدلاً من عند رأسها ملتفاً عليها ومماساً للأرض. وكان صدرها مكشوفاً كله على ما جرت به العادة عند نساء تلك البلاد من بلاد العرب. وحين كانت تتطأطأ للثم صورة العمامة على رجال القبر أو تصغي أذنها إليه كان ثدياها البارزان يمسان الأرض ويرسمان في التراب شكلهما كالقالب. أه صفحة 24 وسائر هذه المقدمة على هذا النمط مع انه سماها مقدور الشعر أي ما قدره الله تعالى على الشعر والشعراء.

وفي رحلة شاتوبريان إلى أمريكا وهو أيضاً من أعظم شعراء عصره ما صورته. وكان منزل رئيس الدول المتحدة عبارة عن دار صغيرة مبنية على أسلوب إنكليزي في البناء من دون خفرة عندها من العسكر ولا حشم داخلها. فلما قرعت الباب فتحت جارية صغيرة فسألته هل الجنرال في البيت فأجابت نعم. فقلت أن عندي رسالة أريد أن أبلغه إياها. فسألني عن اسمي وصعب عليها حفظه فقالت لي بصوت منخفض أدخل يا سيدي وأورد هذه العبارة باللغة الإنكليزية **Walk in sir** تنبيهاً على معرفته لها ثم مشت أمامي في ممشى طويل كالدلهيز. ثم دخلت بي إلى مقصورة وأشارت إليّ أن أجلس فيها منتظراً الخ صفحة 25. وفي موضع آخر أنه رأى بقرة عجفاء لامرأة من هند أمريكا فقال لها وهو راث لحالها: ما بال هذه البقرة عجفاء؟ فقالت له إنها تأكل قليلاً وأورد هذه العبارة أيضاً باللغة الإنكليزية وهي **She eats very little**. وفي موضع آخر ذكر أنه كان يرى كسف السحاب بعضها في شكل حيوان وبعضها في شكل جبل أو شجرة وما أشبه ذلك.

فإذ قد عرفت هذا فأعلم إن اعتراضك عليّ في إيراد ما هو غير مفيد لك لكنه مفيد لي لا يكون إلا تعنتاً فإن هذين الشاعرين كتب ما كتباه ولم يخشيا لومة لائم، ولم يعترض عليها أحد من جنسيهما. وقد اشتهر



فضلهما وصيتهما حتى أن مولانا السلطان أدام الله دولته أقطع لا مرتين في أرض أزمير إقطاعات عظيمة. ولم يسمع عن ملك من ملوك الإفرنج إنه أقطع شاعراً عربياً أو فارسياً أو تركياً مقدار جريب واحد في أرض عامرة. ولا غامرة. فأما كون وازن بعير بيعر قد حاكى الإفرنج في تاريخه وهو عربي وأبواه أيضاً عربيان وعمه وعمته كذلك عربيان. فما لم أتقنه إلى الآن. ولعلي أعلمه بعد إنجاز هذا الكتاب فأخبر به القارئ إن شاء الله. وإنما أرجو أي القارئ ألا يقطع قراءته لجهله سبب هذه المحاكاة وإن يكن العلم به مهماً.

ودونك مثلاً مما كان يكتبه الفاريق في أساطير بيعر بيعر. في هذا اليوم وهو الحادي عشر من شهر آذار سنة 1818 قصّ فلان ابن فلانة بيت فلانة ذنب حصانه الأشهب بعد أن كان طويلاً يكنس الأرض. وفي ذلك اليوم بعينه ركبته فكبا به. فإن قلت ما سبب النسبة إلى الأم دون الأب قلت أن بيعر بيعر كان من المتدينين، المتورعين المتقين. فنسبة الولد إلى أمه أصح وأصدق من نسبته إلى أبيه. فإن الأم لا تكون إلا واحدة بخلاف الأب ولكون الجنين لا يمكنه الخروج إلا من مخرج واحد، ومن ذلك اليوم نظرت سفينة في البحر ماخرة فظنّ إنها بارجة قدمت من إحدى مراسي فرنسا لتحرير أهل البلاد، لكنه عند التحقيق ظهر أنها كانت زورقاً مشحوناً ببراميل فارغة وكان سبب قدومه للاستقاء من عين كذا. فإن قيل أن هذا خلاف المعهود، فإن من شأن الكبير أن يبدو للعين عن بُعد صغيراً لا عكسه. قيل أن الإنسان إذا أعطى نفسه هواها رأى الشيء بخلاف ما هو عليه. فمن أحب مثلاً امرأة قصيرة لم ير بها قصراً. ومنحلا بمحبوبته في فترة رآها أوسع من صرح بلقيس. فإننا نرى النور الصغير عن بُعد كبيراً. فلا غرو أن يبدو الزورق بارجة أو شونة. فإن القوم هناك ما زالوا يحملون بأن رؤوسهم قد تبرطلت ببراطل الفرنسية ولحموا عرضهم بعرضهم حتى يروا نساءهم كما قال الشاعر:

**بلحظ أو بلفظ في المسالك**

**تصيد طبأونا الأسد الضواري**

**بذئب معا وبالأيدي كذلك**

**وغزلان الفرنج تصيد أيضاً**

وكان بيعر بيعر سُتْهُمَا جَعْظَرَا أُحْرِقَهُ. لكنه كان حليماً يجب السلم والدعة. وكان من التغفل على جانب عظيم. فكان مفوضاً أموره المعاشية إلى رجل لثيم شرس الأخلاق عيده به كبر وعنجهية وعجرفة وتفجّس وغطرسة. وكان تمضي عليه الساعة والساعتان وهولا بيدي ولا يعيد. فيظن الغر أنه معمل فكره في تدبير الدول. أو تلخيص النحل. فقد جرت العادة بأن الرجل إذا كان ذا منزلة رفيعة فإن كان عيباً مفحماً عُدَّ رزيناً وقوراً. وأن يك مهذاراً عد فصيحاً. فأما أموره المعادية فإنها كانت تعلو وتسفل

وتضوي وتجزل وتفتق وترتق بتدبير قسيس ذي دعابة وفكاهة وبشاشة وهشاشة. قصير سمين. أبيض بدين. وكان هذا القسيس الصالح قد تمكن من حريمه تمكناً لا يباريه فيه النسيم. وألقى عصاه عند إحدى بناته وكانت ذات وجه وسيم ومنطق رحيم. وكانت تزوجت برجل قد جُنّ وتخل فخلته وجنونه واعتصمت بعقوة أبيها فكان القسيس آمراً عليها مطاعاً. ناهياً وزاعاً فكانت كلما دخل فيها شيء أخرج منها شيء تطالعه به لأنها كانت ممن فقط قطري الدين والدنيا معاً. وكانت تعترف له بجرائرها في الخلوة. وهو يسألها عن كل زلة وهفوة. فيقول لها هل تنذبذب أليتك وبترجرج نديك عند صعودك الدرك أو عند المشي. وهل يحدث فيك هذا الارتجاج من لذة. فقد ورد في بعض الأخبار أن بعض الجلامطة كان يرتاح إلى أي ارتجاج كان. حتى كان كثيراً ما يتمنى أن تتزلزل الأرض من تحته. وتقوم الجبال من فوقه. وهل يمثل لك في الحلم ضجيع يكافحك. وخليع يصافحك إذ لا فرق عند الله بين البيضة والمنام. وأن أعظم الحقائق إنما بني على الأحلام. وهل وسوس إليك الوسواس الخناس فاشتتهيت أن تكوني خنثى، أي ذكراً وأنثى لا ذكر ولا أنثى كما تقول العامة. فإن هذا القول لم يرتضه المحققون من الربانيين اللاتين وغير ذلك من الوسائل التي يضيق عن تفصيلها هذا الفصل. وكان أبوها لا يسيء به الظن لما تقرر عنده من أن كل من لبس السواد فهو من الفاطميين أهواءهم عن اللذات الخاصين أنفسهم عن الشهوات حتى أنه نظر يوماً في بعض الكتب هذا البيت وهو:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا      أَفَأَوَيْقَ حَتَّى مَا تَدَّرَ لَنَا ثَعْلَ

فظن أنه تعريض بهم وتلميح إليهم. فأمر بإحراقه فأحرق وذرى رماده. ورأى يوماً آخر بيتين في كتاب آخر وهما:

مَا بَالُ عَيْنِي لَا تَرَى مِنْ بَيْنِ مَنْ      لِبْسُ السَّوَادِ مِنَ الْعِبَادِ نَحِيفاً  
مَا كَانَ مِنْ لَحْمٍ وَشَيْءٍ غَيْرِهِ      فِيهِمْ فَأُصْلَبُ مَا يَكُونُ وَقَوْفاً

فأمر أيضاً بإحراق الكتاب. وبعث جواسيس في البلد يتجسسون عن مؤلفه ونودي في الروابي والوهاد. ألا من دل على مؤلف كتاب كذا فإنه يجزي أحسن الجزاء. ويرقى إلى رتبة سنية. فلما سمع المؤلف بذلك اضطر إلى الاختفاء مدة حتى تُسي اسمه. فإن قلت أن هذا الفعل خلاف ما وصفته به من الحلم قلت إن عادة أهل تلك البلاد أن الحلم يكون محموداً في كل شيء إلا في أمرين حرمة العرض وحرمة الدين فأن الأخ ليبسل أخاه إلى الهلكة من أجلهما. ثم أن الفاريق أقام عند هذا الحليم مدة لم يحصل فيها على طائل. وكانت نفسه عزيزة عليه فلم يرد أن

يسأله. فمن ثم جمع ذات ليلة حطباً وتبناً كثيراً وأطلق فيهما النار فانبعث اللهب نحو مقصورة بغير بيعر، فظن أن النار قد سرت في قصره. فاستوشى القيام والقيود فأقبلوا يتسابقون إلى موضع النار. فرأوا الفاريق يزيدها من الحطب الجزل فسأله عن ذلك فقال أن هذه النار من بعض النيران التي تنوب عن اللسان. وأن لم يكن لها صورة لسان. وإن لم يكن لها صورة لسان. ومن فوائدها إنها تنبه الغافلين وتذكر الباخلين. أن وراءها لقولاً شديداً ولساناً حديداً. فقالوا ويحك إنما هي من بدعك أو يكلم أحد بالنار. لقد سمعنا إن الإنسان يكلم غيره ببوق أو بقرع عصا أو بإشارة إصبع أو بغمز عين أو برمز حاجب أو برفع يد من عند الإبط. فأما بالنار فبدعة وضلال. وكادوا أن يبدعوه ويكفروه وينسبوه إلى التمجس ويطرحوه النار. لولا أن قال قائل منهم. ردوا الجواب على مرسلكم. ولا تفعلوا شيئاً عن تهوك. فلما أخبروه بما رأوا وسمعوا. استرآه واستنطقه عن ذاك الأجيح. فقال أصلح الله المولى. وزاده فضلاً وطولاً. قد كان لي كيس لا ينفعني ولا أنفعه. والأكياس ولما جاء على وزنها ورويتها عادة مخالفة لسائر العادات وهي إنما إذا خفت ثقلت. وإذا ثقلت خفت. فلما خف كيسي في جوارك السعيد أي ثقل أحرقته بهذه النار. وإنما جعلتها عظيمة هكذا لأني كنت أتوهمه كرضوى في جيبي. حتى إنه كثيراً ما منعني عن النهوض والخروج لحاجة مهمة فلما سمع قوله ضحك من خرافته ورضخ له من كفه الجامدة شيئاً يقابل ما كتبه له الفاريق في أسفاره في الحساسة. فأقبل يحنش إلى بيته وإلى أن لا يكتب شيئاً بعد ذلك إلا ما طاب موقعه. وجل نفعه. رجاء إن تكون الأجرة على قدر العمل. وهيئات فإن أكثر الناس نفعاً وشغلاً. أقلهم أجراً وجعلاً. ومن لم يحسن إلا التوقيع. احل المحل الرفيع. ولقمت يده وقدمه كما يلقم الثدي الرضيع.

## طعام والتهام

بينما كان الفاريق رأسه ورجلاه في البيت كان فكره يصعد في الجبال. ويرتقي التلال. ويتسور الجدران. ويتسنى القصور ويهبط الأودية والغيان ويرتطم في الأوحال. ويخوض البحار. ويجوب القفار. إذ كان أقصى مراده أن يرى غير منزله وناساً غير أهله. وهو أول عناء الإنسان في حياته. فعن له أن يزور أحاً له كان كاتباً عند بعض أعيان الدروز. فسار وحقائبه الأمانى. فلما اجتمع به ورأى ما كان عليه القوم من الخشونة والتقصير ومن الأحوال المغايرة لطباعه. أنكر بعضها ووطن نفسه على تحمل البعض الآخر. ولم يشأ وشك الرجوع من دون تفصي معرفتهم. ولو كان رشيداً لصرف نفسه عن هواها من أول يوم. إذ ليس من المحتمل إن أهل مدينة أو قرية يغيرون أخلاقهم وما ربوا عليه لأجل غريب دخل فيهم. ولا سيما إذا كانوا شياظمة ذوي بسطة وبأس. وكان هو قميماً. ولكن الإنسان كلما قل شغله كثر فضوله فلا

يكتفي بمجرد ما يسمع بإذنه حتى يرى بعينه. وكان الفاريق كلما زاد بهؤلاء القوم خيرة ونقداً. زاد أعراضاً عنهم وزهداً لأنهم كانوا غلاظ الطباع. بهم جفاء وإفظاع. وسخي الوساد والملبوس. ملازمي الضعف والبؤس. وأقذرهم كان طباخ الأمير فإن قميصه كان أتنن من المحاة. وقدميه أقلتا من الوسخ ما لا تكاد تكشفه عنه المسحاة. وكانوا إذا قعدوا للطعام سمعت لهم زمزمة وهمهمة. وقعقة وطعطة. فخلتهم وحوشاً على جيفة يثرملون ويرهطون وينهسون ويتعرقون ويتمششون ويتلمظون ويتمطقون ويلوسون ويلطعون ويتنطعون وكل ذلك في فرشطة خفيفة. فكنت ترى في جبهة كل منهم مضمون ما قيل من لفلف. لم يتقصف. فإذا قاموا رأيت الرز مزروعاً في لحاهم والوضر متقاطراً من كساهم. فكان الفاريق إذ آكلهم قام جوعاناً. ومعت أمعاؤه في الليل. فبات سهراناً. فكان يقول لأخيه عجباً لمن يعاشر هؤلاء الناس. من الأكياس. ما الفرق بينهم وبين البهائم. سوى باللحى والعمائم. لا جرم إنهم عائشون في الدنيا لسد بصائرهم وأفكارهم. ولفتح أفواههم وأدبارهم لا يكاد أحد منهم يظن أن الله تعالى بشراً إلاً وكان دونه وما يدرون إن الإنسان ليس له بمجرد النطق فضل على العجماوات ومزية على الجمادات. فإن الكلام إنما هو مادة لصورة المعاني. ولا تنفع المادة وحدها إذا لم تحل فيها الصورة التي هي الوجود الثاني. وقد يقال إن الرقين. تغطي أفن الأفين. وهؤلاء قد حرموا من العقل والنعمة. ورضوا من الكون كله بالنسمة. كيف تطيق إن تعاشر هؤلاء الهمج وفضلك بين الناس قد بلج. فقال له أخوة إن كثيراً ليحسدوني على مكاني عند الأمير. وإني لكيد حسادي أصير على العسير كما قيل.

لفاعلها نعيم وهي بؤس

وكم أشياء يحسبها أناس

لأنكر ذكرها وبه عبوس

ولولا إن يكيد بها حسوداً

وفضلاً عن ذلك فإن القوم ذوو نخوة ومروءة. وشهامة وفتوة. وإنهم وأن يكونوا سيئي الأدب على الطعام. فهم متأدبون في الفعال والكلام. لا ينطقون بالحنى ولا يعرف بينهم لواط ولا زنا. غير إن الفاريق كان يرى كله في المأدبة فكأنه كان قد تخرج على بعض الإفرنج أو كان فيهم نسبة. فمن ثم استدعى بقريحتته على هجوم فلبته. ونادى القوافي لوصفهم فأجابته. فنظم فيهم قصيدة بين فيها سوء حالهم وخشونة بالهم. من جملتها

وسلاحه الماضي فأين المطعم

في ثغر كل منهم سكين

ثم عرضها على أخيه وكان مشهوداً له بالأدب. وعلم لغة العرب. فاستحسنها منه على صغر سنه. وأعجب ببراعة فنه. ثم لم يلبث أن اشتهر أمرها وشاع ذكرها. وذلك لأن أخاه من شدة إعجابه بها تلاها على كثير من معارفه فبلغها بعض الحساد إلى أمير الناد. وكان هذا المبلغ نصرانياً فإن الحسد لا يكون إلا

عند النصارى. مع أن كثيراً ممن تليت عليهم من الدروز كانوا داخلين في عداد المهجوين.

فلما سمع الأمير بذلك استاء جداً وقال لأخيه. تالله لقد جاء أخوك أمراً فرياً. كيف يهجونا وهو ضيفنا وقد أنزلناه منزلاً كريماً. وسقنا إليه رزقا عميماً. لعمر الله لئن لم يتدارك هجوه بقصيدة مدح لأغيظنه. وكان هذا الأمير متصفاً بصفات العرب في الفروسية والنجدة. وفي شراء الحمد جهده غير إنه كان يكل الأمور إلى المقدور. ولا يهتم ترتيب حاله. والنظر في ماله. ثم حشي من أن يكون هذا الوعيد أدعى إلى زيارة المهجوم إذا فصل عنه الفاريق وهو مغيط. فرأى أن الإغضاء أجلب للإرضاء. وإن التملق أوفق للتلفق. فمن ثم سار صديقاً له من علماء ملته وفضلاء نخلته إن يصنع مآدبة ويدعوه إليها والفاريق وأخاه. فلما جمعهم النادي. وجيء بالحلواء على أطباق كالهوادي. أقسم الأمير قائلاً والله لا أذوقن من هذا شيئاً أو ينظم أبو دلامة يعني الفاريق بيتي مديح ارتجالاً. فأبتدر وقال بديها.

يهجو لأن الهجو وفق جنانه

قد كان طبع أبي دلامة إنه

مزحت حلاوته بمر لسانه

لكنما هذا الخبيص نهاه إذ

فجن الحاضرون استحساناً لهما. حتى الأمير لم يتمالك إن صافح الفاريق وقبله بين عينيه فانعقدت بذلك المواعدة ورجع كل راضياً. وقفل صاحبنا إلى بيته. وآلى إن لا يعقد فيما بعد ناصيته بذنب أحد من كبراء الناس. وإن يسد أذنيه عن صوت صيتهم غلب على الأجراس.

### حمار نهاق وسفر وإخفاق

ثم لبث الفاريق يتعاطى حرفته الأولى ومل منها ملل الليل من الفراش. وكان له صديق صدوق يراقب أحواله. فأجتمع به مرة وخاضا في حديث أفضى إلى ذكر المعاش. والتظاهر بين الناس بأحسن الريش فقر رأي كل منهما على إن الإنسان في عصرهما لا يعد إنساناً بفضله ومزيتته. بل بيزته وزينته. وإن الناس المولودين من الخز والحريز والقطن والكتان المعلقين في أوتاد حوانيت التجار أعظم قدراً من الناس الماشين العارين عنها. وإن المرء إذا كان ضيق الصدر والرأس بحيث يكون واسع السراويلات واللباس كان هو النبه الآفق المشار إليه بالبنان. المحمود بكل لسان. فأجمعا رأيهما على أن يستبضعا بضاعة ويقصدا ترويحها في بعض البلاد استطلاعاً لحال أهلها وتفرجاً من كرب بالهما. فاكتريا حماراً لحمل البضاعة وهو لا يستطيع حمل جثته من الهزال والضوى فضلاً عن علاوته. ولم يكن قد بقي فيه شيء شديد سوى نهاقة

وزعاققة. فالأول للإسعاف. والثاني لمن ينخسه أو يلقي عليه الأكاف. ثم سار وهما يفصلان ثوب النجاح على قامة الآمال. ويقدران بساط الفوز على ندحه الآجال. فما بلغا طيتهما إلا والحمار على شفا جرف هار من رمقة. والفاريق أيضا زاهق الروح من تعبته وقلقله. نادم على ترك القلم الضئيل. مع ما كان ينفث به من الرزق القليل. ويومئذ عرف عاقبة الجشع وتبعة الرثع. وظهر له سفاه رأيه في الشراهة إلى ما يوجب نصب الأبدان. ولبال الجنان. غير أن اللبيب من استخراج من كل مضرة منفعة. ومن كل مفسدة مصلحة. حتى إن في فقد الصحة لنفعا لمن رشد. وخيرا لمن قصد. إذ العليل وهو ممدود على وسادة. تقصر نفسه عن التماذي في فساده. وفي شهواته المنكرة وأهوائه الموبقة. فتقوى بصيرته والمرض ناهكه. ويملك سداده والألم مالكه. ويرضي الله والناس بما هو سالكه. وهكذا كانت حال الفاريق. بعد مقاساته تلك المشاق. فإنه لما أحس بضنك السفر. ولقي منه ما لقي من الضرر. تبين له إن شق القلم أوسع من حقائب البياعة. وإن سواد المداد أبهى من ألوان البضاعة. وإن في ترويح السلعة لمعرة دونها معرة الغدة والسلعة فجزم بأنه عند الإياب إلى وطنه يرضى بلين العيش وخشنة. ولا يبالي إن يكن ذا شارة رائعة أو طلالة رافعة. أو معيشة واسعة. بحيث لا يجوب أمصاراً. ولا يتلوا حماراً. أما وصف الحمار على أسلوبينا معاشرا العرب فإنه كان زبونا بليداً. حرونا عنيدا. تارزا قديدا. لا يكاد يخطو إلا بالهرواة. وإذا رأى نقطة ماء في الأرض ظنها بحرا ذا طفاوة فأجفل منها إجفال النعام. ووجل كما يوجل من الحمام. وإما على الطريقة الإفريقية فإنه كان حمارا ولد حمار وأمه أتان من جيل كلهم حمير. وكان لونه يضرب إلى السواد. ومس شعره كمس القناد مصلهم الأذنين ولا نشاط. أعسم الرجلين بادي الأمعاط. أدرم أفوه. أد لم أقره. يفرح في بسه. ويرفس عند نخسه. ويكرف ويتمرغ. ويشغ ويدغ لا تحيك فيه العصا. ولا يعمل فيه الزجر إذا عصى. ولا يتحرك إلا إذا أحس بالعلف وأن يكون زؤانا. ولا تظهر فيه الحيوانية إلا إذا رأى أтана. فيريك ح سموها واستنانا. ونشاطا وصميانا، حتى كثيرا ما كان يقلب حمله. ويفسد عدله. وفيه حلة أخرى وهي أنه كان دائم الأحداث على قلة أعمال ضرره! مواصل الغفق في النجوة والخفق زيادة على نخسه فإن منشأة كان في بلاد يكثُر فيها الكرب والفجل والسلجم. واللفت والقنبيط كبعض بلاد العجم. فل هذا اعتاد على إخراج هذه الرائحة من صغره. وزادت فيه بازدياد عمره. فكان لا بد للماشى خلفه من سد أنفه والإكثار من أفه. وفي كلا الوصفين فإن رفقة هذا البهيم لم تكن أقل أذى من السفر الأليم.

وأنه بعد جولان عدة قرى ليس فيها من مأوى ولا قرى. وبعد مجادلات مع الشارين طويلة. ومحاولات ومصولات وبيلة قنع الفاريق وشريكه من الغنيمة بالإياب. ورضيا باللقاء والعود إلى المآب. وعلمنا إن

البئر الفارغة لا تملئ من الندى. وإن التعب في تجارتهما يذهب سدى. فتسبب في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بهما من ينظرهما راجعين بماهيتهما. وباتا تلك الليلة خالي البال من القليل والقال. فإن من الناس من لا يعجبه شراء شيء إلا بعد تقليبه. وبعد تحقيق بائعة وتكذيبه. فلا بد للبائع من أن يكون عن مثل هؤلاء متصاماً متغافلاً متعامياً متساهلاً. وتلك خلة لم تكن في الفاريق ولا في صاحبه. فإن كلا منهما كان يحاول استمالة الكون إلى جانبه. ثم إنهما رجعا بضمن البضاعة وبالحمار وسلموا المال لصاحبه. فعرض عليهما سلعة أخرى فأبيا. وتوعدا أن يجتمعا مرة أخرى للشركة في مصلحة أهم. وآثرا أن تكون في البيع والشراء. وقد جرت العادة بين الناس بأنه إذا تعاطى أحد عملاً ولم ينجح به أول مرة لج به الشره إلى معاطاته مرة أخرى. إذ ليس أحد يرضى لنفسه نخس الطالع وشؤم الجد. وإنما ينسب حرقه فيما احترق به إلى بعض عوارض وطوارئ حدثت له. فيقول في نفسه لعل هذه العوارض لا تقع هذه المرة. وعلة ذلك كله اعتماد الإنسان على رشد نفسه وثقته بسعيه والركون إلى حدسه. وقد تهور في ذلك كثير من الخلق. وأكثرهم جنى على نفسه في التهافت على الرزق.

### خان وإخوان وخوان

ثم إنه بعد مذاكرة طويلة بين الفاريق وصاحبه قرّر رأيهما على أن يستأجرا خاناً مدينة الكعيكات. حيث ترد القافلة منها إلى مدينة الركاقات فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والأدوات ولبثا قسه يبيعان ويشتریان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه. فلم تمض عليهما وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين. وعرف رشدها جميع المسافرين. فكان الناس يقصدونهما لاقتصادهما. وكثيراً ما أُنْتَابَ خانهما أهل الفضل والبراعة، والوجاهة والاستطالة. حتى كأنه كان حديقة يتفرّج فيها الميكروب.

وعادة أهل ذلك الصقع أنهم لا يكادون يجتمعون في محل إلا ويتنازعون كاس البحث والمناظرة. ويخوضون في أمور الدنيا والآخرة. فإن أثبت أحد شيئاً نفاه الآخر. وإن استحسنه استهجنه وزعم أنه من المنكر. فيتحزب القوم أحزاباً قَدَدًا. ويمتلئ المكان صخباً وإدداً. وربما انتهى البحث إلى التفاخر بالنسب، والتكاثر بالحسب. فيقول أحدهم مثلاً لقريته: أترد عليّ وأبي ندسم الأمير وأكيله وشريه وجليسه وأنيسه وخصيصه ونجيه. لا يقضي ليلة من الليالي إلا ويستدعي به لمسارته. ولا يحكم بشيء إلا بعد مشاورته. وقد عرف أهلي من قديم الزمان بأنهم سُفراء البلاد، ونواميس الأبحاد. وما أحد من الناس ماجدٌهم ولا شارفهم ولا كآثرهم ولا فاخرهم ولا فاضلهم إلا وعاد ممجوداً ومشروفاً ومكثوراً ومفخوراً ومفضولاً وربما أعملت بعد ذلك المراوات. وقامت مقام البيئات. فيتنمر منهم من لم يكن ويربد من سكر، ومن لم يسكر.

فينتهي الأمر إلى أمير الصَّقْع. فيبعث عليهم مصادرين ذوي صقع. وويل لمن يكون قد ذكر اسم الأمير وقت الجدل. فإن عفوه حينئذ من المحال. فأما في الحوادث العظيمة فإن المتعدي إذا فرّ من القصاص أخذ بذنبه أحد أهله أو جيرانه أو ماشيته أو ماعونه وقطع شجره وأحرق منزله. غير أن زمرتنا هذه لم تكن تتعدى حدّ الجدل إلى القتال. فإن الفاريق وصاحبه كانا يقومان فيهم مقام فيصل. فمن هذه الحثيثة كثر الوفود عليهما. وكثيراً ما بات عندهما أصحاب العيال والراح عليهم دائرة. والأغاني متواترة. والوجوه ناظرة والعمائم متطايرة. فكان ذلك داعياً إلى خصام النساء مع بعولتهن. ومن طبع النساء عموماً إنهنّ إذا علمن أحداً يعوق أزواجهنّ عنهنّ أضمون أن يتقربن إلى ذلك العائق ببعض حيلهن. فإن كان ممن يعشقن صفقن له حالاً على المقايضة والمبادلة أخذاً بثأرنهن. فجعلهن من كل عضو منه بعلاً. ومن كل شعره خلاً. وإن كان ممن تبذاه العين رمينه بداهية وتحيلهن في خلاص بعولتهن منه وردّ بضاعتهم إليهن. غير إن نساء تلك البلاد لا يخاصمن بعولتهن وهن مضمرات خيانتهم أو مستحلات استبدالهم. فإنهنّ ربيّن على محبة آبائهن وعلى طاعة بعولتهن. وما خصامهن لهم الأعتاب. وكن في العتاب من لذة ولم يسمع عن واحدة منهن إلى الآن إنما خاصمت زوجها لدى حاكم شرعي أو أمير أو مطران. مع أن كثيراً من هؤلاء الأصناف الثلاثة يتمنون ذلك في بعض الأحوال أما للافتخار بأجراء العدل والأنصاف في رعيتهن أو لعلّة أخرى.

ومن طبع هؤلاء المخلوقات المباركات سلامة النية وصفاء العقيدة والتقرب إلى الرجال لا عن فجور فترى المرأة منهن متزوجة كانت أو ثيبة تجلس إلى جانب الرجل وتأخذه بيده وتلقي يدها على كتفه وتسند رأسها على صدره وتبسم له وتؤانسه في الحديث. وتتحنن ببعض ما تصل إليه يدها. كل ذلك عن صفاء نية وخلوص مودة. وأحسن ما يرى فيهن البلاهة والغربة فإنهما في النساء من النكر والدّهاء. هذا إذا كان في غير ما يشين العرض وينتهك الحرمه. فأما في وقت الجد فلا تصح البلاهة. هذا ولما كان من دأبن أن يكشفن عن صدورهن ولا يرفعن أثداءهن من صغرن بشيء أكثرهن هُضلاً أي ذوات أثداء طويلة. وأكثرهن يعتقد أن في طول رضاع الولد زيادة صحة له. فمنهن من ترضع ولدها عامين تامين. ومنهن من تزيد على ذلك أما محبتهم لأولادهم ورفقهم بهم وشوقهم إليهم فيجلّ عن الوصف. وأعرف كثيراً من البنات كنّ يكيّن يوم زواجهن على فراق آبائهن وأمهاتهن وأخواتهن كما يبكي غيرهن في المأتم أو أشد.

فأما ما يقال من أن البعولة يأكلون وحدهم دون نسائهم فكلام لا أصل له. وإنما يكون ذلك إذا كان عند الرجل ضيف غريب حتى لو أراد حينئذ أن تقعد امرأته مع الضيف لتأكل معه لأبت ورأت أن ذلك يكون استخفافاً بها وانتهاكاً لحرمتها. وفي الجملة فإنهن لا يُعَبْن بشيء إلا بالجهل وهن في ذلك



معذورات. فأما الجاهلات من الإفرنج فإنهن يصفن إلى الجهل مكرراً وخبثاً. وناهيك بذلك من سبّه. وإني ليحزني جداً أن أسمع إن هؤلاء المحبوبات قد ملن من هذه الفضائل وتخلقن بأخلاق أخرى. فيجب عليّ والحالة هذه أن أغيّر ما وصفتن به من المحامد أو أن آذن للقارئ في أن يكتب على الحاشية كذب كذب كذب أو هذين البيتين:

يملن من حيث أتاها الهوى

إن النساء حيثما كنّ سوى

ولا هدى ولا نهى ولا حياء

لا يغررن الغرّ منهنّ تقي

أو هذين

سرّ مضرب الأرض في طول وفي عرض ترى النساء يبعن العرض كالعرض  
بالرجل يصفقن عند البيع لا بيد وكل قاض على تسجيله يمضي

أو هذين

تبدو وتخفي فأرجعون وصالها

وإذا رأيت من الخرائد غادة

لتكون قاضيتها فرج ما.....

وإذا دعتك لحاجة عنّت لها

أو ما قاله دعبل

قول تغلظه وإن جرّحاً

لا يؤيسنك من مخدرة

والصعب يمكن بعد ما جمحا

عسر النساء إلى مياسرة

واعلم أن البلاد التي يتجر فيها بعرض النساء بغير مانع إلا بمكس عليه قليل يدفع لبيت المال لبناء معابد وغيرها دون اعتبار لقول من قال أمطعمة الأيتام الخ. يقلّ فيها التغزل بمن. فإن الرجل هناك أيان الرجل خطر بباله أن رؤية الوجه الصبيح تنفي همّه وتزيل بلباله. وتخف أثقاله. وتنفس عنه كربه وتجلو صدى قلبه وتصفى دمه. خرج فوجد ضالته تنتظره وراء الباب. فلا يحتاج عند ذلك إلى شكوى وعتاب وتواجد. وإلى قوله أرق على أرق ومثلي يأرق. وكفى بجسمي نحولاً إني رجل. وذبت وجداً وغراماً ونحو ذلك. فأما البلاد التي يحظر فيها هذا فتجد الكلام في النساء متجاوزاً به وراء الحد. ولذلك كان في شعر الإفرنج الأقدمين من المجون ما تجده في كتب العرب. وما إلا لأن هذه البياعة كانت وقتئذ ممنوعة. فلما كثرت قلّ عندهم المجون. أما في الجبل فإنك لا تجد لهم بياعة ولا مجوناً. وحكى عن الفاريق إنه هوى واحدة من أولئك اللاتي كن يترددن عليه ولم يكن يحظى إلا بلثم أخصصها فكان إذا أصبح يقول لصاحبه.

إن المقبل رجلها ليجل عن

تقبيل راحة قسّه وأميره

هن الفواتن للخلي فشعرة

منهن خير من كنوز غروره

## محاورات خانية ومناقشات خانية

لا بأس في أن نذكر هنا مثلاً لما كان يقع بين تلك الزمرة من المحاورات فنقول اجتمعت زميرتنا هذه مرة والكأس تدار عليهم. والسرور يرقص بين أيديهم. فقال أفصحهم مقالاً وألدهم جدالاً إي الناس فيما علمتم أنعم بآلاً وأحسن حالاً فقال من بيده الكأس هو من كان على مثل هذه الحالة. وفي راحته ذي الآلة. فقال له ليس ذلك على الإطلاق. ولم يقع عليه اتفاق. فإن هذه الحالة لا يمكن كونها دائمة. فتكون غبطتها غير تامة. وإنما هي بعض من كل وحز من جُل. وبقي النظر في الباقي. ولا خفاء أن مداومة المدام تورث السقام وتقهي عن الطعام. ولذلك سميت القهوة ولا يعتادها إنسان إلا حلت به الشقوة. فقال آخر إن النعم الناس بآلاً أمير يجلس على أريكته وتحفه جماعة من حشمته وحفدته يأتيه رزقه رغداً. ويكفيه رازقه في المعيشة جهداً فإذا أوى إلى حريمه خلا بأزهر امرأة على أوطأ فراش فصدق فيه قولهم. أعجب الأشياء وثّر على وثّر. هذا وإن أكله المرازمة. وثيابه الناعمة. وأمره مطاع. وحكمه مقابل بالاتباع. فقال بعضهم ليس كذلك. وما الحقّ فيما هنالك. فإن الأمير لا يخلو بامرأته إلا وهو مشغول الخاطر مكدر السرائر إذ لا يزال يفكر في كونه مخوناً بماله. مغشوشاً من عماله. يأكل رهطه رزقه ويذمونه. ويأتمنهم فيخونونه. ويعطيهم فييخلونه. وهو مع ذلك مرصود منهم فيما يفعل. منتقد عليه بما يتعلمه. وأنه لا يود السفر ولا يتاح له ويتمنى رؤية غير بلاده. ولا يدرك أمله. فهو يحسد من يمشي في الأرض سهلاً. ويغبط من يعتسف في الطريق ضللاً.

فقام بعض النقاد. وقال سمعاً يا أهل الرشاد. أن أسعد خلق الله راهب لزم كتابه في صومعته وتفرغ عن الشغل بعقاره وضيعته. فهو يأكل من أرزاق الناس. ويعوضهم عنه دعاء يطفح من أصمار الكأس. ويغنيهم في الدياجي عن النبراس. ويركب ما لديهم من النجائب. فهو كما قيل أكل شارب. ثم ما عليه بعد ذلك أن خرب الكون أو عمر. وإن مات الخلق أو نشر. فقال بعض ذوي الرشاد. ما هذا القول من السداد. فإن الراهب وأمثاله إذا رأى الناس مقبلين على أعمالهم. مشتغلين بأشغالهم. لم يرض الدناءة لنفسه أن يعيش من كدهم. ويستريح على تعبهم وجهدهم. ويتحين أوان رفدهم. بل يود لو كان شريكاً لهم في أتعابهم. أخرى من أن يكون شريكاً في مصوناتهم. هذا إذا كان نزيه النفس. كريم القنس. صادق

السعي. ضابط الوعي ثم أن له عند رؤية الرجال مع نسائهم وأولادهم لغصات. وحسرات وأي حسرات. ولا سيما إذا خلا في الصومعة. ورأى أن سمنه ذاهب سدى من غير منفعة. وإن غيره ممن أضواهم الكد والنصب. وأجاعهم الجهد والتعب أقدر منه على بلوغ الأرب. مما أصطلح عليه سائر خلق الله من عجم وعرب.

فقال من استوصب مقاله. وأرتاح لما قاله. هذا لعمرى هو الحق المبين. فإن الراهب ومن أشبهه حري بأن يعد مع الشقيين.

وإنما يظهر لي أن أسعد الناس عيشاً هو التاجر يقعد في حانوته بعض ساعات من يومه فيكسب بإيمانه المغلظة في ساعة واحدة ما ينفقه في شهره. يجعل الكاسد من سلعته بتكرير كلامه نافقاً. والدون فائقاً. ثم هو أن آوى إلى منزله ليلاً. أصاب في خدمته دعد وليلي. فهو في نهاره كساب للمال. وفي ليلته منفقة على ربات الحجال. فقال من انتقد كلامه. وتبين ذامه. إن التاجر لا تمكن له هذه العيشة الراضية. ولا تمنؤه هذه النعمة الزافية. إلا إذا كان قازبا ذا معاملات في البلاد القاصية. وركوب للأخطار. واقتحام للأوطار. ومتى كان كذلك نقص من رغده وافر تحشمه وكده. ونغص من لذاته تعدد بغياته. وملا خاطره أشجاناً. ما حاوله ليرضى به زبوناً وأخواناً فكلما هبت ريح خشبي على سلعته في البحر. وكلما جشر صبح أوجس من ورود قادم يخبره بشر. أو مالكة تنبي عن تلف وخسر. وكساد وحظر. فهو لا يزال في أعمال نظر. وتجرع آسف وكدر. فقال بعض السامعين إنك لمن الصادقين. أما أنا فلا أود أن أكون ذا تجار. ولو ربحت في كل يوم مائة دينار. لما يتعقب هذه الحرفة من القيل والقال. والتكذيب والمحال. والمحاولة والمكر. والمداهاة والنكر. فضلاً عن اقتصاري في الحانوت ربع عمري. ولا علم لي بما يجري في وكري. فلعل رقيباً يخالفني إلى داري. وأنا إذ ذاك أكذب على الشاري وأماري وأجامل وأداري. ففي عنقي حبل الإثم بما أفعل في محترفي. وبكوي صرت وسيلة لإرتكاب الحرام في مألفي.

وإنما أظن أن أحق الناس بأن يغبط على عيشته. ويبارك له في حرفته ومهنته. إنما هو الحارث الذي يسعى لنفع نفسه ولغيره فيما يحرثه. فيكسب به صحة بدنه ومؤونة عياله وذلك خير ما يبرئه. وأن زوجه تراوحه على عمله وترفق به في عسره وعطله. أن مرض مرضته بنفسها وقامت بأمر مربعه. وإن غاب رعت له ذمة وباتت تنتظر وشك ورجعه. هذا والتعب يستطيب طعامه. ويسحلي نيامه. إلا ترى أن أولاد ذوي السعي والكد. أصبح أبداناً وأذكى فهما من أولاد ذوي الترفه والجد. وما ذلك إلا لأنهم يرقدون عن نعاس ويأكلون عن جوع ويشربون عن ظمأ. فأجابه أقرب من وليه. إن فيما قلت لنظراً. فأنك لم تر الصورة إلا من جهة واحدة وفاتتك الجهة الأخرى. فلعمري أن الحارث مع كد بدنه. أسير

همه وشجنه. وضجيع قلقه وحزنه. إذ هو عبد الناصر. ورقيق الحوادث والأكابر. أن عصفت ريح خشبي على ثمره أن يتساقط فيسقط قلبه معه. وأن كثر المطر أو قل وجل من أن يتلف ما زرعه. وإن مات كبير في بلده. أشفق من كساد ما تحت يده وإن يكن ذا بصيرة وجحى. ساءه ما يرى أهله فيه من العرى والوجى. والذل والاستكانة. والابتئاس والمهانة. وتحسرهم على الطيب من المأكول والناعم من الملبوس. وعلى كونه لا يحسن تربية ولده كما يشاء. ولا يمكنه رؤية بلد غير الذي فيه نشأ. فهو مهده وقبره وسجنه وحجره. ومع ذلك فهو غرض لأغراض إمامه في الدين. وعصا يتوكأ عليها منهو فوقه من المثرين. والسائدين والمسيطرين. فما يكاد يتخلص من ورطة أحدهما إلا ويقع في شرك الآخر. ولا يفوته شر إلا واستقبله شر أكبر. وهو مع إصره وجهله. لا يجد مخلصا له ولا لأهله. ولو أنه رام أن ينهج لأهله منهجا ارتضاه لنفسه واستصوبه. ولم يك على وفق مرام إمامه وأميرة أو آخر ذي مرتبة. لم يأمن غرامة منهما أو حسم عرتبة. أو قصم رقبة. ولم يلبث إن يرى أصحابه له أعداء واخذانه ألداء. فهو على هذا رهين الخضوع. وأسير القنوع. فقال قرين له. وقد صدق على ما فصله. نعم إن هذا لهو الحق الواضح. وما بعد الرق ذل فاضح.

وإني أرى بعد إمعان النظر والتروي، والتحقق والتحري، إن أسعد الناس حالا رجل رزقه الله مالا. واصلح له بالاً. فجعل دابة السفر في البلاد الغريبة. والمشاهدة للكائنات العجيبة. فهو كل يوم في شأن. وله في كل معان أوطان وإخوان. فقال قائل قد استوعب فحوى مقاله. واعتقد ما ذهب إليه أنه من فنده وضلاله. لقد زعت قصداً. ولم تقل رشداً. أو ليس المتعرض للسفر. بلا عناء وخطر. إذ كثيرا ما يمينه بأمراض شديدة. تغيير الهواء عليه والأحوال غير المعهودة. واضطراره إن يطعم ما يعافه. ويشرب ما به أدنافه. فيكون أكلا لما يأكل بدنه. ويذهب وسنه. هذه الإفرنج تأتي إلى بلادنا فينغصمهم عدم وجود الخنزير فيها. وخلوها عن السلاحف والأرانب وما يضاهيها. إذ يزعمون أنهم يخلطون شحم الخنزير ودمه في كل صبة وحسو وحلواء. ويتخذون من لحم السلاحف مرقا به شفاء من كل داء ويعييون علينا أن لبننا غير ضيخ ولا ممذوق. وخبزنا مملوحا وطعامنا غير مزعوق. وإن ماءنا غير ممزوج بالجير. وخبزنا غير مصبوغة بالعقاقير. وإنا نذبح الحيوانات ذبحا ونأكل لحمها غريضا. وهم يخنفونها خنقا ويأكلونه دائداً أيضاً. وأن جونا غير ذي دجن. ومطرنا غير دائم الهشن. وإن سماءنا غير محلسة وأرضنا غير مطلبي وجهها بالرجيع والروث وسائر الأشياء المنجسة. فبقولنا غير مسيخة. وأثمارنا غير مليخة. وإن شتاناً لا يدوم ثلثي العام. وصيفنا لا يسمع فيه رعد ذو إرزام. فإذا جاء أحدهم إلى بلادنا ليتعلم لغتنا ومكث بين أظهرنا عشر سنين. ثم رجع وهو من أجهل الجاهلين. أحال الذنب على الهواء. فقال إنه مني منه بالحمى

والجوى. أو بالإسهال المفرط. والسعال المقنط. هذا وإن من جهل لسان قوم وهو فيهم لم يمكنه أن يعرف عاداتهم وأخلاقهم. واستوى عنده ظاهريهم وخافيتهم. فيرى عندهم ما يرى دون علم. ويسمع ما يسمع من غير فهم. فلم يكن لذي السباحة بد من اتخاذ ترجمان. واعتماده عليه في كل خطب وشأن. ولا يلبث أن يسيء به الظن. ويرى أن له عليه المن. ولو أنه حاول أن يستغني عنه لفاته معرفة الأحوال. وبات بين القوم ذا وحشة ولبال. وربما حن إلى رؤية أهله. والاجتماع بشمله فأدنفه الحنين. وأضناه بين الخدين. وإنما يطيب السفر ما إذا اتفق إنسان مع ند له نوي. وصديق نجى. وكانا عارفين بلغات كثيرة. وقلوبها خالية من علاقة الحب والبصيرة. وهيهات أن يتفق اثنان على رأي واحد. وإن تتم لذة من دون مانع جاهد. وهم عاصد.

فقال أقل الحاضرين رشداً وفضلاً. وأكثرهم هزلاً. يا قوم. إني قائل قولاً ولا لوم. إن أسعد الناس وأحظاهم. وأترفعهم وأرضاهم. البغي الجميلة التي تفتح بابها لقاصدها. وتبيح نفسها لمرادها. فإنها تغتتم أنس زائرها وماله. وتتبله بحبها حتى يرى ذله فيها عزاً له. ومتى تمكنت من نفر يبذلون لها العين. ويكفونها مؤونة الأتبيين. فلا تحتاج بعدها إلى البحث عن مراد في المسالك. والتعرض للمكاراة والمهالك. فإذا هي شاخت وجدت مما ادخرته في صباها ما تنفق منه عن سعة. وما تكفر به عن سيئاتها السالفة فتعيش في دعة. ويثني عليها الناس بالتوبة الناصعة. والمعيشة الواسعة والإنسان مطبوع على النسيان مطبوع على النسيان. لا يبالي إلا بما هو كائن لا بما كان. ولا سيما إذا كان الحاضر يجدي نفعا جزيلا. ويسرا مأمولا وكفى بأئمة الدين إذا نالوا منها العطايا الوافرة. والصلاة المتواترة. أن ينتشروا عليها أحسن الثناء ويرثوها منكل فحش وخنى. فلها منهم على كل صلة صلوات. وعلى كل دعوة دعوات. فمن ما رأي في ذلك فليسأل قريته. ويكظم ضغينته. ريثما أقيم له على ذلك البراهين. ممن غبر وبقي من العالمين. فلما سمعت الجماعة دعواه. ولحنت مغزاه. ضحكوا من هذيانه. ورأوا أن الجواب على بهتانته على طريقة الجدال إنما هو من وضع الشيء في غير صوانه. فأضربوا عنه صفحاً. وقالوا له قبحاً لرأيك وشقحاً فلو كان أهل صقع على رأيك لفسدت الأرض. وبار العرض. ولم يبق من الصلاح أثر ولا برض. وإنما اللوم على الكأس التي ذهبت بلبك. وكشفت عن فساد مذهبك. وقبح أربك. ولعلك تتهدي إلى الرشاد إذا أفقت من خمارك. وتبين لك فضاغة هترك واستهتارك. فرأى إن السكوت له اسلم عاقبة من المحاورة والمجاورة. والمناقرة والمغاضبة. وإن الجمهور يغلب الفرد. وإن كانوا على ضلال. وكان هو على هدى وقصد. فاستف تنفيدهم. وخشي وعيدهم. وتفرقوا ولم يجمعوا رأيهم على أي الناس اسعد. وأي عيش أرغد. إذ رأوا دون كل حرفة نغصاً. ومع كل حالة عنصاً. وفي كل أكلة مغصاً. وقد فاهم من أحوال الناس كثير

مما ضاق وقتهم عن ذكره. كما ضاق هذا الفصل عن إحصاء كل ما أوردوه وعن حصره فقف على هذا القدر الذي ذكرته. وسر معي إلى استئناف قصة من غادرته وعليكم السلام.

### إغصاب شوافن وأنشاب برائن

السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي. فينبغي لي أن لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه. أو يرميني في ورطة لا مناص لي منها. ولقد رأيت أن كلفة السجع اشق من كلفة النظم. فإنه لا يشترط في أبيات القصيدة من الارتباط والمناسبة ما يشترط في الفقر المسجعة. وكثيرا ما ترى الساجع قد دارت به القافية عن طريقه التي سلك فيها حتى تبلغه إلى ما لم يكن يرتضيه لو كان غير متقيد بها. والغرض هنا أن نغزل قصتنا على وجه سائغ لأي قارئ كان. ومن أحب أن يسمع الكلام كله مسجعا مقفى ومرشحا بالاستعارات ومحسنا بالكليات فعليه بمقامات الحريري أو بالنوابع للزمخشري. فنقول إن صاحبنا الفاريق بعد إقامته مدة على الحالة التي ذكرناها جرى بينه وبين جده من النزاع والمناقشات ما أوجب عليه ترك ما كان فيه واقتفاء طريق آخر من طرق المعاش. فتاح له أن يكون معلما لإحدى بنات الأمراء وكانت ذات طلعة بهية. وشمائل مرضية. تامة الطرف. ناعسة الطرف ولكن ليس المراد بذلك إنها كانت لا تبصر من يجبها كما يكون من به نعاس. وإنما المعنى أنها ذابته. حتى ولا هذه العبارة مفصحة بما أريد أن أقوله. فإنها توهم إنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة. بل المقصود أن نقول إنها كانت كأنها تنظر عن تحشيف. ولكن مادة حشف لا تعجبني فإن فيها معاني اليبوسة والحساسة والرداءة وشيء آخر تجل الملاح عن ذكره. بل المراد أنها كانت تكسر جفניה عند النظر. ولا الكسر أيضاً لائق لها. فلا أدري كيف ألحن للقارئ ما أردت. ولعل الأوفق أن يقال أنها كانت ترمي بسهام عن عينها. ولم يكن سننها مانعاً من تبديل من ينظرها. فأن القلب يعلق بهوى الصغيرة الجداء كما يعلق بهوى الكبيرة الوطباء. إذ ليس كل عشق مؤديا إلى الدعارة. فقد عشق الناس الرسوم والأطلال والآثار. والأشكال والديار. ومنهم من عشق لرؤيته كفاً مخلصاً أو عقيصة شعر أو ثوبا أو سراويلات أو تكة أو نحو ذلك. وأعرف من أحب هرة امرأة فكان يلاعبها. ويخيل له الغرام أنه ملاعب صاحبته. وكثيرا ما كانت تنشب فيه أظفارها وتدميه. وهو يستعذب ذلك ويستحليه. أما لاستعذاب العذاب في هوى المحبوب. أو لاعتقاده أن مداعبة النساء أيضا لا تخلوا من خدش أو دماء. فكون الجرح منهن أصالة أو وكالة إنما هو شيء واحد. وقد سئل أحد العشاق عن مبلغ الوجد منه فقال كنت أرتاح للريح إذا مرت على نتن مقبلة من صوب

الحبوب. هذا وأن عشق أهل تلك البلاد أكثره على هذا النمط. أي أن العاشق منهم يكلف بأثر من محبوبه كمنديل أو زهرة أو رسالة وخصوصا بنصة شعر فيشمه ويضمه ويقبله ويعانقه كما قيل

الشعر مثل الشعر داعية الهوى      والشعر مثل الشعر دخر يذخر

من غاب عنك فلست تنتظره سوى      بالشعر وهو الأكثر

فإن قيل أنهم إنما عشقوا ذلك طمعا في وصال الحبيب الذي تفضل بهذه النعم لا كلفا بها من حيث هي هي. قلت ما المانع من أن تعشق الصغيرة طمعا في أن تصير كبيرة. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل. ورب أمل أحلى من فوز. وقد علم أهل الدراية أن من حرمه الله من الجمال لغاية لا يعلمها إلا هو عوضه عنه زيادة قصاص له بحدة الفكر والبصيرة وشدة التصور والتخيل ودقة الحدس فيكون أسرع إلى العشق وأكثر حرصا على أهل الجمال إذ الإنسان كلما بعد الشيء المقصود كان توقانه إليه أكثر وتولعه به أشد. والمراد من ذلك كله أن نقول أن الفاريق كان يعلم من صغره إنه بمعزل عن الجمال. وإنه من صباه كان يعظم أهله ويميزهن على غيرهن وإن القبيح معذور على عشق المليح كما قال الشاعر:

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى      مليحا دونه السمر الرقاق

فقلت وهل أنا إلا أديب      فكيف يفوتني هذا الطباق

قالوا أو أقول إنا عنهم. وقد يكون عشق الصغير كبيرا كما يكون عشق الكبير صغيرا. فإن الصغير لما كان غير ذي رشد يردده عن الاسترسال والتمادي في هواه كان هذا الاسترسال معقبا للجموع دون حد. ألا ترى أن الصغير إذا ولع بشيء من اللعب واللهو فإنه يتهتك فيه وينهمك غاية ما يكون. فكيف به إذا جنح إلى شيء هو أقوى من كل ما يستميل الطبع ويشوق النفس. نعم إن الكبير يقدر منافع ما يقصده من معشوقه أكثر من الصغير ولذلك يكون حرصه عليه أبلغ وطلبه له أكثر. غير إن عزة نفسه وسورة طباعه ونهيته قد تمنعه من أن يسلم عنان مشيئته للهوى. فيكون في طريق ميله وتوقانه تارة مقدما رجلا وتارة مؤخرا أخرى. والصغير متى ما استرسل استسهل. وبعد فقد نذرت على نفسي أن أكتب كتابا. وإن أودعه كل ما راق لخاطري من القول سديدا كان أو غير سديد فإني اعتقدت أن غير السديد عندي قد يكون عند غيري سديدا كما تحقق لدي عكسه. فإن شئت فأذعن أولا فليس هذا الوقت وقت العناد والخلاف.

والحاصل أن الفاريق لبث يعلم سيدته الصغيرة وجعل من دأبه أن يتودد إليها بإغضاء النظر على إصلاح

غلطها. بل لم يكن يرى إن صاحبة هذا الجمال يجوز ردها. فتأخرت هي في العلم وتقدم هو في الهوس  
فمما قال فيها.

أسير هواه لن يستطيع صبراً

بروحي من أعلمه وقلبي

يفوه بها فتلثم منه ثغراً

أغار عليه وجداً من حروف

والحمد لله على كون اللغة العربية خالية عن الباء الفارسية والفاء الإفرنجية وإلا لزادت غيرة صاحبنا وربما  
كان ذلك سبباً في جنونه. فإن الغيرة والجنون يخرجان من مخرج واحد كما أفاده المشايخ الراسخون في  
الزواج. وهنا دقيقة وهي أن بعض العتاول جمع عتول وهو من لا خير عنده للنساء يستثقل المؤنث في  
الغزل والنسيب فيجعله مذكراً وبعضهم يضمه. وعليه قول الفارياق أعلمه. والظاهر إن المقدر في ذلك  
لفظة شخص. فيا ليت هذا الحرف كان في لغتنا مؤنثاً كما هو في الفرنسية واليطالية حتى لا يجد  
الناسب محيداً عن التأنيث.

فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندي إنه محمودة بشرط استعماله على شروطه. وهو مطالعة  
الكتب التي تهذب الأخلاق وتحسن الإملاء. فإن المرأة إذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل استنباط  
المكايد واختراع الحيل كما سيأتي ذكر ذلك. ولا بأس بالمتزوجات بقراءة كتابي هذا وأمثاله. لأنه كما  
إن من ألوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم. فكذلك هي ألوان الكلام. والظاهر إن اللغة العربية  
شرك للهوى إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبية ما لا يوجد في غيرها.

فمن قرأت مثلاً في شرح المشارق لابن مالك إن مراتب العشق ثمانية أدناها الاستحسان وينشأ عن النظر  
والسماع ثم يقوى التفكير فيصير مودة وهي الميل للمحبوب. أي المحبوبة. ثم يقوى فيصير محبة وهي  
ائتلاف الأرواح. ثم يقوى فيصير حلة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر. ثم يقوى  
فيصير بحيث لا يخالطه تلون ولا يداخله تغير. ثم يقوى فيصير عشقا وهو الإفراط في المحبة حتى لا يخلو  
فكر العاشق عن المعشوق أي المعشوقة. وإنه يقوى فيصير تتيماً. وفي هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى  
صورة معشوقته، أي معشوقته. ثم يقوى فيصير ولها وهو الخروج عن الحد حتى لا يدري ما يقول ولا أين  
يذهب وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته. قلت وإن من أنواعه أيضاً الصباة وهي رقة الهوى والشوق.  
والغرام وهو الحب المستأسر. والهيام وهو الجنون من العشق. والجوى وهو الهوى الباطن. والشوق وهو  
نزاع النفس. والتوقان وهو بمعناه. والوجد وهو ما يجده الحب من هوى المحبوب أي المحبوبة. والكلف  
وهو الولوغ. والشغف وهو إصابة الحب الشغاف أي غلاف القلب أو حجابته أو حبه أو سويداءه.



والشغف وهو أن يغشى الحب شغفة القلب وهو رأسه عند معلق النياط منه. والشغف وهو بمعناه. والتدليه وهو ذهاب الفؤاد عشقا. لم تتمالك إن تحس بهذه المراتب السنية كلها حالا بعد حال. بخلاف لغات العجم فإنها لا يوجد فيها إلا لفظة واحدة بمعنى المحبة يطلقونها على الخالق والمخلوق. وقد يظهر لي أن كثيرا من الصفات المحمودة في الرجال تكون مذمومة في النساء كالكرم مثلا. فإن كرم الرجل يغطي جميع عيوبه وهو مذموم في المرأة. وقس على ذلك المكر والدهاء والإطراء والفروسية والشجاعة والحماسة والصلابة والخشونة والهمة إلى المراتب السامية والأمور الشاقة والأسفار البعيدة والنيات النائية والمطامع المتعذرة وغير ذلك. والعلة في ذلك كون المرأة تميل بالطبع إلى الشطط ومجازة الحد. ودليله في من تميل إلى العبادة والنسك فإنها لا تقف في ذلك على أمد بل تتمادى فيه حتى تنهوس وتنخل فتدعي المعجزات والكرامات وتعتمد إلى الرؤى والأحلام ويخيل لها أن ملكا يناجيها. وهاتفا يناغيها. وإنها تقيم بدعائها الأموات. وتحى الرفات. وربما قتلت أولادها على صغر ابتغاء دخولهم الجنة بغير حساب. أو ولدت توأمين فادعت إلهما من غير أب. وفي من مالت إلى الهوى فإنها تترك أباه وأمه اللذين ولداها وربيها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا. فكل ما كلفت به المرأة كانت فيه أكثر تماديا من الرجل.

فكلفهن بالقراءة لا أدري أين يكون مصيره.. والحامل لها هذا الغلو والشطط إنما هو من معرفتها من نفسها إنما أقوى على اللذات من الرجل. فزيادة إطاقتها لذلك زادت في تماديها فيه. ومنه سرى في غيره من الأطوار والشؤون والأحوال الطارئة وفي بعض الغريزية أيضاً وذلك كالكلام والضحك والسبح والحركة. وما قل منه فيها في بعض الأحوال فإنك تراه زائدا في البعض الآخر زيادة فوق القياس. ولعل كلامي هذا يسوء النساء إذا سمعن به وهن بين الرجال. لكني أعلم عين اليقين أنهن يضحكن له في أكمامهن استحسانا وتعجبا. حتى كأني يحسن إلي عشت برهة من الدهر امرأة حتى أمكن لي معرفة سرائرهن. ثم مسحني الله تبارك وتعالى رجلا. أو أي علمت ذلك من هند وسعاد وزينب ومية حين كنت أشبب بهن وأنا فتى وأكذب عليهن بقولي لهن إني حرمت الكرى وأجريت على نواهن عبداً. وإني قد فتن لي. وفارقني قلبي. لأجزم أنه لم يفارقني قط. ولو فارقني مرة لما رجع إلي أبداً. إني طالما أدخلت عليه هوماً وأحزانا لم تكن لهم أحدا من الناس في بلادي إذ كنت أحزن لتعصي معنى من المعاني علي وأحاول اختراع شيء من البديع لم يكن سبقني إليه. ظانا أنه الناس مقام هذه المخترعات التي يزهى بها الكون عصرنا عصرنا هذا فلم يتهيا لي فكنت أبيت في الليل في يأس وكرب. معاذ الله لم تكلمني وما كلمت هند وإنما عرفت ما عرفت من الأحلام الصادقة إذ كنت أبيت وأنا مخلص لله الإنابة والقنوت فإن لم

يصدقني فليتين ليلة أو ليلتين تائبات قانتات مثلي وأنا ضامن لمن أنه يهبط عليهن من الأحلام الصادقة ما يوقفهن على أمور الرجال.

## الطويل والعريض

فلنرجع الآن إلى الفارياق فإنه هو أيضا رجع إلى حرفته وهي النساخة وإن كان ذلك على غير مراده. واتفق إذ ذاك إن فتيين من أمراء ذلك الصقع أرادا أن يقرأ النحو على بعض النجاة وكان الفارياق يحضر الدرس وهو مكب على النسخ. وكان أحد التلميذين. بطيئا عن الفهم سريعا إلى الجواب. يتشاءب ويتمطى. ويغرض ويخطا. ويتناعس ويتقاعس ويتفاسأ ويتعاطس. وإذا خيل له أنه فهم مسألة حك تحت إبطه وشم رائحتها وكرف ثم تمطق كما يتمطق من أقطه. ثم عريد من افتتانه. وسلق من وليه بلسانه. وقال ألا قبحا لذوي الخواطر البليدة. والفتن البعيدة. كيف لا يتعلم الناس كلهم فن النحو. وهو أسهل من حك ما تحت الحقو. أما والله لو كانت العلوم كلها مثله، لما غادرت منها كبيرا ولا صغيرا إلا واستوعبته كله. لكني سمعت أن النحو إنما هو مفتاح للعلوم ولا يعد منها فلا بد وأن يكون غيره أصعب منه. فقال معلمه لا تقل هكذا بل النحو أساس العلوم وكل العلوم مفتقرة إليه افتقار البناء الأساس. ألا ترى أن أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ولا يعرجون على غيره. وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجدات كلها. ولذلك لا يؤلفون إلا فيه. وإنما يحصل الخلاف بينهم في تقديم بعض الأبواب على بعض. وفي توضيح ما كان مبهما منه بأدلة وشواهد أو شاذة بيد أن المال واحد. وهو أن العالم لا يسمى عالما إلا إذا كان متمكنا من النحو مستقصيا لجميع دقائقه. ولا يكاد يستتب أمر إلا به. ولو قلت مثلا ضرب زيد عمر من غير رفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضربه حقا ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار. فإن حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعا. وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الإفاده التامة. وإنما يفهم بعض الناس بعضا من دون هذه العلامات عن دربة أو اتفاق. فلا معول على كتبهم وإن كثرت ولا على علومهم وإن جلت. وإني وإن كنت قد لقيت منه عرق القربة وكثيرا ما بت وبالي مشغول بعقله من عقله وبداهية من عراقيله فكنت أرق ليلي كله ولا أهتدي إلى وجه الصواب فيما عوص علي من ذلك إلا إني استفدت منه فائدة عظيمة جعلتني ممنونا لبنت أبي الأسود الدؤلي أهد الدهر فإنها هي التي كانت سببا في استنباطه. قلت وكذا سائر البدائع كان أصل استنباطها مسببا عن النساء فقال له التلميذ ما هذه الفائدة يا أستاذي. قال قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس. فكنت أميل إلى ما قلته الفلاسفة من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناه. فلما رأيت

النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزل عني والحمد لله ذلك الإيهام.

ومثله أو أكثر منه في الصعوبة فن المعاني والبيان. فقال له التلميذ لم أسمع بذكر ذلك قط. قال أما أنا فقد سمعت به وأعرف كل ما يشتمل عليه. وهو المجاز والكناية والاستعارة والتورية والترصيع وغير ذلك مما ينيف على مائة نوع. وبيان ذلك مفصلاً يستفرغ آجلاً. وربما قضى الإنسان عمره كله في علم الاستعارات وحدها. ثم يموت وهو جاهلها. أو يكون قد نسي في آخر الكتاب أو الكتب ما عرفه في أوله. وذلك أن من اخترع هذا العلم الجليل لم يكن سلطاناً حتى يمكنه إجبار الناس جميعاً على متابعتة ومشايعتة. بل يكون فقيراً بهذا الشيء وشرح الله صدره لتقرير قواعد له فكان لا يقع بصره على شيء إلا وخطر بباله طريقة من طرقه. فإذا نظر الشمس مثلاً طالعة قال كيف ينبغي أن يفهم هنا طلوع الشمس هل هو حقيقي أو مجازي وهل هنا عرفي أو لغوي. وكذا لو رأى البقل نابتاً في زمن الربيع قال كيف تأويل قول القائل انبت الربيع البقل. فهل يصح إسناد ذلك إلى الربيع وهو إنما نشأ عن دوران الأرض حول الشمس فهو لاشك مسبب عنها. ولا ريب أن مدير الأرض إنما هو الله عز وجل. فيكون قوله انبت الربيع البقل مجازاً بدرجتين. لأن الربيع مسبب عن دوران الأرض ودوران الأرض مسبب عن تقدير الباري تعالى. وكذا قولهم جرت السفينة أو الحجر. ومن المجاز ماله أيضاً ثلاث درجات ومنه ما له أربع. ومنه ما تفوق درجاته درج المئذنة. ومن هذا الدرج ما شكله قرقي ومنه حلزوني ومنه لولبي. ومنه غير ذلك ثم مازال المستنبط يفكر في هذه البدائع حتى أدركه الأجل فمات وبقي عليه أشياء كثيرة لم يحكمها. فقام من بعده من أولع مثله بهذا الفن فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة. وظل يباحثه ويعارضه إلى أن قضى نحبه وقد ترك مجالاً لغيره. فجاء من بعده من أصلح بينهما في عدة مواطن وعاب على كل منهما أيضاً أموراً. ثم مات ولم ينه ما قصده. فخلفه من صنع به ما صنعه هو بغيره.

وهكذا بقيت أبواب النقد مفتوحة إلى عصرنا هذا فمن قال إن هذه العبارة من الاستعارة التبعية. ومن قائل إنها من الترشيحية. قال بعض العلماء الاستعارة تنقسم إلى مصرح بها ومكني عنها. والمصرح بها تنقسم إلى قطعية واحتمالية. والقطعية تنقسم إلى تخيلية وتحقيقية. وتنقسم ثانياً إلى أصلية وتبعية. وثالثاً إلى مجردة ومرشحة. وقال بعضهم وهذه تنقسم أيضاً إلى عقبونية ومكانية ونبيصية وطعطعية وغميسية ولعلمية ويلمعية وعسعاسية. والعقبونية تنقسم أيضاً إلى فرقية وقرقية ومقامقية. والفرقية إلى جحلنجعية وشنطيفية وعطروسية ودحالية وشينقورية وكربرية. والقرقية إلى خعخعية وعهخعية وعهخعية وكشعنجعية وكثعظجية. والمكائية إلى معوية وعنترية وصفرية وعصلية وبلكية وصفارية وضغيلية وطرطبية وانقاضية. إلى غير ذلك من التقسيم. ويشترط في خطبة الكتاب أن تكون جامعة لجميع هذه الأنواع.

وأن يراعي فيها وفي الكتاب كله نوع الطباق. مثال ذلك إذ قال القائل في فقرة طلع. فلا بد أن يقول فيها أو في الثانية نزل. وإذا قال أكل يقول بعده من غير تراخ تقياً أو - وفي الجملة فينبغي أن تكون الخطبة عويصة ما أمكن. وأية خطبة لم تكن كذلك كانت عنواناً على ركافة الكتاب كله فلم يكن جديراً بالمطالعة.

فقال له التلميذ وقد امتنع لونه وهل النحاة أيضاً ماتوا ولم ينهوا قواعد هذا العلم. وهل قراءتي له عليك تغني عن إعادته عند غيرك هنا. وهل يجب على الطالب في كل بلد سافر إليه أن يتعلم نحو أهله أم هو علم مرة واحدة. فقال له شيخ إما عن المسألة الأولى فأجيب أنه ما جرى على البيانيين فقد جرى أيضاً على النحاة. فقد قال الفراء أموت وفي قلبي شيء من حتى. وقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتح همزة أن وكسرها أشياء. ومات الكسائي وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتقرية والتعقيبية والرابطة حزازات. ومات اليزيدي وفي رأسه من الواو العاطفة والاستثنائية والقسمية والزائدة والإنكارية صداد وأي صداد. ومات الزمخشري وفي كبده من لام الاستحقاق والاختصاص والتملك وشبه التملك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح. ومات الأصمعي وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدة. وفي الجملة فإن معرفة حرف واحد من هذه الحروف إذا تعمد الطالب استقصاءها وجب عليه أن يترك جميع أشغاله ومصالحه ويعكف على ما قيل فيه وأجيب عنه. وما قيل من الأمثال. أعط العلم كلك يعطك جزأه إلا لأجل ذلك. وأما قولك هل يلزم أن تقرأ النحو أيضاً على غير هنا أي في بلادنا فذلك غير لازم. فإن أهل بلادنا كلهم لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه أنت. بل قل من يطالعه ويفهمه أو يعمل بمقتضى قواعده. وأما عن سؤالك الثالث فأقول إنه لا ينبغي إعادة هذا العلم في كل بلد ولكنك حيثما سرت وأيان توجهت وجدت أناساً ينتقدون عليك كلامك. فإن عبرت بالواو مثلاً قالوا الأفصح هنا الفاء أو باء وقالوا الأولى أم. وفي بعض البلاد إذا علم إنك تنقط ياء قائل سقط اعتبارك من عيون الناس. فقد قرأت في بعض كتب الأدب أن بعض العلماء عاد صديقاً له في حال مرضه فرأى عنده كراسة قد كتب فيها لفظة قائل بنقطتين تحت الياء تحت الياء فرجع في الحال على عقبه وقال لمن صار معه لقد أضعنا خطواتنا في زيارته.

وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا. فإن المؤلف والحالة هذه نفسه للطعن والقدح والبلاء. ولا يراعي الناس ما في كتابه من الفوائد والحكم. إلا إذا كان مشتعلاً على جميع المحسنات البديعة والدقائق اللغوية ومثل ذلك رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعايل شمايط. فالناس لا تنظر إلى أدبه الباطني بل إلى برّته وزيه. والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا، إذ لو كثروا وكثر نقدهم وتخطبهم لكثرت

أسباب البغض والمشاحنة بينهم. وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فقر مسجعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والإكرام. والسنية والبهية. فأخفه ما كان ساكناً. فأما الشعر في عصرنا هذا فإنه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة أو وصف امرأة بكون خصرها نحيلاً وردفها ثقيلاً. وطرفها كحيلاً ومن تعمد قصيدة جعل جل أبياتها غزلاً ونسيباً وعتاباً وشكوى وترك الباقي للمدح.

ثم أن التقليد النجيب أستمّر يقرأ على شيخه الأديب في النحو حتى وصل إلى باب الفاعل والمفعول فأعترض على أن الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول منصوباً. وقال هذا الاصطلاح فاسد لأن الفاعل إذا كان مرفوعاً كان الذي عمل فيه الرفع آخر. والحال أنه هو العامل. وبياته إنا نرى الفاعل في البناء يرفع الحجر وغيره على كتفه فالحجر هو المرفوع والفاعل رافع وكذلك فاعل ال... فإنه هو الذي يرفع الساق. فقال له المعلم مه مه لقد أفحشت، فكان ينبغي لك التأديب في مجلس العلم فإنه غير مجلس الإمارة. ثم ختم التلميذان قراءة الكتاب ولم يستفيدا شيئاً وكأن الشرح كله كان موجهاً إلى الفاريق. ومذ ذلك الوقت أخذ في تجويد عبارته بمقتضى القواعد النحوية فصار يهول بها على رعا الناس كما يظهر في الفصل الآتي.

## أكلة وأكل

لا بد لي من أن أطيل الكلام في هذا الفصل امتحاناً لصبر القارئ. فإن أتى على آخره دفعة واحدة من غير أن تحترق أسنانه غيظاً أو تصطبك رجلاه غيرة وحمية. أو يتزوي ما بين عينيه أنفة وحشمة. أو تنتفخ أو داحه وغراً وهو جافاً. أفردت له فصلاً فيه وعدده من القراء الصابرين. ولكون الفاريق في هذا الوقت قد طال لسانه وإن يكن فكره قد بقي قصيراً، ورأسه صغيراً ناقصاً من عند فمحدوته. وقد نذرت على نفسي أن أمشي وراءه خطوة خطوة وأحاكيه في سرته. فإن رأيت منه حمقة جئت بمثلها. أو غواية غويت مثله. أو رشداً قابلته بنظيره قابلته بنظيره وإلا فإني أكون خصمه لا كاتب سيرته أو ناقل كلامه. وينبغي أن يعلق هذا الحكم في أعناق جميع المؤلفين. ولكن هيهات فأني أرى أكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة. إذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة أحد من العباد في عقله أو امرأته أو ماله إذا به تكلف لا يراد الفقر المسجعة والعبارات المرصعة وحشى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنائيات. وتشاغل عن هم صاحبه بما أنه غير مكترث به. فترى المصاب ينتحب ويولولول ويشكو ويتظلم. والمؤلف يسجع ويجنس ويرصع ويروي ويستطرد ويلتفت ويتناول المعاني البعيدة. فيمد يده تارة إلى الشمس وتارة إلى النجوم. ويحاول إنزالها من أوج سمائها إلى سافل قوله. ومرة يقتحم البحار. وأخرى يقتطف الأزهار ويطفر في

الحدائق والغياض. من أصل إلى فرع ومن غوطة إلى ربوة.  
ما ذلك دأبي فإني إذا أوردت كلاماً عن أحق انتقيت فيه له جميع الألفاظ السخيفة. وإذا نقلت عن أمير  
تأدبت معه في النقل ما أمكن. فكأني جالس بمجلسه. أو عن قسيس مثلاً أو مطران أنخفته بجميع اللفظ  
الركيك والكلام المختل. لئلا يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب.  
فأعلم إذاً أن الفاريق بعد أن فار دماغه بحرارة النمو زيادة على ما كان له من الرغبة في النظم سارت  
ذات يوم لقضاء مصلحة له. فمر في طريقة على دير للرهبان. وكان الوقت مساءً. فرأى أن يبيت ليلته  
تلك في الدير فعرج عليه وطرق الباب فبرز له رويهب. فقال له الفاريق هل من مبيت عندكم لضيف  
فقال له الرويهب. أهلاً به إن لم يكن ذا سيف. ففرج الفاريق بهذا الجواب وعجب من أنه يوجد في  
الدير من يحسن المساجلة. وإنما قال له الروية بما قال لأن الدير كان ينتابه كثير من أتباع الأمير ليسيئوا فيه  
منكل سرطم قهقهم لهم نهم وحم وخم هقم يسمع له هيقم. فكان أحدهم إذا بات ثم ليلة يكلف الرهبان  
من المطاعم الفاخرة ما لم يعهدوه. لأن هؤلاء الخلق يعيشون عيشة المتقشفين المقترين المتبلغين بأدنى  
القوت. إذ هم ينظرون إلى الدنيا وإلى لذاتها نظر العدو. فهي عندهم ضرة الآخرة. كلما تباعد عنها  
الإنسان المخلوق فيها تقرب إلى الجنة. حتى أن الخبر الذي كثيراً ما يأكلونه بغير إدام ليس كخبز الناس.  
فإنهم بعد أن يجزوه رقيقاً يشمسونه أياماً متوالية حتى يجف وييس بحيث يمكن للإنسان إذا أخذ بكلتا  
يديه رغيفين وضرب أحدهما بالآخر أن يخيف بقرقتهم جميع جردان الدير. أو أن يتخذهما متخذ  
الناقوس الذي يضرب به لأوقات الصلاة. ولا يقدر على أكله إلا منقوعاً بالماء حتى يعود عجيناً. فأما  
تقلد تابع الأمير بالسيف وإنما هو قهويل وإنذار بنكال المتهاون به. كتهويل الفاريق على الرويهب  
بسؤاله. ومن لم يكن له سيف استعار سيف صاحبه. أو أتخذ له خشبة رقيقة في غمد سيف. وليس في  
استعارة الماعون وغيره عند أهل الجبل من عار بل كثيراً ما يستعيرون حلياً ومعرضاً للعروس يزفونها به  
وللرجل ثياباً وعمامة يزينونه بها.

ثم أنه لما حان وقت العشاء جاء ذلك الرويهب بصحفة من العدس المطبوخ بالزيت وبثلاثة أصنح من  
ذلك الخبز وجعلها بين يدي الفاريق. فجلس للعشاء وتناول رغيفاً ودقة بالآخر حتى انكسر. فلما التقم  
أول لقمة نشبت شظية من الخبز في سنه وكادت أن تذهب بها. فجعل يسندها ويسد موضع الخلل منها  
بالعدس. ولم يكد يتم العشاء حتى اشتدت حرارة العدس في بدنه فجعل يحك بأظفاره وبيعض قصد  
الرغيف حتى تهشم جلده. فسأه ذلك جداً. وقال لقد خلخلت هذه الكسرة سني فلاقلعن سنناً من أسنان  
هذا الدير. ثم إنه اعمل فكرة في نظم بيتين في العدس تشفيا مما ناله منه جرباً على عادة الشعراء من انهم

يتشفون بعثاهم الدهر مما هم فيه من النحس والقهر والشقاوة والضرر. فالتبست عليه لفظة فقام في طلب القاموس فطرق باب جاره وكان من المتحمسين في الدين. فقال له هل عندك يا سيدي القاموس. قال ما عندنا بالدير جاموس بل ثيران. فما حاجتك به الآن. فطرق باب آخر وكان أشد منه خشونة. فقال له هل لك ان تعيريني القاموس ساعة قال اصبر عليّ إلى نصف الليل فإن الكابوس لا يأتيني إلا في هذا الوقت. فمضى إلى غيره وأعاد عليه السؤال. فقال له أي شيء هو هذا القاموس يا ماغوص فرجع إلى صومعته وقال. لا بد من نظم البيتين. وسأترك محلا فارغا للفظه فقال:

**فبث وبني أكال لا يطاق**

**أكلت العدس في دير مساء**

**لقال الناس... الفاريق**

**فلولا أنني أعملت ظفري**

فلما كان نصف الليل والفاريق نائم إذ بأحد الرهبان يقرع عليه الباب. فظن أنه أتاه بالكتاب المطلوب. ففتح له وهو مستبشر بوجدان ضالته. فقال له الراهب قم إلى الصلاة اقلع الباب واتبعني فتذكر عند ذلك ما قاله له جاره من أن الكابوس لا يأتيه إلا في نصف الليل. فقال في نفسه لقد صدق الرجل فإن هذا الداعي أشد على النائم من الكابوس. قبحا لها من ليلة شؤمي لقد كاد الخبز يقلع سني والعدس منافي بالحكمة. وما كدت الآن أغفى حتى أتاني هذا القارع الأقرع النحس يدعوني إلى الصلوة أكان أبي راهباً وأمّي راهبة أم وجب على الشكر والصلاة من أجل أكلة عدس؟ ولكن سأصبر إلى الصباح.

فلما كان الغد جاءه ذلك الرويهب ليسأله عن حاله إذ كان قد دخل الدير مذ عهد غير بعيد فكان فيه بقية رقة ولطف. فقال له الفاريق سألتك بالله أن تجلس عندي قليلاً. فلما جلس قال له قل لي فديتك أفي كل يوم أنتم تفعلون هذا. فوجم الرويهب فظن به سواء ثم قال أي فعل تعني. قال أكلكم العدس مساء وقيامكم في نصف الليل للصلاة. قال نعم ذلك دأبنا في كل يوم. قال ما الذي أوجبه عليكم. قال التعبد لله والتقرب إليه. قال أن الله تبارك وتعالى لا يهمله أن كان الإنسان يأكل عدسا أو لحما. ولم يأمر بذلك في كتبه. إذ ليس فيه مصلحة لنفس الأكل أو المأكول. قال هذا دأب النساك العباد إذ التقشف في المعيشة ونهك الجسم بالردىء من الطعام وبقلة النوم ينفي الشهوات. قال لا بل هو مناف لما شاء الله. إذ لو شاء أن ينهك بدنك ويخليه من الشهوات لخلقك ضاويًا دنفا. ما قولك في من خلقه الله جميلاً. أيجوز له أن يشوه وجهه بأن يبخق عينه أو يخرم أنفه أو يشرم شفته أو يقلع أسنانه كما أردتم قلع أسناني البارحة بخبزكم هذا اليابس. أو أن يسخم سحنته. قال في ظني أنه لا يجوز. قال أليس البدن كله على قياس الوجه. لعمري ما خلق الله الساعد الفعم إلا وهو يريد بقاءه فعمًا. ولا الساق المجدولة إلا وشاء لها

أن تكون كذلك دائما. ولا حلل الطيبات من المآكل للناس إلا وهو يريد أن يأكلوها هنيئا مريئا. نعم قد حرم هذه الطيبات بعض الأديان المشنطة. غير أن دين النصارى يحللها. وإنما جاء التحريم من بعض شهاب طعنوا في السن فلم يكن بهم قطع إلى اللحم ولا إلى غيره. ما المانع تناوله كل يوم؟ قال لا ادري وإنما سمعت علماءنا يقولون ذلك فقلدتم. وأي أقول لك الحق أي مللت من هذه العيشة. فإني أرى جسمي كل يوم في ذبول ونفسي في انقباض. ولو كنت عرفت من قبل ما أصير إليه لما سلكت هذه الطريقة غير إن أبي وأمي فقيران وخشيا أن أكون من ذوي البطالة والتعطيل، إذ لا صنائع نافعة في بلادنا يمكن للإنسان أن يتعلمها ويعيش منها فزينا لي الرهبانية. وقالوا لي إذا واطبت على طريقة في الدير بضع سنين فربما ترتقي إلى رتبة عالية فتنتفع نفسك وإيانا وما زالا بي حتى أجبتهم ولو لم أجبهما طوعاً لأكرهاني على ذلك. فقال له الفاريق نعم أن الرهبانية هي ملجأ من البطالة فكل من كان عطلاً عن علم أو صنعة يقصدها إلا أنك ما زلت مثلي حدثاً فيمكن لك أن تقصد أحداً من أهل الخير والشفقة فيذلك على ما ينفعك. والله تعالى خلق الأشداق وتكفل لها بالأرزاق. وقد جعل في الحركة بركة هذا وأنت تعلم أن الرهبانية مشتقة من الرهبة وهي خوف الله تعالى. فإذا تعاطيت حرفة وعشت بها بين الناس وتزوجت ورزقت ولداً وخشيت الله فأنت حق راهب. ليست الرهبانية بأكل العدس والخبز اليابس. أليس إن رهبان ديرك بينهم من الخصام والطعن والحقد ما لا يوجد عند غيرهم. فإن رئيسهم لا يزال يحاول إذلالهم وإخضاعهم له. وهم لا يزالون مدممين عليه شاكين منه. وبينه وبين رؤساء الأديار الأخرى من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول. وأكثرهم ينال الرئاسة بالتملق للأمر الحاكم أو للبطرك. فإذا أحس بوشك انقضاء مدته وخشي العزل رأته يجود بالهدايا والتحف لذوي الأمر والنهي بما لا يجود به أكرم أهل بلادنا. وذلك حتى يقروه على رئاسته. وهؤلاء الرهبان المكرهون على التبليغ بالعدس وعلى التنحس إذا دعاهم أحد للمأدبة سمعت لاستراطهم دويًا. فيلففون ويلعمظون ويتلمظون ويتكظكظون ويشتفون حتى تحفظ عيونهم. وأضر ما يكون عليّ منهم أنك لا تكاد تسلم على أحد منهم إلا ويمد لك يده لتبوسها. ربما كانت نجسة قدرة. فكيف الثم يد من هو أجهل مني ولا غناء عنده في شيء. انظر كم عندنا في بلادنا من دير وعلى كم تشتمل هذه الأديار من الرهبان. ولم أر أحداً منهم نبغ في علم ولا من أثرت عنه مكرمة. بل لا تسمع عنهم إلا ما يشين الإنسان في عقله وعرضه.

قد كنت في خدمة بعير بيع مدة فرأيت أحد هؤلاء الكارزين قد تمكن من ابنته تمكن الزوج من امرأته. فكان يقول لها فيما يسألها عنه هل تتممجمع أليتك ويطرحج ثدياك؟ فما للراهب ولترعد ألا يا النسوان ورجرجة أئدائهن؟! وآخر كان رئيسا في دير فعلق بنتا في قرية بالقرب من الدير فلم تلبث أن علقت منه.



غير أنه لما كان أخوه وجيها عند الحاكم خاف أبو البنت من أن يخاصمه ويفضحه. بل قد تقرر في عقول الجاهلاء من أهل بلادنا أن إفشاء أمر مثل هذا مما يفتضح به عرض أحد هؤلاء النساك حرام. أيم الله أن الستر عليه حرام فإن فضيحته تردع غيره. وأعرف آخر جاء إلى قريتنا متماوتاً وقد طول كمية وأسبل قلنسوته حتى لم يكد يظهر من تحتها إلا فمه ولحيته وتظاهرا بالصلاح والتقوى. ثم أنزل نفسه منزلة خطيب في القوم. فجعل يخطب ويعظ وينذر بصوت جهير. وكان يبكي عند ذلك أشد البكاء ويذرف المدامع إذ كان جعل في منديله الذي يمسح به وجهه شيئاً ذا حرمة لا أدري ما هو. ثم آل أمره إلى أنه يقضي أياماً وليالي مع أرملة حسناء شابة من نساء الأمراء في خلوة استدراعا بأنها تعترف له اعترافاً عاماً. أي من يوم انتفخ ثديها ونبت شعرها إلى ذلك اليوم. وأعرف آخر كان قد ذهب إلى رومية وكان مغفلاً فكان ينام في فراشه بثيابه الرهبانية على طريقته في الدير ويوسخ الملاءة. فكان صاحب المنزل ينهاه عن ذلك. ثم لما رأى أن جميع قسيسي رومية وأعيان أئمتها من البابا إلى الكردينال إلى الراهب ينامون عريانيين لا شيء يستر سوءتهم غير ملاء. الكتان الرفيع كفر بهم وصار يستحل الحلال والحرام معاً. فانظر إلى هؤلاء العباد من العباد فإنك لا ترى فيهم إلا حبيشاً منافقاً. أو جاهلاً مائقاً. وندر وجود الصالح بينهم. أما العلم فهو محرم عليهم كلهم.

لا بأس في الرهبانية تطوعاً لا بأس إنما هي طريقة محمودة. ولكن بشرط مجاوزة الخمسين سنة. وإن يكون الداخلون فيها من أهل الفضائل والمعارف. يشتغلون بالعلم وتهذيب إيماء وإخوانهم ومعارفهم. ويحضون على مكارم الأخلاق والاتصاف بالمزايا الحميدة. ويؤلفون الكتب المفيدة وينهجون لقومهم المناهج المؤدية إلى الخير والفلاح والفوز والنجاح. لا مثل هؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً من الدنيا سوى التقشف والرياسة. وناهيك دليلاً على جهلهم أي سألت أشدهم تحمسا أن يعيرني القاموس فظنه الجاموس. وآخر ظنه الكابوس. وآخر القاموس. فبادر يا صاح وتخلص منهم هداك الله وإلا فتكون لا من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة. فإن دين الجاهل عند الله ليس بشيء. وإذا بلغت الستين سنة فيها هي الرهبانية بين يديك. فقال له كيف التخلص. قال ألك في الدير متاع فأساعدك على حمله. قال مالي سوى ما تراه عليّ. قال فامض بنا إذا فإن الرهبان الآن عاكفون على الصلاة. فخرجنا من باب الدير ولم يعلم بما أحد. فلما بعدا قليلاً هنا الفاريق صاحبه بخروجه من ربة الجهل وقال له. لعمرى لو كنت كلما أكلت أكلة عدس خلصت راهباً أو رويها أو بالحري راهبة أو رويها لوددت أن لا أكل الدهر غيره وإن أكل بدني. فجزى الله الدير خيراً.

## مقامة

### مقامة في الفصل الثالث عشر

قد مضت عليّ برهة من الدهر من غير أن أتكلف السجع والتجنيس واحسبني نسيت ذلك. فلا بد من أن أختبر قريحتي في هذا الفصل فإنه أولى به من غيره. إذ هو أكثر من الثاني عشر وأقل من الرابع عشر. وهكذا أفعل في كل فصل يوسم بهذا العدد حتى أفرغ من كتي الأربعة. فتكون جملة المقامات فيما أظن أربعاً فأقول.

حدس الهارس بن هشام قال أرقت في ليلة خافية الكوكب. بادية الهيدب. طويلة الذنب ملأى من الكرب. إلى الكرب. فجعلت أنام على ظهري مرة وعلى جني أخرى. وأتصور شخصاً ناعساً أمامي يتشاءب وآخر ينخر نخرًا. وآخر يتهوم سكرًا. فإن التصور فيما قالوا يبعث على فعل ما ترغب النفس فيه. وينشط إلى ما تصبو إليه وتشتهيه. ومع ذلك فما اكتحلت غمضا. ولا فتحت فمي تتأوب طولاً ولا عرضاً. وكان يخيل لي أن أهل الأرض كلهم رقود وأنا وحدي من بينهم ارق. وإن جميع جيرانني في سكون وأنا دوهم قلق. فقممت إلى الشراب فحسوت منه حسوة. فلم تك إلا غفوة. كأنما كانت هفوة. فأفقت في أسوأ حال. وشر بلبال. والهموم قد انثالت عليّ من كل جانب. والأفكار متطايرة على كل مقارب ومجانب. فكان يخطر ببالي كل ممكن ومحال ويعاودني ما كنت فكرت فيه من الأحوال مرة منذ أحوال. فلما علمت أن النوم قد ند عني. وإن تناومت. وأنه لابد من ترقب الفجر أن أذعنت وأن قاومت. مددت يدي إلى كتاب أطالع فيه. وقلت إن لم ينمي فينبهني ببعض معانيه. فتناولت أقرب ما وصلت إليه يدي. وأنا غير مؤثر أحد الكتب على غيره في خلدي وإذا به كتاب موازنة الحاليتين. وموازنة الآلتين. للشيخ الإمام العالم العامل. الفاضل الكامل. أبي رشد نهمية بن حزم. المشهور بالبلاغة في النثر والنظم. وهو كتاب لم يسبقه إليه أحد من المؤلفين. ولم يجارده فيه كاتب من الجليلين. فقد وازن فيه بين حالتي بؤس المرء ونعيمه. وروحه وهمومه. ومنافعه ومضاره. وأحزانه ومساره. منذ كونه طفلاً. إلى أن يصير كهلاً. ثم شيخنا قحلاً. وقد جعل ذلك في جدولين متقابلين. وأسلوبين متفاضلين. إلا أنه لما الشيخ قدس الله سره. ورفع في أعلى عليين مقامه وقدره. على ما يظهر لي ذا عشية راضية. وسعادة وافية. وهمة ماضية. رجع طرف اللذات على غيرها. واستقل شر الحياة بالنسبة إلى خيرها. حتى أنه زعم أن اللذة تكون عن الفعل والتصور معاً. بخلاف الألم فإن الفكر لا يقع منه موقعا وأنه كان إذا امتثل خودا يداعبها وتداعبه. هزته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه وكلكله ومنكبه. بيد إنني ارتبت في كلامه في هذا المحل. وقلت سبحانه الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وإن جل. وذلك إنني لما تصورت الشخص المتهوم. والناعس

والمتائب وأنا متناوم. لم يغني التصور عن الفعل نقيراً. ولا وجدت فيه لذة لا قليلاً ولا كثيراً. على أي أذهب إلى ما ذهب إليه بعض المجانين. من أن لذة اليوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين. وهي عقدة للطبائعين لا يمكنهم حلها بلسانهم وأفكارهم. ولا بلسانهم وأظفارهم. غير أن عبارة المصنف كانت من العلم والحكمة بحيث تخلب عقل الناقد الخبير. وتربك في تحري أحد القولين كل تحرير فلما أطلقت النظر فيهما وعاد إلي كليلاً وأعلمت حد النقد ورجع مفلولاً. عزمت على أن أسجل هذه الأشكال. من بعض ذوي الدراية والجدال. فقلت في نفسي كما أن يدي نالت أدنى الأسفار. كذلك يكون مراوحي عليه أدنى الجار.

وكان يسكن بالقرب مني مطران يطري قومه على حليته. ويعظمون فضله وأدبه على طوال لحيته. فقصدته ضحوة النهار. بادي الاستشارة. فرأيت ذاك بكلة تروق. وبزة تشوق. فعرضت عليه الجدولين وقلت افتني في هذه القضية. ولك الأجر من رب البرية. فنظر فيهما ثم حرك رأسه. وجعل يرمش ثم يشكو نعاسه. وقال لي ما ترجمته إذ لم يكن ممن تسمو إلي السجع همته ما لحنت مغزاهما. ولا دريت فحواهما ولو كانا بعبارة ركيكة. كان ذلك عليّ أسهل من الجلوس على هذه الأريكة. فقلت آخره في العلم والثقف. تقدمه في الصف. ونقص من عقله وفهمه ما زاد في لحيته وكمه. فلا ستعملن بعده أكثر الناس حمقاً وهوجاً. وما ذلك إلا معلم الصبيان المهجا وكان في البلد من اتصف بهذه الصفة. وهو مع ذلك ذو كبر وعجرفة. فقصدت محله. وألقيت عليه المسألة. فإذا به قام يصفق بيديه. ويراريء بعينيه. ويقول لقد سقطت على الخبير. واهتديت برأي بصير. إن شئت أن تعرف أي القولين أرجح. وأصدق وأصح. فزن الجدولين دون جلد الكتاب في ميزان. فما رجع منهما فهو الراجح ما اختلف في ذا اثنان. فقمتم من عنده غضبان نادماً. ولعنت الأرق الذي كان السبب في أن أكون لمعلمي الصبيان مكالماً. بعد أن قرأت في غير كتاب وسمعت من ذوي الألباب. أنهم اسخف خلق الله عقلاً. وأكثرهم جهلاً. وأبعدهم عن الفهم وأسفهم إلى الوهم.

فسرت في ذلك اليوم. إلى فقيه من جلة القوم. قد كبر عمامته وكورها. ووسع جبهته وزورها. فقلت افتني أيها الفاضل الأحق. أي القولين عندك أحق وأصدق. فقال أما إذا جئتني مستنفاً. ورمت أن تكون برأيي مستهدياً. وبطريقي مقتدياً. فإني أقول لك بعد التروي في هذا المذهب المتحوي أنا معاشر الفقهاء من أهل الكلام. القائمين بأحكام الأحكام. وتبيين المتشابه بين الأنام. وإن من دأبنا إظهاراً للحق أن نسهب في التعليل. ونكثر من قال وقيل. إذ لا بد من انتشاء عرف الصواب من الإسهاب. ومن الاهتداء إلى بعض المذاهب. بفرض المستحيل وجعل المعدوم كالموجود الواجب. فعندي أنه لا بد من عد ألفاظ

القولين. وإحصاء حروف الجدولين. فما كان منهما أكثر حروفا فهو أرجح وأحسن تأليفاً. والله اعلم. فصلت من عند الفقيه كما فصلت من عند صاحبه السفه. وقلت إنما اللوم على مستفتيه. ثم قصدت شاعراً كنت أعهدده يتلهوق ويتشدد. ويتفصح. ويتمدح. ويتبجح ويتزنج، وقلت له هاك ما تحرز عليه أجراً. ويكسبك بين الناس فخراً فأبني لي أي الأهلويين أبدع. وبالحق فاصدع قال أما أنا فما لي من خلاق في الدنيا ولا نصيب غير المدح والنسيب. ففي الأول غصتي وفي الثاني لذتي. فاصبر عليّ ريثما أطالع ديواني كله. وأتصفحه جملة. فإن وجدت المديح فيه أكثر من الغزل. كان الخير في الدنيا اقل. فألحقته بصاحبيه الفقيه والمعلم وقلت كم من متكلم مكلم. ثم سرت إلى كاتب الأمير. وكان مشهوداً له بالتحري والتحرير. فأثنت عليه قبل السؤال مطرئاً. وقلت لم يكن غيرك في ذا مجزئاً. فقال إن سعادي في الكون هي أن أرضى عن أميري ويرضى عني. وشقاوتي هي أن أغضب منه ويغضب مني. وقد نسيت كل ما جرى عليّ من الغضب والرضى. لكثرة المشادة والمقتضى فإن صبرت عليّ في المستأنف شهراً. لأقيد في دفترتي ما ألقاه منه حلواً ومرأً. ونفعا وضراً. أفدتك الجواب فاقبل عذراً فصيرته رابع الثلاثة. وقلت لأستشيرن ذا حداثة. فإن أهل المراتب والمناصب قد ذهبت صدارتهم بالباهم. فلم يبق فيهم خير لقارع باهم. فجئت الفاريق وهو مكب على النسخ. وفي طلعتة مبادئ المسخ. فقد رأيت عينيه غائرتين. ويديه ذاويتين. وعظم خديه نائناً. وجلده كالظل زائناً. حتى رثيت لحالته. وكدت امسك عن الكلام إشفاقاً من بطالته. لكنه لما رأي قام إلي. ثم أقبل عليّ. وقال هل من خدمة اقتضيت سعبي. أو نجوى أو جبت وعيي. فقلت قد أقدمني كذا وكذا. فاكفني ذل السؤال كفيت الأذى. فأخذ رقعة من تحت أسمال. وكتب فيها في الحال

أثبتني مستفتياً في أمر	يعلمه كل امرئ ذي حجر
الخير إن قابلته بالشر	في العمر كان قطرة من بحر
ألا ترى الأجرب كيف تسري	عدواه في جميع أهل المصر
وليس من ذي صحة ويسر	عدوى لمن دانه طوال العمر
والطفل إذ يثغركم من ضر	يلقي ويلقى عنده في قبر
وعند إشعار ونبت ظفر	ليس له من لذة وسر
وكل عضو لقبول الكسر	أقرب منه لقبول الجبر
وما فسادة سريعاً يزري	كالعين لن تصلحه في دهر
ونعي طفل لأبيه يفري	فؤاده وكل عظم يبيري

وليس في مولده من بشر	ندّ لحزن موته الأضرّ
وما تكون لذة عن فكر	إذا تحققت ولا عن ذكر
وإنما ذا هوس قد يجري	في خاطر المغفل المغتر
فهل تصور الشفاء يبيري	ذا مرض أمرض منذ شهر
وهل لمن يبرد وقت القرّ	دفعاً بتذكّار أوان الحرّ
فليس دنيانا لأهل الخبر	سوى بلاء دائم وخسر
يولد فيها العبد غير حرّ	وهكذا يموت رغماً فادر

قال فلما أخذت الرقعة وتأملت فيها. وتحققت معانيها. علمت أن قوله هو الأسد. وإن قول غيره هذيان وفند. فقلت له بورك في زمن جاد بمثلك. وهدى المستفيدين إلى رشدك وفضلك. وقبحا لأهل الثرا إذ لم يحلوك ارفع الذرى. ثم انصرفت من عنده داعياً ولما قاله واعياً.

### سر الاعتراف

هجع هجع الحمد لله. الحمد لله قد تخلصت من إنشاء هذه المقامة ومن رقمها أيضاً فأثما كانت باهضة. ولم يبق لي همّ منها سوى حث القارئ على مطالعتها. وهي وإن تكن خشنة غير مهلهلة كسجع الحريري إلا إنها تلبس على علائها. وتحمد لإفادتها. وفي ظني أن الثانية تكون أحسن منها. والثالثة أحسن من الثانية. والرابعة أحسن من الثالثة. والخمسين أحسن من التاسعة والأربعين لا من هذا التهويل والتهويل لا تخف. إنما هي أربع لا غير كما وعدتك. والآن ينبغي أن أعصر يافوخي لا ستقطر منه أفكاراً ومعاني حسنة وألفاظاً رائعة مع تجنب الثثرة. فإن العلماء يسمون ذلك فيما أظن إخلاء. ولكن قف هنا حتى أسألكم. ماذا تسمون الكلام الذي يتدفق بالمعاني ويبلّ قارئه حتى آتيكم به. فإن لم تسموه لي حالاً فلا تلوموني على نقيضه. فإني أنا من الموجود ودأبي أن أبحث عنه لا عن المعدوم. ولما كان اسم الإخلاء موجوداً ونقيضه معدوماً ناسب أن أعدل إليه عن غيره. إلى أن تتواطؤوا على اسم ولكن لا بالخناق والتناوش. والنقار والتهاموش. وبالجلاد والجدال. وبالتماسك بالجيوب والأذيال بل بالرزانة والوقار. والأوان والاستبصار. فإن الرزين إذا وضع اسماً لشيء جاء ذلك الاسم رزيناً مثله. فلا يمكن بعد انتقاله إلى آخر. بل ربما وقر بالاسم المسمى وإن يكن مما اتصف بالخفة والطيش. ألا ترى أن كلام الشاعر الرقيق يأتي رقيقاً. وكلام الضخم يأتي ضخماً. كما قيل كلام الملوك ملوك الكلام. وشعر المرأة يأتي خالِباً

للعقول لاعباً بالألباب مثلها. ويستثنى من هذه القاعدة وضع الولد من قبل أبيه أي مادة توزيع الولد. لا أن الأب يحبل ويلد. وذلك أن الوالد قد يكون قبيحاً ويأتي ولده صبيحاً. وسببه أن الإيلاد لما كان من الأفعال التي لا تتم إلا بمشاركة اثنين أعني رجلاً وامراً إذ التغليب هنا لا يخلو أيضاً من الإيهام. لم يكن للوالد مطلق التصرف في هبة ولده كما شاء. فقد يكون هو عند ذلك مقدراً له شكلاً ارتضاه وتكون أمه حرسها الله مقدرة له شكلاً آخر بحسبما استحسنته وخلع صدرها إذ ذاك. فيأتي الولد خنفسارياً. لا يقال أن الرجل لا يستحضر عند ذلك صورة معلومة لذهوله بشاغل المادة. فإن ذلك لا يصدق على ألف شيئاً واحداً بخصوصه. فإن طول ألفه الإنسان لشيء تعدل هواه فيه فيباشره برشده وروية. فمثله كمثل الطباخ الشبعان يطبخ خضض الطعام بإتقان وإحكام بخلاف الجائع فإنه يلهوج عمله ويلهوته.

فاعلم إذاً بعد هذا الاستطراد البديع. والعضال المجمع. أن الفاريق ذهب ذات يوم إلى بعض القسيسين ليعترف له بما فعل وفكر. وقال من المنكر. فقال له القسيس فيما سأل به: قد سمعت عنك إنك كلف بالنظم وبالألحان وهما من أعظم أسباب الفساد والغرام. فهل سول إليك الخناس أن تتغزل في الشعر بامرأة قاعدة النهد. موردة الخد. بينة الكحل. مرتجة الكفل. نخيلة الخصر. مفلجة الثغر. عثلة الساقين. مجدولة الساعدين. سوداء الشعر والحلمتين. نجلاء العينين. مخضبة الكفين. رقيقة الشفتين. مزججة الحاجبين. مدورة السرة. ذات عكن مفترية. حلوة الابتسام. مهفهفة القوام. لها رُضاب عذب. ونكهة تسكر الصب. قال قد فعلت ذلك لكني أن أراك إلا حريفي في هذه الصنعة. فقد رأيتك تحسن وصف الحسان أي إحسان. قال ليست حرفتي تلفيق الكلام. وإنما هو شيء عرفته بالقياس والإلهام. فأنكل من تعاطى النظم يملأ دماغه بهذا الوصف المحرم. وكيف كان فلا بد من أن تحرق غزلك كله، بالتفصيل والجملة. فإنه يبعث الإغرار على المعاصي. فتجزى به يوم يؤخذ بالنواصي. وتعز التفاسي. قال كيف أحرق في ساعة واحدة ما سهرت فيه ليلي متعددة حرمت فيها من الكرى. وكابدت بها جهداً ولا جهد الشرى أو الشرى. فكنت إذا نظمت البيت من القصيدة يخيل إليّ إني قطعت مرحلة إلى محل المتغزل بها. وعند تمام القصيدة أتصور أنني وصلت إليها ولم يبق بيني وبينها سوى فتح الباب. فكان الختام عندي افتتاحاً خلافاً لجميع الشعراء. ولذلك لم أكن أقصد القصائد الطويلة خشية أن تطول عليّ المسافة بطولها فهل من الرأي السديد أن يحبط عملي كله من أجل الإغرار. وبعد فإني لا أريد أنهم يقرءون كلامي لأهم أن لم سألوا عنه أهل العلم فيذمه هؤلاء ويخطئونني ويفندوني. إذ لا يرون في كلام الصغير الوضع حسناً. إن استحسونه لم يكن جزائي منهم إلا قولهم أخزاه الله وقاتله الله وثكلته أمه ولا أب له ولا أم له. قال أن أبيت إلا الإصرار على العناد. والزيغ عن جادة الرشاد. أمسكت عنك مغفرة ذنوبك. ونددت في الكنيسة

بعيونك. قال لا تعجل فإن العجلة من الشيطان. أرايتك لو مدحتك بقصيدة طويلة تجعلها كفارة عن الذنب. وإن شئت أن أمدح فيها أيضاً جميع الرهبان والراهبات والعابدين والعبادات والزاهدين والزاهدات والناسكين والناسكات والقانتين والقانتات والمفردين والمفردات والمغبرين والمغربات والمذكرين والمذكرات والذاكرين والذاكرات والمتقين والمتقيات والمتبتلين والمتبتلات والمتهجدات والمتهجدات والساجدين والساجدات والمخبتين والمخبتات والمسبحين والمسبحات فعلت. فكر ساعة وكأنه رأى أن ليس في التغزل كبير إثم. فإن وصف المرأة مثلاً بضخم الكفل وفعومة الذراع وتدملك الثدي إذا كانت في الواقع كذلك إنما هو من قبيل قول القائل البدر طالع عند طلوعه أو السحاب منقشع عند انقشاعه. وإنما يكون افتراء وإنما إذا وصفت بذلك وكانت مسحاء مرداء وكانت تتخذ الحشايا لتحسب عجزاء فصدها ناظرها في ذلك وقال فيها ما قال مجازفة. فلما تدبر الأمر ورازه بعقله قال. لا ينبغي أن تتخذ مدحي كفارة فأني أخشى أن تمسك بي ولا تعود تطلقني. إذ أرى من قوافيك في الفاعلين والفاعلات إنك مُسكة عُلقه نشبة لزمة. وإنما تمدح أولياء الله والربانيين الصالحين الذين زهدوا في الدنيا رغبة في الآخرة لوجه الله ولبسوا المسوح ولزموا السهر في طاعة الله وداوموا على التقشف حباً بالله. فمنهم من لم يأكل مدة حياته إلا العدس والخبز جافاً صلباً. فقال الفاريق وأعقبه أيضاً كسر سن وحكة. قف قف. قد نسيت أن أذكر لك شيئاً أخطره الآن ببالي العدس. وذلك إني تسببت مرة في إخراج رويهب من ديره وتركه الطريقة، وإنما الذي أغرائني بذلك ما قاسيته فيه ففعلت ما تشفياً. فقال ذنبك في التشفي وهو ضرب من الانتقام أكبر من ذنبك في إخراج الرويهب. فإن أكثر الرهبان لا فائدة من إقامتهم في الدير لا لهم ولا لغيرهم. وما عدا ذلك فقد يحتمل أن هذا الرويهب يتزوج ويجعل من ولده رهباناً كثيرين. ولكن إذا مدحت الراهبات فأحذر من أن تذكر لهن أئداء وأعجاز إذ لا شيء لهن من ذلك. فأن طول الاعتكاف والاحتجاب قد صيرهن مخالفات لسائر النساء. ونحن معاشر العباد أعلم بهن. فقال له الفاريق سألتك بالله معبود أهل السماوات والأرض هل جميع القسيسين مثلك في الظرافة والدعابة. قال لا أدري وإنما أدري إني أنا وحدي شقيت بما عرفت وإني لو بقيت جاهلاً مثلهم لكان خيراً لي أن من الجهل لراحة. فقال له وكيف ذلك. قال أعندك للسر مكان حريز. قال أن سري من دمعي فلا أبوح به. قلت بل باح به الآن قال أتريد أن أقص عليك قصتي. قال أكرم بما قال أصح سمعاً.

### قصة القسيس

ثم طفق يقول. اعلم إنني كنت في مبدأ أمري حائكاً. ولما شاء الله تعالى من الأزل أن يخلقني قبيحاً وقصيراً. حتى أن أُمِّي عند نظرها إلي كانت تحمد الله على أنه لم يخلقني بنتاً لم أكن أصلح للحياكة. لأن قصري الفاحش مناني غير مرة في حفرة النول بالبهر والخناق. إذ كان جسمي كله يغيب فيها فينقطع نفسي. مع إن منخري بحمد الله يسعان من الهواء ما يكفي خمسين رثة وخمسين كرشاً. وكثيراً ما كان يغشى علي فيها وأوخذ منها على آخر رمق. فلما قاسيت من هذه الحرفة كل جهد وعناء رأيت أن التسبب ببعض ما يرغب فيه النساء أصلح. فاكترت لي حانوتاً صغيراً وقعدت فيه فكانت النساء يمررن علي وينظرن إلي ثم يتضحكن. وسمعت مرة منهن من تقول لو كان الظاهر عنواناً صادقاً على الباطن لكان خرطوم هذا التاجر يشفع له في جثته ويروح سلمته فاعتمدت على كلامها وقلت لعل من القبح سعادة. فقد قيل في الأمثال إن من الحسن لشقوة. ومكثت مدة على هذه الحال من غير طائل. فإن أنفي وقف بيني وبين رزقي. وبلغ كبره من الفحش بحيث أنه لم يدع لغير الأبناء والأعراض عني موضعاً. فقعدت يوماً أفكر في خلق الله تعالى هذا الكون. وأقول يا لحكمة الله كيف تخلق في الدنيا إنساناً ثم تخلق فيه شيئاً يمنع رزقه وقوام معيشته. ما الفائدة من هذا الأنف الضخم الذي لا يصلح لشيء إلا لأن تضمن فيه إعجاز قفا نبك. ولم لم يقور منه شيء ويكور في جثتي. ومالي أرى بعض الناس جميلاً كالملك وبعضهم قبيحاً كالشيطان. ألسنا جميعاً خلق الله؟ أليس سبحانه يعمهم كلهم بعنايته على خد سوى. أليس الصانع الأرحم إذا أراد أن يصنع شيئاً فإنه يتأنق فيه ويتقنه عند استطاعته ويأتي به من أحسن ما يكون. هل يصور المصور صورة قبيحة إلا لكي يضحك الناس من المصور عنه. العل في ضخم الأنف حسناً أو خيراً أو نفعاً ونحن معاشر المخلوقين لا نعلمه. ثم أقوم إلى المرأة وأأمل وجهي فيها فأنكره ولا أجد فيه موضعاً للاستحسان فأعود إلى مذهبي الأول وأقول: إن كنت أنا لم أستحسن وجهي فهل يستحسنه آخر غيري. على أن الإنسان يرى ذم غيره فيه حسناً ورذيلته فضيلة أترى في الناس من يروق لعينه القبح. فقد يقال أن السود لا يرون في الأبيض منا حسناً. غير أن لون السواد عندهم عامٌ فلذلك يستحسنونه. وما أرى غيري من أقل أنفاً كأنفي حتى أطمع في أنه يكون مستحسناً. أما اللون فإني لست من البيض ولا من السود بين اللاعنين ألا ليت أهل بلدي كانوا كلهم مثلي قنابين فأتسلى وأتأسى بهم. من أين ورثت هذا الجلمود وأنف أبي كان كأنوف الناس. ليت شعري أين كان عقل أبي حين نقر في رأسه فكر إنشائي في هذا الكون وفي أي طود أو طربال أو منارة كانت أُمِّي تفكر ليلة رواحته على هذا العمل. إلا ليتما غشي عليهما تلك الليلة فما أفاقاً. أو فدرا فما أطاقا. أو سحرا فما تاقا. أو سكرًا فما قاقا. وجعلت أجيل هذه الأفكار في رأسي وأصوغها في قوالب مختلفة وأفانين متنوعة. وإذا بامرأة متنقبة أقبلت عليّ وقد نتأت من



تحت نقابها شيء شبيه بالقلة. فظننت إنها جعلت حنجور عطر عند أنفها لتشمه عند مرورها على الجيف في أسواق المدينة. فسألتني عن شيء تريد شراءه فسرته لها فكأنها استغلته فقالت لي أقصد فإن تسعيرك هذا تسعير فقلت لها وأن شراءك لشري. فضحكت وقالت لقد أحسنت في الجواب ولكنك أسأت في الطلب فراع حقوق الشركة والجنسية فأني شريكك ورفيقتك. فكان ينبغي لك أن تحاييني قلت أي شركة بيننا أصلحك الله وهذه أول خطوة شرفتي فيها الزيارة. فرفعت النقاب وإذا بأنفها النائي يضيق عنه وجهها. وكأنه واجه أنفي ليحييه. فخطر ببالي ح ما قيل عن ذلك الغراب الذي كان يجمع وألف غراباً مهيب الجناح. وأن أحد الشعراء لما أبصرهما قال ما كنت أدري ما أراد به بعضهم يقول أن الطيور على آلفها تقع حتى رأيت هذين الغرابين. ثم أي بعثتها أخيراً ما أردت أن تشتريه. وحاولت أن أقبلها قبلة واحدة تعويضاً عما خسرتة معها فما أمكن لي. لأن أنفينا حالاً ما بيننا. ثم ذهبت ومكثت أنا على تلك الحال مدة. فلما تحققت أي لا أصلح للتجارة لأن النساء لا يشتريين إلا ممن كان فرها غيسانياً تبركا بجمال طلعه في إهن يتمتعن بما اشترين من عنده. وتذكراً لذلك النهار السعيد الذي عرفته فيه. وإني مذ فتحت الدكان لم أبع إلا لتلك الكرنيفية وكان ذلك بخسارة. عزمت على الرهبانية فذهبت إلى دير ما وقلت للرئيس. وقد أقدمني الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. فإن الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً. وأن اللبيب من اتخذ دنياه هذه مجازاً إلى تلك. إذ لو كانت هذه وطننا الذي شاءه لنا خالقنا لكنا نعمل فيها طويلاً. على أنا نرى أن من الناس من يولد فيها ويعيش يوماً واحداً فهذا دليل على أنا لم نخلق لها. وأشباه ذلك من الكلام الذي جرى على ألسنة العباد. فقبلني الرئيس وأعتقد في الفضل. واتفق في اليوم القابل أنه حاول التسور على حائط لينفذ منه إلى بعض بيوت الشركاء فدخلت في إحدى عينيه قاصدة من غصن شجرة فذهبت بها. فرجع غضبان وقد تشاءم بقدمي إلى الدير. إذ كان قد ألف التسور قبل مجيئي بمدة طويلة ولم يعرض له شيء قط فمن ثم طردني من الدير فدخلت ديراً آخر واعدت الكلام الأول. فقبلني رئيسه فأقامت ثم أياماً أقاسي فيها من قشف المعيشة والوسخ ما لا يرضي الله ولا أحداً من العالمين. هذا ما عدا ما كنت أرى من عناد الرهبان وتفرق آرائهم. وطعن بعضهم في بعض وشكواهم الدائمة للرئيس من أمور باطلة. وتكبر هذا عليهم وأثرته بأشياء استخصها لنفسه من دونهم. وتنافسهم فيما يهدي إليهم النساء من نحو منديل وكيس وتكة. وزد على ذلك كله جهل الجميع إذ لم يكن في الدير كله من يحسن كتب رسالة في معنى من المعاني. حتى أن الرئيس نفسه أدام الله عزه لم يكن يعرف أن يكتب سطراً واحداً بالعربية وإنما كان يخط هذه الحروف السريانية المعروفة عندهم باسم كرشوني. وكان هذا الجاهل يتجح بمعرفته لها ويحمل كل من دخل صومعته على إعظامها. حتى أنه كان يدعو أياً ما كان لزيارته. فكانت الأغرار من الرهبان تعتقد أن ذلك من حسن أخلاقه

وكرم طباعه. وكان قد كتب بها على بابه سطرًا وعلى الحائط سطرًا آخر. فكنت حين انظر ذلك اضحك. وهو من غفلته يظن أني أضحك إعجاباً بها. ومن كان خبا مخاتلاً من الرهبان على جهله فإن كثيراً من الناس قد جمعوا بين الختل والجهل كان يقترب عليه استجلاباً لرضاه بان يقول له وهو حاسر الرأس تواضعا وخشوعاً أكرم عليّ يا سيدي بنسخة من خطك اصلح عليها خطي. فكان ذلك من أحسن ما يدل به عليه. فلما اشتد عليّ الخطب من عشرتهم وخصوصاً من رداءة الطعام أدمدم وأتضرجر. فسمعتني يوماً طبّاخ الدير أشكو من قلة السمن في الأرز الذي كان يطبخه في بعض الأعياد العظيمة. وكان عتلاً زنيماً. فاستشاط مني غيظاً وحملني على كتفه كما يحمل الرجل ولده ولكن بلا شفقة. ثم ذهب بي إلى مزار الدير وغطسني في خابية السمن وهو يقول. هذا السمن الذي أطبخ به الأرز الذي لم يعجبك يا صاحب الخرطوم. يا سليل البوم. يا نصيب المحروم. يا ابن اللوم. يا أبا الكبائر والجروم. يا رائحة الثوم. يا ربح السموم. يا علجوم. يا منهوم. يا لهوم. يا وخوم. وصب عليّ قوافي كثيرة غير هذه. فبلغ مني تغطيسه عرضي في السب أكثر من تغطيسة رأسي في السمن. فتملصت منه بعد جهد ودخلت صومعتي حتى أغسل وإذا به يطرق الباب ويعج ويقول. لا بد من أن أعصر أنفك فقد دخل فيه من السمن ما يكفي الرهبان أياماً. ثم أهوى بيديه على منخري كأههما كلبتا حداد وجعل يعصرهما أشد العصر. حتى ظننت أن قد زهقت نفسي منهما. فإن الأنف وحده دون سائر ثقبوب الجسد محل دخول النفس وخروجها خلافاً لقوم. ولذلك يقال تنفس الإنسان. فلما شق عليّ ما قاسيته ولم أجد في الدير من أشكو إليه. إذ الرهبان كلهم يتملقون ويتوددون إليه حتى يشبعهم ولو من الشرتم.

خرجت من الدير مبتتسا حزينا قانطاً وقد ضاقت الدنيا عليّ برحبها. وقلت أين أذهب بأنفي هذا الذي سد عليّ مذاهب الرزق أم أين يذهب بي هو. فخطر ببالي أن أقصد ديراً بعيداً كنت أسمع عن رهبانه انهم صلاح. وإن بعضهم يحسن الخط العربي ويحب الغريب ويكرم الضيف. فتوجهت إليه فلما سلمت على رئيسه وطالعتته بما عزمت عليه أحمد رأيي وهش بي. لكنه لم يتمالك أن نظر إليّ نظر المتعجب مني المستعبد من شؤم تبعة تلحقه من أنفي فمكث في ديره ما شاء الله أن أمكث.

### تمام قصة القسيس

وجعلت من مدة مكثي هناك بادئ بدئ مداراة الطباخ ومساحته والثناء عليه. فكان لا يحوجني إلى شيء مما يمكن نيله في الدير. حتى أني جعلت جلّ مقامي في المطبخ. وكنت أحسن أيضاً طبخ ألوان من الطعام لا يعرفها هو فعلته إياها فكلف بي. فكان رئيس الدير إذا استضافه أحد عزيز عليه أو اشتهى لونا من

الطعام بخصوصه كلفني به. فكنت أتأق له فيعمله ما أمكن حتى حظيت عنده. أعني أي كنت أسامره وأجلس بين يديه. ثم أي تلبست بالصلاح والتقوى بين الرهبان. فكنت أسدل قلنسوتي حتى تبلغ قصبة انفي. ويا ليت العادة جرت بان يستر الأنف بما كله. وكنت إذا مشيت أخفض رأسي إلى الأرض ولا أنظر يمينا ولا شمالا إلى الحما. وإذا أكلت أو شربت أو رقدت أو مشيت أو غسلت وجهي أخبر عن ذلك كله حامداً لله ومشياً عليه. فأقول مثلاً: قد خرجت اليوم من صومعتي والله الحمد أو والله المجد وهي أحب إلى الرهبان. أو تناولت في هذا الصباح مسهلاً إن كان الله تقبل وما أشبه ذلك مما عرف عند المتظاهرين بالتقوى. حتى اعتقد الرهبان في جميعا الصلاح والفضيلة. وكنت أيضاً قد كتبت بعض صلوات ركيكة للرئيس فأعجب بخطي ومدحني على ذلك. ووعدني بأن يرقيني إلى درجة تليق بي. إذ رأي متميزاً عن الرهبان بالعلم وجودة الرأي. وأخص ذلك بكوني غيدارا الغيدار هو السيئ الظن يظن فيصيب.

ثم قدر الله رب الموت والحياة أن مات بعض البلدان البعيدة بعض القسيسين الذين يباشرون خدمة الرعية. أي الذين يأكلون ويشربون في بيوت الناس لا في الدير. واللذين يختلطون برعيتهم خلافا لعادة الرهبان. فإن هؤلاء لا يخالطون الناس إلا عند الضرورة. فتسبب رئيس الدير في أن يبعثني إلى ذلك البلد في مكان القسيس المتوفى أي بدلاً منه لا أي دفنت معه. فلما وصلت تلقاني أهل كنيسة بالإكرام والترحيب. فأبدت فيهم الورع والعفة فشاع فضلي بينهم. حتى أن بعض التجار ممن كان حرمه الله من لذة البنين دعاني إلى منزله لأقيم عنده رجاء أن يفتح الله رحم امرأته بسبي كما تقول التوراة فتلد له البنين. وكانت جميلة رشيقة القد قاعدة النهد. تحب الخلعة واللهمو. والقصف والزهو. سبحان الله ما أحد يذكر النساء إلا ويهيج خاطره للسجع فأقمت عنده مدة في أنعم عيش وجدة. ثم عن لي أن أغازل زوجته وأناغيها. وأعاشرها وأراضيها. فأجابت إلى مراودتي. ولم تبال بأرنبتي. فإن من طبع النساء الميل إلى الولي. والاستغناء عنه بالقصي. وما أدراك ما اعتذرت به إحدى النساء بقولها قرب الوساد. وطول السواد. فبرزت الدنيا لعيني في أحسن صورة. ونسيت ما لاقيت في الدير من المشاق الكثيرة. وقلت لأعوضن عليّ ما دامت فرصة الحظ لي ممكنة. وشوارده مدعنة. كل ما فاتني منه أيام كنت حائكا. وطباخا وناسكا. ثم فرضت علي نفسي أنت قسم لذاتي معها على كل يوم غير مرة. كدأب المتزوج بحرة. وعلى الحاضر. وهو الآن أيضاً في حيز الغابر. بحسب البواعث والبوادر. فبدأت بالعدد. حتى بلغت الأمد. وكان الرجل ذا نية سليمة. وشيمة مستقيمة. فلم يكن يسيء بي الظن. ولا يعوقه عن شغله أمر عن. فترك لنا قطوف اللذات دانية. وكؤوس المسرات صافية. ومن العجب. الذي ينبغي أن يدون في الكتب. إنها كانت تخاصم الخادمة في حضرته وغيابه. وتشتمها بين يديه افحش الشتم منعا لارتيابه. ولم تخش منها تبعه. ولا كانت

من طردها جزعة. وقد طردت كثيراً من الخوادم لسبب ولغير سبب. بعد سبهن كل السب. وحملهن على الحقد والغضب. وذلك من معجزات النساء وبدعهن الغريب الذي يعمي الرجال عن كنه سره العجيب. والحاصل أني كنت أعجب بحسنها. كما كنت أعجب من فنها. وأني أقمت معها على هذه الحالة في غاية السر. مفنقاً راتعا ولا حظر ومتزوجاً ولا مهر. ثم استأنفت عدداً آخر. أطول من ذاك وأكثر. فلما أبطرتني النعمة. وأمنت من الدهر كل نقمة. نقر في رأسي أن أجمع بين الكافين. فإن بكثرة العين قرة العين. وقلما رأيت من أهمك في الأول. إلا وتعاطى الثاني وما أشبه من العقل. وذلك كالقمار والجبخ والفشخ والحجر والإبحار والندب والخطر والرشق والقرع والنحش والصبن والضغو والغذمة والمحارضة والمناجبة والمراهنه والمجازفة والمحاولة والمزانية والالجباء والمداحلة والمعارضة والمناجزة والمباداة والمباحسة والمغابنة والموالسة والتدليس والتطويع والمقاطرة والمعاومة والمراوضة والمواصفة. فهطهبل وطهفل. ومحل وطمهمل. ودجل وزعفل. وابطل وتخبيل. وعرقل وتبهلص وتبهلص وبهصل فاجتمعت برجل كنت اسمع عنه إنه يتعاطى هذه الصنعة. وقد تفرغ لها بجد وبذل فيها وسعه. وأوسع فيها بذله. وعقل بما عقله وفي الجملة والتفصيل. من دون قافية وسجع طويل. تعاطيتها معه انتهى سجع القسيس قال فجعلت انفق فيها ما اجمعه من العجائز والإغرار برسم النفوس والأرواح. وأنا مع ذلك مواظب على الصنعة الأولى. بل كان ذلك داعياً لزيارة هيام كل مني ومن يزيعتي. فإنها طمعت ح في الهدايا والصلوات كما هو دأب النساء في كل أمر يحدث لأزواجهن وعشاقهن. فبلغ خبر صنعتي هذه الحديثة للجاثليق. فأرسل يطلب مني المال الذي جمعته. فتعللت له بعلل أباهاً ولم يرضها. فتسبب في إحضاري إليه وضبط ما كان عندي من متاع وغيره. ولم يشق عليّ فقد ذلك كله قدر ما شقّ عليّ انقطاع العدد الذي كنت شرعت فيه في بيت التاجر الصالح.

ثم أني تفلت من عكال الجاثليق بعد مدة كادت أن تنسيني لذات الأيام الغابرة. وخرجت في طلب آخر نكاية لذلك فصرت إلى جاثليق من اشدّ الناس عداوة لجاثليقي القديم. إذ العداوة توجد بين الجاثليقة، كما توجد بين الزنادقة. فأقمت عنده مدة ثم خشي عليّ أن يرهقني من ذاك سوء فسفرني إلى بلاد بعيدة في سفينة حرب. فما سرنا بعض ساعات حتى تعطل بعض أدوات السفينة وخشي ربانها أن تغرق بهم . فرجع وقد تشاءم بي وقال لبعض الركاب أنه إنما جرى عليه ما جرى من شمشخريتي فتعجب إذ بلغني كلامه جداً. لأن أولئك القوم لا يرتسمون ولا يتشاءمون. ولا يتطيرون ولا يتفاءلون. ولا يتحتمون ولا يتيمنون. ولا يتسعدون ولا يتمسحون ولا يقلدون بعود الشبارق ولا يستعلمون نبت العطف. وما عندهم هقعة ولا لجام ولا عاطوس ولا عاطس. ولا كايح ولا كادس. ولا قعيد ولا داكس. ولا بارح

ولا سانح. ولا زجر ولا تحزي. ولا عثيرة ولا عيافة ولا طرق ولا عرافة ولا هجيج ولا كهانة. ولا ابنا عيان ولا تنجي. ولا لمة ولا حفوف. ولا لعطة ولا انتحاء. ولا تشوه ولا تعيد. ولا طلاس ولا تشهق. ولا عزائم. ولا رقي ولا تائم. ولا الينجلب ولا تولة. ولا حوط ولا غز. ولا تدسيم النونة ولا شد الحقاب. ولا رسع ولا صحبة. ولا قليب ولا كبدة ولا وجيه ولا سلوانة. ولا سلوان ولا نقرة. ولا مجول ولا مهرة. ولا أخذة ولا عوذة. ولا هبرة ولا رامة. ولا كحلة ولا هنمة. ولا جلبة ولا صرة. ولا قبله ولا نشزة. ولا قبله ولا نقرة. ولا صدحة ولا همزة. ولا زرقه ولا عطفة. ولا فطسة ولا صرفة. ولا غضار ولا كرار. ولا بريم ولا حرز. ولا خصمة ولا رتيمة. ولا اسحم ولا صهيم. ولا تذعب ولا صوت اللوف. ولا هامة ولا صفر. ولا أخذة النار ولا تنجيس ولا لحج ولا انكيس. ولا أس ولا شحيثا ولا طلب ولا تول. ولا سحر ولا ماقط. ولا عاضه ولا مستنشئة. ولا نفاثات في العقد ولا صدي. ولا شعبة ولا نيرنج. ولا شعوذة ولا حابل ولا حاو.

ويومئذ أيقنت أن القناني مكروه عند جميع الأمم. وإن أوقية لحم زائدة في وجه الرجل تشفيه وتحرمه. ورطلين في بتلية المرأة يسعدانها ويفيزانها. فراد تعجي من هذه الدنيا المبنية على رطلين وأوقية لحم ومع ذلك فلم يمكن لي الزهد فيها.

ثم إنني سافرت بعد ذلك إلى تلك البلاد وأمنت فيها من مكر أعدائي. واستأجرت بيتاً واتخذت لي امرأة تخدمني. وقد جرت العادة في تلك البلاد وفي بلاد الإفرنج أيضاً بأن يتخذ القسيسون نساء للخدمة. فتأتي المرأة أحدهم صباحاً وهو في فراشه الوثير وتقضي له ما يروم منها. فلما ذقت طيب العيش وسوس إلي الوسواس أن أتزوج بنتاً فقيرة لكنها كانت جميلة غير أنني لم أكن على يقين من نهود ثدييها ومع ذلك فقد كلفت بها. فطلبت من الجاثليق أن يزيد وظيفتي فأبى. فألححت عليه وهو مصر على المنع وأنا مصر على الاستزادة. ثم ناقشته وراغمته فرأى أن يردني من حيث جئت.

فسرت إلى جاثليق محب للجاثليق الأول برؤيتي وأنزلي عنده. فرجعت إلى ما كنت عليه سابقاً. وها أنا مترقب فرصة أخرى تمكنني من المقايضة على هذا النحس الآخر أيضاً فإنه جاهل جداً. وعندني أن مبادلة الجاثليقة في هذا الزمان العسوف انفع من حجر الفيلسوف. انتهت قصة القسيس وهذا تفسير ما أشار إليه آنفاً من الألفاظ الغريبة: أبناء: طائران أو خطان يخطهما العائف في الأرض يقول ابنا عيان أسرع البيان أخذة النار بعيد صلاة المغرب يزعمون إنها شر ساعة يقتدح فيها.

الأخذة رقية كالسحر أو خرزة يؤخذ بها الارتسام التكبير والتعوذ والتحتم التفاؤل الأسحم الدم تغمس فيه أيدي المتحالفين أس كلمة تقال للحية فتخضع الانكيس في أشكال الرمل كالمنكوس البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك البريم خيطان مختلفان أحمر وأبيض على وسطها وعصدها.. والعودة

التحزي حزا حزواً وتحزي زجر وتكهّن وحزي الطير ساقها وزجرها تدسيم النونة تدسيم نونة الصبي  
تسويدها كيلا تصيبها العين التدعب تدعبته الجن أفزعتة التشهق شهقت عين الناظر عليه أصابته بعين  
التشوه يقال لا تشوه علي أي لا تصبني بعين التعيد تعيد العاين على المعيون تشهق عليه وتشدد ليبالغ في  
إصابته بعينه ذكره الفيروزآبادي في ع ود

التنجيس اسم شيء من القدر أو عظام الموتى أو خرقة الحائض كان يعلق على من يخاف عليه من ولوع  
الجن به تنجي تنجي لفلان تشوه له ليصيبه بالعين كنجا له ونجاة بالهمز أصابه بالعين التّول تال يتول عالج  
السحر التّولة السحر أو شبه وخرز تحبب معها المرأة إلى زوجها كالتولة.  
الجلبة العودّة تحرز عليها جلدة الحابل الساحر الحرز العودّة الحُفوف شدة الإصابة بالعين الحوط خرزات  
وهلال من فضة تشده المرأة في وسطها لثلا تصيبها العين الخصمة من حروز الرجال تلبس عند المنازعة أو  
الدخول على السلطان الرامة خرزة المحبة الرّثيمة كان من أراد سفراً يعمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها  
فأن رجع وكان على حالهما قال أن أهله لم تخنه وإلا فقد خانتة وذلك الرثم والرثيمة الرسع رسع الصبي  
شد في يده أو رجله خرزاً لدفع العين الزجر العيافة والتكهّن.

الزرقة خرزة للتأخيد السائح ضد البارح السلوان ما يشرب ليسلي أو هو أن يؤخذ تراب قبر ميت فيجعل  
في ماء فيسقى العاشق فيموت حبه الخ.

السلوانة خرزة للتأخيد وخرزة تدفن في الرمل فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه شدة الحقاب  
الحقاب خيط في حقو الصبي لدفع العين الشعبة السعودة الشعودة أخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما عليه  
أصله في رأي العين شيحنا كلمة سريانية تنفتح بها الأغاليق بلا مفاتيح الصخبة خرزة تستعمل في الحب  
والبغض الصدحة وبالضم والتحريك خرزة للتأخيد الصرّة خرزة للتأخيد الصرفة خرزة للتأخيد الصهميم  
حلوان الكاهن صوت اللوف نبات له بصلة تسمى الصراخة لأن له في يوم المهرجان صوتاً يزعمون أن  
من سمعه يموت في يومه الصفر حية في البطن تلزق بالضلوع فتعضها أو الخ.

الطب مثلثة الرفق والسحر الطرق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف إذا تكهّن العاضة الساحر والعضة  
الكذب والبهتان والسحر العاطو ما يعطس منه ودابة يتشاءم بها والعاطس ما استقبلك من أمامك من  
الطباء العرافة العراف الكاهن والطبيب وصنعتة العرافة وقد عرف ككتب العطف نبت يؤخذ بعض  
عروقه ويلوي وي طرح على الفارك فتحب زوجها العطفة خرزة للتأنيذ العقرة خرزة تحملها المرأة لثلا تلد  
عود الشبارق الشبارق شجر عال ويقلد الخيل وغيره بعوده للعين العيافة عفت الطير أعيفها عياقة زجرها  
وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتسعد أو تتشاءم.

العيثرة عيثر الطير رآها جارية فزجرها الغز غز الإبل والصبي علقا عليهما العهون من العين غضار وكرار

الغضار خزف يحمل لدفع العين وكرار خرزة للتأنيذ تقول الساحرة يا كرار كرية ويا همرة أهمرية أن أقبل فسرّيه وإن أدبر فضربّه الفطسة خرزة لهم للتأنيذ يقلن اخذته بالفطسة بالثؤباً والعطسة القبلة ضرب من الخرز يؤخذ بها القبلة ما تتخذها الساحرة لتقبل به وجه الإنسان على صاحبه القليب خرزة للتأنيذ الكابح ما استقبلك مما يتطير منه الكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما والقعيد من الظباء وهو الذي يجي من خلفك ويتشاءم به ونخوه الداكس الكبدية خرزة للحب الكحلة خرزة للتأنيذ أو للعين اللجام ما يتطير منه اللحج لحجه بعينه أصابه بها اللعطة اسم من لعطه بسهم أو بعين أصابه اللمة يقال أصابته من الجن لمة أي مس أو تقليل والعين اللامة المصيبة بالسوء الماقت الحازي المتكهن الطارق بالحصي المحول العوذة المستنشنة الكاهنة المهرة خرزة كان النساء يتحببن بها النشرة رقية يعالج بها الجنون أو المريض النفثات في العقد السواحر النفرة شيء يعلق على الصبي لحوف النظرة النيرنج أخذ كالسحر وليس به الهامة الصدى وهو طائر يخرج من رأس المقتول بزعم الجاهلية الهبره خرزة يؤخذ بها الرجال المهجيج الخط يخط في الأرض للكهانة الحقعة دائرة في الفرس يتشاءم بها الهمة خرزة للتأنيذ الهتمة خرزة للتأنيذ الوجيه خرزة م كالوجيهة. قلت الظاهر أنها للوجاهة الينجلب خرزة للتأنيذ أو الرجوع بعد الفرار الحاوي رجل حواء وحاوٍ يجمع الحيات. قلت هذا غاية ما ذكره صاحب القاموس في ح ي و والظاهر أنه وواي ولكن ضعفه في الواو بقوله قيل ومنه الحية لتحويتها الخ وقوله يجمع الحيات كأنه لحظ فيه معنى حوى لا يناسب ما قاله في تسير الحنفش وعبارته. أو حية عظيمة ضخمة الرأس رقصاء ركداء إذا حويتها انتفخ وريدها. فهو صريح هنا في الرقية وقد ذكرت ذلك وما أشبه في كتاب مفرد.

## الثلج

لا غرو أن يجد بعض القارئ كلامي في هذا الفصل بارداً لأني كتبت في يوم عبوس قمطير. ذي زمهرير. والثلج إذ ذاك ساقط على السطوح. وقد سدّ الطرق ودخل في البيوت والصروح. وكاد يطفئ النار ويذهب بالاصطبار. ويمني بالقمر والقمار. غير أنه لا ينكر أحد أن شارب الثلج أو آكلة أو اللاعب به يحس منه بجمرة وكذلك قارئ كلامي فإنه وأن وجده بارداً فلا بدّ وأن يحتمي عليّ من هذه البرودة فيكون قد حصل الغرض وهو تسخين دماغه. ولا سيما إذ كان قد بقيت فيه بقية غيظ وحدة من الفصل المتقدم. ولكني لم أقصد فيما حكيت إلا الصدق. ولو خطر ببالي أن آتي إفكا وعضيّة لا وعيت ذلك في قصيدة وختمتها بدعاء ومدح لأحد البخلاء. ومن ماراني في ذلك فليسأل القسيس نفسه. إلا أن الثلج يخالف كلامي من جهة أنه يسقط على الأسود فيبيضه وكلامي قد سقط على القرطاس فسوّده. وكلاهما في ظني يروق العين وكلاهما يجتمعان في هذه الجهة. وهي أن الثلج لا تطلع عليه الشمس أياماً إلا

ويذوب. وكذا كلامي فإنه لا يكاد يبقى منه شيء في رأس القارئ بعد تَقَمُّره أو عند ظهور بوح عليه. وهناك جهة أخرى تضمّهما. وهو أن الثلج بعد سقوطه ينشأ عنه الصحو وانجلاء الجو. وكذلك كلامي فإنه بعد تساقطه من رأسي ينشأ عنه انجلاء جوّ فكري وصحو بالي واستعداده إلى ما يروق ويروع. فعلى كل حال تجد المشاهدة هنا في موقعها وعذري في محله. وبعد فأني أرى الأغنياء المثرين يتخذون في ديارهم الفسيحة مساكن للصيف وأخرى للشتاء وكُنّا للمبيت وآخر للاستحمام. ومن لم يكن له من غيرهم إلا بيت واحد فغير جدير بأن يزار فيه إلا حين يكون بيته موافقا لوقت الزيارة. أو يكون وقت الزيارة موافقا لبيته. فبناء على ذلك ينبغي للعلماء اقتداء بأكابرهم الأغنياء أن يتخذوا لهم في رؤوسهم الفيحاء مواطن متعددة مختلفة لما يأتي عليهم من الكلام البارد والفاتر والحميم. ففي وقت ثوران الدم وهيجان الطبع يقرءون البارد قليلاً مما حركهم من بواعث الحرارة. وفي وقت السكون يتلون الحميم. أو بالعكس على مذهب من يداوي الشيء بجنسه لا بضده.

لا يقال أن القارئ يضيع وقته في تمييز البارد والحميم من هذه الفصول. إذ لا يستوعب مضمونها إلا إذا أتى على آخرها. بخلاف سائر الكتب فإنه لا يتعمّد فيها الكلام البارد فهي على منهاج واحد. فإني أقول أن كل فصل من تلك الفصول له عنوان يدل عليه دلالة قطعية كدلالة الدخان على النار. فمن درى العنوان فقد درى الفصل كله. مثال ذلك إذا مرّ بك في أحد الفصول ترجمة البلوعة أو البلوعة أو البلاعة أو البربخ أو الاربدة فلا بدّ لك من أن تظن إلى أن حمراً من حُمَر الدير قد غطس فيها للتعريب أو الترجمة. إلا أنه لا ينبغي للقارئ إذا درى مَعَزَى الفصل من العنوان أن يضرب عن قراءته. ثم يقول متبجحاً بين أقرانه وإخوانه قد قرأت كتاب الساق على الساق وفهمت معانيه كلها. فإن ذلك يكون كقول مقنس قد رأيت اليوم الأمير أعزه الله وكلمته مع أنه لم يكن رأى منه إلا قذاله عن بعد. ولم يتح له يده الشريفة. أو كان ذلك الأمير قد سأله عن شيء فتلعثم في الجواب أو تروي فيه فسب أباه وأجداده ولعنه وتهدده بالصلب أو بسمل عينيه. أو كقول هبنقع المزهو الأحقق الحب لمحادثة النساء قد رأيت اليوم فلانة. ولما أن واجهتني وقفت وتنفست الصعداء. مع أنها تكون قد وقفت لتبصق أو أنها تنفست الصعداء بهراً. بل الأولى أن ينوي القارئ عند افتتاحه هذا الكتاب أن يتصفحه كله من أوله إلى آخره حتى حواشيه وعدد صفحاته. ويعتقد أن لكل مؤلف أسلوباً. وأنه لا يمكن لأحد أن يعجب الناس كلهم. إذ الأهواء متفاوتة والآراء مختلفة. ومن الأسرار التي بقيت مكتومة عني إنك تجد بعض المؤلفين فاتر الحركة غير ذي نشاط ولا مرح. قليل الارتياح إلى ما يبعث على التهاوش والتناوش. متقاعس المهمة عن السبح والحركة. ناظر إلى الحوادث كلها نظر المتوقع لها. وهو مع ذلك إذا أخذ القلم أنبض كل عرق في القارئ وحرك



كل ساكن. ومنهم من تراه نزعاً حركاً ذا تترع وتسرع وحفد وصميان وأقبال وأديار وسعي وتهافت. ومعالجة ومبادرة ومزاحمة ومزاهمة ومسابقة ومحاشرة ثم هو أن قال شيئاً سقط من رأسه على ذهن القارئ سقوط الثلج حتى يكاد أن يخمد منه ذكاه. فلما تأملت في ذلك وتحققته ارتبت في كون سقوط الثلج ناشئاً عن فرط برودة متكونة في الهواء وقلت بل لعل سببه فرط حرارة حزت في صدر الجو على سكان هذه الأرض. ووافر وغر تكون في حشاه فلفظه عليهم ثلجاً انتقاماً منهم عما يأتونه في الليالي الباردة من المنكرات وذلك أن بعضهم يحاول عكس الطبيعة فيسخن فراشه بأداة فيها نار. وبعضهم بأداة فيها ماء حميم. وبعضهم بأداة فيها ماء شراب. فمن أجل ذلك أسقط الجو عليهم الثلج المتراكم منعاً لهم من الخروج من ديارهم لاستعمال هذه الأدوات لكي يستريح من فسادهم ولو يومين. إلا أنه قد أن كثيراً من هؤلاء الناس يتخذون أداة للأداة أو أداة للأداة الأدوات. مثال الأول ما إذا تربع الغني في دسسته وتدثر بفروته وقال لغلامه سر يا غلام إلى محل كذا وائتني منه بأداة لتسخين فراشي هذه الليلة. فيذهب الغلام يطأ الوحول والثلوج ورجل سيده نظيفة. ومثال الثاني ما إذا كان السيد جواداً سخياً فيبعث غلامه في موكب له أو في آخر مما يستأجر من الطرق. أو إذا كان ذا سيادة وإمارة ويريد أن يكرم سره عن غلامه. لأن لذة الخادم إنما هي القلب في عرض مخدومه وجعل نفسه أولى بالخدومية منه فيستعمل ذلك السيد آخر أو آخرين أو آخر في مكان غلامه. ويكون قد بعث إليهم من قبل بهدية على يد خادمه إظهاراً لمكارمه. أو إنه أعطاهم إياها من بعد. فيكون سقوط الثلج على أي حال كان سبباً في التسخين والحرارة.

لأنه إذا اعتُبر في حق المخدم كان سبباً في اتخاذه الأداة. وأن أعتبر في حق الخادم وغيره ممن سد مسده كان موجباً للحسد. وهو من أعظم المؤثرات تسخيناً وإحماء. ومع كونه أي الثلج يرى ساقطاً على كل موضع في المدينة دون أي تمييز دار عن دار فإن لفظه في الحقيقة لا يصيب إلا رؤوس بعض الناس. وكان الأولى أن يطرد حكمه فيعم لا مثل أحكام اللفظ الأرضي فإنها تجري على قوم دون قوم. والفرق بين اللفظتين هو أن الثلج لما كان سقوطه أو لفظه من علو إلى سفلى كان المظنون به أنه يتصوب على جميع الرؤوس بشدة. فيشمل الكبير منها والصغير والمسقط منها والمسمراط. فأما الأحكام والقوانين الأرضية فمن حيث كان لفظها من سفلى إلى أي من رؤوس ناس مسودين إلى رؤوس ناس سائدين. لم يكن من المحتمل أن يكون تبعثها قوياً حتى يبلغ ذوي الرفعة والعلاء الذين يمر السحاب من تحت قذلمهم. ثم أن الثلج مع ما يتبعه في الواقع من الضنك والمشقة لمن ألفه فقد يروق لعين من لم يكن رآه. فقد بلغنا أن بعض الصعاليك كان مرة ضيفاً عند أناس لم يكرموا ولم يحتفلوا به إذ كان دونهم في

المعارف والنباهة. وكان بلدهم لا يسقط فيه الثلج البتة. فلما فصل من عندهم إلى بلاد أخرى رأى فيها الرزق وعاین بها الثلج کبر لرؤيته وهلل وأعجب به غاية الإعجاب. حتى زعم أنه منة من الله خصّ بها ذلك الصقع تمزية له على غيره. كما أنه تعالى حرم منها بلد مضيفه الأول.

وكذلك كلامي هاهنا. فإنه مع ما فيه من الاستطراد والحشر والألفاظ المضغوطة بين المعاني ومن المغازي المعقودة بالتلميح والتلويح. والتحويل والتلميح. فقد يروق لخاطر من لم يكن قد ألف هذا التخليط بل ربما يجعله الإعجاب به على تحديه ومحاكاته. ولكن هيهات فإن الباب قد أغلق في وجوه المتحدين. على إني لست أزعم إني أول كاتب في الدنيا فحج هذه الطريقة وأسعطها المتناعسين. إلا إني رأيت جميع المؤلفين في سهوة كتبي قد قيدوا أنفسهم بسلسلة نفس من التأليف واحدة. لكنني لا أعلم الآن هل غيروا أسلوبهم أولاً. إذ قد مضى عليّ بعد فراقهم أكثر من خمس سنين. فكأن العارف بحلقة واحدة من تلك السلسلة قد عرف سائر الحلق حتى أن كل واحد منهم يصدق عليه أمن يسمى حلقياً. بناء على أنه مشى وراء القوم وحذا حذوهم. فإذا قد قرر ذلك فاعلم إني قد خرجت من السلسلة فما أنا بحلقي ولا بـسـتـيـهي ولا أكون أمام القوم فإن الثانية أنحس من الأولى. وإنما أنا مستقبل لما استحسنت. آخذ بناصية ما استظرفت. رافض مكلف العادة.

### النحس

لقد أرحت سن القلم من كدم اسم الفاريق قليلاً بعد أن تركته مع القسيس الربيط وتلهيت بالكلام على الثلج لما داخلني من فرط الحدة عليهما معاً. أما على القسيس فلكونه خان صديقه الذي أواه إلى منزله في حرمة. وكان ينبغي له أن يذهب إلى مواجهة أو يفعل كسائر القسيسين من أهل حرفته. إذ لو كان الله تعالى رزق ذلك التاجر ولداً على نيته أي فتح له رحم امرأته كما تقول التوراة لكان أربعة أرباع هذا الولد من القسيس والباقي وهو اسمه من التاجر. فيكون قد أقام نفسه مقام من يربي النغول. مع أن أول ذكر فاتح رحم كما تقول التوراة مبارك ومعظم عند جميع الأمم. ولهذا كان حق الوراثة عند الإنكليز للبكر أي لفاتح الرحم. فكيف يحاول القسيس هنا جمع اللعنة والبركة على رأس مخلوق واحد. إن ذلك إلا محال. وأما على الفاريق فلأنه هو الذي كان السبب في إفشاء هذا السر بما أبداه من العناد والتصلّف في حفظ أبياته التي لا أشك في أنه ارتكب فيها المين والغلو والمبالغة والمردودة لغير نفع. وهو مع ذلك يحسب أنه يحسن صنعاً. فأما مشاهة الولد أباه في الخلق هل دلالة قطيعة على كونه ابنه فغير متفق عليها. فذهب بعض إلى إنها ليست علامة كافية. لأن الأم قد يحتمل في حاله كونها مسافحة أن تكون مفكرة في زوجها ومتصورة له فيأتي توزيع الجنين بحسب هذا التصور. وذهب بعض الأولاد إلى أن الأم وحدها لا

فاعلية لها في التوزيع فقد يأتي بعض الأولاد مشابهاً لعمه أو خاله أو لآخر ممن لم تكن أمه قد رآته قط.

والآن ينبغي لي أن أستمّر في القصة. وأن أعرضها على مسامع القارئ من دون اجراض أحدنا بغصة. فأقول قد تقدم في أول هذا الكتاب أن الفاريق ولد والطالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها إلى التيس. والسرطان واقف على قرن الثور. فأعلم هنا أن النحس على قسمين نحس ملازم ونحس مفارق. فالنحس الملازم ما لزم الإنسان في يقظته ومنامه وأكله وشربه وغدوه ورواحه وفي كل ما يأتيه. والنحس المفارق ما خالف ذلك أعني ما لزم الإنسان في حال دون حال. وأعرف ما يكون لزومه في الأحوال الخطيرة الشأن كالزواج والسفر وتأليف كتاب ونحو ذلك. ثم أن ماهيات النحس الملازم مختلفة أيضاً. فمنه ما يكون كالعقدة المحكاة. ومنه كالريقة ومنه كالمسمار. ومنه كالوتد ومنه كالمشبك. ومنه كالقفل بلا مفتاح ومنه كالغراء ومنه كالغمجار. ومنه كاللجاذ ومنه كالشراس. ومنه كالديق والطبق. أو كالرومة أو الثرط واللقاق. ومنه كالجلد ومنه كالدّم الساري في جميع أوصال الجسد ومفاصله. وجناحه وسلاطه. وسانه وشلاشله. وترائبه وتراقبه. وشراسيفه وبوانيه. وغضاريفه وحوانيه. وربلاته ومذاخره. وعضلاته ونواشره. وعصبه وبوادره. وأعصاله ومرادغه وسافينه وناعوره. ووريده ووتينه. وأسهره وأخدعيه. ومريته وفليقه. وحلقومه وبخاعه. ونائطه ونخاعه. وأوداجه وذفراه. وثقنته وشظاه. ورواهشه وشرابينه. ونسيسيه وأشلائه. وغموده وأشوائه. فنحس الفاريق كان من هذا النوع، غير أنه لا ينبغي أن يفهم هنا أنه كان دمويّاً أي كثير الدم أو محباً لسفكه أو ولاجاً فيه. فإنه كان مترهاً عن هذه الصفات كلها. وإنما كان نحسه كالدّم من جهة أنه كان ملازماً له في جميع أحواله. فقد حكى وأن يكن كاذباً فعليه كذبه إنه بات ليلة وقد رأى في المنام أنه شرب مثلوجاً عقبه سخيناً فأصبح يشكو من وجع أضراسه شديد ومن بح في حلقه. وكان يحلم إنه يتهور من قنة جبل أو يسقط عن ظهر جمل فيغدو وظهره متقوّس. وكان إذا حلم أنه أكل الكامخ مغسه في ليلته. أو شرب أجاجاً أو زعاقاً. أو أشتّم روائح كريهة غثت نفسه. وكان إذا حدثه أحد بأنه رأى في حديقته ربّحلة رأى هو في المنام ليلته تلك إنه في ويل واد في جهنم أو بئر أو باب لها أو في الموبق واد فيها أو في الفلق جهنم أو جب فيها أو في بولس سجن فيها أو في سجين واد فيها أو في أثام واد فيها أو في الخطمة باب لها أو في غي واد فيها أو نهر أو في الصعود جبل فيها. وحوله لبيني اسم بنت أبلّيس اوزلنور أحد أولاد أبلّيس الخمسة اومسوط ولد لأبلّيس يغري على الغضب أو السرحوب شيطان أعمى يسكن البحر أو خترّب شيطان أو السرفح اسم شيطان أو الجم الشيطان أو الشياطين أو هم شيطان أو هياه من أسماء الشياطين أو الحباب اسم شيطان أو الأزب اسم شيطان أو أزب العقبة اسم شيطان أو الهراء اسم شيطان موكلّ بقبيح الاحلام أو الوهّان شيطان

يغري بكثرة صب الماء في الوضوء أو الخبث والخبائث ذكور الشياطين وإناثها أو السفيف إبليس ويسمى أيضاً المبطل وكنيته أبو مرة وأبو قتره أو عمرو اسم شيطان الفرزدق أو الفلوط من أولاد الجن والشياطين أو الشيطان والبلاز والقاز والخابل والخناس والوسواس والفتان والأجدع وكان إذا بصر من كوة بيته بكمكامة مكماكة خيل له في المنام أنه في خافية بها جن أو في البراص منازل الجن أو في البلوقة موضع بناحية فوق كاظمة يزعمون أنه من مساكن الجن أو في البقار موضع برمّل عالج كثير الجن أو العازف ع سميّ لأنه تعزف به الجن أو في الحوش بلاد الجن أو في وبار وبار كقطام وقد يصرف أرض بين اليمن ورمال يبرين سميت بوبار بن إرم لما اهلك الله تعالى عاداً ورث محلهم الجن فلا يترها أحد منا أو في عبقر ع كثير الجن أو في جيهم ع كثير الجن. ولديه الشيصبان قبيلة من الجن أو بنو هنام قبيلة من الجن أو بنو غزوان حي من الجن أو دهرش اسم أبي قبيلة من الجن أو أحقب اسم جني من الذين استمعوا القرآن أو زمزمة قطعة من الجن أو الشق جنس من الجن أو شقناق رئيس للجن أو العسل قبيلة من الجن أو العسر قبيلة من الجن وهو أيضاً أسم أرض للجن أو السعلاة والعيسجور والشهام ساحرة الجن أو السعسلق أم السعالي أو العصفوط من دواب الجن أو النظرة الطائف من الجن أو الزوبعة رئيس للجن أو الخافي والخافية والخابيا الجن وكذا الخبل أو التابع والتابعة الجني أو الجنية يكونان مع الانسان يتبعانه حيث ذهب أو العكنكع والكنكع الغول الذكر أو الخيدع الغول الخداعة أو السلتم والصيدانة والخيعل والخلوع والخيكتور والسمرمرة والسّمع والعولق والعولق والهيرة والملد والعفرانة كلها من أسماء الغول أو العتريس الغول الذكر أو التمسح المارد الخبيث أو الدرغم اسم الدجال وهو أيضاً المسيح كسكين أو الغموس المارد من الشيطان والخبيث من الغيلان أو الزبانية جمع زبنة وهو متمرّد الأنس والجن ومثله العكبّ أو الحيزيون وكان صاحبنا وهم في هذه فإني لم أجدها في القاموس فكيف يمكن رؤيتها في المنام. واسمها غير موجود في قاموس الكلام. مع أن المص رحمه وزن عليها الحيزبور والخيكتور والقيدحور والعيجلوف والعيطبول والهيجبوس والجهيق والزيفون والجيثلوط والعيصفوط. ثم أنه كان إذا سمع نخبة تكلم رجلاً بمنطق رقيم سمع في الليل عزيماً وهسامس وهويماً وزيزماً وهدهداً وزهزجاً وزي زي. كلها من أصوات الجن وإذا رأى جارية تردي نصف النهار جاءه في نصف الليل الكابوس والجاثوم والدوفان والنيدل والباروك والدثان والدثاني. ورأى ليلة ما أن قد زفت إليه عروس فأتاه تجعل تيس وجعل ينطحه بقرنيه فاستيقظ فإذا بقرن رأسه مرضوض. ورأى ليلة أخرى أن قد وجد على شاطئ نهر دنانير ودراهم فمدّ يده وأخذ منها خمسة عشر درهما لا غير. فلما عبر الشط الثاني رأى شيخاً بيده كرة يديرها. فكان كلما أدارها أخذ الفاريق في ظهره وجع شديد كوجع الداء المعروف في بلاد الشام بالوثاب. فلما رمى الدراهم من يده من شدة ما أصابه سكن عنه الوجع ورأى ليلة أخرى أن رجلاً مغربياً أتخفه بشيء فتلقفه

في الحال مشرقي وذهب به. قال والي الآن لم يرجع به مع انتظاري له كل ليلة. وقس علي ذلك سائر أحلامه. ومما قاله في الحلم نظاماً

كأن همومي وهي تحت مخدتي      إذا بتُ تغري بي الهراء لتذرئة  
تقول عليّ اليوم كان بؤاله      وإنّ عليك الليل ذا أن تخرّته

وقال

أسرّ إذا انقضى يومي لأنني      أرجي فيه أحلاماً تسرّ  
فأحلم أنني أسعى وأشقى      فليلي مثل يومي أو أشرّ

وقال أيضاً

ويا رب حتى في المنام تروعي      بأضغاث أحلام تسوء وتزعج  
فيا ليتني أشقى نهاري وفي الكرى      أسرّ برؤيا من أحبّ وأبهج

وعنّ له يوماً أن يمدح بعض ذوي السيادة والسعادة. فلما حظي بلثم أعتابه الشريفة وأنشده القصيدة رجع القهقري على عادة أهل بلاده من أن الصغير لا يري الكبير قفاه. إشارة إلى أنه لا قذال إلا قذال الكبير. ثم جاءه الحاجب يقول أن الأمير أدام الله دولته. وخلد صولته. وجعل الشمس والقمر نعلا لفرسه. وجعل يومه خيراً من أمسه. وجعل ظله ممدوداً على الأرض ظليلاً. وجعل طرف الكون بتراب نعله مكحولاً. وجعل الثريا مقراً لرجليه والعيوق شراكاً لنعليه. وجعل الوجود باسمه مبتهجاً وبابه لكل لائذ رتجاً مرتجى. وجعل - فلم يتمالك الفاريق أن بادره وقال دعني من جعل يا جعل. ماذا يقول الأمير. قال يقول الأمير المعظم. الخطير المكرم. ذو الآلاء الغامرة. والنعم الوافرة. من إذا قال فعل وإذا سئل أعطى فأجذل وأذ تنحني ألقى الرعب في قلوب أعاديته. وإذا سئل خفقت فرقا أفئدة شائثيه. وإذا مخط ارتج المكان لهيبته. وإذا حبق تزلزل المجلس لحبقته. فقال الفاريق أف لهذه الرائحة الخبيثة ياخبيث قل ما يقوله الأمير. وأرحني من هذا التعجير. لقد برزت على الشعراء بهذا الغلو والإطراء. قال أنه يقول لك أنك قد أحسنت في أبيات القصيدة وأبدعت ما شئت. لأنك شبهته بالقمر والبحر والأسد والسيف الماضي والطود الراسخ والسيل المنهمر مما هو خليق بالاتصاف به. إلّا في بيت واحد جعلته فيه قواداً. قال كيف ذلك جلّ الأمير عن القيادة. قال نعم انك قلت أنه يجود بالمال والنفائس ويولي الأبقار. وقلت في بيت آخر أنه محمّد الذكر محمود المناقب وهو غير محمد ولا محمود. وبسبب هذا الخطأ الفاحش حرمتك من رؤيته. قال هذه عادة الشعراء انهم لا يزلون يتلمظون بذكر الخرائد والمحامد. وليس المقصود بذلك نسبة

القيادة إلى الممدوح. قال هذا غاية ما عندي فلا تطمع بعد في المثول بحضرة أميرنا المبجل. فمن ثم رجع الفاريق محروماً من هذا المغنم الهنيء. وبلغ منه الغيظ أن أضله عن الطريق المستقيم. فسار في طريق آخر وما وصل إلى منزله إلا بعد اللتيا والتي. وأخذ يفكر في نحس طالعه وشؤم قلمه. فظهر لهوسه أن القلم أنحس شيء يتخذ الإنسان سبباً لمصالحه. وإن أشفى الاسكاف أنفع منه. وأن تقديم النون عليه في قوله تعالى ن والقلم وما يسطرون إن هو إلا إشارة إلى النحس. وإن ما قاله المنجم في طالعه صحيح. فإنه أول المرأة التي زفت إليه في المنام بالعقرب. والجدي بالتيس الذي كان ينطحه. والسرطان بنفسه إذ رجع القهقري من عند الأمير فكاد أن يعثر بحصير مجلسه السامي لولا أن تمسك ببعض أوتاده الشريفة. وأول الثور بالأمير الممدوح. إلا أن العبارة الأولى وهي قول المنجم نحس المنحوس غير محصورة في حادث واحد. إذ هي تستغرق جميع الأحوال والحوادث كما سيرد بيانه. وذلك أن الفاريق لما سمع من نجيه الذي قايضه على الاعتراف أن المساومة في قيل وقال هي من البياعات الراجحة، والأسباب الناجحة خلج في صدره أن يجرب تنفيق ما عنده من البضاعة المزجاة. إلا أنه لم يعرضها من أول وهلة على أحد المشترين من الخثالقة كما فعل صاحبه. بل أخذ في تقليبها وتفليتها وتمشيطها وتنسيلها من جهة واستشفافها من أخرى. فظهر له أنها قديمة قد ركت بحيث لا يكاد أحد أن يرغب فيها.

واتفق وقتئذ أن قدم عنقاش يفد على شراء السلع القديمة وعلى إصلاحها أو على مقايضتها أو على صبغها. وأدعى أنه يقدر أن يعيدها إلى لوها الأول وأنه لا يعجزه شيء من أحوالها بحيث أن صاحب السلعة نفسه إذ رآها بعد صبغها وتصليحها يتعجب منها غاية العجب ولا يعود يعرفها. وإنه أي العنقاش لما بلغه في بلاده فساد تلك السلع أقبل حفيداً إلى تلك البلاد وهو يحمل خرجاً كبيراً فيه من الأصباغ والأدوات ما يرفأ كل خرق ويعيد كل لون نافض. فسار إليه الفاريق عجلاً إلى المقايضة وواطأه على إبدال ما عنده من السلعة القديمة بأخرى جديدة راقية لعينه. فقد يقال لكل جديد بمجة. ثم قفل إلى منزله مسروراً بصفقتة. فلما علم أهله وجيرانه بذلك استشاطوا عليه غيظاً وقالوا. لعمر رب الجنود ما جرت العادة في بلادنا بتغيير البياعات ولا بمقايضتها ولا بإصلاحها ولا بصبغها. ثم لم يلبث الخبر أن بلغ مطران الصقع وكان من الضوارة الكبار. فكأنما كان سكيناً سقط على حلقومه. أو خردلاً دخل خرطومه. فهاج وأزبد. وأبرق وأرعد. وماج واضطرب. وضج وصخب. وألبّ وحزب. وبربر وثرثر. وأقبل وأدير. وزجر ونهر. ووثب وطفر. وقتل لحيته من الغيظ حتى صارت كالمقرعة. وأغرى كل حنتوف مثله بأن يهيج معه. ونادى يا خيل الله على الكفار. أنهم صالوا النار. كيف تجرأ هذا الشقي المنحوس. المعتوه المهلوس. على أن يذهب مذهباً غير ما نهجه له جاثليقه. وسلكه فيه بطريقة. وكيف أقدم بوقاحتة.

وصفاقة وجهه وقباحته. على معاملة ذلك العنقاش اللثيم. ومبايعته ما ورثه من آبائه من الزمن القديم. أليس في بلادنا صلب . وادهاق ويلب. هلموا به مُهاناً. اجلدوه عرياناً. اطرحوه نيراناً. ألقموه حيتانا. أطعموه دمانا. اقطعوا منه لسانا. اسقوه الزناني. عليّ به الآن الآن. فابتدر بعض الحاضرين وقال انا آتيك بهذا الجعشوش بأسرع من رد طرفك إليك. ثم وليّ حفداً إلى الفاريق فوجده مكباً على قراءة الدفتر الذي فيه أثمان السلعة. فتناوله بالسيف فأصاب فروته. ثم سيق الفاريق إلى الجزار المشار إليه. فلما بصر به انتفخت أوداجه واتسع منخراه وتعقدت أسرة جبينه واصفرت شفتاه. ورقص شارباه واحمرت حدقتاه. واحتقرت أسنانه ودارت بينهما هذه المحاورة: قال الضوطار ويلك يا مغبون، ما دعاك إلى المساومة في سلعتك؟ الفاريق إذا كانت هي سلعتي كما أقررت فما الذي يمنعني من ذلك؟ الضوطار ضللت. هي سلعتك من حيث أنك ورثتها من آباءك لا من حيث أن لك حق التصرف فيها.

الفاريق هذا خلاف العادة والحق فإن ما يرثه الإنسان يحق له التصرف فيه الضوطار كذبت. إنك إنما ورثتها لتحفظها لا لتضيعها ولا لتبادل بها الفاريق هي ميراثي أفعل به ما أشاء الضوطار قبحت إني أنا القيمّ عليه الصائن له من الشوائب الفاريق ما بلغنا عن أحد أنه تولى ميراث غيره إلا كان الوارث غير راشد الضوطار غويت. أنك أنت غير رشيد وأنا وليّك وكفيلك ووكيلك وحسيبك الفاريق ما الدليل على أي لست من الراشدين ومن ذا الذي جعلك وصياً وولياً الضوطار زغت . إنما الدليل على غوايتك وضلالك هو أنك تبدلت به متاعاً غيره وإما كوني وصياً فإن جميع أمثالي يشهدون لي به كما أي أنا أيضاً أشهد لهم بأنهم أولياء غيرك الفاريق ليس بتبديل شيء بآخر دليلاً على الضلال والزيغ إذا كان المبدل والمبدل منه من جنس واحد. ولا سيما أي رأيت لون القديم يوشك أن ينصل وقد ركت رقعته فتبدلته بما هو أزمى وأقوى الضوطار كفرت. إنه غشي على بصرك فما تستطيع أن تفرق بين الألوان الفاريق كيف ذلكولي عينان ناظرتان ويدان لامستان الضوطار عميت. فإن الحواس قد تغش ولا سيما حاسة البصر الفاريق إذا كانت حواسي قد غشت فكيف سلمت حواسك من الغش وأنت بشر مثلي الضوطار حنت. إني وأن كنت بشراً مثلك لكني وكيل من طرف شيخ السوق. وقد أفادني مما أودع الله فيه من الأسوار العجيبة أن لا يطرأ عليّ غبن ولا إلا وتبينته لأنه هو مزه عن الغش فقال الفاريق وكان به فافأة. وأين شيخ الفسوق هذا ثم إستدرك كلامه وقال إنما أردت شيخ السوق. فلا تكن زيادة هذه الثمانين موجبة لحد الثمانين.

الضوطار لعنت. هو بعيد عنا بيننا وبينه أبحار وجبال. غير أن أنفاسه القدسية تسري فينا الفاريق كيف به إذا مرض أو جن مسه طائف من الجن أو أصابه برسام. فكيف يمكنه والحالة هذه تمييز المتاع الردي من الجيد الضوطار هلكت. ما هو ببلو للعوارض لأنه بواب رتاج عظيم ويده مزلاجان

عظيمان لاحكام الباب من قبل ومن دُبر الفاريق ليس هذا بدليل فأن كل إنسان في العالم يمكنه أن يصير بواباً ذا مزلاجين الضوطار فسقت وفجرت. إنه هو وحده مستبد بهذه الخطة إذ قد فوضت إليه من المالك الأمر الفاريق متى كان ذلك؟ الضوطار صلبت مذ ألفي سنة تقريباً الفاريق أو عاش هذا الشيخ ألفي سنة الضوطار الحدث. إنما إنتقلت إليه بالوراثة الفاريق ممن ورثها أمن ابيه وجده الضوطار نكلت. من إنسان لا يعد في أهله الفاريق هذا أمر عجيب كيف يرث الإنسان شيئاً من رجل غريب فإن الغريب إذا مات عن غير وارث انتقل ماله إلى بيت المال فهو أولى به من رجل على حدته الضوطار عذبت. هذا سر ليس لك أن تبحث فيه الفاريق ما الدليل على كونه سرّاً الضوطار أفحشت. هذا هو الدليل. وعند ذلك قام عجلاً وأتى بكتاب وأخذ يقلب فيه من أوله إلى آخره حتى يجد فيه مطلوبه إذ لم يكن كثير الدراسة له. إلى أن وجد عبارة مضمونها أن المالك كان احب مرة رجلاً فوهبه هبات شتى من جملتها كأس وطست وعصا في رأسها صورة ثعبان وجبة وتبان ونعلان وباب له مزلاجان. وقال له قد وهبتك هذه كلها فأستعملها واهناً بها الفاريق لعمرى ليس في هذه الهبة ما يدل على سره هذا وقت مات كل من الواهب والموهوب له وفقد الموهوب كله. فكيف لم يبق إلا المزلاجان فقط وقد ضاع الباب وهما لا ينفعان من دونه شيئاً الضوطار فندت. لم يبق لنا في غير المزلاجين من حاجة الفاريق بحق هذين المزلاجين عليك يا سيدي إلا ما أريتني الكأس مرة في العمر وحسب. ولك عليّ بعد ذلك إلا مرة التامة. فلما ضغط الضوطار بين السلب والإيجاب استشاط وغراً وهم أن يلحق الفاريق بالباب والكأس لولا أن دعاه داع إلى اللوس. فقام ناشطاً ووكل به الأوغاد وكان وقتئذ يتضور جوعاً فرأى أن رؤية قعر القدر في المطبخ أشهى إليه من النظر إلى وجه الفاريق. فتغافل عنه فتملص الفاريق من هذه الورطة وأقبل يهرول إلى الخرجي وقال له.. لقد خسرت تجارتي معك فإن البضاعة كادت تمنيني بمبضع. فأبتغي منك الإقالة. أولاً فإن يكن عندك في الخرج رأس يلائم جثتي حين تعدم هذا فأرني إياه ليسكن روعي. إذ لا يمكن لي أن أعيش بلا رأس. فأما أن لم يكن في الخرج غير اللسان فما لي به حاجة هذا متاعك فضمه إليك. فقال له الخرجي ما هكذا حق التعامل ينبغي أن تصبر على ما يلحقك من تبعه الصفقة كما هو دأب جميع المتابعين عندنا. وتلك من بعض خواص هذه التجارة. ولكن لا تخف فإن من خواصها أيضاً أن تقي الواقى لها وتحفظ المحافظ عليها. فيكون له بها غنى عن الرأس إذا نقف وعن العينين إذا سملتا وعن اللسان إذا استل. وعن الساقين إذا غمزتا بالدھق. وعن اليدين إذ غلتا بالكبل. وعن العنق إذا وقصت. والكبد إذا فرصت. قال ما أرى ما ترى فإن الأسف لا يحيي مائتا والندم لا يرد فائتاً. فإن يكن عندك مخزن آمن فيه من العدو على السلعة فأوئني إليه. وإلا فهذا فراق بيني وبينك. فأطرق الخرجي ساعة ثم دخل به حجرة صغيرة وأغلق الباب. وأخذ يمتحن الفاريق كما سيرد بيانه في الفصل الآتي:



## الحس والحركة

قد جرت عادة الناس جميعاً بأن يقولوا إذا أحبوا شيئاً أو اشتاقوا إلى شيء أن قلبي يجب هذا الشيء. أو يحس بمحبة هذا الشيء. أو يشتهي ذلك الشيء. ولست أدري علة هذا الاستعمال. فإن القلب إنما هو عضو في الجسم من جملة الأعضاء فلا يمكن أن تكون حاستها كلها مجموعة فيه. وبيانه أن من أحب مثلاً لوناً من الطعام بخصوصه فليُنظر في أدوات الأكل الباعثة على اشتهاه. ومن أحب امرأة فليُنظر في الأداة الباعثة على اشتهاها. وما يميل إليه الطبع وهو غير محتاج إلى أعمال أداة ظاهرة وذلك كحب الرئاسة والسعادة والدين ينبغي أن يحمل على الرأس. إذ هي أمور معنوية لا علاقة لها بتلك البضعة أي القلب. وكما أن الطحال الذي هو وزير الميمنة لا تعلق له بهذه الأمور. فكذلك كان وزير الميسرة أي القلب. إلا إنه لما كانت حركة القلب أسرع من غيره لكونه أقرب إلى الرئة التي هي حرز التنفس. ظن الناس أن القلب أصل في جميع أهواء الإنسان وأشواقه. ومن عادتهم اجتناباً للبحث عن كثرة الأسباب والعلل والتيقن للحقائق أن يقتصروا على سبب واحد من الأسباب المتعددة. وينسبوا إليه كل ما تسبب عن غيره. كما تنسب الشعراء مثلاً دواعي النحس إلى الدهر ودواعي البين والفراق إلى الغرب.

وبناء على هذا الاعتقاد أي نسبة الأهواء كلها إلى القلب أراد الخرجي أن يمتحن الفاريق ليعلم هل نبض فيه حب السلعة الجديدة نبضاً قوياً أو لا. فجعل يقول له هل تحس في قلبك بأن السلعة الجديدة خير من الأولى. وهل يضطرب فرحاً وسروراً عند ما تسمع بذكرها؟ وهل ينبسط ويتسع وينشرح عند خطوط هذه ببالك. وينقبض ويضيق ويتضام عند ذكر تلك. وهل عند قراءتك دفتر الأثمان يخيل لك أن قد طبع فيه أي في قلبك كل حرف من حروف الدفتر. حتى لو أعوزك وجوده سدت تلك الحروف مسده وهل يضطرم ويتوقد مرة ويذوب ويضمحل أخرى. ثم يعود أقوى مما كان عليه كالسمندل المعروف. وهل تحس أيضاً بأن ناخساً ينخسه. وواخزاً يخزه وعاصره يعصره. وراهصاً يرهصه. ومزقاً يمزقه. وضاعطاً يضغطه. فقال له الفاريق أما الاضطراب والخفقان فإنه دائماً على مثل هذه الحالة. وهو عرضة لذلك في حالتي الفرح والترح فإن أدنى شيء يؤثر فيه. وأما التوقد والذوبان فلا أدري. فقال المراد بالتوقد هنا والنخر والعصر الحمية والتحمس والتهوس وتخيل ما هو معدوم موجوداً وما هو موهوم يقيناً. ومثل ذلك مثل من يسافر في فلاة لا ماء فيها فيبلغ منه الظم أن يتصور السراب ماء وشعاع الشمس نقراً. ولا يزال يحن نفسه بوجدان الماء حتى يقطع المفازة. فإن شدة التخيل والتهوس تعين الإنسان على تحمل المكاره والمشاق. فيكون رازحاً تحت ثقلها وهو يحسب إنه المتكئين على الأرائك. فيستوي بذلك عنده المحاز

والحقيقة والمحسوس وغير المحسوس. حتى يحب الصفر خواناً والنعش عرشاً والخازوق أو الصليب منيراً. وربما كان ذا زوجة وعيال فيتخذهم متخذ الماعون من الخزف فيغادرهم ويجري في البلدان القاصية لترويج السلعة. ويستغني عن أهله وإخوانه ورهطه بما لديه في الخرج فيحمله على كتفه مستبشراً مسروراً ويضرب في مناكب الأرض طولاً وعرضاً. فكل من مر به من عباد الله عرض عليه الشركة والمضاربة. ولا يزال دأبه كذلك حتى يقضي نحبه وطوبى له أن مات على هذه الحالة. الخرج الخرج. ما لنا سواء من حرفة ولا شغل. السلعة السلعة. ليس لنا غيرها من جعل. ثم طفق ييكي ويتحب. فلما أفاق بعد حين سأله الفاريق هل عندكم معاشر الخرجيين سوق وشيخ للسوق؟ قال لا. قال ومن يقوم لكم المتاع قال كل منا يقوم متاعه كل منا يقوم متاعه بنفسه ولا يحتاج إلى آخر. فتعجب الفاريق وقال في نفسه أن في هذا لعجباً.

فإن قوماً من هؤلاء الصعافيق لهم شيخ سوق وما لهم خرج. وقوماً لهم خرج وليس لهم شيخ ولكن لعل صاحبي هذا على الحق. إذ لو لم يكن كذلك لما تكلف حمل الخرج من أقصى البلاد وتجشم أخطار السفر وغيره ثم نخره الخناس أن الخرجي ربما لم يجد محترفاً في بلاده فجاء بما عنده لينفقه في بلاد أخرى. فإن تاجرأ لو استبضع من بلده مثلاً خزاً أو كرباساً إلى بلد آخر لم يحكم له بأنه قدم إلى هذا البلد حباً بأهله. فقد جرت العادة بأن المتسبين يطوفون في كل الأقطار. ثم فكر في أن أناة الخرجي وما هو عليه من الرزانة والصبر لا بد وأن يكون قرينها الرشد والحزم بخلاف الترق والطيش فإنه لا يكون إلا قرين الغواية والضلال. فمن ثم حكم بأن الخرجي كان على هدى وذلك لإتاحه وحلمه. وإن المطران كان من الضالين لحدته وتترعه. ثم قال للخرجي قد وعيت يا سيدي كل ما أوعيته أذني. وما أرى الحق إلا معك. وأني مشايحك ومتابعك وحامل للخرج معك. ولكن أجري من هؤلاء الصعافيق فأثم كالأسود الضارية لا تأخذهم في خلق الله رافة ولا شفقة. وعندهم أن أهلاك نفس غيره على الدين يكسبهم عند الله زلفى. وقد تمسكوا بظواهر أقوال من الإنجيل فيما رأوه موافقاً لغرضهم وزائداً في جاههم وسلطانهم. فيقولون أن المسيح بقوله ما جئت لألقي على الأرض سلماً لكن سيفاً إنما رخص لهم في أعمال هذه الأداة في رقاب الناس رداً لهم إلى طريقة الحق. وقد نبذوا وراء ظهورهم خلاصة الدين وجوهره ونتيجته. وهي الألفة بين جميع الناس والمحبة والمساعدة وحسن اليقين بالله تعالى. وما صعب على من زاغ وعمي عن الحق أن يستخرج من كل كتاب وحياً كان أو غير وحى ما يوافق غرضه وفساد عقيدته. فإن باب التأويل واسع. أيجوز الآن الأمير الجبل إذا شاخ ولم يعد التدثر بالثياب يدفته أن يتكوى ببنت عذراء جميلة أي يتدفأ بها ويصطلي بجر جسدها كما فعل الملك داود. أم يجوز له إذا حارب الدروز وانتصر عليهم أن يقتل نساءهم

المتزوجات وأطفالهم ويستحيي أبكارهم لتفجر بمن فحول جنده. كما فعل موسى بأهل مدين على ما ذكر في الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد. أم يجوز له أن يتزوج بألف امرأة ما بين ملكة وسرية كما فعل سليمان. أم يجوز لأحد من القسيسين أن ينكح زانية ويولدها النغول كما فعل النبي هوشع. أم يسوع لأحد من الولاة أن يقتل من أعدائه كل رجل وكل امرأة وكل طفل رضيع كما فعل شاول بالعمالقة عن أمر رب الجنود. حتى أن الرب غضب عليه لعدم قتله خيار الشاه والأنعام لإبقائه على أجاج ملك العمالقة وندم على أنه ملكه على بني إسرائيل فقام صموئيل وقطع الملك قطعاً أمام الربي جلجال. هذا وأنا قد قرأت في فهرست التوراة المطبوعة في رومية في حرف الهاء ما نصه: ينبغي لنا أي لأهل كنيسة رومية أن نهلك الهراطقة. أي المبتدعين أو المشاحنين. واستشهدوا على ذلك بما كان يجري بين اليهود وأعدائهم من القتال والفتك والاختيال على ما سبق ذكره. فإن يكن دين النصراني يحلل قتل الرجال والنساء والأطفال والفجور بالأبكار من النساء ويبيح التوثب على عقار الغير من دون دعوة إلى الدين بل مجرد عتوٍ وظلم كما كان يجلله دين اليهود فلا يسبب نسخه إذن وأبطال أحكامه لكن دين النصراني مبني على مكارم الأخلاق وغايته من أوله إلى آخره إبقاء السلم بين الناس وحثهم على الصلاح والخير. وإلا فلنرجع يهوداً. فلما سمع الخرجي ذلك رأى أن وراء هذا الكلام لباقعة. فحرص على إنقاذ الفاريق من أيدي العتاة. وارتأى أن يبعثه إلى جزيرة تسمى الملوط استئماناً فيها. فركب الفاريق في سفينة صغيرة سائرة إلى الإسكندرية. فلما أن سارت به غير بعيد هاج البحر وأضطرب بالسفينة فلزم صاحبنا فراشه من الدوار. وطفق يشكو من ألم البحر وينوح قائلاً:

### نوح الفاريق وشكواه

ويلي من السفر وما أشتق منه ما كان أغناني عن مقاساة هذا الضرا الأليم. ما كان أغناني عن هذه المساومة التي سامتني هذا الكرب العظيم. ماذا وسوس إليّ حتى دخلت بين الطواطة ولا عائدة لي من هذا الفضول الذميم لقد ولدت في الدنيا وعشت زماناً ولم يخطر ببال ما أختلف فيه عبام وبعيم. فلأني شيء دخلت في هذه المضايق وتورطت في هذا الشر العقيم. هل كان يعنيني ما تهاثر عليه أهل المشرقين من فساد رأيهم وخلقهم اللئيم. لهفي على القلم وأن يكن في شقه شق وحول مجاحه الونيم. لهفي على الحمار الذي كان يزقع ويرفس من لي بذلك البهيم. لعله الآن أحسن حالاً مني ولعله في نعيم مقيم وأنا اليوم بما فرطت مُليم. من لي بالخان والأخوان فيهم كل بزيع ندیم زمان لا شغل إلا معاورة المدام والتطريب والترنيم. ليتني قلت ما قال الناس وعبدت معهم البعيم. أستغفر الله قد كفر صاحبنا ليس كل

الوقت وقت جدال ومناقشة خصيم. لقد نصحني المطران بقوله أن الحواس قد تغش في الضئيل والجسيم. والغبي والحكيم والجاهل والعليم. إنه يعرف الحق ويقول غيره خوف كل عتل زنيم. إذ الجاهلون لا يعجبهم إلا التضليل والتهيم. ألم يقل لي أنك لا تقدر على تجديد القديم. وعلى تقويم ما لا يستقيم. نعم أن الحواس تغش وسيان في ذلك السفية والحليم. والكريم والثلثم. ثم وقف قليلاً حتى يورد أمثلة على هذا وإذا به يقول. إن القبيحة الشوهاء إذا نظرت وجهها في مرآة تقول أن كنت شوهاء عند بعض فإني حسناء عند آخرين. ولذلك قال صاحب القاموس الشوهاء العابسة والجميلة ضد. وأن القناف إذا نظر جلود أنفه قال يحتمل أن بعض الحسان يرغب فيه وما يرين به أمتاً ولا عوجاً. وإن سادتنا القباح من الملوك والملكات وذوي السعادة والجد لا يصورهم المصورون إلا حساناً. وهم لا ينظرون أنفسهم في العناس إلا كما صورهم المصورون. وإننا لنرى الشمس طالعة ولما قد طلعت كما يقول الرياضيون. ونرى العصا في الماء معوجة وهي غير ذات عوج. وأن السراب يرى الشخص أثنين. وأن بعض الألوان يبدو بلونين. وإن السحرة يخيلون للناظرين أنهم يمشون على الماء ويدخلون في النار ولا يحترقون. ومن يك في سفينة ماهرة قابلة ديار وعقار فإنه يرى ما يقابله في الأرض متحركاً ماشياً وهو ساكن ثابت. ومن يعقد في شبك مناوح لشباك آخر مساو له في الارتفاع فإنه ينظره أعلى من شبكه. ولعل صاحبي الخرجي كان بكاؤه لداع غير داعي السلعة. فإنه يبلغني عن اللاعبين واللاعبات في الملاهي إنهم يكون ويضحكون أيان شاءوا فلعل البكاء عندهم من الصنائع التي يتعلمونها على صغر. ماذا يفيدوني الخرج الآن. أأدعوه ويتركني. أحبه ويغضني. أأحملة وينبذني. فلما أبدأ هذه السفاهة التي تعد عند الخرجيين كفراً. وعند السوقيين تسبيحاً. وعند المتوسطين بينهم سفاهة ناشئة عن الجزع. إذ الناس لم يتفقوا إلى الآن إلا على الخلاف مادت به السفينة ميدة شديدة يحسبها الخرجيون انتقاماً من الرب. والسوقيون عارضاً من العوارض. فجعل يصرخ ويقول ألا يا شيخ السوق عفواً بحق لحيتك التي عند الحلاقين إلا ما أجزتني. يا خرج. يا سلعة يا دفتر. يا ضوارة. يا صعاقة. يا نساخي السلعة. يا صياغيها. يا مسديها يا ملحميها يا منبريها يا مطرزيها يا موشيها يا رقاميها يا رفائيها يا شصاريها يا خياطيها يا كافيها يا شراحيها يا نشاريها يا طوائها يا قساميها يا لفافيها يا ملفقيها. تدار كوني بحقهم قد هلكت. فما كاد يتم هذا الدعاء إلا ومالت به السفينة ميلة تدحرج بها رأسه الصغير كالبطية. فجعل يصرخ ويستغيث ويقول لقد عدت عن التفديد. هذا أثره ظهر من أول الطريق فكيف يكون في آخره. ثم غشي عليه وصار يهذي ويقول الخر الخر. فسمعه أحد الركاب يكرر ذلك فظن أنه يشكو من أحد الأخبثين في فراشه. فلما لم يجد شيئاً قال هو يهذي من الألم وتركه. ثم قدر الله أن سكن البحر وصفا الجو وظهرت بعد ساعات أرض الإسكندرية. فجاء ذلك الرجل وبشر الفاريق برؤية الأرض. فقام متجلداً وغسل

وجهه وبدل ثيابه. فلما خرجوا من السفينة سبقهم الفاريق وما كاد يطاء الأرض حتى تناول منها حصاة وألقمها وقال هذه أُمي. وإليها أُمي. فيها ولدت وفيها أموت. ثم أنه توجه إلى خرجي كان في المدينة وأدى إليه كتاب توصية من الخرجي الآخر ولبث عنده ينتظر سفينة تسافر إلى تلك الجزيرة.

فلنهنئه بوصوله سالماً آمناً ولنقدم عرض حال للسدة الأميرية. والحضرة الملكية. حضرة بطريك الطائفة المارونية كائناً ما كان. ثم نخرج قليلاً على السوقيين والخرجيين ونذكر الفرق بينهم.

### عرض كاتب الحروف

قد تفلت الفاريق من ناديمكم. وانملص من بين أياديكم. وعنجر في وجوهكم جميعاً وأصبح لا يخاف لكم وعيداً وبقي الآن أن أذكركم ما أشططتم به من الظلم والطغيان والجور والعدوان على أخي المرحوم أسعد. إذ أودعتموه السجن في داركم الوزيرية بقنوبين نحو ست سنين. وبعد أن أذقتموه جميع ضروب الذل والهوان والبؤس والضنك في صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها إلى موضع يبصر فيه النور أو يستنشق الهواء اللذين يمن بهما الخالق على الأبرار والفجار من عباده قضى نحبه وما كان سجنكم له إلا لمخالفته لكم في أشياء لا تقتضي عذاباً ولا عتاباً. وما كان لكم عليه من سلطان ديني ولا مدني. أما الدين فإن المسيح ورسله لم يأمرؤا بسجن من كان يخالف كلامهم وإنما كانوا يعتزلونهم فقط. ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساوة الوحشية التي اتصفتم بها الآن أنتم رعاة التائهيين وهداة الضالين لما آمن به أحد، إذ لا أحد من الناس يصبو إلا إذا كان يرى الدين الذي خرج إليه خيراً من الذي خرج منه. وكل إنسان في الدنيا يعلم أن السجن والتجويع والإذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شيء. وناهيك أن المسيح ورسله أقرؤا ذوي السيادة على سيادتهم وأمرتهم. ولم يكن دأبهم إلا الحضّ على مكارم الأخلاق والأمر بالبر والدعة والسلم والأناة والحلم. فأئها هي المراد من كل دين عرف بين الناس. وأما المدني فلان أخي أسعد لم يأت منكراً ولا ارتكب خيانة في حق جاره أو أميره أو في حق الدولة. ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي. فإساءة البطرك إليه إنما هي إساءة إلى ذات مولانا السلطان. لأننا جميعاً عبيد له مستأمنون في أمانه وحكمه. وكلنا في الحقوق سواء إذ البطرك ليس له حق في أن يخطف من بيتي درهماً واحداً لو شاء فإني له أن يخطف الأرواح وهب أن أخي جادل في الدين وناظر وقال أنكم على ضلال فليس لكم أن تميموه بسبب هذا. وإنما كان يجب عليكم أن تنقضوا أدلته وتحضوا حجته بالكلام أو الكتابة إذا أنزلتموه منزلة عالم تخشون تبعته. وإلا فكان الأولى لكم أن تنفوه

من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل أصررت على عتوكم في تنكيهه وزعمتم إن فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جناية وجريته فزتم تجبراً عليه وظلماً. وكأني بكم معاشر السفهاء تقولون أن إهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمودة يندب إليها. ولكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم أن الاضطهاد والإجبار على شيء لا يزيد المضطهد وشيئته إلا كلفاً بما اضطهد عليه. ولا سيما إذا علم نفسه إنه على الحق وإن خصمه القاهر له على ضلال. أو أنه متحل بالعلم والفضائل وقرينه عطل عنها فقد فاتكم على هذا العلم الديني والسياسي. وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد. وذكركم للمقت والتنفيد. ما دامت السماء والأرض أرضاً. وإن أخي رحمه الله وأن يكن قد مات فذكره لن يموت. وكلما ذكره ذاكر من أهل الرشد والبصيرة ذكر معه أيضاً سوء فعلكم وأفحاشكم وغلو وجهلكم وشناعتكم وقد لعمرى أخرج عنكم بموته من شيعتكم هذه المتوحمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حياً. وحسبك بالخواجه ميخائيل ميثاقه الأكرم وبغيره من ذوي الفضل والبراعة مثلاً. ألم تأخذكم يا غلاط الأعناق رافة في شبابه وجماله. ألم تتأثر قلوبكم التارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء. وحين ذوت غضاضة جسمه وبضاخته. وحين لم يبق تارته غير الجلد والعظم وبخلتم عليه أيضاً أن تطلقوه بهما. ألم تشفقوا عليه إذ رأيتم أنامله قد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حمر ديركم ولقد طالما والله أخذت القلم فخطت ما يعجب به الملوك. ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجالاً والعرق يتصبب من جبينه ذاك الصليت. ولا شد ما ابكي سامعيه تذكيراً وترهيداً. وطالما ألف وعرب لكم كتباً ركيكة وعلم حمقى رهبانكم وأخرجهم من ظلمات الجهل. ألم يغز وجوهكم الصفيقة ما كان يترقرق في وجهه من ماء الحياة فكان أشد خفراً من مخدرة. وإنه كان عزيزاً في أهله مكرماً عند الأمراء محبباً إلى الخاصة والعامة. نزيه النفس . كريم الخلق فصيح اللهجة. أنيس المحضة أمثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت والله يعلم بأي شيء مات. ما بال الكنائس الفرنسية والنمساوية والإنكليزية والمسكوبية والرومية الأرثوذكسية والرومية الملكية والقبطية واليعقوبية والنسطوية والدرزية والمتوالية والأنصارية واليهودية لا تفعل هذه الفظاعة والشناعة التي تفعلها الكنيسة الماورنية. أم هي وحدها على الحق والناس أجمعون على الباطل .

ألستم تزعمون أن ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره. والناس من أهل مملكته الكاثوليكين ما زالوا يطبعون كتباً ينددون فيها بعيوب رؤساء كنيساتهم وقبائحهم وسفاهتهم وفحشهم وشراتهم وإلحادهم . بل أن كثيراً بل أن كثيراً منهم قد ألفوا تواريخ خاصة بما كان عليه الباباوات من الفسق والفجور وسوء التصرف. وبكفرهم بخلود النفس والوحي وبإلهية المسيح. فمنهم من قال أن البابا ارمدیوس الثامن ويعرف بدوق صفوي رقي إلى درجة بابا وهو عامي. ومنهم من قال أن مجمع ياسيل إنما كان انعقاده

لخلع البابا يوجين وإنهم حكموا عليه بالعصيان والارتشاء والشقاق والبدع ونكث اليمين. ومنهم من قال أن البابا نيقولاس الأول كان قد حرم كنتيار مطران كولون لمخالفته له في الجمع الذي عقد في متر سنة 864. فكتب المطران المذكور رسائل إلى جميع كنائسه يقول فيها. إن المولى نيقولاس الذي اتخذ له لقب بابا ويحسب نفسه أنه بابا وسلطان معاً وأن يكن قد حرماً فقد علونا على سفاهته. ومنهم من قال إن أمبروسيوس حاكم ميلان حصل على درجة مطران مع أنه كان غير صحيح الاعتقاد بدين النصارى. ومنهم من قال أن البابا يوحنا الثامن أرسل نواباً من طرفه إلى القسطنطينية. ف عقدوا ثم مجعاً اجتماع فيه أربعمئة أسقف وكلهم حكموا ببراءة فوتيوس وإنه جدير برتبة مطران. ومنهم من قال أن البابا اسطفانوس السادس أمر بأن تنبش جثة فرموسيوس أسقف بورطو من القبر لأنه كان قد أثار شغباً على سلفة البابا يوحنا الثامن ثم حكم عليه حالة كونه ميتاً يقطع رأسه وثلاث من أصابعه وألقيت جثته في طير. وأن البابا سرجيوس كان قد استوزر ثاودورة أم ماروزيا التي تزوجت بمركيز طوكساني. وأنه أي البابا ماروزيا هذه ولداً رباه عنده داخل قصره من دون محاشاة أحد من أهل رومية. ثم تزوجت ماروزيا بعد ذلك بمون ملك أولس وعلمت على قتل البابا يوحنا العاشر لانه كان يهوى أختها. فخنقته بين فراشين واستبدت بالأمر. ثم احتالت أن ولت ليو هذه الرتبة ثم قتلت في السجن بعد أشهر. ثم ولت من بعده رجلاً حامل الذكر فولي بعض سنين ثم عزلته ونصبت يوحنا الحادي عشر وهو ابنها من سرجيوس الثالث وكان قد أتى عليه أربع وعشرون سنة لا غير. وشرطت عليه أن لا يباشر من الأحكام إلا ما كان مختصاً برتبة الباباوية. وإلها سميت زوجها ثم تزوجت بسلفها ملك لومباري وفوضت إليه الحكم. فقام أحد ولدها من زوجها الأول وشغب عليها أهل رومية وحبسها وابنها البابا في أنجلو. وإنه ولي بعده اسطفانوس الثامن. غير إنه لما كان بغضاً عند الرومانيين لكونه من جرمانية شوهوا وجهه فلم يقدر بعدها على الظهور بين الناس. ثم انتخب ابن ولد ماروزيا المسمى اكطافيانوس وله من العمر ثماني عشرة سنة وسمي من بعد ذلك يوحنا الثاني عشر. وكان خليعاً ماجناً فحاشا مستهترا منهمكا في اللذات وهوى النفس مولعاً بركوب الخيل والفروسية. وإنما لم يخل ذلك بأمور الكنيسة لان أكثر الدول والكنائس كان على هذه الحال. وأن أوثو الإمبراطور لما علم أن هذا البابا قد أضمر العصيان وكان أهل إيطاليا قد استدعوا حضوره لإصلاح ما اختل من أحوالهم توجه من بافيا إلى رومية. وبعد أن استتب له الأمر في المدينة عقد مجعاً حضر فيه البابا بنفسه وكثير من أمراء جرمانية ورومية وأربعون أسقفاً وسبعة عشر كردينالاً وذلك في كنيسة مار بطرس. وشكى البابا بحضرهم أجمعين أنه فسق بعدة نساء وخصوصاً أيتنت التي ماتت وهي نفساء. وأنه قلد مطرانية طودی لغلان كان سنه عشر سنين لا غير.

وأنه كان يبيع الرتب والدرجات الكنائسية بيعاً وسمّل عيني أشيبينه في المعمودية سماً. وجبّ أي خصى أحد الكرادلة أو الكردينالات جباً. ثم قتله. وأنه لم يكن يؤمن بالمسيح وغير ذلك مما أوجب على الإمبراطور خلعه ونصب ليو الثامن في مكانه. إلا أنه لم يكّد الإمبراطور يخرج من رومية حتى هاج البابا عليه أهل المدينة. وعقد مجمعا خلع فيه ليو الثامن وأمر بقطع يد الكردينال الذي كتب الشكوى عليه. وقطع أيضاً لسان الكاتب الذي كان يقيد الحوادث وأنفه واثنين من أصابعه. ثم قتل البابا يوحنا الثاني عشر وهو معانق لامرأة. وكان القاتل له على ما قيل زوجها. ثم أن القنصل كريستينوس ابن البابا يوحنا العاشر من ماروزيا جيش أهل رومية على أوثو الثاني وسجن بندكتوس وكان من حزب الإمبراطور فمات في السجن. فلما بلغ ذلك مسامع أوثو وليّ يوحنا الرابع عشر. فقام عليه بونيفاس السابع الذي كان ولي الرئاسة من قبل القنصل وقتله. وبقي القنصل مستقلاً بتدبير الأمور ومباشرة الأحكام إلى أن قام غريغوريوس ابن أخت الإمبراطور وخلع أوثو الثالث. ثم احتال عليه الإمبراطور وضرب عنقه وأمر بأن تعلق جثته من القدمين. وسمّلت عينا البابا يوحنا الخامس عشر الذي أنتخبه الرومانيون وقطع أنفه ثم رمي به من ذروة قلعة صانت أنجلو. ثم عرضت الرئاسة الباباوية على البيع فاشترها كل من بندكتوس الثامن ويوحنا التاسع عشر واحداً بعد واحد. وكانا أخوي مركيز طوسكاني ثم اشترت لولد سنه عشر سنين وهو بندكتوس التاسع. ثم انتخب باباوان آخران وكان أحدهما يكفّر الآخر ويحرمه. ثم اصطلحا على أن يتقاسما دخل الكنيسة فيما بينهما وأن يعيش كل منهما مع سرّيته. ومنهم من قال أن كنيسة رومية أصدرت مرة منشوراً حكمت فيه على بعض ملوك فرنسا بأن يطلق امرأته ويأبى دواعي التوبة سبع سنين. وإنه لما شهر المنشور في المملكة سقطت حرمة الملك من عيون الناس فتجنّبه الخاصة والعامة حتى لم يبق عنده غير خادمين. ومنهم من قال أن البابا غريغوريوس السابع عقد مجمعاً في رومية على آنري الرابع سلطان جرمانية وقال فيه. قد خلعت آنري عن ولاية النمسا وإيطاليا وأعفيت جميع النصارى من الطاعة له ونقضت عهدهم له. ولست آذن لأحد في أن يخدمه باعتباره إنه ملك ذو سلطان. وأن آنري لما ضاق بذلك ذرعاً اضطر إلى الذهاب إلى رومية. فلما قدم على البابا وجده خاليا بالكتس ماتيلدة في كانوزا فوقف السلطان يستأذن في الدخول لدى الباب ولم يكن معه أحد يخفّره. فلما دخل المقام الأول اعترضه بعض حشم البابا ونزعوا عنه حلته الملكية وألبسوه ثوباً من الشعر. ووقف أيضاً ينتظر الأذن في صحن القصر حافياً وكان ذلك في قلب الشتاء. ثم ألزم أن يصوم ثلاثة أيام قبل تقبيل قدم البابا. فلما انقضت الأيام الثلاثة دخل به إلى مجلس البابا فوعده بالعفو بشرط أن ينتظر ما يحكم به عليه في مجلس اغوسبرغ. إلى أن قال ثم مات البابا المذكور وخلفه رئيس دير سُمّي اوربانوس الثاني. وكان مثل سلفه في العتو والتجبر. فمن ثم جعل يحرض ابني آنري على قتال أبيهما. وهذه ثاني مرة هاج البابا فيها الأبناء على



آبائهم. فقاما عليه وأودعاه السجن ثم فرَّ منهومات في لياج مسكيناً ذليلاً. ومنهم من قال أن آنري السادس ولد فريديريك الثاني سار إلى رومية ليتوجه البابا سيلستانوس. ولما كان الإمبراطور متطأاً لتقبيل قدمه وعلى رأسه تاج الملك رفع البابا رجله ورفس بها التاج عن رأسه فوقع على الأرض وكان سن البابا وقتئذ ستاً وثمانين سنة. ومنهم من قال أن بعض الباباوات وأظنه اينوصنت الثالث حرم الملك لويس وأباه. غير أن مطارين فرنسا نسخوا حكمه وأمروا بإلغائه. وأن البابا اينوصنت الرابع عقد المجمع الثالث عشر الإمبراطور فريديريك الثاني وذلك في سنة 1345 وحكم عليه فيه بكفره وبأنه كان يتسرى بجواري مسلمات. فناضل عن الإمبراطور خطباًؤه وحزبه وردّوا على البابا أنه افتض بنتاً وارثشى غير مرة. ومنهم من قال أن البابا المذكور أغرى طبيب الإمبراطور المشار إليه بأن يدس له السم في طعامه. وأن البابا لوقيوس الثاني ولي مرة حصار رومية بنفسه ومات من رمية حجر على رأسه. وأن البابا إكليمنضوس الخامس عسر كان يجول في فينا وليون لجمع المال ومعه عشيقته. وإن راهباً من الدومينيقيين سم الإمبراطور آنري عن أمر البابا وذلك في القربان

وإنه في سنة 1200 تراحم باباوان على الرئاسة وجمع كل منهما حزبه للقتال وعلى راية كل صور المفاتيح. وأن أحدهما تصرف في آنية كنيسة مار بطرس وأنفقها في أهبة الحرب. وأن البابا أوربانوس كان يعذب كل من خالفه من الكرادلة أو الكردينالات وفي ذلك الوقت أنكرت دولة فرنسا رئاسة البابا واستبدت أساقفتها بأمور رعيّتهم. ومنهم من قال أن البابا يوحنا الثالث والعشرين شكى بأنه سم وباع الوظائف الكنائسية وقتل عدة أبرياء. وأنه كان كافراً ولوطياً معاً. فمن ثم خلع بحضرة الإمبراطور. إلى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب فإني لم أضعه في الدين وإنما أوردت ما مرّ بك على سبيل الاستطراد. فإن كان ما قاله هؤلاء المؤلفون من الفرنسيين حقاً كان أبرّ من هؤلاء الأئمة وأتقى. إذا لم يُشكَّ قط بأنه لاط أو زنى أو سم أحداً أو هاج الأبناء على آبائهم ليقتلوهم. أو أنه اختلس آنية الكنائس أو طغى وتجبر على سلطانه أو ارتشى. وإنما هي مباحكات جرت بينه وبين بطركه على أشياء غير مقيسة ولا معدودة ولا موزونة ولا مكيلة. فأنت تقول مثلاً أن دركات قنوبين المؤدية إلى سجن ثلاث. وهو قال ثلاثمائة. وأنا أقول ثلاثة آلاف. فما مدخل السجن هنا والعذاب. وإن كان ما قالوه كذباً وافتراء كان ذلك أدعى إلى تنكيلهم والاقتصاص منهم. لافترائهم على أحبار الله وخلفائه فواحش لن يستطيع عباد الفتيش أن يأتوا بأفطع منها. مع أنا لم نر أحد منهم عُذب أو نفى استفز من داره أو أنف من محضره. بل قد طبعت كتبهم المرة بعد المرة. وسعرها في الأسواق كسعر كتب العلم. ولعل قائلًا أن عرضك هذا موجه إلى البطرك المتولي الآن وهو من أهل الفضل والمكارم وليس هو الذي سجن أخاك وقتله وإنما سلفه. قلت عندي علم ذلك. غير أنه ما دام هو يعتقد بأن ما فعله سلفه كان صواباً فهو شريك له ولا

يلبث أن يعامل من يقتدي بأخي معاملة سلفه. وكذلك يعم اللوم جميع المطارنة والأساقفة والقسيسين والرهبان أن كانوا يصوبون ما فعله البطرك المتوفى. وكنت أود لو أختتم هذا العرض بعتاب أوجهه إلى حضرة المطران بولس مسعد ابن خالي وخال أخي وكاتب أسرار البطرك. ولكني خشيت الآن من الإطالة. وفيما قلت ما يغني اللبيب.

### الفرق بين السوقيين والخرجين

اعلم أن للسوقيين شهرة عظيمة في جميع الأقطار. وذلك أنهم احتكروا السلعة منذ القدم في مخازن لهم. وقالوا كل من لم يشتر من مخازننا أنزلنا به القصاص. ثم أنهم أخفوا دفتر أسعار البياعات عن المشتريين وغالوا بثمن الأصناف وأشطوا. فكانوا يتقاضون من المشتري أضعاف القيمة. ثم اتخذوا لهم معامل ومخازن في جميع الأمصار وجعلوها مظلمة خالية عن الكوى ومنافذ النور. فكانوا يبيعون منها من غير أن يبدو حقيقة لون السلعة ورقعتها. وكانوا يجعلون ما يبيعونه من أصنافها ملفوفاً مظروفاً فيأخذه الشاري وينطلق به ولا يرى منه شيئاً. وكان عندهم من النساجين والخياطين والرفائين والصباغين ما يفوق العدد. فكان هؤلاء يصنعون لهم كل ما يأمرؤهم به. واتفق في بعض السنين أن وقع موات ذريع في الماشية وأمحلت البلاد فقلّ الصوف والحرير عندهم وكادت الانوال والمعامل تتعطل. فارتأى رجل منهم من أهل الحصافة والحدق أن يستعمل الشعر وبعض أصناف الحشيش بدل ما أعوزهم من الحرير وغيره. وجاء عمله هذا متقناً محكماً حتى اشتبه على أكثر الناس. ثم أن نفرًا من المعسرین الذين حملهم الضنك في المعيشة على توسيع دائرة الفكر والنظر في الأمور والتمييز لها فإن جل العلماء والمستنبطين من الصعاليك ذهبوا يوماً إلى بعض المخازن لشراء ما لزم لهم وجاءوا بما اشتروه إلى منازلهم ملفوفاً مصوناً على العادة. وكان أحدهم يهوى امرأة يريد أن يتزوج بها وقد اشترى لها منديلاً. فلما أهداها إياه بحضرتهم وكانت ذات استشراق واستطلاع واستكشاف للمستور كما هو شأن سائر النساء. أخذت المنديل وقبل أن تشكره على معروفه أدنته من نور السراج إذ كانت زيارتها له في الليل. فرأت فيه خللاً كبيراً مع أن النور كان طفيفاً يوشك أن ينطفئ. وإذا بها صرخت تقول بئس من باعك هذا أنه قد غبنك. إن فيه خللاً مثل الذي قد فتنك. فلما سمعوا ذلك تنبهوا فأخذ بعضهم ينسل حاجته. وصار الآخر يقيس ثوبه على قامته وهلمّ جرّاً. فظهر لهم أن البضاعة ليست على وفق مرادهم. لأن من ذهب ليشتري حاجة بلون أحمر وجدها سوداء. ومن أراد ثوباً طويلاً وجدته قصيراً. ومن أراد حريراً وجدته كرباساً فرجعوا بها في الغد إلى الباعة وقالوا لهم قد بعتمونا ما لم نرده. وأوردوا لهم عللاً وأسباباً للإقالة. فقال صاحب المنديل لقد كدتم تسودون

وجهي عند محبوبتي البيضاء. وكادت تغاضبي لما أتخفتها من سقط المتاع لولا إنها طمعت فيما يكون خيراً منه. فقالت لهم الباعة إنما بعناكم ما طلبتم ولكن على أبصاركم غشاوة فلستم تبصرون اللون ولا الرقعة ولا تعرفون المقادير ولا المقاييس. فقال من اشترى الثوب كيف يمكن أن يجهل الإنسان قامته ويعرفها آخر غيره. وقال صاحب اللون الأسود إنما أردت اللون الأحمر وها أن ثوبك أسود ورفيقي هذان يشهدان لي وما هو واضح لكل ذي عينين. فقال له البائع أنت أعمى لا تميز الألوان ثم ذهب ليأتيه بلماك ليكحله به فأبى ذاك وقال لا بل أنت عمه أعمى. وقال من اشترى الكرياس بدل الحرير هب أن البصر يغش أفيخفي للمس على الأعمى. فلج بينهم الجدال والعناد وملئوا المكان صخباً وضجيجاً. وفيما هم على ذلك إذا برجل أقبل يسعى وهو يلثث بهراً وقد اندلع لسانه ووضع يديه على كشحيه. فما كاد يدخل الحانوت حتى سقط لا يستطيع حراكاً وغداً يئن ويقول آه امرأتي آه امرأتي. ثم غشي عليه ساعة. فلما أفاق أدار نظره يمينه ويسره فرأى غريمه. فلم يتمالك أن وثب من مجثمته وقال. يا أهل الفساد. ومروجي الكساد. ومسيبي الفتن بين المرء وزوجته ومفرقي الأب عن ابنه وابنته. وغابني الأغرار من الشارين ومبرقي وجوه المبصرين. كيف حلّ لكم من الله أن تغشوني وتبيعوني ما لا حاجة لي به. إني أتيتكم بالأمس أطلب منكم أن تبيعوني لحماً لأتخذ منه مرقاً لزوجتي لأنها عليلة مذ أيام. فبعتموني كسر خبز وقتلتم لي إنه لحم غريض. فلما أوقدت النار لأطبخه إذا به خبز فباتت امرأتي من غير أن تذوق شيئاً وقد أصبحت لا حراك بها بلسانها. فهي لا تزال تلعن تلك الساعة التي رأيتني فيها قبل الزواجر وتسب القسيس الذي كان السبب فيه. وقد حلقت إنما إذا برئت من مرضها لتأمرن النساء جميعاً يكن مع أزواجي ضجعاً مفسلات مناشيص وكأنه لما قال ذلك فار دمه في دماغه فوثب من مكانه وكاد أن يبطش بالبائع. لولا أن تداركه بعض الصنّاع في الحانوت.

فلما تخلص البائع من يديه صعد منبراً وقال. أيها الخصماء. ولا تعجلوا إلى اللوم فإنه من دأب اللؤماء. أن عيونكم قد غشي عليها فهي تبصر الأحمر أسود. وذوقكم قد فسد فعندكم أن اللحم خبز مُفتاد. وعقلكم قد رك وحرص فأنتم تحسبون الحرير قطناً. والجوهر عهناً. فما ينصفنا إلا قيم السوق فهلّموا إليه وإلا فأنتم من أهل الكفر والفسوق. فلما سمعوا مقالته وعلموا أن محاكمته لهم عند شيخ السوق شطط لكونه أضعف منهم بصراً وبصيرة لهرمه. التهبوا غيضاً فجعلوا يركسون الأمتعه ويشوشونها ويعثرونها ويمزقون كل ما قدروا عليه ويطنون ما أمكن لهم وطؤه ويكسرون كل ما أصابوا من معد وصندوق وكؤوس وأكواب وخرجوا وهم سامدون. ثم تواطفوا على أن يعتقدوا مجلساً تلك الليلة ليدبروا في أمورهم. فلما كان المساء اجتمعوا وقالوا قد اتضح لنا إن هؤلاء الباعة ظالمون غابنون. وإن حواسنا لم تر

الشيء إلا على ما هو عليه. فشكراً لله ولصاحبة المنديل التي هدتنا إلى هذا. فتعالوا نستقلّ بأمورنا ونعمل لنا مخازن ومعامل كما عملوا هم. ثم اتخذوا لهم شيعة وأخذانا وأصحاباً وأعواناً. وأسقطوا عنهم من السعر ما آمال إليهم كثيراً من الناس. وقالوا لهم أن عهدنا إليكم أن نبيعكم البضاعة بمرأى أعينكم ولمس أيديكم وذوق ألسنتكم. ومن لم يرض شيئاً اشتراه فإننا نبدله له بما هو خير منه. ثم بحثوا عن الدفتر ونشروه في جميع البلاد واستعملوا لذلك وسائل مختلفة. وقالوا للناس هاؤكم الدفتر النور. والدستور الأكبر. فلا تشتروا منا حاجة إلا على مقتضى تسعيرة. ولا تذهبوا إلى شيخ السوق فإنه هالك في غروره. فرضي الناس بما اشترطه هؤلاء على أنفسهم. وانفصلوا عن الشيخ المذكور وعن حزبه. وغدا كل من الحزبين يكذب حريقه ويسوء عليه ويخطئه ويسفه ويحمرّه ويفنده ويحرفه ويلعنه ويكفره ويؤثمه ويفسقه. وسبحان من يداول الأيام بين الأنام.

## الكتاب الثاني

### درجة جلود

قد ألقيت عني والحمد لله الكتاب الأول وأرحت يافوخي من حملة. وما كدت أصدق أن أصل إلى الثاني فإني لقيت منه الدُّوار. ولا سيما حين خضت البحر مشيعاً للفاريق تفضلاً وتكريماً. إذ لم يكن مفروضاً عليّ أن أرافقه في كل مكان وقد مضى عليّ حين بعد وصوله إلى الإسكندرية والتقامه الحصاة من الأرض ولسان قلبي يتمطق وتغر دواقي مطبق حتى عاد إلى نشاطي فاستأنفت الإنشاء ورأيت أن أبتدىء هذا الكتاب الثاني بشيء ثقیل ليكون عند الناس أكثر اعتباراً وأطول أذكّاراً. وكما إني ابتدأت الكتاب الأول بما يدل على إلمامي بشيء من العلويات إن كنت لما تنس ما مر بك، استحسنّت الآن أن آخذ في شيء من السلفيات لأجل المطابقة. هذا ولما كان الحجر من الجواهر المتينة المفيدة راق لي أن أدرج منه هنا جلوداً من أعلى قمة أفكارني إلى أسفل حضيض المسامع. فإن وقفت تنظر إلى تصوبه من دون أن تتعرض له. وتحاول توقيفه مرّاً بك كما تمر السعادة عليّ. أي من غير أن يصيبك منه شيء. وإلا أي من استسهلت حبسه عن منحدره كر عليك ودفعك تحته. والعياذ بالله مما وراء هذا الدفع. فأنظر إليه ما هو متحرط للسقوط. هاهو متصوب فالحذر الحذر. قف بعيداً وأسمع من دويّه ما يقول.

أن من نظر بعين المعقول إلى هذه الدنيا وإلى ما أختلف فيها اختلف من الأحوال والأطوار والجوار والأعراض. والأطوار والأعراض. والعادات والمذاهب. والمراتب والمناصب. وجد أن كل شيء يمر عليه منها يفوق كنهه إدراكه ويفوت تأمله. وأن حواسنا وأن تكن قد ألّفت أشياء لم تغادر الألفة عليها محلاً

للتعجب منها. إلا أن تلكم الأشياء لا تنفك في نفس الأمر عن كونها معجبة محيرة ومن تبصر في أدنى ما يكون منها حق التبصر رأى نفسه كمن قد أهمل أداء فرض تعين عليه. أنظر مثلاً إلى اختلاف ضروب النبات في الأرض فكف فيه من الأزهار البديعة الصنعة العجيبة الكينة من دون أن نعلم لها منفعة خصوصية. وإلى اختلاف أنواع الحيوان من دبابات وهوام وحشرات وغيرها. فإن منها ما هو حسن الشكل ولا فائدة منه ومنها ما هو قبيح والحاجة إليه ماسة. وأنظر في السماء إلى هذه النجوم درارثها كوكب دري ويضم متوقد متألئ.

وخنسها الخنس الكواكب كلها أو السيارة أو النجوم الخمسة إلخ. وبيانها الكواكب البيانيات التي لا تتزل بها الشمس ولا القمر.

وتوائمها توائم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها.

وبروجها معروف وتبينها التين بياض خفي في السماء يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع إلخ.

ومجرها باب السماء أو شرحها.

ورجمها النجوم التي يرمى بها.

وأعلاطها أعلاط الكواكب الدراري التي لا أسماء لها: وإنائها الإناث صغار النجوم.

وخسائها النجوم لا تغرب كالجدي والقطب وبنات نعش والفرقدين.

وأنوائها النوء النجم مال للغروب أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. التي يرجع البصر عنها وهو كليل.

وإلى اختلاف سجن الناس ورؤوسهم. فإنك لا تكاد ترى سحنة بشر تشبه سحنة آخر غيره. ولا تجد بين

رؤوسهم أي عقولهم رأساً يشبه غيره. فمن عباد الله هؤلاء من أختار المخالطة والمقارفة. والمحاشرة

والمزاحمة والمضاغطة والمصادمة. والمباراة والمعاجة. والملاهسة والمداحمة. والمحاحسة والمداغمة. والمزاعمة

والمداهمة. والمساومة والمزاهمة. على اختلاف فيها. وذلك كالتجار والنساء. ومنهم من قابلهم بضد ذلك

فاختار العزلة والانفراد كالنساك والزهاد. ومنهم من جعل دأبه التهافت على اليمين والافتراء. والغلو

والإطراء. كالشعراء والمستأجرين لمدح الملوك فيما يطبعونه من هذه الوقائع الإخبارية - ومنهم من قابلهم

بضده فآثر الصدق والتحري - والتحقيق والتروي. والقول الفصل والمطابقة بين الماضي والحاضر والآتي.

وذلك كأهل الفلسفة والحكمة والرياضة. ومنهم من يعمل النهار كله ويكد بكلتا يديه وكلتا رجله وربما

لم ينطق بكلمة واحدة. وذلك كأصحاب الصنائع الشاقة، ومنهم من لا يحرك يده ولا رجله ولا كتفه

ولا رأسه وإنما ينطق في بعض أيام الأسبوع بكلمات ثم يقضي سائر الأيام مستريحاً متنعماً -مترفها متترفا- وذلك كالخطباء والوعاظ والمرشدين إلى الدين. ومنهم من يفتك وييطش ويجرح ويقتل كالجنود. ومنهم من يعالج ويداوي ويشفي ويحي كالإساءة وأولياء الله تعالى أهل الكرامات والمعجزات. ومنهم من يستأجر للتطليق. ومنهم للتحليل. ومنهم للإيلاد. ومنهم للإلحاد. ومنهم للتفريق. ومنهم للتأليف بين الآحاد. ومنهم من يتكوى في بيته فلا يكاد يخرج منه إلا لضرورة. ومنهم من يصعد الجبال والأدغال. والمنابر والأشجار. ومنهم من يهبط الأودية والبوليع والمراحيض. ومنهم من يسهر الليالي في تأليف كتاب. ومنهم من لا يذوق النوم حتى يحرقه. ومنهم من يسود ومن يساد. ومنهم من يقود أو يقاد. ومع هذا التنافي والتباين فمال مساعيهم وحركاتها كلها إلى شيء واحد. وهو إدخال الإنسان خنابته غداة كل يوم في رائحة كريهة قبل أن يستنشق روائح الأزهار. ويتمتع بمتنوع النهار. وأعجب من جميع ما مر بك من هذه الأحوال حالتنا أصحابنا السوقيين والخرجيين. فإن حرفتهم لما كانت لا تتوقف إلا على استعمال أداتين فقط. أي المخيلة والقسم دون افتقار إلى آلة أخرى. وكان مورد أقوالهم. ومصدر جدالهم. ومبنى انتحالهم. وجلّ رأس ما لهم قولهم يحتمل أن يكون هذا الشيء من باب المجاز الإسناد أو اللغوي. أو من مجاز المجاز أو الكناية. أو من حمل النظر على النظر. أو النقيض. أو من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم أو بالعكس. أو من قبيل ذكر البعض. وإرادة الكل أو بالعكس أو من نوع أسلوب الحكيم. أو من باب التهكم. أو من طاقة التلميح. أو من كوة الالتفات. أو من خرق الحشو. أو من خرت الإدماج. أو من خصائص الاكتفاء. أو من شق الاحتباك. أو من سم عكس التشبيه. أو من خلل سوق المعلوم مساق غيره. أو من فتحات التجريد. أو من فرجة الاستطراد. أو من ثقب التورية. لم يكن من اللائق بهم أن يخلطوا هذه الأوت وتلك اللوات بشيء. من العرّادات العرّادة شيء أصغر من المنجنيق. والدبابات الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها. الدراجة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال. المنجنيق. المنجنيق آلة ترمي بها الحجارة كالمنجنوق معربة والمنجليق المنجنيق والنفاطات النفاطة أداة من نحاس يرمي فيها بالنفط. والخطار المنجنيق والذي يطعن بالرمح. والسبطانات السبطانة قناة خوفاء يرمي بها الطير. والضبر جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرب إلى الحصون للقتال.

وَالْقَفْعُ جُنَّةٌ مِنْ خَشَبٍ يَدْخُلُ تَحْتَهُ الرِّجَالُ يَمْشُونَ بِهِ فِي الْحَرْبِ إِلَى الْحَصُونِ وَالْجُلَاهِقِ الَّذِي يَرْمِي بِهِ  
وَنُحُوهُ الْبَرَاقِيلَ وَالْبِنَادِقَ.  
وَالْحَسَكُ أَدَاةٌ لِلْحَرْبِ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ قَصَبٍ فَيُلْقَى حَوْلَ الْعَسْكَرِ تَعْمَلُ عَلَى مِثَالِ الْحَسَكِ الْمَعْرُوفِ.  
وَالْقُرْدُمَائِي قِبَاءٌ مَحْشُوٌّ يَتَّخِذُ لِلْحَرْبِ وَسِلَاحًا كَانَتْ إِلَّا كَاسِرَةً تَدْخِرُهَا فِي خِزَانَتِهِمْ وَالدَّرُوعَ الْغَلِيظَةَ.  
وَالْتَجْفَافُ آلَةٌ لِلْحَرْبِ يَلْبِسُهَا الْفَرَسُ وَالْإِنْسَانُ.  
وَالْيَلْبُ التَّرْسَةُ أَوْ الدَّرُوعُ مِنَ الْجُلُودِ.  
وَالسَّرْدُ اسْمُ جَامِعِ الدَّرُوعِ.  
وَالدَّرَقُ التَّرُوسُ مِنْ جُلُودِ بِلَا خَشَبٍ وَلَا عَقَبٍ وَنُحُوهُ الْحَجَفُ.  
وَالْحَرِشَفُ الرِّجَالُ وَمَا يَزِينُ بِهِ مِنْ سِلَاحٍ.  
وَالْعَتَلَاتُ الْعَتَلَةُ الْعَصَا الضَّخْمَةُ مِنْ حَدِيدٍ لَهَا رَأْسٌ مَفْلُطَحٌ يَهْدُمُ بِهَا الْحَائِطَ.  
وَالْمِنْسَفَاتُ الْمِنْسَفَةُ آلَةٌ يَقْلَعُ بِهَا الْبِنَاءَ.  
وَالْفَلَقُ مَقْطَرَةُ السِّجَانِ وَهِيَ خَشَبَةٌ فِيهَا خُرُوقٌ عَلَى قَدَرِ سَعَةِ السَّاقِ وَالْخَنَازِرُ الْخَثَرَةُ فَأَسٌ عَظِيمَةٌ  
يَكْسِرُ بِهَا الْحِجَارَةَ.  
وَالْعِذْرَاءُ شَيْءٌ مِنْ حَدِيدٍ يَعْذِّبُ بِهِ الْإِنْسَانُ لَا قَرَارَ بِأَمْرٍ وَنُحُوهُ.  
وَالْمِقَاطِرُ الْمَقْطَرَةُ خَشَبَةٌ فِيهَا خُرُوقٌ عَلَى قَدَرِ سَعَةِ أَرْجُلِ الْمَحْبُوسِينَ.  
وَالْمِرَادِيسُ الْمِرْدَاسُ آلَةٌ يَدُكُ بِهَا الْحَائِطُ وَالْأَرْضُ.  
وَالدَّهَقُ خَشَبَتَانِ يَغْمِزُ بِهِمَا السَّاقُ.  
وَالصَاقُورُ الْفَأْسُ الْعَظِيمَةُ.  
وَالْمَلَاطِسُ الْمَلْطُسُ الْمَعُولُ الْغَلِيظُ.  
وَالْمَقَارِيسُ الْمَقْرَاصُ السَّكِينُ الْمَعْقُوبُ الرَّأْسُ.  
وَالْمَلَاوِظُ الْمَلُوظُ عَصَا يَضْرِبُ بِهَا.  
وَالْمَقَامِعُ الْمَقْمَعَةُ خَشَبَةٌ يَضْرِبُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَلَى رَأْسِهِ.  
وَالْمَقَافِعُ الْمَقْفَعَةُ خَشَبَةٌ يَضْرِبُ بِهَا الْأَصَابِعُ.  
وَالْحَدَّاءُ الْفَأْسُ ذَاتُ الرَّأْسَيْنِ.  
وَالْمِنْقَارُ حَدِيدَةٌ كَالْفَأْسِ.  
وَالْمِهَامِزُ الْمِهْمِزَةُ الْمَقْرَعَةُ أَوْ عَصَا.  
وَالْعِرَافِيسُ الْعِرْفَاصُ السُّوْطُ يَعَاقِبُ بِهِ السُّلْطَانُ.

والمخافق المخفقة الدرّة أو سوط من خشب.

ولا بالرماح الطاعنات والسيوف الباترات والنبال الصاردات والنصال المدميات والمقارع المولمات والمقارع المضنيات والصلب المهلكات والخوازيق النافذات والأغلال المصلصلات والنيران المتأججات والغارات والغزوات والنكايات والكيسات والاستلابات والافتضاضات والاثكالات والعداوات والمشاحنات وآخر الجميع بالركاكات. فكم لعمرى من دم سفكوا. وجند أهلكوا. وعرض هتكوا. وحرمة انتهكوا. وذى أهل ربكوا. وعزب همكوا. ونساء أيّموا وأولاد يتموا. وبيوت حرّبوا. وأموال نهبوا. ومصون أذلوا. وحرز نالوا. ومستور فضحوا. وحرام أباحوا. فهل فعل ذلك من قبلهم شدّة.

الأنصاب الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهلّ عليها ويذبح لغير الله تعالى.

والكعبات الكعبات أو ذو الكعبات بيت كان لربيعة كانوا يطوفون فيه والربة كعبة لمذحج.

وئسّ بيت لغطفان بناها ظالم بن أسعد لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة فذرع البيت وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة فرجع إلى قومه فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين فقال هذان الصفا والمروة واجتزأ به عن الحج فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه. وعبدّة مرّحّب صنم كان بمحضر موت.

والعَيْعَب صنم.

والعَيْعَب صنم.

ويُعُوث صنم كان لمذحج.

والْبُجّة والسجّة صنمان.

وسَعْد صنم كان لبني ملكان.

وود صنم ويضم.

وآزر صنم.

وبأجر صنم عبدته الأزدويكسر.

وجِهار صنم كان لهوازن.

والدوّار صنم ويضم.

والدار صنم سُمّي به عبد الدار أبو بطن.

وسُعَيْر صنم.

والأَقِصِر صنم.

وكَثَرَى صنم لجديس وطسم كسره فمشل بن الرئيس ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم.



والضمار صنم عبده العباس بن مرداوس ورهطة.  
 ونَسْر صنم كان لذي الكلاع بأرض حمير.  
 والشمس صنم قديم.  
 وعُمَيَانِس صنم لِخَوْلان كانوا يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.  
 والفلس صنم لطيء.  
 وجُرَيْش صنم كان في الجاهلية.  
 والخلصة صنم كان في بيت يدعى الكعبة اليمانية لختهم.  
 وعَوْض صنم لبكر بن وائل.  
 وإِسَاف صنم وضعه عمر بن لَحْيٍ على الصفا.  
 ونائلة صنم آخر وضعه على المروة وكان يذبح عليهما "في قول".  
 والمُحَرَّق صنم لبكر بن وائل.  
 والشارق صنم في الجاهلية.  
 والبعل صنم كان لقوم الياس عم.  
 وسواع صنم عبد في زمن نوح عم فدفنه الطوفان فاستشاره إبليس فعبد وصار لهذيل وحُجَّ إليه.  
 والكُسَّة صنم.  
 والعَوْف صنم.  
 وذِي الكَفَيْن صنم كان لدوس.  
 ومناف صنم  
 ويعوق صنم لقوم نوح أو كان رجلاً من صالحى زمانه فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة  
 إنسان فقال أمثله لكم في محرابكم حتى كلما صليتم ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحيه ثم  
 تمادى بهم الأمر إلى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها.  
 والأشهل صنم ومنه بنو عبد الأشهل لحى من العرب وهُبَل صنم كان في الكعبة.  
 وياليل صنم.  
 والبَعِيم صنم والتمثال من الخشب والدمية من الصبغ.  
 والأسحم والأسحم ونُهم صنم لمزينة وبه سموا عبد نهم.  
 وعائم صنم.  
 والضَيِّز صنم.

والمدان صنم.  
والجبهة صنم.  
واللات صنم لثقيف سمى بالذي كان يلتّ عنده السويق بالسمن ثم خفف وهو في حديث عروة الرّبة.  
وذي الشرى صنم لدّوس.  
والعزّى صنم أو سمرّة عبدتها غطفان أول من أتخذها ظالم بن أسعد فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال بنى عليها بيتاً وسماه بساً وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق السمرة.  
ومناة صنم.  
والالهة الحية والأصنام والهلال والشمس ويثالث كالإلهة.  
والطاغوت اللات والعزّى والكاهن والشيطان وكل راس ضلال والأصنام وكل ما عُبد من دون الله.  
والزّون الصنم وما يتخذ ويعبد- والموضع تجمع فيه الأصنام وتنصب وترنّ.  
والجيتّ الصنم والكاهن والساحر والسحر والذي لا خير فيه وكل ما عُبد من دون الله تعالى.  
أو عبدة الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد وفردود والفرقد والذئخ والكتد  
والعوائد والحضار والأحور والزّيرة والأظفار والعُذر والمعرة والأعيار والنثرة والجوزاء والبرجيس والτίαςين  
والميسان والسنيق والشرطين والفارطين والأثافي والعيوق والعوهقين والصرفة والطرفة والأبيض والضباع  
والهقمة والهنعة والردف والمغلف والناقّة والنسقين والسماكين وشهيل والشولة والعوكلين والمزّمين  
والسلم والبطين والقدر والحية والتحاوي والخراتين والحباء وسهي والشاة والعواء وكويّ.

فكان يجب عليهم أن يجمعوا رأيهم على أمر واحد ويقولوا من حيث أن حرفتنا لا تحتاج بحمد الله إلى قياس وعدد كحرفة الطبيعيين والمهندسين والرياضيين. فإنهم آيان طلب المناقش منهم دليلاً بادروا حالاً إلى البرهان بالمقادير والمساحة والحساب. فانصبوا أنفسهم وأنفس سائليهم. كان حقاً علينا أن ننهج منهاجاً مريحاً يقربنا ومُعاملينا إلى الغرض المقصود. وهو أن نيسر أسباب تعلم هذه الحرفة لكل مضطر إليها منهم. فمن شاء بعد ذلك أن يلبس قباء أو جبة مع سراويلات من تحتها أو تبان فليصنعها هو بأي لون أعجبه وبأي شكل راق له. إذ ليس من الرشد أن يعترض الإنسان إنساناً آخر في كيفية لبسه أو في ذوقه ومنامه. لأن ابن آدم من يوم يستهل بالبكاء إلى أن يبلغ أربع عشرة سنة يعيش مستغنياً عنا مفتقر إلى ما رسمنا به عليه. إذ الغريزة تهديه إلى ما يلائمه ويصلح له. إلا ترى أن الطفل إذا خلّي وطبعه لم يلبس الكتان الرفيع في الشتاء وإن كان مطرّزاً. ولا الفرو في القيط وأن كان مزركشاً. وأنه متى جاع طلب الأكل. ومتى

نعس نام. وأن طربته بجميع آلات الطرب والأنغام. ومتى ظمئ شرب. ومتى تعب استراح فهو في غنى عنا من أصل الفطرة. حتى أنه يمكنه بحول الله تعالى أن يعيش مائة وعشرين عاماً وشهراً من دون رؤية وجه أحد منا أو مشاهدة تاجه وحلته الفاخرة وخاتمه النفيس وعصاه المفضضة. فلندع الناس إذاً في دعيتهم وسلامتهم وشغلهم. ولا نتطفل عليهم ولا نكلفهم ما لا طاقة لهم به. إذ لو شاء الله أن يخرج الطفل إلينا لأوحى إليه أن يسأل أبويه من وقت ترعرعه عن أسمائنا ومقامنا. وعما نحن عليه من المماحكة والجدال، والقبل والقال، والتشاحن والتشاجر، والتناقر والتنافر، والتلاعن والتهاثر، والتدابير والتهاجر، وأحسن من تركه على هذه الحالة ما إذا عنيبتا بتأديبه وتربيته وتغذيته وتعليمه صنعة تنفعه في تحصيل معيشته والديه. كالقراءة والخط والحساب والأدب والطب والتصوير. وما إذا نصحنه له أن يسعى في خير أبويه نفسه وخير أبويه ومهارفه وجنسه وكل من صدق عليه أنه إنسان بقطع النظر عن هيئات اللباس وتفاوت الألوان والبلاد. لأن اللبيب الرشيد لا ينظر إلى الإنسان إلا لكونه متصفاً بالإنسانية مثله. ومن اعتبر الأمور الطارئة عليه كالألوان والطعام والنزى فإنه يتباعد عن مركز البشرية كثيراً. وإنما يتم حسن صنعنا هذا كله ما صنعناه حسبة لوجه الله تعالى. غير طالبي الجزاء والهدايا. ولا النذر والعطايا. لأن كثيراً من الأطباء يداوون المعسرين مجاناً. فترى أحدهم يغادر طعامه وفراشه ويذهب إلى مريض محموم أو به جذري أو طاعون احتساباً عند الله. إذ الناس كلهم عيال على الله. وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. هذا ما كان ينبغي أن يقولوه. وهذا ما أقوله أنا. تأمل في خرجي أقبل يطوف البحار والأمصار. ويجول في الجبال والقفار. ويعرض نفسه ونفس من ينحاز إليه للسب والقذف والعداوة والمشاحنة وما ذلك ألا ليقول للناس أنه أعرف منهم بأحوالهم. وإذا سئل عن دواء لعين رمدت أو ساق قرحت أو أذرة انتفخت أو إصبع دميت. أو إذا قيل له ما ترى في من كثرت عياله، وقلّ ماله، وعظّم زمانه، وجار عليه سلطانه، فمني بالجوع، وحرّم الهجوع. وأصبح يمشي والناس ينظرون جهوته، ويتجنبون خلطته. ولا يستعملونه ولا يستخدمونه، لما تقرر في عقولهم من أن الفقير لا يحسن عملاً. وقد أصبحت أولاده ييطون ويتضورون وامراته تشكو وتسترحم ولا راحم لها لكون شباها قد ذهب في تربية أولادها. أو قيل له هل عندك من مأوى لضيف عرير، ما له من نصير؟ قال ما جئتكم لهذا وإنما قدمت إليكم لأنظر في أنوالكم التي تنسجون عليها بضاعتكم وفي ألوانها التي لا تشاكل ما عندي في الخرج من اللون الناصع، وما أن يهمني النظر فيما فيه راحتكم وإنما الراحة فيما به تعبكُم. ولو تعطلت جميع معاملكم لاقتصاركم على لوني الذي أبرزه لكم راموزاً وعنواناً واستوجبتم بذلك لوم التجار والحراث والحكام لم يكن عليّ في ذلك من شيء.

وهذا سوقي يضع إحدى عينيه على فم جاره والأخرى على عينيه. ثم يغلّ يديه ورجليه. ويقول له اليوم يجب عليك أن تتنحس. لأن شيخ السوق أصبح متخماً يشكو وجعاً في معدته وأمعائه وأضراسه وهو نحس. فينبغي أن نجانسه ونمسك معه. لا يحل لك لليوم أن تنظر. لأن الشيخ المشار إليه أضربه طوال السهر البارحة مع ندمائه ونديماته فغدا وبإحدى عينيه الكريمتين رمد أو عمش. لا يحل لك اليوم أن تعمل بيديك. ولا أن تحرك رجلتك. ولا أن تسمع بأذنيك. أو تستنشق بمنخريك لأن السوق اليوم لم تقم والبياعات لم تنفق. ثم هو إذا قيل له أفلا تصلح بين زيد وزوجته فقد خاصمته بالأمس بعد أن جاءت من حانوتك العالي وتماسكا بالشعور وحلفت المرأة لتمنيه بحيزبون أو لتشكونه إلى أحد أصحابك الضوارة الكبار. أو أن عمرا قد حبس منذ يومين لكونه دان بعض الأمراء ولم يمكن له أن يحاكمه ويستوفي منه حقه. فقله القاضي وأركبه حماراً في الأسواق ووجهه إلى دبه الحمار. أو أن فلاناً قد مرض ولزم فراشه لأنه ناقش بعض خدام الأمير فنكل به الأمير ضرباً بالعصي على رجله وصفعا بالنعال على القذال. فغدا لا حراك به وقد ورمت رجلاه وانتفخ قفاه. لم يكن منه إلا قوله ما دام السوق وشيخه سالمين فالدنيا كلها سالمة. والمصالح مستتبة والسوق مرفوعة وقائمة. والبطون ملثى والأفواه لاقمة. والأضراس خاضمة والمعد هاضمة والأيدي غائمة. والأفراح دائمة. والخيرات متراكمة. والرؤساء حارمة. والعناية عاصمة. والقادامات بالبذور متزاحمة. والوقوف شاملة عامة. وثغور الأمانى باسمه. والسلامة خاتمة. إلى السوق. إلى السوق. فهو حرز العلوق. وذخر الحقوق. في الصندوق. في الصندوق. فهو أولى من الصبوح والغبوق. وقد طالما والله امتلأ هذا الصندوق ذهباً وجواهر ثم افرغ على تماتر وترهات ومباحث فارغة وأمور سخيفة. فقد بلغنا أن بعض ضوارة السوق انفق في مدة ست سنين قضاها بالبحث والجدال على شكل قبعة كذا وكذا بدرة من المال. وتفصيل ذلك أنه نظر نفسه ذات يوم في المرأة وكان قد تعلم مبادئ الهندسة والهيئة. فرأى رأسه مدوراً كالبطيخة فراق له أن يتخذ قبعة مدورة على هيئة رأسه. لأن المدور يلائم المدور كما تقرر في الأصول. فرآه بعض مزامله من سوق آخر وكان اعظم منه قدراً ووجاهة وأوفر علماً. فسخر منه وقال له من وسوس إليك يا ابن قبعة، حتى لبست هذه القبعة. مع إن شكل رأسك مخروط. فقال له قد ضللت بل هو أكثر استدارة من رأسك كما يشهد لي بذلك شيخ السوق. قال كذبت بل هو مخروط وأن كنت كثير الجنس إليه وإني أهدي من شيخك وأقوم طريقاً. قال كفرت وعميت عن معرفة نفسك فأني لك أن تعرف غيرك. قال تبدعت بل أنت عمه كمه وقد حقت وسفهت في عدم قبولك النصيح. فالיום ترى الناس المدور من المخروط. والساوط من المسروط. ثم لجّ بينهما العناد وتقابضا بالازياق والجيوب والإقلاع. ثم بالجمم ثم بالأعراض.



بصواق وغيرها بصمد وأخرى بصوامع. وغيرها بمشامذ وأخرى بمشاوذك. وغيرها ببرانيط على شكل الشقيط والشبايط والصفاريط والضماريط والقلاليط والعضاريط والعذافيط والعماريط والقماعيط. ومنهم من له سراويلات طويلة مفرسجة تكنس ما خلفه وما قدّامه ومنهم من لا سراويلات له فبعثطه باد والناس يتمسحون بما أمامه. ومنهم من له تَبَان. ومنه من له إتب. ومنهم يؤثر ومنهم بهميان ومنهم برجل "السراويل الطاق" ومنهم بأندرورد ومنهم بدقرارة أوذُقرور. ومنهم من يركب الحمير والبغال. وغيرهم على الخيل والجمال. والإبل في ازدحام والناس في التطام. فينبغي للسائر بينهم أن لا يفتر على الدعاء بقوله اللهم أجر. اللهم أحفظ. اللهم ألطف. توكلت على الله. استعنت بالله. أعوذ بالله. فأما براقع النساء فهي وأن كانت تخفي جمال بعضهن إلا تريح العين أيضاً من قبح سائرين. غير أن تستر القبيحات أكثر. لأن المليحة لا يهون عليها إذا خرجت من قفصها أن تطير في الأسواق من دون أن تمكن الناظرين من رؤية ملامحها. لينظروا حسننها وجمالها ويكبروا لافترارها. فيقولوا ما شاء الله. تبارك الله. جل الله. الله الله. حتى إذا رجعت إلى منزلها اعتقدت أن جميع أهل البلد قد شغفوا بها حباً. فباتت تنتظر منهم الهدايا والصلوات. والأشعار والمواليات. فكلما غنى مغن أنصت إلى غنائها وسمعت اسمها يتشعب به. فإذا بكرت في اليوم القابل إلى الأسواق ورأت الناس مكبين على أشغالهم تعجبت من بقائهم أصحاب قادرين على السعي والحركة. فرادت لهم في كشف مسافرها، وقسامتها، ومحاجرها وفتنتهم بإشاراتها وإيمائها. ورأواها وإيائها ورمزها ولمزها. وهجلها وعمزها وعنجها ودلالها. وتيهها وعجبها. وزهوها وشكلتها. وتدعها وتصعيرها. ودعجلتها ودغنجتها وتبغنجها ودهمجتها. وشزرها وخزرها وشنفها وحذلقتها وشفوئها وإزلاقها. واستشفافها. واستيضاحها واستشرافها. وخلاعتها وخيلائها. وتمايلها وتهاديها. وتغدثها وتعاطفها. وتثنيها وتاودها. وتدكلها وتخودها. وتذيلها وتعليها. وتقتلها وتقتلها. وتذبلها وترفلها. وتبخترها وتخطلها. وتفختها وتدهكرها. وتبهكنا وتهدخرها. وتخلعها وتفككها. وميحها وحككها. وتداديها وتغطرها. وتوذفها وتغضفها. ودأها ووهازها. وألها وهوادها. وخيزلاها وخيزراها. وزأناها وأوزأها. ومطيطائها وكردحائها. وهبيخاها وعجيساها. وهربذاها وحيداها. وهبصاها وحيصاها. وفنجلها وهبلاها. وخبقاها ودققاها. وعرقلاها وهمقاها. وعميثليتها وقمطراها. وسبطراها وتبدحها وترنخها. وخندفتها وخزرفتها. وخظرفتها وبادلتها. وبجدلتها وبجلتها. وذحذحتها وحرقلتها. وحركلتها وهركلتها. وربلتها ورهبلتها. وقهبلتها وكسملتها. وقندلتها وحنكلتها. وعردلتها وهيقلتها. وخذعلتها ودريخلتها ووكوكتها ووذوذها. وزوزكتها ورهوكتها وفرتكتها. ومككتها ورهدنتها. وككتكتها وبرقطتها. وقرمطتها وحرقصتها. وزهرمتها وحذلتها. ودعمرمتها وزهلقتها. وترهياها وتعمجها. وتبهرسها وتهرسها. وتكدسها وترهوكتها وتهاكها وتهكيلها. وتفركتها وتومزها. وتهيمها وأنفها.

ورسمها وزوفها. وزيفها وهو جلها. وحتكانها وعيكاتها. وزيكاتها وزوكاتها. ورفلائها وملدائها وزيفائها  
وذالائها. وريسانها وكتفائها. وميسانها وتزاييها. وهمدانيتها وتثرتلها. وتعذقلها وتخزلها. وحقطها  
وأبطها. وبفزها وقفزها ونقرها مقبلة مدبرة. وزاد طمعها أيضاً في الهدايا قال وقد نظمت في البرقع بيتين  
ما أظن أحداً سبقني إليهما وهما:

منعاً لهن التماذي في الهوى

لا يحسب الغرُّ البراقع للنسا

وُضع الشراع لها على حكم الهوا

إن السفينة إنما تجري إذا

فأما رجالها فأن للترك سطوة على العرب وتجبراً. حتى أن العربي لا يحل له أن ينظر إلى وجه تركي كما لا  
يحل له أن ينظر إلى حرم غيره. وإذا أتفق في نواذر الدهر أن تركياً وعربياً تماشيا أخذ العربي بالسنة  
المفروضة. وهي أن تمشي عن يسار التركي محتشماً خاشعاً ناكساً متحاقراً متصاعراً متضائلاً قافاً متقصياً  
متقفصاً متشمصاً متحمصاً متحرفصاً مكتراً متكاولاً متازحاً متقرعفاً مقرعفاً متقفعاً متكنبناً مقعنصراً  
متقوصراً مستزماً معرنفطاً مقرنفطاً متجعثباً متجعثناً مرزتماً مرمزاً مقمئناً مكبئناً متحنبلاً متقاعساً مراعزاً  
مكردحاً متعصعصاً مترازئاً مقرنعباً مدنقساً مطمرساً مطرمساً متكرفساً منقفشاً معقفشاً متحويماً معرنزحاً  
متخشلاً أزماً لازباً كاتعاً كانعاً متشاجباً مصعنباً مجريزاً متدخدخاً. فإذا عطس التركي قال له العربي  
رحمك الله. وإذا تنحج قال حرسك الله. وإذا مخط قال وراك الله. وإذا عثر عثر الآخر معه إجلالاً له  
وقال نعشك الله لا نعشنا. وقد سمعت أن الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة  
على أن يتخذوا لهم مركباً وطيباً من ظهور العرب فأثم جربوا سروج الخيل وبراذع الجمال وراكفها  
وأقتاب الإبل وبواصرها وحصرها وسائر أنواع المحامل من: كفل مركب للرجال.

وشجار مركب يتخذ للشيخ الكبير ومن منعه العلة من الحركة.

وحدج مركب للنساء كالحقة.

وأجلح هودج ماله رأس مرتفع.

وحوف شيء كالهودج وليس به.

وقرّ مركب للرجال والهودج.

ومحقة مركب للنساء.

وفرفار مركب من مراكب النساء.

وحمل هودج.

وحلال مركب النساء.

وكدن مركب لهن.  
وقعش مركب كالهودج.  
ومحارة شبه الهودج.  
وقعدة مركب لهن.  
وكثر الهودج الصغير.  
ومثرة ج موثر مراكب تتخذ من الحرير والديباج.  
ورجاجة مركب أصغر من الهودج.  
وعريش كالهودج.  
وعبيط مركب.  
وحزق مركب شبيه بالباصر.  
وبلبلة هودج للحرائر.  
وحقل هودج.  
وتوأمة من مراكب النساء ج توأمات.  
وفودج الهودج ومركب العروس.  
ومن رحل وعجلة وعرش وشرجع ومزفة ومنصة وسرير ونعش فوجدوها كلها لهم. ورأيت مرة تركياً  
يقود جوقة من العرب بخيط من الكاغد وهم كلهم يقودون له. أستغفر الله مرادي أن أقول ينقادون له  
ولم أدر ما سبب تكبير هؤلاء الترك هنا على العرب. مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عربياً والقرآن  
أنزل باللسان العربي والأئمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عرباً غير إنني أظن أن أكثر الترك  
يجهل ذلك فيحسبون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول شويله بويله أو بقالم قبالم أو

طغالق باق يخ بلها

غطالق قاب خي دلها

فصالق هاب دركلها

صفالق باه خشت وكرد

خدا شاوزت قردلها

دخا زاوشت قلدي نك

قلاقلها بلابلها

اشكارهم كبي والله

لا والله. ما هذا كان لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والأئمة الراشدين رضي الله عنهم أجمعين إلى  
يوم الدين آمين وبعده آمين.

فأما ماؤها فما أحسن رأسه وأنجعه. إلا أنه قدر الذنب تنجسه حيوانات الأرض بأجمعها. وطيور السماء



بجملتها. حتى أن سمك البحر إذا أصابته هيضة طفر إلى رأس هذا الذنب فألقى فيه ما أثقله. فأما أكلها فالقول والعدس والحمص والزن والدوسر والقريناء والخرفي والجلبان والباقلي والحنبلي والدجر والخلر والبلس والبيقة والترمس والخرم والشيرم واللوبياء وكل ما يجنطي به البطن. وذلك أن أهلها لا يرون في الحمائص حسناً. حتى أن النساء فيما بلغني يتخذون معجوناً من الجعل ويأكلنه في كل غداة لكي يسمن ويكون لمن عكن مطويات.

واضطر ما لاقيت فيها قيعر قيعار. قدم إليها من بعض البلاد الحميرية وتعرف بجماعة من النصارى فيها. فصار يدخل ديارهم ويسامرهم. فلما لم يجد عند أحدهم كتاباً أقام نفسه بينهم مقام العالم فقال إنه يعرف علم الفاعل والمفعول وحساب الجمل. وأخذ له كتباً بعضها من غير ابتداء وبعضها بغير ختام وبعضها مخروم أو محو. فكان إذا خاطبه أحد في شيء عمد إلى بعض هذه الكتب ففتحه ونظر فيه ثم يقول. نعم أن هذا الشيء هو من الأشياء التي اختلف فيها العلماء. فإن بعض مشايخنا في الديار الحميرية يتجهج كذا. وبعضهم في الديار الشامية كذا. ولما يستقر رأيهم عليه فإذا استقر فلا بد من أن يخبروني به. قال الفاريق وقد سمعت مرة من استفزه باعث من الشغل يسأله عن الوقت. فقال له ساعة وخمس دقائق أما الساعة فقد اشتق منها الساعي وعيسى. أما الساعي فلكون السعي كله يتوقف على الساعات. إذ لا يمكن لأحد أن يعمل عملاً خلواً من الوقت فإن جميع الأفعال والحركات محصورة في الزمان كانهصار - ثم أدار نظره ليشبهه بشيء فرأى كوزاً لبعض الصبيان. فقال كانهصار الماء في هذا الكُرّ. ثم رأى زنبيراً لصبي آخر فقال أو كانهصار غداء هذا الولد في هذا الزَّيْل. وأما عيسى فلكونه اشتمل على جميع المعارف والعلوم اشتمال الساعة على الدقائق. ثم أن قولي خمس دقائق معناه أربعة بعدها واحد أو ثلاثة قبلها اثنان ولك أن تعكس. وإنما قالوا خمس دقائق ولم يقولوا خمسة طلباً للتخفيف والعجلة في الكلام. فإن بطول الألفاظ يضيع الوقت. وقولي دقائق هو جمع دقيقة وهو مشتق من الدقيق للطحين. إذ بينهما شبه ومناسبة بجامع النعومة. ثم أن هناك ألفاظاً كثيرة تدل على الوقت وهي المساء والليل والصبح والضحى والظهر والعصر والدهر والأبد والحين والأوان والزمن. أما الست الأولى ففيها فرق وأما الأخيرة فلا. فأعترضه رجل من أولئك الكبراء وقال قد رابني يا أستاذنا ما قلت. فإن كلا من جاريتي وستهما لها فرق. فضحك الشيخ من حماقته وقال له أن كلامي هنا فيما حواه الزمان لا فيما حواه المكان. فسأله آخر قائلاً أين جامع النعومة هذا الذي ذكرت أن فيه الدقيق. فضحك أيضاً وقال أعلم أن لفظة جامع تسمى عندنا معاشر العلماء اسم فاعل أي الذي يتولى فعل شيء أياً كان. لكني طالما عزمت على أن أناقشهم في هذه التسمية لأن من يموت أو ينام مثلاً لا يصح أن يقال فيه أنه فاعل الموت أو النوم. فقولي

جامع على القاعدة المعلومة عندنا هو اسم لمن جمع شيئاً. حتى أن الكنيسة يصح أن يطلق عليها لفظ الجامع لأنها تجمع الناس. فلما قال ذلك اكفهرت وجوه السامعين. قال فسمعت بعضهم يمجّم قائلاً: ما أظن الشيخ صحيح الاعتقاد بدين النصارى. فقد أصابت أسأفتنا في حظرهم الناس أن يتبحروا في العلوم ولا سيما علم المنطق الذي يذكره شيخنا. فقد قيل من تمنطق تزندق ثم أنصرف عنه الجميع مدممين. وسأله مرة قسيس عن اشتقاق الصلاة. فقال هي مشتقة من الأصلاء. لأن المصلي يحرق الشيطان بدعائه. فقال له القسيس إذا كان مأوى الشيطان سقر مذ ألوف سنين ولم يحترق فكيف تحرقه صلاة المصلي. فتناول بعض الكتب ليقتبس منه جواب ذلك فإذا به يقول قال أحد علماء الرهبان: الاحتراق على نوعين. احتراق حسي كمن يحترق بالنار. ومعنوي كمن يحترق بحب العذرة. ثم وقف وتأوه قائلاً: قد أخطأ سيدنا الراهب. لأن العذراء يجب مدها. فقال: القسيس وقد حنق عليه كيف يجب مدها إذا لم تشأ. قال ويلي عليك أنت الآخر لا تعرف المدّ والقصر في الكلام وأطفال الحارة في بلادنا يعرفون ذلك. قال بلى أن اقتصار الكلام مع من يخطي الرهبان مزية. ثم تولى من عنده مدمماً. قال الفارياب وقال لي مرة قد يظهر لي أن حق استعمال دعا إذا أريد به معنى الصلاة أن يتعدى بعلي. فيقال دعوت عليه كما يقال صليت عليه. قال فقلت له لا يلزم على كون فعل يوافق فعلاً آخر في معناه أن يوافقه في التعدية. فغصّ بذلك ولم يفهمه. وشكا إليه مرة رجل من معارفه إسهالاً آله. فقال له يغالطه أو يسليه أحمد الله على ذلك ليتني مثلك. قال كيف هو أن طال قتل وأسأل الجسم كله. فقال له أنه مئة من الله. ألم تسمع كل ملهوف يقول يا رب سهل. فقال التاجر أنا ما عنيت التسهيل بل الإسهال. فقال هما بمعنى واحد لأن افعل وفعل كلاهما يأتيان للتعدية. كما تقول أنزلته ونزلته. ولأن كلاً من التسهيل والإسهال فيه معنى السهولة. وكتب مرة إلى بعض المطارين العظام. المعروض يا سيدنا بعد تقبيل أردافكم الشريفة. وحمل نعالكم المنيفة اللطيفة. الظريفة النظيفة الرهيفة العفيفة الموصوفة المعروفة المحصوفة. قال فقلت له ما أردت بالإرداف هنا. فقال هي في عرف المطران بمعنى الراحة. ثم لم يلبث أن بعث إليه وذلك المطران ببركة وكتاب أطرا فيه على علمه وفضائله جداً فمما كتب إليه. قد قدم عليّ مکتوبکم الأبنی وأنا خارج عن الكنيسة فما قرأته حتى دخلت الصومعة وأولجت فيها. فلما أتيت على أخراه علمت أنك صاحب الفضول. مؤلف الفصول. جامع بين الفروع والأصول. طويل اللسان. قصير الیدان "عن المحرمات" واسع الجبین. عمیق الدین. عریض الصدر. محووف الفکر. وكتب في آخره. أطال الله بقاءك. وقباك وهناك ومناك. والسلام ختام والختام سلام. والبركة الرسولية تشملكم أولاً وثانياً إلى عاشراً. فجعل بيدي هذا الكتاب لجميع معارفه وخصوصاً لمن كانوا خرجوا من عنده مغضبين لتقريره عن لفظة الجامع. فلما وجدوها في كلام المطران زال عنهم الأشكال والريب في صحة استعمالها.

وزاد الرجل عندهم وجاهة وجلالاً.

فأما سؤالك عن كرم أهل هذه البلدة فأفهم كانوا في ظهور آبائهم على غاية من السماحة والجود. إلا أنهم لما برزوا إلى عالم التجارة وخالطوا أصحاب هذي البرانيط أخذوا عنهم الحرص والبخل والآمة والرثع. بل برزوا على مشايخهم. وإنهم إذا ضمهم مجلس لم يكن منهم إلا الحديث عن البيع والشراء. فيقول قد جاءني اليوم جندي من الترك في الصباح ليشتري شيئاً فتطيرت من صاحبه واستفتاحه. إذ لا يخفى عنكم أن الجندي يستدين ولا يقضى دينه. وإذا تكرم بنقد الثمن فما يعطي التاجر إلا نصفه. فقلت له ما عندي مطلوبك يا أفندي. وإنما أردت تفخيمه بهذا اللقب ليتأدب معي. فما كان منه إلا أن دخل الحانوت وبعثر البضاعة كلها وأخذ ما أراد منها وما لم يرد. ثم ولي وهو يسبي. فيقول آخر وأنا أيضاً جرى لي مع سيدة من نساء الترك واقعة. وذلك أنها بكرت عليّ اليوم وهي تنوء بحليها. وأقبلت باسمه أليّ وقالت هل عندك يا سيدي حرير مزركش. قلت وقد استبشرت عندي. فقالت أرني المتاع فأريتها إياه. فنداركتني بالخف وقالت أمثلي يري هذا. أرني غير ذلك: فأريتها ما أعجبها فأخذته وقالت أبعث معي من يقبض الثمن. فبعثت غلامي فتبعها حتى دخلت دار كبيرة وأمرت حاجبها بضرب الغلام وإيلامه. إلا أن الحاجب لما كان من الترك ورأى الغلام أمرد لم يطاوعه قلبه على ضربه لكن أنفذ فيه أمر سيده بما أوصل من الأذى والألم وهكذا ينقضني نهارهم بالمكروه وليلهم بذكره. وأظن أن التاجر يطرب بمجرد ذكر البيع والشراء وإن لم يكن فيه ربح.

فأما ما جرى لي بعد وصولي فإني نزلت عند خرجي من أصحاب صاحبي الأول. فتيوأت حجرة بالقرب من حجرته. فكنت أسمع كل ليلة يضرب امرأته بآلة فتبدي الأنين والحنين والرنين والحنين. فكان يهيجني فعله إلى البطش به. وكثيراً ما فكرت في أن أقوم من فراشي لكي خشيت أن يصيبني ما أصاب ذاك الأعجمي المتطلب الذي جاور قوماً من القبط. وإنه ذات ليلة صراخ امرأة من جاراته فظن أن لدغتها عقرب وذلك لكثرة وجود العقارب في بيوت مصر. فقام إلى قنينة دواء تأبطها وأقبل يجري. فلما فتح الباب وجد رجلاً على امرأة يعالجها بإصبعه كما هي عادة القوم فلما رأى الطبيب ذلك دهش فوقعت القنينة من يده وانكسرت. وكان هذا الخرجي أبيض اللون أزرق العينين مع صغر واستدارة فيهما دقيق أرنبة الأنف مع عوج في قصبته غليظ الشفتين. وإنما تكلفت لوصفه لك ليبقى نموذجاً عندك تقيس عليه جميع من تراه من الخرجيين وغيرهم. وكان قد أتخذ فوق سطح منزله هرمًا صغيراً مرصوفاً من قناني الخمر الفارغة. فكان سطحه أعلى سطوح الجيران. قال ثم عنّ له يوماً أن يكلفني إنشاء خطبة في الخرج في مدح الخرج لكي أتلوها في مخطب صغير كان قد استأجره. فلما فرغت منها عرضتها عليه فذهب بها إلى قيعر

قيعار. فقال له ما مرادك أن تصنع بهذه الأحجية الخرجية. فقال يتلوها منشئها على الناس فما رأيك فيها. قال هي حسنة إلا أن عيبها هو أن لا يفهمها أحد إلا أنا وهو. ونحن قد قرأناها فلا موجب لإعادتها. فعدل عن ذلك.

قال وأتفق لي وأنا مقيم عنده إني خرجت في عشية من عشايا الصيف البهيجة أمشي وحدي ويدي نسخة الدفتر. ولما كان رأسي قد حفل بالأفكار فيما أنا عليه من فرقة الأهل والأحباب وذكر الوطن. والتغرب عنه لغير سبب من أسباب المعاش سوى لخصام سوقي وخرجي على قال وقيل. أوغلت في المشي فانتهيت إلى ظاهر المدينة وكان يتبعني رجل قد رأى نسخة الدفتر فأضمر ليمنيني بدهية. فأقبل إليّ يكلمني ثم عطف بي يمنة ويسره وهو يعللي بالكلام حتى انتهينا إلى مكان خال. فتركني هناك وقال لي أن عليّ أقضي هنا مصلحة. فحاولت الرجوع إلى مقري وإذا بسرب عظيم من الكلاب جرت وهي تنبحني ودنت مني. فهوَّلت عليها بالكتاب فهجمت عليّ هجمة السوقي على الخرجي. ثم تحاصوا جسمي وثيابي والكتاب فبعضهم عضّ وبعضهم أدمى وبعضهم جرّ. وبعضهم تهدد في المرة الثانية. فما كدت أتملص من بين أيديهم إلا وثوي وجلدي ممزق. وقد مزّق الدفتر أيضاً أوراقه وجلده. فلما رجعت إلى منزلي ورآني الخرجي على هذه الحالة لم يكثر بشأني أو أنه لم يريني من فرط اشتغاله بالخرج. وإنما علم أي رجعت حلوا من الدفتر فأعتقد أني أعطيته لأحد. ففرح بذلك جداً ورغب في أن يجعلني عنده في مصلحة خرجية. لكن رأى من الواجب أن يشاور صاحبه فمن ثم كتب إليه في شأني. فأبى ذاك وقال لا بد من تسفيرني إلى الجزيرة. لأن النية استقرت على هذا من قبل. وما حسن تغيير النيات. فعزم مضيفي على إجراء ذلك وها أنا منتظر السفينة.

### انقلاع الفاريق من الإسكندرية

من نحس صاحبنا أنه عند سفره إلى تلك الجزيرة لم تكن خاصية البخار قد عُرفت عند الإفرنج. فكان سفر البحر موكولا إلى الريح إن شاءت هبّت وإن شاءت لم تهب. كما قال الصاحب بن عباد

**فإنما هي ريح لست تضبطها      إذ لست أنت سليمان بن داود**

فمن ثم ركب الفاريق في سفينة ريحية من هذا النوع وكان في مدة السفر يتعلم بعض ألفاظ من لغة أصحاب السفينة مما يختص بالتحية والسلام. من جملة ذلك دعاء يقولونه عند شرب الخمر على المائدة وهو قولهم طابت صحتك. إلا أن لفظ الصحة عندهم يقرب من لفظ جهنم فكان يقول طابت جهنمك.

فكانوا يضحكون منه وهو يسبهم بقلبه ويقول. قاتل الله هؤلاء العلوج إنهم يقيمون في بلادنا سنين ولا يحسنون النطق بلغتنا. فيلفظون السين إذا سبقها حركة زايا وحروف الحلق وغيرها محالة ونحن لا نضحك منهم. وقد سمعت أن بعض قسيسيهم الذين لبثوا في بلادنا سنين رام مرة أن يخطب في القوم فلما صعد المنبر أرتج عليه ساعة إلى أن قال: "أيها الكوم كد فات الوكت الآن ولكني أهتب فيكم نهار الأهد الكابل إن شاء الله". ثم سار إلى بعض معارفه من أهل الدراية والعلم والتمس منه أن يكتب له خطبة يحفظها عن ظهر قلبه أو يتلوها تلاوة. وحشد الناس إليه فلما غصت بهم الكنيسة صعد المنبر فقال "بسم الله الرحمن" ثم كأنه انتبه من غفلته وعرف أن ذلك لا يرضي النصارى وأن الكاتب إنما كتب ذلك على طريقته. فاستدرك كلامه وقال: لا لا ما بديش أكلو مسلماً بيكول الإسلام بسم الله الرحمن الرحيم بل كما تكول النصارى بسم الآب والابن والروح القدس. يا أولادي المباركين الهادين هنا لسماء هتيتي. وكبول نسيهتي وموهزتي. أن كنتم هدرتم وكلبكم مشكول بلزات الآلم. أهبرني هتي أكسر من هتابكم فلا يتدجر أهد من ثوله ولا يتألم. وإلا فهزي فرصة سنهت لي اليوم. أذكر فيها النساء والرجال تركير من لا يكشي اللوم. وأنزهرهم يوم الهشر والمساب. يوم لا ينفع مال ولا أسهاب. ولا سُهال ولا جواب. إيلموا رهمكم الله أن الدنيا زائلة.

ومتامهها باتله. وهالاتها هايلاه. ومهاليها سافله فكونوا منها على هَزَر. ولا يدلکم ما آجب منها وما سرّ. أسرفوا أنما نزرکم ولا تالكوا بها وترکم. أفهسوا فيها كلبکم کبل أن تسندوا روسکم إلى المهدة. ووازبوا إلى السماوات في الديك والشدّة. كدموا للكنائس نزورکم ولو كليله وإستهينوا بالكديسين هال الفتيله. لتنكروا من المهن والمساب. وتنفسوا من الكرب والنوايب أهترموا كسيسيکم وأساكفتکم ووكروهم وأکتدوا بهم. وأركبوهم ولا هزُ وهم ترشدوا بسايهم وركسهم وداهم يا أيها النصارى أن ديننا هو أهلك. وواده هو الأسدك. وكبره هو الأكدك وسوکه هو الأنفك. لا تكانتوا هؤلاء الكرجيين. الزين إندسّوا فيکم مزهين. يتزيبون في أدالکم عن الزرات المستکيم. بما يزهرن لکم من الورا والکُلک الهليم. إلا أنهم هم الزياب الكاتفة المتردية بلباس الهملان. الجايلون في كل کُتر وسُك ينسبون إلينا الزيك والبهتان. وهم أزيك من سلك تريکا. وأکرب من کش سديکا. وكان رفيکا. إلى أن قال أيها الكاركون في الهتاي. تجنبوا ما يفدي بکم إليها فإن آکبتها إليکم بلایا ورزایا. ألا فأسرموا أزابها سرمًا. وكاوموا أركابها آزما. وأستاسلوا جزروها رهزا. وأکلوا مکوياتها تنالوا رکزًا. الأزاب الأزاب.

فأکتأوا الأزاب حتى تملسوا في يوم الحساب. من الکساس والأزاب "أي اقطعوا الأسباب حتى تخلصوا في يوم الحساب من القصاص والعذاب" ومع ذلك فلم يصفه أحد من السامعين بل استمر إلى آخر الخطبة

على هذا النمط. إلا أن المرأة لبيبة كانت قد تزوجت مذ عهد قريب لما سمعت الفقرة الأخيرة غضبت وقالت: ألا لا بارك الله في يوم رأينا فيه وجوه هؤلاء العجم فقد احتكروا خيراتنا وأرزاقنا. وأفسدوا بلادنا وسابقوا ناسا إلى تحصيل رزقهم من أرضنا. وعلموا من عرفهم منا البخل والحرص والطيش والسفاهة. وما لعمرى حصلوا على هذا الغنى الجزيل إلا لجشعهم وشحهم. فقد سمعنا أن الرجل منهم إذا جلس على المائدة مع أولاده يأكل اللحم ويرمي بالعظام إليهم ليتمششوها. ولكونهم حراميين غبيين في البيع غشاشين. وقد بلغني أن إخوانهم في بلادهم أنجس منهم وأفسق. وهذا النجس الآن يغري بعولتنا بارتكاب الفاحشة لتخلوا له الساحة فيفعل ما يشاء. فإني أعلم عين اليقين أن هؤلاء المنابريين إنما بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وأنهم ليعلمون الناس الزهد في الدنيا والحب وهم أحرص الثقلين عليها وأقرب الخلق إلى البغال. فما جزاؤه الآن إلا قطع لسانه حتى يعرف ألم القطع. لعمرى أن الإنسان لا يهون عليه أحيانا أن يقلم أظفاره لكونها منه. ولذلك كانت أخواتنا نساء الإفرنج يربين أظفارهن ويفتخرون بها مع إنما لا يلبث أن تنبت. فكيف يجوز قطع ما يعمر به الكون "طيب الله أنفاسك يا حديثة عهد بالزواج وعتيقة نقد للاعلاج. ليت النساء كلهن مثلك وليتني التم شفيتك".

ثم لما خرج القسيس من الكنيسة إذا بالناس جميعاً اهرعوا لتقيل يده وذيله وشكروه على ما أفادهم من المعاني البديعة بقطع النظر عن غيرها. لما تقرر في عقولهم من أن خواص دين النصارى أن تكون كتبه ركيكة فاسدة ما أمكن. لأن قوة الدين تقتضيه المطابقة كما أفاده المطران إثناسيوس التتونجي الحلبي البشكاني الشلاقي الشولقي الإنقافي النشافي المفسقي اللطاعي النطاقي المصنوي الحنطلي الأرثمي الشرقي القديحي التخمي الأمعي في بعض مؤلفاته المسمى بالحكاكه في الركاكه. قال الفاريق وإذ قد ابتلاني الله بعشرة اللثام فلا بد ليمن مجاملتهم ومخالفتهم إلى أن يمن عليّ بالنجاة منهم.

قلت وحيث قد مرّ ما قاله الفاريق في سفرته الأولى فلا موجب الآن لإعادة ذكره شكواه هنا من ألم البحر. وإنما نقول إنه في خلال معاناته ومقاساته حلف لا يركب بعدها في شيء من مراكب البحر. من الجفاء السفينة الخالية ذكره صاحب القاموس في المهموز.

والمرزاب السفينة العظيمة أو الطويلة.

والزبب ضرب من السفن.

والبارجة السفينة الكبيرة للقتال.

والخليج سفينة صغيرة دون العدوّلي.

والطراد السفينة الصغيرة السريعة.

والمعبدة السفينة المقيرة.

والغامد السفينة المشحونة كالآمد.  
 والدرء السفينة تدرء الماء بصدرها ج دُسر.  
 والزرزور المركب الضيق.  
 والزَنَبِيّ الضخم من السفن.  
 والقرقور السفينة الطويلة أو العظيمة.  
 والكار سفن منحدره فيها طعام.  
 والمهرهور ضرب من السفن.  
 والقادس السفينة العظيمة.  
 والبوصي ضرب من السفن.  
 والصلغة السفينة الكبيرة.  
 والنهبوغ السفينة الطويلة السريعة الجري البحرية ويقال لها الدونيج معرب.  
 وذات الرفيف سفن كان يعبر عليها وهي أن تنضد سفينتان أو ثلاث للملك.  
 والشقدف مركب م بالحجاز.  
 والحراقة ج حراقات سفن مرامي نيران.  
 والزورق السفينة الصغيرة.  
 والبراكية ضرب من السفن.  
 والعدولية سفن منسوبة إلى عدولي بالبحرين أو - والجرم زورق يمي.  
 والخن السفينة الفارغة.  
 والشونة المركب المعد للجهاد في البحر.  
 والتلوي ضرب من السفن صغير ذكره في ت ل و.  
 والجفاية السفينة الخالية ذكره في ج ف ي.  
 والخلية السفينة العظيمة أو التي تسير من غير أن يسيرها ملاح أو التي يتبعها زورق صغير.  
 والشذا ضرب من السفن.  
 والركوة الزورق الصغير.  
 والقارب السفينة الصغيرة.  
 والرمث خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب في البحر.  
 والطوف قرب ينفخ فيها ويشد بعضها إلى بعض كهينة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها.

والعامة عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها في النهر ويقال لها أيضا العامة.  
وإنه بعد وصوله إلى مرسى الجزيرة اعد له فيه مكان حسن لتطهير أنفاسه به مدة أربعين يوما. إذ قد جرت العادة عندهم بأن من قدم إليهم من البلاد المشرقية وقد استنشق هواها فلا بد وأن ينشره في المرسى قبل دخوله البلد. فأقام فيها يأكل ويشرب مع اثنين من أعيان الإنكليز ممن ركبوا في السفينة. وطاب له العيش معهما قد ساحا في بلدان كثيرة من المشرق وأخذوا عن أهلها الكرم. ثم بعد انقضاء المدة جاء الخرجي وأخذه إلى منزله بالمدينة وكان المذكور قد فقد زوجته من يوم نوي تسفير الفاريق إليه. فلزم الحداد والتعشف. ولزمته الكتابة والتأسف. وأن لا يأكل غير لحم الخنزير أعلى الله شأنك عن ذكره. وإنما أمر طباحه بأن يتفنن فيه. فيوما كان يطبخ له رأسه. ويوما رجليه. ويوما كبده. ويوما طحاله. حتى يأتي على جميع آرابه ثم يستأنف من الرأس. وأنت خبير بأن نصارى الشام يحاكون المسلمين في كل شيء ما خلا الأمور الدينية. فمن ثم كان لحم الخنزير عندهم منكراً. فلما جلس الفاريق على المائدة وجاء الطباخ بأرب من هذا الحيوان الكريه ظن أن الخرجي يمازحه بآراءه إياه شيئاً لم يعرفه. فامتنع أن يأكل منه طعماً في أن ينال من غيره. وإذا بالخرجي قضى فرض الغداء وشرع حالاً في الصلاة والشكر للباري تعالى على ما رزقه. فقال الفاريق في نفسه قد خطأ والله صاحبي. فإنه وضع الشكر في غير موضعه إذ الشاء على الخالق سبحانه لأجل فاحشة أو أكل سحت لا يجوز. وفي اليوم الثاني جاء الطباخ بعضو آخر. فالتقمه وشكر عليه أيضاً. فقال الفاريق للطباخ لم يشكر الله صاحبنا على أكل الخنزير. قال ولم لا وقد أوجب على نفسه أن يشكر له على كل حال وعلى كل شيء كما ورد في بعض كتب الدين. حتى أنه كان يقضي هذا الفرض بعد أن يبيت مع زوجته. قال وهل شكر له على موتها. قال نعم فإنه يعتقد أنها الآنفي حضن إبراهيم. قال أما أنا فلو كان لي امرأة لما أردت أن تكون في حضن أحد. ثم أن دولة الخنزير اعتزت وعظمت. ومصارين الفاريق ضويت وذوت. فكان يقضي النهار كله على الخبز والجبن. ثم بلغه أن خبز المدينة يعجن بالأرجل ولكن بأرجل الرجال لا النساء فجعل يقلل منه ما أمكن. حتى اضّر به الهزال. وصدئت أضراسه من قلة الاستعمال. فوقع منها اثنان من كل جانب واحد. وهذا أول أنصاف فعله الجوع على وجه الأرض. إذ لو كانا وقعا من جانب واحد لثقل أحد الجانبين وخف الآخر فلم تحصل الموازنة في حركات الجسم.

أما المدينة فإن القادم إليها من بلاد الشرق يستحسنها ويستعظمها. والقادم إليها من بلاد الإفرنج يحتقرها ويستصغرها. واعظم ما حمل الفاريق فيها على العجب صنفان صنف القسيسين وصنف النساء. أما القسيسون فلكثرتهم فأنك ترى الأسواق والمنازة غاصة بهم. ولهم على رؤوسهم قبعات مثلثة الزوايا لا



تشبه قبعات السوقيين في الشام. وسراويلهم أشبه بالتباين فألها إلى ركبهم فقط. وسيقاتهم مغطاة بجواريب سود. والظاهر أنها عظيمة لأن جميع القسيسين في هذه الجزيرة معلقون سمان. وقد جرت العادة عندهم أيضاً بأن القسيسين وأهل الفضل والكمال من غيرهم يخلقون شواربهم ولحاهم. وإنما يجب على القسيس خاصة أن يلبسوا سراويلات قصيرة مزنقة حتى يمكن للنظر أن يتبين ما وراءها. فأما النساء فلاختلاف زيهن عن سائر نساء البلاد الشرقية والإفريقية. ولأن كثيراً منهن لهن شوارب ولحي صغيرة ولا يخلقنها ولا ينتفننها. وقد سمعت إن كثيراً من الإفرنج يحبون النساء المتذكرات. فلعل هذا الخبر الغريب بلغ أيضاً مسامعهن. كيف لا وأهواء الرجال لا تخفى عن النساء. والحسن فيهن قليل جداً. وانتقادهن إلى القسيسين غريب. فإن المرأة منهن تؤثر قسيسها على زوجها وأولادها وأهلها جميعاً. ولا يمكن أن تتخذ طعاماً فاخراً من دون أن تهديه باكورته حتى كل منه أكلت هي.

وقد بلغني أن امرأة سوقية متزوجة أي من حزب شيخ السوق رأت رجلاً جميلاً من الخرجيين فاستخسرتهم فيهم. وقالت لو دخل هذا الرجل كنائسنا لزادت به بهجة ورونقا. فأرسلت إليه عجوزاً تدعوه إليها فلّبي الفتى دعوتها. لأن عداوة السوقيين والخرجيين إنما هي مقصورة على الضواضرة والنحشيين والمحترفين لا مبلغ لها عند الرجال والنساء. ففاضت معه في الحديث إلى أن قالت له كنت تتبع طريقنا فإني أمكنك من نفسي ولا امنع عنك شيئاً. فقال لها الشاب أما الذهاب إلى الكنيسة فأهون ما يكون عليّ لكونه قرية من منزلي. وأما الاعتقاد فكليني إلى نيتي. فإني آنف من هذا الاعتراف الذي يكلفكم به القسيسون من أهل كنيستكم. وليس من طبعي الكذب والتدليس حتى اعترف للقسيس بالصغائر واكنم عنه الكبائر كما يفعل كثير من السوقيين. أو اذكر له ما لم أفعله وأخفي عنه ما فعلته. فتأوّهت المرأة عند ذلك وأطرقت وهي تفكر وتحرك رأسها. ثم قالت لا بأس أنا ليكفيننا منك الظاهر كما أفادني قسيسي. ثم تعانقا وتعاشقا وجعل يتردد عليها وعلى الكنيسة معاً. حتى أن الزواني في هذه الجزيرة متهوسات في الدين. فإنك تجد في بيت كل واحدة منهن عدة تماثيل وصور لمن يعبدونه من القديسين والقديسات. فإذا دخل إلى إحداهن فاسق ليفجر بها قلبت تلك التماثيل فأدارت وجوها إلى الحائط لكيلا تنظر ما تفعله فتشهد عليها بالفجور في يوم النشور.

قال ومن خصائص أهل هذه الجزيرة إنهم ييغضون الغريب ويحبون ماله وهو غريب. فإن مال الإنسان عبارة عن حياته ودمه وذاته. حتى أن الإنكليز إذا سألوا عن كمية ما يملكه الإنسان من المال قالوا كم قيمة هذا الرجل. فيقال قيمته مثلاً ألف ذهب. فكيف يتأتى لأحد أن ييغض آخر ويحب حياته؟ وإنهم يتجاذبون كل غريب قدم إليهم. فيأخذونه واحد منهم بيده اليمنى ليريه النساء. ويمسكه الآخر ليريه

الكنايس والدولة لمن غلب. ومن خصائصهم أيضاً إنهم يتكلمون بلغة قذرة طفسة منتنة بحيث إن المتكلم يشم منه رائحة البخر أول ما يفوه. والرجال والنساء. في ذلك سواء. وإذا استنكحت امرأة جميلة وهي ساكنة نشيت منها عرفاً ذكياً. فإذا استنطقتها استحالت إلى بخر. ومنها أنه إذا أصيب إحدى النساء بداء في أحد أعضائها ذهبت إلى الصائغ وأمرته بأن يصوغ لها مثال ذلك العضو من فضة أو ذهب لتهديه للكنيسة. ومن كانت معسرة صاغته من الشمع ونحوه. ومن ذلك إن حلق اللحى والشوارب مندوب وحلق ما سواهما محرم. حتى أن القسيسين يلحون على النساء في السؤال كثيراً حين يعترفن لهم عن قضيتي التنف والحلق ويجرزوهن من ارتكاب ذلك. ومنها أن لأهل الكنائس عادة أن يخرجوا في أيام معلومة بما في كنائسهم من الدمى والتماثيل على ثقلها وضخمها. يحملونها على أكتاف المتحمسين في الدين فيجرون بها في الشوارع وهم ضاحون. وأغرب من ذلك أنهم يوقدون أمامها الشموع حين يود كل إنسان أن يؤدي إلى كهف في بطن الأرض من شدة توهج الشمس. وغير ذلك كثير مما حمل الفاريق على العجب. لأن أهل بلاده مع كونهم سوقيين ولهم حرص زائد على عداوة الخرجيين لا يفعلون ذلك. وحين ثبت أن الخرجيين هم على هدى إلا في أكل الخنزير. وإن السوقيين على ضلال ما عدا استحسان نسائهم لغيصائي الخرجيين. إلا أنه ليس من طريقة في الدنيا إلا وفيها ما يحمد وما يذم. وإن الإنسان تراه في بعض الأمور عاقلاً رشيداً وفي غيرها جاهلاً غوياً. فسيحان المتصف وحده بالكمال. وإنما ينبغي للناقد المنصف أن ينظر إلى الجانب الأنفع ويقابله بغيره. فإن رأى نفعه أكثر من ضره حكم له بالفضل. لا أن يعني نفسه بأن يجد شيئاً من الأشياء كاملاً. قال الشاعر:

**ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها      كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه**

هذا وكما أن الجوع اسقط من فم صاحبنا الضرر المستجيع ضرسين. كذلك أسقطت مشاهدة تلك الأمور من رأسه اعتبار السوقيين وبني عمهم من كلا الجانبين الدين والرشاد. فظهر له أن أفعالهم أخرى أن تكون أفعال الجانين. فلهذا ضاق صدره في بلادهم وعيل صبره. مع احتياجه إلى الطعام الطيب الذي كان ألفه في الشام والي لباس يليق به. فإن الخرجي أفاده أن المفدين على السلع الخرجية لا ينبغي لهم التحفل بالملبوس. إذ المقصود من الخرج إنما هو حملة فقط. مع إن السوقيين يحسبون إن الخرجيين يستجلبون إليهم المفدين بالمال والهدايا. فلهذا كان الفاريق دائم الحزن والأسف. فلم يمكنه وقتئذ أن يتعلم لسان الخرجيين وإنما تعلم منهم بعض ألفاظ تخص ترويج السلعة فقط. هذا وقد كان عند الخرجي المذكور خريجيّ لثيم. شكس الأخلاق أصفر الوجه. أزرق العينين أرنبه الأنف كبير الأسنان. رأى الفاريق يوماً

ينظر من طاقة له إلى سطوح الجيران فترغه الشيطان أن يسمر الطاقة، فلما رآها الفاريق مسمرة تفاعل بأنها خاتمة النحس، وهكذا كان، فإنه مرض بعدها بأيام قليلة فأشار الطبيب الخرجي بأن يسفره إلى مصر. فسافر من ثم ومعه كتاب توصية إلى خرجي آخر.

### منصة دونها غصة

ما زال البحر بجرأً. ما برحت الريح ريحاً. ما أنفك طالع الفاريق هابطاً. ما فتئ لسانه فارطاً. فلما بلغ إلى الإسكندرية وجد في محل الخرجي القدم خرجياً فيها. فتخلف عمن تقدمه وخبت ريمه بين أقرانه. والحامل له على ذلك إنه رأى هواء البلاد شديد الحرارة عليه فأرتأي أن يتخذ له هرمين يتسلقهما حين يحتر كما كان سلفه أتخذ هرماً من الدنان. فأفرغ عليهما من اللجين ما يسيل به واد. فشاع إسرافه هناك ومله أصحابه ثم سافر الفاريق من الإسكندرية إلى مصر وادي كتاب التوصية للخرجي. فأنزله في دار رفيق له وكانت محاذية لدار رجل من الشاميين كان يجتمع عنده كل ليلة جماعة من المغنين والعازفين بآلات الطرب. فكان الفاريق يسمع الغنا من حجرته. فهاج به الوجد والغرام. وتذكر أوقاته بالشام. وحين وصبا إلى مجالس الأنس. وخيل له أنه انتقل من عالم الجن إلى عالم الإنس. وأسفرت له الدنيا عن لذات مبتكرة. وشهوات مدخرة. وأفراح صافية. وأمان وافية. فنسي ما كابده في البحر من الدوار والفواق وفي الجزيرة من الجوع وتسمير الطاق. وما أصابه من بؤس التدبير. وترح التقليد. ورأى لدولة مصر بهجة ورونقاً. وفي عيشها رغداً مغدقاً. فكان الناس كلهم مفرسون أو مفاخرون ومنافسون.

ولنسائها كياسة وظرفاً وجمالاً. ولطفاً وليناً ودلالاً. وتيهاً واختيالاً. يخطرون في الطرق بالخير كالمنشآت فيجعلن مجموع الهم على القلب في شتات. وما أنا بأول واصف لهن إهن خلابات للعقول. غلابات للفحول. فقد وصفهن بذلك كل ناظم وناثر. وذكر محالهن كل من حاولهن من الأكابر والأصاغر. وفي المثل السائر. تراب مصر من ذهب. وغيدها نعم اللعب. وإها لمن غلب. واعجب ما يرى من احوالهن. حين يخرجن من حجالهن. ويتفلتن من عكالهن، ما إذا ركن الحمير الفارحة العالية. واستويننا فوقها على منصة مضخمة بالغالية. فترى عرفهن قد ملأ الخياشم. وهور أعينهن يذكر الناس بحور جنات النعيم. فكل من ينظر حورية منهن يكبر عند رؤيتها. ويستصغر الدنيا بجمال طلعتها. ومنهم من يهمل لالتفاتتها. ويسبح عند حركتها. ومنهم من يتمنى أن يكون ممسكا بركابها. أو ماسا لجلابها. أو حاملاً لنعالها. أو رافعا لأذيالها أو بطانة لحبرتها أو بوابا لحجرتها. أو رسولا بينها وبين عاشقها. أو تبعاً لتبعها ومرافقها. أو مشاطا يسوي فرقها. أو خياطاً يرقع خرقها. أو صائغاً يصوغ لها سواراً. أو حدادا يصنع لها مسماراً. أو

بلاّنيّاً يدلّك بدنها. أو هنا آخر يداي هنا. وهي من فوق تلك المنصّة تتعزز وتتمنع. وتشفن وتتطلع.  
فترمي هذا بنظرة فتدميه. وذاك بغمزة فتصبيه وتسبيه. فتعطل على التجار أشغالهم. وتبلبل من ذوي  
البطالة بالهم. حتى كان الحمار من تحتها يعرف قدر من حمل. ويدري ما غرض من كبر وهلل. فهو لا  
ينهق ولا يسمع له شخير ولا يكرف كسائر الحمير. بل يسمد على الخيل كبرا. ويمشي الخيلاء زهوا.  
وفخرا. أما قائد الحمار فإنه يرى أن قائد الجيش دونه في المترلة. وإن الناس لفي افتقار إليه فهو لا بدّ له من  
عائد وصلة. كيف لا وهو الموصوف بالسياسة والقيادة والفراسة. وهنا قضية نسيت أن أذكرها. فلا بد  
من أن أقيدها. في هذا الموضع وأحررها. وهي أن القلوب برؤية المتبرّعات أولع منها برؤية المسفرات  
وذلك أن العين إذا رأت وجهها جميلاً وأن يكن رائعاً شائقاً غاية ما يمكن فإن المخيلة تستقر عليه  
وتسكن. فأما عند تبصر الوجه المحجوب مع اعتقاد القلب بأن صاحبه من الجنس المحبوب. ولا سيما إذا  
قام الدليل عليه بجلاوة العينين، وبالهذب وبزجج الحاجبين، فإن المخيلة تطير بالأفكار عليه ولا تجد لها من  
أمد تنتهي إليه. فيقول الخاطر "انتهى السجع لأنه ملاء الصفحة" لعل هذا الوجه.

أثعْبانيّ الاتعبان والاتعباني الوجه الفخم فيحسن وبياض.

أو ذوانسبات يقال في وجهه انسبات أي طول وامتداد.

أو هو مصفّح المصفح من الوجوه السهل الحسن.

أو مُثَمِّد المتمد من الوجوه الظاهر البشرة الحسن السنحة.

أو مدنّر يقال دنّر وجهه تدنيراً تلالاً.

أو ملوّز الملّوز من الوجوه الحسن المليح.

أو مخروط المخروط من الوجوه ما فيه طول.

أو ساجع الساجع الوجه المعتدل الحسن الحلقة.

أو عنميّ الوجه الحسن الأحمر.

أو فدغم الفدغم الوجه الممتلي الحسن.

أو ذو كلثمة الكلثمة اجتماع لحم الوجه بلا جهومة.

أو مسنون يقال رجل مسنون الوجه مملّسة حسنه سهله.

ولعله جامع لجميع سمات الوسامة فاشتمل على خدين اسيلين اسجحين أو مكتلين وفي كل حدّ إذا

ضحكت غمزة أو هزمه أو شجرة أو عكوة أو غرمة أو فحصة أو فيهما.

علطة العلطة واللعة سواد تخطه المرأة في وجهها زينة.

أو في كل منهما خال عمّ حسنه وعزّ فتنه.

أو فيهما أو في أحدهما خداد "ميسم في الخد" أو ترخ "الشرط اللين".

أو وَحْص أو عُد أو ظبطاب. الوحص بثرة تخرج في وجه الجارية المليحة والظبطاب بشر في وجوه الملاح ومثله العُد.

واشتمل أيضاً على ثغر منصّب. ذي شنب ورتل وحب. ثغر منصّب مستوى النبتة والشنّب ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان أو نقط بياض فيها أو حدّة الأنياب كالغرب تراها كالمنشار والرتل بياض الأسنان وكثرة مائها والحب تنضد الأسنان وما جرى عليها من الماء كقطع القوارير.

أو على تفليج في ثنايا من الدّر. ذات أُشُر ووَشُر أُشُر الأسنان وأُشَرها التحزير الذي فيها حلقة أو مستعملاً يقال أشرت المرأة أسنانها وأُشَرها والوشر تحديد المرأة أسنانها وترقيقها.

أو أن لها عترة. تتهاك في حبها عترة. العترة أُشُر الأسنان ودقة في غروبه ونقاء وماء يجري عليه - والريقة العذبة وهي أيضاً نسل الرجل ورهطه وعشيرته.

الأدنون ممن مضى وغير.

أو أن بذقنها نونة تعود بسورة ن. أو أن شفرتها ريّاً أو حواء أو نكعة أو أن فيها لعساً أو ذبياً. أو يتصّبب منها العسل تصبّباً.

أو أن فيها تُرْملة. تشفي من الوله. الثرملة النقرة في ظاهر الشفة العليا والنكعة من الشفاه الشديدة الحمرة.

أو أن في طُرْمَتها طُرْماً. الطُرْمَة النبرة وسط الشفة العليا والطرم الشهد والزبد والعسل.

أو أن لها تُرْفَة. أشهى واعزّ من الترفة. الترفة هنة ناتئة وسط الشفة العليا حلقة وهي أيضاً النعمة والطعام الطيب والشيء الطريف تخص به صاحبك.

أو أن لها عُرْعَرَة. على مثلها قهون الغرغرة. العرعرّة بين المنخرين أو خَوْرْمَة.

تطيب بها النفس عن الخُرْمَة. الخورمة مقدم الأنف أو ما بين المنخرين والخُرْمَة واحدة الخُرْم وهو نبت كاللويبا بنفسجي اللون شمه والنظر إليه مفرح جداً ومن امسكه معه احبه كل ناظر إليه ويتخذ من زهره دهن ينفع لما ذكره.

أو نثرة. عليها تنثر البدره. النثرة الخيشوم وما والاه أو الفرجة بين الشارين حيال وتَرّة الأنف.

أو أن لمرافعها غَفْراً. يكسر شوكة الاجرا. المرافع الأنف وحواليه والغفر زئبر الثوب.

أو أن لها حُنْبَة. تشدّ العظام الوربة. الحنعبة النونة أو الهنة المتدلية وسط الشفة العليا أو الشق ما بين الشارين حيال الوتره ويقال فيه أيضاً الحُنْبَة.

أو عَرْتَبَة. تصح بها القلوب الوصبه. العرتبة الأنف أو ما لان منه أو الدائرة تحته وسط الشفة أو طرف

وترة الأنف.

أو عَرْتَمَة. هي للحسن سمة. العرتمة مقدم الأنف أو ما بين وترته والشفة أو الدائرة عند الأنف وسط الشفة العليا ومثلها الهرثمة.

أو أن على ملامظها وملامغها لَعَمًا. ينفي سدمًا. ويشفي سقمًا. الملامظ ما حول الشفة والملاغم ما حول الفم كالملاجج واللغم الطيب القليل.

أو لعل لها نبرة هي تمام النضرة. النبرة في وسط النقرة في ظاهر الشفة والنضرة الحسن.

أو تفرّة. يطيل الصب عليها زفرة. التفرّة مثلثة الاول النقرة في وسط الشفة العليا.

أو حثرمة. تذر القلوب بها مغرمة. الحثرمة الدائرة تحت الأنف وسط الشفة العليا أو الأرنبه أو طرفها.

أو وتيرة تفدى بألف وثيرة. الوتيرة حجاب ما بين المنخرين.

أو أن لها خيشومة يرى كمها. ويطري ومها. الخيشوم من الأنف ما فوق نخرته من القصبة وما تحتها من حشارم الرأس والومه شدة الحرّ.

أو قسامة. يمضي بها العاشق أقسامه القسامة الحسن والوجه- أو الأنف وناحيته أو وسط الأنف الخ.

أو أن لها ذلفا يصحّ ذلفاً الذلف صغر الأنف واستواء الأرنبه أو صغره في دقة أو غلط واستواء في طرفه ليس بحدّ غليظ.

أو خنساً تغيب له الخنس. الخنس تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبه وهي خنساء والخنس الكواكب كلها أو السيارة.

أو كان أنفها مُصَفَحًا. المصفح من الأنوف المعتدل القصبة.

أو أشم. الشم ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها وانتصاب الأرنبه.

أو أن به قنى. قنى الأنف ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسيوغ طرفه أو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين هو أفنى وهي قنياء.

أو أن به غُرْضَيْن. يلهيان عن التغريض واللُجَيْن. غرضا الأنف ما انحدر من القصبة من جانبيه جميعا والتغريض أكل اللحم الغريض والتفكه.

أو أن لها ناظرين. نفديهما بالناظرين. الناظران عرقان على حرفي الأنف. أو ناحرتين. نذيل لهما النحور والمقلتين. الناحرتان عرقان في اللّحي وضلعان من أضلاع الصدر أو هما الواهنتان والترقوتان.

أو حافزا. يشرح قلباً حالزاً، ويتلحز له الشاعر تلحزاً. الحافز حيث ينثني من الشديق وقلب حالز ضيق والتحلز فيك من أكل رمانة حامضة ونحوها شهوة لذلك كالتلّزح.

أو أن خَنَائِيَّتِهَا. تحوم القلوب عليها. الخنائبان طرفا الانف.

أو أن صامغين. هما قرّة العين. وريّ الغين الصامغتان والصماغان والصمغان جانباً الفم وهما ملتقى الشفتين مما يلي الشدقين وهما أيضاً الصامغان لغة في الصاد والغين العطش. ويا ليت شعري هل يتكوّن فيهما صمغ شهد حتى سمياً بهذا وهل هما منطبقان أو منفتحان وهل يتلحّز لهما الشاعر المسكين كما تلحّز من الحافرين الله اعلم.

ثم يقول أو أن لها حترّة. يلسم الصبّ إليها حترّة الحترّة مجتمع الشدقين والحتر تحديد النظر. فهل من تلحّز معه.

أو أن لها ماضغين. يعوّدان من العين. الماضغان أصول اللحين عند منبت الأضراس أو غُنية. تمندّ الخليّ سنّبه. الغنية على ما في القاموس واحدة الغنّب وهي دارات أو ساط أشداق الغلمان الملاح. لكني رأيت ربّة البرقع أولى بها فلا عكاس ولا مكاس على هذا الاختلاس. والتنهيد التصبي والتشويق والسنبه والدهر. ولعل عارضها. يتيمّ معارضها. العارض صفحة الخد وجانب الوجه. أو أن لها علاطاً يشغف من ناظره نياطا. العلاط صفحة العنق والنياط الفؤاد.

أو بلدة. تفتن أهل البلدة. البلدة نقاوة ما بين الحاجبين وثغرة النحر وما حولها أو وسطها. أو أن لها محاجر. تباع لها المحاجر. المحجر من العين ما دار بها والمحاجر الثانية ما حول القرية. أو اسارير. يعنو لها من جلس على السرير. الأسارير محاسن الوجه والحدّان والوجنتان. أو أن طليتها تبري الطلياء. الطلية العنق أو أصلها والطيلاء قرحة كالقوباء. ولديديها اللدود. اللديدان صفحتا العنق دون الأذنين واللدود وجع يأخذ في الفم والحلق. ولريزيتها اللز، اللزيز مجتمع اللحم فوق الزور واللز الطعم. ومفاهرها أعز إلى ذي مغبة من الفهيرة. المفاهر لحم الصدر والفهيرة محض يلقي فيه الرضف فإذا غلا ذرّ عليه الدقيق وسيط.

وأن سالفيتها تغنيان عن السلاف. السالفة ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة. ونحرها عن نحر النهار. نحر النهار والشهر اوله. وترائبها عن الأتراب. الترائب عظام الصدر أو ما ولي الترقوتين منه والأتراب وأحدها ترب وهو اللدة. ويصح أن تكون أيضاً بكسر الهمزة مصدر أترب الرجل أي كثر ماله فليسأل القائل عن أيهما أراد. إلى غير ذلك من الاحتمالات التي لا بدّ منها لحصيف العقل المستحكم الرأي. وإنما أطلت الكلام هنا لكوني ناقلاً له عمن تبصر الوجه المحجوب. ودهش عن الإصابة فسأل فمه سعابيب.

وغاية ما أقوله أنا إن من شاعر امرأة ليلاً ولم يرها كما جرى لسيدنا يعقوب عمّا وقع له ما وقع لصاحبنا هذا المكثّر من اللعالات والأنات والأوّات. ولقائل أن يقول أن هذه القضية معكوسة في شأن المرأة اللابسة. فأن النظر إذا وقع عليها وهي مسترة وقفت معه المخيلة عند حدّ ما. بخلاف العريانة فإن المخيلة والقلب عند النظر إليها يطيران عليها ولا يقفان على حدّ فالمخيلة تتصور أشياء والقلب يشتهي أشياء أخرى. وللمحجب أن يقول أن ذلك إنما نشأ عن الفرق الحاصل بين الوجه والجسم. فأن الجسم من حيث كونه أكبر من الوجه اقتضى طيران المخيلة إليه: وحومان القلب عليه. وردّ هذا القول جماعة منهم الصباباتي والمباعلّي والألغزي وأبو إربان كبر الجسم هنا ليس سبباً للطيران والحومان. إذ لو لم يبد منه إلا موضع واحد لكفى. فبقي الأشكال غير مدفوع. وأجيب بأن العلة في ذلك إنما هي لكون الجسم جسماً والوجه وجهاً. وسفه هذا القول فإنه تحصيل للحاصل وقيل إنما هو لكون الوجه محلاً لأكثر الحواس. ففيه مخزن الشم والذوق والبصر وقريب منه مخزن السمع. وارتضاه جماعة منهم العزهي والتيتاي والدوّذخي. وردّ بأن هذه الحواس لا مدخل لها هنا. فأن المراد من كونية المرأة لا يتوقف عليها أصالة فهي مستغنى عنها. وقيل إنما هو لكون الجسم يحوي أشكالاً كثيرة ففيه الشكل القمقمي والرماني والقرموطي والأطاري والخاتمي والقي والعمودي والهدفي والصادي والميمي والمدرج والمخروط والهلالي ومنفرج الزاوية. وردّ بأنه كقول من قال أنه كبر من الوجه وجوابه كجوابه. وقيل إنما هو لكون العادة الأغلبية هي أن يكون الوجه حاسراً والجسم مستوراً. فإذا رأى الإنسان ما خالف العادة هاجت خواطره وطارَت أفكاره. وقيل غير ذلك والله أعلم. ويحتمل إن هذه القاعدة التي استدركت ذكرها غير صحيحة فيا ليتني نسيتها فأن ذكرها أوجب المناقشة بين العلماء.

والحاصل أن الغرام البرقي لما باض وفرخ في رأس الفاريق غردت أطيّاره عليه لأن يتخذ له آلة لهو. فما عثم أن تأبّط له طنبوراً صغيراً من السوق وجعل يعزف به في شبّاك له مطلّ على دار رجل من القبط وكان عند الخرجي خادِم مسلم قد عشق ابنة القبطي فغار عليها من الطنبور فسعى بالفاريق إلى سيده قائلاً إذا سمع المارون في الطريق صوت الكنبور من دارك ظنوا أنها دسكرة أو حانة أو ثكنة "مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم الخ" لا دار للخارجيين. لأن هذه الآلة لا يستعملها غير الترك. فشكوه الخرجي على ذلك وأستصوب ما قاله وأوعز إلى الفاريق بإلغاء الآلة فألغاها وجعل يفكر في التملص من أيدي هذه الزمرة التي لم يبرح آذاها واصلاً منكل شبّاك سواء في الجزيرة والأرض ثم بعد أيام قليلة هرب الخادِم بالبنّت وتزوج بها بعد أن أسلمت والحمد لله رب العالمين.

### وصف مصر



قد وصف مصر كثير من المؤرخين المتقدمين ومدحها جم غفير من الشعراء الغابرين وها أنا اليوم واصفها ومادحها بما لم يسبقني إليه أحد من العالمين فأقول إنها مصر، من الأمصار. أو مدينة من المدن أو مدورة من المدر. أو كورة من الكور أو قصبه من القصب. أو بحرة من البحر. أو ماهة من الماهات أو قرية من القرى أو قارية من القواري أو عاصمة من العواصم أو صقع من الأصقاع أو دار من الديار أو بلدة من البلاد أو بلد من الأبلاد. أو قطر من الأقطار أو شيء من الأشياء. غير أن أهلها يقولون إنها مصر الأمصار ومدينة المدن وعاصمة العواصم وشيء الأشياء إلى آخره. وما أدري فرق ذلك وكيف كان فيها مدينة خاصة بالذات السائغة متدفقة بالشهوات السابغة توافق المحرورين من الرجال خلافا لما قاله عبد اللطيف البغدادي. يجد بها الغريب ملهى وسكناً وينسى عندها أهلاً ووطناً ومن خواصها أن ما يذهب من أجسام رجالها يدخل في أجسام نساؤها فترى فيها النساء سمناً كالقط بالسمن على الجوع والرجال كالحشف بالشيرج على الشبع، ومنها أن أسواقها لا تشبه رجالها البتة. فإن لأهلها لطافة وظرافة وأدبا وكياسة وشمائل مرضية وأخلاقاً زكية وأسواقها عارية عن ذلك رأساً. ومنها أن ماءها لا يشبه عيشها أي خبرها. فإن الأول عذب والثاني تافه. ومنها أن العالم فيها عالم والأديب أديب والفقيه فقيه والشاعر شاعر والفاسق فاسق والفاجر فاجر. ومنها أن نساءها يمشين تارة على الأرض كسائر النساء وتارة على السقف وعلى الحيطان. ومنها تذكر المؤنث وتأنث المذكر مع أن أهلها متقنون للعلم وأي إتقان. ومنها أن حماماتها لا تزال تقرأ فيها سورة أو سورتان من القرآن فيها ذكر الأكواب والطائفين بها. فالخارج منها يخرج طاهراً وجنباً. وأعجب من ذلك أن كثيراً من رجالها ليس لهم قلوب. وقد عوض الواحد منهم عن قلبه بكتفين وظهريين وأربعة أيدي وأربعة أرجل. ومن ذلك أن كثيراً من البنات اللاتي يغسلن أقمصتهن في بعض مجاري النيل يتعممن بقمصانهن بعد غسلهن ويمشين عريانات. ومنها أن قوماً منهم بلغهم أن نساء الصين يتخذون أو بالحري يتخذ لهن قوالب من حديد لتصغير أرجلهن عن المقدار المعهود. فجعلوا يشذبون أصابعهم واعتقدوا أن اليد إذا كان بها أربع أصابع فقط كانت أخف للعمل وأنفع لصاحبها. مع أن الأصابع والكفوف عندهم ليست مما يكسى حتى تقضي عليهم بزيادة النفقة. كما هو شأن الإفرنج الذين لا يغادرون عضواً من أعضائهم إلا ويكسونه احتفالاً به وتفخيماً له أو حذراً عليه من العدو. ومن ذلك أي من الخواص لا من الأعضاء أن البنات اللاتي يُستخدمن في الميري لحمل الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك، يحملنه على رؤوسهن وهن فرحات جامحات راجمات ساجحات صادحات مادحات مازحات. غير آحات ولا ترحات ولا دالحات ولا رازحات ولا كالحات ولا نائحات. ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه موالاً أجرياً. أو من الجبس غنت له أغنية حبسية.

كإنما هن سائرات في زفاف عروس.

من ذلك أن فيها دوانين عظيمين يقال لكل منهما الديوان المخدمي. فالديوان الأول قيمته رجل يجهز للرجال ما يلزمهم لتبريد فرشهم من هو. والديوان الثاني وهو دونه في القدر والشأن قيمته امرأة تجهز ما يلزمهم لتسخنهم من هي. وأصل منشئ الديوان الأول عجمي. وقد صار الآن من الشهرة والنباهة عند العرب بحيث إنك لا تزال تسمع بذكره والثناء عليه في كل مقام ولا يكاد يخلو منه مجلس أنس أو غناء أو أدب. ومن ذلك أن البرنيطة فيها تنمى وتعظم. وتغلظ وتضخم وتتسع وتطول وتعرض وتعمق. فإذا رأيته على رأس لابسها حسبتها شونة. قال الفارياق وكثيراً ما كنت أتعجب من ذلك وأقول: كيف صح في الإمكان وبدأ للعيان أن مثل هذه الروس الدميمة. الضئيلة الذميمة. الخسيصة اللثيمة. المهينة المليمة. المستنكرة المشنومة. المستقدرة المهوعة. المستقبحة المستفضعة. المستسمة المستشعنة. المسترذلة المستبشعة. تقل هذه البرانيط المكرمة. وكيف إنماها هواء مصر وكبرها إلى هذا المقدار. وقد طالما كانت في بلادنا لا تساوي قارورة الفراش. ولا توازن نافورة الفراش. وكيف كانت هناك كالتراب. فأصبحت هنا كالحرير. يا هواء مصر يا نارها يا ماءها يا ترابها ضيري طربوشي هذا برنيطة وأن يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل. وأجل وأمثل. وللعين أبهى وأكمل. وعلى الرأس أطبق. وبالجسم أليق. وغير ذي قرون تتملق لتتملق. ويرزق عليها لترزق. قال فلم يغن عني النداء شيئاً وبقي راسي مطربشاً. وطرف دهري مطرفشاً. ومن ذلك أن قوماً من الهككاء المهاكيك فيها يمرأون ويرقعون لحاهم ويزاحمون ذوات البراقع على مورد الإنائية. فتراهم يتحففون ويهجلون ويتبازون ويوكوكون ويوزوزون ويباغمون وهم أقبح خلق الله. ومن ذلك أن لضابط البلد شفقة زائدة على أهلها تقرب من حد الظلم. وذلك أنه يأمر جميع السالكين في طرقها ليلاً أن يتخذوا لهم فوانيس وإن كانت الليلة مقمرة. خفية أن يعثروا بشيء في أسواق المدينة فيسقطوا في هوة أو جب فتتكسر أرجلهم أو تندق أعناقهم. ومن وجد ليلاً يطوف من غير ذوي البرانيط وليس بيده فانوس غلّت رجله إلى يده. ويده إلى عنقه. وعنقه إلى حبل. والحبل إلى وتد. والوتد إلى حائط. والحائط إلى ناكر ونكير. وتصلية سكير. ومن ذلك أن لبني حنا فيها أسلوباً في الكتابة لا يعرفه أحد إلا هم. ولهم حروف كحروفنا هذه إلا أنها لا تقرأ إلا إذا أدخلها الإنسان في عينه كذلك رأيته يفعلون. ومنها أنه إذا مات منهم أحد فلا يزال أهل الميت يندبونه وينوحون عليه حتى يؤوب إليهم ووطبه ملان من الطريخ. ومن خصائصها أيضاً أن البغاث بها يستنسر والذباب يستصقر. والناقة يستعبر. والجحش يستهمر. والهر يستنمر. بشرط أن تكون هذه الحيوانات مجلوبة إليها من بلاد بعيدة. ومن ذلك أن كثيراً من أهلها يرون أن كثرة الأفكار في الرأس يكثر عنها الهموم والاكدار أو بالعكس.

وأن العقل الطويل يتناول البعيد من الأمور. كما أن الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره. وأن تلك الكثرة سبب في الإقلال. وهذا الطول موجب لقصر والآجال. وأوردوا على ذلك براهين سديدة قالوا أن العقل في الرأس كالنور في الفتيلة. فما دام النور موقداً فلا بد وإن تنفذ الفتيلة ولا يمكن إبقاؤها إلا بإطفاء النور. أو كالماء في الوادي. فإذا دام الماء جارياً فلا بد وأن ينضب أو ينصب في البحر فمتى حُقن بقي. أو كالفلوس في الكيس. فما دام المفلس أي صاحب الفلوس يمدّ يده إلى كيسه وينفق منه في ما عنده. إلا أن تربط يده عن الكيس أو يربط الكيس عن يده. أو كالتيس النازي. فإنه إذا دام نزوه نزلت مادة حياته فهلك فلا بد من نجفه. فمن ثم اصطالحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الأحيان ليتوفر لهم في غيره. وذلك بشرب شيء من الحشيش أو بمضغة أو بالنظر إليه أو بذكر اسمه فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور. وتولي الأحزان. ويرقص المكان. فمن يرههم على هذه الحالة ودّ لو يكتب في زمرتهم ويدخل في دائرتهم وأن يكن قاضي القضاة. ومن ذلك أن طرقها لا تزال غاصة بالإبل المحملة فينبغي للسائر فيها إذا رآها مقبلة أن يخلي لها الطريق. لا فلا يأمن أن يفقد إحدى عينيه. وقد ينشأ عن هذا الزحام فوائد كما في حكاية المرأة التي سارت مع أمها لتحضر عرس أختها فطالعتها من محلها.

### في لا شيء

قد كنت أظن أني تركت الفاريق وأخذت في وصف مصر أستريح فإذا هو هي إياها. فينبغي لي الآن إن أمكث في ظل هذا الفصل الوجيز قليلاً لانفض عني غبار التعب ثم أقوم إن شاء الله تعالى.

### في وصف مصر

قد قمت حامداً لله شاكراً فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها. لأنها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم. أهلها ذوو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب. وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب. إذا حيّوك فقد أحيوك. وأن سلموا عليك فقد سلموك. وإن زاروك زادوك شوقاً إلى رؤيتهم. وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلاً عن مجالسهم. أما علماؤها فإن مدحهم قد أنتشر في الآفاق. وفات فخر من سواهم وفاق. بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه ما لا يمكن المبالغة في إطرائه. لكل نوع من الناس عندهم إكرام يليق به سواء كان من النصارى أو غيرهم. وربما خاطبوهم بقولهم يا سيدي ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم

ومعاشرتهم خلافاً لعبادة المسلمين في الديار الشامية. وبذلك لهم الفضل على غيرهم. وكأن هذه المزية وهي حسن الخلق ورقة الطبع أمر مركوز في جميع أهل مصر. فإن لعامتهم أيضاً مخالقة ومجاملة. وكلهم فصيح اللهجة بين الكلام سريع الجواب. حلو المفاكهة والمطارحة. وأكثرهم يميل إلى هذا النوع الذي يسمونه الأنقاط. وكأنه المجاززة وهي مفاكهة تشبه السباب وهو أشبه بالأحاجي. فإن من لم يكن قد تدرب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً وأن يكن شاعراً. وكلهم يحب السماع واللهو والخلاعة وغناؤهم أشجى ما يكون. فلا يمكن لمن ألفه أن يطرب بغيره. وكذلك آلاهم فإنها تكاد تنطق عن العازف بها. وأعظمها عندهم هو العود وقل اعتناؤهم بالناي. ولهم في ضرب العود طرق وفنون تكاد تكون من المغيبات. غير أني أذم من غنائهم شيئاً واحداً. وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أو موال مراراً متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام. ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتطفلين على الفن. وبعكس ذلك طريقة أهل تونس فإن غناءهم أشبه بالترتيل وهم يزعمون إنها كانت طريقة العرب في الأندلس. ومما ينبغي أن يذكر هنا أن النصارى المولودين في بلاد الإسلام الناهجين منهج المسلمين في العادات والأخلاق هم أبداً دونهم في الفصاحة والأدب والجمال والكياسة والظرافة والنظافة إلا أنهم أنشط منهم على السفر والتجارة والصنائع وأكثر أقداماً وجلداً على تعاطي الأعمال الشاقة. وذلك أن المسلمين أهل قناعة وزهد وفي النصارى شره عظيم إلى اتخاذ الديار الرحيبة وقنية الخيل النجيبة والجواهر النفيسة. والمتاع الفاخر لا حد لها. فإذا دخلت دار نصراني من الممولين بمصر رأيت عنده عدة خوادم وخادمين ونحو عشرين قصبة للتبغ من أغلى ما يكون. وقد نصفها من الأراكيل الثمينة. وثلاث غرفات مفروشات بأحسن ما يكون من القماش. وآنية فضة للطعام والشراب والرائحة وأسرة عالية وطيفة وثياباً فاخرة وغير ذلك. ومع هذا فلا تجد عنده كتاباً ولو أن مشترياً شاء أن يشتري شيئاً من تاجر مسلم لوجد سعره أرخص من بضاعة النصراني بربع الثمن ولكن وجود هذه الشراة إنما هو في الغالب عند النصارى الغرباء. فأما القبط فأنهم أشبه بالمسلمين. وقل من تعاطى المتجر منهم.

أما دولة مصر إذ ذاك فإنها كانت في الذروة العليا من الأبهة والعز والفخر والكرم والمجد. فكان للمتسمين بخدمتها مرتب عظيم من المال والكسي والشحن مما لم يعهد في دولة غيرها وكان وأليها يولي المراتب العلية وسمات الشرف السنوية لكل من المسلمين والنصارى ما عدا اليهود خلافاً لدولة تونس فإن شرفها عمّ الجميع: ومع عظم ما كان يكسبه التجار وأصحاب الحرف وما يناله أهل الوظائف من الرزق العميم فكانت الأسعار بمصر رخيصة جداً فلهذا كنت ترى الناس قصرهم وعميهم مقبلين على الشغل واللهو معاً. فالبساتين غاصة بأهل الخلاعة والقصوف ومحال القهوة مجمع للأحباب. والأعراس مسموع فيها

الغناء وآلات الطرب من كل طرف. والرجال يخطرون بالخز والديياج. والنساء ينؤن بما عليهن من الحليّ. والخيل والبغال والحمير مسرية ومكسوة بالحرير المزركش. إلا أن صاحبنا الفارياب لم يكد يدخل أرضاً سعيدة إلا ويخرج منها وقد تغير حالها. فأرجع معي الآن لنخلصه من أيدي الخرجيين. فإني تركته يحاول ذلك منذ حين.

### في أشعار أنه انتهى من وصف مصر

قد غادرنا أي أنا وجماعة المؤلفين الفارياب يحاول أن ينفذ الخرج عن ظهره. وإني الآن من دونهم علمت أنه بات ليلة وهو يفكر في أن كل شيء أثبتته الصنعة فلا بد من أن تقلقله الأحوال فمن عزم على القلقله. فخرج في الصباح من معزفه وأخذ يطوف في الأسواق.

ويحرك كتفيه عند كل خطوة ويقول: ي قلبته لا طرحته. لا ركسته لا بدحته. أنه أنقض ظهري أي قرح أي عقر. هل أنا اليوم حمار لحمار يالنكر. فرآه بعض الظرفاء وهو يحرك منكبيه فقال لا بد لهذا من شأن فأقبل إليه ولطف له المقال حتى استخرج سرّه من سرّته. وعلم حاله وسبب سفرته. فقال له لا عليك فأن مصر حرسها الله معدن الخير والبركة. ولكن لا بدّ للفوز بذلك من حركة. قال وأي حركة أعظم مما ترى. قال بل الأمر دون ذلك. ألك إذن واعية. وفكرة مدركة وقدم ساعية. قال أجل. قال فأسمع إذاً ما أقول لك.

إن بهذا المصر شاعراً مفلقاً من النصارى له وجاهة ونباهة عند جميع الأعيان. قال ما هذه صفة شاعر وما أرى كلامك إلا متناقض الطرفين فكيف فك هذا المعنى وتأويل هذه الأحجية. قال لا تناقض فإنه شاعر بالطبع لا بالصنعة. والفرق بين ذلك أن الشاعر بالصنعة هو من يكتسب بشعره فيمدح هذا ويكذب على هذا حتى ينال منهما شيئاً. فأما الشاعر بالطبع فإنما هو الذي يقول الشعر لباعث من البواعث دون تكلف وانتظار للجائزة. قال ليس هذا الفرق مما ذكره الآمدي. قال أبعث الآمدي إلى آمد وأسمع مني.

قال قد أمّدتته فما الرشد. قال نصحي لك أن تكتب كتاباً إلى هذا العلامة وتلمس منه فيما تطري به مواجته فإذا تكرم بذلك فأذكر له. ح ما أنت تعانيه واستجد به. فلا بد من أن يجيبك. فإنه رجل متصف بمكارم الأخلاق ويجب دغدغة الافتخار. ولا سيما أنه يرغب في مجالسة ذوي الأدب وتيسير أسباب معيشتهم. فتلطف إليه في المقال. وأنا ضامن لك أن تفوز منه بالأمال. فشكره الفارياب على نصيحته ورجع إلى محله راضياً مستبشراً. فلما جنّ الليل أخذ القلم والقرطاس وكتب ما نصه.

أهدي سلاماً لو تحمله النسيم لعطر الآفاق. ولو جعل للبدر هالة لما اعتراه المحاق. ولو مزجت به الصهباء

لما أعقب شربها صداعاً. ولو أستفّه مريض أو لقمه لما لقي رجاء وأوجاعاً. ولو علّق على شجرة لزهر في المحال أوراقها ولو في الخريف. ولو سقيه الروض لانبث من كل زهر بهيج طريف. ولو جعل على أوتار عود لأطربت دون عازف. ولو تُغني به في مجلس لا غنى عن المسموم والمعارف ولو علّق في الآذان لكان شنوفاً. ولو صقل به سيف كليل رهيفاً. ولو مثل لكان حدائق ورياضاً. وسلسلاً ومحاضاً. ولو نيّط بالعمائم. لا غنى عن التمام. ولو تختم به ولهان لأجزأه مُجزأ السوان. ولو كتب على رجام لا لهي الثاكل عن النواح أو على خصر هيفاء لقام لها مقام الوشاح. أو على أنف مزكوم لنا أحوجه إلى السعوط أو على ساق أعرج لكان له من قفزه ييق وفروط. أو على لسان أبكم لاخلت عقدته. أو على كف بخيل لهان عليه في البذل ذهبه وفضته. أو على أجاج لعاد فراتا. أو على رمل لأنبث الريحان نباتاً. وتحيات فاخرة. ذكية عاطرة. أرق من النسيم. وأحلى من التسنيم. وأشهى من العافية على بدن السقيم. وأجلى للعين من الأمد وأعلى للناقد من المسجد. وأصفى من الماء الزلال. وأعلق بالقلب من أمل الوصال. وأشغل للبال من هوى ذي دلال. وأزهر من نور الصباح وأزهى من نور الأفاح. وأعقب من شذا الراح. وأثمن من الجوهر النفيس وأعز عند البستي من التجنيس. وعند أبي العتاهية من الزهديات. وعند أبي نواس من الخمريات. وعند الفرزدق من الفخريات. وعند جرير من الغزليات. وعند أبي تمام من الحكم. وعند المتنبي من جزل الكلم. تهدي إلى الجناب المكرم. المقام المحترم. ملاذ الملهوفين. مستغاث المضيمين. ثمال المظلومين. ملجأ المهضومين. منهل القاصدين. مورد الطالبين. أدام الله سعده. وخلد مجده.

وبعد يا سيدي فأني قدمت هذه الديار وأنا حامل لخرج قد أنقض ظهري وعمل به صبري. ولم أجد من يزحزحه عني ولو قليلاً. ولست أجد بنفسي إلى التخلص منه سبيلاً. وقد هديت إلى نور معروفك في جنح هذا العماس. وأنبتت إنك أنت وحدك معتقي من هذا الارتباس. دون سائر الناس. فهل تسمح لي بأن أزور ناديك الكريم. وأبث إليك مشافهة ما بي من البث المقيم والضرر الأليم. فأنك أهل لأن تأخذ بيد من لا ناصر له وأن تصطنعه لك بالتفاته تحقّق أمله. وتنيله ما أمله. وإن تتخذ لك ما عاش رهين شكر ممنون برك. فهو يرجو ذلك منك رجاء من لاذ بعقوبة فخر. فإن رأيت أن تفعل فذلك من إحسانك وطول امتنانك. والسلام.

وكتب عنوانه يشرف بأنامل سيدي الأكرم الأحسب الأفخم الأواحد الأفضل الأسعد الأمل الأرشد الأكمل الأجد الأجلّ الخواجا فلان أدام الله بقاءه بالعز والنعم.

فلما بلغت هذه الرسالة إلى الخواجا المذكور وطالع ما شرح السلام من التشابيه المتكلفة لم يتمالك أن ضحك منها وقهقهه وقال لبعض جلسائه ممن ألمّ بالأدب: سبحان الله قد رأيت أكثر الكتاب يتهوسون في

إهداء السلام والتحيات للمخاطب كأنما مهدون له عرش بلقيس أو خاتم سيدنا سليمان. فتراهم يشبهونه بما ليس يشبه. ويغرقونه في الأغراق ويغلوونه في الغلو حتى يأتي مبلولاً محروقاً. وربما جاءوا بفرقتين متماثلين في المعنى كقول صاحب هذه الرسالة الآن ثمال المظلومين ملجأ المهضومين. ثم إذا انتقلوا من السلام إلى الغرض أجادوا الكلام إلى الغاية. وما أدري ما الذي حسن لأرباب فن الإنشاء أن يضيعوا وقتهم بهذه الاستعارات والتشبيهات المتبدلة وبنظم الفقر المتماثلة في المعنى أن العالم يتأتى له أن ييدي علمه بعبارة واحدة إذا كانت رشيقة اللفظ بليغة المعنى. وهذه ألف ومائتا سنة قد مضت وما زلنا نرى زيداً يلوك ما لفظه عمرو. وعمراً يعض ما قاله زيد. فقد سرى هذا الداء في جميع الكتاب أما تفخيم المخاطب في العنوان بالأجل والأجد والأسعد والأوحد وما أشبه ذلك فله وجه. وذلك أنه لم تجر العادة في بلادنا بأن يكون تبليغ الكتب على يد البريد. وإنما تبعث مع أشخاص ليست لهم خبرة بالطرق ولا بالديار فإنها كما لا يخفى عاطلة عن التسمية خطأ. فإذا حملها رجل لا يعرف القراءة طفق يسأل كما من لقبه في الطريق عن اسم المخاطب فأن لم يكن العنوان دالاً عليه التيس على القارئ فإن كثيراً من الناس مشتركون في الأسماء وإن كانوا مختلفين في المكارم والأخلاق وفضلاً عن ذلك فقد يتفق أن مبلغ الكتاب بعد أن يكون قد سأل غير واحد عن اسم المخاطب ووجدهم كلهم أميين. وبعد أن يكون قد أضع نصف نهاره في البحث عن الطريق فلا يكاد يهتدي إليه إلا ويجد عوناً يترصده حتى إذا لمح تلقفه وبعثه إلى أحد الجهات التي أراد. فيبقى الكتاب عنده ثم ينتقل منه إلى غيره. وربما لقي غيره ما لقيه هو فينتقل الكتاب إلى آخر وهلم جراً فكان لا بد من الاستقصاء من العنوان عن صفات المخاطب فقال له جلسه إذن يجب يا سيدي أن يذكر في العنوان جميع الصفات فيقال للمخاطب مثلاً إذا كان جميلاً كئيساً غنياً رشيقي القد كبير العمامة عريض الحزام. الجمل الكيس الغني إلى آخره. فقال أما وصف إنسان بالجمال والغني فهو من الموبقات لهز وأما بغير ذلك ككبير العمامة وعرض الحزام فليس من الصفات المخصصة إذ الناس في ذلك سواء. وما خالف ذلك فما أولاه بالاستعمال وستره عن قريب مستعملاً إن شاء الله. وهو وأن يكن أحياناً من المضحكات وذلك كان تصف رجلاً مثلاً بالزبيبة والكثيفة والحنطاوية والشرنبية والكرنيفية والزلهية والزخزية والسنطبية والعريزية والعشجبية والعظيبيية والجحوظية والأزطية والسناطية والفُسحمية والجهضمية والبرطامية والحرمية إلا أنه أحسن من إيقاع اللبس في صفات المخاطب فقد بلغني أن كثيراً من الكتب التي تضمنت مقاصد مهمة لما لم يدل عنوانها بالنص والتوثيق على ذات المرسل إليه فُتحت ليعلم صاحبها. فكانت سبباً في ضرر المرسل والمرسل إليه انتهت محاورهما. وأعلم هنا أن الخواجا المذكور لما بلغته لاوكة الفارياب كان مريضاً فل هذا لم يجبه على الفور فبقي الفارياب ينتظر جواباً أياماً حتى اعتقد أن سحجه كله ذهب باطلاً. إذ لم يكن يعلم السبب وكان في خلال ذلك

دائم الفكر والقلق فإننا الآن أدعه في هذه الحالة منتظر الجواب. وأدع صاحبه يتداوي حتى يطيّب. وأعرج قليلاً على منازل الألقاب وألقاب المترلة المتعارفة وقتئذ بشرط أن تسمحوا لي بأن أنتقل إلى فصل آخر وهو:

### فيما أشرت إليه

حد اللقب عند المشرقين إنه هنة نائمة أو زئمة أو علاوة رائدة متدللة تناط بكونية الإنسان. وعليه قول صاحب القاموس العلاقي الألقاب لأنها تعلق على الناس. وعند المغربيين أي الإفرنج أنه جليدة تكوّر في الجسم. وشرح ذلك أن الهنة يمكن قطعها واستئصالها مع السهولة وكذا الزئمة وكذا العلاوة يمكن ركسها وقلبها. فأما الجليدة فلا يمكن فصلها على الجسم إلا بإيصال الضرر إلى صاحبه. وحاشية ذلك إذ الشرح لا بد له من حاشية ولولاها لم يفهم له معنى. أن الزئمة عند أهل الشرق غير موروثة إلا ما ندر فإن لكل قاعدة شذوذاً. والجليدة عند الإفرنج متوارثة كابراً عن صاغر. مثال ذلك لقب الباشا والبيك والأفندي والأغا بل الملك إنما هو محصور في ذات الملقب به فلا ينطلق منه إلى ولده. فقد يمكن أن يكون ابن الوزير أو الملك كاتباً أو نوتياً. فأما عند الإفرنج فلا يصح أن يقال لابن المريكيز مريكيز أو مريكيزي. وقد يجتمع مطلق الزئمة والجليدة في جهة بقطع النظر عن كون الأولى متناهية والثانية غير متناهية. وذلك أن أصل منهما في الغالب أكال يحدث في أبدان ذوي الأمر والنهي لهيجان الدم عليهم. فلا يمكن تسكين هذا الهيجان وحك هذا الأكال إلا بأحدث الهنة والجليدة وبيانه أن الملك إذا غضب مثلاً على زيد من الزيديين لذنب اقترفه. ثم بعث إليه ذلك الزيد بشفيح عريان ليرضاه سكن هذا الاستشفاع ثورة ذلك الغضب. وأختلط الكيفية الهيجانية بالماهية العربية فأنتجتا جليدة لمن كان يخاف سلخ جلده. فتحلى بها بين أقرانه حلية موبدة ولم يخف من تداول القرون عليه. والغالب في الجليدة أن تحتاج إلى جسمين. جسم مغضوب عليه وجسم شافع فيه. والغالب في الهنة أن تحتاج إلى جسم واحد فقط ومن الهنات هنات كنائسية وهي على نوعين ترايبية وهوائية فالترايبية ما كان لها مستقر أو أصل في التراب فتتم في فيه وتثمر وذلك كأن يكون جاثليق من الجثالقة مستقراً في دار أو دير وله إمرة على الناس يؤدون إليه عشوراً ونحوه فهو يأمر فيهم وينهي ويقضي بحسب الإقتضاء أو بحسب ما يعنّ له ولا بدّ وإن يكون عنده كاتب يعي أسرارهم وطباخ يشد فقاره وخازن يخزن ديناره وسجن يحبس فيه من خالفه في رأيه أو أنكر عليه أطواره. وما أشبه ذلك والهوائية عكس ما تقدم وذلك كهنة المطران إثناسيوس التتوني صاحب كتاب الحكاكة في الركاكة فإن سيده قلده في هذه المهنة ليحكم بها في المدينة طرابلس الشام غير أنه ليس في هذه المدينة أحد



من أهل مذهبه حتى يؤدي إليه عشوراً أو يطبخ له طعاماً أو يكتب له رسالة فهو متقلد بما لجرد الزينة فقط جرياً على عادة لبعض المتقدمين الذين كانوا يطلقون هنة الأمير على راعي الحمير. وزنمة الملك على شيخ قرية عَفَك. والغرض من ذلك كله انفراد شخص عن غيره بصفة ما. وإذا قد عرفت ذلك فأعلم أن الخواجا والمعلم والشيخ ليست ألقاباً معدودة في الهنات ولا في الجليدات إذ ليس في تحصيلها ما يحتاج إلى شفيح أو اختلاط أكالي بماهيمية عربية. وإنما هي خرقة تستر عورة الاسم الذي أطلق على المسمى وهي غير مخيطة فيه ولا مكفوفة ولا مشرحة ولا ملفوفة. بل هي كالبطاقة شدت إلى لابسها ليعرف بها سعره. إلا أنه كثيراً ما يقع الغلط في إلصاقها بمن ليس بينه وبينها من علاقة. فأهل مصر مثلاً يطلقون لفظة معلم على نصارى القبط. وكلهم غير معلم ولا معلم إذا قلنا أنه مشتق من العلم. فأما إذا كان اشتقاقها من العلامة بلا مشاحة. ولفظة خواجا على غيرهم وأصل معناها كالمعلم فبقي الاعتراض في محله. فأما لفظ الشيخ فإنه في الأصل صفة من أسن. ثم أطلق على من تقدم في العلم وغيره مجازاً عمن تقدم في السن. فإن الطاعن في السن يستحصف عقله ويستحكم رأيه وأن أنكره النساء. فثقلت مزيتته إلى من باشر العلم. والذي يظهر لي بعد التأمل أن في الهنات والجليدات لضرراً عظيماً على من تحلى بها وخلا عنها، الدليل الأول أن المتصف بها يعتقد بمجاميع قلبه أنه أفضل من غيره خلقاً وخلقاً. فينظر إليه نظر ذي القرن إلى الأجم. ويستكفي بهذه السعة الظاهرة عن إدراك المناقب المحمودة والمزايا الباطنة، ويخلد بها إلا البلاد والذات الموبقة. الثاني أنه لو نشبت فيه ربة زحل يوماً من الأيام ودارت به دوائره فإن لم يجد ذات جليلة مثله لم يمكنه الجلد مع غيرها. وربما كان يهوى جارية عنده جميلة في المطبخ أو في الإسطل فيحرمه منها أبوه أو منصبه أو أهله أو أميره فيقع تعطيل على أهل الجمال. وهو أمر مكروه بل قد جزم بتحريمه جميع العلماء. الثالث أنه قد يتفق أن يتزوج بذات جليلة معسرة مثله غير موسرة. فإذا ولدت له أولاداً لم يمكنه أن يحضر لهم شيخاً يعلمهم في داره. ويستحي أن يبعثهم إلى المكتب ليتعلموا مع جملة أولاد الناس. فتغدو أولاده من العجماء ويتسلسل ذلك في ذريتهم إلى ما شاء الله. الرابع أن الهنة والجليدة تقضيان على المتصف بهما بنفقات لاقة. وتكاليف شاقة. تقضي به التفريط والإسراف. والتهالك والأشراف. وربما أوصلته أخيراً إلى أنشودة جبل من مسد. الخامس أن الإنسان من أصل الفطرة ليس له هنة ولا جليلة فأحداثهما فيه بعد ذلك أمر مغاير للطبيعة. أو في الأقل من الفضول أو من البطر. وهناك أدلة أخرى أضربنا عن إيرادها خوف الأطالة. فقد تبين لك أن الخواجا المشار إليه كان غير ذي هنة ولا جليلة. ولعله كان يحصل على أحدهما لولا ميله بالطبع إلى الأدب. ولكن لكل شيء آفة.

## طبيب

مصيح الله ما بك من السقم يا خواجا ينصر أو مسح أو مزج. على حدّ من قرأ الصراط والسرّاط والزراط. ومن قال اجعلي فديتك بصاقاً أو بساقاً أو بزاقاً. إنك غادرت الفاريّاق في وسواس وبلبال. فهو ينتظر الجواب منك في الغدوّ والآصال. قال أني ليحزنني كثيراً أن قد بلغني كتاب صاحبك وأنا محموم موجع الرأس فلم يمكن لي أن أعجل إليه بالجواب. وكان بودي لو أفعل ذلك مع ما كنت أعانيه غير أن الطبيب رسول عزرائيل منعي من الحركة. ولكن لا بدّ من أن تسمع قصتي مع هذا القرنان. وهي أني أتخمت يوماً من أكلة برغل أخذتها بحذافيرها فأصبحت وبي غثيان.

وأتفق أن زارني في صباح ذلك اليوم بعض المراء الذين ينبغي أن يقال لما أثبتوه نعم في موضع لا ولما نفوه لا في موضع نعم. فرآني على تلك الحالة فقال ما بك؟ فأخبرته الخبر. فقال عليك بكبيي الساعة فهو أمهر الأطباء لأنه قدم من باريس منذ أيام. ولو لا ذلك لما اتخذته طبيباً لي ولأهلي. قلت من عادي أن أصبر على المرض الخفيف أياماً وأستعين على معالجته بالاحتماء والتوقي، فقد يكون في ذلك ما يغني عن العلاج. فإني أرى هؤلاء الأطباء يعالجون الأمراض بالخرص والتخمين. فما يهتدون إلى العلة والمعلول إلا بعد أن تبلغ الروح الحلقوم. فيجربون مرة دواء ومرة أخرى غيره. قال لولا أن المرض قد بلغ منك ما قلت هذا الكلام فلا بد من إحضاره الآن. وما زال بي حتى بعثت إليه خادمي حياء وخجلاً. ثم خطر ببالي أن الأدب عندنا من فرط كرمه قد يجبر المأدوب على الأكل. وربما ألقمه بيده ما تعافه نفسه. ولكن لم أسمع أن أحداً تكرم بأن يجبر غيره على علاج. فلم أتمالك أن ضحكت. قال ما أضحكك. قلت لا شيء. قال ما أحد يضحك من لا شيء فلا بد وأن يكون هناك شيء. قلت فكرت في ذلك الطبيب الذي عاد مريضاً فقال لأهله آجركم الله في مريضكم. فقالوا أنه لم يمت بعد. قال يموت أن شاء الله. فضحكت. قال لا عليك فإن هذا الطبيب ليس مثال ذاك. وبعد فإنك عزب ليس لك أهل حتى يقول لهم ذلك.

ثم ماعتم الخادم أن جاء به وهو أشدّ مني مرضاً ونحولاً. فالظاهر إنه لم يكن له شغل حتى يخرج من داره. فلما أن دخل جس نبضي ونظر إلى لساني ثم زوى ما بين حاجبيه وأطرق إلى الأرض وهو يهسّ أي يحدث نفسه. ثم رفع رأسه وقال لخادمي هات الطست. قلت ما تريد أن تفعل وأنا صاحب جثتي أفلا تشاورني. قال أنه الفصد أو الرمس. قلت هداك الله يا شيخ إنها أكلة برغل مع اللحم مما تسميه الناس كبيبة. قال أنا أعرف، إنكم يا أهل الشام كلكم تموتون بهذه الكبة. فقد شيعت بها حين كنت في بلادكم

أكثر من مائة جنازة. نعم هي الكبة. قلت في عجانك أن شاء الله. قال لا تدخل الكبة في عجيني مطلقا. فالتفتُ إلى الأمير وضحكت فظهر لي أنه هو أيضا لم يفهم. وفي الاختصار فإنه ما زال هو والأمير يخطئان رأيي حتى استلمت للهلكة ومددت يدي. فأعمل فيها مبضعة أعمال السكين في بطيخة. فخرج الدم متبعقا حتى دخل في عينيه أطلق يدي وذهب ليغسل وجهه. ثم جاء بعد هنيهة وقد غشي عليّ. فتداركني خادمي بماء الزهر وغيره والأمير ناظر إلى دخان تبغه والطبيب يسارّه. فلما أفقت ربط يدي وخرج مع الأمير وقالوا احترز لنفسك فأنا نعودك عن قريب. فقلت في نفسي لا أعادكما الله. فلما كان الغد جاء الطبيب متأبطا أعشابا. فقلت ما هذه الأعشاب. قال حقنة. قلت تكفيني واحدة. قال أن الأمير يقول لك ينبغي أن تحقن أن لم يكن لنفعك فلا كرامة. فقلت في نفسي لا بأس بإكرامه في الحقنة. إلا أنه قد خالف العادة مرة أخرى فإن عادة المزور أن يحلف الزائر باسم الله واسم ملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالبعث، أن يأكل أو يشرب شيئا على اسمه. وهذا زائر يلح عليّ بالاحتقان. ثم استعملت الحقنة. ثم وافاني اليوم القابل ومعه حقه. فقلت وما بيدك. فقال مسهل مما أصنعه للأمير. فاستنفقه.

ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء. فاستبشرت وقلت له وقد وهنت مني القوى بقوة المسهل. قال ينبغي أن يتخذ اليوم حماما في غاية السخونة لكي تعرق، وقد تجربته في ذوي الأمير فوجدته بعد المسهل أنفع ما يكون. ثم تولى هو بنفسه تسخين الماء وأنزلي في مغطس كنت اتخذته لنفسى. فلما دخلته لفحني حرّه حتى غشي عليّ بعد أن سمط جلدي. فأخرجت منه على رمق من الحياة. فتداركني خادمي بالمشمومات حتى أفقت.

ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء ففرحت أيضا وقلت لعله قد نفذ ما في وطاب علاجه، وكان الحمام آخر ما عنده. فسألني عن حالي. فقلت هو كما ترى. قال عليل. قلت وأي عليل. قال ينبغي أن تفصد. فسقط عليّ كلامه كجلمود صخر حطه السيل من عل. وقلت كأنك تهم بإعادة ما صنعتها أولا فمتى ينتهي هذا الدور؟ قال لا بد أن أحد هذه العلوج "جمع علاج" يزيل ما بك. قلت أجل أما الأول فهو أنت، وأما الثاني فهو دمي أو روحي. ثم تجلدت وتمنعت وقلت له قل الأمير إني والحمد لله عزب فلأي سبب يحاول تفسيرى سريعا فلم يفهم. وقال إني أريد أن أقصدك لا أن انقل عنك. قلت فأنا لا أريد فأرحني أراحك الله.

فأولاني كتفه وولى ثم لم يلبث أن بعث برقعة الحساب وتقاضاني فيه خمسمائة قرش. فإنه زعم أن عنده ناسا في الريف من الفلاحين يجمعون له تلك الأعشاب مع أنها مما ينبت على حيطان ديار القاهرة. وما كفاه ذلك حتى توعديني بأني تأخرت عن قضائه كما تأخرت عن الفصد الثاني يرفع القضية إلى ديوان

قنصله. فنقدته المبلغ المذكور بتمامه، وقلت لا بارك الله في الساعة التي أرتنا وجوه العجم وأدبارهم. وها أنا اليوم والحمد لله أحسن حالا ومرادي أن اجتمع بصاحبك، ولكن لا بد من إكرامه قبل الزيارة. ثم أمر غلامه بأن ينتقي تحتاً من الثياب الفاخرة وأن يتوجه بها الفاريق فإنه كان وقتئذ مبرنطاً، ثم كتب له رسالة وجيزة مع أبيات قليلة تتضمن استدعائه إلى مجلسه في اليوم القابل وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي.

### إنجاز ما وعدنا به

كان للفاريق صاحب من الديار الشامية يتردد عليه. فلما وفد الخادم بالرسالة وتحت الثياب كان هو حاضراً. فقال للفاريق أنا أذهب معك إلى الخواجا ينصر فقد سمعت بذكره غير مرة واحب أن أراه. فقال له الفاريق ولكن لعل في الازواء إساءة أدب في حق المزور. فإن المدعو لا يليق به أن يستصحب أحداً معه. قال لأبس فإن هذه عادة الإفرنج فأما في مصر فيمكن للمدعو أن يستصحب أيأ شاء. وللمستصحب أيضاً إذا لقي واحداً في الطريق من معارفه أن يستصعبه ولهذا أيضاً أن يستصحب آخر وللآخر آخر حتى يصيروا سلسلة أصحاب بحيث لا يكون في السلسلة حلقة أنثوية. وكلهم يكلمون المزور من دون محاشاة وينالون منه الإكرام ويترحب بهم. ولا يمكن أن يسأل أحداً منهم فيقول له وأنت ما حاجتك وأي كتاب وصاة عندك إليّ. وما اسم زوجتك أو أختك وما سنهن. وفي أي حارة يسكن كما تفعل أصحابك الإفرنج. فلا تخش من الرجل جبهأ. وبعد فإن لنا عليه دالة الأدب. فهي تغينا عن دالة النسب. فأجابه إلى ذلك وسارا إليه معاً. والفاريق يرفل بثيابه وقد اتخذ له عمامة كبيرة. فتذكر يومئذ عمامته بالشام وسقطته تلك المشؤومة. فلما أستقر بمجلس المشار إليه بعد الترحيب والتلقي بالبشر والبشاشة. وبعد معاقبة أوحشتنا لآنستنا. ومداركة آنستنا لا وحشتنا، ومواترة سلامات طيبين، وموالاة طيبين سلامات، كما جرت العادة عند الخاصة والعامة. قال الخواجا للفاريق. قد سرّ قدومك إلى هذه الديار والله سبحانه وتعالى قد اسبغ عليّ نعمته لأشركك فيها. فقد قال الشاعر:

فأجبتهم هذا ضلال بيّن

قالوا البعال ألذ شيء يشتهي

أشهى وأبقى وهو أمر هيّن

إسداء معروف إلى ذي حاجة

على أي لا أقول أن بك حاجة إليّ لكني لحت من شكواك أنك محتاج إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع. وقد وجب عليّ القيام بما يسليك ما أنت معانيه. سواء كان ذلك بالمواساة أو بالنصيحة.

ولاسيما إنه قد ظهر لي إنك منشم في طلب العلم. وقد عانيت القريض. ولكن في كلامك ما انتقدته عليك. وليس هذا وقت نقد وتقييد.

وإنما أسألك أي كتاب من الأدب قرأت. فابتدر صاحبه وقال قرأ كتاب بحث المطالب فقال له لقد عجلت في الجواب. فإن هذا الكتاب في النحو لا في الأدب. ألا إنكم يا تلاميذ الجبل تحسبون أن من قرأ هذا الكتاب فكأنما قد استوعب العربية كلها دون افتقار معه إلى شيء من كتب اللغة والأدب والشروح. وإن الطالب منكم إذا أراد أن ينمق كتابا أو خطبة فإنما يستعمل بعض أسجاع مبتذلة ساكنة الروي. خيفة أن يلتبس عليه المرفوع بالمنصوب. ويتطال إلى بعض استعارات باردة. وتشبهات جامدة. حشوها الألفاظ الركيكة والمعاني المتقلقلة مندون معرفة ما يستعمل من الفعل ثلاثيا أو رباعيا. وما يتعدى به من حروف الجر.

فعند قوله هذا تذكر الفاريق قول المطران لقيعر قيعار وأولجت فيها. فذكرها للخوارج المذكور فغلب عليه الضحك حتى فحص الأرض برجله. ثم قال نعم وإني لفي كتب الكنيسة كلها أغلاطا فاضحة من هذا النوع. فقد قرأت في كتاب منها عن بعض الرهبان إنه كان من التواضع على جانب عظيم حتى إنه كان كلما مرّ عليه رئيسه يقوم وينتصب عليه، أي له. وعن آخر أنه بلغه عن راهبة ما أنها كانت ذات كرامات ومشاهدات. فكان يستمني دائما أن يراها، أي يتمني. وعن آخر أنه كان خرج من دير غاب عنه مدة طويلة ثم رجع فوجد رئيسه الأول قد مات وولى رئاسته أحد أصحابه. وأنه بعد أن تفاوضا وتباشرا قلده الرئيس خدمة تهيب الرهبان ليلاً. أي إيقاظهم من هب إذا قام. وعن بعض المطارنة إنه كان إذا وعظ في الكنيسة ينتعظ له كل من يسمعه، أي يتعظ. وغير ذلك مما لا يحصى بل قد ورد في الإنجيل وكلام الرسل كلام فاسد المعنى ومنشأه فيما أظن جهل المعربين. فمن ذلك ما ورد في إنجيل متى خطابا عن المسيح عم. إحدروا لا يضلكم أحد فإنه سيأتي باسمي كثيرون قائلين أنا هو المسيح فلا تصدقوهم. والمراد أن يقال أن كثيراً يتحلون اسمي فيدعي كل منهم بأنه هو المسيح. وشتان ما بين الكلامين. وفي رسالة ماربولس إلى طيموتاوس. ولتكن الشمامسة أزواج زوجة واحدة. ومقتضاة اشتراك الشمامسة في بضع واحد. معاذ الله أن يكون كلامي هذا ازدراء بالدين وإنما أوردت ذلك شاهدا على جهل من عرب وألف من أهل ملتنا. نعم أن بعض المطارنة قد ألفوا تأليف مفيدة جودوا عبارتها وحرروا معانيها. إلا أن الجمهور من أهل الكنيسة جهال أغبياء لا يعجبهم إلا الكلام الفاسد الركيك. ولقد أفضى بنا هذا الاستطراد إلى غير الغرض.

فلنعد إلى ما كنا بصددده وهو إسعافك أيها الخدين بما يريحك من حمل الخرج. هل لك في أن تكون كاتباً

عند رجل من السراة الأغنياء يريد أن ينشي ممدحاً يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه. فيكون شغلك فيه في كل يوم بيتين أو أكثر بحسب الاقتضاء. قال فقلت إني يا سيدي ما بلغت من العلم ما يؤهلني إلى هذه الرتبة. ونحن في هنا في بلد العلم والأدب فأحشى أن يصدى لي قوم يزيفون كلامي ويخطئونني. فأحجل والله بعدها من أن انظر إلى وجه مخلوق من البشر. فإني رجل أحب الخمول وإن بضاعتي في ذلك لمزاجاة. قال لا تخش من ذلك فإن أهل مصر وإن كانوا قد تقصوا حد العلم وبرعوا في الفضل والأدب على غيرهم. إلا أنهم لا يتعنتون على الناظم أو الناثر بلفظة يخل فيها عفواً. أو بمعنى يخطئ فيه سهواً. فإنهم أهل سماح ومياسرة. على أن من نبغ في الشعر أن لم يلق من ينتقد قوله مرة ومن يخطئه أخرى فلا يمكنه أن يصل إلى مرتبة الشعراء المجيدين. ولو بقي ينظم أبياتا ويودعها سمعه فقط لما عرف الخطأ من الصواب قط. فلا يكاد أحد يصيب إلا عن خطأ. وقد جرت العادة بين الشعراء بأن ما يستهجنه بعضهم من المعاني والألفاظ يستحسنه البعض الآخر. فلا يزال الشاعر والمؤلف بين اثنين عاذل وعاذر. ومخطئ ومصوب. ومفسق ومبري. ومعترض ومناضل. ورائق وفائق. وممزق ورافئ. وخارق وراقع. وحاضر ومسوغ. ومضيق وموسع وقائل لم وقائل لأن. حتى ترجع حسناته سيئاته. وتداول الناس أبياته. وقد طالما حاول الشهرة أناس بالقول المردود. والكلام المقصود. فمنهم من نظم أبياتا مهمة أي عارية عن النقط فأهملت. ومنهم من التزم فيها الحبك بأن يجعل في أول بيت منها حرفاً من حروف اسم الممدوح فتركت وألغيت. ومنهم من جعل دابة التجنيس والتوريات البعيدة فردت وزيفت. واكتفوا من ذلك بمجرد الشهرة بين قومهم ولم يبالوا بالتعرض للوم والتفنيد. وإني أعيدك من أن تعدّ في جملة هؤلاء. فإني رأيت في إنشائك نزوات أفكار لطيفة تدل على قريحة جيدة. وسليقة متوقدة. وبعد فمن ذا الذي ما ساء قط. قال فقال والله أن لك عليّ لمتين عظيمتين الأولى عنايتك بمعاشي. والثانية تنشيطك إياي إلى النظم. فقد كنت جزمت بأن لا أقول الشعر إلا مكتوماً عن الناس وها أنا لك يا سيدي من الشاكرين. وبكرمك من الزائرين. ثم انصرف من عنده داعياً له وقد اضممر مفارقة الخرجي في اليوم القابل.

### أبيات سرية

لم يكن لصاحبنا الفاريق عند الخرجي من الأثقال إلا جثته فقط. فلذا تأبّط طنبورة ووضع دواته في حزامه وقال له. قد أعاني الله وارانني طريقاً غير التي طرقتها لي أنت وحزبك الخرجيون. فأنا اليوم مفارقتك لا محالة. قال كيف تفارقني وما أسأت إليك في شيء. قال هذا الطنبور يشهد عليك بأنك

سؤتي. قال أن العازف به لا تقبل له شهادة فكيف تصح شهادته هو مع كونه سببا في جرح شهادة صاحبه. قال بل تصح كما صحت شهادة حجر آبائك. وإنه لينطق بمساويك كما نطقت أتان جدك. وبدك حصون عنقاشيتك كما دك المدن برق ربيك. قال ما هذا الكلام. قال وحي والهام. قال لا بأس في تعزف به فقد علمت إن الخادم عن حسد شكاك. قال بل أي عازف به عند من يقولون لي زد ويعاد وأحسنت والله. لا عند عجم لا يذكرون اسم الله إلا في الابتهاال. قال قد خلطت واشططت. قال قد فرطت وقسطت. قال انك كنود. قال انك من اليهود ثم ولى عنه وهو سامد الرأس جاحظ العينين من الغيظ.

وسار واكثرى محلا آوى فيه الطنبور وتوجه إلى المدح فما استقر به المجلس إلا وورد بشير إليه ويده رقعة فيها بيتان يراد ترجمتهما. فلما عرضا على مترجمي اللغات العجمية وأدبت ترجمتهما إلى جهبذ المدح انتهت النوبة أخيرا إلى الفاريان. فأخذ القلم وكتب:

ياليتته منا امتطى أكتافا

ركب السريّ اليوم خير جواده

بل كلنا يغدو به رافا

إذ ليس فينا راح أو رافس

فلما قابل الجهبذ هذين البيتين بالأصل وجدهما يشتملان على المعنى اشتمال البطن على الجنين أو الأمعاء على العفج. مع عدم الحشو بالألفاظ التي يستعملها الشعراء غالبا لسد ما في أبياتهم من الخلل. فأعجب بهما جدا وقال. هما حريان بأن يفضلنا على الترجمة العجمية. فإني لا أرى فيها إلا معاضلة ألفاظ ولكن لعل هذه عادة القوم فدعهم وعادتهم. غير أنه لما أشتهر البيتان عند أهل النقد اعترض بعض أن قوله راح أو رافس من الألفاظ المترادفة فتكون الأولى أو الثانية لغوا. فالأولى أن يقال جامع أو راح وفيه مع ذلك سجع. وأجيب بأن للفظ راح معاني كثيرة منها الثور له قرنان واسم فاعل من راح إذا طعن بالرمح أو صار ذا رمح. ورمح البرق لمع ورد بأن الثور ليس له مدخل هنا بقرينه. فإن الناس لا تركب الثيران وإن أشار إليه المتنبي في الغيب. واسم الفاعل بمعنى طاعن لا يناسب المقام. لأن المركوب لا يكون طاعنا. ثم ورد في اليوم القابل بشير ثان معه رقعة فيها بيتان آخران فقال الفاريان:

فارتجت الأرضون من تبكيره

قام السري مبكراً لصبوحة

مدّت إليه شعاعها لسروره

أو ما ترى ذي الشمس من شباهه

فاعترض على البيت الثاني إنه غير لفق للأول. وأجيب أنه متفرغ عليه ومرتب به. لأن الأرضين لما ارتجت وخشي العالمون سطوته ترضته الشمس بشعاعها. ورد بأن ترضي الشمس كان متراخيا عن ارتجاج الأرضين فلا يفيد. وأجيب بأن الترضي حاصل على أي حال كان. فإن الشمس لا يمكنها أن تطلع قبل

وقت الطلوع. وضحك قوم من هذا التعليل.

ثم ورد في اليوم الثالث بشير آخر فقال الفاريق:

يخطر بخاطره الشريف هموم

نام السريّ مهناً بالأمس لم

أن قام قامت والكري جريم

إن نام نامت أمة الثقلين أو

فأعترض على لفظة الثقلين إنها ثقيلة. وإن أمة حقها أن تكون أمتاً.

ورد بأن اللفظة خفيفة ولا عبرة في كونها مشتقة من الثقل.

ثم ورد في اليوم الرابع بشير آخر فقال:

فأستغن عن فتوى الفقيه المنكر

شرب السريّ فحلّ شرب المُسكر

فاعمد إلى حدّ الحسام الأبتّر

وإذا أصر على الخلاف محرّم

فأعترض عليه أنه مبالغة قبيحة تفضي إلى الكفر وتعطيل الشرع. وأجيب عنه بأنه طبق الأصل.

ثم ورد في اليوم الخامس بشير آخر فقال:

غلسا إلى الحمام كي يتنعما

خرج السرّ مع السريّة ماشيا

خلّقت يده على المدى أن تلتما

من كان يدعك مرّة جسميهما

فأعترض عليه أن الأولى أن يقال ماشيين. ورد بأنه لا محذور منه فإن السري هو الأصل بدليل تغليب ماشيين. ثم أعترض أن الأفصح أن يقال جسمهما أو أجسامهما. وأجيب بأن الأفصح لا ينفي الفصح ثم قيل إنه ارتكب ضرورة بحذف حرف الجر في المصراع الأخير إذ حق الكلام إن يكون خلقت يده بأن. على أن تثنيه اليد هنا لا معنى لها فإن الداعك لا يدعك بكلتا يديه. وأجيب بأنه لا مانع من حذف الجر مع أن. وأن التثنية للإيدان بأن كل الجوارح مخلوقة لخدمة الممدوح.

ثم ورد في اليوم السادس بشير آخر فقال:

مثن عليه مبالغ في مدحه

خلع السري اليوم نعليه على

هذا السخاء بيمينه وبسحنه

فاستبشروا يا عصابة الشعراء من

فأعترض عليه بأن اليمين والسنح بمعنى واحد. وأجيب بأنه كقول الشاعر وألفى قولها كذبا ومينا.

ثم ورد في اليوم السابع بشير آخر فقال:

بأظافر ظفرت بكل مؤمل

حكّ السري اليوم أسفل جسمه



فالناس بين مصّفر ومرتل

ومدّقف ومزمر ومطبّل

فأعترض عليه صرف أظافر. وأجيب بأن ذلك غير محذور لا سيما وقد وليها قوله ظفرت.

ثم ورد في اليوم الثامن بشير آخر فقال:

طوبى لمن في الناس أصبح حالقاً

رأس السريّ الأحلس الملحوسا

لا زال محفوظاً بلطف الله ما

حلتلته شعراً شريفاً موسى

فأعترض عليه بأن الملحوس غير وارد في صفة الرأس. وأجيب بأنه لا بأس به هنا للجناس. ثم قيل أن محفوظاً مع ذكر الرأس ثقيلة. وأجيب بأنها خفيفة بالنسبة إلى رأس السري. قلت وكان الأولى أن يعاب عليه قوله طوبى لمن. فإنه مطلق لا يفيد أن السري حلق رأسه في يوم معين. غير أن الجناس في المصراع الثاني شفع في البيت كله.

ثم ورد في اليوم التاسع بشير آخر فقال:

بَسَمَ الزمان عن المنى وتنوّرا

لما أستحم سريناً وتنوّرا

إن المعالي من أسافله زهت

والشعر بالشعراء أكسب مفخرا

فأستحسن هذان البيتان جداً لما فيهما من المطابقة والجناس التام وغيره إلا قوله مفخراً.

ثم ورد في اليوم العاشر بشير آخر فقال:

قحب السري وأي شهم ماجد

بين البرية مثله لا يقحب

ذي سنة فرضت على كل الوري

أن المخالف منهم ليصلب

فعيب عليه لفظة قحب وأجيب بأنها فصيحة بمعنى سعل.

ثم ورد في اليوم الحادي عشر بشير آخر فقال:

عطس السري فكلنا يبكي دماً

وأرتاعت الأرضون والأفلاك

حرس الإله دماغه عن عطسة

أخرى تموت برعبها الأملاك

ثم ورد في اليوم الثاني عشر بشير آخر فقال:

فسى الأمير فأَيّ عرف عاطر

في الكون فاح وأيّ مسك ديفا

يا لبيت أعضاء العباد جميعهم

تغدو لنشوة ذا العبير أنوفا

فغيب عليه قوله فسسى. إذ التكثير هنا لا معنى له. وأجيب بأن القليل المنسوب إلى السري كثير. وعليه بظلام للعبيد. فإن أدنى ما يكون من الظلم في حق البارى تعالى كثير. ثم ورد في اليوم الثالث عشر مبشر فقال:

حبك السري اليوم في وقت الضحى والجو أدكن ليس يسفر عن شرق  
فتعطرت أرجاؤنا بأريجيه فكان من حبك له عرف الحبك

فأستحسننا لما فيهما من التحنيس: ثم ورد في اليوم الرابع عشر مبشر آخر فقال:

قد أسها اليوم السري فكلنا فرح ففي إسهاله التسهيل  
قاستبضعوا خزا إليه مطرزا وتسابقوا أن البطيء قتيل

فأستحسن البيت الأول للجناس. وعيب عليه قوله مطرزا. إذ التطريز هنا لا موجب له بل فيه إيلا. وأجيب بأنه طبق الأصل. وأن حق الترجمة أن لا تزيد على الأصل المترجم منه في المعنى ولا تنقص عنه ولا سيما في الأمور المهمة الخطيرة. وقد كان يجب أن يعاب عليه قوله فكلنا فرح وأن علله بقوله ففي إسهاله التسهيل. إذ المتبادر أن التسهيل مسبب عن حتف الممدوح وكأنه الجناس شفع فيه.

ثم أن الفاريق بعد انقضاء هذه المدة الذكية رأى من الواجب أن يزور صاحبه ويخبره بما جرى له. فلما تشرف بمجلسه سأل الخواجا عن حاله. فقال له قد كنت أود يا سيدي أن أزورك قبل الآن لكن خشيت أن يعلق بناديك أثر من الرائحة التي شملتني. فقال له لا ضير في ذلك ولا سيما إذا تعودت عليها. وإن نادى لا يبرح كل يوم يعبق به أمثاله من زيارة أمثال السري وهذا شأن أم دفار. ولكن كيف حالك من جهة المعيشة. قال قد اكتريت لي داراً صغيرة واشترت حماراً. واتخذت خادمة لتصلح لي الدار. وخادماً ليصلح الحمار. وأنا الآن بجاهك وفضلك في أحسن حال. ثم أنصرف من عنده داعياً له. "سري بيني وبين القارئ" قد كان طبيب الجزيرة نصح للفاريق أن بجانب النساء أي يتعد عنهن لا أنه يلصق بجنهن فإن في قربهن حيناً له فألفى قوله كذباً وميناً.

### مقامة مقعدة

لا يمكن لي أن أبيت الليلة مستريحاً حتى أنظم اليوم مقامة. فقد عودت قلبي في هذا الموضع موالاة السجع. وترصيع الفقر الرائعة للعقل الرائقة للسمع الشائقة للطبع. فأقول: حدّس الهارس بن هشام قال: بينما أنا أمشي في أسواق مصر وأسرح ناظري في محاسنها. وأتأففت على النظر إلى جمال شوافنها.

فندار كني جمال مدائنهما. فالطأ بقرار حائط واضباً بآخر. وأجعل يدي تارة على عيني وتارة على ما هو أصغر منها أو أكبر. إذ أوماً أليّ فتى من حانوت له. عليه لوائح هيبية ومترلة وحبوبة في الترائب متخلله. غير متخلله. فقال أن شئت أن تصعد إلى هنا إلى أن ينفض زحام الأبل. وتنساغ غصّة هذا الأزل الأزل. فأنتك لدينا من المقربين. وأني بإكرامك لقميين. فزجدت دعوته كدعوة الداعي بحيّ على الفلاح. وقلت ما يأبي السماح. إلا من فاته الصلاح. وعمه عن النجاح. كيف لا وقد أوشكت جوارحي أن تعود مجروحة. وضافت بأحمال أبلكم الأرض وهي فسيحة. فأبتسم ابتسامة أسفرت عن لحن للقول سريع، وطبع إلى إيلاء المعروف ذريع. ثم صعدت إليه فوجدت عنده نفرّاً عليهم عمائم مختلفة. ولهم وجوه مؤتلفة. فلما سلمت متودّداً. وتبوّأت ما بينهم مقعداً. قال رب الحانوت هل لك في أن تنتظم معنا في سلك جدال قد شغلنا من الضحى. وجعلنا له الآذان كَنَقال الرحي. فهو دائر على كل منا بالمناوبة. ومستدرك خاتمه بأوّل المعاقبة. دون درك ومعاقبة. إذ ليس فيه إفضاء إلى البحث في الأديان. وإنما هو أمر مباح لكل إنسان. فقلت أن كان مرجعه إلى العقل فقد كلفتموني أدّاً. وشططتم في انتظامي معكم جداً. إذ لست بصاحب أسفار، بل حليف تطواف وأسفار. وإن كان إلى الطبع فإنه بي لطبعاً سليماً، وخلقاً قوياً. قال هذا الثاني هو مركز دائرته. وفيصل محاورته. قلت فأملأ إذني من جدالك. وألق عليّ أعذار عدلك.

قال أعلم، فرج الله عنك كل غم، أي والحمد لله من المسلمين المؤمنين بالله وبرسوله. وبوحيه وتزييله. وأن صاحبي هذا الودود. وأشار إلى أحد القعود، هو من النصارى والآخر من اليهود. والآخر أمّعة ما له اعتقاد ولا جحود. وإنا قد تنازعنا كاس البحث في الزواج. وأفضنا فيه كما تفيض من عرّفات الحجاج. أما النصراني فإنه يزعم أن طلاق المرأة مفسدة من أعظم المفاسد. ومنذمة تمّني المطلق بالنعص والمكايد. ووجه الفساد على مقتضى زعمه، وقدر فهمه إن الزوجة إذا علمت إنها تكون عند زوجها كالمتاع المنتقل، وكتوب المبتذل، موقوفة على بادرة تفرط منها. أو هفوة تنقل عنها لم تخلص له سريرتها ولن تمحض له مودتها. بل تعيش ما عاشت في انقباض وإيجاس ووحشة وابتئاس ونكد ويأس وتدليس والبأس وإذا أنزلته منزل مبتاعها واعتقدت أن متاعه غير متاعها وأنه لا يلبث أن يلاعنها أو يبارئها أو يخالعهها أو يكسوها ثياب التحيمة ويقول لها ألحقني بأهلك أو استفلحي بأمرك. أو أنت عليّ كظهر أمي أو حبلك على غاربك. وعودي إلى كناسك. عند أهلك وناسك. فما أنت لي بأهل. وما أنا لك ببيع. لم تحرص على حاجة ولا على سر. ولم يهّمها ما يتزل به من الشرّ. وربما خانت في عرضه وماله. وكادت له مكيدة فضحته بها بين أقرانه وأمثاله وهناك محذور آخر أدهى وأنكر وأنكى وأضر. وأمضّ وأمرّ. وهو أن المرأة

إذا فركت زوجها بأن رأت منه ما تخاف غائلته. لم يهملها أن تربي عيَّله أو تستكفي عائلته. فإن المرأة لا تحب ولدها إلا إذا أحببت بعلها. ولا تحب بعلها إلا إذا أدام وصلها وآتاها سؤلها ومن كان له زوجة لم يُولها فؤاده ولم ينخل لها وداده فاتخذته عدواً خصيماً. لا أليفاً حميماً فهو جدير بأن يرثي له شامته. ويرجع عنه سامته فإن صدره والحالة هذه مورد الشجون، ورأسه منبت القرون، ومزله منزل الاكدار وحالته في الجملة حالة أهل النار. إلا أي أعترض على مذهب من حظر الطلاق، وتقييد بزوجه دون إطلاق، بأن الزوجة إذا علمت أن جسم زوجها أدغم فيها. وأصبح سره في فيها. فصارا فردا لا زوجا. سواء هبطا وهذه أو صعدا أوجا. وأنه لا يفك هذا الالتحام إلا بمقراض الحمام. ولا تحل عقدة هذه الكنية إلا بالخلال جميع أجزاء الطينة. وإلما إذا مرضت مرض هو معها. وإذا رأت رأيا فلا بد من أن يواطئها عليه ويجامعها. نشزت عليه وتنمرت. وطغت وتجبرت. فتارة تسومه شراء لباس وحلي وتارة تتعنت بأمر تذيقه فيه الصلى. فويل له إذا حبا. ثم ويلان إذا أبى. وإن غاب عنها ليلة قامت قيامة كيدها عليه. وأن تشاغل عنها بأمر له فيه نفع جرت جميع المضار إليه. فدأبه التودد إليها والتملق والمداراة والترفق ومجاملته لها إذا جفت ومخالقته إياها إذا أنفت وتأنثه معها إذا تذكرت وتصعصعه منها إذا تشزرت وهل يطيب عيش لمن علم أنه طوع لهوى غيره. وإن لا مناص له من ضيره. فأما شأن الأولاد. وهو الداعي إلى تحمل هذا الكباد، فإن الزوجين إذا كانا على حالة النفور والعناد. والخلاف واللحاد. لم تكن تربيتهما لولدهما الإغراء بالافتداء بهما. وتدريباً على الفساد بسببهما. فيكون إهمالهم من غير تربية عند طلاق أمهم أولى. وإن الوفاق هو المصلحة الأولى. على أنا نعلم من التجربة منذ سن تعالى الزواج وحببه أن المرأة إذا علمت أن لزوجها استطاعة على طلاقها. وتملصا من وثاقها. حرصت على أن تتحبب إليه وتلاينه. وتيسره وتخادنه. وتخالقه وتداريه وتلافاه وتراضيه. وتجاهله وتسانيه. خفية أن يتنصص عيشها بفراقه. أو تحرم من حلاقه. فإن لم يحصل بينهما الوفاق فالطلاق الطلاق.

ورأى صاحبنا هذا اليهودي قريب مما رأيت. فلا يخالف إلا في أسباب الطلاق وهي كيت وكيت فأما صاحبنا الأمعة. فإنه متردد في هذه القضية المنكعة. فتارة يقول أن الطلاق ادعى إلى الراحة. وتارة إنه موجب لنكد العيش وصفق الراحة وطورا يزعم أن المتعة أو الزواج إلى أجل مسمى أوفق. حتى إذا انقضى يجدد العهد بينهما ويوثق. إلى أن يتفارقا عن تراض. ويقضيا لهما وعليهما ولا قاض. فهو أخف على الثبج. وأنفى للخرج وإن يكن يفعله بعض الهمج. وحيناً يقول بل التسري اسرّ. وأهنأ واقر. أن لم يكن من القرينة مفرّ. وآونة يختار الاقتصار على خويدمة رعبوبة. وآونة على وحدة العزوبة. والتناول مما تفيظه به الفرص المرقوبة. وأخرى على جب الآلة. إن كان الحب ينجي من الحباله. قال وذلك إن

صعدت في درجات هذه الخطة ونزلت في دركاتهما. وعانيت ضروبا من أخطارها وهلكاتها. فوجدت عند كل درجة منها مهواة تغيب فيها الأحلام. وتضيع الإفهام. وتخن القوى ويستطاب التوى. ويصغر كل عظيم من البلا: حتى كأن هذه الحاجة ليست من الحوج في شيء. وما لها به من صلة لحيّ فهي داء لا أسى له. وثوب قشيب مسموم يسر ناظره وحامله. لكن يقرح أوصاله ومفاصله. وكل أمر في الدنيا فإنما يصح قياسه على عقول الكيسي من الناس. ويعالج بالصبر أو اليأس إلا هذه الحوبة فإن المرجع فيها إلى الطباع. ولا يفيد معه رشد ولا زماع. ثم أن أنين الشكلى.

وقال وإني أزيد على ما قاله الأমেة قولاً. ولا أخشى من أحدكم عدلاً. فأقول ولكم تصدعت قلوب من ذلك الصدع. واشتقت من ذلك الوماح مشاق لا يطيقها طبع. وكم من رؤوس لأجله دعت ورضت. وعقول أفنت وحرصت. وأعناق دقت. وعيون لقت. وأسنان هثمت. وأنوف شرمت. وشعور ندف. ولحي نتفت. وأيد قطعت. وأنساب ضيعت. وكتائب كتب كُتبت. "حاشية من جملتها هذا الكتاب" وخيل ركضت. وسيوف ومضت. ورماح شرعت. وأحزاب تترعت. وجبال دكت ونسفت وبيوت أقوت وعفت. وأملاك حربت. وملوك استخربت.

وبلدان خربت. بل أمم تمالكت وفنيت. وقرون اندرجت ونسيت. ثم تأوه وقال وسلعة نفدت ودنانير نقدت. قال الهارس فعلمت أنه قد صدعه الصدع بماله وعظة بلهاته عند تغلغله فيه وإيغاله. ولذلك كان يفيض في حديثه ويخوض فيه. ليعلم هل من مصاب مثله وعنده علم ما يشفيه. ثم التفت إليّ مستعبراً. وقال وأنت فما ترى؟ قلت والله أنها لإحدى الكبر. ومعضلة تفيض لها العبر. قد طالما ارتبك فيها العالم النحرير وضل عن علمها اللبيب الخبير لا جرم أن معرفة الأفلاك وكواكبها وإيشاء معادن الأرض وعجائبها وأسرارها وغرائبها. لأهون عليّ من أن أقول في هذه المسألة نعم أو لا فما أرى إلا سكوتي عنه أولى ثم بيناهم يوجبون ويسلبون ويوجزون ويسهبون إذا بالفاريق مرّ علينا ركباً على حمار فاره. سامد سامه. فلما بصرت به قلت له نزال نزال. وحيّ على هذا العدل. فما نرى غيرك جديراً بإيضاحه. وبشفائنا من صماحه. قال في أي أمر مريج كنتم تخوضون. وعن أي نكر مشيح انتم تبيضون. قلنا له في الزواج فهل العلاج. فابتدر على ارتجال.

نزّال طول الدهر أمراً معضلاً

مسألة الزواج كانت ثم لا

للزواج أيان ابتغاه فعلا

أن يكون الطلاق يوماً حلاً

زوجته عنه ولا أن تُعضلاً

فليس عندي رشد أن تحظلاً

فدعهما فليفعلا ما اعتدلاً

أن لم يصيبا للوافق سبلاً

## أيان شاء طلقا وانفصلا

قال فضحكنا من افتخاره ما لم يذكر في الكتب. وقلنا له إلى حمارك عن كتب. فما نرى رأيك إلا بدعا. ولقد أسأت إجابة بعد أن أصبت سمعا. ثم تفرقنا كما اجتمعنا وعجبنا مما سمعنا.

## تفسير ما غمض من ألفاظ هذه المقامة ومعانيها

ليس في لغتنا هذه الشريفة ولا في أمة أخرى من الأمم لفظة تدل على فاعل ومفعول أو فاعلين اشتركا في فعل واحد للذكما ونفعهما. واحتاجا إلى من يدخل عليهما ليتعرف منهما أي رفع ونصب يجري بينهما. وبيانه أن لفظة الزواج عندنا معناها ضمّ واحد إلى آخر حتى يصير كل واحد منهما زوجا لصاحبه. ولكن من دون قيد مكان ولا زمان، فلو تزوج زيد بمند في سهل أو على قمة جبل أو كهف في يوم الأحد أو الاثنين أو السبت بشرط التراضي بأن يكتب الرجل للمرأة صكا مؤذنا بزواجه بها أو يشهد على ذلك رجلين لصحّ. هكذا كانت سنة السلف المتقدمين من الأنبياء وغيرهم كما هو مسطور في تواريخهم. بل لم يكونوا يقيدون أنفسهم لا بالصك ولا بالشهود أما لفظ النكاح فمعناه إحراز امرأة على أي وجه كان. وذلك لأن عرب الجاهلية لم يكن عندهم آداب للنكاح والطعام وغيرهما حتى جاء الشرع فعرفه وميز الحلال من الحرام منه. قال أبو البقاء في الكليات-ولكن لم أجده في فصل النون فإن رأيته في غيره أنجزت ما وعدت به، وكنت أريد استشهد بكلامه على أن اسم النكاح لم يزل إلى الآن مستعملا وإنه في كتب الفقه أكثر من أن يحصى. وهو حجة على من أنكره من النصارى وعلى من استعاذ من ذكره. وإنما استعملته العلماء من دون محاشاة لأسباب. الأول أنه استعمل قديما من الجاهلية فأثبتته العاقلة. الثاني لوروده في القرآن. الثالث لاشتماله على أربعة أحرف وفاقا للطبائع والعناصر والجهات، الرابع لورودها في أسرار سور القرآن. فالنون في ن والقلم وما يسطرون والكاف في كهيعص أو الألف في ألم والحاء في حمز الخامس أنك إذا قلبت هذه اللفظة بدا لك منها معنيان شريفان. الأول اسم فاعل من حي والثاني فعل أمر من كان، وبه برزت الموجودات إلى العيان. وتجلت الحقائق لذوي العرفان. السادس لخفة اللفظ وحلاوته، السابع لكون أوله يدل على آخره وآخره على أوله. وقد سمي هذا النوع بعضهم دلالة الأول على الآخر وبالعكس. قال وفائدته إنه لو استشهد القاضي أحدا على فاعله فنطق بالنون والكاف ثم غشى عليه أو على القاضي تلحزا لذلك. عرف من بقي غير مغشي عليه بالمجلس القاضوي ما أراده القائل. وكذلك لو طرأ عليه عند أداء الشهادة ما قطعه عن الكلام شوقا وهيبة فلم يسمع منه إلا الألف

والحاء لدل هذا الجزء الأخير مع قلة حروفه على جميع ما يراد من المدلول.

قلت وهو تعليل بديع غير أن هذه التسمية لا توجد في كتب البيانين والبديعيين. ولست أحب الألفاظ الطويلة فالأولى أن ينحت له لفظ من تلك الجملة بحيث يسلم الطرف. فإن قلت بل قد استعملت ألفاظا طويلة جداً في وصف البرنيطة بقولك المستقبحة المستفضة مع أنه كان يمكنك أن تصفها بألفاظ قصيرة. قلت كان ذلك من باب مراعاة النظير. فإن طول البرنيطة يقتضيه. فأما مدلول اللفظ الذي نحن بصدده فإنه قصير. ثم أي كنت ابتدأت كلاماً في أول هذا الفصل ولم أنهه فإن القلم زلق بي إلى معنى آخر على عادته. وأظن أن الجنب الرفيع أو الحضرة السنية لم يفهماه فمن ثم أقول الآن. إنه إذا كان المراد من الزواج أن كلاً من الزوجين يزواج صاحبه لنفسه لا لأهل البلد والمعارف والأصحاب كما كان عليان يأكل فخذ الدجاجة لأمّ عليّ. لم يكن من المعقول أن يدمق عليهما ذو قبة فيقول للمرأة لا تتزوجي هذا لكونه لم يسم بطرس ثم يقول للرجل لا تتزوج هذه لأنها لم تسم مريم. أو أن يقول هذا يوم الأحد لا يصح فيه الزواج. وهذه حجرة لا يحل فيها البعال. وإلا لصح أن يقول لهما أرياني الميل في المكحلة. ومثل هذا الكلام لعمرى لا يليق لأحد أن يقوله أو يكتبه. ثم أن المرأة هي من الأشياء التي لكثرة تكرار النظر إليها كالشمس والقمر لم يود العقل حق اعتبارها. وبيانه أن الله عز وجل خلق المرأة من الرجل لتكون بمنزلة معين له على مصالحه المعاشية ومؤنس له في وحشته وهمومه. إلا أننا نرى أن هذه العلة الأصلية كثيراً ما تستحيل عن صيغتها الأولوية. حتى أن بلاء الرجل وهمه ووحشته ونحسه وشقاوته وحرمانه بل هلاكه يكون من هذه المرأة. فتقلب تلك الإعانة إحانة.

وتلخيصه أن الإنسان ولد في هذه الدنيا محتاجاً إلى أشياء كثيرة لازمة لحفظ حياته وذلك كالأكل وذلك والشرب والنوم والدفء. وإلى أشياء أخرى غير لازمة للحياة وإنما هي لتقويم طبعه حتى لا يختل. وذلك كالضحك والكلام واللهو وسماع الغناء واتخاذ المرأة. إلا أن هذا الأخير مع كونه جعل في الأصل لتقويم الطبيعة. إذ يمكن للرجل أن يعيش حيناً ما من دونه. فقد غلب على سائر اللوازم المعاشية التي لا بد منها. ألا ترى أن من يحلم بامرأة يجد منها في الحلم ما يجده في القیطة. وليس كذلك من يحلم بأنه أكل عسلًا أو شرب سلافاً. بل وقوع هذا نادر جداً حتى للجائع والعطشان. وقد طالما رضيت أصحابنا الشعراء بطيف الخيال من المحبوب. وما أحد منهم رضي على جوعه بأن يبعث إليه ممدوحه بكأس مدام في الحلم أو ثريدة. وإذا تناول الإنسان طعاماً طيباً لونا كان أو لونين بقي عدة ساعات مكثفياً بما ناله غير مفكر في القدرة ولا فيما يقتدر فيها. حتى يعاوده الجوع فيطفق ح يفكر في تناول طعام آخر. ولكن لم يسمع عن أحد من الناس في حالتي الجوع والشبع إنه كان كلما رأى طائراً في الجو اشتهى على سفوده في البيت

حتى يستطره. أو أنه كان لا يزال ييخص في دكاكين الطباخين والبدالين والزياتين ويلاوص من ثقب  
أقفالهم ومن خصاص أبوابهم وشقوق حيطانهم على ما عندهم من أصناف المأكول. نعم أن الجائع في  
بلادنا يحسب كل مستدير رغيفا كما يقال. وفي بعض بلاد الإفرنج ربما حسب أيضاً المستدير والمطاول  
وذا شق كظلف الشاة وذلك لتفتنهم في أشكاله. غير أن الجائع إلى النساء ليس له شكل ينتهي إليه.  
وكذلك قضية الشرب فإن الظمان بعد أن يروي غليله بالماء فإذا جيء إليه بكأس من التسنيم عافه.  
وكذلك البردان المحتاج إلى الدفء فإنه متى لبس ما يدفعه من الثياب ويحملة بين الناس لم يتطاول بعد ذلك  
إلى كل ثوب ينظره في دكاكين التجار معرضا للبيع. ولو رأى مثلاً قوس قزح أو روضة مدبجة بالأزهار  
البهيجة لم يتمن أن تكون ألوانها في سراويله أو قميصه. وإنما يراها ويستحسنها مجرد استحسان من دون  
أن يشغل بها خاطره ولبه. ولا يحلم ليلته تلك إنه رأى روضة أنيقة أو يتصور وهو متوسد على فراشه إنها  
لو كانت حيال مخدته لزاد ذلك في تنعيمه أو عمره. وقس على ذلك المنام إذا نام كفايته على فراش غير  
وطئ فإن منظر الفراش الوثير بعده لا يهمه. والحاصل أن الإنسان عقلاً في يافوخه يدل على ما ينفعه  
ويضره ويسؤوه ويسره. وأن في كل من معدته وحلقومه ميزانا قوياً يزن به ما هو محتاج إليه من الطعام  
والشراب. وبه يدري مضمون قولهم ربّ أكلة حرمت أكالات. فأما في أمر المرأة فالقانع العزوف يغدو  
شرهاً رغيباً. والرشيد غوياً. والحليم سفيهاً. والمهتدي ضالاً. والحكيم عمها. والعالم جاهلاً. والفصيح  
عيباً وبالعكس. والصبور جزوعاً ولا عكس. والفتى شيخاً ولا عكس. والغني فقيراً وبالعكس. والفظ  
لطيفاً ولا عكس. والسمين نحيفاً وبالعكس. والمعافى مبتلى ولا عكس. والمتشبت متغشماً وبالعكس.  
والبخيل كريماً ولا عكس. والساكن متحرّكاً وبالعكس. والطرّد عكساً وبالعكس. وهلم جرا. وإذا رأى  
امراً تبغضه فربما أحبها. أو تحفوه كلف بها. أو تعرض عنه تعرّض لها. أو تتملق إليه وتمثله فتن بها. أو  
ترميه بحقيبتها على ثقلها جنّ بها إلا ولو حضر مجلساً كان فيه.

امراً وضيئة حسنة نظيفة.

وهيئة حسنة الهيئة.

ومُخبأة الجارية المخدرة لم تتزوج بعد.

وذبابة الجارية المهزولة المليحة الخفيفة الروح.

وجرباء الجارية المليحة.

وخدبة ضخمة.

وخرعوب الشابة الحسنة الخلق الرخصة أو البيضاء اللينة الجسيمة. اللحيمة الرقيقة العظم.

وخنبة الجارية الغنجة الرخيمة.



ورطبة معروف.  
وسرهبه المرأة الجسيمة الطويلة.  
وشطبة الطويلة الحسنة الخلق.  
وشطبة الجارية الحسنة الغضة الطويلة.  
وشنبا ذات شنب وقد ذكر تحت البرقع.  
وصقبة الطويلة التارة.  
وصهباء الصهب حمرة أو شقرة في الشعر كالصهبة والصهوبة.  
وعجباء المرأة يتعجب من حسننها.  
وقباء الدقيقة الخصر الضامرة البطن.  
وكبكابة المرأة السمينة.  
ومكدوبة النقية البياض.  
وكاعب التي همد ثديها.  
ولعوب الحسنة الدل.  
ووطباء العظيمة الثدي والوطب الثدي العظيم.  
وهدياء الكثيرة شعر الهدب.  
  
وذات صلوته الصلت الجبين الواضح وقد وصلت ككرم.  
وصموت الخلخالين غليظة الساقين لا يسمع لهما حس.  
وخوئاء الحديثة الناعمة.  
وبلجاء البلجة نقاوة ما بين الحاجبين هو ابلج وهي بلجاء.  
ومبهاج حسنة.  
وجائعة الوشاح ضامرة البطن ومثله غرثى الوشاح وخدلجة المرأة الممتلئة الذراعين والساقين.  
ودعجاء الدعج سواد العين مع سعتها.  
ورجراجة ورجراجة يترجرج عليها لحمها.  
وزجاء الزجج محرقة دقة الحاجبين في طول والنعت ازج وزجاء.  
ومعدلجة المرأة الممتلئة الناعمة الحسنة الخلق.  
ومفلجة الأسنان الفلج تباعد ما بين الأسنان.

وبيدح بادن ونحوه بلدح.  
ودحوح عظيمة.  
وذاث سجاجة سجح الحدّ سهل ولان وطلال في اعتدال.  
ودملحة الضخمة التارة.  
وصلدحة عريضة وكذا سلطحة وصلطحة.  
وفقأح المرأة الحسنة الخلق.  
ووضاحة البيضاء اللون الحسنة.  
وبيدحة تارة.  
وبلاخية عظيمة أو شريفة.  
وصمخة المرأة الغضة.  
وطباخية الشابة المكتترة.  
وفتخاء الإخلاف وفتخاء الإخلاف ناقة فتخاء الإخلاف ارتفعت إخالفاها قبل بطنها. ذم وفي المرأة  
والضرع مدح.  
وفرضاخة ضخمة عريضة أو طويلة عظيمة الثديين.  
وقفاخ المرأة الحادرة الحسنة الخلق.  
ولباخية لحيمة.  
وهبيخة الناعمة التارة.  
وبخنداة المرأة التامة القصب كالبخندي.  
وبرخداة الجارية الناعمة التارة.  
ومبرندة الكثيرة اللحم.  
وثأدة المكتترة الكثيرة اللحم.  
وثوهدة السمينية التامة الخلق وكذا الشهودة والفوهودة.  
وثهمد السمينية العظيمة.  
وجداء الصغيرة الثديين.  
وجيداء الطويلة الجيد الدقيقته.  
وبضة المتجرد بضة عند التجرد.  
وبخنداة جارية بخنداة تامة القصب أو تارة ممتلئة أو ثقيلة الوركين وساق بخنداة مستديرة ممتلئة.

وخريد الخريد البكر لم تمسس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المسترة كالخريدة والخرود.  
"تنبيه المرأة الجشوب الدردحة الضمزر اللهيرة العكبرة القعسوس الجباعة الثدمة أكثر دلاً وغنجا من جميع هؤلاء".

ورخودة اللينة العظام السمينة.

ورعديد رخصة.

ورهيدة الشابة الرخصة الناعمة.

وعبرد الجارية البيضاء الناعمة ترتج من نعمتها.

وعضاد المرأة الغليظة العضد.

وعُمدة الشابة الممتلئة شباباً كالعمدانية.

وغادة المرأة الناعمة اللينة البنية الغيد.

وغيداء المتشنية لنا.

ومقصدة المرأة التامة العظيمة تعجب كل أحد والتي إلى القصر.

ومأدة الجارية الناعمة.

وممسودة مجدولة الخلق.

وأملود المرأة الناعمة اللينة.

وناهد كاعب.

وبهيرة السيدة الشريفة والصغيرة الضعيفة وكذا البهيلة.

وبشيرة جميلة.

ومبشورة الحسنة الخلق واللون.

وتارة ممتلئة الجسم.

وترة الحسناء الرعاء.

وجحاشرة الضخمة الحادرة الجسيمة العجلة المفاصل العظيمة الخلق.

وجهراء مؤنث الاجر وهو الحسن المنظر والجسم التامه والأحول المليح الحولة.

وحادرة السمينة أو الحسنة الجميلة.

وأحورية البيضاء الناعمة.

وحورية الحوريات نساء الأمصار.

وحوراء الحوران يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها وبيض ما

حواليتها أو الخ.  
 وذات تدهكر ترجرج.  
 ومَدَهْمَرَة المرأة المكتلة المجتمعة.  
 ومزَنَّة طويلة جسيمة.  
 وزَهْرَاء المرأة المشرقة الوجه.  
 ومسبورة الحسنة الهيئة.  
 ومسمورة الجارية المعصوبة الجسد غير رخوة اللحم.  
 وشغفر المرأة الحسناء.  
 وصَيِّرة الحسنة الصورة.  
 وعبقرة تارة جميلة.  
 وعبهرة الرقيقة البشرة الناصعة البياض والسمينة الممتلئة الجسم كالعبهر والجامعة للحسن في الجسم  
 والخلق.  
 وعجنجرة المكتلة الخيفة الروح.  
 ومُعْصِر التي بلغت شبابها وأدركت أو دخلت في الحيض أو راهقت العشرين.  
 وغَرَاء بيضاء وكذا فراء.  
 وذات افترار افتتر ضحك ضحكاً حسناً.  
 وفرءاء الممتلئة لحماً وشحماً أو التي قاربت الإدراك.  
 وقفاخرية النبيلة العظيمة من النساء.  
 ومرمورة المرمورة والمرمارة الجارية الناعمة الرجراجة.  
 ومَشْرَة الأعضاء رِيًّا.  
 ومطرة لازمة للسواك أو للتنظف والاعتسال.  
 وذات مكرة المكرة الساق الغليظة الحسناء.  
 وممكورة المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين أو المدمجة الخلق الشديدة البضعة.  
 ومارِيَّة بيضاء براقَة "من مار".  
 وذات نَضْرَة حسن وبهجة.  
 ووثيرة الوثيرة الكثيرة اللحم أو الموافقة للمضاجعة.

"تنبيه المرأة الربسة الدعفصة الدنقصة القنبصة الصعلة الطهمل الضلفع الضوكة الرعصاء القشوانة الكوراء أكثر دلاً وغنجاً من جميع هؤلاء".

وهذكر المرأة التي إذا مشت حركت لحمها وعظامها.

وهيذكور الكثير اللحم والشابة الضخمة الحسنة الدل كالهذكورة.

وبلز المرأة الضخمة أو الخفيفة.

وعكموزه الحادرة التارة.

وغمازة الجارية الحسنة الغمز للأعضاء.

وكناز كثيرة اللحم صلبة.

وآنسة الجارية الطبية النفس.

ويبهس الحسنة المشي.

وخروس البكر في أول حملها.

وحنساء تقدم ذكرها تحت لبرقع.

ومركس الجارية طلع نهدا فإذا أجمع وضخم فقد نهد.

وعيطموس المرأة الجميلة أو الحسنة الطويلة التارة كالعطوس.

وعلطميس الجارية التارة الحسنة القوام.

وعانس التي مكثها في أهلها بعد إدراكها حتى خرجت من عداد الأ Bakar.

وقدموسة ضخمة عظيمة.

وقرطاس الجارية البيضاء المديدة القامة.

وكنيسة المرأة الحسناء.

ولعساء من في لونها أدنى سواد.

ولميس اللينة الملمس.

وعشه المرأة الطويلة القليلة اللحم أو الدقيقة عظام اليد والرجل.

وخربصة المرأة الشابة التارة.

ودخوص الجارية الممتلئة شحما.

ورخصه معروف.

وبضاضة بضة الرخصة الجسد الرقيقة الجلد الممتلئة.

وخريضة الجارية الحديثة السن الحسناء البيضاء التارة.

ورضاضه في معنى رجراجه.  
وغضة غضيضة الطرف الغضة الناضرة والغضيض من الطرف الفاتر.  
وفارض ضخمة.  
وفضاضة الجارية اللحيمة الجسيمة الطويلة.  
ومفاضة الضخمة البطن.  
وخوطانة وخوطانية كالغصن طولاً ونعمة.  
وسبطة الجسم حسنة القدّ.  
وشطة حسنه القوام طويلة.  
وشناط المرأة الحسنة اللون والقوام.  
وذات عنط وعيط طويلة العنق حسنته.  
وذات شناظ مكتترة اللحم كثيرته.  
وملعة الجارية السمينه الطويلة الجسيمة.  
وبتعاء الشديدة المفاصل والمواصل من الجسد.  
وبريعة فائقة الجمال والعقل.  
وبزيعه ظريفة مليحة كيسّة.  
ومتلع الحسناء لأهما تتلع رأسها تتعرض للناظرين إليها.  
وسنيعة الجميلة اللينة المفاصل اللطيفة العظام.  
وشبعى الخلخال والسوار ضخمة تملأهما سمناً وشموع مزاحة لعوب.  
وصمعاء الصغيرة الأذن والأذن الصغيرة اللطيفة المنضمة إلى الرأس.  
وضرعاء عظيمة الضرع.  
وفرعاء تامة الشعر.  
ولعة عفيفة مليحة.  
ولاعة التي تغازل ولا تتمكنك "قلت لأها تلوع مغازلها بذلك".  
وأنوف طيبة رائحة الأنف.  
وخنضرف المرأة الضخمة اللحيمة الكبيرة الثديين.  
وذلفاء تقدم ذكر الذلف تحت البرقع.  
وذات سحجف السحجف دقة الخصر وخماصة البطن.

وسرعوف المرأة الطويلة الناعمة.  
وسيفانة الطويلة المشوقة الضامرة.  
وظريفة الظرف إنما هو في اللسان أو حسن الوجه والهيئة أو يكون في الوجه واللسان أو البزاغة وذكا  
القلب أو الحذق أو لا يوصف به إلا الفتيان الازوال والفتيات الزولات لا الشيوخ ولا السادة.  
وقرصافة القرصافة من النساء التي تتدحرج كأثما كرة.  
وقصاف المرأة الضخمة.  
ولفاء واحدة اللفّ للجواري السمان الطوال.  
وحسنة المعارف والموقفين المعارف الوجه وما يظهر من المرأة والموقفان الوجه والقدم أو العينان واليدان  
ومالا بد لها من اظهاره.  
ومهفهفة ضامرة البطن دقيقة الخصر.  
وهيفاء الهيف ضمير البطن ورقة الخاصرة.  
وبراقة الحسناء لها بهجة وبريق كالإبريق.  
وبهلق المرأة الحمراء جداً.  
وحاروق نعت محمود للمرأة عند الجماع.  
وخرباق الطويلة العظيمة أو السريعة المشي.  
ورشيقة حسنة القد لطيفته.  
ورقراقة التي كان الماء يجري في وجهها.  
وروقه حسناء تعجب.  
وسوقاء الطويلة الساقين أو الحسنتهما.  
وعبقة المرأة التي إذا تطيبت بأدنى طيب لم يذهب عنها أيما.  
وعاتق الجارية أول ما أدركت.  
وعشنقة طويلة ليست بضخمة ولا مثقلة.  
وغبرقة العينين واسعتهما شديدة سواد سوادهما.  
وغرانق امرأة غرانق وغرانقه شابة ممتلئة.  
وذات غرنقة غزل بالعينين.  
وذات لمة غرانقة ناعمة تفيئها الريح.

وفنق جارية فنق ومفناق منعمة.  
ولبقة الحسنة الدلّ واللبسة.  
وملصقة الضيقة المتلاحمة.  
ولهفة شديدة البياض.  
"تنبيه المرأة الطرطبة المتخبجة الرغبة العكباء ذات الحردبة والسنطبة البلعثة الخرثاء الخنطوب العكيرة  
المثدنة الخطلاء أكثر دلاً وغنجاً من جميع هؤلاء".  
وممشوقة خفيفة اللحم.  
ورودكة حسناء في عنفوان شبابها.  
وضبرك المرأة العظيمة الفخدين.  
وضحكاكة قصيرة مكنترة.  
وضنأكة الصلبة المغصوبة اللحم.  
ومعروركة متداخلة.  
وعكوكة القصيرة الملززة أو السمينية.  
وعضنك اللفاء التي ضاقملتفى فخذيتها مع ترارقتها.  
وعاتكة المرأة المحمرة من الطيب.  
ومفلك التي إستدار ثديها.  
ومكماكه المكامكه والكمكامه القصيرة المجتمعة الخلق.  
وهبركه الجارية الناعمة.  
واسيلة الخدّين الأسيل من الحدود الطويل المسترسل.  
ومبتلة الجميلة كأنها بتل حسننها على أعضائها أي قطع والتي لم يركب بعض لحمها وفي أعضائها  
استرسال.  
وبهكلة المرأة الغضة الناعمة.  
وجمول جملاء الجمول الثمينية والجملاء الجميلة والحسنة الخلق من كل حيوان.  
وخدلة المرأة الغليظة الساق المستديرتها أو الممتلئة الأعضاء لحماً في دقة عظام كالخدلاء.  
وخله المرأة الخفيفة.  
ودحمله الضخمة التارة.  
ودحمله السمينية أو الحسنة الخلق.



ومكسال نعت للجارية المنعمة لا تكاد تبرح من مجلسها مدح.  
ورخينة رخت الجارية صارت سهلة المنطق فهي رخيمة ورخيم.  
ورقيمة ورقيمة المرأة العاقلة البرزة وفي برز امرأة برزة بارزة المحاسن أو متجاهرة كهلة جليلة ألخ.  
وميسان الضحى مدح ونحوه نووم الضحى.  
وحسنة الخفين أي صوتها وأثر وطئها يقال إذا حسن من المرأة خفاياها حسن سائرها.  
وغانيه المرأة التي تطلب ولا تطلب أو التي غنيت بحسنها عن الزينة.  
"تنبيه المرأة القرزح القيلع الحنجل الحزمل الحمكه الخنثل الجبله الجهيله الخنكله القيعله أكثر غنجاً وتدعباً  
من جميع هؤلاء".  
وسياقي تنمة وصف الحسان في الفصل السادس عشر من الكتاب الرابع إذ لم يبق لي من حراك وقوة  
لذلك وأحسب القارئ نظيري.  
وإنما أقول. نعم لو كان في ذلك المجلس السعيد جميع هؤلاء الحسان على اختلاف ألوانهن لوّد أن ينظمهن  
كلهن في تلك واحد ويجعله في عنقه كسبحة أولياء الله المفردين. ومن ما رأي في ذلك رجعته إلى قصة  
سيدنا سليمان عليه السلام. فإنه مهما أوتي من الحكمة. وما أدراك ما الحكمة. فقد كانسلكه يشتمل  
على ألف امرأة. منهن ثلثمائة سُرّيات والباقي سُرّيات. فكان له في كل يوم امرأتان ونصف وكسور ألا  
ولو إنه أي الرجل رأى الشمس طالعة والبدر بازغاً والكواكب مضيئة لكان أول ما يخطر بباله أن يقول.  
لقد تزينت هذه السماء بهذه النيران البهية. فمتى تزن حجرتي بواحدة من أخواتهن أو باثنتين أو بثلاث أو  
بعشر أو بالسبحة كلها. واو رأى غوطة أو ربوة أو جبلين متناوحين أو نوفاً أو حُشة أو هدفاً أو شقياً أو  
قوزاً أو دعصاً أو كوئلاً أو خوطاً يتأوّد أو بحراً يتموج أو عوطباً أو طاووساً أو تفاحاً أو رماناً عقد درّ  
منظوم أو شيئاً آخر يروق العين لسبق وهمه إلى امرأة. بل ربما تصور واحدة لم يكن قد رآها قط ولا  
وجود لها في الأعيان ولو رأى سفينة مآخرة في اليم وعليها شراعها لشبهها بامرأة ترفل بشياها في  
الطرق كما كان دأب أحد الخرجيين المتورّعين. ولو رأى حمامتين تتزاقان وتتلاسان قالليت لي الآن من أن  
أزقها وترقني والأسنها وتلاسني وأنقرها وتنقري. ولو رأى أبو بُرائل بين ضغادره يلقمهن مما لديه  
ويصفق لهن بجناحيه ويحثل إليهن ويتجفل ثم يلجج بينهن لو أن يكون نظيره. وحسبك بذلك من دناءة  
وإهانة لهذه الصورة البشرية التي يقال فيها إنها خلقت على مثال الخالق تعالى عن التبيه والنظير. إلا ولو  
إنك ألقيته في جب سيدنا يوسف، وفي فلك سيدنا نوح، وفي بطن حوت سيدنا يونس، وعلى ناقة سيدنا  
صالح، ومع أصحاب الكهف، لصرخ قائلاً المرأة المرأة، ومن لي بالمرأة ولو أنزلته في: بُنانة الروضة المعشبة.  
ورقمة الروضة وجانب الوادي أو مجتمع مائه.

ودقيرة الروضة الحسناء العميمة النبات.

ووديفة الروضة الخضراء.

وغلواء الحديقة المتكاثفة.

وعلجوم البستان الكثير النخل.

ومخرفة البستان.

وحديقه الروضة ذات الشجر.

وفي حجرة وعلية وغرفة ومقصورة وخدر وَحَجَلَة وَمِنْصَة.

وسدار شبه الخدر والموصد الخدر.

وحُشَّة القبة العظيمة.

وجنبذة كالقبة.

وعرش الخيمة والبيت الذي يستظل به كالعرش.

وكرح بيت الراهب ومثله الركح.

وكوخ البيت المسنم من قصب.

وصومعه بيت للنصارى.

ورِيع الصومعة.

وفتر بيت يتخذ على خشبة طولها نحو ستين ذراعاً للربئة وهو البيت المقدم أمام البيوت.

وحلة جماعة بيوت الناس أو مائة بيت والمجلس والمجتمع.

وفسطاط السرادق من الأبنية ومثله المضرب.

وكبس بيت من طين.

وحفش البيت الصغير جداً.

وجتر البيت الصغير من الطين.

وخصّ البيت من القصب أو -.

وردهه البيت الذي لا عظم منه.

ومجلوه البيت الذي لا باب فيه ولا ستر.

ووأَم البيت الدفيء.

وأُفنه بيت من حجر.

وطراف البيت من آدم.  
 ووسوط بيت من بيوت الشعراء وهو أصغرهما.  
 وطنف السقيفة تشرع فوق باب الدار.  
 ونزل ما هيئ للضيف أن يتزل عليه.  
 ومغنى المتزل الذي غنى به أهله ثم ظعنوا أو عام.  
 ومعهد المتزل المعهود به الشيء.  
 ومعان المباءة والمتزل.  
 ونديّ مجلس القوام نهاراً أو - .  
 ومُرتَبِع الموضع يرتبعون فيه في الربيع.  
 ومصيف ومشى معروف.  
 ودكسرة بناء كالقصر حوله بيوت أو - .  
 ومشرقة موضع القعود في الشمس بالشتاء.  
 ومضحاة أرض مضحاة لا تكاد تغيب عنها الشمس.  
 وظلة شيء كالصفة يستتر به من الحر والبرد.  
 ومشربه الغرفة والعلية والصفة.  
 وسُعنه الزَفَن أو مطلق المظلة.  
 ومظلة الكبير من الأخبية.  
 وساباط سقيفة بين دارين تحتها طريق.  
 وعرزال بيت صغير يتخذ للملك إذا قاتل الخ.  
 وكن البيت.  
 وقيطون المخدع.  
 وسَرَب الحفير تحت الأرض وديماس الكن والسرب والحمام.  
 وبُرج معروف.  
 وصهوة البرج في أعلى الراية.  
 وصرح القصر وكل بناء عال.  
 وعقر البناء المرتفع.  
 وطربال كل بناء عال.

وأزج ضرب من الأبنية.  
 وإيوان الصفة العظيمة كالأزج.  
 ورواق بيت كالفسطاط أو سقف في مقدّم البيت.  
 وأجم كل بيت مربع مسطح وبضمتين الحصن.  
 وكعبة الغرفة وكل بيت مربع.  
 وأطم القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح.  
 ووشيع عريش يبني للرئيس في المعسكر.  
 وسنيق بيت محصّص.  
 وجوسق القصر.  
 ودوشق البيت ليس بكبير ولا صغير أو البيت الضخم.  
 وقهقور. بناء من حجارة طويل.  
 وبغبور الحجر الذي يذبح عليه القربان للصنم.  
 وزور مجلس الغناء.  
 وبُدّ بيت للصنم.  
 وزون الموضع تجمع فيه الأصنام وتنصب وتزين.  
 ومسجد معروف.  
 وكنيسة معروف.  
 وفهر مدارس اليهود تجتمع إليه في عيدهم. أو -.  
 ومدارس الموضع يقرأ فيه القرآن ومنه مدارس اليهود.  
 وفي كوكبان حصن باليمن رصع داخله بالياقوت فكان يلمع كالكوكب.  
 والجوسق دار بنيت للمقتدر فيدار الخلافة في وسطها بركة من الرصاص ثلاثون ذراعاً في عشرين.  
 وقصر النعمان الذي بناه السنمار هو رجل إسكاف بنى قصراً للنعمان بن امرئ القيس فلما فرغ ألقاه من  
 أعلاه لثلاثين لغيره مثله أو هو غلام لآحيحة بنى أطمعة فلما فرغ قال له لقد أحكمته قال إني لا عرف  
 فيه حجراً لو نزع لتقوض من عند آخره فسأله عن الحجر فأراه موضعه فدفعه آحيحة فدفعه آحيحة من  
 الأطم فخرّ ميتاً.  
 والجعفريّ قصر للمتوكل قرب سرّ من رأى.  
 والمارد حصن بدومة الجندل.

والأبلق حصن بتيماء قصدتهما الزباء فعجزت فقالت تمرد مارد وعزّ الأبلق.

وصرواح حصن بناه الجن لبليقيس.

ودار الخيزران بمكة بنتها خيزران جارية الخليفة.

وقصر بهرام جور من حجر واحد قرب همذان.

وقصر غفراء بالشام.

والبديع بناء عظيم للمتوكل بسر من رأى.

وزُعيّرة حصن قرب الكرك.

وقصر عسل بالبصرة.

والند حصن باليمن.

والغفر حصن بها.

وسمدان حصن بها عظيم.

والشخب حصن بها.

وثرّيان حصن بها.

وهريان حصن بها.

وشواحط حصن بها.

والموهبة حصن بها.

والظفير حصن يماني صنعاء.

ولسيس حصن باليمن.

والنجير حصن قرب حضرموت.

وغمدان قصر باليمن بناه يشرخ بأربعة وجوه أحمر وأبيض وأصفر وأخضر وبني داخله قصراً بسبعة

سقوف بين كل سقف أربعون ذراعاً.

لما أنفك أن يصرخ ويقول المرأة المرأة. ومن لي بالمرأة. ولا عيش إلا مع المرأة. ولو أنزلته في شعب بوان

إحدى الجنان الأربع.

وصنعاء د باليمن كثيرة الأشجار والمياه تشبه دمشق.

والسُعد بساتين نزهة وأماكن مثمرة بسمرقند.

والشعران جبل قرب الموصل من أعمر الجبال والفواكه والطيور.

والوهط بستان ومال كان لعمر بن العاص على ثلاثة أميال من وجّ كان يعرش على ألف ألف خشبة  
شراء كل خشبة درهم.  
وبلنسية د شرقي الأندلس محفوف بالجنان لا ترى إلا مياهاً تدفع ولا تسمع إلا أطيّاراً تسجع.  
ومرسية د إسلامي بالمغرب كثير المنازه والبساتين.  
وثنانين بلد بناه نوح عليه السلام لما خرج من السفينة ومعه ثمانون نفساً.  
وجابلص د بالمغرب ليس وراءه أنسي.  
والراهون جبل بالهند هبط عليه آدم عماء.  
والجوديّ جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عماء.  
وقاف جبل محيط بالأرض أو زمرد وما من بلد إلا وفيه عرق منه وعليه ملك إذا أراد الله أن يهلك قوماً  
أمره فحرّك فحسف بهم.  
والقيق جبل محيط بالدنيا ومثله الفيق.  
والساهرة أرض يجردها الله يوم القيامة.  
لما إنفك يصرخ ويقول المرأة المرأة. ومن لي بالمرأة. ولا عيش إلا مع المرأة. بل لو صعد إلى المشرق باب  
للتوبة في السماء.  
وطوبى شجرة في الجنة.  
وعليّين في السماء السابعة تصعد إليه أرواح المؤمنين جمع علي.  
والضراح البيت المعمور في السماء الرابعة.  
وبرقع اسم للسماء السابعة أو الرابعة أو الأولى.  
والحاقورة اسم للسماء الرابعة.  
والصاقورة اسم للسماء الثالثة.  
والعُرفة السماء السابعة وكذا عروبا وفيها سدرة المنتهى.  
وعقيون بحر من الريح تحت فيه ملائكة من الريح معهم رماح من الريح ناظرين إلى العرش تسبيحهم  
سبحان ربنا الأعلى.  
والأعراف سور بين الجنة والنار.  
لأخذ يزعم. بمجامع خلقومه ويقول المرأة المرأة. فإني ما دمت بشراً لا بد لي من المرأة. ولوأريته من  
الغرائب.  
السكينة شيء كان له رأس كرأس الهر من زبرجد وياقوت وجناحان.

والكلواذ تابوت التوراة.

وقُرْطِي مارية هي مارية بنت أرقم أو ظالم كان في قرطها مائتا دينار أو جوهر قوّم بأربعين ألف دينار أو درّتان كيبضتي حمامة لم ير مثلهما قط فأهدتهما إلى الكعبة.

وقنطرة خُرز إذا أم أزدشير بسمرقند بين أيدج والرباط من عجائب الدنيا طولها ألف ذراع وعلوها مائة وخمسون أكثرها ميني بالرصاص والحديد.

وتابوت تاحة هي تاحة بنت ذي الشُّفَر قال ابن هشام حفر السيل عن قبر باليمن فيه امرأة في عنقها سبع مخانق من در وفي يديها ورحيلها من الأسورة والخلاليل والدماليح سبعة سبعة وفي كل أصبع خاتم فيه جوهرة مثمّنة وعند رأسها تابوت مملوء مالاّ ولوح فيه وعند رأسها تابوت مملوء مالاّ ولوح فيه مكتوب باسمك اللهم إله حمير أنا تاحة بنت ذي شفر بعثت مثرنا إلى يوسف فأبطأ علينا فبعثت بمد من ورق لتأتيني بمد من طحن فلم تجده فبعثت بمد من ذهب فلمتجده فبعثت بمد من بحري فلم تجده فأمرت به طحن فلم أنتفع به فانتقلت فمن سمع بي فليرحمني وأية امرأة ليست حلياً من حلي فلا ماتت إلا ميتي. وذا الفقار سيف العاص بن منبه قتل يوم بدر وكان كافراً فصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم صار إلى عليّ.

والكشوح من السيوف السبعة التي أهدتها بلقيس إلى سليمان عليه السلام.

والجنّ حيّ من الجن منهم الكلاب السود البهم أو سفلة الجن وضعفاؤهم وكلاهم أو خلق بين الإنس والجن.

وأورام الجوز قرية فيها أعجوبة وهي أن المجاورين لها من القرى يرون فيها بالليل ضوء نار في هيكل فيها جاءوه لا يرون شيئاً.

والرئيّ جني يرى فيحب.

وفرّس قاين الذي يقال له هِجْدَم يقال أول من ركب ابن آدم القاتل حمل على أخيه فزجر الفرس فقال هج الدم فخفف.

والعصافير شجر يسمى من رأى مثلي له صورة كالعصافير كثيرة بفارس.

والنسناس جنس من الخلق يشب أحدهم على رجل واحدة وفي الحديث أن حيّا من عاد عصوا رسولهم فمسخهم الله نسناساً لكل إنسان منهم يد ورجل من شق واحد ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم وقيل أولئك انقضوا والموجود على تلك الخلقة خلق على حدة أو ثلاثة أجناس ناس ونسناس ونسناس أو النسناس الإناث منهم أو هم أرفع قدراً من النسناس أو هم يأجوج ومأجوج أو هم

قوم من بني آدم أو خلق على صورة الناس وخالفوهم في أشياء وليسوا منهم.  
 ودُعْموصا رجل زناء مسخه الله وعبّودا عبد أسود أول الناس دخولا الجنة.  
 وعامر بن جدرة أول من كتب بخطنا.  
 ومرامرا أول من وضع الخط العربي.  
 وابا عروة رجل كان يصيح بالأسد فيموت فيشق بطنه فيوجد قلبه قد زال من موضعه.  
 وطخمورث ملك من عظماء الفرس ملك سبعمائة سنة.  
 والوضاح رجل ملك الأرض وكانت أمه جنية فلحق بالجن.  
 والرابضة ملائكة هبطوا مع آدم وبقية حملة الحجة لا تخلو الأرض منهم.  
 والبيروح اصل اللفاح شبيه بصورة إنسان.  
 وسكينة اسم البقة الداخلة انف نمروذ.  
 وطاخية نملة كلمت سليمان عم.  
 وعليجوف اسم النملة المذكورة في القرآن.  
 والتخس دابة بحرية تنجي الغريق ثمكته من ظهرها ليستعين على السباحة وتسمى الدلفين.  
 والجساسة دابة تكون في الجزائر تجس الأخبار فتأتي بها الدجال.  
 والرخ طائر كبير يحمل الكركدن.  
 والكركدن دابة تحمل الفيل على قرنها.  
 والزبيري دابة تحمل الفيل بقرنها.  
 والعقام سمك وحية تسكن البحر ويأتي الأسود من البر فيصفر على الشط فتخرج إليه العقام فيتلاويان ثم  
 يفترقان فيذهب كل منهما إلى منزله.  
 وبنت طبق سلحفاة تبيض تسعا وتسعين بيضة كلها سلاحف وتبيض بيضة تنقف عن حية.  
 والفلتان طائر يصيد القردة.  
 والبلت طائر محترق الريش أن وقعت ريشة منه في الطير أحرقته.  
 والسمندل طائر بالهند لا يحترق بالنار.  
 والتهبط طائر اغبر يتعلق برجليه ويصوت كأنه يقول أنا أموت أنا أموت.  
 والأنن طائر كالحمام صوته أنين أوه أوه.  
 والزماح طائر يأخذ الصبي من مهده.  
 والهديل فرخ على عهد نوح عم مات عطشا أو صاده جراح من الطير فما من حمامة إلا وهي تبكي



عليه.

والقرقفنة طائر يمسح جناحيه على عيني القنذع الديوث فيزداد لنا.  
والفقنس طائر عظيم بمنقاره أربعون ثقباً يصوت بكل الأنغام والألحان العجيبة المطربة يأتي إلى رأس جبل  
فيجمع من الحطب ما شاء ويقعد ينوح على نفسه أربعين يوماً ويجمع إليه العالم يستمعون إليه ويتلذذون  
ثم يصعد إلى الحطب ويصفق بجناحيه فينقذ منه نار ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً فيتكون منه  
طائر مثله ذكره ابن سينا في الشفاء. لمد عنقه وجعل أصابعه في أذنيه وأذن صارخاً. هاي هاي المرأة  
المرأة. أروني المرأة. ما يجزئني شيء عن المرأة. ولو أنك لاعتبه.  
بالجنابي لعبة للصبيان.

وحدبدي لعبة للنبيط.

والطبطابة خشبة عريضة يلعب بها الكرة.

والقرطي ضرب من اللعب ونوع من الصراع.

والكبكب لعبة.

والكوبة النرد أو الشطرنج.

والهباب لعبة للصبيان.

وكتكتي لعبة.

والبحيثي لعبة بالبحاثة أي التراب.

والكتكتي لعبة بالتراب.

والطث لعبة للصبيان يرمنه بخشبة مستديرة تسمى المطثة.

واللوثة خرقة تجمع ويلعب بها.

والأنبوثة لعبة يدفنون شيئاً في حفير فمن استخرجه غلب والشطرنج معروف.

والخريج لعبة يقال لها خراج خراج.

والفتزج رقص للعجم.

والقجقجة لعبة يقال لها عظم وضاح.

والكجة لعبة يأخذ الصبي فيدورها كأنها كرة.

والكجكجة لعبة تسمى أست الكلبة.

والجماح ثمرة على رأس خشبة يلعب بها الصبيان.

والجمح رمي الصبي الكعب بالكعب حتى يزيله عن مكانه.

ودخندح لعبة للصبية لها فيقولونها فمن أخطاها قام على رجل وحجل سبع مرات.  
 والدّاح نقش يلوح للصبيان يعللون به ومنه الدنيا داحة.  
 والرجاجة حبل يعلق ويركبه الصبيان.  
 والدباخ لعبة.  
 والدماخ لعبة للاعراب.  
 والمطخة خشبة يلعب بها الصبيان.  
 والطريدة لعبة تسميها العامة المسّة والضبطة فإذا وقعت يد اللاعب من آخر على بدنه أو رأسه أو كتفه  
 فهي المسّة وإذا وقعت على الرجل فهي الآسن.  
 والنرد معروف  
 والمواغدة لعبة وأن تفعل كفعل صاحبك.  
 والباقر لعبة.  
 والبقيري لعبة.  
 والجعري لعبة الصبيان وهو أن يحمل الصبي بين أثنين على أيديهما.  
 والحاجورة لعبة تحط الصبيان خطا مدورا ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذوه.  
 والذكر لعبة للزنج والحبش.  
 والسحارة شيء يلعب به الصبيان.  
 والسدر لعبة للصبيان.  
 والعررة لعبة للصبيان.  
 والشعارير لعبة.  
 والمنجار لعبة للصبيان أو الصواب الميجار.  
 والتوز خشبة يلعب بها بالكجة.  
 العرز عرز لفلان قبض على شيء في كفه ضاما عليه أصابعه يريه منه شيئا لينظر إليه ولا يريه كله.  
 والقفيزي لعبة للصبيان ينصبون خشبة ويتقافزون عليها.  
 والنفاز لعبة لهم يتنافرون فيها أي يتواثبون.  
 والبكسة الكجة.  
 والحوالس لعبة للصبيان.  
 والدسة لعبة.

والدعسكة لعب للمجوس كالرقص.  
والفسفسي لعبة لهم.  
والفاعوس والفاعوس لعبة لهم.  
والبوصاء لعبة لهم يأخذون عودا في رأسه نار فيديرونه على رؤوسهم.  
والرقاصة لعبة.  
والحوظة لعبة تسمى الدارة.  
والخطة لعبة للأعراب.  
والضبطة لعبة لهم.  
والتصرفط وهو أن تتركب أحدا رجلك من تحت إبطيه وتجعلهما على عنقه.  
والمقط مقط الكرة ضرب بها الأرض ثم أخذها.  
والضريفطية لعبة لهم.  
والمرصاع دوامة الصبيان وكل خشبة يدحى بها.  
واليرمع الخذروف وقلوبع لعبة لهم.  
والجحفة اللعب بالكرة.  
والخذروف شيء يدوره الصبي بخيط في يده فيسمع له دويّ ويسمى أيضا الخذرة والقرصافة والخذروف  
أيضا طين يعجن يعمل شبيها بالسكر يلعب به الصبيان.  
والزحلوفة تزلق الصبيان من فوق التل إلى أسفله والعياف لعياف والطريدة لعبتان لهم.  
وقاصة قرصافة لعبة لهم.  
والحزقة ضرب من اللعب.  
والدبوق لعبة.  
والزحلوفة الارجوحة.  
والشفلقة لعبة وهوان يكسع إنسانا من خلفه فيصرعه.  
والعفقة لعبة.  
والعقة التي يلعب بها الصبيان.  
والقرق لعب الصدر.  
والكرك لعبة لهم.  
ودبي حجل لعبة.

والدخيلاء لعبة لهم.  
والدرقلة لعبة للصبيان.  
والدركلة لعبة للعجم أو ضرب من الرقص أو هي حبشية.  
والفئال لعبة للصبيان يخبون الشيء في التراب ثم يقسمونه ويقولون في أيها هو.  
والفيال لعبة لفتيان العرب.  
والدمة لعبة.  
والدوامة التي يلعب بها الصبيان فتدار وتسمى أيضا المرصاع.  
والمرغمة لعبة لهم.  
والشحمة لعبة لهم.  
وعظم وضاح لعبة لهم.  
والمهزام عود يجعل رأسه نار يلعبون به.  
والبرطنة ضرب من اللهو كالبرطمة.  
والتون خرقة يلعب عليها بالكعبة.  
والطين لعبة لهم.  
والقنين لعبة يتقامر بها.  
والكبنة لعبة.  
والدمّة لعبة للصبيان.  
والمجذاء خشبة مدورة تلعب بها الأعراب.  
والمخاساة خاساه لاعبه بالجوز فردا أو زوجا.  
والقزة لعبة.  
والقلة عودان يلعب بها الصبيان.  
لشحر فاه وشحاه وعجاء وزاد صراخا وضجيجا وهو يقول المرأة المرأة. إلا فلاعبوني بالمرأة. ولو إنك  
طربته.  
بالرباب معروف.  
والعرطبة العود أو الطنبور أو الطبل أو طبل الحبشة.  
والكوبة البربط والطبل الصغير المخصر.  
والدريج شيء كالطنبور يضرب به.

والصنج شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر وآلة باوتار يضرب بها معرب والصيار صوت الصنج.

والونج ضرب من الاوتار أو العود أو المعزف.

والعود معروف.

والمزمار ما يزمر به ويقال أيضا الزمخر والزنبق والصلبوب والنقيب والقصابة والهنوقة.

والمزهر العود يضرب به.

والشبور البوق ويقال له أيضا القبع والقشع والقنع والصور.

والطنبور معروف.

والكنارات العيدان أو الدفوف أو الطبول أو الطنبور.

والكوس الطبل.

والبربط العود.

والشياح مزمار الراعي.

والهيرعة اليراعة يزمر بها الراعي.

والدف معروف.

والمستقة آلة يضرب بها الصنج ونحوه.

والعركل الدف والطبل.

والصغانة من الملاهي معربة.

والطين الطنبور أو العود.

والقنين الطنبور.

والكران العود أو الصنج.

والون الصنج.

لظل فاغرا فاه وهو يزعم ويقول المرأة المرأة. إلا فطربوني بالمرأة. ولو اطعمته.

الجواذب طعام يتخذ من سكر ورز ولحم.

والقييب الإقط خلط رطبة بياسة.

والكباب معروف.

والسنوت الزبد والجبن والعسل وضرب من التمر.

والفَيْتَة العَصيدة المغلطة أو مرقَة تشبه الحيس.  
والنفيتَة طعام اغلظ من السخينة.  
والعلائَة سمن واقط يخلط.  
والغبيثة لت الاقط بالسمن كالعبيثة.  
والسكبا ج معروف.  
والطباهجة اللحم المشّرح.  
والنابجة طعام جاهلي.  
والاخيشة دقيق يعلج بالسمن أو الزيت.  
والقفيفة طعام يعالج بالتمر والاهالة.  
والكامخ ادم.  
والثريد معروف.  
والرشيدية طعام معروف فارسيته رشته.  
وارّهيدة البرّ يدق ويصب عليه لبن.  
والشهيدة البرق المشوي.  
والقديد اللحم المشرّر المقدّد.  
والحنيد حند الشاه شواها وجعل فوقها حجارة محماة لينضجها فهي حنيد.  
والزماورد طعام من البيض واللحم ويسمى أيضا الميسر.  
والبراير طعام يتخذ من فريك السنبل والحليب.  
والبورانية طعام ينسب إلى بوران بنت الحسن بن سهل زوج المأمون.  
والجاشرية طعام.  
والجعاجر ما يتخذ من العجين كالتماثيل فيجعلونها في الربّ إذا طبخوه.  
والحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم.  
والحكر والحكر السمن بالعسل يلحقهما الصبي.  
والمخبور الطعام المدسّم والخبرة والثريدة الضخمة - والطعام واللحم وما قدم من شيء وطعام يحمله  
المسافر في سفرته وقصعة فيها خبز ولحم بين أربعة أو خمسة.  
والخزيرة شبه عصيدة بلحم.  
والصحيرة اللبن الحليب يغلي ثم يصب عليه السمن.

والغذيرة دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضف.  
والفرفور سويق من ثمر الينبوت.  
والمُرِّي اِدام الكامخ.  
والمضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير.  
والنجيرة لبن يخلط بطحين أو سمن.  
والوغير لبن يغلي ويطبخ.  
والخاميز مرق السكباج.  
والخنيز الثريد من الخبز الفطير.  
والمُررز الطعام المعالج بالرز.  
والبسيصة لت الاقط المطحون بالسمن.  
والحميسة القليلة.  
والحيس تمر يخلط بسمن واقط فتعجن شديدا.  
والكسيس لحم يجفف على الحجارة فإذا ييس دق فيصير كالسويق.  
والهريسة معروف.  
والبوش طعام بمصر من حنطة وعدس يجمع في زنبيل ويجعل في جرة ويطين ويجعل في تنور.  
والخشيش السويق وحنطة تطحن قليلاً فتجعل في قدر ويلقى فيه لحم أو تمر فيطبخ.  
والرشرش السمين من الشواء.  
والقميشة طعام من اللبن وحب الحنظل ونحوه.  
والمكرشة طعام من اللحم والشحم في قطعة مكورة من كرش البعير.  
والكوشان طعام من الرز والسمن.  
والآمص الآمص والاميص طعام يتخذ من لحم عجل بجلده أو مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن.  
والخبيص طعام من التمر والسمن ويسمى أيضا البروك.  
والعمص ضرب من الطعام.  
والكريص طبخ الحماض باللبن فيجفف فيؤكل في القيظ.  
والمصوص طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل أو يكون من لحم الطير خاصة.  
والآقط شيء يتخذ من المخيض الغنمي.  
والمبرقط طعام يفرق فيه الزيت كثيرا.

والبهط الارز يطبخ باللبن "معرب".  
 والخليط الجدي إذا سلخ فشوي.  
 والسميط الجدي إذا نزع شعره فشوي والسُرْطَاء حسا كالحريرة.  
 والسويطاء مرقة كثر مأوها وثمرها أي بصلها وحمصها وسائر الحبوب.  
 والتشييط لحم يشوي للقوم.  
 والخديعة طعام لهم.  
 والخديعة طعام بالشام من اللحم مشتق من خذع أي حَزَز وقطع والمخذع الشواء. والخَلْع لحم بالتوابل في وعاء من جلد أو القديد المشوي في وعاء بإهالته.  
 والرصيعة البُرْدَق بالفهر ويبلّ ويطبخ بالسمن.  
 والوضيعة حنطة تدق فيصيب عليها السمن فيؤكل.  
 والشميعة ما رقّ من الطعام وأختلط بالودك.  
 والخطيفة دقيق يذر عليه اللبن ثم يطبخ.  
 والصفصفة السكباجة.  
 والطحرف حسا رقيق دون العصيدة.  
 والموخف طعام من أقط مطحون يذر على ماء ثم يصب عليه السمن.  
 والألوقه طعام طيب أو زبد برطب.  
 والحروقة طعام أغلظ من الحسا.  
 والمدققة من الطعام "مولدة".  
 والروذق الحمل السمييط وما طبخ من لحم وخلط بأخلاطه.  
 والزريقاء الثريدة بلبن وزيت.  
 والسليقة الذرة تدق وتصلح أو الأقط خلط به طرائث وما سلق من البقول ونحوها.  
 والسويق معروف.  
 والشُّبَارِق ما أقتطع من اللحم صغاراً وطبخ.  
 والوشيق لحم يقدد حتى ييبس أو يُغلى إغلاءً ثم يقدد ويحمل في الأسفار.  
 والوليقة طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن.  
 والدليك طعام من الزبد واللبن أو زبد وتمر ونبات وثمر الورد الأحمر يخلفه ويحلو كأنه رطب الخ.



والريكة أقط بتمر وسمن.  
والسهيكة طعام.  
والفريك طعام يفرك ويلت بسمن وغيره.  
والليكة أقط ودقيق أو تمر وسمن يخلط.  
والوديكة دقيق يشاط بشحم.  
والبيكة دقيق بالرب أو بالسمن والتمر.  
والحدل حب شجر ويختبز.  
والطَفَيْشَل نوع من المرق.  
والعَوَكَل ضرب من الأدام.  
والزَوَم طعام لأهل اليمن من اللبن لذيذ.  
وأبا عاصم السويق والسكباج.  
والهَلَام طعام من لحم عجل بجلده أو مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن.  
والسخينة طعام رقيق يتخذ من دقيق.  
والكُبَان طعام من الذرة لليمنيين.  
والتليينة حساء يتخذ من نخالة ولبن وعسل.  
والجليهة تمر يعالج باللبن.  
والأرة القديد ولحم يغلي بالخل إغلاء فيحمل في السفر.  
والآصية طعام كالحسي بالتمر.  
والأطرية طعام كالخيوط من الدقيق.  
والكدي لبن ينقع فيه التمر تسمن به البنات. ولو أطعمته من أنواع الكمأة الذُبَح والفرحانة والقرحان  
والغرد وبنات أوبر والجماميس والفقع والبرنيق والذعلوق والقعل والعرجون والعرهون ومن أنواع  
السّمك القباب والهازي والكنعت والكنعد والخباط وهي أولاده والبينيث والمدج والأدح والقذ والغوبر  
والزميز والزنجور والأشبور والطتر والأنقليس والجوفي واللخم واللحم وأبامرينا.  
والصلنباح سمك طويل دقيق.  
والخافيرة سمكة سوداء.  
والجرّي سمك طويل أملس لا يأكله اليهود وليس عليه فصوص.  
والصرصران سمك أملس.

والغارة سمكة طويلة.  
والقيصانه سمكة صفراء مستديرة.  
والشبوط سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس كأنه بربط.  
والجنيس سمكة بين البياض والصفرة.  
والضلعة سمكة صغيرة خضراء قصيرة العظم.  
والحفة سمكة بيضاء شاقة.  
والعفة سمكة جرداء بيضاء طعم مطبوخها كالأرز.  
والخذاق سمكة لها ذوائب كالخيوط.  
والحاقول سمك أخضر طويل.  
والقتن سمكة عريض قدر راحة.  
والغلاء سمك قصير.  
والهف السمك الصغار الهاربة.  
والبلم صغار السمك.  
والصحناة أدام يتخذ من السمك الصغار.  
والصير الصحناة أو شبيها والسميكات المملوحة يعمل منها الصحناة.  
والحريد السمك المقدد.  
والقريب السمك المملوح ما دام في طرأته.  
والطريخ سمك صغار تعالج بالملح.  
والحساس سمك صغار تجفف.  
والنشوط سمك يقر في ماء وملح.  
والأريان سمك كالودود.  
والصعقر بيض السمك.  
والسكل سمكة سوداء ضخمة.  
والزجر سمك عظام والبال سمك العظيم.  
والأطوم سمكة بحرية غليظة.  
والجيزرة سمكة كالزنجي الأسود الضخم.  
والبنيك دابة كالدفين.

والجمل سمكة طولها ثلاثون ذراعاً.  
 واللباء سمكة تتخذ منها الترسة الجيدة وهو أيضاً شيء كالحمص شديد البياض توصف به المرأة.  
 والتخس تقدم ذكرها في الغرائب. ومن الحار: السلج أصداف بحرية فيها شيء يؤكل.  
 والدُّلّاع ضرب من محار البحر.  
 والقرئع دويبة بحرية لها صدفة.  
 والجملح لحم يكون في جوف الصدف. ومن أنواع الخبز: الطرموث جبز الملة ومثله المفتأ والمضبة  
 والطرموس والإصطكمة والأصطكمة. ومن الغرائب هنا أن صاحب القاموس أورد التي بالكسر بعد أش  
 م والتي بعد ص ط م.  
 والزحلحة الرقيقة من الخبز وكذا الصرقة.  
 واللوح خبز شبه القطائف.  
 والأنبخاني خبزة أنبخانية ضخمة.  
 والخيرة الثريدة الضخمة.  
 والمشطور الخبز المطلي بالكامخ.  
 والسلجن الكعك.  
 والخنيز الثريد من الخبز الفطير.  
 والشرش اليابس الرخو من الخبز كالرشراش.  
 والهشاش الخبز الرخو اللين.  
 والمربقة الخبزة المشحمة ونحوها المرولة.  
 والسرقاق الخبز الرقيقز والضعيفة خبز الأرز المرقق.  
 والمُلّي الخبزة المنضجة. ومن أجناس اللبن: السمعج اللبن الدسم الحلو ومثله السملج والسمهج  
 والسهمجيج.  
 والقطبية لبن المعز والضأن يخلطان أو لبن الناقة والشاه.  
 والشميط ما لا يدري أحامض هو أم حقين من طيبه.  
 والجُلعلط والجُلعلط اللبن الرائب الثخين ومثله لبن عُجَلط وعثلط وعكَلط وعلبط. تقدم نحوي  
 بغيض كان يتكلم بالأعراب إلى لبان فقال يا لبان أعندك لبن عثلط علبط عجلط فقال له اللبان تنصرف  
 أو تُفَع.

والكفحة الزبدة المجتمعة البيضاء.  
واللياخة الزبد الذائب مع اللبن.  
والقشدة الزبدة الرقيقة.  
والقلدة القشدة والتمر والسويق يخلص به السمن.  
والنهيد الزبد الرقيق.  
والعكيس اللبن الحليب تصب عليه الأهالة.  
والثميرة اللبن الذي ظهر زبده.  
والنخيسة لبن العنز والنعجة يخلط بينهما.  
والأنخاض الحليب ما دام في الممخضة.  
الحالوم ضرب من الأقط أو لبن يغلظ فيصير شبيهاً بالجن الطري. ومن الحلواء الوطيفة تمر يخرج نواه  
ويعجن بلبن والأقط بالسكر والكعك.  
والعبية طعام وشراب من العرط حلو.  
والبرت السكر والضح العسل والمقل.  
والمليخ عسل في جلتار المظ.  
واليعقيد طعام يعقد بالعسل.  
والفارد أبيض السكر وأجوده.  
والقند عسل قصب السكر.  
والفانيد ضرب من الهواز والصقر عسل السُرطب والديس.  
والأكبر شيء كأنه خبيص يابس ليس بشديد الحلاوة يجيء به النحل والفالوذ م ويسمى أيضاً الرعيد  
والمرزع والزليل والكمص والمزعفر والمادئي العسل الأبيض أو الحديد أو خالصة وجيده.  
والمسيرة حلواء واللوزينج معروف "معرب".  
والوخيز ثريد العسل.  
واللواص الفالوذ والعسل.  
والسرطراط الفالوذ أو الخبيص.  
والجميع تمر يعجن بلبن.  
والقطائف معروف.  
والكرسفي نوع من العسل.

والطرم الشهد والزبد والعسل.  
والمن كل ظل يتزل من السماء على شجر أو حجر يخلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ الخ.  
والزلاية حلواء معروف. ومن الثمر.  
الصربة شيء كراس السنور فيه شيء كالدبس يمص ويؤكل.  
والعُرب شجر كالرمان يؤكل.  
والبوت شجر نباته كالزعرور.  
والرعثاء عنب له حب طوال.  
والجُوح البطيخ الشامي.  
والصدح ثمرة أشد حمرة من العُتاب.  
والملاحى عنب أبيض طويل ونوع من التين.  
والعنجد الزبيب أو ضرب منه.  
والفرصاد التوت أو حملة أو أحمره.  
والقثد نبت يشبه القثاء أو الخيار.  
والكشد حب يؤكل.  
والمريد التمر ينقع في اللبن.  
والمغد ثمر يشبه الخيار.  
والحناذ المشمش.  
والصفرية تمر يمانى يجفف بُسراً فيقع موقع السكر في السوق.  
والضمير العنب الذابل.  
والزنبار التين الحلواني.  
والسُكر من أحسن العنب.  
والزعراء ضرب من الخوخ.  
والشُعراء ضرب منه أيضاً.  
والمُعثر شيء ينضجه الثمام والعُشَر والرُمث كالعسل وكذا المُعْفر.  
والمُعْفر البطيخ الخريفي أو نوع منه.  
والقُبر عنب أبيض طويل.  
والمُرمار الرمان الكثير الماء لا شحم له.

والتَّهْرِ العنب الأبيض والكُلافيّ عنب أبيض فيه خضرة.  
والجَوْزَة ضرب من العنب.  
والمِثْلُوز المشمش الحلو.  
والبلس ثمر كالتين.  
والضغاييس صغار القثاء أو نبات كاهليون.  
والميس نوع من الزبيب.  
والكشمش عنب صغار لا عجم له ألين من العنب.  
والضُرُوع عنب أبيض كبار الحب.  
والأقماعي عنب أبيض يصفرّ أخيراً حبه كالورس.  
والميعة شجرة كالتفاح لها ثمرة بيضاء أكبر من الجوز تؤكل ولبّ نواها دسم يعصر منه الميعة السائلة "في قول".

والغاف شجر له ثمر حلو جداً.  
والباسق ثمرة طيبة صفراء.  
والرازقي العنب الملاحى.  
لزاد شحر فم وزعيقاً ولغطاً وزياطاً وضجيجاً وهو يقول المرأة المرأة. إلا فلحسوني المرأة. ولو أنك سقيته  
من الشراب: الرحيق ممزوجاً بالبند الرحيق الخمر أطيبها أو الخالص أو الصافي. والبند الذي يسكر من  
الماء.

والسلسل ممزوجة بالسلسل السلسل الماء العذب ومن الخمر اللينة.  
والمسطار مزاجها العُضْرُس المسطّار الخمر الصارعة لشاربها والعُضْرُس الماء البارد العذب والثلج.  
والإسْفِنْط مزاجها النقر الإسفِنْط المطيب من عصير العنب أو ضرب من الأشربة أو أعلى الخمر. والنقر  
الماء الصافي العذب.  
والخرطوم ممزوجة بالماء الزلال الخرطوم الخمر السريعة وماء زلال كغراب سريع المرّ في الحلق بارد عذب  
صاف سهل سلس.

والمعتقة مزاجها الفُرات المعتقة الخمر القديمة والفرات الماء العذب جداً.  
والمثلث شراب طبخ حتى ذهب ثلثاه.  
والفضيخ عصير العنب وشراب يتخذ من بُسر مفضوخ.

والفقد شراب من زبيب أو عسل الفقد.

والمقدي شراب من عسل.

والداذي شراب الفساق.

والجمهوري شراب مسكر أو نبذ العنب أتت عليه ثلاث سنوات.

والخسرواني شراب.

والسكر الخمر ونبذ يتخذ من التمر.

والغبراء السكركة وهي شراب من الذرة.

والمزر نبذ الذرة والشعير.

والكسيس نبذ التمر.

والبتع نبذ العسل المشتد أو سلالة العنب.

والسقرق شراب يتخذ من الذرة أو من الشعير والحبوب.

والجعة نبذ الشعير.

والفقاع هذا الذي يشرب لما يرتفع في رأسه من الزبد.

والباذق ما طبخ من عصير العنب أدن طبخة فصار شديداً.

والخليطين ما ينبذ من البسر والتمر معاً أو من العنب والزبيب أو منه ومن التمر نحو ذلك.

والصري الماء من البسر الأحمر والأصفر يصبونه على النبق فيتخذون منه نبذاً والعكي سويق المقل.

والأطواق لبن النار جيل وهو مسكر جداً سكرًا معتدلاً ما لم يبرز شاربه للريح فإن برز أفرط سكره ألح.

والصعف شراب من العسل أو يشدخ العنب فيطرح ثم يغلي.

والنبق دقيق يخرج من لب جذع النخلة حلو يقوي بالدبس ثم يجعل نبذاً.

والسليل الشراب الخالص.

والمعمول المعمول من الشراب ما فيه اللبن والعسل.

والطلاء الخمر وخائر المنصف وهو الشراب طبخ حتى ذهب نصفه.

لعربد وزاد صراحاً وصياحاً وهو يقول المرأة المرأة. إلا فاسقوني المرأة.

بل لو سقيتهم الفحفاح والكوثر. ومن رحيق محتوم. مزاجه من تسنيم. وجعلته في جملة من يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكاس من معين. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. وعنده جنتان. ذواتا أفنان. فيهما عينان تجريان. فيهما من كل فاكهة وزجان. من دونهما

جنتان. مدها متان. فيهما عينان نضاختان. فيهما فاكهة ونخل ورمان. فيهن خيرات حسان. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان. بين متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان. بين متكئين على فرش بطائنها من إستبرق. وعلى فرش موضونة. يسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا. عيناً فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة.

لما رأيت هذه الحالة راضياً من دون المرأة. فأعوذ بالله من هذا الإنسان ومع ذلك أي مع كون وجود الطعام والشراب للرجل الزم من وجود المرأة إذ الأول مخلوق لحفظ الحياة والثاني لتقويم الطبيعة على ما سبق ذكره. فإن وجود المرأة أصعب منهما وأكثر تعذراً وأعلى سعراً. إذ الطعام والشراب يوجدان في كل مكان وزمان. حتى إن أهل سقر لهم طعام من الزقوم والمهل والضريع. وشراب من غسيلين. وظل من يحموم ولكن ليس لهم نساء من مارج من نار أو من الشياطين ولا وجود للمرأة أيضاً في السفينة ولا في دير الرهبان إلا نادراً. ولا لراكب فرس أو حمار أو جمل أو بغل. ولا لساع على القدم. ولا لمباشر الحرب ولا لمسجون. ولا لقبيح الخلقة إلا إذا كان جميل الدينار والجلاء. ولا لشاعر مملق وإن تملقهن وسهر الليالي في وصف محاسنهن والتشبيب بها. ولا لمن به تشويليه وترويلية وزلقية وزُمالقية وزهلقية وتيتائية وإذليلاتية ونعنعية وهلوكية وشكازية وثيتلية وعنينية وحريكية وطمسلية ومنجوفية وحضورية وسرسية وعجيرية وذوذخية وحوقلية وهوذلية ووخواخية وعذيواطية وعضيوطية وثتية وثمرتية وصفيطية ومجائية وعتولية. فإن قيل أن الأدرم لا خبز له أيضاً قلت يمكن أن يدق له الخبز ناعماً فيمضغه ويحتزئ به. ولكن كيف السبيل إلى مضغ المرأة مع التيتائية وأخواتها.

ثم إنه كما وقعت البلبلة عن ذات المرأة وحارت العقول في السر الذي أودعه الله فيها. من جهة أنه أول الأسباب في عمران الكون وخرابه. إذ لا يكاد يحدث في العالم خطب جليل إلا وتراها من خلله واقفة وراءه أو بالحري مضطجعة. كذلك حصل التشويش والتخليط في أسمها. فالمرأة في لغتنا الشريفة مشتقة من مرؤ الطعام إذ صار مريئاً هنيئاً حميد المغبة. إلا إنها كثيراً ما تكون طعاماً ذا غصة وشجا وتخمة وتختير. ثم أن همزها للوصل ووصلها للهمز. وجميعها من غير لفظ المفرد وهو متعدد. وفي بعض اللغات هي ويل الرجل. وفي بعضها سوأة. فإما الزوجة وهي المفهوم منها إنها امرأة أو نصف رجل فقد خصت ترضياً لها بأسماء كثيرة. من ذلك القرينة واشتقاقها معلوم. والعازية واشتقاقها من عزب أي بعد لأنها تعزب عن أبيها إلى زوجها أو بالعكس أو عنه إلى غيره. والحُرمة واللحاف لأنها تدفع الرجل بحر جسدها كما سيأتي والحدادة والنضر العرس والحليلة واللباس والجلث والحال والخضلة والشاعة والحنة



والربض والنعل ولست أرضي بهذه فالأولى محوها. ومن الغريب إنها سميت لباساً ولحافاً ولم تسمَ سروالاً. قال بعض العلماء إذا أراد الله أن يقضي خيراً على الأرض قيّض له امرأة فكانت الوسيلة إلى إجرائه. وإذا أراد الشيطان أن يقضي شراً توسل إليه أيضاً بامرأة. وقد اختلفوا في تأويل هذا القول. فالخرجيون على أن دخول المرأة في قضية ملك الإنكليز كان للخير المحض. والسوقيون على أنه كان للشر الجهنمي. وكذلك قضية ملكي الإنكليز وقضية إيرين زوجة ليو الرابع وثيودورة زوجة ثاوفيليوس. وغير ذلك مما لا يحصى.

وأعلم هنا إنه لم تخر العادة بأن يتخذ من النساء باباً أو مطران أو رئيس جيش أو رئيس سفينة أو قاض. وذلك لاتقاء بأسهن وسطوqhن. فإن الرجال مستعدون للنساء بالطبع خلواً من هذه المراتب العلية فكيف بمن إذا ولينها. فإن قيل أن الإفرنج يتخذون منهن ملكات ويفلحون. قلت قد تقرر عندهم أنه إذا كان رئيس الدولة أنثى كانت إدارة الأحكام والعمل كله لذكر. ولعل ذلك من مشاكل الأمور الأنثوية فإن هذا التعليل يصدق أيضاً على كون البابا وغيره يتخذ من النساء. ولعلي قد أطلت الكلام هنا على النساء مع أنه ربما يوجد فيهن قصار غير جديرات بالطويل منه. فينبغي لي الآن تطليقهن والعود إلى ما كنت بصددّه. وسأعود إليهن في موضع آخر إن شاء الله.

### في ذلك الموضع بعينه

لم يطاوعني القلم على الانتقال من هذا الموضع الشهوي إلى الكلام في الفاريق وأمثاله. بل لعله هو نفسه يروم ذلك إشاراً له على ذاته. فلا بد إذاً من الرجوع إلى وصف النساء من دون اعتذار إليه فأقول : قال بعض الفحول من العلماء أن المرأة أشرف من الرجل وأفخم وأنبل وحلم وافضل واكرم. أما وجه كونها أشرف فلأن شاهدي تأنيثها واقفان في محل مرفوع.

بحيث يمكن لها أن تراهما أو تريهما أيا ن شاءت من دون تطأطي رأس وانحاء.

وفي ذلك من العز والشرف ما لا يخفي. ألا ترى أن بعض الأدباء قال أن من عزّ لا أن يقولها الإنسان وهو رافع رأسه. ومن ذلّ نعم أن يقولها وهو خافضة. أما شاهد الرجل فهما منكوسان في محل منخفض بحيث لا يقدران يرهما إلا إذا تطأطأ انحنى. وأما وجه كونهما أفخم فلأن ساقيهما اللتين هما عمودان لهيكل الجسم، وبطنها الذي هو منبت لتكوّن النسمة. وعجزها الذي هو مورد الإعجاز. تكون أفخم من ساقى الرجل وبطنه وعجزه. وأما وجه كونها أنبل فلأنها تنبل بما يلقي إليها مدة تسعة أشهر. وأما وجه كونها احلم فلأن سمة الحلم ترى في شاهدي تأنيثها. وأما وجه كونها أفضل فلأنها خلقت من الرجل وعقبه. وهو خلق من تراب. لكنها إذا ماتت "معاذ الله من ذلك" تستحيل إلى تراب كالرجل لا إلى أصلها الذي

أخذت منه أي لا تصير رجلاً ولا ضلعاً وأما وجهه كونه أكرم فلائها ارق فؤاداً وأرحم قلباً وألين طبعاً. فإذا رأت أحدا محتاجاً إلى شيء من عندها لمتضن به عليه. وناهيك ما جاء عن مادم السيدة زبيدة إذ قال:

طوبى لزارك المئاب

أزبيدة ابنة جعفر

تعطي الأكف من الرقاب

تعطين من رجليك ما

فلما أنكر الوصفاء عليه ذلك وهموا بضربه انتهرتهم وأحسنن إليه لعملها أنه لم يخطئ الوصف.

وقال فحل آخر أن المرأة تعمّر في الغالب أكثر من الرجل. وسبب ذلك إنها لما كانت مفطورة على اللين والطفولة والنعومة كان لها أن تتلقى ما يستقبلها من الحوادث بالصبر والتأني. فتكون به ميلعا أي تارة تميل إلى هذا الشق وتارة إلى ذلك. فمثلها كمثل الغصن الرطيب يميل مع الريح فلا ينقصف. فأما الرجل فإنه لما كان مفطوراً على القسوحة واليبوسة فمتى دهمه أمر تصلب له واقتسح فلا يلبث أن يعطب به. فمثلته كمثل الشجرة اليابسة إذا قويت عليها الريح. قال ومن خواصها أيضاً أن الخمرة لا تبلغ منها قدر ما تبلغ من الرجل واختلفوا في تغليل ذلك. فذهب قوم إلى أن في دم المرأة قوة جاذبية تغلب على الخمر فتجذبه سفلاً فلا يصعد إلى دماغها. وزعم بعض أن المرأة نوعاً من الخمر يسمى رضاباً وهو فيها قوي جداً. بحيث إذا خالطه الشراب أي شراب كان ذهب بقوته. والقطرة من هذا النوع تباع أحياناً ببذرة وأحياناً برأس إنسان أو بعنقه. ومن خواصها أن شعرها يكون أطول من شعر الرجل. وشعرها أبلغ من شعره. وشعورها أدق. ومشاعرها أنفع. أما الأول فلم يختلف فيه اثنان. وأما الثاني فلائها إذا قالت شعراً فإنما تقوله في رجل فهو يعجب الرجال ويبلغ منهم بالطبع. ويعجب النساء بالطبع والصنعة أيضاً. ولعل ذلك مشكل آخر من المشاكل الأثنوي. فإني أرى هذا التعليل يصدق على الرجل فإنه يقول الشعر في امرأة. ويمكن أن يجاب بأن الشاعر المجيد أكثر شعره يكون في غير الغزل. وذلك كاختلاق مدح يفتره على أمير. أو وصف مجلس أنس أو حرب ونحوه. وأما الثالث فلائها إذا مرت مثلاً بحانوت بزاز ورأت بزازاً شفافاً اترنجي اللون. فأول ما تلمحه تقول لك هذا يصلح لليل. وربما كان فكره وقتئذ في كتاب تطالعه أو في شراء حمار تركبه. وإذا رأت ديباجاً اخضر قالت بيديها هذا يصلح للشتاء. أو كتانا ابيض فاحرا خصصته بالصيف. ثم إذا مرت بـدكان جوهري أو إذا هوست أنت وأخذتها إليه قالت لك على الفور هذا الحجر الماس يصلح لأن يجعل فصاً في خاتم للبصر. وهذه الياقوتة في خاتم للخنصر. وهذه الزمردة في خاتم للمتوسطة. وهذا الفيروزج في خاتم للسبابة. وهذه الفريدة في خاتم للإهام. وهذه اللآلئ الكبيرة

لقلادة في العنق. وهذه الصغيرة لسوار. وهذه السلاسل الذهب المرصعة توضع في العنق مع القلادة وتدلّ إلى الخصر يعلّق بها ساعة من ذهب. وهذه الشنوف للشتاء وتلك الخفيفة للصيف. وهذه المتوسطة للربيع والخريف. وفكرك لم يزل مشغولاً بالحمّار فإن قيل أن الكاف في فكرك خطاب مطلق لكل قارئ وربما تشرف كتابك هذا بمطالعة أمير أو غيره من السادة العظماء فلا يصح توجيه الخطاب إليه. لأن الأمير لا يفكر في الحمير. قلت قد ورد في سفر التكوين في الفصل السادس والثلاثين أن عانة من ولد سعيم الحوري كان يرعى حمير أبيه زيبون وكان أميراً. بل قد علق عليه في بعض النسخ جلا دوك وهو اعظم من الأمير. ثم أنما أي المرأة لم تلبث حالة كونها ناظرة إلى تلك الجواهر أن تقسم أهل المصر جميعاً إلى خمسة أقسام.

### القسم الأول في تهيئة الجواهر

من التجاب ما أذيب مرة من حجر الفضة. والمشخلة خزر بيض تشاكل اللولوا أو الحليّ يتخذ من الليف والخرز وقد تسمى الجارية مشخلة بما عليها من الخرز وليس على بنائها شيء. قلت وفي محفوظي أن ابن الأثير حكاهما بتقديم الخاء على الشين دون هاء. والضبي حبُّ اللولو. والقَصَب ما كان مستطيلاً من الجواهر..... والدر الرطب والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت. واليَشَب حجر معروف. والبَهْت حجر معروف. والكبريت الياقوت الأحمر والذهب أو الجوهر معدنه خلف التُّبْت بوادي النمل وفي ت ب ت تبت كسكر بلاد بالمشرق ينسبها إليها المسك الأذفر. والياقوت معروف. والدَهْنَج جوهر كالزمرّد. والزَبْرَج جوهر أو الزينة من وشي. والزبرجد الزبرجد. والصليجة سبيكة الفضة المصفاة. والمرجان م وتعريفه في القاموس أنه صغار اللولوا. والخرايد الخريد اللولة لم تثقب.

والفريد الشذر يفصل بين اللولو والذهب ج فرائد والجوهرة النفيسة والدر.  
والجُذاز حجارة الذهب.  
والبلّور جوهر معروف.  
والتبرّ الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغاً فإذا صيغاً فهما ذهب وفضة أو ما استخرج من المعدن قبل  
أن يصاغ ومكسر الزجاج وكل جوهر يستعمل من النحاس والصفرة.  
والسيراء الذهب الخالص.  
والشذرّ قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة أو خرز يفصل بها النظم أو هو اللولوا الصغار.  
والشمّور الماس.  
والعمرة الشذر من خرز يفصل بها النظم.  
والنضار الجوهر الخالص من التبر.  
والخرز الجوهر وما ينظم.  
والفلزّ نحاس أبيض أو جواهر الأرض أو ما ينفيه الكبير من كل ما يذاب منه منها.  
والهبرزيّ الذهب الخالص.  
والترامس الجُمان.  
والحُصّ اللولوة ونحوها الخوضه.  
والخلاص ما أخلصته من الذهب والفضة.  
والدليص ما الذهب.  
والخضض خرز بيض صغار يلبسها الصغار.  
والثعنع اللولو والصدف.  
والجزع الخرز اليماني الصيني.  
والزئلع ضرب من الودع.  
والينع ضرب من العقيق.  
والزُخرف الذهب وكمال حسن الشيء.  
والصريف الفضة الخاصة.  
والسفائق السفيفة الضريبة الدقيقة الطويلة من الذهب والفضة ونحوهما.  
والعقيق معروف.

والخضِّل اللولو والدر الصافي وخرز معروف.  
والْحُوْمَةُ البلور.  
والجُمَان اللولو أو هنوات أشكال اللولو من فضة أو خرز بيض بماء الفضة.  
والميناء جواهر الزجاج.  
والمهو اللولو وحصى أبيض والمهارة البلورة.  
والنهاء الزجاج ويقصر أو القوارير وحجر أبيض أرخي من الرخام - وضرب من الخرز.

### القسم الثاني في عمل الحلي

من البؤبؤ رأس المكحلة.  
والأربة القلادة.  
والأرنب حلي.  
والمعقب القرط ومثله الرعثة ج رعاث.  
والحجة خرزة أو لؤلؤة تعلق في الإذن.  
والدملج معروف.  
واليارج القلب أو السوار.  
والجناح الجناح من الدر نظم يعرض أو كل ما جعلته في نظام.  
والداح سوار ذو قوى.  
والسنيح الدر أو خيطه قبل أن ينظم فيه والحلي.  
والوشاح كرسان من لؤلؤ وجواهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر وأديم عريض  
يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها.  
والوضح حلي من الفضة.  
والفتحة خاتم كبير في اليد أو الرجل أو حلقة من فضة كاخاتم.  
والخلدة السوار والقرط.  
والزارد المخنقة.  
والعضاد الدملج كالمعضاد.  
والعقد معروف.  
والقلادة ما جعل في العنق.

والمنجد حلي مكمل بالفصوص وهو من لؤلؤ وذهب أو قرنفل.. يأخذ من العنق إلى أسفل الثديين يقع على موضع النجاد.

والمسجور من اللؤلؤ المنظوم المسترسل.

والسفيرة قلادة بعري من ذهب وفضة.

والشعيرة هنة تصاغ من فضة أو حديد على شكل الشعيرة ألخ.

والعترة قلادة تعجن بالمسك والأفاويه.

والعمر الشنف.

والتقصار القلادة ج تقاصير.

والكسبر المسك من العاج كالسوار.

والقفاز -أو ضرب من الحلي لليدين والرجلين.

والحبس سوار من فضة يجعل في وسط القرام.

والسلس - أو القرط من الحلي.

والشمس ضرب من القلائد.

والقداس شيء يعمل كالجمان من الفضة.

والكبس حلي مجوف محشو طيباً.

والقلادة المكروسة وهي أن ينظم اللؤلؤ والخرز في خيط ثم يضمّ بفصول بخرز كبار.

والنقرس شيء يتخذ على صنعة الورد تغرزه المرأة في رأسها.

والخربصيص القرط والحبة من الحلي.

والخرص حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من الحلي.

والحوط خيط مفتول من لونين أسود وأحمر فيه خرزات وهلال من فضة تشده المرأة في وسطها لثلاث تصيبها العين.

والسمط قلادة أطول من المخرقة.

والعلطة القلادة.

والقرط الشنف أو المعلق في شحمة الإذن.

واللط القلادة من حب الحنظل المصبغ.

والأنواط المعاليق.

والرصيعة حلقة السيف المستديرة أو كل حلقة مستديرة في سيف أو سرج أو غيرهما.

والشنف القرط الأعلى أو معلاق في قوف الإذن أو ما علق في أعلاها.  
والنطفة القرط واللؤلؤة.  
والوقف سوار من عاج.  
والخراق السوار الغليظ.  
والحلّق خاتم من فضة بلا فص أيضاً خاتم الملك.  
والمخنقة القلادة وكذا المزنقة والمعنقة.  
والخوق حلقة القرط والشنق.  
والدسيق كل حلي من فضة بيضاء خالصة.  
والزُنق كل رباط تحت الحنك.  
والسوّذق السوار والقلب.  
والطارقيّة قلادة.  
والطوق معروف.  
والقلقيّ ضرب من القلائد.  
والمسكّ السورة والخلاخيل.  
والجديل الوشاج.  
والحبلّة ضرب من الحلي.  
والحجّل الخلخال.  
والمرسلة قلادة طويلة تقع على الصدر أو القلادة فيها الخرز.

والسدل السمط من الدر يطول إلى الصدر.  
والأشكال حلي من لؤلؤ أو فضة يشبه بعضه بعضاً يقرط به النساء الواحد شكل.  
والطّمل القلادة كالطميل لأنها تطمل أي تلطخ بالطيب.  
والقبل شيء من عاج مستدير يتألاً ويعلق في صدر المرأة.  
والقرمل ما تشده المرأة في رأسها.  
والأكليل شب عصابة تزين بالجوهر.  
والمحال ضرب من الحلي.  
والنخل ضرب من الحلي.

والتهاويل الألوان المختلفة وزينة التصاوير والنقوش ألح.  
والبريم حبل للمرأة فيه لوان مزين بجوهر.  
والتوائم توائم اللؤلؤ ما تشابك منها.  
والتومة اللؤلؤة والقرط فيه حبة كبيرة.  
والخاتم معروف.  
والعصمة القلادة.  
والكرم القلادة ونوع من الصياغة في المخانق أو بنات كرم حلي كان يتخذ في الجاهلية.  
والأنظام كل خيط نظم حرزاً.  
والثكنة القلادة.  
والجمان سفيفة من آدم ينسج وفيها حرز من كل لون تتوشحه المرأة.  
والبرة الخللخال.  
والريّ القلادة أو التي توضع في عنق الغلام.  
والونّية العقد من الدر أو اللؤلؤ.  
إلى الخشل رؤوس الأسورة والخلاخليل.

### القسم الثالث في عمل الطيب واتخاذ المشموم

من الأناب المسك أو عطر يضاهيه.  
والجلاب ماء الورد.  
والزرنب طيب أو شجر طيب الرائحة.  
والكركب نبات طيب الرائحة.  
والملاب عطر أو الزعفران.  
والشت نبت طيب الريح.  
واليلنجوج عود البخور.  
والربّاحيّ جنس من الكافور.  
والمُرتّج أجود عود البخور.  
والريّحان نبت طيب الرائحة أو كل نبت كذلك.  
والشيخ نبت طيب الرائحة.



والصباح عطر أو غسل.  
والنضوح طيب.  
والسليخة عطر كأنه فشر منسلخ ودهن ثمر البان قبل أن يرتب.  
والبيخة نافجة المسك.  
والخلخل طيب م.  
والسعد طيب م.  
والرند شجر طيب الرائحة والعود والآس.  
والزباد م ويسمى الزهم.  
والعبد نبات طيب الرائحة.  
والقنيد العنبر والكافور والمسك وطيب يعمل بالزعفران.  
والند طيب م.  
والحنيد دهن والغسل والمطيب.  
والكاذي شجر لهورد يطيب به الدهن.  
والبهار نبت طيب الريح.  
والخطار دهن يتخذ من الزيت بأقاويه الطيب.  
والجمرة الورس وأشياء من الطيب.  
والذريرة عطر.  
والزبر نبت طيب الرائحة.  
والإذخر حشيش طيب الريح.  
والساهرية عطر.  
والضيئمران الريحان الفارسي.  
والمطير العود أو المطري منه.  
والظفار شيء من العطر كأنه ظفر مقتلف من أصله.  
والعبير الزعفران أو أخلاط من الطيب.  
والعبر النرجس والياسمين ونبت آخر.  
والعطر الطيب.  
والعمار الريحان يزین به مجلس الشراب.

والعنبر روث دابة بحرية أو نيع عين فيه.  
 والعراء نبت طيب أو هو العرياء.  
 والفاغرة طيب أو الكبابية.  
 والقطر العود الذي يتبخر به.  
 والكافور نبت طيب نوره كنور الأقحوان والطلع أو وعاءه وطيب م يكون من شجر بجبال بحر الهند  
 والصين الخ.  
 والنسرين ورد م.  
 والعجوز ضرب من الطيب.  
 والبلسان شجر صغار كشجر الحناء لا ينبت إلا بعين شمس ظاهر القاهرة يتنافس في دهنها.  
 والقلسان نبات طيب الرائحة.  
 والقنس نبات طيب الرائحة ويسمى أيضاً الراسن.  
 والهيس الخيري ويقال له المنشور والنمام.  
 والمردقوش طيب يجعله المرأة في مشطها.  
 والحص الورس والزعفران.  
 والسعيط البان ودهن الخردل.  
 والقسط عود هندي وعربي.  
 والضياع ضرب من الطيب.  
 والميعة عطر كالمائعة.  
 والنقوع صبغ فيه من أفواه الطيب.  
 والعوف نبات طيب الرائحة.  
 والخلاق ضرب من الطيب.  
 والرحيق ضرب من الطيب.  
 والبُنك طيب م.  
 والسك طيب يتخذ من الرامك.  
 والمسك المشموع أي المخلوط بالعنبر.  
 والتتل ضرب من الطيب.  
 والريلة أكليل من ريحان وآس.

والسنبل نبات طيب الرائحة.  
والقندول شجر بالشام لزهرة دهن شريف.  
والمندل العود أو أجوده كالمندلي.  
والبشام شجر عطر الرائحة.  
والبهرمان العصفور والحناء.  
والثومة شجرة أطيب رائحة من الآس.  
والجيهمان الزعفران وكذا الريهقان.  
والخزامي خيرى البر.  
والضرم شجر طيب الريح.  
والمكتومة دهن يجعل فيه الزعفران أو الكتم.  
واللطيمة المسك.  
والمنشم عطر شاق الدق أو قرون السنبل.

والنمّام نبت طيب.  
والمهضومة طيب يخلط بالمسك والبان.  
والأشنة عطر أبيض مما يلتف على شجر البلوط والصنوبر.  
والبان شجر لحب ثمره دهن طيب.  
والجفن شجر طيب الرائحة.  
والحنون الفاغية أو نور كل شجر.  
والرقون الحنا والزعفران.  
والكنثة شيء يتخذ من آس وأغصان خلاف تبسط وينضد عليها الرياحين أصله كشنا أو هي نوردجة من  
القصب والأغصان الرطبة الوريقة تحزم ويجعل جوفها النور قلت ونحوها الكنثة.  
والميسوسن شيء تجعله النساء في الغسلة لرؤوسهن.  
والغالية طيب م.  
والفاغية النمامة وزهر الحناء والأفعاء الروائح الطيبة.  
والفاغية نور الحناء أو يغرس غصن الحناء مقلوباً فيثمر زهر أطيب من الحناء فلذلك الفاغية.  
والكباء عود البخور أو ضرب منه.

والكاذي دهن ونبث طيب الرائحة.

واللوة العود يتبخر به.

والندا شيء يتطيب به كالبخور.

### القسم الرابع في عمل الآنية والأدوات والمتاع والفرش

من الغرب جام من الفضة.

والشفارج الطبق فيه الفيحات والسكرجات.

والصراجية آنية للخمر.

والمطافح المغارف.

والبهار آناء كالأبريق.

والطرجهارة شبه كاس يشرب فيه ونحوه الطرجهالة والفنجانة ويقال للفنجانة الصغيرة سوملة.

والشوارف وعاء الخمر من خابية ونحوها.

والأكواب والاباريق والقوارير والكؤوس والطاس والصحون والعتد والخروس والصيعان والدنان

والصحاف والقصاع والزخ والقواري والحفان والعلاب والبواطي والمآكل والقعاب والنواجيد والعساس

والعسس والفدام والعسوف.

والجهمة القدر الضخمة.

والهيطلة القدر من صفر.

والمرجل القدر من الحجارة والنحاس.

والكفت القدر الصغيرة.

والهلاجاب القدر العظيمة وكذا البساط.

والتأمورة الإبريق والحقة والشميمة المشدودة الرأس.

والقعن الجفنة يعجن فيها.

والجام م ونحوه الصاع.

والمكوك طاس يشرب به.

والعيزار ضرب من أقداح الزجاج.

والسعوف الأقداح الكبار وأمتعة البيت وكل شيء حاد وبلغ من مملوك أو علق أو دار فهو سعف

وبالتسكين السلعة.

والورسيّ من أجود أقداح النضار.  
 والزوراء إناء من فضة.  
 والفائور الطست أو الخوان من رخام أو فضة والناجود والباطية.  
 والمهضومة الخوان من فضة.  
 والديسق خوان من فضة.  
 والقرقار إناء.  
 والمثبنة كيس تضع فيه المرأة مرآتها وادائها.  
 والعكم نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها.  
 والقشوة قفة من خوص لعطر المرأة.  
 والجؤنة سفت مغشى بجلد ظرف للطيب.  
 والعنيدة الطلبة أو الحقّة يكون فيها طيب الرجل والعروس وكذا الشريط.  
 والدرج حفش النساء الواحدة بهاء.  
 والصوان ما يصان فيه الثوب.  
 والتخت وعاء تصان فيه الثياب ونحوه العيبة والمبناة.  
 والأسطان آنية الصفر.  
 والأبزق حوض يغتسل فيه وقد يتخذ من نحاس.  
 والشجّاب خشبات منصوبة توضع عليها الثياب.  
 والغدن الغدان القضيبيّ تعلق عليه الثياب.  
 والققدانة غلاف المكحلة وخريطة من آدم للعطروغيره.  
 والحناجيد الحنجد قارورة للذرية ووعاء كالسفت الصغيرة ونحوه الحنجدور.  
 والبزّ الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها.  
 والعقار متاع البيت ونضده الذي لا يتبدل إلا في الأعياد.  
 والثقل كل شيء نفيس مصون.  
 والبتات الجهاز ومتاع البيت ونحوه المحاش والاثلة والشذب والززل والأهرة والرهاط والسفاطة ويقال  
 لقماش البيت خاش ماش وقاش ماش وقر بشوش.  
 والنجد ما ينجد به البيت من بسط وفرش.  
 والنضد السرير ينضد عليه.

والنضيدة الوسادة وما حشي من المتاع.  
والبورية الحصير المنسوج.  
والمور متكأ من آدم.  
والعَبْقَرِيّ ضرب من البسط.  
والرفرف ثياب تتخذ منه المحابس وتبسط - والفراش والوسادة والبسط.  
والزليّة البساط.  
والنَمَط ضرب من البسط.  
والمُسَخِّيّة نوع من البسط.  
والارض بساط ضخّم من صوف أو وبر.  
والنُسُج السجادات.  
والزرايى النمارق والبسط أو كل ما أتكي عليه، الواحد زربيّ.  
والرّحال الطنافس الحيرية.  
والنمارق الوسادة والمثيرة والطنفسة.  
والدرنوك ضرب من البسط.  
والوراك ثوب يزين به المورك وهو الموضع الذي يجعل عليه الراكب رجله.  
والبراطل البرطلة المظلة الضيقة.  
والظلل الظلة الغاشية وشيء يستتر به من الحر والبرد.

والمماطر الممطر ثوب صوف يتوقى به من المطر كالمطر.  
والأزفان الزفن ظلة يتخذونها فوق سطوحهم تقيهم من حر البحر ونداه.  
والسُرَادِقَات السراقد الذي يمد فوق صحن البيت والبيت من الكرسف ولا بد كذلك من اتخاذ النسيفة  
للحمام وهي حجارة سود ذات نخاريب يحك بها الرجل.  
ثم تزين تلك الدار السعيدة بالفسيفساء والسرّنج. الفسيفساء ألوان من الخرز تركب في حيطان البيوت  
من داخل والسرّنج شيء من الصنعة كالفسيفساء وبسرر مرملة أي مزينة بالجواهر ونحوها وبحجلات  
ومنصات وبأرائك وعروش وكراسي وطوارق من العاج "عظم الفيل".  
والساج شجر.

والشيزي خشب أسود للقصاع أو هو الآبنوس أو الساسم أو خشب الجوز والسمر شجر معروف.

والنضار خشب للأواني.  
والعيزار شجر.  
والضُّبَّار شجر البلوط.  
والسَّاسم شجر اسود أو الأبنوس.  
والشوع شجر جبلي يسمو.  
والشوحط شجر تتخذ منه القسيّ أو ضرب من النبع.  
والضبر شجر جوز البر.  
والصومر شجر الباذورج.  
والصنَّار الدُّلب.  
والسَّلام شجر. قيل لأعرابي السلام عليك قال الجشجات عليك قيل ما هذا جواب قال هما شجران مرَّان  
وأنت جعلت عليّ واحداً فجعلت عليك الآخر.  
والكنهيل شجر عظام.  
والبقس شجر كالاس ورقا وحبا أو هو الشمشاذ.  
والنشم شجر للقسي.  
والضَّال السدر البري وشجر آخر.  
والبقش شجر يقال له بالفارسية خوش ساي.  
والنبش شجر كالصنوبر ارزن من الآبنوس.  
والشحس شجر صلب.  
والميس شجر عظام.  
والوعس شجر يعمل منه البرابط والأعواد.  
والقطف شجر جبلي خشبه متين.  
ثم تزين بقوارير من البلور.  
والقطر ضرب من النحاس.  
والقلز النحاس الذي لا يعمل في الحديد.  
والفلز نحاس ابيض تجعل منه القدور المفرغة أو والبلنط كجعفر شيء كالرخام إلا أنه دونه في اللين.  
والبلق حجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج.  
والحكك حجر أبيض كالرخام.

والنهاء حجر أبيض أرخى من الرخام.  
والمُهْل اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ونحوهما.  
والهيصم ضرب من الحجارة أملس.  
ثم تمام زينة هذا المكان الشريف وثاب محشو بالعشر والحريملة. الوثاب السرير والفراش. والعشر شجر يحشى في المخاد ويخرج من زهره وشعبه سكر. والحريملة شجرة تنشق جراوها عن ألين قطن ويحشى به مخاد الملوك غير أني ارتكبت هنا غلطا فاحشاً في تأخيري في ذكر الفرash وهو أول ما يخطر ببال المرأة عند دخولها بلداً وهنا تم أثاث الدار. وفكرتك لم يزل مشغولاً بالحمار.

### القسم الخامس في عمل الثياب

الثرقيبّة وهي ثياب بيض من كتان مصر.  
والجلباب القميص وثوب واسع للمرأة.  
والسّكب ضرب من الثياب.  
والسّلاب الثياب السود.  
والقصب ثياب ناعمة من كتان.  
واللبية ثوب كالبقيرة.  
والنقبة ثوب كالإزار.  
والبظماج ما كان أحد طرفيه مخملاً أو وسطه مخمل وطرفاه منيران.  
والمعرّجة المخططة في التواء.  
والموثوجة ثياب رخوة الغزل والنسيج.  
والهبرج الموشى من الثياب.  
والمرحة المترج من الثياب ما صبغ صبغاً مشبعاً.  
والوجيح الصفيق من الثياب.  
والخوخة ضرب من الثياب اخضر.  
والوليخ ثوب من كتان.  
والثفايد ضرب من الثياب.  
والجماد ضرب من الثياب.  
والمعضدة المعضد ثوب له علم في موضع العضد.



والفرند ثوب م.  
والمقرمدة ثوب مقرمد مطلي بشبه الزعفران.  
والجسدة المصبوغة بالزعفران.  
والمقدية ثياب م.  
والهردية المصبوغة بعروق الهُرد.  
واللاذة ثوب حرير صيني.  
والبقطرية الثياب البيض الواسعة.  
والحصير ثوب مزخرف موسى إذا نشر أخذت القلوب مآخذه لحسنه.  
والخسروانية نوع من الثياب.  
والدثار ما فوق الشعار من الثياب.  
والسَّابرية الثياب الرقيقة الجيدة.  
والمسيرة المسير ثوب فيه خيوط.  
والصُّدرة ثوب م.  
والصُّدار ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشي الصدر.  
والعبقرية عبقر بلدة ثيابها في غاية الحسن.  
والمعجز ثوب تعتجر به المرأة وثوب يماي.  
والعشارية ثوب عشاريّ طوله عشرة أذرع.  
والعُقار ضرب من الثياب احمر.  
والقبطرية ثياب كتان بيض.  
والممر ضرب من تقطيع ثياب النساء.  
والمنيرة المنسوجة على نيرين.  
والباغزية ثياب من الخز أو كالحرير.  
والتوزية منسوبة.

والممرعة المرعزي الزغب الذي تحت شعر العنز.  
والمطرزة المعلمة.  
والمفروزة ثوب مفروز له تطاريف.

والقرمزية المصبوغة بالقرمز.  
والقهز ثياب من صوف احمر كالمرعزي وربما يخالطها الحرير.  
والتنسية تنيس دتنسب إليه الثياب الفاخرة.  
والمدمقسة الدمقس الابرسم أو القز أو الدياج أو الكتان.  
والقسية منسوبة إلى قس من أرض مصر.  
والكرباس ثوب من القطن الابيض.  
والمسلسة الموشاة المخططة.  
والنرسية نرسة بالعراق.  
والمورسة المصبوغة بالورس.  
والأكياش الثوب الذي أعيد غزله مثل الخز والصوف.  
والماجشون الثياب المصبغة.  
والمقفصة المخططة كهيئة القفص.  
والمحرضة المصبوغة بالإخريض للعصف.  
والعرضي جنس من الثياب.  
والمعرض ثوب تجلى في الجارية.  
والريطة كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة أو كل ثوب ليين رقيق.  
والسجلاط ثياب كتان موشية وكأن وشيه خاتم.  
والسُمط ثوب من صوف وبالكسر الثوب ليست له بطانة طيلسان.  
والمقطعات القصار من الثياب - أو برود عليها وشي.  
والمردعة التي فيها أثر طيب.  
والصدّيع ثوب يلبس تحت الدرع.  
والمضلعة المسيرة المخططة وما جعل وشيها على هيئة الأضلاع.  
والنصع ثوب أبيض.  
والموشعة المعلمة.  
والشرافي ثياب بيض.  
والشّف ويكسر الثوب الرقيق.  
والبندقية ثياب كتان رفيعة.

والمحقة المحكمة النسيج.  
 والخزراق الثياب البيض.  
 والدقيقة دبيق د بمصر.  
 والرتاق ثوبان يرتقبان بحواشييهما.  
 والرزاقية ثياب كتان بيض.  
 والمزبرة المصبوغة بجمرة أو صفرة.  
 والعلة ثوب بلا كمين - أو الثوب النفيس.  
 واللفاق ثوبان يلفق أحدهما بالآخر.  
 والمحكة الموثقة المخططة.  
 والمحول ثوب النساء.  
 والخملة الثوب المخمل كالكساء ونحوه كالخميل.  
 والخال الثوب الناعم وبرد يعني.  
 والدركل ثياب كالأرمنية.  
 والممرجل ثياب فيها صور المراحل.  
 والممرجل ضرب من ثياب الوشي "أورد صاحب القاموس التي بكسر الجيم في رج ل والتي بفتحها في مادة على حدتها.  
 والمرملة المرققة.  
 والسحل ثوب أبيض من قطن ونحوه المسحل.  
 والمسلسلة ثوب مسلسل فيه وشي مخطط.  
 والعقل الثوب الأحمر.  
 والمفللة الموشاة كالفلل.  
 والقسطانية ثياب منسوبة إلى عامل.  
 والوصيلة ثوب مخطط يمان.  
 والمهللة الرقيقة.  
 والآمية منسوبة.  
 والمبرم جنس من الثياب والثوب المفتول الغزل طاقين.  
 والجهرمية ثياب منسوبة من نحو البسيط أو هي من الكتان.

والمرسمة المخططة.  
 والمرقمة المخططة والرقم ضرب من الوشي أو الخز أو البرود.  
 والعقم المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر.  
 والقدم ثوب أحمر.  
 والقرا ثوب ملون من صوف رقم ونقوش أو ستر رقيق كالمقرم.  
 وأبي قلمون ثوب رومي يتلون ألوانا.  
 والملحم جنس من الثياب.  
 والنيم كل لئن من عيش أو ثوب.  
 والاختي الثوب المخطط.  
 والدفي ثوب مخطط.  
 والأرجوان ثياب حمراء.  
 والسبينة ثياب من حرير فيها أمثال الأترج.  
 والشئون اللينة من الثوب.  
 والشاذكونة ثياب غلاط مضربة تعمل باليمن.  
 والمعرجة المصور فيها أشكال العرجون.  
 والمعينة ما كان في وشيها ترايع صغار كعيون الوحش.  
 والمفنة ثوب مفنن فيه طرائق ليست من جنسه والمفوهة المصبوغة بالفوه "عبارة القاموس في فوه والفوه  
 كسكر عروق رقاق طوال حمراء يصبغ بها الخ. وفي فوي الفوة كالفوة عروق يصبغ بها".  
 والقوهي ثياب بيض.  
 والنهنة ثياب الرقيق النسج.  
 والمهللة المهله من ثياب كالمهلل.  
 والموجهة ما كان لها وجهان.  
 والمحشأ كساء غليظ أو أبيض صغير يتزر به أو أزرار يشتمل به.  
 والسبيجة كساء أسود.  
 والخسيج كساء من صوف.  
 والأضريح كساء أصفر والخز الأحمر.  
 والمسبح الكساء القوي الشديد ونحوه المشبح.

والسَّيَّح الكساء المخطط كالمنسج.  
والبجاد كساء مخطط.  
والبرُّجْد كساء غليظ.  
والجُودياء الكساء.  
والأغْثَر ما كثر صوفه من الأكسية.  
والخميصَة كساء أسود مريَّع له علمان.  
والمرط كساء منصوف أو خزج مروط.  
والشملة كساء دون القطينة.  
والطمْل الكساء الأسود والثوب المشبع صبغا.

والماري كساء صغير له خطوط مرسلَة.  
والشرعيّ ضرب من البرود.  
والعصب ضرب من البرود.  
المكعب الموشى من البرود والأثواب والثوب المطوي الشديد الأدراج.  
والخلاج ضرب من البرود المخططة.  
والشيخ برد يمني.  
والقُرْدَح ضرب من البرود.  
والسعيدية ضرب من برود اليمن.  
والسنْد ضرب من البرود.  
والبقير برد يشق فيلبس بلا كمين كالبقرة.  
والحبرّ ضرب من برود اليمن مفردة حبرة كعنبَة.  
والحبير البرد الموشى والثوب الجديد.  
والسيرا نواع من البرود فيه خطوط صفراء أو يخالفه حرير.  
والمطير ضرب من البرود.  
والقطر ضرب منها.  
والمشيز المخطط بحمرة.  
والمريش البرد الموشى.

والقُوفُ ضرب من يرود اليمن ويرد مغُوف رقيق أو فيه خطوط بيض.  
والنصيف الخمار ومن البرد ما له لوانان.  
والبركة برد يعني.  
والمرجل برد يعني.  
والمرجل ما فيه تصاوير رحل.  
والتَّحمة البرود المخططة بالصفرة.  
والأَتْحَميَّ برد معروف.  
والمسهم البرد المخطط.  
والقُطيفة رداء مخمل والمُطَرَف رداء من خز مربع له أعلام.  
والجنية رداء من خز.  
والجيم الديباج.  
والسُّندس ضرب من البزبون أو ضرب من رقيق الديباج.  
والأَسْتَبْرَق الديباج الغليظ أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب حرير صفاق.  
والمشجر المشجر من الديباج ما كان فيه نقش كهيئة الشجر.  
والسَّبَّ شقة رقيقة كالسببية.  
والطريدة شقة مستطيلة من الحرير.  
والسرق شقة الحرير الأبيض أو عامة.  
والبِت الطيلسان من خز ونحوه.  
والسُدُوس الطيلسان الأخضر.  
والطلس الطيلسان الأسود.  
والطاق الطيلسان أو الأخضر.  
والساج الطيلسان الأخضر والأسود.  
والصُّتية الملحفة أو ثوب يعني.  
والشَوَذر الملحفة والأثب.  
والدُّواج اللحاف الذي يلبس.  
والمشمال ملحفة.  
واللفاع الملحفة أو الكساء أو النطع أو الرداء وكل ما تتلفع به المرأة والمرجل أزار خز فيه علم.

والمُدَارَةُ الإِزَارُ المَوْشِي.  
 وَالْحَقُّو الإِزَارُ ومثله الخِصَار.  
 وَالصَّدَاد ما اصطدمت به المرأة وهو الستر.  
 وَالْفُوطُ ثِيَابٌ تَجْلِبُ مِنَ السِّنْدِ وَمَآزِرُ مَخْطُطَةٌ.  
 وَالدُّثَارُ ما فوق الشَّعَارِ مِنَ الثِّيَابِ.  
 وَالْحُلُّ واحدتها حلة وهي أَزَارُ وِرْدَاءُ وَبِرْدُ أَوْ غَيْرُهُ وَلَا تَكُونُ حِلَّةً إِلَّا مِنْ ثَوْبَيْنِ أَوْ ثَوْبٍ لَهُ بَطَانَةٌ.  
 وَالسَّرِيَالُ القَمِيصُ أَوْ الدَّرْعُ أَوْ كُلُّ مَا لَبَسَ.  
 وَالْفُرْطَقُ لَبَسٌ م.  
 وَالْيَلَمَقُ القَبَاءُ مَعْرَبٌ يَلْمُهُ.  
 وَالْقَرَقَرُ لِبَاسُ الْمَرْأَةِ.  
 وَالْقُرْزَحُ لِبَاسٌ كَانَ لِنِسَائِهِمْ.  
 وَالْمَفْضَلُ الْمَفْضَلُ وَالْمَفْضَلَةُ الثَوْبُ الَّذِي تَتَفَضَّلُ فِيهِ الْمَرْأَةُ أَيِ تَتَوَشَّحُ.  
 وَالْحَقَابُ شَيْءٌ تَعْلُقُ بِهِ الْمَرْأَةُ الْحُلِيَّ وَتَشْدُهُ فِي وَسْطِهَا كَالْحَقَبِ.  
 وَالنَّطَاقُ شَقَّةٌ تَلْبَسُهَا الْمَرْأَةُ وَتَشْدُ وَسْطِهَا فَتُرْسِلُ الْأَعْلَى عَلَى الْأَسْفَلِ إِلَى الْأَرْضِ وَالْأَسْفَلُ يَنْجَرُ عَلَى الْأَرْضِ أَلْخَ.  
 وَالْمَجْنُ الْوَشَّاحُ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَابِ الْحَلِيِّ.  
 وَالْأَتَبُ بَرْدٌ يَشُقُّ فِتْلِسَهُ الْمَرْأَةُ مِنْ غَيْرِ جَيْبٍ وَلَا كَمِينَ وَالْبَقِيرَةُ وَدَرَعُ الْمَرْأَةِ.  
 وَالْجَوْبُ دَرَعُ الْمَرْأَةِ أَيِ قَمِيصِهَا.  
 وَالْأَصْدَةُ قَمِيصٌ يَلْبَسُ تَحْتَ الثَّوْبِ.  
 وَالْخَيْلَعُ الْقَمِيصُ بِلَا كَمٍّ.  
 وَالرَّادَعَةُ قَمِيصٌ قَدْ لُمِعَ بِالزَّعْفَرَانِ أَوْ بِالطَّيْبِ.  
 وَالْقُمُصُ السِّنْبِلَانِيَّةُ أَيِ السَّابِغَةُ الطَّوْلُ أَوْ مَنْسُوبَةٌ إِلَى بَلَدٍ بِالرُّومِ.  
 وَالشَّعَارُ ما تَحْتَ الدُّثَارِ مِنَ اللِّبَاسِ وَهُوَ يَلِي شَعَرَ الْجَسَدِ وَيَفْتَحُ.  
 وَالْقَدْعَةُ الْمَحْوَلُ وَهِيَ الدُّرَّاعَةُ الصَّغِيرَةُ.  
 وَالْجَيْدُ الْمَدْرَعَةُ الصَّغِيرَةُ.  
 وَالْغَلَالَةُ شَعَارٌ تَحْتَ الثَّوْبِ كَالْعُلَّةِ.  
 وَالْهَفَافُ الْهَفَافُ مِنَ الْقَمِيصِ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ كَالْهَفَافِ.

والشليل الغلالة تلبس الدرع.  
والقرقل قميص للنساء أو ثوب لا كمّين له.  
والغطاية ما تغطت به المرأة من حسو الثياب كغلالة ونحوها.  
والفرّوة معروف.  
والسبّنجونة فروة من الثعالب.  
والشعراء الفروة.  
والسُتقة فروة طويلة الكم.  
والخَيْعَل الفرو أو ثوب غير مخيط الفرجين أو درع إلخ.  
والمُعَقَّب الخمار للمرأة.  
والتَّقَاب ما تنقب به المرأة.  
والخِمار النصف وهو العمامة وكل ما غطى الرأس.  
والوصاوص البراقع الصغار.  
والمِقْنَعَة ما تقنع به المرأة رأسها والقناع اوسع منها.  
والعِصَابَة ما عُصِبَ به والعمامة.  
والسَيِّدَارَة الوقاية تحت المِقْنَعَة والعِصَابَة.  
والعِمَارَة كل شيء على الرأس.  
والعَمَر مندبل تغطي به الحرّة رأسها.  
والخنبة مقنعة صغيرة للمرأة.

والبُخْنَق خرقه تتقنع بها الجارية فتشد طرفيها تحت حنكيها لتتقي الخمار من الدهن والدهن من الغبار  
والبرقع والبرنس الصغيران والصَّقَاع البرقع - وخرقة تقي الخمار من الدهن كالصوقعة ونحوها الغفارة.  
والقُنْبَع خرقه تخاط شبيهة بالبرنس والخنبة أو شبهها.  
والقُتْرَعَة التي تتخذها المرأة على رأسها كالقنذعة.  
والهُنْبَع شبه مقنعة للجواري وقد خيط مقدمها والقُرْزَل الشيء تتخذه المرأة فوق رأسها كالقترعة.  
والجُنّة خرقه تلبسها المرأة تغطي رأسها ما قبل ودبر غير وسطه وتعطي الوجه وجني الصدر وفيه عينان  
محبوبتان كالبرقع.  
والتسّاحين الخفاف وشيء كالطيالس.



والجراميق الجرموق الذي يلبس فوق الخف.  
والكوث القفش الذي يلبس في الرجل أي الخف القصير.  
والران كالحف إلا أنه لا قدم له وهو أطول من الحف.  
والجورب لفافة الرجل وجوربته البسته اياه.  
والقفاز شيء يعمل لليدين يحشى بقطن تلبسهما المرأة للبرد أو ضرب من الحلي إلخ.  
وتمام هذا كله ثلثمائة وخمسة وستون حبساً ومثلها مقارم. الحبس سوار من فضة يجعل في وسط القرام.  
والمقرمة محبس الفراش ومثلها سراويل من الأرنباي الخز الأدكن.  
والسنا ضرب من الحرير.  
والأردن ضرب من الخز.  
والطاروني ضرب منه والطران الخز.  
والقتين الخز المطبوخ الأبيض.  
والبرس القطن أو شبيه به أو قطن البردي.  
والشريع الكتان الجيد.  
والقز الابرسم وهو الدمقس ويقال أيضاً الدقمس والمدقس.

وقد زل بي القلم أيضاً زلة ثانية فإن السراويل يجب تقديمها على جميع ما سواها ليطابق الذكر الفكر. ثم أنك إذا أخذتها إلى ساحات المدينة وأسواقها حيث تزدحم الناس فأول ما تلمح فرهداً غسانياً غيسانيا تقول هذا يصلح لأن يكون زير نساء ولأن يركب الجياد ويتقلد السيف ويعتقل الرمح ويطعن به. أو غلاماً مترعراً قالت هذا يصلح لأن يربي في المدرسة الزيرية حتى ينبح. أو كهلاً قالت وهذا جدير بأن يقعد في بيته ويتعاطى الغزل والنسيب ليجهز ما يلزم لتلاميذ المدرسة منه. أو شيخاً هماً هرمماً قالت وهذا قمين بأن يكون مشيراً في الأمور التي تعسر على الأغرار من الخريجين فيكفيهم النصب في إيشائها. فإن لم يلف عنده الرأي السديد فليدرج في كفن ويرمس هذا وفكره لم يزل مشغولاً بالحمار أو بالا كاف. فأما وجه كون مشاعرها أنفع فلأنه قد جرت عادة من شاخ من ذوي الأمر والنهي إنه إذا جفّ دمهم وضوى لحمهم حتى لم يعد التدثر بالثياب يدفعهم شاعروا واحدة من هؤلاء النواعم فاستغنوا بحرها عن حرارة الدثار والنار والأبازير والأحسن في ذلك أن تكون جارية عذراء. وقد اختلفوا في علة الحرارة ومآتاها. فبعضهم على أن نفسها من فيها هو الذي يدفع المقرر. وأعترض بأن هذا النفس لا بد وأن يختلط بالشنب فيبرد. وغيرهم على أن منفذ الحرارة إنما هو من المسام التي ينبت فيها الشعر. فإن المرأة لما

كانت مفتوحة المسام كان صعود الحرارة منها ابلغ. بخلاف الرجل فإن مسامه مسدودة بما له من الشعر. ورد بأن الأمرد مثل المرأة في كونه مفتوحها ولم يقل أحد بأن مشاعرتة تدفئ. وذهب بعض إلى أن الحرارة إنما هي النفس من انفها. وقال قوم من المتهافين على الجناس إنها من موضع آخر. قال في القاموس تكوّن الرجل بامرأته تدفأ واصطلى بحر جسدها. قلت ومع حرص المؤلف على جميع الألفاظ الغريبة النادرة لم يذكر فعلاً يدل على اصطلاء المرأة بحرارة جسد الرجل. ولهذا أي لأجل أن جسم المرأة من الحرارة ما لا يوجد في جسم الرجل كان أخف ما يكون من الدثار يدفئها ولو في الصّر. والرجل إذ ذاك يُكهى ويقفقف ويقرعبّ ويترقف. ومثله غرابة أن أكلها يكون أقل من أكل الرجل ولحمها أكثر من لحمه. قال المتكلمون ووافقهم على ذلك الأطباء النطاسيون. أن مما فضل الله سبحانه المرأة به أن جعل فيها قوة حج الخصم وهداية الضال إلى الدين القويم. وأوردوا على ذلك شاهداً ما جرى لذلك المعتزلي مع امرأته. وذلك أن بعض المشاهير من علماء المعتزلة الذين يزعمون أن أفعال العبد ليست مخلوقة لله كان يجادل أهل السنة ويورد لهم من الأدلة والبراهين على تأييد مذهبه ما يربكهم به. فانبرت له امرأة لبيبة سنية وقالت لقومها زوجوني به فأخصمه في ليلة واحدة أن شاء الله فبات معها تلك الليلة على الحادة. حتى إذا قضى لها ثم تنقل بعده وتطوع وظن أنه استحق الثواب وخلق بالاغتماض. قالت له وأين الرابع والخامس والعاشر يشرّواض. فتجلد لآخر ثم قال قد نفذ ما في الوطاب. فلا ملام ولاعتاب. قالت أمثلك من يبدي هذا الاعتذار. وأنت تقول أن الأفعال غير مخلوقة للواحد القهار. قال قد نهيت من كان غافلاً. وهديت من كان ضالاً. أي عديت عن مذهبي القديم. وقد هداي الله إلى الصراط المستقيم. قلت ويعلم من كتب التاريخ أن المرأة لها أعظم مدخل في دخول النصرانية في بلاد الإفرنج. قال بعض الظرفاء من الأدباء أن المرأة إذا رامت أن تشتري حاجة أو تستقصي أحداً شيئاً لم يلزمها أن تنقد البائع أو القاضي مالا. وإنما تنقده العين من العين. قال ولذلك جاء هذا الحرف بالمعنيين. بخلاف الرجل فإنه إذا أراد قضاء شيء أيا كان ولاسيما النشينة فلا بد وأن يحل عقده بنفائات الدرهم أو الدينار. وإنها أيضاً إذا توحمت على شيء تحبه وهي حبلى ظهر ذلك الشيء المتوحم عليه في الولد. فينبغي للأب أن يتفقد ولده ليعلم أي شكل من الأشكال بدا في أجسامهم. وما أنكره منها فليمتلكه قال وإن القدرة الخالقية قد أوجدت لها من النبات وغيره أشكالا كثيرة تقر بها عينها وينشرح صدرها إذا نظرهما أو لمستها وليس للرجل شيء من هذه الخصائص.

وإن امرأة واحدة إذا كانت في مجلس قد اجتمع فيه عشرون رجلاً أمكن لها أن تهتد بهم جميعين. فتتصبي هذا بلفظة. وذلك بلحظة. وذا بغمرة. وذاك بهجلة. وآخر بخزرة وغير بتحشيفة وآخر باسجادة.

وغير بزفرة. وآخر بالتفاته. وغيره بليّة جيد. وآخر بشمّة. وغيره بترنزة. وآخر بعضّة على لسانها. وغيره باخراجه ونضنضته. وآخر بضم شفتيها وانفاصمهما. وغيره بعرض عارضها. وآخر بتفيء شعرها. وغيره بابتسامه. وآخر بضحكة. وغيره يقهقهة. فيقوم الجميع عنها راضين. وابرع ما تكون المرأة ما إذا جلست بين زمرة من الفتيان يغازلونها ويداعبونها ويتملقونها. قال ومن خصائصها أيضاً إنها تعرف ما في قلوب الرجال. فلذلك تفتنهم بوكوكتها وحركتها وتمعدهم وتصيبهم. وتبيلهم وتشجيهم. وتحسّرهم وتبيلهم. وتطريهم وتشغلهم. وتعبدهم وتمندهم وتتيّمهم وتهمهم. وتشوقهم وتروعهم. وتعوقهم وتلوعهم. وتؤرقهم. وتبيهم. وتشرقهم وتشبيهم وتخلبهم وتسحرهم. وتحركهم وتبهرهم. وتبيعهم وتشترتهم. وتجيعهم وتصديهم وتقليهم وتفأدهم. وتراهم وتصدرهم. وتكبدهم وتطلحهم. وتمعدهم وتفخذهم. وتبطنهم وتستهم. فأما ما قبل في خصائص فرنستها من أنها تحسن أعمال البيت كالخياطة والتطريز وغيره فمذكور في كثير من الكتب فعليك بمراجعتها. انتهى الكلام. الآن على المرأة بغير مرء على أن عندي منه ما عند الفراء من حتى.

قال بعض معاتيه العلماء المرأة كلها شرّ. وشر ما فيها أنه لا بد منها. قلت وهو كحلّم جحي نصفه صدق ونصفه كذب. فالصادق منه قوله إنه لا بد منها.

### رثاء حمار

أهلاً بك يا فارياق أين أنت وفيم كنت هذه المدة الطويلة - في نظم الأبيات السرية - ولكن هذا معلوم عندي ولم أسألك إلا عن أمر حديث - قد فجعت بالأمس بحمار لي وسألت عنه الجيران فلم يقل أحد منهم أنه سرقه. فاكترت منادياً بدرهم فجعل ينادي في الأسواق ألا قد فرّ اليوم حمار الفارياق وخلى قيده في الوند فهل منكم من رآه. فلم يجبه أحد إلا بقوله ما أكثر الحمير الآبقة اليوم من بيوت موالها. فلما عاد إليّ بهذه البشرى بلغ مني الغيظ كل مبلغ. وآليت أن لا انظر بعدها في وجه حمار سواء كان حقيقياً أو مجازياً. فقد قال بعض أئمة اللغة أن من خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها أن يقال للرجل الجاهل حمار. ثم أخذت ارثيه بهذه الأبيات وهي:

وما رأى أثره في الناس من أحد	راح حمار وخلى القيود في الوند
أم مجزئي قيده لو كان من مسد	فهل أنا راكب من بعده وتداً
فيها وأنزل عندي منزل الولد	أم كيف أدخل داراً كان لي سكناً
كالطفل من شفق سرهدته بيدي	سرهدته بيدي كالطفل من شفق

وجثته بشعير لا يخالطه  
 وكان يوقظني منه النهاق إذا  
 ماس ولا عسجد خوفاً من الدرد  
 استنقلت نوماً بصوت مطرب غرد  
 كم حاد بي عن مضيق حين أبصر من  
 وسار بي في طريق بلّ جانبها  
 أهل الجمال تبلى الأرض بالزبد  
 زفاف خود إليها بالغ الأمد  
 وإذ تبين نعشا للجنّازة لم  
 ما ضل يوماً عن استقراء معلفه  
 وما شكا قط من وخز ولا ضعف رج  
 شلت يدا من به ولّى وغادرني  
 أعالم أنني من بعده جزع  
 وأن صوت المنادي اليوم يزعق أن  
 لا يغرنك رغد أنت واجده  
 قائماً ذا لحين أنت تعلمه  
 يفديك كل حمار ندّ من بطر  
 أو حار من شبق قلاب جحفلة  
 مصنع الرأس ممشوق القوائم لم  
 ألية إنه بالطرق أعرف من  
 ياليت لي خصلة من ذيله أثراً  
 عند الحرامي خصمي فيك من حسد  
 ما دام شهراً على طرف ولا عند  
 أوضح من لغب أو خار من جهد  
 كرفّاف بول قديم جفّ كالقدد  
 يحرن إذا سُمته خسفاً ولم يجد  
 مولاه أن لم يعقه القيد ذو العقد  
 أرنو إليها كما يرني إلى الخرد

قالت فقلت له قد ضاع شعرك في الحمار العادي، كما ضاع الدرهم في المنادي. قال أما الدرهم فقد ضاع حقاً وأما الحمار فلا. قلت كيف ذلك والدار منه بلقع. قال من عادتي إنني إذا فقدت شيئاً وذكرته في الشعر خيّل لي أنني عوّضت عنه. فإن لم أذكره بقيت متحسراً على فقدته. قلت أو يقوم النشر مقام النظم قال ربما يقوم عند بعض الناس. فقد بلغني أن كثيراً من المؤلفين كانوا يحاولون إدراك أوطار حرمهم منها قلة ذات اليد فألفوا فيها كتباً واستغنوا بها عنها. قلت من قال ذلك؟ قال هم قائلوه. قلت هذا محض كذب فإني ألقت في النساء كذا وكذا رسالة وما خطر ببالي قط إنني عوّضت عن واحدة من وصفت.

قال ولم الفتها إذاً قلت لم يكن لي من شغل ولا حركة، ووجدت الزمان عليّ ولا سيما الليالي من دون مباشرة شيء ما فلفقت ما كان يخطر ببالي. قال وهلاً تفرح الآن بتأليفك إذا قرأته أو إذا سمعت أن الناس يقرءونه. قلت بل اضحك من سخف عقلي وقتئذ. فإني قد عرضت عرضي لأسن القادحين فضلاً عن كوني أضعت أوقاتي عبثاً فيما لم يجدي نفعاً. وقد بلغني أن كثيراً من المتزوجين ساءهم ما قلته في النساء وذكر مكايدهن فاستظهروا عليّ بجماعة من العلماء عابوا عليّ تبويب كتيبي وخطأوني في عبارتها. وكنت أيضاً حكيت كلاماً عن بعض النساء بلفظه فقالوا لا ينبغي أن يحكي الكلام بلفظه في الكتب وغير ذلك مما نذمني كثيراً. قال قد سمعت أن الناس لا يزالون يعادون المؤلف حال حياته. فإذا مات حرصوا على كلمة يأترونها عنه كما قال الشاعر.

ما دام حيّاً فإذا ما ذهب

ترى الفتى ينكر فضل الفتى

يكتبها عنه بماء الذهب

لجّ به الحرص على نكتة

قلت وما نفع هذا الحرص لمن مات. قال لا نفع منه غير إني أرى أن في النظم للذة عظيمة. ولا بدّ وأن يكون النشر أيضاً مثله فإنهما كليهما يخرجان من مخرج واحد أفلا تقول بصحة ذلك. قلت إني أقول باللذة في التأليف من جهة أن المؤلف يعرف شيئاً جهله غيره. ولا شك أن في معرفة الحقائق لذة. غير أنه يقابلها من الألم ما يرجحها. وذلك أن المؤلف إذا عرفت مثلاً حقيقة وأراد أن يعرف غيره إياها وجد أكثر الناس قد صُموا عن سماعها. ومثل ذلك مثل طبيب نصوح رأى أهل بلدة يستحمون بالماء البارد في حال كونهم محمومين. فنصح لهم أن لا يفعلوا ذلك فأبوا وقالوا أن هذه البرودة تزيل الحرارة. فهو من جهة أنه عارف بالحقيقة مسرور. ومن جهة إنه يرى غيره في ضلال عنها محزون. وسروره لنفسه لا يوازن حزنه على غيره. ألا ترى أن أهل العلم كلهم ضعاف ضاوون قليلو الكلام والنوم والأكل والضحك. وأن الجهال سمان تارّون أصحاب كثير الأكل والنوم وغيره مما جعل لتقويم الطبيعة.

قال فما بال الأطباء سمان أيضاً وهم بمنزلة العلماء في كونهم يعلمون من المنافع ما يجهله غيرهم. قلت أن الكبير لا يرى الناس حين يأكلون ويشربون ويباعلون. وإنما يراهم حين يمرضون فلا تحزنه أفعالهم. فأما العالم فإنه في كل وقت ومكان يرى من العامة ما يدل على ضلالهم وجهلهم. فلا يمكنه والحالة هذه إلا أن يتأسف على ما هم فيه من الغباوة. والغفلة. قال أفتقولون إذا بالجهل. قلت هنيئاً لمن رضي به.

قال وما قولك في الشعر. قلت ان كان هو لمصلحة أي شيء يعود إلى القيام بأودك فنعيم هو. وإن يكن عن مجرد هوس وميل إلى التجنيس والترصيع أيان رأيت امرأة جميلة أو وردة روضة كما هو داب أكثر الشعراء يتكلفون للنظم في كل ما لاح لهم أو كرتائك الحمار الآن فتركه أولى. قال ولكن احسن الشعر

ما جاء عن هوس أي عن السليقة لا بالتكليف. فإني حين أمدح السريّ أجد في ضم لفظة إلى أخرى ما يجده المعاني لضم نقيضين مختلفين. وليس كذلك ما نظمته في الحمار. فإني نظمت فيه هذه المراثية في ساعة من الزمن. قلت لكن الناس لا ينظرون إلّا الظاهر. فقصيدتك في الحمار يسمونها حمارية. وأبياتك في السري سرية.

قال أن كان الأمر كما ذكرت فلم رغبت عن تأليف ولكن لا في النساء فإن ذلك أمر مستفيض. قلت إما أولاً فلان المؤلف يوقع نفسه في كلاليب السنة الناس فيمزقون عرضه وجلده كما ذكرت لك آنفاً. والثاني فإن حقيقة اسم المؤلف غير محمود. فهو عند من يعلم حقيقة معناه بمعنى الملقق واكثر الناس يضحكون من هذا الحرف. فيحسبون أنه من التأليف بين شخصين. وإنما يقولون لمن تعاطى ذلك شيخ. وهو أيضاً مكروه عند بعض الناس وخصوصاً عند النساء. وأحسن الألقاب هنا فيما أرى عند النصاري قسيس وعند المسلمين بيك. أما القسيسين فلأن كل الناس تلثم يده وتترك بذلك. وأن المرأة من القبط لتغسل رجلي القسيس بيديها بماء الزهر ثم توعي ماءهما في زجاجة. وإنه متى جاع حمل أمعائه إلى دار أحد من معارفه فاستقبلته زوجته بالبشاشة والإكرام فزعبها أي زعب. وإذا شاء أن يقي في بيته لعارض من العوارض بعث غلامه بعلامة إلى أحد البيوت فجاءه منها بغداء ينظم فيه شعراء عصرنا قصائد. فأما البيك فإنه وأن يكن مقامه بين الناس كريماً إلا إنه لا يمكنه أن يبلغ من البيوت ما يبلغه القسيس. إذ لا يتأتى له أن يمشي وحده. فلا بد وأن يمشي معه اثنان عن اليمين والشمال وهما وأن اظهرا له الخضوع والاحترام ففي قلوبهما منه حزازات تبعثهما على مراقبته والتعنت عليه اللهم إلا إذا تزياً بزري خادم له وقح فظاهر اللباس يجبي عنه العين. قال هيهات أن أصير قسيساً. هيهات أن أصير بيكاً. أما حرفة القسيس فلها لا تصلح لي لأني لا أحب الركافة. وأما صفة البيك فإني لا أصلح لها فإن القدرة الأزلية لم ترتض لي منذ الأزل بالبوكية للبيكية. وما بقي أمامي إلا الشيخية. قد توكلت على الله قلت إني مفارقك على أن تخبرني بما سيحدث لك في شيخيتك. قال سأفعل ذلك أن شاء الله.

### ألوان مختلفة من المرض

ثم لازم الفاريق نظم الأبيات وهو حريض على الاتسام بسمة الشيخ فعنّ له أن يقرأ النحو على بعض المشايخ لما إنه رأى ان القدر الذي كان تعلمه منه في بلاده لا يكفي لممدح السري. وفي ذلك الشهر الذي نوى فيه القراءة أصيب برمد أليم. فلما أفاق شرع في العلم فقرأ على الشيخ مصطفى كتباً صغيرة في النحو والصرف. ثم اشتد به داء الديدان الذي سببه فيما قيل أكل اللحم. نياً. وتلك عادة مشهورة

عند أهل الشام. فكان يتمعص منه وقت القراءة والشيخ يظن أن ذلك من اختلاف المسائل وكثرة التعليل حتى قال له مرة سبحانه الله ما أحد قرأ عليّ هذا الفن إلا ويتمعص. فقال له ليس التمعص كله يا سيدي الشيخ من زيد وعمر. فإن لجماعة الديدان أيضاً مدخلاً. فإني لا آكل شيئاً إلا وسبقوا معدتي إليه. قال لا بأس عليك عسى أن يخف عنك بركة العلم. واتفق للفاريق وقتئذ أن سألته أحد معارفه أن يقرأ على الشيخ المذكور ذلك الكتاب الذي تقرأه النصارى في الجبل. وهو كتاب بحث المطالب. فلما ختمه التمس من الشيخ أن يكتب له إجازة إقرائه في بلاده. فكتب له إجازة وعرضها على الفاريق. فحين تصفحها رأى فيها خطأ في اللغة والإعراب. فاستأذن من شيخه أن يوقفه على الغلط فلما وقف عليه قال سأكتب له غداً أخرى. ثم كتب له إجازة غيرها فلما أمعن الفاريق فيها النظر إذا بها كالأولى. فنبه شيخه على ما فيها. فقال له اكتب له أنت عني ما شئت فكتب له ما اعجب به على أن الشيخ كان مضطرباً بفن النحو غاية ما يكون. فكان يقضي ساعة تامة في شرح جملة غير تامة. إلا لم يكن يزاول الإنشاء والتأليف فكان علمه كله في صدره وعلى لسانه ولا يكاد يخرج منه إلى القلم شيء.

ثم بعد قراءة النحو على النسق المذكور راجع الفاريق وجع العينين. فلما أفاق رأى أن يقرأ شرح التلخيص في المعاني. فشرع فيه مع الشيخ أحمد. فلم يسر فيه قليلاً حتى أصابته الحكمة ولم يكن قد عرفها في مبادئها فلماذا استمر على القراءة. حتى إذا كان الشيخ آخذ مرة في شرح مسألة معضلة ثارت الحكمة في بدن الفاريق فجعل يحك بكلتا يديه. فألثفت إليه الشيخ فراه منهمكاً في الحك فقال. له ما بالك تحك وأنت على ما يظهر لي غير منتبه لقليل وأجيب هل نحن الآن في محاكمة الألفاظ أو في محاكمة الأعضاء. قال لا تؤاخذني يا سيدي فإني أرى لذة الحك مانعة لي من التنبه لغيره. قال أوبك الحك قال لعلها هي فنظر الشيخ إلى يديه فقال هي والله فينبغي أن تفتصر في بيتك وتطلي جسمك بخراء الكلاب فليس لها من علاج سواه. فلزم الفاريق بيته وجعل يطلي بدنه كل يوم بالخرء المشار إليه ويقعد في الشمس ساعات حتى لقي من ذلك عذاب الهون.

ثم لما أفاق رجع إلى القراءة وبعد أن ختم الكتاب عاودته ضريبة الرمد ثم نقر في رأسه أن يقرأ شرح السلم للأخضري في المنطق فشرع في قراءته على الشيخ محمود فأصابته الهیضة وهي الداء المسمى في مصر بالهواء الأصفر فبقي ثلاثة أيام لا يعي ولا يعقل من الدنيا شيئاً ولا يقدر على النطق. سوى أنه سمعه خادمه مرة يهذي ويقول كلية. موجبة كبرى. فظن أنه يستعظم مصيبتة فيقول أنها كبرى. ولم يكن أحد أصيب بهذا الداء في مصر. فلما مضت ثلاثون يوماً أنتشر في البلد وعمّ بلاؤه والعياذ بالله فكان يموت به كل يوم ألوف. ووقتئذ عرف الفاريق أنه كان المقدم في هذه البلية وغيره التالي كما تقول المناطقة. وأن

الديدان التي كان يقاسي منها هي التي عجلت له بهذا الداء فجعل هو بها. فجعل أي الفاريق يركب حماره ويطوف في الأسواق وكأنه آمن من المقدور. "حاشية لم يكن هذا الحمار ذلك الذي أستحق الرثاء. والتأبين بل كان ممن يحق له التفریط.

فسار إلى قرية في الريف ومعه خادمه وخادمته. فعلم به بعض ولاة البلاد فأستدعى به وبالخادم والخادمة. وقال له لبيب هل هذا وقت الموت أو وقت الإيلاد حتى جئت بهذه الجارية هنا. قال أنا مداح السريّ وقد أتيت لأسرح ناظري في نظرة الريف فأجيد مدحه بعد موت من يموت. فقد ضقت بالمدينة ذرعاً وخشيت على قريحتي العقم. قال ما هذه وأشار إلى الخادمة. قال هي أخت هذا يعني الخادم. قال وما هذا. قال خوليّ هذا يعني الحمار. فألتفت الأمير إلى الخادم فرأى عليه طلاوة. فقال له من حيث أنك شاعر السريّ أو شعوره فلا تثريب عليك. وإنما ينبغي أن تترك الخادم هنا فإنه يصلح لخدمتي. قال لك على الإمرة فخذ فاستبد به الأمير تلك الليلة وسأله عن الفاريق ملحاً. فقال له الخادم والله يا سيدي إنه رجل طيب غير إنني أظن أنه أعجمي فإني لا أكاد أفهمه حين يتكلم بلغتنا. فلما أصبح الصباح تأهب الفاريق للرجوع فلم يجد الحمار. فظن أنه لحق الأول. فجعل يبحث عنه فوجده قد خرج مع حمار آخر من حمر الأمير إلى سهل وهو تحته يزقع وينخر. فلما أن رآه على حاله المفعولية غلبه الضحك فقال قد ورد الحديث أن الناس على دين ملوكهم. إلا أنه لم يقل أحد قط أن الحمير على مذهب أصحابها. ولكن بالعبير ولا بالمعير.

ثم رجع إلى الدار فوجد خادمه وخادمته ينتظرانه. وقال له الخادم قد سرحتني الأمير فإنه لم يرني أهلاً لخدمته إلا ليلة واحدة وها أنا الآن حر. ثم أن الفاريق بعد أن هنا الأمير ومراه رجع إلى مصر وكان البلاء قد خف. فسأل عن شيخه المنطقي ف قيل له أنه حي لم يقض من القضايا فرجع إليه وأتم ما كان أبتدأ به فلما بلغ آخر درجة من المسلم عاودته ضريبة الرمد فلزم بيته. فلما أفاق رأى أن يتعلم شيئاً من الفقه وعلم الكلام. فبدأ بالكثر وبالرسالة السنوسية فمرض - فرآه بعض معارفه من الفرنساوية فسأله عن سبب ضعفه فأخبر الخبر. فقال له أنا أشفيك منه بأذن الله ولكن على شرط أن تعلم أبني العربية. فقال حباً وكرامة فشرع مذ ذلك الوقت في تعليمه وفي تعاطي الدواء من عند أبيه. ولكن لا بدّ لتفصيل ذلك من فصل على حدته.

### دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب

كان هذا الرجل طبيباً مشهوراً بمصر. ولكن شهرته في دائه أكثر منها في دوائه. وذلك أنه كان قد تزوج



جارية تارّة على كبر سنّه فأولدها بنتاً وصبيّاً. ثم عجز عن أداء حقّها فجعل دأبه الملاطفة لها والتملق. وتلك عادة الرجل مع المرأة من أنّه كلما قصر أعتابها وإرضائها في الحقوق الزوجية زاد حرصه عليها وكلفه بها وتردّ به لها. توهّم أن هذا يسد عند المرأة مسد ذلك. وكذا حالته معها إذا كان يخونها ويرأم أخرى. كما أن دأب المرأة أن تزيد هشهشتها وعروبيتها لزوجها بزيادة إشباعه إياها وأطفاف الكيل لها. أو تملقها له إذا كانت تخونه.

وبناء على ذلك قال الطبيب لزوجته يوماً من الأيام. يا هذي أني أرى أن قد صدئ مفتاحي عن قفلك. وأن سنك وترارتك تقتضيان أن تتخذي لك آلة رصاعية لتلهي بها حتى يحين حيني فتزوجني بآخر. وإلا فيني أخاف أن تتركيني وتطيري من عندي كما يطير الحمام. وقد يهون علي أن أخسر منك شيئاً واحداً ولا أخسرك بجملتك. فإنك أم ولدي ومحل سرّي من كبدي، فلا أطبق فراقك. فاختاري لنفسك من شئت آتاك به بقرنيه. فضحكت المرأة عند ذلك. ثم فال ومن حيث أتي معروف في هذا البلد بأي طبيب فإذا رأى الجيران رجلاً فلا يكون عليك شبهة. فضحكت المرأة أيضاً لقوله رجلاً. قال فإن الناس يقرعون باب الطبيب ولو في نصف الليل وهنا ضحكت أيضاً. ثم تمدى في الكلام معها إلى أن قال ولا تظني أي أنا وحدي تفردت بهذه العادة. فأن أمثالي من أهل بلادي يفعلون كذلك وهنا قهقهت. فلما فرغ من بقية خطبته على هذا النسق ظنت زوجته أولاً أنه قصد بذلك أن يستطلع سرّها ويتصيدا بزلة. فبكت من شدة الغيظ وقالت له أزعمتي بغيّاً حتى تقابلي بمثل هذا الكلام وتسيء بي الظن. فال حاشا لله من ذلك. وإنما تكلمت معك بمقتضى الطبع فتدبري قولي بعد حين وردّي علي الجواب. فانصرفت المرأة من حضرته وهي واجهة مرتابة.

ثم مضت عليهما أيام غير قليلة والرجل لا يهارش ولا يعاظم. ولا يلعب ولا يياعل. فقلقت جداً لهذه الحال. وضاق صدرها عن صبر الاعتزال. وأخذت تفكر فيما قال زوجها. فتبعلت له من الأيام وتبرجت وتعطرت وقصدت غرفته وهي تقول في نفسها. اليوم يكون برزخ الحالتين، وفيصل الحدين. فإن لم تكن منه مباعلة ذكرته بما قال. فتلقاها بالبشر والبشاشة وأجلسها بجانبه وعرف أنها كركت. إذ رأى قد علت عينها خمرة وهما ترارثان وفي صوتهما تهدج أي رعدة واضطراب. فلما استقرت بادرها بالكلام بأن قال هل تبصّرت فيما قلته لك منذ أيام. قالت نعم ولكن أما عندك فضلة تغني عن هذا الأمر. قال ما عندي والله من وشل ولا فضلة. ولا ثمّد ولا ثمة. ولم يبق لي أمل لا صلاح شأني في ناعوظ ما لا في لحم السقنقور ولا في شحم الوردللكا ولا في الزنجبيل ولا الفلفل ولا التامول ولا القاقلة ولا الراسن ولا الفوفل ولا القرنفل ولا السنبل ولا المصطكي ولا الجوزبوا ولا الهال ولا الرازيخ ولا في عاقر قرحا ولا في حب الصنوبر ولا الحمص ولا الكابلي ولا البليج ولا دارفلفل ولا السمسسم ولا الخولنجان ولا

البسباسة ولا دهن البلسان ولا خصي الثعلب ولا في بيض العصفير ولا فيدهن السوسن ولا في القلقاس ولا في اصل النرجس منقوعا في الحليب ليلتين ولا في الكرفس مدقوقا بزره بالسكر والسمن ولا في لبس الثوب المورس ولا في أكل اصل اللوف ولا في الضجع معصورا مأؤه في اللبن الرائب ولا في البورق مدوفا بالعسل أو في دهن الزنبق ولا في البندق الهندي ولا في الهمقاق مقلوا ولا في علك البطم والينبوت ولا في المسك مدوفا بدهن الخيري ولا في البهمن ولا في الجزر ولا في الهليون ولا في الاملج ولا في البسفار ذانج ولا في اخضر الباقلي بالزنجبيل ولا في القلقل مدقوقا بالسمن معجونا بالعسل ولا في صمغ الكندي ولا في المقل ولا في ثمر البطم ولا في التحير بخفيف لحم الرحم مخلوطا بخردل سبع مرات ولا في حب الزلم ولا في لب القرطم ولا في معك العنم ولا في الموز ولا في مسح دماغ الخفاش بالأخمين ولا في لحم الحمام ولا في قرفة القرنفل وإلا لما ضننت عليك بشيء لما تعلمين من فرط محبتي لك.

فقلت له إذا كان الأمر يا سيدي كما ذكرت فيني اختار قسيسا. قال أي وسواس وسوس إليك هذا الاختيار الذي ليس من الخير في شيء قالت أما أولا فلأن الناس لا يسيئون به الظن إذا رأوه داخلا إلي كل يوم. والثاني انه يقال ان مادة القسيس متوفرة فيه. قال قد غويت ومع ذلك فيني أخشى منه على ولدي فإنه ربما يغريهما بخلافي حالة كوني مخالفا له في معتقده فالأولى أن تختاري آخر. قالت أنت طبيب تعرف الصحيح من العليل والقوي من الضعيف فاحتر لي ما تشاء فيني أرضى بكل ما ترضى به أنت. قال بارك الله فيك. ثم قبلها من فرحه ووعداها بإنجاز عدته في اليوم القابل. وما كاد يسفر الفجر إلا وهو فوق حماره يقصد بعض أصحابه. فلما اجتمع به قال له أن لي عندك حاجة جئت التمسها منك. قال قل لي ما بدا لك. قال علي شرط أن لا تخيبي. قال سأبذل مجهودي كله أن شاء الله في قضائها. فأخذ يده ح توثيقا للعهد ثم قال له أي أريد أن تكون خليفتي في زوجتي. فقال له الرجل هل بدا لك سفر عن مصر وأن تترك زوجتك هنا قال لا وإنما تكون خلافتك عني في حضوري. فاستاء الرجل وقال أو خامرك ريب في صداقتي لك حتى أضمرت استطلاع سرّي. وخفي أمره. فعند ذلك صرّح له بالقضية وألح في القدوم معه.

ولما قدما انعقد البيع بحضرة كلّ من الزوج والزوجة وتم التراضي. وصار الرجل مذ ذلك الوقت يتردد على دار الخلافة وبقي ذلك مدة. ثم أن الزوجة لما ملته كما هي عادة النساء وظهر له ذلك من قلة احتفالها به مرة ومن اعتذارها إليه أخرى. جرى هو أيضاً على عادة الرجال من أنه أفشى سرّها لصاحب له. فجرى هذا أيضا على جدد أمثاله وجعل يتودد إليها وقام عنده مقام الأول. ثم ملته فأفشى سرّها، ثم جاءها آخر فقبلته. ثم آخر وآخر حتى صاروا جماعة عظيمة. ثم تراجع إليها أحبّاؤها الأولون وانهمكت

في التبديل والتغيير حتى صارت دار الطبيب كالمشرفة. ولم تكن هذه القضية قد شهرت في مبادئها عند الجيران إذ كانوا يظنون القوم يأتون ليتداؤوا من علل بهم. ولكنها علمت بعد ذلك. وكان سببه أن الطبيب اتخذ له داراً أخرى خارج البلد ليصيف فيها وترك امرأته في الدار الأولى والزائرون على ما كانوا عليه من الورد والصدور فتنبه ح الناس لذلك.

وفي هذا الوقت أي ورود الخلق إلى هذا المغنم البارد كان الفاريق المسكين يتردد على منزل الطبيب ليعلم ابنه ويتداوى. فظن الناس أنه من جملة الزائرين. وتقلدوا إثمه في أعناقهم إلى يوم الدين. فإنه كان معطلاً وفعله ملغى عن العمل. وبقي على تلك الحالة مدة من دون أن يرى فائدة من العلاج فكأن الطبيب أراد أن تطول المدة عليه إلى غاية تعليم ابنه. فمن ثم اقتصر الفاريق عن التردد إليه وتداوى عند غيره وشفى. وفي خلال ذلك سافر إلى الإسكندرية لمصلحة ما. فاجتمع فيها بواحد من الخرجيين الصالحين. فسأله هذا أن يرجع معه إلى مصر ليعلم عنده بعض تلاميذ فأجابه إلى ذلك. وإنما رغب فيه لكون الخرجيين لا يؤخرون اجرة من يعمل لهم. وفي أثناء هذا عن له أن يقرأ علم العروض. فأخذ في قراءة شرح الكافي على الشيخ محمد. فما كاد يحتمه حتى فشا الطاعون بمصر فاشتد بالمولى الخرجي الحرص على حياته إبقاء للمصلحة الخرجية كما زعم. فمن ثم رأى أن يتباعد عن وهددة الفخ قليلاً لكيلا ينطبق عليه فيفجع الخرجيون أمثاله بفقد سبب في فقد غيره. إذ قد تقرر عندهم أن شدة الحزن تميم. فجعل الفاريق مع الخرجيين الخرجيين ومع رجل لبيب ذي خبرة بالعلاج المانع من عدوى الطاعون. ثم استصحب ما لزم له وفرّ إلى الصعيد، وتفصيل ذلك في الفصل الآتي.

## معجزات وكرامات

كان عند الخرجي المذكور خادمة رعبوبة من أهل بلاده. فلما عزم على الفرار رأى أن يغادرها في منزله لتصون حاجته فيه. وإنما أبى أن يستصحبها معه لأنه كان متزوجاً بامرأة هي دونها في الحسن. كما جرت العادة في بلاد الإفرنج من أن الخادمة غالباً تكون فوق مخدومتها في القسامة والجمال ودونها في الدراية والمعارف. فوقع في خاطر زوجته أنه إذا نشبت فيها عوالق الفخ أولاً ربما اتخذ زوجها تلك الخويدمة في فراشها وطاب عنها نفسها. وإن أول شيء تتعلمه البنت من أمها قبل زواجها هو منع الأسباب التي تبعث زوجها على الاستغناء عن شخصها أو عن ذكرها. ولذلك كان من عادة نساء الإفرنج أن يهدين إلى بعولتهن صورهن وأن كانت شنيعة ليجعلوها في قمصهم. أو خصلاً من شعورهن وأن تكن حمراء ليتختموا بها. ثم بدأ مشكل آخر وهو أن الخادمة إذا بقيت وحدها في الدار لم تأمن من أن يتسور عليها

أحد في الليل فيقع الخذور. ويحمي التنور. ويكسر الجبور. ويمد المجزور. ويطم الحفور. ويذال المذخور. ويحرق البور. وتفك الطلاس من المسحور. ويفتق المشصور. ويسمد الصعبور. ويوسع الصنبور. ويعثر المطمور. وتذل العيسور. ويصدع الفاثور. ويخرب القهقور. وينقر في الناقور فتتلم شوكة الزنبور. فارتأى بعد أن رفع يديه بالابتهاال إلى الله تعالى أن يضم إليها رجلا من أهل بلاده نحيفا قشعوماً اعتقاد انه لا يقدر على ارتكاب شيء من الأفعال التي جرّت هذه القوافي المتعددة. وذلك من جملة الأغلاط الفاضحة التي اشتهرت بين الناس أعني أهم في الغالب من دون مراجعة النساء والاستشهاد بقولهن إن النحيف لا يقدر على ما يقدر عليه السمين. وكان الأولى أن لا يستبدوا في ذلك. فمكث القشعوم مع الخادمة في أهناً عيش.

أما ما كان من الخريجين فإن مخرجهم أي مربيهم وكل بهم ذلك الرجل اللبيب. وأوعز إليه في أن يحظرهم عن الخروج عن الخروج وأن لا يدع أحداً من أقاربهم يدخل إليهم وأن يستخدم رجلاً ليشتري لهم ما يلزم من الخارج ولا يستلم منه شيئاً إلا بعد أن يغمره في الحل أو ييخره بالشيخ. وغير ذلك مما عرف في اصطلاح الإفرنج لمنع أسباب الوباء. وكان هذا الوكيل من مشاهير علماء ملته. وكان في مبدأ أمره كافراً لا يعتقد بدين من الأديان. لكنه كان حميد الخصال حسن الأخلاق. غير أن كفره حال بينه وبين رزقه فأضطر إلى أن ينحاز إلى الخرجيين من أهل بلاده ففرحوا بهدايته كثيراً وأحسنوا إليه إحساناً وفييراً فأنقلب هزله جداً وتمكنت منه الوسوس والأوهام حتى اعتقد أخيراً أنه أهل للكرامات والمعجزات. فكان يتمنى أن يسنح له فرصة لذلك. وأتفق في هذا الأوان أن مات بالطاعون ذلك الخادم الذي كان يشتري لوازم الدار. فلما جاء الدفانون ليحملوه أعترضهم الوكيل من داخل الدار فخافوا أن يخالفوه لكونه من الإفرنج فإنه لهم عند أهل مصر حرمة زائدة. ثم أنه مضى إلى موضع منفرد وجثاً على ركبتيه وهو يدعو الله سبحانه وتعالى لأن يحقق له صدق عقيدته. ثم فتح الباب وخرج وألقى نفسه على جثة الميت وجعل فمه في أذنه وهو يناديه قائلاً: يا عبد الجليل "اسم الميت" أي أدعوك باسم المسيح ابن الله لأن تعود من ظلمة الموت إلى نور الحياة. ثم أصغى ليستمع الجواب فلم يجبه أحد. فأشار إلى الدفانين أن اصبروا. ثم سار إلى ذلك الموضع الذي صلى فيه أولاً. وغير ركعته بأن جعل فمه بين فخذه وهو يجمعهم في الدعاء وذلك على منوال الياس النبي حين صلى لإنزال المطر بعد أن قتل أنبياء بعل. وكان عددهم أربعمائة وخمسين نبياً على ما ذكر في الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الأول. إلا أن بين الداعين فرقاً. وهو أن النبي صلى هكذا بعد القتل وصاحبنا هذا قبل الأحياء. وكان الأولى أن يرفع عبد الجليل إلى غرفة كما فعل النبي المذكور بابن الأرملة التي كانت تعوله. وكان دعاؤه إلى الله لإحيائه أن قال أيها العرب

الهي أجلبت الشر أيضاً على هذه المرأة بقتل ابنها الخ. ثم أنه شبح يديه حتى صارت جثته على شكل صليب. ثم قام ناشطاً مسروراً وأسرع في أن ألقى جثته على الميت وأعاد في أذنيه كلامه الأول. فلما لم يجبه أحد ورأى الميت لم يزل مفتوح الفم مطبق الجفنين ولم يمش مرة هنا ومرة هناك ولم يعطس سبع عطسات كما عطس أبن المرأة الذي أحياه النبي الإشع على ما ذكره في الفصل الرابع من سفر الملوك الثاني، ذهب إلى المطبخ وأمر الطباخ بأن يصنع له مرققة على الفور. فلما صبت المرققة أقبل بها إلى عبد الجليل وجعل يفرغ منها في حلقه وذلك مشغول عنه بناكر ونكير. فلما أعياه أمره أمر الدفانين أن يحملوه وقال ما عليّ ذنب في كوني لم أرد أن أبعثه وإنما الذنب عليه. ثم أقبل إلى حجرة الفاريق وقال له لا تؤاخذني يا خليلي بعجزتي عن أحياء الخادم فإن زمن الانتشار لما يبلغ. ولكني لا أترأخى في عقيدتي بأن أفعل ذلك المرة الآتية إن شاء الله.

فلما سمع الفاريق ذلك اضطرب باله وثار دمه غيظاً وحزنًا. فأصابه في ذلك اليوم الداء الفاشي فخرج تحت أبطه سلعة كالأترجة وحَمَّ وأخذ صداع أليم. فأما الوكيل فلم يصبه شيء. وذلك من الأسرار التي يعجز عن إدراكها الحكماء. ثم أن الفاريق كان حال مرضه يفكر فيما جرى عليه وهو وحيد غريب لا مؤنس عنده يسليه. ولا طبيب يداويه. وكان يقول في نفسه إذا مت على هذه الحالة فمن عساه يتمتع بكتي هذه التي سهرت الليالي على نسخها. نعم أن الموت على كل حال صعب مكروه غير أن موت الفتى مثلي غريباً أصعب وإني قد ابتليت والحمد لله في هذه المدينة بجميع أنواع الأدوية المصبوغة بلون الحمام. فإذا فسح الله الآن في أجلي فلا أفارق هذه الدنيا إلا قرير العين بنجل يرثني. وأن لم يكن عندي من حطام الدنيا غير الكتب. كيف لا وقد جاء عن أبي شلوم ولد سيدنا داود أنه نبي له جداراً ليذكر به بعد موته إذ لم يكن له خلف. فلا تزوجنّ فإن لم يأتني خلف فالطوب بمصر كثير. اللهم يسر. غوثك يا كريم. يا رحمان. يا رحيم. ثم لما كان يمعن النظر في حال الزواج ويتصور مشاقه وشدائده التي يرى أوداءه ومعارفه يقاسونها ويتنون من باهظ حملها، يرجع عن عزمه ويسخر من استحالة عقله وضعف فهمه لضعف جسمه ثم يعتذر لنفسه بأن كل إنسان إذا عاش مدة حياته على رأي لم يوافق رأي الجماعة وكان يعتقد وهو حيّ صحيح الجسم معافى أنهم كلهم على ضلال وأنه هو وحده على هدى فإذا أدركه ضعف جسم لم يلبث أن يتغير عقله فيميل عن مذهبه الأول. كما جرى لبيون الفيلسوف ولكن كثير غيره من الحكماء والفلاسفة.

ثم أن الله تعالى تدارك الفاريق برحمته. ومنّ عليه بالشفاء من علته. فقام من فراشه كأنما قام من جدته

وأقبل على الطنبور يعزف به ويغني فدعه الآن على الحالة ولا تنغص عليه عيشته. وشمر أذبالك معي لنظفر فوق هذا الأجيح المتأجج أمامنا فيما يلي هذا.

### الكتاب الثالث

#### إضرار أتون

أو ما كفى بني آدم ما هم فيه من الشفاء والعناء. والجهد والبلاء. والمشقة والنصب والالواء والتعب. والحرمان والنحس والقنوط والتعس. يجبل بهم في الفُرث والوحم ويولدون في الأوجاع والألم. ويرضعون في الضرر. ويفطمون في الخطر. ويحبون فيعثرون. ويدرجون فيتدهورون. ويمشون فيكّلون. إذا جاءوا حاروا أو وهوا. وإذا أكلوا أتحموا ويحروا. وإذا ظمئوا ضووا. وإذا شربوا غلثوا وغلثوا وخشروا. وإذا أرقوا ذابوا قلقاً وكمداً. وإذا ناموا ذهب العمر منهم سدى. وإذا هرموا ملهم أهلهم وأخواتهم. وإذا احتضروا حسروهم تحسيراً ربما أحانهم. ثم هم بين ذلك في تحصيل أسباب المعاش ساعون. وفي التظاهر باللباس والزينة معنون. منهم متهافت على امرأة تكون له أهلاً. وذو الأهل همّ بزوجه. وتربية ولده طفلاً وكهلاً. فإذا مرضوا مرض. وإذا حزنوا حزن وجرض. وويل له أن تكن زوجته بَرّاً أو كانت عاقراً وذماً. ورأى لغيره من المتزوجين بنين ذوي طلعة ناضرة وشمائل سارة. فيقول في نفسه إنما لذة الدنيا البنون. وأني ميت بلا خلف وأي منون. وكم من سقوط ظفرٍ وهن الجسم كله. وكم لقلع ضرر ذهب الصبر أو جلّه. ما عدا الأدواء المتعضلة. والعلل المتأصلة. وتخالف الأزمان وحول الأحوال. وتعاقب الأحزان ودول الحال. على هذا الجسم الواني البال. ففي الشتاء يكون عرضة للريح والزكام والبلغم والرطوبات. والبول والعفونات. وفي الصيف للصفراء أو الحمى والصداع. والترهل والاستنقاع. وفي الربيع لهيجان الدم وتبيغه ونزغته. وفي الخريف لتحرك السوداء وأذى الهواء وندغته. ثم إن منهم من يولد ويعرض من العيوب والأمراض. الجنأ أشرف الكاهل على الصدر. أو الفسأ خروج الصدر ونتوء الختلة. والفتأ دخول الطهر وخروج الصدر. والحذب معروف. والحسبة أن يبيض جلد الرجل من داء فتفسد شعرته فيصير أبيض وأحمر. والحصبة بثر يخرج بالجسد.

والشبّ داء م.  
 والضُّبُوب داء في الشفة.  
 والطنَب طول في الرجلين في استرخاء وطول في الظهر.  
 والعكَب غلظ في الشفة واللحمى.  
 والعَضْبَةُ بخصّة تكون بالجنف الأعلى خَلقة.  
 والغضاب داء أو الجُدَري.  
 والغَلَب غلظ العنق.  
 والقَلَب انقلاب الشفة.  
 والقُلاب داء القلب.  
 والقُوباء الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه.  
 والكنَب غلظ يعلو الرجل واليد.  
 والكُوب دقة العنق وعظم الرأس.  
 والناقبة داء للإنسان من طول الضجعة: والجوَت عظم البطن في أعلاه أو استرخاء أسفله.  
 والحوّ استرخاء البطن: والضَمَج آفة تصيب الإنسان وهو أيضاً هيجان المايون.  
 والعنّاج وجع الصلب.  
 والفحج تداني صدور القدمين في المشي وتباعد العقين والفحج والفحج أقبح منه.  
 واللُّخْج أسواء الغمص.  
 والمَحَج استرخاء الشدقين.  
 والجَلَح انحسار الشعر عن جانبي الرأس.  
 والصفح عرض فاحش في الجبهة.  
 والنَّطف علة يُكوى منها الإنسان.  
 والفر كحة تباعد ما بين الإليتين.  
 والقطَح عرض الرأس والأرنبه.  
 والفلح شق في الشفة السفلى.  
 والقادح أكال في الأسنان.  
 والقلح صفرة في الأسنان.

والكسح الزمانة في اليدين والرجلين.  
واللَّجج اللخص في العين.  
والمرح شدة سيلان العين وفسادها: والمَسَح احتراق باطن الركبة لحشونة الثوب أو اصطكاك الربلتين  
ومثله المشح: والوذح احتراق في باطن الفخذين.  
والبزخ خروج الصدر ودخول الظهر.  
والزُلْحَة وجع يأخذ في الظهر.  
والفتخ استرخاء المفاصل أو عرض الكف والقدم وطولهما.  
والنفَّاح نفخة الورم من داء يحدث.  
والجَرَد عدم الشعر.  
والدَّرَد زهاب الأسنان.  
والردّة تقاعس في الذقن.  
والسُوداء داء من شرب الماء.  
والقَوَد طول العنق والظهر.  
والكُبَاد وجع الكبد.  
واللهْد داء في أرجل الناس وأفخاذهم.  
والآدَر الآدر والمادور من ينتفق صفاقة فيقع قُصْبُه في صَنْفِه الح. وفعله كفرح.  
والبَجَر خروج السرّة وعظم البطن.  
والْبَخَر النتن في الفم.  
والباسور م ج بواسير.  
والْحَثَر البثور وحثرت العين خرج في أجفانها حب احمر.  
والحدرة قرحة تخرج ببياض الجفن.  
والْحَصَر والحَصَر الحصر احتباس ذي البطن وبالتحريك ضيق الصدر والبخل والعَي في المنطق.  
والحَفَر سلاق في أصول الأسنان.  
والْحُمرة ورم من جنس الطواعين.  
والْمُخْجَر داء في البطن.  
والأُخْضِير داء في العين.  
والذهر اسوداد الأسنان ومثله التدبير.



والزَّحِير استطلاق البطن.  
 والزَّعَر تفريق الشعر وقتله.  
 والزَّوَر عِوَج الزور والأزور من به ذلك والناظر بمؤخر عينيه.  
 والشَّتْر انقلاب الجفن من أعلى وأسفل وانشقاقه أو استرخاء أسفله.  
 والصَّعَر صغر الرأس.  
 والصَّفَر داء في البطن يصفرَّ الوجه.  
 والظَّفَر داء في العين.  
 والظَّهَر داء الظهر.  
 والعَوَر معروف.  
 والتقطير عدم استمساك البول.  
 والقَصَر ييس في العنق.  
 والمَعَر قلة الشعر.  
 والناسور علة في المآ وعلة في حوالي المقعدة وعلة في اللثة.  
 والكُزَّاز داء من شدة البرد.  
 والسُّلاس ذهاب العقل.  
 والفَقَّاس داء في المفاصل.  
 والفطس انفراش الأنف في الوجه.  
 والقعس خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحذب.  
 والقفس عظم الروثة.  
 والقَتَّعة شدة العنق في قصرها كالأحدب.  
 والكَسَس قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها بسنوخها.  
 والنَّقْرَس ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.  
 والهَوَس طرف من الجنون.  
 والحمش دقة الساقين.  
 والخفش صغر العينين وضعف البصر خلقة أو فساد في الجفون بلا وجع أو أن يبصر بالليل دون النهار.  
 والدَّوَش ظلمة البصر وضيق العين.  
 والرَّمَش حمرة في الجفون مع ماء يسيل.

والطَّرَش أهون الصمم.  
 والطشاش داء كالزكام.  
 والعُطاش داء لا يروي صاحبه.  
 والعَمَش ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات.  
 والمدش رخاوة عصب اليد وقلة لحمها ودقتها.  
 والنمَش نقط بيض وسود أو بقع تقع في الجلد تخالف لونه.  
 والبَخَصَ لحم ناتئ فوق العينين أو تحتها كهيئة النفخة والتبخص انقلاب الأجفان.  
 والبرص معروف.  
 والتعَص وجع العصب من كثرة المشي.  
 والخاصَّة داء يتناثر منه الشعر.  
 والحوَصَ ضيق في مؤخر العينين أو في إحداهما.  
 والحوَصَ غوور العينين.  
 والخَيْص صغر إحدى العينين.  
 والرَّمَص وسخ ابيض يجتمع في الموق.  
 والشَّوَصَة وجع في البطن أو ريح تعتقب في الأضلاع أو ورم في حجاها والغَمَص ما سال من الرمص.  
 والقَبَص وجع يصيب الكبد من التمر على الريق وضخم الهامة.  
 والقرَمَاص قصر الحدين.  
 والقفص حموضة في المعدة من شرب الماء على التمر وحرارة في الحلق.  
 واللَّحَص تغضن كثير في أعلى الجفن.  
 واللَّخَص كون الجفن الأعلى لحима.  
 واللَّصَصَ تقارب المنكبين والأسنان.  
 والماصة داء يأخذ الصبي من شعرات على سناسن الفقار إلخ.  
 والمَعَص التواء في عصب الرجل.  
 والمَعَصَ معروف.  
 والوقص قصر العنق.  
 والحرَص فساد المعدة والبدن والمذهب والعقل.

والمهروض الحصف يخرج على البدن من الحرّ.  
 والخبّاط داء كالجنون.  
 والاذوطيّة الاذوط الناقص الذقن.  
 والاسطية الأسط الطويل الرجلين.  
 والسرطان ورم سوداوي يتدئ مثل اللوزة واصغر فإذا كبر ظهر عليه عروق حمراء وخضر شبيه بأرجل  
 السرطان لا مطمع في برئه وإنما يعالج لئلا يزداد.  
 والضّرط خفة الحية ورقة الحاجب.  
 والضّوط عوج في الفم.  
 والطرط خفة شعر العينين والحاجبين والأهداب.  
 والقطط قصر الشعر وجعودته.  
 والمَرَط خفة الشعر.  
 والمَعَط عدم الشعر.  
 والجَحْظ خروج المقلة أو عظمها.  
 والبَشَع ظهور الدم في الشفتين وانقلاب الشفة عند الضحك.  
 والجَلَع عدم انضمام الشفتين.  
 والخَلَع التواء العرقوب.  
 والرَّسَع فساد في الأجفان.  
 والرَّمَع اصفرار في وجه المرأة من داء يصيب بظرفها.  
 والزَّلَع شقاق في ظهر القدم كالسلع.  
 والزَّمَع الزيادة في الأصابع.  
 والصُّدَاع وجع الرأس.  
 والصَّلَع انحسار شعر مقدم الرأس.  
 والتصوُّع تشقق الشعر.  
 والقرَع معروف.  
 والقفع ارتداد أصابع الرجل إلى القدم.  
 والقَلَاع داء في الفم.  
 والقَمَع فساد في موق العين واحمرار أو بثرة تخرج في أصول الأشعار والكَنَع رجوع الأصابع إلى الكف.

والكَثَعُ احمرار الشفة وكثرة دمها حتى تكاد تنقلب.  
والكَعَلُ شقاق ووسخ في القدم.  
والكَوَعُ إقبال الرثعين على المنكبين.  
واللَّخَعُ استرخاء الجسم.  
واللَطَعُ بياض في باطن الشفة إلخ.  
والوَكْعُ إقبال الإبهام على السبابة من الرجل.  
والهَنَعُ انحناء في القامة.  
والثَّغُ ظهور الدم في الجسد.  
والذَّلَعُ انقلاب الشفة.  
والفَدَغُ التواء في القدم.  
والفَوَغُ ضخم في الفم.  
والوَبَغُ هبرية الرأس.  
والحنف الحنف في الزور دخول أحد شقيه وانضمامه مع اعتدال الآخر.  
والْحَشْفَةُ قرحة تخرج بحلق الإنسان.  
والْحَنْفُ الاعوجاج في الرجل.  
والْخَنْفُ انضمام أحد جانبي الصدر أو الظهر.  
والسَّافُ تشقق وتشعث ما حول الأظفار.  
والسَّعْفَةُ قروح تخرج على رأس الصبي ووجهه.  
والشَّافَةُ قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب وإذا قطعت مات صاحبها.  
والشَّنَفُ انقلاب الشفة العليا من أعلى.  
والطَّرْفَةُ نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها.  
والعَضَفُ استرخاء في الأذن.  
والعَدَفُ كثرة شعر الحاجب.  
والكُتاف وجع الكتف.  
والكلف شيء يعلو الوجه كالسمسم - وحمرة الوجه كدرة الوجه.  
والأرقان آفة تصيب الزرع والإنسان كاليرقان.  
والْبَحْقُ اقبح العور.

والبهق بياض رقيق ظاهر البشرة إلخ.  
 والحوْلُق وجع في حلق الإنسان.  
 والحمّاق الجري أو شبهه.  
 والْحَنَاق داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة.  
 والرَّوْق أن تطول الثنايا العُلَي السُّفْل.  
 والسُّلاق بثر يخرج على أصول اللسان أو تقشر في أصول الأسنان وغلظ في الجفان والشَّدَق سعة الشدق.  
 والشَّمَق مَرَح الجنون.  
 والعَمَقَة داء يأخذ في الصلب.  
 والْفَتَق علة في الصفاق.  
 والفَوْق ميل الفم والفرج.  
 واللَّسَق لسوق الرئة بالجانب عطشا.  
 والمَشَق أن تصيب إحدى الربتين الأخرى.  
 والودَق نقط حمر تخرج في العين تشرق به أو لحمه تعظم فيها أو مرض فيها ترم منه الأذن.  
 والسَّكَّ عيب في الأذن.  
 والساهك حَكَّة العين.  
 والشاكَّة ورم في الحلق.  
 والشوكة داء وحمرة تعلو البدن.  
 والفَرَك استرخاء اصل الأذن.  
 والفكك انفراج المركب استرخاء.  
 والألّل قصر الأسنان وأقبالها على غار الفم كالليل.  
 والبَدَل وجع في البأدلة. "اللحمة بين الإبط والشدوة" ووجع المفاصل واليدين.  
 والبُوال داء يكثر منه البول.  
 والثَّعل تراكب الأسنان.  
 والثَّلّ تساقط الأسنان.  
 والحَذَل حمرة العين وانسلاق وسيلان دمع.  
 والحَقْل داء في البطن.  
 والحَلَل استرخاء ووجع في العصب.

والحَوَل معروف.  
 والخَبَل فساد الأعضاء والفالج.  
 والخَزَل الكسرة في الظهر.  
 والخُمال داء في المفاصل.  
 والدَّحَل عظم البطن.  
 والدَّخَل ما داخلك من فساد في عقل أو جسم.  
 والسَّيْل غشاوة العين من انتفاخ عروقها الظاهرة.  
 والسَّغَل السَّغَل الصغير الجثة الدقيق القوائم أو المضطرب الأعضاء أو السيئ الخلق والغذاء أو المتحدد  
 المهزول وقد سغل كفرح في الكل.  
 والسَّلال م كالسِل.  
 والسَّوْلة استرخاء البطن وغيره.  
 والصَّحَل البَح.  
 والضَّعَل دقة البدن من تقارب النسب.  
 والطَّحَل داء الطحال.  
 والطُّلاطة سقوط اللهاة حتى لا يسوغ له طعام ولا شراب.  
 والعَقَل شيء يخرج من قبل النساء كالإدرة.  
 والعَقَل اصطكاك الركبتين.  
 والعاقيل ما يخرج على الشفة غبّ الحمى.  
 والعَمَل فساد الجرح من العصاب.  
 والقبل إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.  
 والنَّملة بثرة تخرج من الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدبّ إلى مكان آخر.  
 والأطام حصرة البول والبعر من داء.  
 والجُحام داء في العين.  
 والجُذام معروف.  
 والخَشَم تغير رائحة الأنف من داء فيه.  
 والرَّحَم وجع الرحم.

والسَرَمَ وجع الدبر.  
والضَّجَمَ عوج في الفم والشدق والشفة والذقن والعنق.  
والعِسمَ ييس في مفصل الرسغ تعوّج منه اليد والقدم.  
والعَمَمَ سيلان الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا.  
والفَقَمَ تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى.  
والقعمَ ميل وارتفاع في الاليتين.  
والكَزَمَ قصر في الأنف.  
والكَشَمَ نقصان في الخلق وفي الحسب.  
والمُومَ أشد الجذري.  
والبَطَنَ داء البطن.  
والتَّثَنَ داء في الثَّفَنَةِ وهي من الإنسان الركبة ومجتمع الساق والفخذ.  
والدَّنَنَ انحناء في الظهر ودنو وتطامن في الصدر والعنق.  
والزَّمنَ العاهة ونحو الضَّمن.  
والتسونَ استرخاء البطن.  
والقَعَنَ قصر فاحش في الأنف.  
والآهَةَ والمَاهَةَ الآهَةَ الحَصْبَةَ والمَاهَةَ الجذري.  
والجَلَلَه انحسار الشعر عن مقدم الرأس.  
والشَّوَه طول العنق وقصرها ضد.  
والفَوَهَ سعة الفم.  
والقَرَه قره في الجسد كالقَلَح في الأسنان.  
والقَمَه قلة شهوة الطعام كَالْقَهَم.  
والمَرَه فساد العين لترك الكحل.  
والبَلَه قلة الفطنة.  
والتَّلَه الحيرة والوله وهو ذهاب العقل حزناً.  
والدَّلَه ذهاب الفؤاد من هم ونحوه.  
والبَزَا انحناء في الظهر عند العجز أو أشراف وسط الظهر على الإست.  
والجَحْوُ سعة الجلد واسترخاؤه.

والجلا دون الصلح.  
والجوى داء في الصدر.  
والحصاة اشتداد البول في المثانة حتى يصير كالحصاء.  
والحقوة وجع البطن من أكل اللحم.  
والخذى استرخاء الأذن وانكسارها.  
والرثية وجع المفاصل واليدين والرجلين أو ورم في القوائم أو منعك الالتفات من الالتفات من كبر أو وجع.  
والشرى بشور صغار حمر حكاكة.  
والشغا اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج.  
والضوى دقة الجسم وقلة حلقة أو الهزال.  
والطنى طنى لزق طحاله ورثته بالأضلاع من الجانب الأيسر.  
والفغا ميل في الفم.  
والقعا هو ان تشرف الأرنبة ثم تقعي نحو القصبة.  
والقطى داء في العجز.  
واللقوة داء في الوجه.  
واللوى وجع في المعدة واعوجاج في الظهر.  
وغير ذلك من العيوب كأن يكون الإنسان قشعوماً أو مقرقماً أو زعبلاً أو سقعطري أو نغاشيا أو إزباً أو دميما. ومن الأدواء التي لم يُعرف لها بعد اسم. ومحال أن تحيط بها كلها حالة كونها غير مستقصاة هذه الثمانية والعشرون حرفاً. واصعب ما فيها واضرّ الهكاع والتشويل. وقد زاد معاصرونا على ذلك الداء الزرنبي مما خلت عنه لغتنا الشريفة.  
وأعود فأقول ألم يكف بني آدم أن مدى عمرهم قصير. وهمهم فيه طويل كثير. وأمرهم عسير. لكل منهم من العناء والجهد واللوعة ما يكفيه وآخرين معه. فطالب العلم يسهر الليالي في تبين مشاكل وإيضاح مسائل. وذو الصنعة يقضي نهاره كله مكباً على عمله ذا سخط حتى ينال كفافه فقط. وذو الإمارة مشغول البال بأحكامه وسياسته. والرئيس ذو همّ برئاسته. والملك موجس من وزرائه أن يتحالفوا عليه فيسقوه ما به هلاكه.

والوزراء خائفون منه أن ينتقم عليهم فتدور بهم أفلاكه. والتاجر يكر إلى محترفه وهو مشفق من كساد



بضاعته. والطبيب يخشى أن ترشد الناس فيستغنوا عن براعته، فتعفن عقاقيره، وتأجن مياه زجاجاته ويفسد ذروره، وسفوفه ولعوقه وجوره. والقاضي يستعيز من قدوم من تفتنه من الغيد بجمالها. وتربكه في مسائل غير مذكورة في كتابه فيعلق بجمالها. ويتحير من أحوالها. والربان يحذر من عصف الأرياح. والزاجل من شب نار الحرب التي وقودها الأرواح. فكلما رأى سلطانه متغيراً، وخاطره مكدرًا، قال اللهم اكفني غير الدهر. واجعل هذا الكدر عارضا يزول قبل العصر. فإني أرى في وجه ملكي وأميري سيمياء القتال، والرسم بمنازلة الأبطال. وأنا ذو صاحبة وعيال، وأملاك وأموال. اللهم اكفف السنة الأجانب عن القدح فيه. والقي في قلوبهم رعبه وامح من صدره ما يوغره ويزفيه. والحارث يوجل من كثرة الأمطار، وهبوب الإعصار. والمعلم من رغبة الناس عن العلم إلى الجهل. والمتعلم من عقبة الكتاب. وعاقبة الكتاب، الشافه لما عنده من ثمد الجلد، والحاضر له عن اللهو والدد. والمغني والعازف بآلات الطرب من وقوع الغلاء، أو استيلاء الحزن على قلوب الأغنياء. واللاعب من اهتداء الناس إلى الجد. والشاعر من إلفائه ممدوحه كالحجر الصلد، أو محبوبه ذا جفاء وصد. والمؤلف مثلي من مجانين "أي يشفق من مجانين لا انه هو منهم" يتصدون له فيحرقون كتابه، ويخرقون إهابه. والزوج من فرار زوجته وكساد ابنته. وهما من بخله وحرمانهما من ثروته. والقسيس من كتب الفلاسفة. والفلاسفة من وعيد القسيس وبوادره العاصفة، ورعوده القاصفة. وفي الجملة فكل ذي حرفة يخاف نفعها عن جانبه. وكل يدعو الله لصالح حاله ولو بفساد حال صاحبه. إذ لا تكاد تتم مصلحة من هذه المصالح المذكورة إلا وينجز معها مفسدة بالضرورة. كما قال أبو الطيب المتنبي مصائب قوم عند قوم فوائد. ومع ذلك فكل يزعم أنه محق فيما سأل. جدير بنوال ما أمله. وإن لغته في ذلك عند الحق سبحانه وتعالى، اصدق مقالا. نعم أعود فأقول، وإن طال المقول: أو ما كفى الناس الخوف من الموت يفاجئهم وهم في دعة واطمئنان، أو يفجعهم بفقد ما لديهم عزيز من أهل وولد وأخوان، وخلان وحيوان؟ إذ بعض الناس يكلفون بالخیل والطير والسنانير والكلاب. كلّفهم بالأهل والأصحاب. أو الرعب من أن يسقط أحدهم عن ظهر دابته فتندق عنقه. أو تسري النار في بيته فيحترق تالده وطريفه فيعدم رزقه. أو يقع في تيّار فيجفأ به إلى ما شاء الله. أو تحسف به الأرض. أو يخرّ عليه السقف من فوق. أو تبلغه الوكة من مسافة مائي فرسخ فتقلقه وتورقه وربما أبكته دماً. أو يأتيه سارق فيسرق متاعه الذي هو قوام معيشتة. أو يفقد ما في كيسه أو هميانه في الطريق. أو ينشب في عينيه عود فيعطلها. أو تشنّج به عضلة فيعد بعدها من سقط المتاع. أو يأكل شيئاً ضاراً فيودي به أو شراباً مسموماً فيسقط أمتعاه وأرابه. أو يرى جميلة فيؤرقه جمالها فيصبح وهو هائم متيم يشكو للطبيب من سقامه، وللشاعر من غرامه. فلا هذا يطعمه ويمنيه. ولا ذاك ينفعه ويشفيه. أو قبيحة فتدهمه مرعبة ويلازمه القمة عن المأدبة أو تنبحه الكلاب وتخرق ثيابه فيبدو وذمه. أو

يسيل دمه أو يكون جالسا يوما على التخت، فيسمع له صريف التخت فيسود وجهه بين إخوانه وعترته وأهل قريته وكورته وربما نبزوه بالخضفي أو الغضفي أو النضفي أو الخبقي أو الخفقي أو العفقي أو الغفقي أو الحصمي أو الخضمي أو الردمي أو يقع عليه الكابوس ليلاً فيقف جريان دمه على قلبه فيهلك ليلته.

نعم ألم يكفيهم هذا كله حتى طفق بعضهم يجهّز على بعض كتائب الحدس والتخمين ويجرّد عليه مقابب الخرص والتزكين. فاقبل منهم على قوم برماح الطعن مشرّعة. وبسيوف اللعن مبضّعة. وبنصال الجدل فائدة مارقة. وبنبال الجلال صاردة خاسقة. فقال بعض إلا أن درجات السماء مائة وخمس. فقال غيره إلا إنما مائة وأربع. فقال آخر لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان وسمل العينين وسلّ الأثنين. وإنما هي مائة وست. ثم قام آخر وقال إلا أن دركات سقر ستمائة وست وستون. فقام غيره وقال إلا إنما ستمائة وخمسون. فقال آخر لقد كذبتما وألحدتما وضللتما واستوجبتما غلّ اليدين والرجلين ونتف الشعرين. إنما هي ستمائة وسبع وستون. ثم قام آخر وقال إلا أن قرن الشيطان ثلاثمائة وخمسة وخمسون ذراعاً. فقال آخر هذا إفك واضح، وهتان فاضح. بل هو ثلاثمائة وستة وخمسون. فقال آخر وكسور. مقال آخر إلا إنه من حديد لكونه ثقيلاً على الناس يعنيهم فأجابه غيره إلا إنه من ذهب لكونه يضلّهم ويغويهم فقال آخر بل هو من اليقطين لأنه ينمي ثم يذوي. ويكبر ثم يصغر. ويطول ثم يقصر. ثم قام آخر على رأس سلم عال وقال بصوت جهير إلا أن يكون أيها الناس جليدة ينبغي قطعها بحجر محدّد لا كبير ولا صغير. فقال آخر بل بسكّين ماض لا طويل ولا قصير. فقال آخر لقد سفهتما إنما هي عزيزة علينا، كريمة لدينا. لا يصح قطعها بحجر ولا سكين. ولا خدشها بشيء ولو من رقين. فإنما هي متصلة بالوريد ومنعقدة بالوتين. ومن قطعها فقد كفر. واستوجب نار سقر. فقال آخر بل قطعها واجب فإنما من الزوائد. فاعترضه القائل بعدم القطع أنا لا نرى شيئاً غيرها فما وجه تخصيصها بالقطع. قال بل الشوارب تحفى والأظفار تقلّم. فال ولكنها بعد ذلك تنبت وتلك لا. إنما دليلي القطعي على وجوب القطع عدم نفعها لصاحبها. قال لم يخلق الله شيئاً عبثاً من غير نفع. فال بل خلقت إياك لغير فائدة. قال لا بل أنت مخلوق عبثاً. ثم حشد كلّ من الفريقين بخيله ورجله. وتلاقى كل من الجيشين بسلاحه ومحله. فمن بين قارع بحد الحسام، ورام بالسهم، وباطش بيده وقاذع بلسانه. وهائج بقلمه. فالرؤوس متناثرة. والدماء جارية والأعضاء متطايرة. والعرض مهتو والحرّات مهتكة والمال مسلوب والديار مخربة. والحزازات في الصدور كامنة. والمشاحنة ظاهرة وباطنة. والخيّل مسرّجة. والكماة مدحجة والطرق معطلة. والأرض محلة. والفرص للانتقام مرقوبة. والدعوات في الليالي مشوبة.

يا أيها الناس اعتبروا بمن فات كيف صار إلى الرفات. وإن منهم من كان يذكر اسمه في حياته بالبركات. فأصبح يذكر باللعنات. ومنهم من كان يحسب في قومه سراجاً وهاجاً. ومنهم من كان يأكل حتى ينتفخ بطنه وتحفظ عيناه، ويتلجلج لسانه وترتخي شفتاه. فصار الآن الدود يأكله. وبعض الحشرات يستوبله يا أيها الناس. وجهوركم في سباق والباقي في نعاس. فرار من غرور النفس وحدار من قرور الرمس. وبدار إلى تقديم عمل يقربكم إلى الله. ويلأم بعضكم ببعض وأنتم في الحياة. أتموتون وفي قلوبكم الحقد على خصمكم. وفي أفواهكم اللعن على مخالفكم في زمعكم. ألم يقل لكم الحق كونوا يا عباد على الأرض إخواناً فإنكم من أب واحد وأم واحدة وأنكم جميعاً لميتون. سواء كنتم ذوي وجوه سمر أو حمر أو صفر أو سود أو بيض أنكم كلكم بشر إنكم كلكم فانون. إنكم ناظرون ولا مسون وسامعون وشامون وطاعمون. ما بال الجليدي منكم يشناً اللاجليدي. والحديدي منكم يمقت اليعقطيني أفلا تتوادعون. ألم أظهر لكم في طلوع الشمس وغروبها. وفي بزوغ الكواكب ومغيبها. وفي سكون الريح وهبوبها. وفي خمود النار وشوبها. وفي زخر المياه ونضوبها. وفي صروف الدهر وخطوبه. وهمومه وكروبه. وفي سواد الشعر ومشيبه. وفي هرم الجسم وشحوبه. وفي الأزمان إذا توالى. والأحوال إذا حالت. والدول إذا دالت. وفي الغياض إذا أجمجت. والرياض إذا دجت. والأشجار إذا أورقت وجردت. والأطيار إذا زفرقت وغردت. وفي اللسان إذ نطق. والقلم إذا مشق. ليس لعمرى بين الوحوش الضارية والطيور الكاسرة ما بينكم من العداوة والبغضاء. والضغن والشحناء. اذكروا يوم أن صعد خطيبكم المنبر. وعبس وبسر. وتوعد وتنكر. وخطأ وكفر. وحض على القتال وذمر. ثم دعا فأستغفر واستخار الله وأستبشر فأغرتم على جيرانكم وانتهكتم حرمت إخوانكم وفرقتم بين ورضيعها. والمرأة وضجيعها وبين الأب وولده وسبده ولبده. اذكروا يوم أن حشد رئيسكم إليه أعوانه وهاج أهله وأخذانه على أن يخون سلطانه. وأي خيانة وما ذلك إلا لمخالفته له في الحزر والتقدير والتأويل والتعبير والتخريج والتفسير. اذكروا يوم أن أعلمتم أنفسكم بعلائم الجهاد الجهاد وقتلتم هذه حرب الله هذا قتال لرضى رب العباد هذا يوم كسب الثواب والنجاة من العذاب فأفيضوا إلى العدو من البر والبحر واغتنموا عند الله أجر هذا البر اذكروا يوم أن تنازعتم على لون طعام تأكلونه. وشكل شراب تشربونه ورحضة جسم تغسلونه ونوع فراش تتوسدون ورقعة ثوب تلبسونه ووجه كلام تعفكونه ومتاع تستعملونه للخلاف في هذه الدنيا فطرتم أم بالخصام والمعادة أمرتم ما بال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لا يحتلفون في أدلتهم وأن اختلفوا لم يشبوا النار لتحقيق نخلتهم وأنتم تشبونها عند كل فرصة تسنح لكم ووهم يسبق إليه فكركم وكان الأولى أن تتواطؤوا على رأي واحد كما تواطأ أولئك وإن تُسنوا لعباد الله مصالحهم لا أن تدخلوهم في هذه

الملاحك وتربكوهم في هذه المراكب وأن تهدوهم إلى أقوم المسالك لا أن تلبسوا عليهم في هذه الحوالك. دعوهم يشتغلوا بأسباب معيشتهم ولا تكلفوهم إدراك ما فوق طاقتكم وطاقاتهم وأعملوا أنتم أيضاً بأيديكم ساعتين إذا علمتم بالسنتكم النضناضة ساعة وأجمعوا أمركم عند تفرق أهواكم على الألفة والطاعة أنسيتم ما جاء في الزبور الذي به تلهجون وتهذون وتذبرون وهو قوله ما أحسن الأخوة أن تكن جميعاً في بيت واحد كالدهن النازل على اللحية لحية هارون إلا ولا تحرموا ما حلل الله لكم من الطيبات ولا تتلاوصوا إلى معرفة ما لغيركم من الهفوات ولا تبيعوا أملاك السماوات وأنتم على الأرض من ذوي البطالة والترهات.

ليس على السوقي أن يتزوج من حرج ولا على الخرجي أن يتزوج سوقية من مرج فإن اختلاف الحرز فيما لا يعلم لا يكون مانعاً للفوز بهذا المغنم الذي من تعلم ومن لم يتعلم. أو لم تعلموا أن الأرحام من الرحمة اشتقت. وإلى المصاهرة شقت. وعلى الأنساب انطبقت. وإلى التأخي والتآلف خلقت. وبالتواد اختصت. ولا تنهاز فرص الحظ فُرصة. فما لكم عنها تتباعدون. وتتقاعسون وتتفاعدون ولم أنتم هؤلاء في بحر الشك والظن تسبحون وتستبضعون تجارة الخوص وترجون لا يسمع الله دعاء أحد منكم في الشرق إلا إذا كان يستصوبه أهل الغرب. ولا يفيزكم بالآخرة إلا إذا تألفتكم في الدنيا على هذا الضرب. فليصافح إذاً أخضر الرأس منكم أسوده ومدوره ذو القُبعة مخروطه ذا اللبدة ولْيُصَفِّ كل منكم لأخيه نيته ووده. ويحفظ له عهده. وإذ قد اتفقتكم على المخلوق فلا تحتلفوا على الخالق. فهو رب المغارب والمشارك. وأنه ليريد أن المشرقي منكم إذا سافر إلى الغرب يرى أهله فيه له أهلاً. وشمله شملاً فأقبلوا النصيحة وأسمعوا ما يمر بكم بعدها من العبارات الفصيحة والمعاني المليحة في هذا الفصل الذي سميته.

## العشق والزواج

قد ذكرت في آخر الكتاب الثاني أن الفاريق ابتلاه الله بأمراض كثيرة وكتب وفيرة ثم أنجاه منها جميعاً. وأنه بعد أن رأى نفسه معافى منها اطمأن خاطره وأخلد إلى الغناء. والآن ينبغي أن أذكر ختام هذه النوبة وعاقبة هذه الحوبة ذلك أن الدار التي كان فيها الخريجون كانت محاذية لدار بعض التجار وكان له بنت تحب السماع واللهو والطرب وترتاح إلى الغناء جداً فكانت إذا سمعت الفاريق يغني أو يعزف في غرفته تصعد إلى سطح دارها وتنصت إلى أن يفرغ فتزل إلى حجرتها. فلما علم الفاريق أن صعودها كان لأجله أذ لم أحد غيره يظن به التعرض لها صبت إليها نفسه ونزغها فيها نازغ من الهوى غير إنه كان من طبعه النفور من الزواج حتى أنه كان يحسب المتزوجين أشقى الناس لأن الحالة الزوجية لا يبدو منها في

الغالب سوى صعوباتها ومشاقها. وكان إذا قيل له فلان تزوج تأخذه به رافة ويرثي له كما يرثي لمن دار به تبا شديد أو رزئ برزئة كبرى فتنازغ فيه ح عاملاً الهوى والحذر فرجحت كفه الأولى الثاني فرأى أن مجرد النظر أولى من التعرض بإشارة تدل على أنه ذو صبوة وهيام ومكثا على ذلك مدة وهو أحذر من القرلي حتى إذا كان يوم وراها تمسح محاجرهما بمندبل أما من حرّ الشمس أو من غيره أعتقد بمجامع قلبه أنها تمسح دموعها شوقاً إليه فانفتقت بنائق الصبر من صدره وهاج به الوجد لإزالة حذره وقال في نفسه أيقابل أحد غيره دموع باكية بالأعراض. وهل وراء الدموع غير الهوى كيف لا تذيبني وما قلبي بجامد، ولا أنا بمخلد! وقد علمت أن أعظم لذات الحياة ما إذا وجد الإنسان له خدينا نوياً. وقرينا صفياً. وإنا غريب محتاج إلى مؤنس في وحشتي، ورفيق في وحدتي. ومن مؤنس مثل الزوجة. وأي خير في العزوبة لمن رزقه الله قوته وحوجه. وبمثل هذه الخواطر السريعة وطنّ نفسه على تحمل أعباء الهوى من أي جهة كانت. فمن ثم فتح باب الإشارة بينهما. فمن بين توضع على القلب مرة وعلى أخرى. وأصبح تقرن بأخرى. وذراعين تشبّحان مع تنفس وزفير. وشفقتين تضمان. ورأس يهز وغير ذلك مما يتعلل به المبتدئون في الحب. فأما المتناهون فلا يرضيهم إلاّ الهصر بالفودين كما نص عليه الأستاذ امرئ القيس.

ودامت دولة الإشارة بينهما أياماً مديدة من دون كلام. فلما أعجزت الأيدي وسائر الجوارح عن ترجمة ما في القلب وخصوصاً لبعد ما بينهما احتالا على أن يجتمعا في مكان بحيث يرى الحب حبيبته. فلما بصر بها عن قريب وجدها والفضل لمخترع الزبي المصري عندلة جزلة. إذ لو كانت متردية بالزبي الإفرنجي لما عرف هل كان ما في صدورهما عهنًا أو برسا أو قطنا. أو خُرْفعا أو عُطْما. أو بَيْلما. أو قَشْبِرا أو حريراً أو نَوْذلا أو كان ما وراءها عُظامة أو لحمًا وشحمًا فال وهاتان الصفتان أعني العندلية والجزلية أحسن ما يراى من المرأة فإن الأولى تشفع في الكون الأمامي والثانية في الكون الخلفي قلت وقد جاء عن سيدنا سليمان عليه السلام مدح العندلية بقوله في الفصل الخامس من سفر الأمثال فليروينك ثدياها في كل حين. ولقائل أن يقول أن العهن وأخواته مع وجود اليد والجتّ إذا جمع الجسمين مكان لا يمنع من تحقق الصفتين المذكورتين. والجواب أن ذلك محظور غالباً في البلاد المشرقية ولا سيما من أول مرة فأما عند غيرهم فلا محظور منه ولذلك شاع استعمال العظامات عندهم بلا نكير. ثم حيث تقدم لنا في الكتاب الأول وصف الحمار على أسلوب إفرنجي فلا بأس هنا أيضاً في وصف الرجل قبيل الزواج على النسق المذكور فنقول. أنه مدة تعلله بغبطة الزواج وتلحزه من لذاته، لا يخطر بباله شيء من مستأنف آفاته. وإنما يخطر في حذسه ويقول في نفسه أن حالي لا تكون كحالة معاري وجيراني الذين تزوجوا وأخطأهم الأماني إذا هم لم يؤدوا الزواج حقه. ولم يأخذوا في أسبابه بالثقة. لأن منهم من باعل، وهو غير كفو لهذا العمل. أما لصفر

راحته، أو لعدم سماحته، أو لمبانية سنة عن سن زوجته أو لضعف في آله. أو لأنه من الزمالية على شفا. أو لأن جاره كان يخالفه إلى عطنه. أو لأن أمه كانت رقيباً على امرأته. أو لأن أمامه كان ضيقاً له على مائدته. فلذلك ثار بينهما النكار، وطال النكار. فقد القميصان من قبل ومن دبر. وتنف الشعران والصخب كثر وחדش الجلدان خدشاً بالظفر. وأنتن الريحان من فوق السرر.

أما أنا فإني بحمد الله خال عن هذه الخلال. فلا تحول لي مع زوجتي حال. ولا تراحمني فيها الرجال. ولا يعترها مني ملال. فرضاي رضاها. ومناي منهاها. وما أنا بأدرم ولا أبخرز. ولا أحذب ولا أخنب. وأن لي يدين أعمل بهما ورجلين أسعى عليهما. وأن يكن بي عيب في خلقي يستره عني حسن خلقي. فإني لا أعارضها في طعامها. ولا في لباسها ومنامها. بحيث تنام إلى جني. وتتخذ من الملبوس ما يليق بها وب. فما يمنعني من اتخاذ قرينة. تكون على هذه الصفة الميمونة. حتى إذا سمع الناس بأن زوجي عروب وعرضها عندي مصون ووجهها عن المراود محجوب، حسدوني على هذه النعمة السابغة فكان لي كل غصة من العيش سائغة ولا يخفى كم في كيد الحسود من لذة، لا تتقاعس عنها إلا لذه ما عدا ارتياح النفس إلى الجنس الأنيس.

الذي قربه للقلب وللكرب تنفيس. وأن امرأ يقاسي النهار جهده، ثم يبيت في الليل وحده. من دون ضجيع له تنفخ في أنفه وتسخن دمه من أمامه ومن خلفه. لجدير بأن يحصى مع الأموات. ويلقي بين الرفات. هذا وأني أستغي برضبها عن الشراب. ويشم شعرها عن المسك والملاب. فأفهم قالوا أن الرائحة الأثوية تستنشق من منابت الشعر وبها نشوة الحواس. سواء كان في المغابن أو في الرأس. وأجتزئ بحر جسدها عن الوقود للاصطلاء. وبالرنو إليها عن الأئمد والجلاء. فيتوفر عليّ كل يوم في الأقل درهم أنفق نصفه على الحمام كل غداة فيبقى لي النصف الآخر وذلك خير عمم. وغني أتم فأما ما يقال في كيد النساء، وأعناهن الرجال بما يعز على الأسا، فليس ذلك على عمومهم ولا تقرر حكم وأستثني أمور من تعميمهم. فلعلي أول من أخرجهم هذا الاستثناء وسنّ للأعزاب على الزواج الثناء. كيف لا وأنا ذو فصاحة وتبيان ودهاء وجنان. فما يعيني شيء من نكرها. ولا تخفى عني خافية من أمرها فأعارضها وأحجها. وأريها أن لي عليها قفية تضطرها إلى طاعتي وتحوجها فإن قلت لها اليوم يصوم فيه المبالعون، ويتبتل المفاعلون. قالت أنا أول من صام، وآخر من نام. وأن قلت لا يحمل بالمحصنة أن تتبرج. قالت ولا أن تنعج. وإن قلت أن حق الزوجة على زوجها في كل أسبوع مرة. قالت وتبقى أيضاً عفيفة حرة. وأنقلت ليس الحلي بلازم للعرس. قالت ولا الديباج شر لبس. وفي الجملة فإن عيشي معها يكون رغيداً. وحالي سعيداً. وحظي مديداً. وطعامي مريئاً. وشرابي هنيئاً. وثوبي وضيئاً. وفرشي وطيباً. وبيتي مأنوساً ومتاعي

محروساً. وطرفي قريباً. وشأني مذكوراً وسعيي ميموناً. وقصدي مأموناً فحيّ هضل الزواج. بلعوب  
 مغناج. طلعتها علاج من الألفاج وضجعتها أنهاج. إلا الأفلاج. انتهى.  
 وأنا أقول أن مما غُرس في هذه الطينة البشرية اللثية أن الرجل متى وطّن نفسه على الزواج حبّب الله إليه  
 زوجه على أية حالة كانت حتى يراها أحسن الناس خُلُقاً وخَلَقاً. لا بل يرى نفسه أنه قد ترفع عن أقرانه.  
 وتمزّى على إخوانه، حتى يستخسّ ما كان من قبل يستعظمه. وأنه قد صار إنساناً جديداً يجدر بأن يجدد  
 له وجه الأرض.  
 وبناء على ذلك لم يعد الفاريق يرضي بالأغاني والأشعار المتعارفة بل أستبدل الأولى بأخرى جديدة من  
 نظمه. ونظم خلال ذلك قصيدتين حاول فيهما اختراع أسلوب غريب فجاءنا طيخيتين كما سترى ذلك  
 ولو استطاع أن يخترع كلاماً جديداً يعبر به غرامه وحديث شأنه لفعل. وكان إذا رأى رجلاً متزوجاً  
 يهيب به وينشده:

إنما أنت فسّكل قاشور

أنا في حلبة الزواج المجليّ

إنما قدحك السفيح يبور

أن قدمي يفوز عما قريب

أو عزباً قال له

دين العزوبة فاقتدوا بمثالي

يا أيها الأعزاب أني رافض

يا قوم واستغنوا بمثل بعالي

ليس الغنى إلا البعال فبادوا

وهوّس يوماً لأن ينظم ديواناً يشتمل على أبيات مفردة تهافتا على أحداث شيء غريب فنظم أربعة أبيات  
 ثم مسك. وهي

الوصل يمضي كأنما هو ساعه

ساعة البعد عنك شهر وعام

وتتجمي لنجوم ذي ثقلبك

أنتجم الليل الطويل صباية

ويذكرني البدر المنير محياك

ويخفق مني القلب أن هبت الصبا

النوى وأنحائه قلب يذوب تجلدا

ألا ليتشعري كم يقاسي من

ومن الفضول هنا أن نقول أنه كان يقول لخطيبته أنك ملأت عيني قرة. وأني أراك أحسن الخلق. وأنا  
 ليغبطنا الناس. وأنتك تغيني عن الغنى. وأني بقربك سعيد. ويعدك عميد. وإنا نكون أبداً كما نحن الآن.  
 وأنتك ذات ملاحه تشغل الخليّ. وأني أغار عليك من النسيم يفيء شعرك هذا الدجيّ. وأنا لجسمان في  
 روح واحد أو روحان في جسم واحد. وإنك لترين مني كل يوم محبباً جديداً. وإني لأرى فيك كل وقت  
 حسناً حديثاً.

وأنا نكون قدوة للمتزوجين والعاشقين. إلى غير ذلك من الكلام المتعارف عند أمثاله.  
قال خير أيام الإنسان في حياته هي المدة التي تتقدم الزواج والتي تليه. قلت ومبلغها عند الإفرنج شهر  
يسمونه قمر العسل وهو بعد الزواج. ومبلغها عندنا معاشر العرب شهران يقال لهما قمر العسل. حتى إذا  
امتألت الخلية عادت كل نحلة زنبورا ورجع كل شيء إلى أصله.

وأقول أن الحبة مما غرس في الطبيعة البشرية من يوم الوضع في المهد إلى يوم الوضع على النعش. فلا بد  
لهذا المخلوق الآدمي من أن يحب ذاتا من الذوات أو شيئا من الأشياء أو معنى من المعاني. وكلما زاد حبه  
في قسيم منها نقص في قسيمه الآخر. وقد يكون إحداها سببا في زيادة حبه للآخر. مثال ذلك من كلف  
بالشعر أو الغناء أو التصوير فكلفه هذا يكون باعثا له على حب الذات الجميلة. ومن كلف بالعلم  
والقتال والفخر والسيادة فلا بد وأن تقل رغبته في النساء بل ربما لهي عنهن بالكلية. ومن كلف بالخيال  
المطهمة والسلاح النفيس فقد يكون كلفه هذا شائقا له إلى حب الذات أولا. وعدّ بعضهم من هذا النوع  
السرابانية وهم المنظفون للمراحيض. وأسقطه غيرهم بدليل إنها حرفة يحتاج إليها الإنسان لتحصيل معاشه  
لا كلف من هوى النفس. فهذه ثلاث حالات متسببة عن ثلاثة أسباب. وهناك أيضا ثلاث أحوال أخرى  
باعتبار القلة والكثرة وما بينهما. الأولى متعادلة وهي أن يحب المحبّ محبوبه كنفسه. فلا تطيب نفسه  
بشيء ولا تهنئة لذة إلا إذا كان محبوبه مشاركا له في تلك اللذة. وذلك صفة الرجل قبل زواجه وبعيده.  
ولا تخلو هذه الصفة عن الرشد والبصيرة. الثانية المتعدية أي المجاوزة للمتعادلة. وذلك كان يحب المحبوب  
حبيبه أكثر من نفسه. وذلك صفة الأب والأم في حبّ ولدهما وصفة بعض العشاق. أما الأب فإنه يفدي  
بروحه ويحرم نفسه من اللذات والمسرات حتى يمتّعه بها. فإذا رأى نفسه عاجزا عن الأكل والبعال ورأى  
ابنه يأكل ويباعل لذّ له ذلك وهو مع هذا غير خال أيضا عن الرشد والتمييز. فأما العاشق فإنه يؤثر  
معشوقه على نفسه غير أن أفعال تكون محتلة في غير محلها ووقتها. والثالثة معلومة وهي أن يحب الإنسان  
محبوبه مع إيثار نفسه عليه وهو الأغلب. وهناك أيضا ثلاث أحوال أخرى مكانية وهي القرب والبعد  
والتوسط. ولها تأثيرات مختلفة بحسب اختلاف طباع الناس فالصادق الود يحب في حالي القرب والبعد  
على حدّ سوى. بل ربما كان البعد مهيجا له إلى زيادة الشوق والغرام. وما احسن قول من قال في هذا  
المعنى.

مهارة نوى لا بل تزيد بها حرا

كأن الهوى شمس أبي إن يردّها



فأما الطرف الشنق فإنه لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا. وثلاث أخرى زمانية وهي الصبي والشباب والكهولة. فمحببة الصبي أسرع وأعلق. ومحببة الشباب أحرّ وأقوى. ومحببة الكهل أقر وأدوم. الكهل يقدر محاسن محبوبه ومنافعه أكثر. ومحبته له تكون أمرّ وأحلى. فالمرارة لعلمه إنه قد عرض نفسه للوم اللاتمين وعذل العاذلين من الأحداث والأغرار. ولإشفاقه دائما من ملل محبوبه إياه. فقلبه أبدا واجب. وهمّه بشأنه ناصب. والحلاوة لزيادة معرفته بقدر محبوبه كما تقدم. ولكون هواه والحالة هذه راهناً متمكناً فهو يعتقد بمجامع قلبه إنه ساع في أسباب سعادته وحظه. ولها أيضاً ثلاث حالات أخرى باعتبار الاستطاعة وعدمها اعني اليسر والعسر وحالة ما بينهما. أما الموسر فإن محبته أبرد وأحول. لأن غناه يحمله على استبدال محبوبه والتنقل من حال إلى حال. فلتحذر النساء المحصنات هذا الصنف من الناس وإن ماس بهن ماسه. إلا إذا كنا لا يخفن على سرهن وعرضهن. لأن الغني يستحيل إفشاء الأسرار. كما يستحيل خزن الدينار. وعنده أن كل شيء عبد درهمه. وطوع نهمه. فأما الفقير فإن محبته أشط وأشد وألوع. لأن فقره من حيث كان مانعاً له من إزالة الموانع التي تحول بينه وبين محبوبه لا يلبث أن يفضي به إلى اليأس أو الخبال أو الانتحار. فأما المتوسط فإن حبه اعدل وأصح. ولها أيضاً ثلاث حالات أخرى وهي الذل والعزّ والمساواة فالذل غالبا صفة العاشق والعزّ صفة المعشوق. ومن أعجب أنواع المحبة الحبّ المختلط بالبغيض. وذلك كأن يهوى رجل امرأة وهي قهوى غيره وتمنع عليه. فيهيّج به وجده إلى وصالها تشفياً منها. فإن فاز به غلبت محبته على كراهيته وإلا فلا ولا يزال هذا دأبه حتى يسلو عنها الغلب وإن الحب لا يسلو محبوبه إذا عامله بالصد والحرمان إلا إذا ظفر بآخر شبيه له في خلقه وخلقه وهيئات ذلك فأما بواعث المحبة فقد تكون عن نظرة واحدة تقع من قلب الناظر موقعاً مكيناً فتخلج فيه من محركات الوجد والشوق ما تخلجه عشرة مدة مديدة وعندى أنه لا بد وأن يكون الحبّ قد تصوّر في عقله سابقاً صفات وكميافيات من الحسن فصبا إليها حتى إذا شاهدها حقيقة في ذات من الذوات كما كان تصوورها علق بها قلبه وخطره فكان وخطره فكان كمن وجد ضالة ينشدها وقد تكون المحبة عن طول سماع عن شخص فيسترسل السامع إليه شيئاً فشيئاً حتى يكلف به. وأكثر أسباب المحبة النظر والعشرة. واعلم أن كثيراً من الناس قد عشقوا الصور الجميلة في الذكور والإناث لغير دعارة وفسق. وإنما هو ارتياح نفس ووجد بال. ويؤيده ما ورد في الأثر من عشق فكتم فعمّ فمات شهيداً. والعاشق في هذه الحالة يرضى من معشوقة بأدنى شيء. فالقبلة عنده وفتح وغنيمة. قال الشريف الرضي

رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

سلوا مضجعي عني وعنهما فإننا

قلت لو كان لي تصرف في هذا البيت لقلت عنها وعني. وقال ابن الفارض رحمه:

**كم لات طوع يدي والوصل يجمعنا      في بردتية التقى لا نعرف الدنسا**

وهذا العشق يسمى عند الإفرنج العشق الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون الحكيم ولا حقيقة له عندهم وإنما هو مجرد تسمية. ويعرف عندنا بالهوى العُدري. نسبة إلى عُدرة قبيلة في اليمن لا إلى عُدرة الجارية أي بكارها وافتضاؤها وشيء آخر منها. ويروي عن مجنون ليلي إنما أتته يوماً وجعلت تحدثه فقال لها إليك عني فإني مشغول بهواك. وللمتنبي في هذا المعنى

**فشُغِلْتُ عن رد السلا      م فكان شغلي عنك بك**

وأحقّ النساء بأن تُعشّق وتعزّز التي جمعت إلى حسن خلقها الأدب وحسن المنطق والصوت واسعد الناس حالاً من كان له حبيب يحبه كما جاء في بعض المواليات المصرية. فإنه والحالة هذه يقدم على أصعب الأعمال واعظم المساعي. ويباشرها دون أن يشعر بها. لا فكره أبداً مشغول بمحاسن حبيبه. فلو رفع صخرة في هذه الحالة على عاتقه بل فنداً لتوهم إنه رافع نعال محبوبه أو بالحرى رجليه. ثم أنه مع ما يلحق المحبة من طوارئ التنغيص والخيبة والحرمان وخصوصاً مضض الغيرة فإن عيش الخلي لا خير فيه. لأن الحب يبعث على المروءة والنخوة والشهامة والكرم ويلهم الحب المعاني اللطيفة والخواطر الدقيقة. ويكسبه الأخلاق المرضية. ويستوحيه إلى عمل شيء عظيم يذكر به اسمه ويحمد شأنه ولا سيما عند محبوبته. وقلما رأيت عاشقاً به جفاء وفضاظة أو رثاء وبلادة أو دناءة وخساسة. وقال بعض العزّهين وأظنه من التيتانيين. لو لم يمنع من عشق امرأة شيء بعد التعفف والتورّع سوى الاضطراب إلى حبها لكفى لأن الإنسان متى علم إنه مستخّر لحب شيء ومكلّف به ملّة بالطبع ونفر منه. قال فيكون حب المرأة على هذا مغايراً للطبع. هذا إذا كان الرجل شهماً عزيز النفس عالي المهمة. فأما الأوباش من الناس فلا معرفة لهم بقدر أنفسهم فهم يتساقطون على حب المرأة حيثما عنّت لهم وكيفما اتفق. قلت هو كلام من لم يذق الحب أو من كان مفرّقاً ولو سمع أنثى تقول له يوماً احمل يا روعي هذا الحمل من الحطب على رأسك. أو احبّ يا عيني على أستك كالولد الصغير للباها حاملاً وزحلقاً.

ثم أن للعشاق مذاهب مختلفة في العشق فمنهم من يهوى ذات التصنع والتمويه والعجب. ومنهم من لا يعجبه ذلك وإنما يؤثر الحسن الطبيعي. وأن يكون في محبوبته بعض الغفلة والبلاهة وإلى هذا أشار المتنبي بقوله:

**حسن الحضارة مجلوب بتطرئة      وفي البدواة حسن غير مجلوب**

ومثل الأول مثل من يقدم له لون من الطعام وبه قمة فيحتاج إلى التفححية والتقيت ومثل الثاني مثل من به سَيْفِيَّةٌ وَسَرْطُمِيَّةٌ فلا يمنعه عدم التفححية والتوابل من أن يلسو ويلوس ويلثى ثم يلحس قعر الجفنة بعد فراغه منها. فأما رغبة بعض الناس في الغفول والبلاهة فإنها مبنية على أن الحب لا يزال يقترح من محبوبته أشياء كثيرة تبعث إليها الحاجة. فمتى كانت ذات دهاء وذكاء خشي أن تملّه وتحرمه. ومنهم من يزيد في المرأة غراماً إذا كانت ذات عزة وشرّة ومعاصرة فيكون استرضاءها ادعى إلى النشاط والسعي. وهذا يفعلُه في الغالب من يتفرغ للهوى ويتصدى له من كل جهة. ومنهم من يعشق المرأة لاتسامها بسمه الشرف وسيادة أو وجاهة. وذلك دأب ذوي الطموح والاستطاعة. ومن هذا الصنف من إذا رأى المرأة امرأةً وضيفة تشبه امرأة شريفة عشقها لأجل حصول المشابهة فقط. ويقال لأهل هذا المذهب المشبهة. وهو في النساء أكثر فإن المرأة لا تكاد ترى رجلاً إلا وتقول لعله يشبه بعض الأمراء الغابرين أو الحاضرين أو الآتين ومنهم من يعشق من بها ذلة وانكسار وملاينة. وذلك شأن ذوي الرفق والركة. ومنهم من يعشق من على طلعتها آثار الحزن والكآبة والفكرة. وهو مذهب ذوي الحنين والطرب. ومنهم من يعشق ذات البشر والطلاقة والأنس. وهو خلق الحزونين المبتسين. فإن النظر إلى مثل هذه ينفي الهم. ويجلو الكرب والغم. ومنهم من يعشق من بها مرح ونزق وطيش وثرثرة وقهقهة. وهو دأب السفهاء والجهلاء. ومنهم من يعشق المرأة لأدبها وفهمها وحسن كلامها ومحاضرتها وسرعة جوابها. وهو مذهب العلماء والأدباء. ومنهم من يعشق من تكون كثيرة الحلي والتأنق في الملبوس كثيرة الغنج والتمويه وهو طريقة ذوي السرف والشطط. ومنهم من يعشق الماجنة المتهتكة المستهترة. وهو شأن الفساق الفجار. ومنهم من يعشق الخيتعور الشهوانية المتلعجة الطفسة. وهو خلق من مبلغ منه العُهر كل مبلغ. ومنهم من يعشق اللاعة الخريدة العفيفة ابتغاء أن يفسدها ثم يتباهى بذلك بين أقرانه. فإذا رضيت له ملها أو أرادها أن تكون على غير تلك الحال وهو عندي شرٌّ من عاشق المتوهجة. ومنهم من يحب اجتماع هذه الصفات المختلفة كلها في محبوبته بحسب اختلاف الأحوال. هذا في الخلق فأما في الخلق فالتحيف يهوى السمينه وبالعكس. والأسمر يحب البيضاء وبالعكس. والطويل يحب القصيرة وبالعكس. والأملط يحب الكثيرة الشعر وبالعكس.

أما النساء فأحب الرجال إليهن الفارس الأتبع. الشجاع الأروع. فأما الغنى والفقر فلا ضابط لهما فإن الغني يتهافت على حب الفقيرة كما يتهافت على حب الغنية. بل البخيل من الأغنياء يؤثر حب الفقيرة طمعاً في أن يرضيها بالقليل من المال. والغالب أيضاً إثارة حب الجليل الغريب للاستطلاع على ما عنده من الغرائب التي تتصور المخيلة وجودها فيه دون غيره. إلا إذا منع مانع جهل بلغته فح يحصل للمخيلة

انقباض في تماديهها. وكما أن لطف النساء وقلفتن تعجب الرجال ولا سيما في الفراش كذلك كان يعجب النساء من الرجال تراهم وشيظمتهم. فلا تكاد امرأة ترى رجلاً على هذه الصفة إلا وتقول في قلبها عند هذا كفايتي وغنائي. وقد لحظت العرب هذا المعنى باشتقاقهم الطول من الطول. غير أن النساء على الأعم بجنين اللذات من كل مجني ويكرعن من مواردها ما ساغ وما أغص فمثلهن كمثل النحلة تجني من الزهر وان يكن على المدمن.

فأما الغيرة فهي خلق طبيعي في كل بشر إذا كان سليم الذوق. فإن الإنسان يغار على متاعه من أن ينتهكه غيره فكيف على حرمة. وما يقال من أن الإفرنج ليس لهم غيرة على نسائهم فليس على إطلاقه. فإن منهم من يقتل زوجته ونفسه معاً إذا علم منها خيانة. نعم إنهم يتساهلون معهن في أمور كثيرة ربما تعدّ عند المشركين قيادة. إلا إنها في نفس الأمر وقاية من الخيانة. إذ قد تقرر عندهم أن الرجل إذا حظر امرأته عن الخروج وعن معاشرة الغير أغراها بالضمد. بخلاف ما إذا أرضاها بهذه اللذات الخارجية. ثم أنه لما علم اجتماع المستعسلين أي الفرياق والبنت خلافاً للعادة المألوفة ذاقت أمها من ذلك مرارة الصاب فاستشارت بعض أمرها فقالوا لها لسنا نرضى بمصاهرة هذا الرجل لأنه من الخرجيين. وأنت من أعزّ بيت من السوقيين وهما لا يجتمعان. فقالت لهم ليس هو من جرثومة الخرجيين بل هو دخيل فيهم. قالوا لا فرق في ذلك رائحة الخرج ساطعة منه وقد ملأت خياشيمنا وحذروها منه غاية التحذير. مع أي قد حذرهم وأمثالهم في الفصل الذي مرّ من هذا الفصول. فلما علمت البنت بذلك نبض فيها نبض الخلاف وقالت ليست وقالت ليست هذه الفروق من مصالح النساء. وإنما هي مصلحة من أتخذها وسيلة للمعاش والجاه. والمقصود من الزواج إنما هو التراضي والوفاق بين الرجل والمرأة. وأن أيتّم ذلك فهذا أنا أنذركم إني لست من السوقيين في شيء. فرأت أمها أن تغيب بها أياماً عن ذلك المحل رجاء أن يبعثها البعد على السلوان. فهاجت ح جميع عواطف الهوى في كل من العاسل والمعسول. وإليه أشار أبو نواس بقوله: دع عنك لومي فإن اللوام أغراء.

فلما رأت الأم أن لا إشارة تمنع البنت من الاشتيارة. ولا جَزْر يكفّها عن الجزر رجعت إلى منزلها واستدعت بالفارياق وقالت له: قد علمت أن السوقيين لا ييغون مصاهرتك. فإن كان عزمك على أن تنزوج ابنتي ينبغي لك أن تتسوق ولو يوماً واحداً. قال لا بأس، فعلى هذا تسوق يوم عقد الزواج وقرت عين كل منها ومن البنت. ثم أحضرت آلات الطرب ليلاً وأدير الكؤوس وزها مجلس الأُنس والسُرور. والفارياق مواظب فيه على خدمة إدارة الكأس ومعيد على العازفين الأطراء وقوله آه وأيه واوه. حتى إذا كلت يدها ولسانه ورأى أن عزم الشرب أن يسهروا الليلة كلها إلى الصباح أنسل من بينهم وصعد إلى

السطح لكي يستريح. وكانت الليلة مقمرة من ليالي الصيف. فلما أبطأ عليهم ظنوا أنه تفلت أنه من الإربة فأخذوا في التفتيش عليه كما يفتش على امرأة فالك أو فارك. فلما وجدوه وعلموا أن نيته مخالفة لنيتهم أدخلوا له ولعروسه حجرة وهموا بالانصراف. فقالت الأم لا أو تنظروا بأعينكم البصيرة. وسبب ذلك أن عادة أهل مصر في الغالب هي أن يتزوج الرجل المرأة من دون أن يعاشرها ويعرف أخلاقها. وإنما ينظر إليها نظرة واحدة بات تناوله مثلاً فنجان قهوة أو كأس شراب بحضرة أمها. فإن أعجبته خطبها من أهلها وإلا كف رجله عن زيارتهم. ومنهم من يتزوج ولم يكن رأى امرأته قط. وذلك بأن يبعث إليها أمه أو عجوزاً من أقاربه ومعارفه أو قسيساً فيصفونها له بمقتضى ذوقهم وخبرتهم. والغالب أن أم البنت ترشي القسيس ليحيد صفة بنتها فيرغب الرجل في الزواج بها. ومنهم من يتزوج امرأة قاطنة في بلاد بعيدة فيبعث إلى أحد معارفه في تلك الجهة ليصفها له في كتاب ثم يستخير الله ويرتب. ومع ذلك فإن عيش هؤلاء المتزوجين على هذا النمط يكون هنيئاً. فأما في بلاد الشام فعادة أهل المدن كعادة أهل مصر وعادة أهل الجبل مغايرة. فإن الرجل هناك يتمكن من رؤية المرأة ومعرفة أخلاقها. هذا ولما كان الفاريق قد تعدى حدود العادة بمصر في كونه اجتمع بالبنت مراراً عديدة في حضور أمها وفي غيابها. أرادت أمها أن تنفي العار بإظهار علامة البكارة. حتى يشيع خبر براءة البنت في جميع البلاد. فإن أكثر الناس لا شغل لهم إلا الكلام. فاجتمعت تلك الزمرة وراء الباب بعد أن جمعوا العروسين. وطفق الواحد منهم ينادي ويقول افتح الباب يا أبا مزلاج. فظن الفاريق أنه يريد الدخول عليهما ليعلمه كيف يكون العمل. ففتح له فقال له ما هذا الباب وإنما أردت باب الفرج. فرجع إلى عروسه وإذا بآخر يقول لج القبّة يا ولّاج. وآخر تجر الطعنة يا بجّاج. وغيره ارو الصدى يا ثجّاج. وآخر أزل الزغب يا حلاج وغيره أفرغ السجل يا خلّاج - أسرع الوطاء يا زلاج - املاء الوطى يا زمّاج - ملل الملمول يا ممّاج - اغطس في اللجة يا غاطس - افقس البيضة يا فاقس - أجل المسواك يا وامس - تسور السور يا معافس - روض المهرة يا فارس. وما زالوا به حتى شام أبا عمير وناول أمها البصيرة. فتهللت منهم الوجوه فرحاً وحبوراً. وصفقت الأيدي استبشاراً وسروراً. ونطقت الألسن بالتبرئة. وختموها بالتهنئة. ثم انصرفوا وكأنهم قد قفلوا من غزوة غامنين. وكادت الأم تطول عن الأرض شبراً لهذا الفتح المبين.

### القصيدتان الطيختان

تبع العشيقه من أمام ومن ورا

يوما ويوما أضحك المستعبرا

ما كنت أول عاشق بين الورى

ورأى البكاء له معينا شافيا

ويكون مصروع الغرام مزبياً  
ومحنبشاً ومجّمشاً ومدّهفشاً  
ومرنماً ومغنياً ومصفّراً  
وفيينة متثائباً متمطياً  
وإذا رأى رأياً رشيداً كان في  
فالعشق عقل العقل عن صيوره  
قد كنت أعجب أن يقولوا شاعر  
حتى لقيت صوّحبيّ كليهما  
خُلقَ الجمال لعين صبّ جنّة  
لا غرو أن يغدو لحرمة وجه من  
يا ليت يغني المرء يوماً واحداً

متكسّساً مستقبلاً مستدبراً  
ومكّنصاً ومزنجراً ومعنجرأ  
ومشيباً ومطبلاً ومزمرأ  
وفيينة متقاعساً مقعنصرأ  
إيرامه مترهناً متأخراً  
حتى يضل عن الصواب ويبطراً  
نوجنّة وأخال ذلك مفترى  
فإذا هما من طينة قد صوّراً  
ولقلبه ناراً تزيد تسعراً  
يهوى وقد حمل الغرام محمراً  
عنهن من شيء يباع ويشترى

ليت الجمال لهن مثل الملح في  
بل ليتهن خلقن اقبح ما يرى  
ليت الكواعب كن هُضلاً حبذا  
يا ليت ذي الهيفاء درّحة وذو  
ليت العيون النجل ضيقة وما  
يا ليت كانت كلذ ساق فعمة  
يا ليت لم يصلّت جبين فوقه  
يا ليت ما في الجيد من عنط بدا  
والحسن أن القبح أحسن ملمحاً  
فلأيّ داع كان شغل عقولنا  
ولم اختصن بكل علق مضنة  
وبم ارتفعن على الرجال تطاولاً

قدر الطعام مهوّاً إن كثراً  
كيلاً نهيم تحيراً وتخيراً  
الطرطب مع لا يا كبادي منظرأ  
الدهساء فلحسه فيهنننا الكرى  
في الثغر من در نظيم صُفراً  
عود الشكاعي بل أدق وأظمراً  
شعر كلّيل كل غرٍ غرراً  
وقصاً لأعيننا وشيئاً منكراً  
إذ ليس يبكي العين ما منه يرى  
وقلوبنا بهوى الونائر أكثرأ  
وبكل حلي فاخر دون الورى  
ولهن تحت تقدماً وتأخراً

والى مَ تصطبِر الفحول وقد طغت  
منا خرجن وعقلنا يخرجن إذ  
ولأى شيء لم يكن قود على  
ولأى شيء حل رشف الريق من  
وعلى مَ تعتَز الشنَاط على شج  
سلها هل التتور فار كما انبغى  
أين المعالي والمكارم أين من  
يقتاده اسم الخود أن ذكرت له  
وإذا تجشأ ساعة في وجهه  
ولربما عشق الكبير فجُنَّ من  
ولو ان ذا القرنين جاري كيدها  
لولا النساء لما رأيت مخطأ  
ومفلساً ومجبَّها ومُعنَّا  
ومتيما ومهيما ومسهما  
ولما تناثرت الجماجم في الوغى  
ولما عفت دول بهنَّ لهت فيبيتها  
أملت عليَّ حوادث الأمم التي  
يارب قد فتن النساء عقولنا  
أو فاجعلن غشاوة تغشى على  
أو فانصنا أو فابصنا أو فالصنا

أفعالهنَّ تحيِّر المتصبرا  
يدخلن أو يخرجن سَفَّه من مرى  
من لحظها قلب المتيم قد فرى  
ثغر الرشوف وكان ذلك مسكرا  
يمسي ويصبح بالغرام محسرا  
في كل شهر أم تأخر اشهرا  
فخر الأنام بعزّه وتجبرا  
طوعاً وكرها وهو يهزم عسكرا  
من أي سمّ قال أنشي عنبرا  
ريح من الحسناء تفعم منخرا  
لرأى إلى قرنيه قرنا آخرا  
ومسفّها ومفسقا ومفجّرا  
ومكشخنا ومجرّسا ومعزّرا  
ومدّما ومدّما ومشّهرا  
تحت السنابك وهي توري المغفرا  
الدمار فأصبحت تحت الثرى  
غبرت فقلت مقال من قد حرّرا  
فامسح محاسنهن قبحا يزدرى  
أبصارنا أو لا فأعم المُبصرا  
أو فاخصنا طبعاً بصاء بالحرى

### الثانية

لمن أشكو وقلبي الي  
ومن أشكو وعقلي الي  
وم من أكبر أعدائي  
وم معقول بأهوائي

وطرفي مُبسل لَبِّي	ولبي جالب دائي
ولوّامي من كانوا	إذا غبت أودّائي
ولا وأي من الألو	عن الألى من اللائي
وقد أفسد آرابي	جميعا بعضها اللائي
رأى نار الهوى تذكو	لإحراق وإصلاء
فما بالي بإصلائي	تلطيها وأسلائي
يقول الحنف من لمج	وكوني ميت أحياء
أحبّ إليّ من عيشي	يوماً عيش تيتاء
حياة الصرّ تكدير	وصفوتها بأصفاء
وما ينجع نصح فيه	لو كان بأتلاء
فهل من حكم ما بيننا	يقروا بإفتاء
عواديه ودعواه	بإصباحي وإمسائي
وثورته وراثته	لأخزاي وأختائي
طغا خطبي فما لي الي	وم من آس وأسوائي
فأسواي لا ينفك	من لهج بأسواء
فلا يشغلكم هجوي	وتقريظي وإطرائي
فراسي اليوم إمرة	لداعي نكس أهوائي
فلا مطمع في رشد	خليع رقّ أغوائي
إذا وقصت به عنقي	فلا تشكوا لأذمائي
وأن شجت به رأسي	فلا تبكوا لإذمائي
وأن هثمت به سنّي	فلا تعموا عن المائي
وأن بُخفت به عيني	فلا تكروا لإعمائي
جرى المقدور من قدم	بتضليلي وأشقائي
فلو شاء لأبقاني	معافي أي إبقاء



ولو شاء لأعماني

عن لقاء سوقاء

دعوا ذا الوجد يشقيني

ويمنيني بإشفاء

وهذا العشق يضنيني

ولا تعنوا بإشفائي

فذا عظمي وذا جلدي

وذا شأني وإنشائي

فما يدخل ما بيني

وبين هوى بأحشائي

سوى فظّ فضولي

زنيم شر مشاء

إذا أسمعكم عتّباً

فعدوني من الشاء

ولا تبقوا على طوقي

وجلبابي وأعضائي

فإن القدم من يسمع

ذا عدل بإغضاء

وإن الحر من يُسمع

عتّباً تلو إرضاء

### الأغاني

يا بدر مالك ثان

في حسنك الفتان

فأرحم فتى ولهان

مبلبل البال

عذبّ بما ترضاه

إلا الجفا أخشاه

قد طال ما أصلاه

وأنت لي سالي

يا يوسف الحسن

حوشيت من سجن

هددت بالحزن

أركان آمالي

من ذا الذي أغراك

بصد من يهواك

الطرف منه باك

وجسمه بالي

حتام ذا الهجران

والصد والحرمان

حسن بلا إحسان

كالريّ بالآل

محبك الواجد

منك الرضى فاقد

يا ليتني واجد

اتهام عدّالي

أضناني السهد	وعزني الوجد
ما القصد ما القصد	سواك يا غالي
يا فائن العشاق	باللحظ والأحداق
تبارك الخلاق	لحسنك الكالي
أفديك بالمال	والروح واللالاي
رضاك أشهى لي	من طول آجالي

### غيره

ما ترى عيني مثيلك	يا رشا فأرحم قتيك
لم يرم إلا سلامك	ثم أن شئت جميلك
كل ما فيك مليح	كبدي منه جريح
بليت تفدي مقامك	والهوى فيها صحيح
أنت لي يا بدر سالي	وأنا للهجر صالي
من يذق يوماً غرامك	لم يذق طعم الليالي
يا رشا صد دلالا	وجوابي منه لا لا
أسمع العبد كلامك	وراقب المولى تعالى
فيك تعبيدي وذليّ	وهيامي أصل ضلي
ليت من غيري رامك	يبتلي بالهجر مثلي
ضقت بالهجران ذرعاً	ولشوقي كان أدعى
لم أزل أرى ذمامك	وذمامي لست ترعى
أن يكن وصل فعذني	فيك قد أحسنت ظني
أسأل الله دوامك	فهو لي أشهى تمني
يا مليك الحسن طراً	يعرض المملوك أمراً
أدعه يوماً غلامك	أن له أجريت ذكراً

طال بالباب مثولي	والتفات منك سولي
من رأى يوماً قوامك	راح صباً ذا نحول
إنما بدري غزال	فأتني منه الدلال
يا عدولي دع ملامك	إنما العشق حلال

### غيره

اللقا طيببي يا من لي سبيت	والهوى نصيبي من يوم انتشيت
أن في شحوبي شكوى لو رثيت	يا صنو القضيبي ما هذا الجفا
يوسف الجمال ذا الهوى صعب	تهت بالدلال شانك العجب
أن تسل عن حالي ينفع العتب	أو بقيت سالي لم يفد دوا
من حمل الصدود صرفت في ذا الحال	من مطل الوعود صار جسمي بال
أدمعي شهودي واشتغال البال	ليس من محيد عن حكم الهوى
قد رثى لي اللاحي لما عادوني	وعلا نواحي مما آدني
وجهك الصباحي ضلاً زادني	يا زين الملاح أنعم باللقا
مرّ بما تشاه تلقني مطيعاً	تلقني فداه جهد المستطيع
ولعي أذكاه شكلك البديع	جسدي أضناه منك قول لا
من يجد كوجدي يدر قصتي	ليس غير الوعد منك حصتي
بعض هذا الصد أصل غصتي	أنا فيك وحدي مبتلي أنا

### غيره

يا فاتر الجفون ما بدأ لك	حتى جفوت عاشقاً جمالك
ويا قضيبي البان ما أمالك	عن مغرم مؤمل وصالك
عذب بما ترضاه يا غزالي	إلا الجفا شماتة العذال
أنعم بوصل منك يوماً بالي	أنعم طول العمر ربي بالك
علام تجفوني وما لي ذنب	وما لقلبي عن هواك قلب

بحق من أولاك ما تحبّ  
لم يبق لي على الصدود طوق  
دعني أقبل مرة أذيالك  
وليس لي إلى سواك توق  
وعال صبري عنك هذا الشوق  
وهل لعيني أن ترى أمثالك

أحرمت طرفي في الليالي غمضا  
يا هل ترى صدك عني فرضا  
وقلت أرضى علّه أن يرضى  
ناشدتك الله أنلني سولي  
فمن بقتلي يا رشا أفتى لك  
يكفي الذي تراه من نحولي  
وكن رفيقاً بي يا مأمولي  
يعيذ رب العرش منه حالك

### غيره

يا بدر قل لي هذا الهجران  
جُدلي بوصل يا غصن البان  
تغوي إليه أم أمنيّه  
ما القصد إلا يوماً مرآك  
توجر عليه أو في النّيّه  
لا تخش عدلاً ممن أغراك  
فالصّب صار في بليّه  
نعمت بالاً أنعم بالي  
فلي شجون في الطويه  
من الخصال الملكيه  
وطبت حالا طيّب حالي  
بهذا الدلال قرب الطيه  
فقت الأناما بما حويت  
ليست ترام ذي السجيه  
ومنك راما عبد سبيت  
وذا الغرام لي منيّه  
كم ذا المطال ولا وصال  
لاند لك في البريه  
هذي الفعال يا ربّ الخال  
أنت المراد دون الأنام  
فما سعاد بين الوسام  
أنت ملك أو حوريه

### غيره

إلى هنا يا بدر لي أنت المنى  
كلّ جنى منك الرضى إلا أنا

يا فانتني بالدّل لما تخطر	وشاجني إذ جزت شزر أتنظر
قد شاقني منك المحيا الأزهر	واستاقني وجدي إلى حدّ المنّا
بي كلّما ألقاك عني معرضا	وجد نما لكن جسمي أمرضا
يا ذا اللّمي حتام لا تبدي الرضى	صل مغرماً ألبسته هذا الضنا
سبحان من آتاك ذا الحسن الفريد	كم قد فتن صبّا به أمسى عميد
أنت الحسن والشوق في قلبي يزيد	أن الشجن للعظم مني أو هنا
كُلفت في ذا العشق تبريح الجوى	حتى تقي لكن هيهات الوفا
هل منصفي مما به يقضي الهوى	أو مسعفي خدن على نيل المنى
يا بدر لا تسمع مقال العاذل	وأرع الولا ناهيك وجدي قاتلي
فقت الملا حسناً ففق بالنائل	جُد بالطلا من فيك يا حلو الجنى

### غيره

إذا أمر الهوى رابك	فلا تفتح له بابك
ولا تشغل به دابك	يسمك الحزن والهـما
أتيتُ العشق من بابـه	وعللت بأكوابه
فما قد ذقت من صابه	دعاني لم أذق طُعما
هو العشق له مبدا	ولا تلقى له حدّا
يذيق العاشق السهدا	ويبلي الجلد والعظما
أيا من قد كوى قلبي	بهذا الدل والعجب
إذا لم تستمع عتبي	فمن أشكو له السقما
تناهى بي الذي أجد	من الشوق الذي يقد
فدتك الروح والجسد	فكن يوماً معي سلما
لقد أفرطت في هجري	وملكت الهوى أمري
فلا والله ما أدري	أسحراً كان أم حلما

عسى أو علّ أن تشفى	عليلاً منك يستشفى
ونيران الهوى تطفى	فقل تطفأ وخذ مهما
غدا مضناك يا حبّ	له صبر ولا قلب
ودمع فيك منصب	لأن يُسقى بفيك ألما

### غيره

طيري لا غير لا أسلو عنه ساعة	يا أهل الخير هلاً رعتم من راعه
دمعي سكّب ونار شوقي لا تخبو	ولي قلب للهوى يبدي الطاعه
أنا الهائم عن حبّ السوى صائم	ليلي قائم لا أغفى فيه ساعه
أشكو الوجداء ولم تزد إلا صداً	فأرحم عبداً قد نوّعت أوجاعه
مالي صبر وكيف صبري يا بدر	وذا الهجر أشقى نفسي الطماعه
طغا الهجران وما يشفي الصب الولهان	مثل السلوان لكن نفسي نزعاه
أراني البين أنواع الضنا والحين	وعشق الزين مني فوق الإسطاعه
دوام الصد لم يترك للمضنى جد	ولين القد ينشي فيه أطماعه

### غيره

لو لم تدم بلوايا	لم تستمع شكوايا
ولا درى مبكاي	من في الهوى يلحاني
أكثر من صدودي	يا مخلفا وعودي
لم ترع لي عهددي	ولم تسأل عن شأني
أعرضت عني كبرا	وكان وصلي أحرى
لقد عدمت الصبرا	من فرط ما دهاني
حملتني أثقالاً	وطبت عني بالا
قل لي نعم أو لا لا	فلمطل قد أضناني

يا مفرد الجمال	يا بدر أحسن حالي
شمت بي عذالي	أما كفى أشجاني
سبحان من قد أبدع	هذا المحيا الأروع
والحسن طرا أودع	في طرفك الفتان
أن الهوى هوان	تضنى به الأبدان
ما أختاره إنسان	إلا وكان العاني
مولاي يا مولانا	يا منتهى منايا
لا تتخذ سوايا	وتسلني بثاني

### العدوى

قد تقدم في المقامة الأولى أن عدوى الشر أفشى من عدوى الخير. وأن الأجر قد يعدي أهل المصر جميعاً بخلاف الصحيح فإنه لا يعدي أحداً من جيرانه. وهذا يرى أيضاً في الأمراض العقلية والقلبية. وشاهده على ما قالوه أن معلّم الصبيان لكثرة معاشرتهم ومخالطتهم إياهم ترك عقولهم ويأفن رأيهم. وكذلك المكثرون من مخالطة النساء فإن قلوبهم ترقّ وطباعهم تتخث. فيتجدون عن تلك الشهامة والبسالة المختصة بالحردين من الناس. وقد أعرف كثيراً من أبناء جنسي الذين عاشروا الإفرنج لم تسترق طباعهم منهم إلا الرذائل دون الفضائل. فصار أحدهم لا يقوم عن المائدة إلا وقد مسح الصفحة التي أكل منها مسحاً لا تحتاج معه إلى غسل. وإذا حضر مجلساً أنحى على أحد شقيه وزقع زقعة يدوي منها المجلس. وربما غسلها بعد ذلك بقوله سكوزي أي أعذروني. ومنهم من يلبس هذه النعال الإفرنجية. ويطأ بها وسادتك هذه العربية أو يرخي شعره كشعر المرأة وأول وما يستقر به مجلس يتزعق قبعته ويطلق يزرع في حجرتك ما يتناثر من هبريته. ومنهم من إذا ضمه مجلس بين إخوانه ومعارفه أو غيرهم ورأى فيه أديبن يتساجلان أو يرويان النوادر الغربية أخذ في التصفير. ولكن تصفيراً مختلاً خلاسياً إي غير إفرنجي محت ولا عربي حتم. إذ لم يكن قد عاشر القوم مدة طويلة تمكنه من تحصيل هذا الفن الجليل. ومنهم من يمد رجله إذا قعد في وجه جلسه. ومنهم من يأتيك زائراً ولا يبرج ينظر في كل هنيهة إلى ساعته إشارة إلى أنه كثير الأشغال جم المصالح. مع أنه يلبث عندك حتى يراك تقوم من النعاس. أو يراك قد حملت وسادتك وقلت شفى الله مريضكم. كما قال الأخفش لمن عادوه في مرضه.

مع أن الإفرنج فضائل كثيرة لا تنكر. منها أنهم يرون في استعارة المتاع والماعون والكتب وغيرها عيباً.

ومنها أنه إذا زار أحدهم خليلاً له ورآه مشغولاً رجع على عقبه من حيث جاء فلا يقعد ينتظره حتى يفرغ من شغله. بل لو وجدته متفرغاً خفف عنده ما أمكن. وإذا رأى على مائدته كراريس أو صحفاً لم يتلقفها ليقرأها ويفهم مضمونها. ومنها أنه إذا كان للمزور منهم ولد مريض أو كانت زوجته قد وضعت أو مرضت فلا يترك مريضه ويقعد مع الزائر للسلام والكلام فيما لا طائل تحته. ومنها أن أحدهم لا يتزوج امرأة إلا بعد أنيراها ويعاشرها. وأنهم يوسون أيدي النساء ووجوه بناتهن وما يرون في ذلك معرفةً وانحطاط قدر. وإنه ليس عندهم أو شن ولا ضيفن ولا مَزُو. ولا يقول أحدهم لصاحبهم أعزني منديلك طي أمخط فيه أو آلتك كي أحتقن بها. ومنها تساهلهم مع المؤافين وحملهم ما يصدر منهم من الجهل والخطأ محمل السهو أو الأغراب. فلا يتعتنون مثلاً على من قال فلان شَمَّ النرجس وحبِق. أو حبِق وشَمَّ النرجس. أو شَمَّ فحبِق أو ثم حبِق. والمؤلفون عندنا لا يجوزون ذلك. وفي كتاب ألفه أحد معارفي من الديار الشامية باللغة الإنكليزية في أحوال تلك البلاد وأخلاق أهلها. بعد أن وصف عرساً حضره في دمشق ذكر أنهم ختموا العرس بأغنية لم يزل ذاكرها بحروفها. وقد رأى تفضلاً منه أن يترجمها إلى اللغة المذكورة. وهي في الحقيقة مرثية في امرأة أذكر منها بيتين وهما:

وَهَلْ تَغْيِرُ ذَاكَ الْمَنْظَرَ النَّضْرُ

بِاللهِ يَا قَبْرَ زَالَتْ مُحَاسِنُهَا

فَكَيْفَ يَجْمَعُ فَيْكَ الزَّهْرُ وَالْقَمَرُ

مَا أَنْتَ يَا قَبْرَ بَسْتَانٍ وَلَا فَلَكَ

ومع ذلك فإن الإنكليز حملوا روايته على الأغراب ولم يخطئه أحد منهم بقوله كيف يمكن لأهل الشام الموصوفين بسلامة الذوق واستقامة الطبع أن يختموا أعراسهم بالمرثي المبيكية.

ولكن لو كانت روايته هذه في اللغة العربية وبلغت مسامع أهلها لعقدوا عليه مجلسين أحدهما عامي والآخر خاصي ففي العامي يقول أحدهم ما شاء الله يا خي مرثية في ختام العرس أسمعوا يا ناس وتعجبوا من حذق هذا الراوي. فيقول الآخر أي والله مرثية بدل الغناء عمركم يا ناس سمعتوا كلام زي دا. فيقول غيره لا حول ولا قوة إلا بالله ما لقيش المغفل دي إلا الرثاء يجعله في ختام العرس. فيقول آخر حسبنا الله ونعم الوكيل يمكنش غفله أعظم من دي أهل العرس يختموا فرحهم بمرثية وما يتطيروش. فيقول غيره الله على دي الراوي هو مغفل ولا مجنون حتى يكذب على الناس الكذب دا ويملاً كتابه بالهجس والكلام الفارغ. فيقول آخر يا سلام دا الله أغرب ما سمعت أن الناس يستعملوا النواح عوض الغناء والبكاء عوض الضحك والصفع على القفا بدل المصافحة باليد. فيقول غيره ولكن الناس دول اللي قروا كتابه حمير ولا مجانين ما كانش فيهم واحد يقول له "إذا كان نصرانياً" يا خواجا "أو إذا كان مسلماً أو مستسلماً" يا



أفندي أهل بلادك يتطيروا ويتشاءموا كثيراً فيما يصحش أن الرثاء عندهم يستعمل في الأعراس. فيقول الآخر سبحان الله هو حمار ضحك على حمير يا خي خلونا منه. فيقول غيره لا إله إلا الله نحب نعرف السيرة أيه أن كان كلامه دا جدّ ولا مزح. فيقول آخر مزح أزي اللي هو طابعه في كتاب سنباع في الدكاكين ومصور عليه صورته بسيف وحمائل وأزرار. فيقول غيره بقا نقول أزي يبقى الإنكليز ييلغوا كل شيء يستغرفه في حلقهم الغريب اللي عنده سيف بأزرار وحمائل. فيقول آخر أظن الإفرنج كلهم يصدقوا الخرافات. فيقول آخر ياخي دا باب واسع أول الكلام وآخره غفلة من الراوي وحماقة من السامعين. إلى غير ذلك من الانتقاد والتعنت.

فأما في المجلس الخاصي فإن القضية تبلغ فيه مبلغاً أعظم من ذلك وأخطر فإنهم يصورونها في صور فتاوى علمية وأجوبة فقهية فيستفتي أعظم أدباء المجلس قائلًا: ما قول أمام الأدباء، وتاج الألباء. في مؤلف زعم أن أهل الشام يستعملون المراثي في ختام أعراسهم. فهل تقبل له شهادة أو لا؟ الجواب. لا تقبل له شهادة عندنا على ذنب حمار. وان باع كل نسخة من كتابه عند الإفرنج بدينار. صورة استفتاء آخر: ما قول عمدة المصنفين، وقدرة المؤلفين، في مدّع ادعى انه سمع بكلتا أذنيه مرثية تنشد في ختام عرس في الشام الشريف. فهل يصدق كلامه وتجوز مطالعة كتابه أو لا؟ الجواب. لا يصدق ولا يوثق بما رآه بعينه لا في الليل ولا في النهار. ولا بما سمعه بأذنيه وان كانتا كاذبي الحمار. استفتاء آخر: ما قول من كلامه مزيل للإيهام، وموضح للإيهام، في كاتب أودع في كتاب ألفه كثيراً من الروايات الهذاهذية والحكايات الاقناسية. وزعم في جملة ما قاله أن أهل الشام ينشدون المراثي في ختام أعراسهم. فهل يحمل كتابه كله على هذا الكذب أولاً؟ الجواب. من كذب في قضية معلومة مثل فأحرى به أن يكون كاذباً في سائر القضايا فالأولى حمل كتابه كله على الكذب. استفتاء آخر: ما قول اجل النقاد. وحجة ذوي الرشاد، في رجل ألف كتاباً ذكر فيه أنه يعرف كثيراً من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء. وإنهم له أصحاب وخلان وانساب وأخوان. ثم ذكر في موضع من الكتاب أنه حضر عرساً في دمشق الحروسة كان مزينا بالزهور والرياحين، والمغنيات والمغنين. وكان ختام ما غنّوا به مرثية قيلت في امرأة. فهل على فرض كونه كاذباً في هذه تشفع له معرفته بالوزراء في تصديقه بغيرها؟ الجواب. ما هو بصادق في هذه ولا في غيرها ولا تشفع له معرفته بالأمراء في شيء كما ورد.

### لن تنفع الراوي الأفّاك نحلته بأنه يعرف الأعيان والأمرأ

استفتاء آخر: ما قول من لا يعلو قول على قوله، ولا يقطع أمر إلا بفصله، في رجل ذي رُوء، وسراويلات مفرسجة من أمام ومن وراء، ألف كتاباً ضمنه ما سمعه وما رآه في بلاده. وكان من جملة

ذلك قوله إنه رأى عروساً تزف وتنشد بين يديها مرثية في امرأة. فهل يعتمد على روائه بالأخذ في روايته؟ الجواب. ليست الرواية من الرواء. ولا يعتمد على زيّه في الإخبار عن ميته وحيّه، كما ورد:

لن تتفع الراوي الأفاك حليته ولا سراويله أن فاه أو سطرًا

استفتاء آخر: ما قول عمدة الأنام، عفا عنه الملك العلام في رجل تصدقه العجم. وتأخذ بكلامه في كل أمر أهم. وتقرّ عيون نسائهم بالنظر إلى لحيته، وسراويلاته وحليته. وكشترته وجلقته. وخرعته وجلعته. فيخلبهنّ خلْباً. ويأسرنّ غراماً وحباً. ألف كتاباً أودعه من أخبار أهل بلاده أي بلادنا ما شاقهنّ وأعجبهنّ. وشهاهنّ وعربهنّ. فمن جملة ذلك إنه شهد محفلاً حفيلاً، وعرساً جليلاً، قد زين بالأنوار الزاهرة، والوجوه الناضرة، والمآكل القدية، والمشارب الهنية. والمشموشات الذكية. فلما شرع في زفاف العروس إلى بعلها. واستبشرت الوجوه بفتح قفلها، وإذا بمنشدين ومنشدات. ومطربين ومطربات. وقفوا بين يدي العروس. وعلى وجوههم سيماء الحزن والعبوس. وشرعوا ينشدون مرثية طويلة. في امرأة توفيت مذ سنين غير قليلة. فهل يصدق وصفه ويشفع له فيه خلبه الأعاجم وصرفه. وحزبه منهم وحلفه. وقدامه وخلفه. الجواب؟ لا يؤخذ بكلامه فيما افتراه. وإن كان له أخذان من العجم على عدة شعرات قفاه كما ورد.

لن تتفع الراوي الأفاك شيعته من الأعاجم لا يدرون ما هذراً

مع أن كلام المؤلف لم يضرّ بأهل بلاده شيئاً يوجب التحزب عليه. فغاية ما يقال فيه انه نسبهم إلى وضع الشيء في غير محله. ولكن هذه عادتهم في التعنيت فلا يكاد يسلم منهم مؤلف. ولو أن صاحب هذا الكتاب المذكور قال للإنكليز أن الرجال في بلاده يلبسون الليف والخص. والنساء يتزينّ بالخسف والشقف. ويتكلمن وأفواههنّ مطبقة. وينظرن وعيونهنّ مغمضة. ويسمعن وآذانهنّ مسدودة. ويرقدن ساعة في الضحى. ونصف ساعة في الظهر. وساعة وربعا في العصر. وساعتين إلا ربعاً في المساء. وثلاث ساعات إلا في الليل. لعدّوا ذلك منه أغراباً.

ومن هذا القبيل أي من قبيل استراق الإنسان مذام عشيرة دون محامده كان إظهار البصيرة أي علامة البكارة المشار إليها. فألها عدوى سرت إلى نصارى المشرق من اليهود على ما ذكر في كتبهم. مع أن لهذا الجليل أيضاً فضائل كثيرة عرفوا بها من قديم الزمان إلى الآن. منها درايتهم بجمع الأموال والجواهر ومعاطم الحرف الحقيقة اللطيفة كالصيرفية والنقد والقرض. وصيغ ما هو قديم من الثياب حتى يأتي جديداً. ومن ذلك حبّ بعضهم بعضاً بحيث أن الغريب فيهم من جنسهم لا يحتاج إلى أن يتكفف ما في

أيدي الناس ممن سواهم. ولا يخاف أن يعوزه المال وهو بين ظهرانيهم فيتنوّت بالجدور. أو يكون خلطاً فقيح عرضه للأجانب. بل يلقي في كل بلد نزله وكان فيه أناس من جيله أهلاً وسكناً. ومنها أنهم قد اصطلحوا على لغة يعتبرون بها عما يخطر ببالهم من المصالح المعاشية. ولا فرق بين يهودي من أقصى المغرب وآخر من أقصى المشرق في الأخلاق والأطوار والعادات والرأي. بخلاف النصارى فإن النصراني المشرقي إذا قدم إلى بلاد النصارى الغربيين فأول ما يحيونه عند رؤيتهم له قولهم هذا يهودي أو تركي. ثم هو إذا احتاج إلى مبيت أو طعام من عندهم أبلغوه إلى رئيس ديوان البوليس فصانه هناك في موضع لا نور فيه ولا هواء إلى أن يقضي عليه القاضي. كما جرى هذه السنة على أمير القفّة الذي قدم من دير القمر إلى باريس. وأن يكن موسراً وجاء بلادهم للتفرغ عليها غبنه منهم وخدعه من خدع وسرقه من سرق وقامره من قمر حتى يرجع إلى وطنه منتوفاً مسلوحاً.

فكيف تركت نصارى الشرق جميع هذه الصفات التي اتصفت بها اليهود وتعلموا منهم تلك الخصلة التي لا يتأتى عنها إلا الغصة والحسد فهل يسوغ للغني في مذهب من المذاهب أن يأخذ دنائره في يديه ويبعث بها في عين الفقير الصعلوك حالة كونه لا يملك منها قراضة. أو للشبعان أن يلوّح بشريدته للجائع اللامس. فإن قلت أن ذلك أمر طبيعي وإن العلامة إنما يراها في الغالب المتزوجون فلا وجه للحسد. قلت لو كانت هذه العادة طبيعية لكنا نراها مستعملة عند جميع الأمم. وهؤلاء الإفرنج الذين هم أكثر دراية وعلماً في الطبيعيات لا يستعملونها. لا بل يفتنون مستعملها ويقولون أن العُقر يكون غالباً سبباً في العُقر وأن العروس منهم أول ما يحسّ بالأنشطة قد عقدت في عنقه يأخذ عروسه ويعتزل بها في ناحية لا يبصره فيها أحد من خلق الله مجانية لأسباب الحسد، الموجب للنقص والكمد. فلا يرون أن سرور شخص يكون سبباً في حزن جماعة. وإنما قلت الأنشطة لأن عقد الزواج عندهم تنحل بأسباب كثيرة. فأما قولك أن العلامة إنما يراها المتزوجون فلا وجه للحسد فهو كلام من حاول المغالطة والتوريب والمؤاربة. أو هو ولا مؤاخذه بما أقول كلام من لا بصرة له ولا خبير. فقد أجمع العلماء كلهم المتبلغ منهم والمقتر والمتكفف والمعتر والعريان وذو الرعايل والمسجون والمكبل والمشكو والمرغم أنفه على أن المتزوج أضيق عيناً بالحسد من العزب. وذلك أن كل إنسان يظن أن غيره في حرفته أسعد منه حالاً فلا يفكر إلا في وجه أسعديته دون أشقويته.

ولما كانت ليلة الدخول بالعروس من الليالي الغراء وأن تكن حالكة كانت مظنة لأن تنشئ الحسد في صدر الخبير بها دون تذكر لما يعقبها. وفي المثل وما ينبئك مثل خبير. هذا وأي أستمح العفو من الجنب الأكرم. المقر الأفخم. حضرة الصير المكرم. عما أريد أن أسأله عنه على وجه الاستفادة لا الانتقاد

فأقول. من أين تعلم يا ذا البصيرة أن تلك البصيرة التي يخضب بها المنديل ويعقد على علم إيذاناً بكاراة البنت هي علامة البكاراة. أفليس من الممكن أن يكون ليلة الدخول بما قد فار التنور، وفاض المسجور أو بقيت منه عقابيل، ديج المنديل؟ أو يكون الرجل قد ذبح عصفوراً أو جرح أحد أصابعه إذا كان هو الذي سبق اقتطاف تلك الوردة؟ أو تكون البنت قد ادخرت فيذلك الصوان شيئاً من الدم. فإن قلت أن الرجل يعرف ذلك بمجرد التذوق، قلت لعمري ولعمر أبيك أن تلك الساعة ليست وقت وعي ومعقول، بل وقت دهشة وذ هول. ولا سيما إذا وقف وراء الباب جماعة يضجّون ويعجّون. ويلحقون ويلجّون فأفد الجواب عن ذلك. وها أنا منتظره من هنا وهناك.

### التورية

من عادة أمثالي من المؤلفين أن يقهقروا أحياناً ويطفروا فوق مدة من الزمان يلفقوا واقعة جرت قبلها بأخرى بعدها. وذلك يسمى عندهم التورية أي جعل الشيء وراء. وانهم أيضاً يتدثون بذكر صفات الشخص الذي بنوا عليه مؤلفهم منذ ابتدائه مناغة محبوبته إلى وقت خفوته في الزواج. ويذكرون خلال ذلك أموراً طويلة مملة وذلك كصفوة وجهه عند لقائها وتغير حركات نبضه وبهره وعيّه عن الجواب وبعثه إليها عجوزاً وكتاباً واجتماعه بها في مكان كذا وزمان كذا. وكتخيفها ألواناً عند قوله لها الفراش، الضم، العناق، الساق على الساق، الرضب، الملاسنه، البعال وما أشبه ذلك وربما أساءوا الأدب أيضاً في حق الأب والأم. فأفهم كثيراً ما يصرحون بأن الأم ترضى بأن تكون ابنتها فتنه لناظريها. وتتساهل معها في تنهيد زمرة من الرجال لتقاسمها منهم شطراً. وأن الأب من حيث أن حجره في حجر امرأته لا في رأسه لا يمكنه منع تلك الأسباب. وأن الخدمة لا يكونون إلا ذوي حذل مع المرأة على الرجل. فالخوادم للإقتداء بسيرة سيدتهن والخدامون للطمع فيها. وفي الجملة فأفهم يجعلون بيت البنت المعشوقة دسكرة وماخوراً وحابوراً ومنبتاً لجميع أنواع الفساد والحيل والمكائد وكل من أخواني هؤلاء المؤلفين يخترع حيلة من رأسه ويعزوها إلى غيره. أما الطفرة إلى وراء فعندي أنه لا بأس بما إذا كان المؤلف رأى مذهب التأليف قد سدّ أمامه ثم يعود إلى ما كان عليه. وأما تبليغ الرجل إلى سرير عروسه ثم أطباق الكتاب عليهما من دون ملاوصة لمعرفة أحوالهما بعد ذلك فليست أَرْضَى به. إذ لا بدّ لي من أن أعرف ما جرى عليهما بعد الزواج. فأن كثيراً من النساء اللاتي يحسبن إنائاً قبل تولي هذه الرتبة الشريفة يصرن بعدها رجلاً كما أن الرجال تصير نساء.

من أجل ذلك رأيت أن أتبع الفاريق بعد زواجه أكثر من تتبّعي إياه قبله. إذ الكلام على اثنين أدعى إلى

العجب منه على واحد. فأما الإسفاف للأمور الخسيسة والدعلقة والدنوق من شأني. فأذن لي إذا يا سيدي ورخصي لي يا سيدي في أن أستعمل الطفرة وأقول.

أن الفاريق حين كان مرتقباً برقة الحب قبل الزواج كان قد أستدعى به أحد الخرجيين في الجزيرة البُخر أي في الجزيرة التي يتكلم أهلها بلغة منتنة. ليكون عنده بمنزلة معبر للأحلام بأجرة أكثر مما كان له عند الخرجي بمصر. فمن ثم عزم على السفر وطالع به خطيبته قبل الدخول بها بمدة. فقالت لا بأس فإن للرجل حقاً على امرأته أن يستصحبها حيث شاء. وأن كل بقعة من الأرض تكون لها في صحبته مغنى ووطناً. ثم أخبر أمها بذلك فرضيت. فلما وقع بالزواج وأحكمت عقدته قال الفاريق لزوجته ينبغي لنا الآن أن نتأهب للسفر. لأن أحلام الخرجي قد تكاثرت في رأسه ويخشى أن يفوته تعبيرها. فقالت أو ذلك من جد؟ هل جرت عادة النساء بأن يسافرون عقب الزواج ويعرضن أنفسهن للعقم والخطر؟ أليس في مصر مندوحة عن الغربة والسفر؟ كيف أفارق أخواني وأهلي وأذهب إلى بلاد مالي بها من صديق ولا خدين؟! قال ما غررت بك ولا قلت لك شيئاً غير ما قلته من قبل. قالت ما كنت لا علم من الزواج ما أعلمه الآن. فقد شبهه الناس بالسعوط الذي يعطيه الطبيب اللنائم أو السكران حتى يفيق. قد علمت الآن أن المرأة لم تخلق للسفر وإنما خلق السفر لها. قال: أي وعدت الرجل بأن أسافر إليه فلا بد من إنجاز الوعد: فقد يقال في المثل أن الرجل يربط بلسانه لا بقرنه. ومع ذلك فإن خرجينا هذا مسافر معنا بامرأته فأنتم مثلها. قالت ما أنا كزوجة الخرجي فإني الآن حديثة الصبغ وفي برزخ البكر والمتزوجة. ولم أسأم بعد من الأرض حتى أدخل إلى البحر. فلما علمت أمها بذلك الحت عليها في السفر. فقالت دعوني إذا أستشير طبيباً لأعلم هل سفر البحر يضر بالمتزوجة حديثاً أولاً. فجيء بالطبيب فلما سمع كلامها ضحك وقال. إنكم يا نصارى الشرق تنذرون للكنائس رجاء أن يمن عليكم صاحب الكنيسة بالحبل أو الشفاء من بعض الأمراض وأما نحن فنذر للبحر. فإن النساء عندنا حين يئأسن من الحبل يقصدن ظهر هذا الولي ويلتمسن بركته. فمنهن من ترجع حبلي بفد ومنهن من تضع توأمين. ولا سيما إذا كان ربان السفينة ذا رفق بالنساء يطعمهن ما يشتهين. فقال الفاريق في نفسه اللهم أجعل ربان سفينتنا عنيفاً شرساً نكداً شكساً فظاً عسراً. فلما سمعت ذلك سكن روعها ومالت إلى السفر. فمن ثم أخذوا له الأهبة وسافروا إلى الإسكندرية.

أما السفر من بولاق في القنج فإنه من أعظم اللذات التي ينشرح لها الصدر فإن النيل لا يكون إلا ساجياً. ورئيس القنجة يقف قبالة كل قرية ليتزودوا منها الدجاج والفاكهة الطريئة واللبن والبيض وغير ذلك. وناهيك بماء النيل عذوبة ومصحة. فالراكب في إحدى هذه القنج لا يزال طول نهاره أكلاً مسروراً قرير

العين بما يراه نضرة الريف وخصب القرى. حتى يودّ أن تطول مدة سفره فيه وأن كان في قضاء أمر مهم. فأغتنم الفاريق ح هذه الفرصة وأمعن في قضاء الأعذبين ونسي مصر ولذاتها. ونعيمها وحمايتها. ورّمدها وآفاتهما. والكتب ومشايخها. والأخراج وتناخها. والمكاتب وبرايخها. والطنبور وأوتاره. والحمار وفراره. والطبيب وقترعيته. وصاحب المعجزة وهجرعته والسرى ورائحته. والوباء وجائحته. وما زال على هذه الحالة حتى وصل إلى الإسكندرية شبعان ريان. وقد تزود ما يقوم بحاجة البطالة في البحر الملح. وفاز ونجح أي فوز وأي نجاح.

### سفر وتصحيح غلط أشتهر

كان الخرجي رفيق الفاريق في السفر قد كتب كتاباً من مصر إلى بعض معارفه بالإسكندرية ليهيئ له نزلًا. فلما وصلوا إليها أقاموا فيه مدة ينتظرون ورود سفينة النار التي تسافر إلى الجزيرة. وكانوا جميعاً يأكلون على مائدة واحدة ويتفاوضون في المصالح الخرجية وفي السفر وغيره. وكانت زوجة الفاريق لا تدري شيئاً سوى بيت أهلها. ولا تتكلم في أمر إلا فيما جرى لها مع أمها أو لامها مع الخادمة أو لهذه معها وكانت إذا أخبرت مثلاً بأن الخادمة ذهبت إلى السوق لتشتري شيئاً تخللت كل جملة بضحكة طوية. فافتضى لأخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والإياب وسبب ذلك أن النبات في مصر لا يعاشرن أحداً سوى الخوادم وأهل البيت. أما أمهاتهن فلا يطالعهن بشيء من أمور الدنيا مخافة أن تنجلي الغشاوة عن أبصارهن فيعرفن ما يراد منها. فمن ثم كان تحصل معارفهن كلها من الخوادم لا غير ولما كنّ هؤلاء يرين أن أخبار النبات بما يهوين ويملن إليه بالطبع خيراً لهن عظيماً. فإذا رأت إحداهن مثلاً فتى جميلاً بادرت من ساعتها إلى البنت وقالت لها: قد رأيت اليوم يا سيدتي شاباً مليحاً ظريفاً لا يصلح إلا لك. وأنه حين نظرتني وقف وشخص إليّ وكأنه يريد أن يكلمني. وأخاله عرف إنك أنت سيدتي. فإذا رأيته المرة الآتية كلمته. وأشباه ذلك عن الكلام مما يجعل البنت ذات ضلع معها إذا غضبت منها الأم. ولا يخفى أن البنات إذا كنّ جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة وبآداب المجلس والمائدة وغيرها، فلا بدّ وأن يتعوّضن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد التي يتخذنها وسيلة لما يرمن. فإن البنت إذا اشتغلت بقراءة فمن من الفنون أو بمطالعة الكتب صرفها ذلك عن استنباط الحيل. فأما إذا لم يكن لهن شغل غير ملازمة البيت وليس فيه غير الخادمة فأن أفكارهن وأهواءهن كلها تنجمع إلى مركز واحد وهو اتخاذ الخادمة وسيلة لهن وسنداً. فكلامها عندهنّ أصدق من كلام أمهاتهنّ. فالأولى عندي أنا العبد الحقير أن تشغل البنت بإحدى الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقلياً أو يدوياً. ألا ترى أن

الأثنى مفطورة على حب الذكر والذكر على الأثنى؟ فجهل البنات بالدنيا غير مانع لمن معرفة الرجال واستطلاع أحوالهم. بل ربما أفضى بمن هذا الجهل إلى التهافت عليهم والانقياد إليهم من دون نظر في العواقب بخلاف ما إذا كن تأدبن بالحامد والعلم اللائق بمن فإنهن ح يعرفن ما يعرفن من الرجال عن تبصر وتدبر. وهناك قضية أخرى وهي أن النساء إذا علمن من أنفسهن أنهن أكفاء الرجال في الدراية والمعارف تترسن دونهم بمعارفهن وتحصن بها عند تناول الرجال عليهن. بل الرجال أنفسهم يشعرون بفضلهن فيرتدعون عن أن يهتكوا حجاب التأدب معهن. مثال ذلك إذا أجمع غلام وبنت في خلوة وكان الغلام قد قرأ ودرى والبنت لم تعرف شيئاً غير ذكر اللباس والزينة والخروج إلى البستان. لم يلبث الغلام أن يتعدى طور الأدب معها لاعتقاده أنها لم تخلق في الدنيا إلا لقضاء وطره منها. بخلاف ما رآها ذات رأي رشيد. وقول سديد. وفكرة مصيبة. وفهم للأمور البعيدة والقرية. وحسن محاضرة وجواب عتيد. ومعارضات وممانات. فإنه والحالة هذه يهاهما ويحترهما. وليس كلامي هذا مخالفاً لما قلته في إغضاب الشوافن. وإنشأ البرائن. وإنما العبرة باختلاف وسائل العلم. والمراد من هذا الاستطراد كله أن نقول أن زوجة الفاريق وإن يكن قد فاتها كثير من معلومات الرجال والنساء فقد أبدت من المعارضة لأمها عند تصادم مصلحة الزواج بمفسدة خرجية الفاريق ما أفحم المجادل، وأبكم المناضل. لكنها بقيت في غير ذلك جاهلة.

فإن الفاريق لما كان ذات يوم على المائدة أخبره الخرجي بقدوم سفينة النار وحته على التأهب للسفر. فسمعت بذكر سفينة النار فقالت ما معنى هذا. فقال لها الخرجي هي سفينة ذات ألواح ودُسر وإنما تسير بقوة بخار النار. قالت وأين النار؟ قال في قمين بها. قالت يا للدهية كيف أسافر في سفينة فيها قمين وأعرض نفسي للنار؟ أليس السفر من هنا إلى الجزيرة يكون في القنج كسفرنا من بولاق؟ قال أن القنج لا تصلح للبحر الكبير. قالت أما أنا فلا أسافر ويسافر من يريد أن يحترق. فترضاها الخرجي وزوجته فأبت.

فلما حان الرقاد اضطجعت في الفراش وأدارت وجهها إلى وجه الحائط: وهذا هو المقصود من هذا الفصل تنبيهها للناس على أن هذه العادة هي من جملة العادات التي أخطأ استعمالها إذ ليس في الأدبار شيء يدل على الغيظ.

بل الإقبال هو المظنة له فإن المرأة إذا واجهت زوجها عند الاضطجاع وقطبت وجهها في وجهه وزوت ما بين حاجبيها، أو شمخت أو سدّت منخريها أو غمضت عينيها كيلا تشم رائحة وتبصر سحنه أو غطتهما بيدها أو بكمها أو منديل كان ذلك إشارة إلى غيظ. فأما في تولية الدبر فلا علامة تدل عليه. فإن قلت أنها إذا واجهته ربما غثت نفسها من نفسه. إذ الرائحة الكريهة لا بد وأن تفعم المناخر وأن

سُدَّتْ فلا محيص عنه بالأدبار قلت الأولى أن تستلقي فيندفع المحذور. وبعد فأن الدبر هي من الأشياء التي طالما عُني الناس بتفخيمها وتكبيرها وتعظيمها حساً ومعنى. أما حساً فلأنهم اتخذوا لها الزناجب والمنافع والمرافد والرفائع والأعاجيز والغلائل والمرافق والعظامات والحشايا والأضاحيم والمصادغ إجتذاباً لقلوب الناظرين وفتنة لعقول العاشقين. فكيف يكون شيء واحد مستعملاً وسيلة للرضى والغضب معاً فهو خُلِفَ بين، وأما معنى فلأن العلماء والأدباء وسادتنا الشعراء ما زالوا يتغزلون بها ويتنافسون في عرضها وسعتها، حتى أن بعضهم قال

تشبه البدر إذا بدا

من رأى مثل جبّتي

ثم أردافها غدا

بدخلي اليوم خصرها

وقال عمر بن كَثُوم

وخصر قد جُننت به جنونا

وما كمة يضيق الباب عنها

ولقائل هنا يقول أن الشاعر لم يصف الخصر إلا بكونه موجباً لجنونه. وأن الإشارة إلى كونه نحيلاً بناء على جنون الناس به إذا كان كذلك غير ناصّة وأخرى أن يكون هذا المفهوم الضمني جارياً على وصف كل عضو. إذ لو قال وما كمة جننت بها جنونا لعلم بالبدئية إنها تملأ الباب ويفضل منها شيء ويا ليت شعري هل الألف واللام للعهد الجنسي أو الذهني. وهل الإمام الزوزني تعرّض لشرح ذلك، ثم أنه من أهم ما يشغل بال المرأة ويسهرها الليلي، هو تفتن ناظرها بتفخيم ذلك الموضع الرفيع العالي. وربما لهِيت عن وجهها وسائر جسدها وغادرته بلا زينة من فرط اشتغالها به ولو تَصَمَّر وجهها وذوت غضاضة بدنها لمرضٍ أو كبر فقلّ اعتمادها على محاسنها لم تبرح معتمدة عليه ومتعهدة له. فهو رأس مال الخلب والشويق وما من امرأة إلا وتتمنى أن يكون لها عين في قفاها لتكون ناظرة إليه ومتعهدة له دائماً. ولقد يهون عليها أن تقف ساعة أو تمشي ساعتين أو ترقص ثلاثاً ولا أن تقعد هنيهة خشية من أن يخشان أو يضر. وإنما حين تنظر إلى عطفها وهي ماشية أو راقصة فما هو إلا رمز إلى ما ورائه. وأن تهدكرها وتبهكنها هما أنشب مصلاة يعلق بها قلب الرجل. وذلك لأنها تعلم أن الحكمة الخالقية رسمت من الأزل بأن تكون كثرة اللحم والشحم في ذلك الموضع. بالنسبة إلى سائر البدن لا بالنسبة إلى دكاكين اللحامين، شائقة للملوك والولاة والأمراء والقضاة والأئمة والقسيسين. والأحبار والموابذة والهرابذة والعلماء والبلغاء والخطباء والأدباء والشعراء والعطارين والصيادلة والعازفين بآلات الطرب ولسائر الناس. لا لأنهم يتخذون من لحمه كباباً أو من شحمه إهالة. أو يستصبحون عليه أو يتخذون من جلده كُوبه. ولكن ملأ



لعيونهم وشرحاً لصدورهم. فإن عين ابن آدم مع كونها ضيقة لا يملأها ما هو أوسع منها وأكبر بألف مرة. وإشعاراً لهم بأن حكمتهم في هذه الدنيا وتنطّسهم وعزهم ومجدهم وأن علت على الأطواد الشاخنة والجبال الشاهقة فما هي إلا سافلة عن حضيض هذا الموضع ألا وإنها تعلم إنك إذا جلست مثلاً حد هؤلاء الأعزة الكرام أمام بعض المناصب على سرير مذهب. وضربت عليه قبة مموهة مزخرفة منمنمة منقشة مزوقة مكسوة بالحرير والدياج ومكللة بالزهور والرياحين. استنكف أن يقعد هناك نصف ساعة. على أنه لا يستنكف أن يقعد عامة نهاره وليله لذلك المقام المنيف. وهو حاسر الراس، مشعث، الشعر، حافي الرجل، فاغر الفم مندلع اللسان، سائل اللعاب: محمّل العنين، مشمر الذيل، شابح الذراعين معوجّ العنق مؤلّل الأذنين، في أقبح هيئة يمكن للإنسان أن يتصورها في حق ذي مقام. حتى لو سمع نامة من هناك لظن أن السلطان قد بعث إليه بالات الملاهي يهنئه على هذا الفوز العظيم، والمغنم العميم، وتصور في باله أن صوت العود لم يكن بأشجى من غيره إلا لكون هذه الآلة قد صنعت على مثال شطر ذلك الموضع ولو كان كالشطرين لسمع له منطلق بإعراب. وأن شكل القبة مأخوذ منه. ورائحة الندّ تروى عنه، وإن العرب من زيادة شغفهم به الحقوا حروفه بالأفعال السداسية الدالة على طلب الفعل أو التي يعتبر فيها الشيء كونه على حال ما من الأحوال، وإن فردسة صدور الرجال وعرض ظهورهم لا تجدي نفعاً مع عرضه. وأن المعالي في السّرة متى تلح لهم ذات تأكيم يعدن مسافلاً، وإن هذه الحقيبة مع ثقلها سواء كانت حاملة كما ذهب إليه بعض الشعراء، أو كانت محمولة كما هو في الواقع فليس ثقلها إلا كنقل كيس ذهب على حامله. وإنها أسخن الأعضاء جميعاً في الشتاء إذ لا تحتاج إلى تدفئة وإبردها في الصيف. وإنها مع كونها أول ماس للأرض عند القعود فلا تزال انعم من الخدين. وأملس من اللديدين، فلهذا كانت لذة تقبيلها للمقبّل العذريّ اعظم من لذة تقبيل الذقن والأنف والعين والجبين. وأن الناس لها أسماء الملوك والسلطين، وذوي السيادة والمعالي وأئمة الدين. وعند قوم "أقول واستغفر الله" تذل لها الأسماء الحسنى، على أن تسبيحهم كل يوم أن يقولوا ربنا تقدّس اسمك. ألا وإنها تعلم أن كثيراً من البهائم أعقل من الناس أو أسعد حالاً من أصل الفطرة. فإن الذكر من الحيوان غير الناطق لا يهيج على هيرتين من اللحم في أنثاه مع احتوائهما على القبل والدبر إلا في وقت معلوم.

وهذا الذكر من الحيوان الناطق لا يزال هائجاً عليهما مزبداً لا غماً راغياً مترغماً هادراً محمحمّاً مبقبقاً زاغداً مُلعباً جالباً لاجباً وربما جنّ أيضاً. وما ذلك إلا لجرد وهم أنهما بأهدافهما تعينانه على خسق الهدف من قُبَل وإلا فما سبب هذا الجنون. نعم وتعلم أيضاً أن هذا الموضع مع كونه في حيّز الجسم الأسفل فهو، موازٍ لخط الرأس ارتفاعاً إشارة إلى أن تسفله لا يحط من قدره ورفعته. حتى لو فرض أنه

جعل عند الرجلين لبقيت له هذه المتزلة والاعتبار بعينه. حتى أن بعض النساء يرين أن كشفه أولى من كشف الفم لأنه أقل أذى منه. إذ لم يعلم إلى أن أحداً قُتل بقلعة منه فأما فلتات اللسان القتالة فلا تعدُّ ولا تحصى. وبناء على ذلك كن يتعمدن الخروج في اليوم الراح وهو عندهنَّ من الأعياد المباركة، وبعضهن يرين إنه جدير بالحلي والزينة والتنقيش سواء كان ظاهراً أو مستوراً. قال بعض السّاهين.

ء في المليح أجملُ

يا سائلي عن أي جز

نصف الجمال الكفل

لقد روى استأذنا

قال وذلك لاشتماله على أشكال كثيرة، لأنك إذا اعتبرت ذروة الرانفة وحدها ظهر لك الشكل المخروط، وإذا اعتبرتها مزدوجة بالأخرى تبين لك نصف دائرة أو شكل هلالّي، وإذا نظرت من نقطة العيسب إلى غاية ما يوازئها من سطح الشق الواحد بدا لك المستوى أو المسطح، أو منه إلى مادون ذلك قابلك المقبّب والخط المنحني، وإذا اعتبرته مع الإكباب واجبك الخوف وهلم جرّاً. وليس من سائر أعضاء البدن من الأشكال ما لهذا. قلت ما أشوق قول الشيخ ناصيف اليازجي الأديب المشهور.

بين اضطراب الموجتين غريق .

وتموّجت أردافها فأخو الهوى

ثم أن الظاهر من وجود اسم المرفد في لغتنا هذه الجليلة، ومن قول صاحب القاموس المخدم رباط السراويل عند اسفل رجل المرأة، أن لباس نساء العرب قديماً كان كلباس نساء الشام الآن. أو لعله كان خاصاً بالحواريات غير أن قول المتنبي، وأعفّ عما في سراويلاتها، يفيد التعميم، بناء على تغزله بالباديات كما أشار إليه بقوله، وفي البداوة حسن غير مجلوب، وقد تقدم، قال القاموس الدبر بالضم وبضمّتين نقيض القبل ومنكل شيء عقبه ومؤخره - والإست والظهر، قلت أسماء حروف هذه اللفظة لها معان وهذه الحروف كيفما قلبتها ظهر لك منها أيضاً معنى، وكذا إذا جمعت بين كل حرفين منها، وعددها بحسب الجمل مزدوج إشارة إلى ازدواج الجهتين، كما أن الضمّتين إشارة إلى الثقل والرزانة، ومادتها من اغرز المواد، وهل وضعها مؤخر عن المؤخر أو متقدم عليه أو اشتقاقها من قولهم جئتكم دبر الشهراري آخره واشتقاق هذا منها خلاف، والظاهر أن الأمور المعنوية الاعتبارية مشتقة من الحسية وبقي الخلاف في اشتقاقها من عقب الشيء، وقد ورد في القرآن ولّوا الأدبار، وأنكرها المطران أتاسيوس التوتنجي في كتاب الحكاكة، واعلم إن العرب قد وضعت للدبر ما ينيف على تسعين لفظة ما بين اسم ولقب وكنية. فمن أسمائها ما تقدم في إثارة الرياح ومن بعض كناها أم سويد وأم العزم وأم خنور. فلولا أنهم أنزلوا منزل الأسد والسيف والخمر في البأس الفتك والإسكار لما خصّوها بذلك لا يرد هنا ما قاله ذلك

الأعرابي في السنور لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل ثمنه. فإنا نقول إن قلة ثمن الحيوان لكثرة وجوده لا يقدح في قيمته ومنافعه. وإن كثرة أسمائه هي من حمل النظر على النظر لحصول المشاهدة بينه وبين أم أم سويد. من جهة أن السنور هو من الحيوانات الكثيرة النتاج. ومن طبعه اللعب والهراس وإن يكن يعقبه غير مرة خدش وإدما. وخمش وإصماء. وحمش وإعماء. وله تحمّل على المكاره والأذى حتى قيل أن له سبعة أرواح ولا يعجزه صعود شرف ولا هبوط هوة. وإنه إذا شم رائحة شيء أعجبه من الطعام تسلق على الجدار ودخل أضيق مكان حتى يظفر به. وإنه إذا مرّت عليه يد نفّس ذنبه وأخذ في خرخرة وهيمنة تفصح عن رضاه باللمس. ومن طبعه أيضاً النظافة والأكل خفوة حياء أو خوفاً. فإن أبيت إلا المشاحة كما هو دابك من أول هذا الكتاب بأن قلت ما بال أسماء الداهية والعجوز إذاً كثيرة وأسماء الشمس والقمر قليلة إذا كانت التسمية مبنية على جلاله المسمى أو نفعه. قلت أما كثرة أسماء العجوز فباعتبار أنها كانت صبية أو أنها تكون ذريعة لها. وأما الداهية فباعتبار خشيتها. والإجلال قد يكون عن خشية كما يكون عن مقعة. فأما الشمس والقمر فأسماءها كثيرة جداً غير إنها لم تشتهر عندنا وليس ذلك بأول ظلم فعله الناس في حق اللغة كما بيّنته في كتاب آخر ثم هذه جملة الأسماء والصفات التي وضعت لأم سويد وقد بذلت الجهد في استقراءها وهي الأثينة الخبندة الراجح الرجّاح الدلّخة البهّير الشوّثرة العجزة العجّزاء والمُعجّزة الدّهاس الدّهساء البوّصاء اللّفاء الرّكراكة الرّكراكة الوكواكة الضبرك الضنّاك العَضَنّك الورّكاء الورّكانة الثّقال الجزلة السجلاء المكفال الهركولة المؤكّمة الألياء الأليانة ومن الغريب أن صاحب القاموس ذكر الأسته والسّتاهي ولم يتكرم علينا بمؤنتهما فإنا أنبتهما هنا عن أذنه: ومن ذلك نفج الحقيية. ذات الأهداف. ذات التأكيم ذات الرضراض من نسوة بلاخ. ولك أن تقول بلخاء وأن يذكرها الفيروز أبادي إلا بمعنى الحمقاء. هذا ما عدا ما يشير إلى هذه الغبطة والسعادة من الألفاظ إشارة صريحة نحو الجعباء الضخمة الكبيرة.

الجلنباء السمينية وكذا الخنضبة والخضعة والكبكابة والحوثاء والوعثة.

الخدبة الضخمة.

الدخبة المكتنزة.

السرهبة الجسيمة.

الطباخية الشابة المكتنزة.

البأخية اللحمية وكذا الدعكاية.

المبرندة الكثيرة اللحم ومثلها الهدكورة.

الثأدة المكتنزة الكثيرة اللحم.

التَّهْمَدُ السَّمينَةُ العَظيمةُ.

الرَّجْرَاجَةُ الَّتِي يَتَرَجَّرُ عَلَيْهَا لَحْمُهَا.

الضَّمْعَجُ الْمَرْأَةُ الضَّخْمَةُ التَّامَةُ.

الْبَيْدَجُ الْبَادِنُ وَكَذَا الْبَلْدَجُ.

الدَّحُوحُ العَظيمةُ.

الدُّمْلَحَةُ الضَّخْمَةُ التَّارَةُ.

الصَّلْدَحَةُ الْعَرِيضَةُ.

الْبِيدْحَةُ التَّارَةُ.

الْمُرْمُورَةُ النَّاعِمَةُ الرَّجْرَاجَةُ.

الدَّخُوصُ الْمُمْتَلِئَةُ شَحْمًا.

الرَّضْرَاضَةُ الرَّجْرَاجَةُ.

الْبِلَزُ الضَّخْمَةُ.

الدَّحْمَلَةُ الضَّخْمَةُ التَّارَةُ.

الدُّمْحَلَةُ السَّمينَةُ وَمِثْلُهَا الْجُمُولُ.

الرَّيْبَلَةُ الْعَظيمةُ الرَّيَّالَاتُ.

الْقِصَافُ الْعَظيمةُ.

الْمُرْزَرَّةُ الطَّوِيلَةُ الْجَسِيمَةُ.

الْمُلْعَظَةُ السَّمينَةُ الطَّوِيلَةُ الْجَسِيمَةُ.

الْهَيْكَلَةُ الْعَظيمةُ.

الضُّنَاكَةُ الصُّلْبَةُ الْمَغْصُوبَةُ اللَّحْمِ.

الْكِنَازُ الْكَثِيرَةُ اللَّحْمِ الصُّلْبَةُ.

الْمُنْزَرَّةُ الْمُتَّصِلَةُ الْمُتَشَدِّدَةُ.

الْمُلْزَزَةُ الْمُجْتَمِعَةُ الْخَلْقِ الشَّدِيدِ الْأَسْرِ.

الْحَنْصَرَفُ الضَّخْمَةُ اللَّحِيمَةُ الْكَبِيرَةُ الثَّدِينِ.

الْقَبْبِيلُسُ الْمَرْأَةُ الضَّخْمَةُ وَمِثْلُهَا الْمُثَخِّنَةُ.

الشَّخِيصَةُ الْجَسِيمَةُ.

الدَّيَّاسَة اللّحيمَة القصيرة.

العانك السمينة.

العَيْلة الغليظة.

المألة السمينة الضخمة.

الورّهة ورهت المرأة كثر شحمها.

وحظية بظية سمينة مكنترة.

وغير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه. فهل لجناب مولانا القاضي المكرم ولأميرنا المعظم نصف هذه الأسماء والنعوت. انتهى البرهان على الخطأ في استعمال هذه العادة. وأقول الآن إنه لما كان ما كان من الأدبار المشار إليه ترضاها الفاريق في الصباح للسفر وأعانه على ذلك الخرجي وامراته ووعدوها برؤية أشياء بديعة في الجزيرة تنسيها مكاره الفراق. فرضيت بعون الله وحسن توفيقه وسافروا في سفينة النار. وقد لطف الله تعالى بأن ألقى القسوة في قلب الربّان عليها. فكان إذا سمعها تن من الألم يغضب ويزجر ويتسخط على النساء وسفرهن. غير أن بعض الخدمة وكان جميلاً حاول ان ينوب عنه فلم يتم له ذلك لقصر المسافة إذ كانت عبارة خمسة أيام. وهي في البرّ كافية لتصبيّ خمس وعشر نساء متزوجات وخمس عشرة أرملة. ثم وصلوا إلى معتزل الجزيرة وأقاموا فيه ثلاثين يوماً وبعد ذلك دخلوا البلد ونزل كل منهم منزلاً لائقاً به.

### وليمة وأبازير متنوعة

وأخذ الفاريق وزوجته يطوفان في شوارع المدينة وهما في زي أهل مصر. وقد اتخذ هو سراويل واسعة يلتفّ عليه أسفلها من أمام ومن وراء عند المشي. والتحفّت هي ببرنس ليغطي كميها إذا كانا يكتسان الأرض. فجعل المارّون وأصحاب الدكاكين يتعجبون منهما ولم يكونوا يعرفون زوجته إنها امرأة. فكان بعضهم يقول أرجل هذا أم امرأة وبعضهم يتعقبها. وبعضهم يلمس أثوابها ويحدّق في وجوههما ويقول ما رأينا كالיום قطّ شيء لا هو رجل ولا هو امرأة فصادفهما رجل من حدّق فقهاء الإنكليز يقال له استيفن. ففترس فيها فعرف أن الفاريق رجل وأن الفاريقية امرأة. فتقدّم إليهما وقال لهما هل لكما يا رجل ويا امرأة أن تتغديا عندي اليوم الأحد القابل. قال أفضلت قال إن داري في عبّر البحر في محل كذا فهلّمّا إلينا في الصباح قبل الغداء.

فلما كان يوم الأحد ركبا في زورق وقصدا منزله فوجداه قد استعد للخروج فكأنه أراد أن يأتي ببعض

معارفه للفرجة على ضيفيه والظاهر إنه سكر في الطريق أو عند أصحابه فلم يعد. فلما رآهما قال لهما قد وجب عليّ أن أذهب في قضاء مصلحة. ولكن هذه زوجتي وبناتي فاستأنسا بمن ريثما أعود ونتغدى جميعاً قالاً لا بأس ثم قعدا مع زوجته. وكان في المجلس شاب من الإنكليز يناغي إحدى بنات الفرّضي وهو آخذ بيدها. ثم جعل ييوسها بحضرة أمها والزائرين. فاصفرّ وجه الفاريق واحمرّ وجه زوجته وبرقت أسرة الأم. فقالت الفاريقية لزوجها كيف ييوس البنت هذا الفتى وما يستحي منا. فقال لها ليس البوس عند الإفرنج مما يعاب. فإن الزائر منهم إذا دخل بيت أحد من أصحابه تعيّن عليه أن ييوس زوجته وبناته جميعاً ولا سيما إذا كان في يوم عيد. على أن عندهم قد بمعنى ما يراد بعدها ولكن هذه عادتهم. قالت ولكن هلاً يستحي منا حال كوننا غريبين عنه. قال إذا كان الشيء مباحاً كانت إباحته أمام القريب على حد سواء. أو لعل الرجل قد ظناً لا نعرف هذه الصنعة في بلادنا. قالت ما اجهل من ظن هذا فإن القبلة عندنا لا تكون إلا مع زفير وتنهد ومص وشم وتغميض العينين. فأما هذا فلا يراه يرفّ من إحساس فعل المستخفّ بما تحت يده. قال قد يظهر لي من القاموس إن المكافحة والملاغفة والمثاغمة والشم والغمّ والكعم والتقبيل إنما هو بوس الرجل المرأة من فمها أو التقامه له بمرّة فقالت حيّ الله العرب أئمة القبلة والقبلة. فإن التقبيل الجبين كما يفعل هؤلاء لا معنى له. ولكن لم كان التقبيل في غير الفم والحدّ خالياً عن اللذة التي يحسّ بها المقبل في هذين الموضعين؟ قال لأن الظمآن لا يرتوي من وضع فمه على أعلى القلة أو على جنبها. قالت فعلى ذكر الظمأ لم تصف الشعراء الريق مرة بأنه حلو ومرة بأنه يروي الظمأ وهو خُلف؟ قال لعل ذلك من مشكلات الشعر أو من العضلات النساء. قالت فعلى ذكر المشكلات والمعضلات هل يستطيع العاشق شرب الرضاب من غير الفم؟ قال أما عند بعض العرب فلا يبعد وإما عند الإفرنج فينكرونه حتى من الفم. بل لا يعرفونه له اسماً غير البصاق.

قالت فعلى ذكر اختلاف الأسماء ما يقال لهذه الأمّ التي ترتاح إلى رؤية ابنتها على مثل هذه الحالة هل يقال لها قواده. قال إنما القيادة في الأصل صفة الرجل إذا كان يقود على حرمه. قالت أن وقوع هذا الأمر في شأن الأم أكثر منه في شأن الرجل. إذ الأمّهات تنشرح صدورهن عند مشاهدة عاشق لإحدى بناتهن. لان الأم عند رؤيتها عاشق بنتها تعتقد أن العاشق لا يرى في البنت جمالاً إلا ويراه في أمّها حالة كونها هي الأصل. وانه لا يكاد يحب الفرع دون محبته لأصله. ثم تماديا في الحديث حتى حان الظهر فأقبلت بنات الفرّضي ويدها كسرة خبز وقطعة جبن وجعلت تأكل وهي واقفة. ثم تولت وجاءت أخرى وفعلت مثلها. وكان للفقيه المذكور سبع بنات وعدة صبيان. فلما مضى ساعتان بعد الظهر قالت الأم للمدعوّين لعلكما جعتما فإن وقت الغداء قد فات. زوجي أبطأ. قالاً ننتظره إلى أن يجيء. فلما صارت الخامسة أطن جرس الأكل ليجتمع المتفرقون من أهل البيت كما هي عادة ذوي العيال من الإنكليز. ثم

مضت ساعة وأعيد إطنان الجرس ومازالت الساعات تمضي حتى نجزت الساعة الحادية عشرة. وفي خلال ذلك كانت الأم تتفقد المطبخ وتسار البنات كأنما نزل بمن نكبة البرامكة. فقال الفاريق لزوجته إن لم نذهب الآن لن نجد بعدها زورقا ولا مبيت في هذا العبر يصلح بنا. ثم نهضا ومسّيا على صاحبة البيت وركبا في زورق ودخلا البلد عند نصف الليل فتعشيا في بعض المطاعم عشاء في ضمنه غداء.

ثم لما كان بعض أيام قليلة قالت زوجة الفاريق له رأيت في هذا البلد أحوالاً غريبة. قال ما هي؟ أي أرى الرجال لا ينبت في وجوههم الشعر ولا يستحيون. قال كيف ذلك؟ قالت لم أر في وجه أحد منهم لحية ولا شاربا فهل هم كلهم مرد. قال أجهلت إنهم يخلقون وجوههم بالموسى في كل يوم، قالت لأي سبب، قال حتى يعجبوا النساء فإنهن يحبّن الخد النقي الناعم قالت لا بل المرأة يلذها من الرجل كل ما دل على الرجولية، وكثرة الشعر في وجه الرجل هي كعدمه في وجه المرأة. قال وما معنى قولك انهم لا يستحيون هل طلب أحد منهم منك فاحشة. قالت ما وقع ذلك بعد، وإنما أراهم يحزّقون سراويلاتهم حتى تبدو عورتهم من ورائها، قال وذلك مما يلذ للنساء على مقتضى تقريرك. قالت نعم أن هذا الزي أقر لعين النساء من زي العرب. فإنه يظهر الفخذين والساقين والبطن والعجز غير أن المغلاة في التزيين مخلّة بالأدب عند من لم تتعوّد عليه وان يكن في نفس الأمر أحسن وأفتن. ولكن ما شأن هؤلاء القسيسين فإنهم أراهم أكثر مغلاة من العامة بتباينهم هذه القصيرة فهذا لا يليق برتبتهم. وأقبح من ذلك حلقهم شواربهم مع أن الشوارب هي زينة لوجه الرجل كما أن اللحية زينة لوجه الشيخ. فما الذي أغراهم بهذه العادة وهم ليسوا متزوجين حتى يعجبوا نساءهم؟ لعمرى لو أن أحداً منهم ذهب إلى مصر لظنه الناي بعض هؤلاء المخنثين المدعوّين خوّلًا الذين ينتفون شعر وجوههم ويتحففون تشبيها بالنساء فأخزى الله كل رجل يتخنث قال فقلت وكل امرأة تتذكر. قالت نعم وكل من يتبع العادات الفاسدة. أنظر العادة هنا كيف جعلت حلق الشعر علامة على الفضل والكمال وعندنا هو سمة النقص والفساد.

قال صدقت ولكن أريد أن أسألك عن شيء من حيث أن الكلام أفضى بنا إلى ذكر ما يشوق الرجل وما يشوق المرأة من الرجل. ومن حيث إنني أراك قد نشئت في علم هذه الفروق فقولي لي بحق السطح "وكان من عادته إذا سألها عن أمر مهم أن يحلفها بسر السطح الذي كانت تصعد عليه قبل الزواج" وأصدقيني فيما تقولين هل لذة المرأة حين تنظر إلى جسم الرجل كلذة الرجل حين ينظر إلى جسم المرأة؟ قالت هما سيّان ولعل الأولى أعظم. قال فقلت كيف ذلك والرجل لا نعومة لبدنه ولا ملوسة. وقد خصت المرأة بمحاسن كثيرة خلا عنها الرجل وذلك كرقعة البشرة ودقة الأصابع وتسوية البنان والأنامل

وقد شبهت بالعسودة والأساريع والعذفوط والعنم. وكالدسع والكعس والرواحب وتغطيه الرواهش باللحم بحيث يبدو في كل أشجع نونة. وكلطف اليدين وصغر الرجلين ورخصتها. وامتلاء الرسغين والكعبين وسهولة المشطين. ونعومة العرش والعسيب، وجدل الذراعين ومكر الساقين وعظم الحماتين ودملجة الداغصتين. وضخم الوركين والمكمتين والفخذين والبتلية والبطن. وكنحول الخصر ولطف الكتفين وانحطاط المنكب وصقل الترقوة والترائب والمفاخر. وكالعنط والعطف وصلاتة الجبين وطول الشعر. وكونها رخيمة ذات نشر خالية عن الحارّ والریش والغفر والسربة والأسب وكون أذنها صمعاء حشرة تدمرية أو مقدّزة أو مؤلّلة مصنّعة. وما أحلاها يا عيني مشنّفة. وأعظم من ذلك كله وأبدع بروز النهدين ونهودهما. وحجمهما ونفجهما. وتكعبهما وتكعشهما واصرائبهما وتأوؤهما وتقعبهما وتكّبهما. واكتيتابهما وتقيبهما وتأتبهما وتزييهما. وتدملكما وتدملقمها وتزلّقهما. وسملكتها وصعلكتها. وزهلها وتضافطنهما وتدملجها وتمدجها وتصعنجها ورتوبها ونوبها. وخطوؤهما وتوؤها. ونتوبها وكعوبها. وتموكهما ودموكهما. وبزوغهما وصبوغهما. وشخوصهما ودخوصهما ونعوجهما وتكوّفهما وتقييهما، وتخذّيهما وتكظّيهما. وتوهّجهما وتعلجهما، وتصدرهما وتضبيرهما، وانتبازهما وتكوزهما، وتعرزّهما وتلرزّهما، وتملهما وتشرزّهما، وتعلدّهما وتمغدّهما، وتأصصهما وتدلصهما، واجعافهما وتنشزّهما، وتجنّهما وتنشزّهما، وتكتلّهما وتمللّهما وترجمّهما وتركر كهما وارتكاكهما وتشويكهما وترهرهما وتلّوهما. واندماجهما وانفراجهما وإقبالهما وأعبالهما. وارتابزهما واكتنازهما، ونّصهما وعصهما. ودأضهما وضنّطهما وقد قيل لهما من جملة اسماء كثيرة المرازان لاحتمال رَوْزهما باليد أو الفكر. وشبّها بالرمان والقُرموط. وشبّهت حلمتاها بالسعدان. وقد -قالت قف هنا فقد أسهبت في وصفهما وفاتك أحسن ما يراد منهما قلت أفيدني. قالت لو جئت بكلمة تدل على التقامهما أو قطفهما لكانت خيرا من كثير من هذه الصفات، قلت ليس الذنب عليّ في ذلك فإنني لم أجد هذه الدرة في القاموس. ثم قلت هذا وان المرأة إذا كان في وجهها شعر ناعم أو زغب ولا سيما على شفثها تستحب عند جميع الناس. فأما الأجرد منا أو السناط والأزطّ فمكروه عند الله والناس، قالت أما أولا فلانّ المرأة من حيث كانت تعلم أنه لا شيء في الدنيا يسدّ عندها مسد الرجل كان يشوقها منه أدنى شيء، حتى لو نطقت مثلا أمام امرأة بالرّ بعد قولك أعوذ بالله من الشيطان لسبق وهما إلى الرجل، فعلاها على الفور الاصرار أو الاحمرار بحسب توجيهات خواطرها إليه وكذا لو ابتدأت بنطق الرّ بعد قولك بسم الله. اللهم لطفك وعصمتك. هذا قرحان الطبع وقريحته فكيف بيانعه. ثم قالت أما الصفات الحسنة الموجودة في المرأة دون الرجل على ما ذكرت أنت وشبب به الشعراء وتباهى به المصورون فعدم وجودنا فيه ليس بمناع من أن يحبّ لأن المرأة تعلم أنه لا شيء يقر عينها غير الرجل فوجوده على أية صفة كانت مشوّق لها



كما ذكرت آنفاً. ألا ترى أن نساء السودان رجالهنّ أبلغ من حب النساء لبعولتهن في بلادنا وغيرها. ومثل ذلك مثل من عنده كتب كثيرة فيها حكايات ونوادر مختلفة. ومثل آخر ما عنده إلا كتاب واحد يطالعه. فصاحب الكتب الكثيرة تراه منتقلا من كتاب إلى آخر حتى يأتي على آخرها وما علق بذهنه منه شيء. ثم يملّ من إعادة قراءتها. وصاحب الكتاب الواحد من حيث كان يعلم إنه إذا فرغ من كتابه لا يجد آخر فإذا طالع صفحة منه لن ينتقل منها إلا بعد أن يمعن النظر فيها. ويحدّس في معانيها. ويحفظها ويعيها

ويترسمها ويتذكرها. ويتمثلها ويتدبرها. ويمتحنها ويتوقمها. ويتصورها ويفلّنها ويطفّلها. وإنما ضربت لك المثل بالكتب لأني أراك مبتلى بالمطالعة وعندي أمثال كثيرة غير ما ذكرت. وبعد فإن في الرجل محاسن كثيرة ذاتية ليست في المرأة. منها فردسة صدره والزّيب عليه. وارتفاع كتفيه وسعة صدره وشطط قوامه وشبح ذراعيه وكثرة العضل فيها وعظم يديه وكونه قوياً شديداً جلدبا زخزبا شصلبا شززا عززبا عصلبا كثنبا قسباقزبا قعنبا هقبقبا إصلبنا صفتيتا مصتيتا قنعاتا علنكدا قسودا أزبر جحاشرا ذميريا سبطرا قبعنرا عبهرا عشتررا قوعسا صثملاً عنبلاً جرهاما بممة حسميا شظيما عجرما عرزما عرضما عردمانا عشرماً فسحما شرنثبا قاهيا قنعاسا مجلجلا ذا جهارة وجشة. فهذه كلها نعدّها نحن النساء محاسن في الرجل. وفيه محاسن أخرى اعتبارية وهي صعوده المنبر مثلاً خاطباً. وركوبه الجواد وتقلده السلاح. وما أحسن الرجل إذا مشى وسيفه يمسّ الأرض. ثم قالت لو كنت أعرف القراءة والكتابة لألّفت على الرجال والنساء أكثر مما ألّف في جميع العلوم ذلك الشيخ الذي ذكرت لي اسمه سابقاً وقد نسبته لكونه ميتاً. قلت هو الإمام السيوطي رحمه الله. قالت نعم أكثر من السيوطي ومن جميع السوطيين. قلت ومن السوطيين أيضاً. قالت ولكن الذنب على من غادرني بغير تعليم. لان العرب يزعمون أن علم القراءة مفسدة للنساء. وإن المرأة أول ما تستطيع ضم حرف إلى آخر تجعل منهما كتابا إلى عاشقها. مع أنّها لو خلّيت وطبعها كان لها من حيائها وحشمتها عاضل أشدّ من الأب والزوج. بخلاف ما إذا حُظرت وحُجرت فإنها لا تنفك تحاول التملص والتغطي مما حُصرت فيه. فمثلها كمثل الماء كلما زاد انبعثاً وجرياناً زاد صفاء وانسياغاً. أو كمثل السائر المسرع فإنه كلما زاد إسراعاً زاد حسّه ببرودة الهواء أكثر. قال فقلت في نفسي والله لقد أحسنوا لو أنّها تعلمت القراءة والكتابة لما بقي في شعري بيت إلا وشطّرتة وخمسته على غير ما قصدت. اللهم انقل معارفها إلى معارفها إلى ما يفيد واكفي شرّ المزيد.

حاشية من مرادف القوي الشديد أو الصلب الشديد وما في معناهما العتعت الكنبث الكندث المكلث المليث المغث العُضافج العفضج العُلج المهرّج الصلودح الصلنقح الصمحمح الصميدح الكردح الكلدح

الدحوح الجلندي الجلعد الجلمد الصلخد الصمقد الضهيد العربد العصلد الأقود الذفرّ الذمرّ الذمريّ الزيرّ  
 الزمرّ الصمعيّ الضبّير الضبطر الضبغطري العيزار العشتر القبعثري القناصر الكُماتر التيزر الجليز الجلافز  
 الخراخز الثُرامز الدّخَر الضبارز العضمزّ العلكر العلنكر الفيز الكلز الملزَز الحُماس الدخنس الدُراهِس  
 الدَلْهُمَس المتشمسُ العترَس العكنَدَس العَمَرَس القلمَس القناعَس الهكَلَس الهملَس الفُرافِص الكيص  
 المتخَمَط الضَبْنَطِي الضفَط المعلَط الضلّيع الصنق الدمكم الصمكيك الصمّلك العبنك العراك الجنعدل  
 الحول العرنّدل العنّثل الكمتل الكنبل الكنهدل النبتل البُهصم الدلظم المرجم الضرغامة العردم الفيم القرشم  
 الهيزم الهيصم.

## الحرّة

قد كان الكلام في الفاريق حالة كونه فردا مبرما فكيف به وقد صار الآن زوجاً. فأرى الآن تركه على  
 الحالة الزوجية أولى. لأن حديثهما هذا كان في الليل فلا ينبغي التكدير عليهما فيه إلى أن يصبحا ويذهب  
 هو إلى معبره أي موضع التعبير لذي عين له. ولعل الجناب الكريم أيضا متأهب بعد حرّة هذه الأبايزر إلى  
 الفراش. فارقد هنيا. وإن حلمت ليلتك شيئا فابلغه مسامع الفاريق فإنه أصبح اليوم من كبار المعبرين.

## الأحلام

ها هو الفاريق جالسا على كرسي وأمامه مائدة عليها كتب كثيرة ليسببها صفحة من الطعام، وبين  
 أصابعه قلم طويل وبين أصابعه قلم طويل وبين يديه دواة فيها حبر كالزفت. وقد شرع في تفسير أحلام  
 رآها رئيس المعبر في منامه. الحلم الأول رأى الهاالج المشار إليه إنه سافر إلى بلاد الهند فوجد فرسا في  
 الطريق طاعنة في السن ولا سرج عليها. فلما رآته الفرس دنت منه ووقفت وهي تحمحم فجاوزها بعض  
 خطي وإذا بها جرت وراءه فلما أدركته وقفت أيضا فقال إن لهذه الفرس شأنًا. أنى أريد أن أمسك  
 بناصيتها لأنظر ماذا يكون من أمرها. فلما مسّها تطأطأت له كالمشيرة إليه أن اركب ولا تخف لعدم  
 السرج. فركبها حيث كان قد أعيا من المشي وسار غير بعيد. وإذا هو بـدكان سروجي فتزل عنها  
 واشترى لها سرجا ثم ركب وسار في مضيق حرج فيه أشجار كثيرة. فنشب في رأسه بعض أغصان  
 الشجر ومنعه من السير. فحاول أن يتقدم فلم يمكن له وأشفق أن يهزم الفرس للإقدام فوقف يتفكر فيما  
 عرض له وهو متعجب جدًّا. واتفق انه مدّ يده وقتنذ ليحك رأسه فإذا به قد نبت له ستة قرون، اثنان من  
 أمام على كل صدغ واحد واثنان من خلف واثنان في الوسط، وكان ذلك الغصن مشتبكا بها كلها.

فتوصل إلى أن قطع الغصن من الشجرة لكنه بقي ناشبا في القرون. ثم سار وهو على هذه الحالة فكان كل من رآه يتعجب منه ويقول انظروا هذه القرون الستة في رأس هذا الرجل، وهو غير مكتثر بهم، حتى إذا دخل في مأزق مظلم تشرف عليه صخور وجنادل صدم بعض الصخور أربعة من القرون. فانكسرت وسقطت وبقي له قرنان من أمام فقط، ولكن كان أحدهما يميل إلى الثاني وبماسه ثم صارا يتحاكان ويصطكان وكلما اصطكا سمع لهما صوت عظيم، فأقبلت الناس من بعيد تنظر إليه وتتفرج عليه. فلما ضاق بهم ذرعا ورأى كثرة الزحام مانعة له من السير عزم على الرجوع، فأبت عليه الفرس ذلك وصارت تثب وتطفر قدما وكلما ركلها برجله ازدادت وثبا وتقدما. فنظر إليها كالمتعجب منها فإذا بلونها قد تغير عن أصله. فقال في نفسه لعل هذه الفرس غير الدابة التي ركبها أولا، فترل عنها ليكشف عن سننها. فلما أراد أن يضع يده في حنكها رفسته وكدمته كدمة شديدة غشى عليه منها. قال فكان الفرس حين أبصرته مجنونا مصروعا رقت له فجعلت تنفخ في منخرية وتلحس مواضع القرون المكسورة منه حتى أفاق قليلاً. فطفق يئن ويجار بالدعاء إلى الله لأن ينجيه مما ألمّ به. فأشارت إليه الفرس برأسها أن اركب لنرجع من الطريق التي أتينا منها. فقام متجلداً وركب فلما وصل إلى ذلك الموضع الحرج نبتت فيه تلك القرون المكسورة وعادت كما كانت فكان يلمس عليها وهو سائر. فلما أمسى عليه المساء نزل في خان ليبيت فيه ليلته تلك. وأمر صاحب الخان بأن يُعنى بدابته ويحضر له ولها عشاء. ولما انتبه صباحاً وجد السرج قد سرق. فقال لصاحب الخان قد فقدت عندك سرج فرسي وما يتأتى لي أن أركبها بدونه. قال بل أنت مبطل فيما تدعيه فإنك حين قدمت كنت معروياً لها. فلجّ بينهما الخصام وتماسكا بالحيوب. فلما علم أنه لا ينتفع بشيء رضي من الغنيمة بالإياب. وقام إلى الفرس وركبها وبقي سائراً إلى المساء فوجد خاناً آخر في الطريق فبات فيه. فلما أصبح الصباح وأراد أن يركب لم يجد اللجام. فجرى له مع صاحب الخان هذا ما جرى له مع ذلك ثم بات الليلة الثالثة في محل آخر وعند الصباح وجد فرسه بلا ذنب. وبقي كلما بات ليلة فقد عضوا من أعضاء الفرس حتى بلغ مدينته ساعياً على القدم وغابت عنه الفرس بالكلية. فأما القرون فزال منها أربعة بزوال الفرس وبقي منها الاثنان المتقدمان.

لما ألقى هذا الحلم القرني على الفاريق أخذ يعث بشاربيه على عادته ويفرك جبينه بيده ويزوي ما بين عينيه. إلى أن اهتدى إلى تعبيره فكتب بجانبه ما صورته. هذا ما عبّر به العبد الذليل المسمى بالفاريق لجنان المولى المكرم السيد ذاهول بن غافول عن حلمه الذي رآه في منامه. إن الفرس كناية عن امرأة. والمشى والإعياء كناية عن العزوبة. والسرج كناية عن أدب المرأة. واللجام عن عرضها. والمكان الحرج كناية عن الولائم والمآدب والزيارات التي يتجشمها المتزوج ويدخل فيها رأسه ورأس امرأته. والغصن

كناية عن بعض المدعويين الذين ينشبون في الزوجة. والقرون كناية عن الحالة الزوجية التي يكون عليها الرجل والمرأة. ونبتها واضمحلالها كناية عن تغيير تلك الحالة ورجوعها إلى ما كانت عليه. ومبيته في الخانات عن سفره بزوجه. وغياب الفرس كناية عن فقدائها. وباقي الحلم مفهوم بالفحوى والله أعلم. فلما أخذ التعبير وأمعن النظر فيه ملأ رجوع إلى الفاريق عجباً وعلى طلعت آثار الغيظ وقال: أن في تعبيرك خطأ من وجوه. الأول أن عبارتك موجزة بخلاف عادة المعبرين. والثاني أن الفرس ليست كناية عن المرأة فإن المرأة عندنا لا تكون دون الرجل أي تحت بل هي أعلى منه. فيجب أن يكون تعبيرك بحسب اصطلاحنا لا بحسب اصطلاحكم. والثالث أن اللجام لا يكون كناية عن عرض المرأة فإن اللجام إنما يوضع في الفم وعرض المرأة لا يكون في فمها. ولكن ينبغي الآن أن تدع هذا وتأخذ في تعبير الحلم الثاني. فاجتهد في التحرير والإسهاب. فعسى أن تصيب وتحرز الثواب.

### الحلم الثاني

رأى صاحب المعبر أطل الله بقاه. وعظم مقامه بين الهاجلين وأعلاه. أنه أراد يوماً أن يكتب خطبة يتلوها على القوم في يوم عيد. فأخذ القلم والقرطاس وكتب حرفاً واحداً وإذا بامرأة تدعوه من حجرها ليحورها. فترك الكتابة وحفد إليها. فلما حورها ورجع رأى أن قد ضُمَّ إلى ذلك الحرف حرف آخر بحير غير خبره. فقال في نفسه ترى من دخل حجرتي وخط هذا الحرف الذي ناسب ما أردت من المعنى. ثم أخذ القلم وكتب حرفاً وإذا بامرأته تدعوه ليربط لها شراك نعلها. فقام إليها وفعل ما أمرته به ورجع فوجد حرفاً آخر قد أضيف إلى الثلاثة الأولى حتى تمت به الكلمة فزاد تعجبه من ذلك. ثم أخذ القلم وكتب كلمة تامة وإذا بامرأته تدعوه أيضاً ليمشطها الكُعْبُبة أو والله أعلم المقدمة. فقام ومشطها برفق ولين ثم رجع كلمة تامي أضيفت إلى كلمته متلائمة بها. فأخذ القلم وكتب كلمتين فدعته امرأته ليحمرها. فترك الكتاب وقام ولما رجع وجد كلمتين ناميتين. فلما تكامل له سطر دعت امرأته ليعقد لها عظامتها. ثم رجع فوجد سطرًا بجملته. حتى إذا تكامل له صفحة دعت امرأته أيضاً ثم رجع فوجد صفحة كاملة. وعند انتهاء الكراس وجد كراساً وقس على ذلك إلى أن كمل الكتاب. وكانت امرأته قد فرغت من تفلخها وزينتها. فحمل الكتاب إليها وأخبرها بما جرى له ففرحت بذلك فرحاً لا يوصف. وقالت له إنما حصل هذا بركة خدمتك إياي على إلباسي. فينبغي يا عزيزي أن تواضب عليها. فلما كان في الغد فعل ما فعله أمس من الكتابة والخدمة ووقع له فيهما عين ما وقع أولاً. فزاد سرور كل منهما به. فلما حان العيد صعد إلى المنبر وتلا الكتاب الأول فأدهش السامعين ببلاغته وانسجام عبارته

ودقة معانيه، حتى إذا فرغ أخذ الناس يطرون عليه ويقولون له ما طرق مسامعنا كلام أبلغ من كلامك قط. فقال لهم هذا يئمن الشراك فلم يفهموا ثم رجع إلى بيته مبتهجاً متهللاً وأخبر زوجته بما جرى. فقال له أن نصحني لك يا عزيزي أن تهجد في الخدمة والكتابة فإذا تكامل لك خمسون كتاباً نقصد بها بعض البلدان البعيدة فتتلوها هناك. لأنه لا يمكن لك في هذا البلدان أن تتلو خطبة إلا في يوم عيد والأعياد هنا غير كثيرة. ويكون من الخسران أن تبقى هذه الكتب الجليلة غير متلوّة. فقال لها الرأي ما رأيته. ثم أهما للسفر إلى بعض البلاد المشرقية. ومعهما تلك الكتب قد ضمنت صناديق من خشب الساج نفسية وأنفقا عليها مبلغاً جزيلاً. فلما بلغا طيتهما اكتريا لهما داراً رحبة مطلة على الحدائق الناضرة. وأرسل منادياً ينادي في الأسواق أن أحضروا يا قوم خطبة المولى ذاهول بن غافول في يوم كذا وساعة كذا. ليسمعكم من المعاني البديعة ما لم يطرق مسامعكم قط. فحشدت إليه الناس أفواجاً أفواجا ولما استقروا في المجلس صعد سلماً كان قد نصب له فيه. وفتح ذلك الكتاب الأول الذي كان أعجب به قومه وإذا به محو لم يشترك إلا على الحروف التي كتبها بيده. فحاول أن يصل بعضها ببعض ليستخرج منها معنى ما فلم يمكن له. فترل عن المنبر خجلاً وهكذا انتبه من نومه.

### التعبير

هذا ما يعبره الفقير الفاريق للمولى ذاهول بن غافول. أن ما توهّمته من ضم الحروف والكلمات والسطور والصفحات والكراريس والأسفار إلى كلامك الذي أعجب به قومك لم يصلح في غير بلادك لارتباطه بربط العظامه والشراك. والله أعلم فلما بلغت هذه العبارة للمشار إليه أقبل إلى الفاريق وهو يخطب الأرض برجله ويشمخ بأنفه قائلاً. هذا التعبير أفسد من التعبير الأول. وهذه العبارة أحصر من تلك فلا يكاد أحد يفهم ما نقول. وإذا تعبّر الأحلام غامضاً مبهماً كالأحلام فلا موجب معبرين وتكليف الناس قراءة ما لا يفهم. فقال له الفاريق هكذا جرت العادة في بلادنا التي هي معدن الأحلام ومنبت التعبير. فإن رؤوسكم لم تكتسب هذه الخاصية إلا من رؤوسنا. ولولا حلماً واحداً. قال فكأن الرجل أنتبه من غفلته وسكن من ثورته. ثم قال قد بقي عليك الآن حلم واحد فهأكه.

### الحلم الثالث

رأى صاحب المعبر أطل الله مدة نيّاته عن الهاجين. وحقق أحلامه مع الفالجرين. أن قد نصب له ذات يوم سلّم عال يشتمل على مائة درجة ليصعد إليه ويخطب القوم من أعلاه. فلما حلق لحيته وشاربيه ولبس

ثيابه السلمية أرسل من جمع القوم إلى موضع معين. وكانوا كلهم قد علموا بذلك من قبل وسبقوه إليه لما انه لبث ساعة امرأته حتى تقوم من الفراش فيرغمها ويعانقها قبل توجهه. ثم تأبط كتابه وأقبل يجري إلى ذلك الحشد العظيم ولم يلتفت بمنة ولا يسرة. فلما بلغ الموضع ورأى السلم منصوباً والناس مجتمعين حوله كاد يطير من الفرح. فقال في نفسه هذه فرصة ما سمح الزمان لغيري بمثلها. فسأردّ اليوم هؤلاء القوم إلى بيوتهم بقلوب مثل قلبي وأخلاق كأخلاقي. ولو لم أعمل من الصالحات غير هذا لكفى. فقد كتب اجري عند الله. ثم تمادى في الأفكار. وثل من الاستبشار. واستقبل السلم وهو مدهوش. وما كاد يصل إليه إلا وقد مدّ رجله متفشخاً إلى أول درجة منه دون أن يسلم على أحد من الحاضرين. ثم افتتح الخطبة بقوله الحمد لله الذي أمر بنصب السلم وارتضاه له عرشاً. فسمع أحد القيام هذا الاستهلال فأنكره. وقال لمن يليه ما أظن خطيبنا اليوم إلا معتوهاً. فلست أشاء أن أسمع منه أكثر من هذا ثم ولى. فصعد الخطيب الدرجة الثانية وقال: وجمع الناس هذا المحفل المبارك وكلهم فارش أذنيه للاستماع فرشاً. فسمع كلامه آخر من الوقوف فقال هذه الفقرة شرّ من الأولى. فإني لا أبالي بكون السلم عرشاً أو نعشاً وإنما لإذني أن أفرشها ثم ولى. وما زال الخطيب يقول عند صعود كل درجة فقرة ركيكة مثل هذه وينفضّ عنه شخص وهو غير منتبه لما شمله من الفرح الذي أذهله من رؤيتهم حتى بلغ درجة المائة وقد انفض الناس كلهم عنه. فلما استقر عليها التفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً. فقال في نفسه قد الفت خطبتي وجمعت لها القوم. وهام قد تولوا وبقيت الخطبة معي فما لي لا أتلوها جهراً في هذا الموضع الشريف المترفع عن نجاسات الأرض وقدرها. فإن لم يسمعوها هم يسمعها الله وملائكته. فإنه يقال كلما بعد الإنسان عن الأرض زاد تقربه إلى السماء. ولست أرى موضعاً يصلح للخطب أكثر من هذا. ولعلّ أحداً من المارين يلتقط كلمة مما أقول فتكون سبباً في خلاص نفسه ونفوس ذويه وجيرانه ومعارفه. فإن لفظة واحدة من فم واحد قد يكون فيها الموت والحياة.. ومن العيب أن أعود إلى زوجتي وأقول لها أن الخطبة بقيت غير متلوة. ثم انه مسح عرقه واصلح صوته وثيابه بعد أن جعل الخطبة على الكتاب وجثا يصلي قليلاً ويدعو الله لأن يلهم أحداً من الناس أن يمرّ به ويسمعه ثم قال ناشطاً مسروراً وقال. اسمعوا يا أخوتي الأحباء وأنصتوا اليوم لما أنا قائلة لكم. واتفق وقتئذ إن مر به رجل من الشعراء الغاوين. فلما سمعه يقول ذلك ولم ير عنده أحداً وقف وقال من أطلع هذا الجنون إلى رأس هذا السلم. وأين اخوته الذي يخاطبهم أم عساه يكلم الجنّ في الهواء أن في هذا لعجبا. ثم صاح به انزل يا راجل ولا تعرض نفسك للهزة والسخرية إذ ليس يسمعك من عباد الله أحد. فلم ينتبه له الخطيب لأنه كان شاخص البصر نحو السماء. فاعتقد الرجل بأن به لمماً. فأراد أن يتزله بأية وسيلة كانت وأخذ في قطع أوتاد السلم وإطنابه. فلم يشعر إلا والسلم قد تقوض وسقط معه الخطيب وكتابه على رأسه أي على رأس الشاعر. فتهشم كل منهما وتحطم.

## التعبير

لا ينبغي للخطيب أن يكون ثرثاراً. وإن داوم المولى الطراد على الثرثرة فلا يأمن منان يسقط سقطة تدق بها عنقه والله اعلم.

فكان هذا التعبير أنكى له وأقهر مما تقدم وذلك لنهيهِ عن كثرة الكلام ولو جازة العبارة. فلما كان بعد أيام جاءه برقعة فيها ما صورته: حلمت أن رجلاً من أصحابي قد أهدى إليّ قنبيطاً مما ينبت في سهل الأردن. فاتخذت منه عشاء وبت فرأيت أبي دككت أسوار مدينة في الجو تشبه مدينة أريحا في حصانتها ومناعتها. فكتب الفاريق بجانبه.

إذا ما تعشَّى القنبيط جراضم  
رمى الجوَّ من برج أسته بجلاهق  
فيفعم ثقبى منخريه عجاجها  
فيرجع أيضاً سبكها كالبنادق

فطالع امرأته بذلك فقالت لعلَّ الرجل قد ألف الآن هواء البلاد فيأني أراه ابتداءً يصيب. وقد ذهبت عنه تلك الحدة التي كانت تظهر سابقاً في حركاته وكلامه. فسأجرها أنا الآن بنفسي في حلم رأيته البارحة. ثم أخذت رقعة وكتبت فيها. رأت السيدة ورها زوجة السيد ذاهول بن غافول أن بيدها قفلاً مصقولاً مجلولاً ذا ثقوب كثيرة. ويبد زوجها مفتاح ذو ثقب واحد وقد صدئ. فكتب الفاريق تحته:

المرء والمرأة سيان في الميل  
إلى العشق وحبّ السفاح  
لكنّ ذا مفتاحه يهي  
وتلك مأمون لها الانفتاح

فلما اطلّعت على المعنى قالت لزوجها هذا ما خطر ببالي قبل تعبيره. فما أقربه الآن إلى الصواب فخذ هذه الرقعة الأخرى. فتناولها الفاريق وإذا فيها: رأت السيدة ورها إن قد كتبت على جبين زوجها عدد اثنين. فلما ابصر نفسه في المرأة حاول أن يحوهما. فبادرته وأمسكت يده فلم يقدر إلا على محو واحد فقط ولكن بقي الآخر غير ظاهر ظهوراً بيناً. فكتب تحته:

فرض عليّ الزوج أن يكفي حليلته  
في كل ليل ونفل بعده يُرضي  
فإن تبدّل لفظ الفرض بالرفض  
تبدّلت هي معنى العرض بالعرض

فاستحسن البيتين جداً ثم ناولت زوجها رقعة أخرى كتبت فيها. رأت السيدة ورها سيدة السيد ذاهول بن غافول أنها ترى الأسود بعينها اليمنى أبيض. والأبيض بعينها اليسرى اسود. فكتب تحته:

رضاء الزوج صعب أي صعب  
ولاسيما إذا رأت المعنى

### فتنظر فيك كل الحسن قبحا

### وتتظر فيه كل القبح حسنا

فاستظرفتهما وقالت لزوجها أراه يحسن تعبير الأحلام النسائية القصيرة. فاحلم لي الآن يا عزيزي حلماً قصيراً واكتبه في رقعة وأنا أنا وله إياها لتنظر هل يستمر على هذه الطريقة معك أو لا. فلما كان الغد جاءت برقعة فيها. روى في المنام شيء مطاوع. ثم ظهر لعين الرائي مستديراً ثم مطاوعاً ثم مستديراً وهلم جرّاً. فكتب الفاريق تحته.

### قد كنت أحسب هيئة الدنيا

### نظير الفرج إذ في القدر يشتبهان

### حتى استبانوا أنها كالإست ت

### ويراً فقلت تقارب الشبهان

فلما أطلع زوجته عليهما ضحكت وقالت أراه لا يتأدب إلا معي. وأنه ليشمّ الأمور النسائية شماً فإن هو إلا زير نساء. ولكن لا بأس في أن تجرب به بحلم آخر وبعد ذلك نرى ما الذي ينبغي أن نصنعه معه. فلما كان الغد جاءه برقعة فيها. قد رأيت أن يدا خطت على صدغي عدد ثلاثة ثم توارت. فمددت يدي إلى صدغي لأحكه فمحت من العدد ستين فصار الباقي واحداً ذا عوج. فكتب الفاريق تحته.

### تكلفني زوجي ثلاثاً ولم أطق

### سوى صرعة العجز من ذاك لأمني

### فقلبي وطرفي لا يملان بتّة

### كمهبلها لكن ذلك لا يغني

فأخذ الجواب واقتبل يهرول إلى امرأته. فلما اطلعت عليه ضحكت وقالت إنه لا يزايد معك إلا جنونا وسفاهة. فنبغي الآن أن تدعه حتى حين وقم أنت إلى الصرعة. فقاما إليها واستراح الفاريق منهما أياماً.

## إصلاح البخر

كان قد بلغ مسامع حاكم الجزيرة أن الفاريق قدم إليها لتعبير الأحلام وإنه خبير بهذا الفن جداً. وأن به ملكة أيضاً على إصلاح البخر. فبعث إليه ذات يوم بعض حجابيه يقول لهان الحاكم يدعوك إليه لمسألة مهمة فلا بد من أن تفد عليه. فلما حانت الساعة توجه الفاريق إليه وهو موجس من أن يكون الحاكم قد حلم حلماً حكيماً جليلاً يعسر عليه تعبيره. لأن العظماء لا يحلمون إلا الأحلام العظيمة. فهم مترهون عن جلاهم القنبيط ووهي المفتاح والصرع وغير ذلك من الأحوال الخسيسة اللاتقة بالصعاليك. فلما مثل بمجلس الحاكم قال له قد بلغني قدومك إلى هذه الجزيرة عند الخرجي. وإنه قد ضايقت بكثرة أحلامه وما كفاه ذلك حتى علم زوجته أيضاً أن تحلم مثله. فهل لك الآن في تعاطي مصلحة لدينا تخفف عنك أحلامه وتثقل كيسك. قال ما هي يا سيدي؟ قال إن عندنا في هذه الجزيرة قوماً بخرا لا يطيق أحد أن



يفهم منهم شيئاً إذا تفوهوا لشدة بخرهم. وقد سمعت انك قادرا على علاجهم فهل لك في إصلاحهم  
ولك عندنا مكافأة الحسنة. قال الأمر إليك يا سيدي ولكني كاهن المعبر. قال أنى باعث الآن إلى الخرجي  
من يخبره بذلك فلا تخش منه ضيرا. قال جزاك الله خيراً أنك أهل للخير والفضل. ثم انصرف من حضرته  
من غير أن يرجع القهقري. لان حكام الإفرنج لا ينكرون على الرجل أن يروا منه قفاه أو ظهره أو بطنه  
لا بل بطونهم أظهر من ظهورهم.

فلما بلغ إلى منزله واخبر زوجته بذلك وكانت قد ابتدأت تتهجدى قالت. بورك من يوم أني رأيت فيه  
بدكان جوهرى عقدا نفسياً. وكأني رأيت عليه حروفاً ظهر لي أنها ك س ب ا ل ب خ ر فهل يخرج  
منها معنى. قال يخرج منها معنى أني اشتريه لك من الدراهم التي تحصل لي من وظيفة البحر. قالت نعم  
فإني كنت أسمع أمي تقول لأبي أن الرجل إذا بذل رأس ما يتحصل بيده من الأموال في شراء حلي ولباس  
لزوجته بارك الله له في ذنبها. أي في ذنب الأموال لا في ذنب امرأته. قال فما الفائدة إذاً من هذا البذل  
إذا لم تشمل البركة الطرفين؟ قالت لزيادة جمال زوجته. قال أما أنا فراض بما فيك من الحسن الطبيعي  
فلمن هذه الزيادة. قالت هي تزيدك حباً إليّ. وتبعث غيرك أيضاً على أن يحسدوك عليّ. ويتمنوا لو أني  
كنت لهم. قال اللهم اكفني شر المزيد. ولكن لا بد من شراء العقد. فهو أولى من انحلال العقد. فوعدها  
بذلك فاتعدت بحمد الله ولمست جيدها. فلما مضى الشهر وقبض المرتب له أنجز لها وعده. فقالت هو من  
دراهم البحر ولكنه أحسن من الندّ. لقد قسم الله بيننا عدل قسمة خذ أنت دراهم المُلج واعطني دراهم  
البحر. فقد رضيت بهم. قال فقلت لها لا تقولي بهم ولكن بما. فإن بهم يرجع إلى البحر. قال فهي نمت  
بكلام لم اسمعه كله وإنما سمعت من آخره قولها وأي ضرر من هم. فقلت لها وأي حيزبون أنت. فالتفتت  
إلى الباب فلم تر أحداً فقالت أين الزبون؟ ثم استمر الفاريق في الوظيفتين المذكورتين معبراً ومصلحاً مدة  
مكنته من حل مشاكل زوجته. وأتخذ له متاعاً فاخراً وآنية وصار يدعو ويصنع لهم ولائم.

وكان للحاكم عادة أن جميع المعروفين في خدمته إلى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته. وكان  
من جملة المدعوين الفاريق وزوجته. فلما رأيت الرجال يرقصون وهم محاصرون للنساء قالت لزوجها.  
هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال قال منهن هكذا ومنهن بخلاف ذلك. قالت وكيف يخاصرونهن  
إذاً. قال هذه عادة القوم منا وفي سائر بلاد الإفرنج. قالت وبعد المحاصرة ما يكون منهم. قال لا أدري  
ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كل إلى منزله. قالت أشهد بالله أنه ما خصر رجل امرأة إلا وباطنها.  
قال لا تسيئي الظن إنها عادة قد مشوا عليها. قالت نعم هي عادة ونعمت العادة. ولكن كيف يكون  
إحساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها. قال فقلت لا أدري إنما أنا رجل لا امرأة. قالت

ولكن أنا أدري أن الخصر إنما جعله الله في الوسط مركزاً للإحساس الفوقي والتحتي. ولذلك كانت النساء عند الرقص والقرص في أي موضع كان من أجسامهن يبدن الحركة من الخصر ثم تنفست الصعداء وقالت يا ليت أهلي علموني الرقص. فما أرى فيه لأنثى نقص. فقلت لو فتحت الصاد في كل من المصراعين لكان بيتاً مطلقاً. فقالت يا للفضيحة بين الأنام. أتقول هذا الكلام في مثل هذا المقام. قلت هيت إلى البيت. فقد كفاني ما سمعت الليلة وما رأيت. قالت لا بد من أن أرى ختام الرقص. قال فلبثنا إلى الصباح ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة نساء مع رجال راقصات. رجال مع نساء راقصون. راقصات راقصون راقصات. فقلت فاعلات فاعلون فاعلون فاعلات. قالت الرجال والنساء والبنون والبنات. كيف - متى - أين.

ثم وبعد أيام ورد على الفاريق حلم مشكل في وحش ذي قرون وأذنان كثيرة وشيات وبقع شتى في جلده. وأراد صاحب المعبر أن يعرف تأويل كل قرن وسر كل بقعة. إيشاؤه فذهب إلى منزله مبتسماً متسخطاً. فقالت له زوجته ما بك قال همّ ونكد. قالت ما سببه قال كلما تخلصت من ورطة وحلت في أخرى شر منها. قد كنت من قبل مداحاً للسري بما لم أرد ثم صرت عشير المجانين. ثم معبر الأحلام. ثم مصلح البحر. وكل ذلك على غير ما أؤرم فما أنكد هذه المعيشة وأضيق هذه الدنيا عليّ. أليس في الأرض مندوحة عن هذا. قالت خفف عليك يا سيدي أن كل إنسان في الدنيا له نصيب من الحزن والهم. حتى المرأة أيضاً لا تخلو من همّ فدأبها كل يوم أن ترجع حاجبيها. وتكحل عينيها. وتورد خديها. وتخفف خطو قدميها. وتنظر في المرأة مائة مرة كيلا شعرة قد انفردت عن سائر شعرها. ثم تخاطب نفسها في المرأة وتضحك وتبسم وتلهس وتغمز وتلوي جيدها وعطفها وتنفس الصعداء وغير ذلك لتعلم كيف تبدو منها هذه الأفعال في عيون الناس. قال فقلت أهذا وقت الجد أم الهزل أنا أقول لك أن للوحش أذناً وقروناً وشيات لا تحتمل التأويل وأنت تذكرين الغمز والابتسام والتكحيل. قالت ليس في كل يوم يأتيك وحش مثل هذا وإنما همّ النساء في كل صباح ومساء ضربة لازب. وحسبنا بالغبية همّاً وحزناً.

قالت أما أنت قريرة العين هنا وقد تمتعت بالحرية في الخروج وحدك. وفي رؤية الناس وفي رؤيتهم لك بما لم تعديه من قبل في دولة البرقع والخبرة. قالت إنما ينغصني كوني لا أستطيع أن أبلغ أهل مصر أي النصراري منهم قبطيهم وشاميهم ما يراد من الزواج مما لم يعرفوه بعد فإنهم يحسبون أن الله تعالى إنما خلق المرأة لمرضاها الرجل في فراشه وخدمته بيته فترى طلعة الرجل منهم إذا جاء منزله وواجه امرأته كطلعته حين غاب عنها سواء. وإنه ليقعد بعيداً عنها قاعدة المستريب المتفكّن. وإذا نظر إليها فما ينظر إلا إلى

شعرها ليرى به شعث أو لا. ثم هو لا يصلحه لها أمام الناس إذا شعثته الريح وغيرها. ولا يلبسها ولا يأخذ بذراعها إذا تماشيا بل قلما يمشي معها إلا إذا سارت لتنتظر أهلها غيره عليها من أن يكلمها أحد في الطريق أو يراها فترجع حبلى من النظر بفدّ ومن الكلام بتوأمين. فإذا حضر الطعام تعشى وهو ساكت وجم كأنما يأكل شيئاً مسموماً. وربما كلفها غسل رجله قبل النوم أو تكييسهما حتى يجيئه النعاس. وفي خلال ذلك يرمش ويرضك ويتشاءب ويتمطى. ثم يرقد دون عفز ولا حفز. وكلما كان عيد لأحد مناجيف الرهبان تابل عنها ويلزمها أن تقول له بحضرة الناس نعم يا سيدي. وأحسن يا سيدي. وربما كان ذلك السيد سيداً عملساً. أو كان من أكبر الحمقى وكانت هي رشيدة لبيبة فلا يسعها إلا أن تبعل له. ولا يمكنها إذا رأت منه غواية أن تردّه إلى طريق الصواب. فقد تقرر في عقول النوكي المآفك أن عصيان طاعة لله. حتى إذا وقع منكوساً على أم رأسه رجع إلى امرأته باللوم والتبكي. قال قلت قد روى عن النخعي إنه قال من أشرا الساعة طاعة النساء. فقالت كأني بالإفرنج قد حشروا أو يحشرون الليلة. ثم استمرت تقول وأقبح من هذا كله أن الرجل عندنا إذا كان كهلاً لا يستحي أن يتزوج بنت لم يأت عليها بعد نصف عمره. فإذا استقرت عنده شرع في تربيته وتنبيتها وتوليدها من ذي أنف وعاملها بالنفاق والدهان. فقد يكون حبيثاً فاجراً ويوهمها إنه ذو صلاح وتقوى يتورع من اللهو والسماع وعشرة الفتيان الكيسين. وما يخطر بباله أن مغايرة السن بين الرجل وامرأته هي أعظم الأسباب الباعثة لها على فركه. بل يعتقد أن مجرد كونه فاعلاً وكونها مفعولاً يقضي له بالمزية والفضل عليها. فقلت ان دعوى الفاعلية ما أراها إلا باطلاً. فإن المفاضة والمباضة وأخواتها تدل على إن الفعل مشترك بين اثنين. وإنما الأفضلية باعتبار البادئ. قالت ليس الابتداء متعيناً على واحد دون الآخر فأيهما بدأ صحّ. فلا مزية لأحدهما على صاحبه. هذا وكم من مرة لمجرد هذا الوهم يغادر الرجل امرأته وحدها في البيت ويقضي ليلته عند أحد أصحابه. فيتعاطى معه المدام حتى يسكر ويذهب ما عنده من قليل العقل. فلا يقدر على الرجوع إلا إذا حمل بين اثنين كالجنّانة. ثم هو لا يفرق بين أن تكون زوجته حبلى أو غير حبلى. فتراها يكلمها وهي في تلك الحالة بعين الكلام الذي كان يكلمها به من قبل. وربما دمع عليها كالضارب فمناها بمرعبة. أو اسمعها الضبّعطي والضبّعطري وأية ودخدخ وهجاءك وهذا ذيك. أو كان عليها دُبّواء أو لزاقاً وطبّاقاء أو عباقاء أو عياباً أو عباماء.

فنهاية رفقة بها وشفقته عليها إنما هو أن يشتري لها جارية أو يستخدم وصيفة. وليس المقصود مجرد تخفيف الشغل عنها وإنما المقصود جعل الأمة أو الخادمة رقية عليها حتى لا تخونه في عرضه. ولا أقول في ماله لأنه لا يخرج من البيت إلا بعد أن يقفل صناديقه. مع أن الجارية لا تكون إلا ذات ضلع مع سيدتها

عليه وان شتمتها بين يديه وإهانتها: لأنها لا يهتمها كون سيدتها تحب واحداً من الرجال أو اثنين أو عشرة. بل يهتمها أن تنال عندها الطيب من المأكول والمشروب. فإذا كانت زلة سيدتها كما يقال تحت يدها أدلت عليها بتلك الزلة وتجرات على أن تطلب منها ما تشاء. لا بل تتمنى أن سيدتها تكثر من العشاق ما استطاعت. لأنها تؤمل منهم الصلة والإحسان. ومعلوم إنه كلما كثرت العشاق كثرت الصلات. وبعد فإن من طبع النساء في كل زمان ومكان الارتياح إلى شواغل الهوى وبواعث العشق وان يرين أهل الدنيا كلها مسترسلين إليها ومنهمكين فيها فالجارية التي تكون عند سيدة حرّة على فرض صحة ذلك لا تلبث أن تغضب سيدتها حتى تغري زوجها ببيعها فيقع نصيبها عند أخرى غير حرّة. غير أن الرجال مغفلون. نعم هم مغفلون. فأما تبجحهم بكونهم يشتررون لأزواجهم حلياً في ربيع يُسرهم فذلك عائد إلى خبرهم. لأنهم لا يلبثون أن يسلبون إياها في خريف عسرهم وأفلاسهم. فأية امرأة ترضى لنفسها بان تقعد في بيتها كالفرس المسرح المعد للركوب وهي محرومة من معاشرّة الناس. قال فقلت والله ما قلت كلاماً أحسن من هذا. وهذه آثار النجابة بدت تسطع من طباعك فحيّاك الله وبيّاك. قالت وما بيّاك قلت ليس بشيء. قالت ولكنها عندي حسنة للازدواج. قلت كأنك تقولين إنه من قبيل تزويج لفظة بأخرى فيشتم منه رائحة الزواج. قالت نعم الزواج سارٌّ حتى في الألفاظ. قلت ولكن بقي لي عليك اعتراض وهو أنك عرضت في أول خطبتك هذه البليغة التي أفادني أكثر من خطب صاحب المعبر بأي أصلح شعرك وثيابك أمام الناس. أو بأنه يلزمني أن أفعل ذلك وهو مما فات فكري. قالت انك لما تفعله ولكن ستفعله أن شاء الله عن قريب. فأني أراك تقدر النساء ولا تبخسن حقهن وإني واحدة من عباد الله هؤلاء.

### سفر ومحاوره

ثم لما كان الغد ذهب الفاريق إلى المعبر وهو موجس من تعبير الوحش. فجاءه الرئيس يقول قد عنّي لي أن أسافر إلى أرض الشام لأجل تغيير الهواء. فإن هواء ذلك القطر والأحلام فيه تصح ويسهل تعبيرها. وأني أراك مثلي ضعيف القوى ناكل الجسم فتجهز للسفر فعسى الله أن يوفق لنا أسبابه ونعود بخير. فاستأذن الفاريق الحاكم في ذلك فأذن له كريماً وتفضيلاً. فأقبل على زوجته يودعها ويقول: عهدي إليك يا زوجتي بادئ بدء أن تتذكري السطح فيبعثك على حفظ العهد والوداد. وأن تعني بأمر الذي أغادر عندك معه كبدي. وإذا أتاك فاسق بنأ عني فتبتي. إي إذا قال لك غداً أحد من حسدني عليك قد مات زوجتك في البحر وأكله الحوت ولم يبق في علم الوجود سوى اسمه فلا تركني إليه قبل أن يرد إليك

كتاب ميني تعتمدين عليه قالت ولكن تكتب لي إذا كان الخبر صحيحاً. قال فقلت يكتبه لك صاحب المعبر. ولكنني أرجو أن أصل سالماً وتقر عيني برؤية أهلي وأهلك وأبلغهم سلامك. قالت إلا تعين لي مدة لإرسال الكتاب. قلت شهرين. قالت هذا دهاير أية امرأة تصبر شهرين. قلت نحن سائرون في سفينة الريح فإن الطبيب قال لصاحب المعبر أنها أوفق من سفينة النار لما في هذه من رائحة الفحم التي تضر بالمصدورين. قالت أفعل ما بدأ لك ولكن أحذر من أن تفيق وتهوى غيري. قلت إنما أحذر من الثانية لا من الأولى. قالت لا بل ميني فأحذر. قلت إنما عنيت أي أحذر من الهوى. قالت نعم إياك وإياه فإنه يزيدك ضني. قلت ليست البلاد التي نقصدها مظنة لذلك. كهذه الجزيرة. قالت النساء والرجال في جميع البلاد سواء. ولا سيما أنك الآن في زي غريب والنساء كلهن تهافتن على الغريب. كما أن الرجال يتهافنون على الغريبة. قلت قد فهمت هذا التعريض غير أن المرأة المصونة إذا دخلت بين جيشين تخرج كما دخلت. قالت نعم تدخل امرأة. قلت وأين المصونة أراك حذفتها. قالت في زمن الفطحل. قلت وما الفطحل. قالت دهر لم يخلق الناس فيه بعد. قلت من أين علمت هذه اللفظة الغريبة. قالت سمعتك مرة تقولها فحفظتها وهو دليل على التهافت على الغريب. ثم سكنت مفكرة ثم ضحكت. فقلت لها ممّ تضحكين أمن الفطحل؟ قالت لا وغنما ذكرت حكاية عن امرأة سافر عنها زوجها فضحكت. قلت وما هي قلت كانت امرأة متزوجة برجل يربيه في بعض أحواله ولم تكن على يقين مما راها منه. وأنفق أنه سافر عنها فحزنت لفراقه لكنها ظلت واحدة عليه. فجعلت مرة تدعو له وأخرى تدعو عليه. وقالت وأن كان بريئاً بلغته دعواتي الصالحة وإلا فيلحقه غيرها. فقلت هل في نيتك إذاً أن تحاكيها. قالت معاذ الله أن أدعو. قلت قولي لك أو عليك حتى يفهم المعنى. قالت عليك قلت لله أنت ما أرى لي من يدك منجي. فالتفتت إلى الباب وقالت ما جاء أحد. قلت دعيني بحقك من الزبون ومن جاء فأنا الآن على جناح السفر. قالت سرّ في أمن الله ولا ترتب فإن للهزل وقتاً وللجد وقتاً وعرض المرأة هو من الأخير. قلت وهذا أيضاً كلام موجه كأنك تقولين أنه ليس من الأمور المقدمة. قالت ألا كن مطمئناً سواء كان من هذا أو ذاك فإنك ستجدني كما فأرقتني إن شاء الله. قال فودعتها والدمع هامل على جديها وبكت هي أيضاً لفراقي فإنها كانت أول غيبة عنها. وكان من خلقها إذا بكت أن تبدو في طلعتها لوائح وجد شائقة. وملامح حسن رائقة. والنساء أشوق ما يكون إذا بكين. ولكن لا يكن كلامي هذا باعثاً على ضربهنّ شلت يدا من مسهن عن غضب. قال فتزايد بكائي لبكائها وأحسست ح بلوعة الفراق.

ثم أقلعنا وما كادت تغيب الأرض عنا حتى ثارت لواعج الأشواق في صدري وخطر بيالي كل ما قلته لي مصبوغاً بالوسواس والهواجس. قال ومن كان جلس بيته لم يفارقه ولم تبرح رائحة زوجته منخريه لم يدر

ما ألم الفراق بعد ليالي الوصل والعناق. ولا سيما إذا جرى ذلك أول مرة. فينبغي إذاً أن أصور لخطير صاحبنا هذا الحليسي المغفومي بعض ما يقاسيه الحب من لوعة البين. عسى أن يرق فيدعو لجميع النائين عن أحبابهم بقرب الوصل وجمع الشمل فأقول: أن الفراق طالت مدته أم قصرت قربت طيبته أم بعدت عبارة عن فصل أحد المتواصلين وحرمانه من أنس صاحبه. وقد تكون لوعته اشد من لوعة الموت لأن فراق الميت مقرون بالأسف والتحسر. وفراق الحيّ بهما وبالغيرة أيضاً. وهي في مقابلة اليأس المتسبب عن فراق الميت بل هي أشد مضضاً منه. هذا في حق المتزوجين المتحابين فأما في حق الكارهين فلا آسف ولا حسرة على كلا الحالين. ثم أن الحب المفارق إذا فارق حبيبه ورغد عيشه في غير وطنه. من طعام لذيد يأكله أو مسامرة مطربة أو سماع غناء يتلذذ بهما أو رؤية أشياء بديعة ووجوه ناضرة سنيعة تفرّجها عينه. فأول ما يخطر ببالي إنما هو حبيبه النائي فيقول في نفسه ألا ليته الآن حاضر عندي ليشاركني في هذا النعيم. فإني أحسبه اليوم محروماً منه بل ربما كان على قلبه غشاوة من الحزن والكمد. فكيف يتأتى لي أن ألهو وأفرح وهو محزون. وكيف يمرثني الطعام ويسوغ لي الشراب وهو الآن لعله مُقَهَّ عنهم وحشة واكتئاباً إلى غير ذلك من الخواطر المكدرة والأفكار المحسرة. فأما إذا قاسى جهداً ونكداً بعد فراقه فإنه يقول وبيّاً لي وويحاً وويحاً وويساً وويلاً وويهاً. إن عيشي الآن نكد ذميم. وحالي موحشة وفؤادي كليم. وقد جرى بيني وبين أليفي الاتفاق على أن نكون شركاء في السراء والضراء والنعماء والبأساء. وأحسبه الآن مفتقاً منعماً. مترفعاً برثاً برحاً برعاً طرّحاً يسامره في الليل كل ربيع ظريف. ويجالس في النهار كل كيس لبيب. ألا وكأني به أيّ بها تبتسم الآن ابتسامة رضى وإعجاب لمن طرأ على محاسنها وجمالها فقال لها. ليتك كنت تتخذين عوداً لتردّ عنك عين الحسود فإني لا أسمح بهذا الوجه المنير الوضّاح أن يراه كل أحد من الناس. ولا ينكر أن يتشبه عليك من ابتلى بامرأة دميمة فإن العين حق وإن جمالك فريد فما يكون جوابها له إلا أن تقول له: ما أحسن عينيك فإني تريان الشيء كما هو. فأما عينا زوجي فإن عليهما غشاوة. وإن من مذهبه الفاسد أن يقول إن العين إذا ألقت شيئاً مهما كان بديعاً في الحسن قلّ اشتياق النفس إليه. أو كما تقول العامة ما تملكه اليد تزهد فيه النفس. غير إنني أخشى من إنك إذا أكثرت من النظر إليّ والقرب مني لا تلبث أن تتمذهب بمذهبه فتراني على غير ما أنا عليه الآن. فيقول لها معاذ الله هذا كلام الجهال. فأما الصادقون مثلي في الحب وهيئات مثلي. فإني أبدأ يتمثلون بقول أبي نواس:

إذا ما زدته نظرا

يزيدك وجهها حسنا

وإني أشهد الله عليّ وهو خير الشاهدين. وملائكته المقرّبين. وأنبياءه ورسله المكرمين. إنك إذا عاشرتني العمر كله فلن ترى عيني بشراً أحسن منك. فتقول له هذا شأن الرجال دائماً من إنهم يتملقون المرأة ليفتنوها ويخدعوها. فمرة يقولون لها تبارك الخلاق. ومرة افدي الغزال الشارد. ومرة يا سعد من كنت له. أو طوبى لمن رأى طيفك في المنام. وتارة ينظرون إليها وقد غرغت أعينهم بالدمع. وتارة يزفرون وينحبون. كل ذلك حتى يتمكنوا منها مرة أو مرتين ثم هم من بعد ذلك عنها معرضون. ويسرّها بائحون. فنحن منكم على حذر. ولا يخفي علينا ما بطن منكم وما ظهر. فيقول لها معاذ الله. حاشى الله. استغفر الله. ما شأني شأن المتملقين الملائيين. ولا طبعي طبع الفاسقين. بل أن لساني في هواك ليقتصر عنيان ما تجنه سرائري. وما يخطر بخاطري. فيا ليتني اعرف لغة اعبر بها عن فرط وجدي بك وتوقائي إليك. ولو اطلّعت على ضميري لصدّقتني وعلمت إنني لست كأحد الناس وإن غرامي فوق كل غرام. فأطيلي عشري ولو بدون وصال ليتأكد لك صحة ما أقول. فتقول له وقد فتحت لهاها وزال ضرّسها. وما الفائدة في ذلك فإن المرأة ليست نجماً يرصد طلوعه وغروبه. ولا برقاً يشام ليعلم هل هو خلّب أو ماطر. ولا أحجية يحاول فكّها وإشّاؤها. وما يهمّها أن تكون أجمل من سائر النساء وجهاً وإنما يهمّها أن تكون أشوق للرجال وأفتن. فإن التشويق لا يتوقف على الجمال قدر ما يتوقف على حسن السمائل والمحاضرة والملاطفة والموانسة والغنج والدلال والافترار والحدقلة والترنجح والغرنقة والوكوكة والترأد. فيقول لها نعم سبحان من جمع جميع هذه الأوصاف الحميدة فكل ما فيك شائق وكل ما في مشوق. فتقول له وقد أزدهر وجهها سروراً وإعجاباً. قد يقال أن نبض العاشق يكون مضطرباً فدعني أجس نبضك لأعلم هل ما قلته صدق أو لا فيقول لها نعم نعم خذي يدي فحسيّها وأجعل يدك واجعلي يدك الأخرى على قلبي. فتفعل ذلك. فيقول دعيني إذا أفعل بك كما فعلت بي لتتكشف هذه الحقيقة لكل منا. فتهجث وتحمر عند سماعها قوله أفعل بك ويضطرب نبضها ثم تسكن وتمد له يدها. فيحسها بإحدى يديه ثم يضع الثانية على قلبها ثم يرفعها قليلاً وقد حملاقه وأندلع لسانه. ثم يزفر زفرة طويلة ويقول:

لقابضها قبض على كرة الأرض

لك الله من قرموظة ملأت يدي

وكل عزيز من متاع ومن عرض

لا سجمها إنسان مقلتي الفدا

فتقول له وقد دغدغت ولكن عروق الإنسان النابضة فيه ليست في يده وقلبه فقط بل هي في سائر أعضائه. فينبغي على هذا أن نجس كل عضو فينا لنعلم أيّنا أكثر حركة وانتفاضاً ونفضاناً ونبضا وإزاء

وَيُضاً وَأَزُوح وَحَبْضاً. إِذْ لَا يَصِحُّ الْحُكْمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ الْاسْتِقْرَاءِ وَالْاسْتِقْصَاءِ. فَيَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَرَبَ وَجِداً وَحُبوراً نَعَم نَعَم نَعَم الْقَوْلُ مَا قُلْتَ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ يَجْهَلُ حَالَهُ وَكَانَ مِنْ طَبْعِهِ أَنْ يَلَاظِحَ فِي غَيْرِهِ مَا لَا يَلَاظِحُ فِي نَفْسِهِ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْاسْتِقْرَاءُ بِالتَّخَالُفِ أَيْ -فَتَبْتَرَهُ قَائِلَةً قَدْ فَهَمْتُ مَا عَنَيْتَ وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالْبَدِيهَةِ وَمُسْتَعْنٌ عَنِ التَّفْسِيرِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي قُصْتُ. فَهَامَتْ يَدُكَ وَخَذَ يَدِي. حَتَّى إِذَا جَالَتْ الْأَيْدِي بِالْجَلَّتِ وَالْجَس. وَالْمَثَّ وَالْمَس. وَالنَجَثَ وَالنَجَشَ وَالْبَحْثَ وَالْمَعَشَ. وَالضَبْثَ وَالْمَسَ. وَالطَّمْثَ وَالْمَلْشَ. وَالْفَحْثَ وَالْفَتَشَ. وَالْقَبْثَ وَالْمَتَشَ. وَالْمَرْثَ وَالْمَرَشَ. وَالْمَغْثَ وَالْمَعَشَ. وَالنَبْثَ وَالنَبْشَ. وَالنَقْثَ وَالنَكْشَ. وَالنَثَ وَالنَتَشَ. قَالَتْ وَقَدْ قَوِيَ حَبْضُهَا أَلَا هَيْتَ لَكَ. إِلَّا هَيْتَ. فَإِنْ قَوْلُكَ عَلَى أَيِّ الْحَالَيْنِ صَدَقَ. فَيَقُولُ لَهَا لِيَبْكُ وَسَعْدِيكَ لَقَدْ طَلَمَا شَبَحْتَ يَدِي بِالْإِعْدَاءِ لِأَنْ أَسْمَعَ هَذِهِ الدَّهْوَةَ الْمُنْعَشَةَ وَهَذِهِ النِّعْمَةَ الْمَطْرِبَةَ - أَعْلَى هَذَا كَانَ الْفِرَاقُ. أَمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا حَسَنْتَ لِي السَّفَرَ بِأَنْ قُلْتَ لِي ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنِّي أَرَى بِكَ يَا رَجُلَ فَتُوراً. فَلَوْ سَافَرْتُ إِلَى أَرْضِ طَبِيبَةِ الْهَوَاءِ لَعَادَ نَشَاطُكَ الْقَدِيمَ. فَعِنْدَنَا إِلَى ذَلِكَ النِّعَمِ أَفْكَانَتْ هَذِهِ حِيلَةٌ مِنْكَ عَلَى تَغْيِيهِ لِيَخْلُوَ لَكَ الْمِيدَانُ فَتَمْرَحِي فِيهِ كَيْفَمَا شِئْتَ وَتَتَعَاطَى عِلْمَ جَسِ النَّبْضِ وَحَرَكَاتِ الْأَعْضَاءِ. أَلَمْ يَكُنْ لِي نَبْضُ كَسَائِرِ النَّاسِ فَتَتَعَلَّمِي بِهِ هَذَا الْعِلْمَ الْجَلِيلَ. أَمْ تَزْعَمِينَ أَنَّهُ ضَعِيفٌ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَتَعَلَّمَ عَلَيْهِ. عَلَى أَنَّهُ إِنْ كَانَ قَدْ ضَعُفَ فَإِنَّمَا ضَعُفَ بِسَبَبِكَ. وَعَهْدِي بِهِ مِنْ قَبْلِ لَيْلَةٍ عَرَسْنَا لَهُ ضَرْبَانِ وَانْتِفَاضَ وَانْتِغَاضَ. أَفْهَكَذَا يَفْعَلُ الْمُتَفَارِقُونَ. وَبِمَثَلِ هَذَا يَخُونُ الْمُتَرَفِّقُونَ. أَيْحَلْ لَكَ مِنْ اللَّهِ أَنْ تَتَنَعَّمِي الْآنَ وَأَنَا فِي حَالَةِ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ. بَطْراً تَجْسِينِ الْعُرُوقِ وَأَنِّي عَرَقَ الْمَجْسَةَ أَنْ يِي عُرُوءاً أَلَمْ يَكْفِ مَا كُنْتَ أَقَاسِيهِ مَعَكَ فِي الْبَيْتِ حِينَ كُنْتَ أَغْدُو مِنْهُ كَادِحاً وَأَرْجِعُ إِلَيْهِ رَازِحاً. وَكَانَتْ هُمُومُكَ كُلِّهَا عَلَيَّ وَلَوْ مَكَ كُلَّهُ مَتَوَجَّهاً أَلِيَّ. فَكُنْتُ أَنْصَبُ لِرَاحَتِكَ. وَأَرْقُ لِاحْتِاحِكَ وَأَلْغَبُ لِتَشْبَعِي. وَأَجْهَدُ لِرَتْعِي. وَأَبْرِدُ لِتَدْفَعِي. وَأَقْلِقُ لِتَهْدِي وَأَتَهَجَّدُ لِتَهْجُدِي. وَأَنْحَلُ لِتَمْغُدِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ الْآنَ أَيْنَا ذُو أَمَانَةٍ وَمَدَاهِنَةٍ وَخِيَانَةٍ. وَإِذْ كُنْتُ أَقُولُ لَكَ أَنَّ الْأَمَانَةَ فِي النِّسَاءِ أَقْلُ مِنْهَا فِي الرِّجَالِ. فَإِنَّ الرَّجُلَ أَبْداً مُشْغُولُ الْبَالِ. مُضَعِّعُ الْأَحْوَالِ. يَلِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ كَدُهُ وَنَجْلُهُ. وَيَصْرِفُهُ عَنِ هَوَاهُ رَشْدُهُ وَعَقْلُهُ. وَالْمَرْأَةُ لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا تَشْوِيقُ الرِّجَالِ. وَفَتْنَتُهُمْ بِهَا فِي كُلِّ حَالٍ. كُنْتُ تَقُولِينَ لَا بَلَّ الْمَرْأَةُ أَكْثَرَ حَشْمَةً وَحِيَاءً. وَأَقْلَ نَهْمَةً وَرِيَاءً. وَأَمِيلُ طَبْعاً إِلَى التَّعَفُّفِ. وَأَبْعَدُ خَلْقاً عَنِ التَّكْلِيفِ. فَإِنْ جَمَعْنَا الدَّهْرَ يَوْماً وَأَفْضَنَّا فِي حَدِيثِ الْوَفَاءِ. وَالْمُودَةِ وَالصَّفَاءِ حَجَجْتِكَ بِمَا لَا تَقْدَرِينَ مَعَهُ عَلَى الْجَوَابِ. وَأَظْهَرْتَ فَضْلَ الرَّجُلِ عَلَى كُلِّ ذَاتِ نِقَابٍ. الْخَائِنَاتِ الْخَائِنَاتِ. الْمَائِنَاتِ الْغَادِرَاتِ: فَإِنْ أُبَيَّتْ إِلَّا الْجُحْدُ وَالْمَكَابِرَةُ. فَالْهَرَاوَةُ لَدَيَّ حَاضِرَةٌ. وَالْبَيْدُ لِلطَّمِّ وَاللَّكْمُ مَبَادِرَةٌ. فَإِذَا أَمْسَكْتَ بِنَاصِيئِي أَوْ جِيئِي. وَأَذْعَتَ بَيْنَ الْجَيْرَانِ عِيِي، جَعَلْتَ لَكَ مِنَ الشَّجَابِ صَلْبِيّاً أَوْ مِنَ الذَّأَطِ نَصِيْباً وَمَتَى خَطَرَ بِيَالِهِ ذَلِكَ هَاجَ بَعِ الْغِيْظِ كُلِّ هِيَاجٍ. وَوَدَّ لَوْ يَطِيرُ إِلَى بَيْتِهِ مَعَ الْعِجَاجِ. فَيَنْقَلِبُ فَرَحَهُ تَرَحُّماً وَصَفَاؤُهُ تَكْدِيراً. قَالَ غَيْرُ أَنْ لِلْحَزَنِ فِي مَبَادِيئِهِ فَائِدَةٌ. وَهِيَ ذُودُ شَوَارِدِ الْأَمَالِ الْمَغْرُورَةِ



والأمانى المحالة إلى مراح البصيرة والرشد. بحيث يسكن البال عن الحوم على موارد المحال. ويستقر الحال على فطم النفس عن الاحتيال. وإلى هذا أشرت بقولي:

وربَّ حزن القلب عن سفه      كما يصون إناءً واهياً صدأه  
وما انقضى عن لذاذات الهوى عجلاً      سيّان غايته عندي ومبتدأه

قال وأروق الأفكار وأبدعها ما يخطر في ثلاثة أحوال: الأول في مبادئ الحزن. والثاني في الفراش قبيل النوم. والثالث في بيت الخلاء. فإن هذه الحال لما كانت عبارة عن تحليل مواد متكاثفة تنفس عنها الأمعاء والأعفاج. كان هذا التحليل والتنفس أسفل مؤثراً في تحليل ما تعقد في طبقات الدماغ العليا في وقت واحد ومكان واحد. فيكون بعض المواد داهياً سفلاً وبعض الصور صعداً. كالبخار الذي يصعد من الأرض فيعقد سحباً مطراً. فقد عرفت مما مرّ أنه يتحصل من الحزن من الفوائد ما لا يتحصل من الفرح. لأن الفرح يبعث على الطيش والذهول وتشتت الخواطر في أهواء النفس وأوطارها المنتشرة. فهو عبارة عن تعدّد أهواء وتفريق خواطر. والحزن عبارة عن ضمّها ولمّها ولهذا كان جل العلماء من الصعاليك المبتئسين وقل من نبغ في المعرف من الأغنياء في المعارف من الأغنياء والمترفين. إلا أن يكون قد غرس في طباعهم نوع من الزهد والعزوف المقترن بالحزن. قال وأحسن ما سنع لي من الخواطر إنما كان عن كان إنما كان عن بواعث أشجان، وخوالج أحزان. أما من وحشة فراق أو من خيبة وحرمان. أو من حسد على علم وبراعة، أمّا على مال وثروة فلا. اللهم إذا كان لمصلحة كإنشاء مدارس ومؤسسة محتاج. وأي لا عجب من هؤلاء الرهبان فأفهم مع ما هم فيه من الوحشة والحرمان فما أحد منهم نبغ في علم أو مآثرة. ولو كنت راهباً ملأت الدير نظماً ونثراً وآلفت على العدس وحده خمسين مقامة. ليت شعري كيف يمكن لبشر إذا خلا في صومعته ورأى تحتها الغياض المدهامة والبحر الساجي والجواري المنشآت. وعن يمينه وشماله الجبال الشامخة المكلفة بالثلج وفوقه الرقيع الصافي وأمامه القرى والمنازل أن يقضي نهاره كله وهو يرمد ويرضيك ويتشاءب ويتمطى ويملد معدته من دون تأليف ونظم ولا سيما أن من حسن ساكنات تلك الديار ما يشرح الصدر ويروج عن البال. فإذا كانت هذه المناظر البهيجة كلها لا تهيج هؤلاء النساك على تأليف كتاب فأبى شيء بعدها يهيجها. هذا وأن كثيراً من المسجونين قد ألفوا وهم في الضنك تأليف بديعة، يعجز عنها سكان القصور الوسيعة. فأما ما قيل عن عبد الله بن المعتز من أنه كان ينظر إلى أواني داره ويشبه بها فليس كل كعبد الله. فأنا نرى الناس الآن كلما زاد ثراهم قل حجاجهم. والحاصل أن وحشة الفراق تبعث الخاطر على ابتكار المعاني الدقيقة. وكذلك الصدّ والمهجران

والأعراض والمطل والعتاب والشفون والدلال والتمنع والتعزز من طرف المحبوب. ولكن ليس محصول هذا الحاصل إغراء الحبيب بمجر محبته حملاً له على النظم. أو تعتمد الفراق بعثاً له على وصف ما يجده من الشوق واللوعة. فإنه أحسنه ما جاءت به المقادير دون تعريض له. وها أنا أبرئ نفسي عند العاشقين والمتزوجين وأقول: أنه إذا جرى بينكم وحشة أو جبت الفراق، أو فراق أو جب الوحشة. أو صد أو هجر أو لجأ. أو جدال أو اعتلاج أو تقافس أو صراع بالشعرية والشغزية والقرطي والألهاد والدهشة والظهارية والمباشرة والبأس والعرضة والنقص والمراصة والتنسّف والتعرق والاعتقال فما يكون عليّ في ذلك عتاب ولا ملام.

انتهى كلام الفاريق وقد أحسن فيه. إلا أنه لم يحك عن نفسه أنه كان عند الحزن جزعاً جرعاً كثير والهواجس قليل الحيلة والتدبير غير ثابت الرأي ولا مضب على ما في نفسه فإنه لم تكد أرض الجزيرة تغيب عنه حتى طفق يشكو من النساء ومن بطرهن عند غياب يعولتهن عنهن. فسمعه الخرجي وزوجته فقالا له ما بالك تشكو لا خوف عليك من تعبیر الوحش مدة السفر كلها. وإذا بلغت أرضكم إن شاء الله فلا أحلم إلا الأحلام البينة. قال ما شكواي من الوحش ولا الجن بل من الأنس. فأني سمعت اليوم كذا وأوجست كذا ولعلي أرجع وأجد كذا أو لا أجد كذا أو لا أرجع ولا أجد البتة. فلما سمعت بذلك ثارت زبانية سقر من أنفها فقالت له. هل بلغ من طيشك أن تسيء الظنّ في النساء المتزوجات. قال قد ظنّ فيهن من ذلك من قبلي الحليم الرزين. قالت ليست هذه الخلّة عندنا نحن معاشر الإفرنج هذا زوجي ما يخامره ريب فيّ. قال أن السيد مشغول بالأحلام بحيث لم يبق في رأسه موضع لغيرها. أليس أن عالمكم بيرون يقول أخون ما تكون المرأة ما إذا غاب عنها زوجها. قالت أنه شاعر وأن كلام الشعراء لا يؤخذ به في حكم على النساء إلا إذا كان نسبياً وغزلاً. ثم بينما هم كذلك إذا بالريح هاجت الأمواج فاضطربت السفينة ومادت أيّ ميد. فلزم كل مكانه مدة أربعة أيام حتى ذهل كل من ركبها عما وراءه وقدامه.

وبعد سفر اثني عشر يوماً بلغوا مدينة بيروت وهم جياح تعبون شاحبون مبتسسون. والهالج يترقب أو فرصة من الدهر لهبوط الأحلام. فلما دخلوا البلد كان أول ما طرق مسامعهم من كلام أهلها الركيك قول المخبر أن أهل الجبل قد ربقة الطاعة لوالي مصر وتجنّدوا عليه. فكان أهل المدينة في شغب واضطراب. وكان دوار البحر والفراق لم يزل يمد براس الفاريق. فصعد إلى جهة الجبل ليرى أهله فلقي بظاهر المدينة عسكر الأهلين مخيماً فهول عليه أحدهم بإطلاق بندقيته فطار نصف قلبه من صدره ولم يزد قلب المهول شيئاً. لكن بعض الناس يرتاح للأذى إن لم يحصل له فائدة. ثم لطف الله به وأنقذه من القوم

فبلغ منزل أهله. فلما علم قدومه عند أهل القرية أقبلوا يسلمون عليه مثنى وثلاث ورباع فكان ينظر إليهم ويتعجب منهم لبعد عهده بعادتهم. فإن النساء كن يأتين ويقعدن على الأرض. فممنهن من كانت تقعد بين يديه القُرفصاء أو الهَبْنَقَة أو الأربعاء أو الفرشحة أو البرثطة أو البرقطة أو الفرشطة أو القَعْفَزي. أو ثَبْجا أو احتفازا أو إمتعاسا أو إستيفازا أو إقعاء كقعدة القرد وهي مشمرة قميصها فتشفّ سراويلاتها عن ومّاحها. وهي عادة ألّفنها ولا يرين فيها عيباً. وأكثرهن تبدي ثدييها سواء كانت كاعبا أو هضلاء أو طرطبة. ويومئذ افرغ عليه شحن المسائل فمن قائلة مالك يافاريق نحيلا. ومن قائلة وقد صرت ضيّلاً. وأخرى ما لسحتك قد كلحت. وغيرها ولطلعتك قد قُبِحت. ولا سنانك قد قلحت. وجبهنك لثُحت. وأرنبتك فُطِحت. وأساريرك ازحت. وبشرتك قسحت. وشفتك تقرّحت. وعنقك شقُحت. وعينك لَجِحت. وقامتك تقنّحت. وشعراتك تصوّحت. وعجيزتك رَسِحت. وذقنك طُحّت. ولهجتك قَحِقُحت. قال فتشاءمت من هذه القوافي وقلت لم يبق بعد تعدد هذا الحت إلا أن يقلن وتلك قد نكحت. ثم قالت واحدة ممنهن إيه وهذه هَنّة قد زادت فيك. فقالت أخرى أوه وهذا شيء نقص منك. ثم جعلن يقلبنه ويعرضنه كم يقلب الشاري السلعة. وكلهن يقلن بنغمة واحدة يا فاريق يا فاريق أين الطنبور وأوقات السرور. أين أبياتك في العقوص والطنطور. أنسيت يوم كذا وليلة كذا. قال فكنت مسروراً بمؤانستهن وسلامة ضمائرهن عن المنكر كما هو خلق نسا تلك البلاد فإنهن لا يأبين من لمس الرجال والدنو منهم ومماسة الرُكْب دون المركب. إلا أنه كثرت مسائلهن عليّ. وطال قعودهن بين يدي. وإنا محتاج إلى الراحة والانفراد. ومع ذلك فمجلس النساء مؤنس على كل حال ولا سيما لمن مضى عليه في البحر اثنا عشر يوماً من دون رؤيتهن. فلو تنفن بعد هذا العهد الطويل لحيته وشواربه بالمسائل لما لحقه من ذلك أذى.

قال وأعجب من ذلك إني كنت أرى الأمراء يقعدون على الحصير وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد. وربما اجتزعوا بالبيض والأرز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقل. وأرجلهم ظاهرة فإذا قعدوا على الحصير خلعوا نعالهم بالقرب منه فبقى منه بمرأى منهم. وترى بعض خدمهم يقوم على رؤوسهم أي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقة. وآخر في جيبه الطاس من فضة إشارة إلى غنى الأمير وإلى كونه كأحد الناس غير مستغن عن اللعق والشرب. وهو قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ولا سميح له فيسامره ولا آلة لهو تطربه. وقد يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوماً وأياماً ولا يرى من امرأة أصلاً حتى تعمش عيناه ويظلم فكره وتلقس نفسه وتعرض معدته. فأين هذا من مجالس الإفرنج التي تزين بالمتكآت النفسية وتفرش بالزرايى الفاخرة وتوطأ بالنعال. ولا تزال الحسان مقبلات

عليها مدبرات. فمن هيفاء تشرفها بوطاة. ومن غيداء بطفرة. ومن زهراء بزفنة. ومن وطباء بحركة. ومن دهسار باضطجاعة. فمن يصير على هذه الحال فيأ أمير الناد. وواحد الأبحاد. وراكب الجواد. ورامي الجريد على العباد. قل لخادمك حامل الطاس ينح نعليك من أمامك. بل البسهما وتعال معي إلى بلاد الإفرنج لتتظر الأمراء منهم مخاصرين لأزواجهم وأولادهم سائرين بهم إلى المنارة والحدائق ومواضع اللهو واللعب والطرب. ولا حرج على أزواجهم أن يتسمن أو يملن أعناقهن أو يتفرسن أو يوكوكن أو يحقلن أو يهرجلن أو يفرجلن أو يهرجلن أو يهركلن أو يتبازين أو يكبين. ولا على أولادهم أن يطفروا ويمرحوا. حتى إذا كحلوا أعينهم برؤية الكحل باتوا ليلتهم تلك على الوثير من الفرش مع وتأثرهم. ليت شعري لم لا تضم إليك مع جملة هؤلاء الحفان والوصفاء والبساتقة والساتقة والهبانقة والمهنة والمناصف والنصف والحفد والمقاتورة والخدم والحشم الذين حولك ثلاثة نفر من العازفين باللات الطرب، ليجلوا عن خاطرك صدا هم الوحدة والاعتزال في كل يوم عند الأصيل أو في العشاء. وأذن لي في استعطافك لأن تأذن لجيرانك في أن يأتوا هم أيضاً ويطربوا لطربك. فيدعوا لك بتأييد دولتك، وتخيل غبطتك. ودوام بقائك وسمو ارتقائك وفي أن أسألك لم لا تعين في العام عيداً لمولدك أو لمولد السيدة أو الأولاد المحروسين. فيكون يوم فرح وحبور لك ولجميع من ينتمي إليك. بحيث تصطنع فيه مأدبة وتدعو إليها دعوة جفلي لا نقري، أي خير في رمي الجريد وأصابتك به كتف خويدمك الهبد الحقيير أو ضرسه حتى تعطله عن الأكل وأنت لاه عن أحسن الرمي وأصوبه وأصرده وأمرقه. وأنت آمن هناك من أن يقال لك برحى برحى بل يقال لك مرحى مرحى. هذا ما عدا إيلاهم أبطك الفاخر العاطر برمي الجريد. وما الفائدة من وقوف الخوידم بين يديك وفي حزامه المعلقة أو على رأسه الخوان أو على صدره القصعة والباطنة أو بيده العس والقعب أو على عاتقه المائدة أو على عنقه القدر. وأنت لا تأكل مع السيدة وأولادها ولا تأخذ ولدك وتضعه على ركبته. ولا تحمله على ظهره ولا تتطأطأ له لشيب فوق رأسك. ولا تحتجره ولا تحتضنه ولا تتوركه ولا تعانقه ولا تحول له خدك ليبوسك. ولا تمكنه من أن يبعث بشاربيك أو يعص إصبعك أو أنفك ليضحك قليلاً فأضحك أنا كثيراً. ولا تطعمه بيدك ليعرف إنك محسن إليه. ولا تأكل شيئاً مما يلوكة. ولا تركبه على جحش وتقوده به الجحش ولا تغني له في الليل ليرقد على نعمتك فيقوم في الصباح يغني لك غناء أطرب من غناء الفقّس ومعبد وأبي البدّاح وسواط والعثث وخليلان وعمر بن بانة والزّنام وممدود عبد الواسط الرباني وزلزل وعرفان والجرادتين وابنة عفزر وسلامة وشُمُول وأبن جامع السهمي ودُبيس ورقيق وأبن مُحرز والمشدود وهاشم بن سليمان ودحمان الأشقر وطويس وابن شريح والدلال بن عبد النعيم وأبن طنبور اليمني وحكم الوادي وإبراهيم الموصلي. وأشجى من

## الرُّنْمُ ومن صوت كل دُعْب غريض الرنم المغنيات المجيدات والغريض

المغني المجيد ومثله الدعيب.

ولا تبايئه ولا تغازله بابا قال له بأبي أنت.

ولا تناغيه ولا تباغمه باغمه حادثه بصوت رقيم.

ولا تنادغه ولا ترأمة نادغه غازله ورئمت الناقة ولدها عطفت عليه ولزمته.

ولا تنعّره ولا ترخمه نعّر الصبي دغدغه كنّعزه ورخمت المرأة ولدها لاعبته.

ولا تهنيم لهولا ترعمه رعمه مسح رعامه أي مخاطه غير أن صاحب القاموس خصه بالمرأة بل المتبادر من

عبارته أنه مسح رعام الرعموم للمرأة الناعمة فالعفو مرجو منهما على كل حال.

ولا ترزم لرزمته أرزمت الناقة حنّت على ولدها والرزمة صوت الصبي.

ولا تتجنّث عليه تجنّث عليه رئمه وأحبه وتلفف على الشيء يواريه ولا تقرمه ولا تسمّته التقريم تعليم الأكل والتسميت الدعاء للعاطس ولا تُفدى له ولا تُصهّيه أفدى فلان رقص أبنة وأصهاه دهنه بالسمن ووضع في الشمس.

ولا تدسم له نونته النونه النقرة في ذفن الصبي الصغير وكذا الفحصة وتدسيمها تسويدها كيلا تصيبها العين.

ولا تبدي له البجبة البجبة شيء يفعل عند مناغة الصبي.

ولا الحوّفزي الحوفزي أن تلقي الصبي على أطراف رجليك فترفعه.

ولا تقول له حلقة قولهم للصبي إذا تجشأ حلقة أي حلق رأسك حلقة بعد حلقة.

ولا بجباح بجباح كلمة تنبي عن نفاذ الشيء وفنائه.

ولامحماح هو كقولهم بجباح ومثله حمحام وهمهام.

ولا كخ كخ يقال عند زجر الصبي عند تناول شيء.

ولا تعنى بدّعه دنع الصبي جُهد وجاع واشتهى وطمع وخضع وذلل ولؤم.

ولا بققته صوت يصوت به الصبي أو يصوت به إذا فزع.

ولا تكثر لبأبته ولا لببته بأبأ الصبي قال بابا وببّه حكاية صوته.

ولا لتغغته ولا لتغغته التغغته حكاية صوت الضحك والتغغته عضّ الصبي قبل أن يتغر.

ولا لتأتأته ولا لدأتأته تأتأة حكاية صوت وهي أيضاً مشي الطفل والدأأة صوت تحريك الصبي في المهد.

ولا لدَعْبَعَه ولا لَحْتَارْشَه دعيح حكاية لفظ الطفل الرضيع وحتارش الصبي حركاته.  
ولا لأدْرامه أدرم الصبي تحرك أسنانه ليستخلف آخر.  
ولا لفصيصه ولا لأتنداغه فصّ الصبي فصيصاً إذا بكى بكاء ضعيفاً. وانتدغ ضحك خفياً.  
ولا تبالي بمَعْقاده المعقاد خيط فيه خرزات تعلق في عنق الصبي.  
ولا بِقَرْزَحَلته من خرز الصبيان.  
ولا بدرَاجته الدراجة الحال التي يدرج عليها الصبي إذا مشى.  
ولا بحقابه الحقاب خيط يشد في حقو الصبي لدفع العين.  
ولا بِصُمْتته الصُمْتة ما أصمت به الصبي من طعام ونحوه ومثلها السُكْتة.  
فبحق عبوديّتي لك يا سيدي ودالّتي عليك إلا ما وضعته يوماً على ركبتيك أو أركبته على ظهره. ثم لا بأس في أن تدعه يلعب مع أولاد من هم متسّمون بشرف خدمتك فإنه لم يزل بعدُ صغيراً لا يعلم هذه الفروق. ثم لا بأس أيضاً في أن تسهر هذه الليلة مع حريمك المحترم مع بعض رجال قريتك وأزواجهم ممن يتأدّبون في المحاضرة بحضرة النساء. فإني أرى صدر السيدة قد ضاق من الوحدة وما عندكم من كتب أو لهو حتى ينشرح بها. ولا غرو أن تستفيدا كلاكما من مسامرة رعيكما شيئاً. فإن رأس الفقير ليس بأضيّق ولا اصغر من رأس الأمير عن أن يشتمل على أراء سديدة مما يخلو عنه رأس غيره وأن يكن أكبر عمامة منه وأغلظ قدالاً. وكيف ترجو أن تكون السيدة وبناتها ذوات رشد ودراية وهن مقصورات في الدار العامرة. أم كيف ترضى لهن وحاشاك الجهل والغباوة.

وانتم يا سادتي الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة جربوا مرة أن تجتمعوا بأهلكم وأزواجكم مع أهل جيرانكم. "ولكن المطارنة ليس لهم أزواج لتزهرهم عن ألواج" وأن ترفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك أدعى لكم إلى الحظ والسرور. إنما الدنيا النساء إنما الدنيا البنون. أعلموا رحمكم الله إن الاجتماع بالنساء لا يخل بشرف المنصب. أعلموا هداكم الله إن فرق الآراء في الأديان لا يمنع من الألفة والمخالّة أعلموا أصلحكم الله إن في حمل الإنسان ولده على ظهره وتطوّقه برجليه اللطيفتين للذة اعظم من لذة تطويل الجُبّ وتوسيع الأكمام وتكوير العمامة ومن وقوف الخدمة وأيديهم على صدورهم. أعلموا فقهم الله إن العرب لم تخصّ حركات الطفل بأسماء إلا وهي تريد أن تلاحظوها وتنبيهها لها. حتى إنها وضعت لحدثه حرفين غريبين في التركيب لا ثالث لهما في اللغة كلها وهما الصَّصُصُ والقَقَقُ. أعلموا وفقكم الله إن مستر ومسيو وهر وسنيور أنعم منكم بألا وأحسن حالا أعلموا نصركم الله إن الفارياق رجع الآن إلى بيروت وإني أنا العبد الحقير كاتب سيرته مفكر في إنشاء مقامة تسرّ العزب منكم والمتزوج معاً.

"حاشية أظن سادتنا المشار إليهم ما سمعوا النصيحة فراح كلامي معهم في الريح" تنبيه قد أطلت الكلام في هذا الفصل المؤذن بالفراق ليقابل فصل الزواج".

### مقامة مقبلة

حدس المارس بن هثام قال سؤل لي الخناس، "أعوذ بالله من هذا الافتتاح" الذي يوسوس في صدور الناس كل غميس وغماس. إن تزوجت امرأة خرابية ولاجة هيّاجة نبّاجة مرغامة معذامة. لوامة رطّامة. خُبّعة. طُلّعة. خليعة جلّعة. تجاوب ولا سؤل وتبارز ولا قتال وتقترح علي أشياء يعجز عنها الدينار وترميني في مهالك دولها النار فكأن دأبي إن أصبر مرة عليها عذيراً وأخرى أن أشكو إليها فلا تزداد الأثرة ونفوراً. أو لا ينجع العتب فيها نقيراً. فقلت تالله لأجفّر عنها واوهم إن بي جفورا أو لأضربن في الأرض لا علم هل أرى لها نظيراً. فاخترت الرأي الثاني. بعد التعود بالمثاني. وخرجت من بيتي كتيماً مبتسماً، ساحطاً على جميع النساء. فبينما إنا في بعض الطريق، إذ مر بي سرب منهم يخطر بالثوب الصفيق، والحلي ذي البريق. وقد أرحت الأرجاء بطييهن العتيق فرأيت من بينهن الهيفاء والبدين. والغراء الزهراء ضرة حور العين، ومهندة العينين. فتاقت نفسي إلى وصالهن. وتبلبل بالي بجمالهن. ونسيت ما لقيت من لكاعي في البيت. وقلت ليتكن لي لو تنفع ليت. ثم أنشدت:

أرى للنساء الماشيات حلوة      فهل هن حلوات كذا في المقاصير

ولست أرى في إلقتي إن مشت وإن      أقامت سوى مقت وكره وتمير

أراها بعيني حيث كانت بعينها      فهل ذو عمى غيري يراها من الحور

فابتدرت إليّ واحدة منهم لها عنق كعنق الغزال، وحاجب كالهلال.

وقالت خفف عنك فما أنت وحدك في الرجال. إن زوجي قد قال.

أفكر في لئامة طبع زوجي      فأكره كل أنثى في النساء

واحسب إنهن مغايرات      لها فأحبهن على السواء

ثم التفت إليّ أخرى وجبينها يلمع كالصباح، ولحظها يدمي كالصفاح.

وقالت اسمع ما قاله زوجي فيّ. ولاتك من قاريّ:

تخوض زوجي في كل الفنون وما      تخشى خطأ ولا ردذا مع الظرفا

تكون غالطة في كل مسألة      وليس تغلط يوماً أن تقول كفى

ثم تقدمت إليّ أخرى وحبب عرقها كاللآلي. وحالك فرعها كالليالي. وقال دونك ما نظمته فيّ بعلي.  
وانظر هل يصدق ذلك في مثلي.

تودّ زوجي شططا أنني  
عبد مخيليق لمرضاتها  
وإن تشهت حاجة لم تتلّ  
أكون خلّاقا لحاجاتها

ثم دنت مني أخرى وهي تهمز عجباً ودلالا. وتبسم عن شنب ما رأى الناظر له مثالا. وقالت هاك ما  
أنشدنيه كفيعي من أول ليلة. آذن منها بالبشور والويلة.

لزوجي خلقة أضعاف مالي  
من الشفتين والفم واللهاة  
فكيف يُتاح لي إشباعها وهي  
تصرخ كل وقت هات هات  
فأما أن تضعف لي أداة  
والأفارتكاب الترهات

ثم أقبلت عليّ الخامسة. وهي من الخفر كالظبية المكانية. وقالت أنشدك ما قال في شيخي في الليلة  
السادسة. وهو

إن قال غيري قد يقال زوجة  
فإنني أقول زوجي دون ها  
إذ لا أرى التأنيث في أخلاقها  
بل الفحول في العراك دونها

ثم تقدمت السادسة، باشة آنسة. وقالت ارو هذين البيتين، عن حليبي الذي اعتاد قول المين. وهما

تراقبني زوجي عليلا وسالما  
نهاراً وليلاً نائيا وقريبا  
فصرت إذا عانقت في النوم طيف  
من أحبّ أراها بالوصيد رقبيا

ثم دلفت السابعة وكانت ذات حقيبة سابغة وطلعة رائعة. وقالت وفي معناهما قال زوجي المفترى. واجترأ  
عليّ بما لم يكن رجل على امرأته يجترئ. وذلك قوله:

تغار زوجي عليّ حتى  
إذا رأنتي مرضت تمرض  
فما رأنتي في حالة ما  
إلا وكانت لها تعرّض

ثم انبرت الثامنة وهي على ما ظهر لي رافنة زافنة. وقالت قد سمعت زوجي بهذين البيتين، بعد أسبوعين.  
وهو مطرق إلى الأرض كمن فقد العين. وبُثر بالحين. وهما:

تودّ زوجي أن لي  
شائين من مفاضحا  
هنّ حمار قازحا  
وقرن ثور ناطحا



ثم استقبلتني التاسعة وهي تفتت عن لآلئ ناصعة. وقالت ونحوها ما قاله في أبو ولدي. وقد حفظه كثيراً في بلدي وفي غير بلدي.

إن زارني عالم أو جاهل بدرت زوجي إليه وخاضت معه في الجدَل

فإن تجده خبيراً بالبعال تقل كل العلوم انطوت في صدر ذا الرجل

ثم تصدت لي العاشرة. وهي ذات قامة معتدلة وعين جائرة. وقالت وافطع من ذلك. ما ينشده رجلي في المنازل والمسالك. وهو قوله:

إن يزرني يوماً فتى ذو صلاح أفسدته زوجي فراح خليعا

أو خليع مستهتر أطمعته وعليه غارت وحامت ولوعا

ثم دعتني الحادية عشرة، وهي متمائلة مسبكرة. وقالت إن زوجي السيئ الظن قد جازف الكلام فيّ بما لاح في باله وعنّ. فقال:

ترى زوجي الرجال فتنّيتهم وليس الأمر عن حبّ الصلاح

ولكن خوف أن يغشى عليها من القرم الشديد إلى السفاح

ثم مالت إليّ الثانية عشرة، وكانت قصيرة حادرة. تارة حارة. وقالت عُقماً وعقرا. عن مثل زوجي الهراً. فإنه هجا النساء طراً. إذ قال:

ليس العفاف من النساء سجيّة لكنه سبب إلى الإفساد

كالضرس تقلعه ليسلم غيره وعلى الذي باينت حزنك بادٍ

فقلت لا جرم لأقصدنّ منتاب الشعراء. ولا تأخذنهم لي عشراء. فعسى إن آنس منهم رشداً. واجد عند نارهم هدى. فإن من كلامهم لحكماً ومن أمّهم لأمماً. وكان من عادتهم أن ينفردوا عن القوم في كل يوم. ويتذاكروا أمور الدنيا من العصر إلى المساء. ولا سيما أمور النساء. فاستقصيت عن محشدهم. ودُلت على مقصدهم. فإذا هم بجملتهم قاعدون على دكة عند البحر. وقد ضربوا لهم سرادقاً يقيهم من الحر. فسرت إليهم. وسلمت عليهم. وقلت هل لكم في أن تجالسوا من يُمتّ إليكم بالوداد. وقد بلغه من كلامكم ما وّخّاه إليكم عن رشاد. قالوا مرحباً بالقادم. وإن يكن غير منادم. فلما استقر بي المجلس انبرى واحد منهم ينبس. قال: لا بدّ لي من أن أنهي ما شرعت فيه. وظهر لكم مكنونه وخافيه. نعم لمن خلّق هذا الكون إلا لمن. وأي رجل ما ناله محالهن. وعنّاه وصالهن. ومناه محالهن. فهن المتمتعات بدرز الدنيا ونعيمها. ولذاًها وطعومها. وجليها وجواهرها. وتحفها ونوادرها. يقترحن علينا الممكن والمحال. ويكلفنا

أموراً دونها دق أعناق الرجال. لكل عضو من أعضائهن حلي يزينه. وربما اتخذن له اثنين وثلاثة ولا تزينه. ثم ابتسم كاشراً عن نابه. واستمر خطابه. وبكل جارحة جراح منهن لا تؤسى. وحزازات لا تنسى يتهالك في حبهن المالك والمملوك. وسواء في الحاجة إليهن الغني والصعلوك. وإنهن يرمين الرجال في مهالك ومضايق ومراكب. ليكفوهن مؤنة الأطيبين.

وفيزوهن بفرص البين. فيخوضون البحار. ويقتحمون الكفار. ويعرضون أنفسهم لحد السيف. ولحر الصيف. وبرد الشتاء. وذل الاختناء. ودهمات الاعداء. ودغمات الأرداء. ومقاساة الظمأ والسغب. ومعاناة الشقاء والتعب ومدارة الرقيب. ومباراة المعيب. والإغضاء عن الشين. والإفضاء إلى الحين وطالما قفل أحدهم إلى بيته فوجد في قفل عرضه مفتوحاً وسر أمره مفضوحاً. فرأى في موضعه ضيئنا وزبونا. وكثيراً ما آب وقد شتر شدقه. أو وقُصت عنقه. أو كسرت ساقه. أو إيف حملاقة أو ضاع ماله. وساءت حاله. فأول ما تتدبره به من الكلام. قولها له قبل السلام. أين الطُرقه. وكم من نُحلى وتحفة. ولو انك كسوتها حلة بوران. وأسكنتها قصر غمدان. وأطعمتها أفخر الألوان. وسقيتها من الرحيق من يد الولدان. وطربتها بالعيدان ونزهتها في رياض الجنان. وحملتها على الأكتاف. وواليت عليها الألفاف. لما رأيتها عنك راضية. ولا لحاجتك قاضية. والويل لك أن ناهزت الخمسين. وعجزت عن التموين. أو بدا الشيب في عارضك عند الأربعين. أو أصابك مرض في بعض السنين. وهي عند ذلك تتفتى وتصى. وتتصبي من يرضى ومن يأبى. فتغادرك في الفراش منهوكة. وتلازم الشباك وتشير منه إلى من يليها وشيكاً. إن اغتنم من الدهر هذه الفرصة. فما من دونها غصّه. إذ هو في الفراش لا يعقل ولا يعي. ولا يبصر من يكون معي. ثم تأتي إليه فتقول أوص يا رجل فقد أزف رحيلك. وجفاك طبيبك وخيلك. وملك عائدك ومقيلك. وأنت خبير يا ذا الحليلة. بأنه لن يعجزها في الإجهاز عليه حلية. وإنها إذا رامت أن تتخذ في كل يوم خليلاً ألفته وراء الباب عتيداً فعولاً. معاوداً وصولاً. فوسيلتها إليه غمرة بعينها. ومُنْتَهَا لديه شُحْبَة تطفئ أو أم غنيها. بخلاف الرجل فإنه لا يزال بحرقته مشغولاً مكبلاً بهممه معقولاً. أو يخشى انقباضاً وترويضاً. أو صرف درهم أن يجد منه بديلاً. فكيف يقال إن الرجل والمرأة في التكفيل بآدل المعارم سيان. وفي التكلف لحمل المغارم عديلان. فهل فيكم من مجيب عن هذا الأمر المريب. فتصدى له الذي هجا النساء جميعاً. وقال دونك الجواب سريعاً. فكن له سميعاً، وللحق مطيعاً. إني إنما هجوت النساء لا من حيث إنهن أسعد منا واسلم آفات. أو أقدر على اللذات. وأفوز بالمسرات. بل من حيث إنهن خلغن لنا فتنة وضلالاً. وعذاباً ونكالاً. فما قلته فيهن فقد قلته عن حسد. وما أقوله الآن فهو عن تحرر ورشد. إن المرأة ما دامت في بيت أبويها عانساً لا تزال محظورة لا ترى لها أليفاً ولا مؤانساً. وأخوها

إذ ذاك يرتع ويلعب، ويلهو ويطرب ويسافر ويتغرب. يألف من يألف ويصحب من يصحب وكلما زاد مرحاً زاد أبوه ابتهاجا به وفرحاً. فإذا تزوجت صارت تحت حظر بعلمها وصار هو مالك ناصيتها وولي فعلها. فلا تكاد تخرج من بيتها إلا بأذنه. ولا تأتي أمراً إلا إذا استوثقت فيه من أمنه. فإن قال لها لك أن تفعليه. كان كالممتن عليها بتراث أبيه. وإن قال لن تفعلي رجعت وعبرتها كالولي وبنار حسرتها تصطلي. ثم إن عليها أن تتملقه إذا سخط مخافة بطشه. وأن تقوم بخدمة رحله وحفشه وتطبخ له كل يوم ما يقترح عليها. وتجدد له من قديم متاعه ما يلقيه إليها. وتحفظ نَصْدَه. وتقوم أوده وتربي ولده. فكم ليلة تبيت تداريه فيها وهو يملأ المكان غطيطة. وجحيفا ونحيطا فهي التي ترضعه وتقطمه وترشحه وتسرهده. وترعاه وتتعده. وتوقظه وترقده. وتلعبه وتلهيه. وتعلله وتراضيه. وتؤانسه وتسليه. وتجالسه وتمنيه وتنظفه وتمشطه. وتمرضه وتحوطه. وتمشيه وتحمله وتستدرجه وتنقله. وتغسله وتلبسه وتعطره وتطوسه. وتدفعه وتُلبّيه. ألباه أطعمه اللبا لأول اللبن. وتدأدئه وتُهدئه الدادة التحريك والتسكين والإهداء التسكين. وترقظه وتباغمه الرقظة الترقيص كالزهوة والمباغمة تقدم ذكرها. وتربته وتمهمه الترييت ضرب اليد على جنب الصبي قليلاً لينام والمهممة تنويم المرأة الطفل بصوتها. وتهدهده وترعمه هدهد الصبي حركه لينام والترعيم تقدم ذكره. وتداعبه وتطاييه وتدندن له وتقاربه. قاربه ناغاه بكلام حسن. وتنه وتصربه هدن الصبي أرضاه والصرب عقد البطن الصبي ليسمن. وتدغره وتضّيبه الدغر رفع المرأة لها الصبي بإصبعها وضّيب الصبي أطعمه الضبيبة. وهي سمن ورُب يجعل له في عكة.

وتدرّبه وتدرّبه التدريب حمل المرأة طفلها حتى يقضي حاجته. وتجلسه وتنسسه نسس الصبي قال له إس ليبول أو يتغوّط. قلت والقياس أن يقال أيسه. وتعوّذه وتنجسه التنجيس تقدم ذكره في الفصل السادس عشر من الكتاب الأول. وتقمّطه وترسّعه رسع الصبي شد في يده أو رجله خرزاً لدفع العين. وترينه وترهنه هذا ولو لم يكن للمرأة من غصّة في الأجل غير الحبل لكفي وذلك لمقاساتها بعده إذا كان من بعلمها. ما لا يقدره غير مثلها. ولافتضاها به من غيره. على فرض عدم شعورها بضيره. فقد قالت العلماء أن وضع المرأة جنينها من غير حليلها غير ذي ألم. لكنما يعقبه بعض السدم. ثم أن المرأة ممنية ماعدا ذلك بأحوال عسيرة، وأخطار كثيرة. وذلك كأحمالها وحسّها وعنيفتها وأفلها وتوجيهها وكأحشائها ودحاقها. وإسقاطها وأزلاقها. قبل الوضع وبعده وكنفاسها مدّة. هي برزخ بين الموت

والحيوة وعدّه. وكالقرء الذي يأتيها في كل شهر. وغير مرة يمينها بالبهر. لأنه إذا تأخر عن وقته أضنى ظهرها. وإن قل أو كثر أضنك صدرها. وأذهب صبرها. وكوحمها وتفرّثها. وتأنفها شهوات في مدة الحبلى كثيرة. لا يمكنها الصبر عنها وإن تكن ذات مريرة. وهي ح جائشة النفس ضبستها. وجاشيتها ولقسستها. واهية القوى. واهنة الشوى؛ وغير ذلك من العلل والأحوال. التي سلمت منها الرجال. ومن نظر بعين الرشد والإنصاف. لم يتمحل للخلاف.

قال المارس فكأن الخصم انكسرت شوكته وفترت سورته فعارض بالمواربة ثم حشي المشاغبة. فقام أحدهم وقال حسبنا يا قوم ما سمعنا ودعوا الفصل إذا ما رجعنا. ثم انفصوا والأدلة معتلة والعقدة غير منحلة. فقلت عسى أن أصادف من عنده بذلك الخبر اليقين. وأكفى مؤنة السؤال والتخمين فقد رأيت الاثنين كفرنسي رهان وفارسي علم وبيان إني أخالهما قد نطقا عن الهوى. ولم يتحريا الصدق الذي ينبغي لمن حدث وروى وإذا بالفارياق يهرول في بعض الأسواق. ويده زنبيل يودعه من المأكول ما حسن لعينيه وراق. فأمسكت من فرحي بالزنبيل. وقلت الدليل الدليل. قال هوجوع بُرقوع. يُرقوع برقوع. لا ينبغي أن يقام عليه دليل ولا برهان. ولا بينة ولا شاهدان. وإن القاضي نفسه لأجوع الناس إلى اللُمجة. واسبقهم إلى الغُمجة. وإن شئت فقل إلى الغَنجة. فقلت إنما الدليل على تلك. ولك الأمان على ما في زنبليك من الملك. قال ما خطبك. وممّ كربك. أفي حديث النساء كنت تخوض مع الخائضين. وتخوض مع الحارضين. قلت بلى لأمر ما جدع قصيرُ أنفه. وللمقدور غادر الأليف إلفه. ثم أخبرته بما جرى لي في البيت ومع النساء وعند الشعراء. وقلت أفدي الجواب بغير مرء. فأطرق ساعة. وقال هاكه على قدر الاستطاعة. فإن الجوع قد أبدى في خراعة. ولم يغادر بي للشعر خواطر صداعة. وهو:

تكَافَأُ الزَّوْجَانِ فِي اللَّذَاتِ	وَاسْتَوِيَا فِي أَرْبِ الْحَيَاةِ
قَوْمِي أَقْعَدِي مِثْلُ لِهَاتِ هَاتِ	وَطَاوَعْنِي نَدَّ لَاتِ آتِ
وَالْمَرْءُ فِي الصَّبِيِّ عَلَى النَّزَاتِ	أَقْدَرُ أَوْ أَجْرًا مِنَ الْفَتَاةِ
لَأَنَّهَا كَثِيرَةُ الْعَلَاتِ	غَيْرِ الْقُرُوءِ سَاءَ مِنْ شَكَاةِ
حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ عَاتِ	دَارَ لَهَا الدَّوْرَ إِلَى مِيقَاتِ
غَايَتِهِ السُّتُونُ لِلشُّطَاتِ	وَبَعْدَهَا عُدَا مِنْ الرُّفَاتِ
نَعَمْ يَسُوءُ الْمَرْءُ بَيْنَ النَّاتِ	ضَعْفُ لَهُ إِذْ ذَاكَ فِي الْأَدَاةِ
لَكِنْ لَهَا مِنْ أَعْظَمِ الْغَصَاتِ	الْمَجْرَضَاتِ جَرَضَ الْمَمَاتِ
أَنْ تَبْعَهَا يَأْتِي مِنَ اللَّذَاتِ	وَهِيَ تَرِيدُهُ فَتَى الْأَرَاتِ

## كل له سهم من الهنات

## مُؤرَّبٌ حتى إلى الممات

ثم عدا بزنبيله، وجعل يتحوّفه ويعيث في قليله. قال فصَدَعَنِي بِالْحَقِّ أَيُّ صَدْعٍ. وعلمت أنه غير ذي ضلع. فملت إلى موادعة زوجتي. وتسكين هوجي ونوجي. فأتيت متزلي. فوجدتها دائبة في علمي. فأكبت على عناقها معانقة المشتاق. وأنبأتهما بما قاله الشاعران والفارياق. فقالت جزاه الله عني خيراً. ولا أراه في غربته ضيراً. ثم أقمنا على الوفاق. وتعاهدنا على حفظ الرفاق.

## جوع ديقوع دهقوع

لما رأى الخرجي أن سكناه في بيروت لا تصلح لجسمه ولا لرأسه عزم على الشخوص منها إلى الجبل. فألقى في روعه أن يسكن في دير للروم. فسار بزوجه وبالفارياق فأقاموا في قرية تحت الدير يومين. وكان يأنس بالفارياق بعض الحسان منها ويواكلنه. فلما علمت إحداهن إنه صاعد في الغد إلى الدير طفقت تبكي. فكأنما ظنت إنه نوى الرهبانية. فظهر له إنها خالفت عادة النساء لأنهن يحببن الرهبان أكثر من العامة. فإن فتنة النساء العباد تتوقف على روم وكيد أبلغ وهو مما يلذ النساء أو بالعكس. حتى إذا رأيتهن طوعاً لهن رجعن بعد ذلك إلى ما كنَّ عليه ليختبرن جميع ضروب الحبّ فلا يفوتهن منه شيء والحاصل أن الفارياق بُكي على فراقه هذه ثاني مرة في عمره حتى صار يحسب في عداد المحبوبين. وإنه ذهب في الغد إلى الدير واتخذ له فيه صومعة بلا قفل ولا مفتاح فصار من جماعة باعراً باني "الذين ليس لأبوابهم إغلاق. قلت وهو بناء غريب" وكان ذلك الدير متتاباً لجميع أهل القرى المحيطة به. فإنهم كانوا يودعون فيه أمتعتهم خوفاً من هجوم العساكر المصرية عليهم. لأن الدير حرم آمن.

وكانوا إذا جاءوا إليه يدخلون جميع الصوامع من غير محاشاة ومن جملتها صومعة الفارياق. فكانوا إذا وجدوا على فراشه أوراقاً فيها تفسير حلم أو غيره تلفقوها وقرءوها. فمنهم من كان يفهم منها قدر ما يدور به لسانه. وآخر قدر ما يدور به رأسه. وآخر قدر ما يدور به جسمه كله فيوليه ظهره ويخرج. ومنهم قدر ما تدور به يده فيرفعها لبيطش بالكاتب والمكتوب معاً. ومنهم من كان يسخر منها ويقول إنما هي أضغاث أحلام. ومنهم من كان يقول إنها لا تصلح لوقت الحرب ولم يجد منهم من استحسناها. وكان يدخل أيضاً مع هؤلاء الدامقين دامقات فيهن من يحب تلقيها بأهلاً وسهلاً ومرحباً. وفيهن من تجدر بواحد من ذلك فقط. وفيهن من تجدر باثنين مواترة. وفيهن من لا تصلح لشيء.

وكل ذلك كان يمكن تحمله إذا حُمِلَ بعضه على بعض. إلا الجوع الذي تسبب عن تعطيل الطرق فإنه كان لا يطاق. مع أن الفارياق كان قد خرج من عناء سفر البحر الذي مناه بالصيام أياماً متوالية. فكان

لا بدّ له من اللحم فمن ثم كان يذهب إلى القرية وينادي يا من عندها دجاجة للبيع فتبيعي إياها. فكان بعض النساء يجنبه هذه الدجاجة السارحة مع الدجاج في الحقل أريد بيعها. فإن أردتها فاسع إليها واقبضها بيدك. فكان يسعى وراء الدجاج ويطفر معها على الجدران. فإن ساعده الحظ على كسر ساق إحداها أو إعيائها قبض عليها. وكان عند جريه وراءها يجري معه خاطره فيقول في نفسه.. أنا اجري الآن وراء دجاجة فهل زوجتي تجري في الجزيرة وراء ديش.

وينبغي لي أن أقف قليلاً عند هذا الجري وأقول. قد ذكرت سابقاً إن الفاريق كان ذا هَوَج ونزق وجزع. فكان من طبعه إذا غاب عن أهله أن لا يزال يقابل حاله بحالهم بالمقابلة الاطّرادية وبالمقابلة الامتية. مثال الأولى قوله أنا اجري وراء دجاجة فهل زوجتي وراء ديش. وقوله مثلاً وهو لابس هل هي في هذا الوقت عريانة. وفي حالة كونه قائماً هل هي الآن مضطجعة. وقس على ذلك. ومثال الثانية أنا اجري الآن وراء دجاجة فهل يجري وراءها ديش.

على أن خبز الدير والقرى ح كان مخلوطا بالنزوان. فكان الفاريق إذا أكل منه خيّل له انه لم يزل في السفينة عرضة للتنانين. ويتأكد عنده ذلك بدخول أحد الرهبان عليه وهو تلك الحالة. فلما ضاق بها ذرعاً نظم أبياتاً وبعث بها إلى رئيس دير غير الدير المذكور وكان يظن أن عنده غناء. وهي:

مع خواء البطون والتبيان

تستشيط اللهى بها واللسان

وبخسّ تخس تفتازان

ضرب زيد عمرا يرص الخوان

غل تصغوا من فيضهن الجفان

نوبة الجوع أمّها لبنان

ر ما إن يعبا به إنسان

قد قضى عيشها وعاش الزوان

راهب لا ترضى به الرهبان

لام ممّا عنه نهى المطران

ليت شعري ماذا يفيد البيان

وفنون البديع من غير أكل

هاك ألف استعارة برغيف

أيها المعربون هبوا فما من

أين أين الكباب والرز والبر

ذهبت دولة الطبيخ وجاءت

يالها من معرة نبعث الدنيا

ليس بيع ولا شراء بأرض

طال مكثي في الدير حتى كأي

إذ رأوني وحولي الكتب والألق

لا تراني فلانة وفلان

أنا في وحشة من الإنس وحدي

ما شجنتني من بعدها الألحان

عيشة لو أريتها في منام

فبعث إليه الرئيس بأرغفة لازوان فيها ومعها هذان البيتان:

إنما نحن في الدنيا رهبان

وصلتني الأبيات يا فرقان

ولا نبيذ ولا نسوان

ما عندنا طعام كما تشتهي

فهوّل إليه الفاريق ليعاتبه على تغيير اسمه. فرأى في الدير إحدى نساء الأمراء كانت قد جاءت إلى الدير استئماناً من العساكر فلما رآها قال له قد شفّع الخبز سيدي في وزن البيتين ولكن لم غيرت اسمي. ثم تذكر السيدة فقال وقلت أيضاً أنكم رهبان وما عندكم نسوان. وها أنا أرى عندكم سيدة زهراء قد ملأت الطنفسة شحماً ولحماً قال إنما غيرت اسمك لأجل القافية وهو جائز للشعراء. وأما قولي ما عندنا نسوان أي ليس لنا أزواج. ولكن لا ننكر أن عندنا نساء غيرنا يزرنا أحياناً للبركة. قال أيكم يحصل ذلك. فلم يفهم لكن السيدة فطنت لذلك ودعته إلى الاركيعة المعروفة فلبث عندها ساعة شفّعت في تغيير اسمه أيضاً.

وآب إلى صومعته راضياً. فوجد رئيس المعبر قد تعكبش في رأسه غصن من أغصان الحلم الأول فزاده خبالاً. فكان يقول إذا سمع صوت الطبول من خيام العسكر وإذا ابصر بريق سلاحهم. ألا تسمعون طبل الشيطان. يضرب به بعض الرهبان. ألا تبصرون قرون الشيطان. كيف تتقد منها النيران. إذ تحتك بها النسوان. والسيدة زوجته غير مكترثة بصراخه ولا بتخميم العسكر قرب الدير لأن حب الغصن لم يدع في قلبها موضعاً لغيره ثم من الله تعالى بإصلاح الحال فسارت العساكر من البلاد وأمنت الطرق والمسالك وسكن صاحب المعبر. فرأى أن يذهب إلى مدينة دمشق ويعمر ببلبك ليرى قلعتها العجيبة. فاكثروا لهم خيلاً وبغلاً وعزموا على السفر.

### السفر من الدير

ركب كل من الفاريق والغصن بغلاً وكل من السيدة وزوجها فرساً. وانضم إليهم ركب وساروا يقصدون دمشق. حتى إذا كانوا بعض الطريق أجفل بغل الفاريق لوهم خطر له فقمص به وشمص. فألقاه على ظهره فوقع على وركه على صخر فقام يجمع من الخامعين. فجزع عليه صاحب المعبر إشفافاً من تعطيل مصلحة التعبير. وشتت به زوجته إذ كانت تحسبه رقيقاً عليها وعلى غصنها. وكذا مساء الرجل قد تكون مسرة المرأة. وهنا ينبغي أن تضيف إلى معلوماتك الواسعة هذه القضية. وهي إنه لا شيء من

أنواع السفر اشق من الركوب على هذه البغال العاتية فإنها بلا سروج ولا لجم ولا ركب. وقد جعل لها هؤلاء المكارية المقي بدل اللجم حبلاً تتصل بسلاسل من حديد جافية. يمسك الراكب بيده سلسلة فإذا شرد البغل وهنت يد الممسك بها عن كبجه. والعادة إنه متى شرد بغل سائر البغال. ثم أجفل بغل الغصن فمال عن ظهره وتعلقت رجله بجبل فتدلى رأسه يخبط على الأرض. فذهب ما عند السيدة من قليل الصبر عنه. ولم يقدر أحد على رد البغل. فكنت ترى عينها في جهة وقلبها في جهة أخرى. وكبر منها ما كبر. وصغر ما صغر. وجف ما جف. وقف ما قف. وابتل ما ابتل. وانحل ما انحل. واقشعر ما اقشعر. وازبأر ما ازبأر. وتنغص ما تنغص. وانتفض ما انتفض. وتنضض ما تنضض. وتلمظ ما تلمظ وتلظلظ ما تلظلظ. وضجم ما ضجم. وشخم ما شخم. وغدت تتململ وتتلوى. وتتقلب وتتحوى. ودخل في رأسها أول مرة في عمرها مُنية أن تكون رجلاً لتجبره. ثمهون الله الصعب ووقف البغل فاستوى عليه الغصن وساروا حتى وصلوا إلى بعلبك والفاريق على رمق فذهب وتقياً في ظل شجرة فهوّم به النسيم فنام فقام منهوكاً. ثم ركبوا وبلغوا دمشق وهو مريض فاكترى غرفة في خان وبقي أياماً لا يقدر على الخروج فلما نقه توجه إلى منزل أهل زوجته وعرفهم بحاله ففرحوا به. ثم عاودته الحمى ثم أفاق فرأى أن يذهب إلى الحمام ليغتسل فلما رجع رجعت إليه. واتفق إنه انزل يوماً إلى المرحاض فأغمى عليه فيه فوقع وقد دخل رأسه فيشق المرحاض فجعل يصرخ ويقول: ألا إن رأسي في الشق. إلا أن الشق في رأسي. فبادروا إليه فرأوه على تلك الحالة. فمنهم من ضحك منه ومنهم من رقّ له. ثم عوفي قليلاً فبدأ له ولصاحبه السفر. ولكن لا بدّ لي قبل رحيله من هذه المدينة الشريفة أن أرهقه وأغسره حتى يصف لنا محاسن نسائها إذ هو لا يحسن شيئاً غيره. فأما الكلام على خواص نبات الأرض ومعادنها وهوائها وعدد سكانها وعلى الأمور السياسية فليس من شأنه.

قال دخلت دمشق وبى حمى صحبتني من بعلبك. وما كدت انقه حتى سافرت منها فلا أستطيع وصف نسائها إلا وصفاً سقيماً. فإن رضيتم به أقول. أي لما دخلتها نزلت في خان يسمى خانفارس. فعين لي صاحب الخان عجوزاً لخدمتي فلحظت من طبها وشمّظها أي خلطها الكلام اللين بالشديد. إن للعجائز يداً طويلة في المعاملات النسائية. أعني أنهن يدخلن الديار بحيلة أنهن يبعن للنساء ثياباً ليكتسبن بها. فيخرجن من عندهن وقد تعاهدن على تعريتهن رأساً فهن السبب الأقرب والذريعة الوثقى في الجمع بين العاشق والمعشوق. فأما نساء المسلمين فقد ظهر في بادئ الرأي أنهن أجمل من نساء النصارى. كما أن الرجال من المسلمين أجمل من النصارى وأفصح لهجة وكذا هم في سائر البلاد الإسلامية. ولون النساء عموماً البياض المشرب بالحمرة. والغالب عليهن الطول والشطاط. غير أن هذا الإزار الأبيض الذي يترن



به عند خروجهن من ديارهن لا يحلو للعين كحبر نساء مصر. وكلاهما مخفٍ لحاسن القد ولعلهن يلبسن ذلك عمداً لتأمن الرجال فتنتهن فلهنّ الشكر عليه. ولكن ما هذه المغازلة والاتلاع. وما هذا التبهكن والتبدح. أفليس للقلب عينان يبصر بهما ما وراء ذلك؟ أيخفي الشمس غيم وهي لولاه لم يمكن لعين أن تراها. فأما زيهن في الديار فأشوق وأفتن ما يكون. قال وقد ظهر لي أيضاً وأنا موعوك بالحمى بعد أن خرجت من الخان وشممت رائحة الزائرات من النصارى إنهن مؤانسات حلوات الحديث والشمال مناطق. حتى اعتقدت أن شفائي يكون بذلك. ولولا أي حشيت من التبخيل بالاستغناء عن الطبيب ولا سيما إن أبي كان قد توفي بدمشق فألقى في روعي إني ألحق به لما احتجت إلى علاج آس. وحين كنت أسارق النظر إليهن وأنا على الوسادة كنت المح في صدورهن حين يتنفسن شيئاً يربو ويشبو. ثم رأيت بعض أعيان المسلمين يزورون رب الدار وينسطون معه في الكلام. وهم من الهيبة والوقار بمكان. فلا أدري ما الذي حسّن للمطران جرمانوس فرحات حتى قال في ديوانه:

### فكأنني حلب برقة طبعها      وكان طبعك بالغلاطة جلق

ولهذا القائل الأحق أن يقول الحلبي شلبي. والشامي شومي. مع أن أهل الشام أرق طبعاً من أهل حلب وأزكى أخلاقاً وأطلق لساناً ويدا ومحيا وأوفر سخاء وكرما. والدليل على ذلك أن دمشق مع كون النبي شرفها بقدمه وكانت مثوى لبعض الصحابة واصبحت وصيداً للكعبة وما زالت من ذلك العهد منزلاً للحجاج. فإن النصارى فيها يتبوءون داخلها الديار الرحبية والمنازل الفسيحة. بخلاف النصارى في حلب فإنهم لا يمكنون من السكنى إلا بخارج المدينة ولا يدخلونها إلا للبيع والشراء. هذا وقد حرس الله قطر الشام عن الزلازل التي يكثر وقوعها بحلب. وعن هذه الحبة المشتومة المتسببة عن مائها. حتى إنها كثيراً ما تشوه وجه من يصاب بها. فهل مراد المطران أن يقول أن نصارى حلب وحدهم أرق طبعاً. أم يصح أن نبخس الناس حقوقهم لأجل السجع والتجنيس. فيقال مثلاً الجاثليق هندليق. والمطران قَطْران والقسيس لهيس والراهب ناهب. والسوقي بوقي. والخرجي دُرجي. فأما اللغة فليس لعمري من مناسبة بين فصاحة أهل دمشق وركاكة أهل حلب. لأن حلب لما كانت متاخمة لبلاد الترك دخل في كلام أهلها كثير من الألفاظ العجمية. كقولهم أنجح بيكفي يخرجون الجيم في أنجح مخرج الجيم التركية ويتقلّنه أي يستعمله وخوش خيو وما أشبه ذلك ما عدا لكتتهم ولخلختهم فينطق الألفاظ العربية.

ثم أن الفارياق سافر هو وصاحبه إلى بيروت ومنها إلى يافا. فدعاها وربان السفينة نائب قنصل الإنكليز بها "هو غير الخواجأ أسعد الخياط اللبيب البارع" ليشربوا عنده الماء بالسكر المعروف بالشربات مما اشتهر أيضاً بهذا الاسم عند المؤلفين من الإفرنج واستعملوه في كتبهم لا في ديارهم فساروا معه فاحضر لكل

منهم كأساً تليق به بحسب ضخامة جثته. فلما فرغت الدعوة اقلعوا إلى الإسكندرية ثم إلى الجزيرة وأقاموا في معترلها. فبعث الفاريق إلى زوجته يخبرها بوصوله ويستدعيها للاعتزال معه. أنا لا أحب الاعتزال ولا الكسل. ثم وافت بعد ذلك ولما استراح الفاريق من ألم السفر استروح منها رائحة النساء.

## النشوة

هي رائحة أم دَفار. استوى فيها ما دبّ وطار. وسلك في البحار. وتفضيلها في العنوان فهل أنت ذو استذكار.

## الحض على التعري

ثم دخلا البلد ورجع الفاريق إلى التعبير وإصلاح البخر. وبعد مدة وجيزة قدم على صاحب المعبر رجل من العجم قيل أنه كان مسلماً ثم تنصّر وإنه شاعر مفلق ذو شهرة بين علماء فارس. فسار ومعه الفاريق ليسلما عليه في المعتزل وإذا به جحشوش حتروش حزقة ألحى. فلما دخل البلد أقام في المعبر فرأى الرئيس بادئ أن يخلق لحيته. فجيء بالحلاق واعمل فيها الموسيقى فلما انتهى إلى شاربيه سترهما بيديه فأقبل إليه صاحب المعبر ويده كتاب ليحجّه منه على لزوم حلق الشوارب. فدار بينهما البحث والجدال حتى رضي الرئيس بنصف الشعائر. فلما كان ذات يوم من الأيام المشثومة ذهب الفاريق إلى المعبر فوجد الرئيس قد تعرّى من ثيابه بالكلية وجعل يطوف الدار على هذه الحالة ويحض الناس على الاقتداء به. ويقول يا أيها الناس ما جعلت الثياب إلا لستر العورة. ولا عورة لمن كان طاهراً بريئاً من الذنوب والمعاصي. فأن آدم لما كان في الفردوس في حالة العصمة والبراءة لم يكن له حاجة بالثياب فلما انتهى إلى زوجته ليغريها بالتعري قالت له إن النساء لا عصمة لهن إلا في الليل فلا بدّ لهن من الستر نهاراً. فرآه العجمي على تلك الحالة فسأل الفاريق قائلاً ما بال صاحبنا قد غيّر اليوم زيّه الأسود وتردّى بهذا الزيّ الأحمر. قال هو من جنود الخرج والجنّد هنا يلبسون اللباس الأحمر. ثم اشتدّ اللمم بكل منهما واستحكم. فخافت الزوجة أن يتلاقيا في مأزق وينشب ما بينهما الجدال أو الجلالد. فرغبت إلى الفاريق في أن يضم إليه العجمي. وكان الغصن قد قدم إليها في أثناء ذلك من الديار الشامية وهو مترجم عن جني شهبي، وجذع قوي. فبوّأته عندها مقاماً كريماً. وحاولت أن يخلو لها معه المعبر خلواً مستديماً. ولو بدوام لمم بعلها. وفقد أهلها فأقام الغصن في أرغد عيش وأهنأ حال. وظلت هي معه أشغل من ذات النحيين في أصفى بال وظل زوجها يحض على التعري. وأنه من شعار المتزكي المتبرّي. ولبت العجمي في منزل الفاريق. وإنما قبله عنده

لدمامته وضعفه ولغلبة السكوت عليه. فلما كان ذات ليلة وقد رأى عند زوجة الفاريق نساء حسناً أنحلت عقدة لسانه ونطق بكلام دل على أنه لم يتنصر عن هدى وإنما أضطره إلى ذلك أبو عمرة ثم بات تلك الليلة وقد أضطرم الغرام في قلبه فخرج ليلاً يقصد غرفة الفاريقية. فأحسّ به زوجها فبادره بحبل وهو لا يستطيع دفاعاً عن نفسه فلما كان الغد شاور زوجته في أمره. فقالت أظن أن هذا العجمي إنما جنّ لعدم الزواج وكذا سائر المجانين. إلا ترى أنه رأى البنات عندنا البارحة قتل وجهه وتكلم؟ فقلت ما أرى الحق معك هذه المرة فإن صاحبنا الخرجي جنّ من بعد الزواج قالت لكن عقله كان قبل ذلك مختلفاً بأحلام. ولما تزوج لم يؤد الزواج حقه فأقتصّ الحق منه فلاعتبر به غيره. قلت من أين علمت هذا؟ قالت أن المتزوج لا ينبغي له أن يكون فضولياً يتعرض لغير ما هو فيه. قلت هذا تعطيل المصالح الخلق. قالت لا تعطيل فإني لا أمنعهم عن العمل بل عن فضول الكلام. واللهج بالأحلام. فأن التمحّل لعلم خرق العادات، أجهد من التحمّل لعمل عادات الخرق. ألا ولو كان الأمر ألي لدأويت المجانين كلهم بالنساء ومن النساء وعن النساء. قلت أكل حروف الجرّ للنساء. قالت نعم كل الجرّ في النساء. قلت قد حذف الحروف قالت بل هي باقية قلت دعيني من المطارحة وافقيني في أمر هذا الجنون. قالت ردّه إلى المعبر وإني أكره طول مكثه عندنا مخافة أن أحبل فيأتي الولد على شكله. قلت ما مدخل الجنون في الجنين. قالت أو ليس الأولاد يأتون بيضاً صباحاً ووالدهم قباح. فلو لم يكن لعين الأم من فاعلية عند توّحمها لما كان ذلك. قلت هذا رأي يؤدي إلى الكفر والمحال أما الكفر فلائك ترعمين أن المرأة مشاركة في خلق الإنسان. وأما المحال فلا أن المرأة لو كان لها فاعلية في ذلك لأشبهت الأولاد آباءهم أو لجاءوا كلهم صباحاً. قالت أما جواب الكفر فلا ينكر أن يكون الله عز وجل قد خلق هذه الخاصية في المرأة وهو مسبب الأسباب. بمعنى أن القوة الوحيية التي أودعها فيها الخالق القدير تكون مؤثرة في كونية الولد. وأما جواب المحال فلا أن المرأة أبداً تشتتهي أن يأتي ولدها على غير هيئة أبيه. وما تراه منهم مشبهاً أباه فالغالب أنه البكر. قلت كثر الله من أمثالك ما كأنك قرأت الكلام إلا على الأشعري قالت نعم

الكلام هنا في الأشعري لا في الجميش ولا النميص قلت الجنون المجنون ودعيني إلى المجنون فقد كدت تلحقيني به بكلامك هذا المعصود قالت متى كنت تكره العصد، وهو لك غاية القصد. أما المجنون فليس إلا ما قلت أنطلق به إلى المعبر ودعه هناك من غير أن تخبر به أحد. قال فانطلقت به وأدخلته في إحدى الحجر وقفلت عليه الباب. فلما جاع طفق يعالج الباب ليخرج فسمعه الخادم فأخرجه. فتوصلت زوجة صاحب المعبر في أن رجعت من حيث جاء وعزمت على السفر بزوجه إلى بلادها. وناب عنه آخر من بلاده في المصالح التعبيرية ولكن لم تطل مدته لأسباب يأتي بيانها. وقبل إيرادها ينبغي أن نختتم هذا الفصل بما نظمته الفاريق حين كان رئيس المعبر يحض على التعرّي وهو

ألا تريد صاح أن نجنا  
ولا تنام ليلنا أن جنا  
ولا نرى متى يجي حنا  
وأن أثنانا فاسق وزنا  
ونجعل الزوج له مجنا  
ولا نبالي أن رأينا قرنا  
فقد رأيت العقل يضنى الطنا  
ولن ينال الحظ مطمئنا  
مه أيها الشيخ الذي أسنا  
تدخل في مضايق وتعنى  
ماذا لقيت من نزير جنا  
وأفبتنا في شهر نحس أخنى  
لم تكل دار بت فيها معنا  
يشكوك كل ذي عيال منا  
فمن مجانين أبانوا الهنا  
ومن عليل دنف أنا  
قدك اتدد أوقدت فينا الحزنا  
فاضعن هداك الله وأرحل عنا  
وتتضب الماء وتتفي اليمنا  
وأختر بغير ذا المكان كنا  
فما عليك أن أصبت غبنا  
أو كنت تأتي هذرا وأقنا  
بحيث لا تبصر يوماً قرنا  
كما أصبت ههنا خُبنا

ونخلع اليوم الثياب عنا  
ولا نسي بالنساء الظنا  
وإن يغب نقل مريض منا  
نركبه الخيل فلا يعنى  
تقيه من كل معن عنا  
قد طن في أصداعنا ورننا  
ويحرم الحر الذي تمنى  
إلا الذي باح بما أكننا  
ما أنت والغناء والأغنا  
وما تبالي لو لقيت وهنا  
ومن طواف ههنا وهنا  
على المحبين فقلنا أنا  
من حادث غارة سوء شنا  
أوردتهم من كل رزء فنا  
ومن مصاب بالحمام أطنى  
حتى رثى الضد له وحنا  
وقد شحنت المصر همّا شحنا  
من قبل أن تقطع عنه الطحنا  
عن بلد من قبل كان أمنا  
تأوي إليه مستريحا طمنا  
ثم ودعا أو لقيت زبنا  
وتتظر القبيح منك حسنا  
وكاشحا أخفى عليك ضغنا  
أصدأ منك الضررس ثم السننا

لو استطاع لقرارك سجننا	تصبح فيه للرزايا رهنا
شيطانه عليك قد تجنى	يقول من تبغك قد أسنا
جعلت في دار الصلوة فرنا	دخانه عمّ وأعمى الرعنا
وقال قوم تفلّه أصنا	ولحنه يبلغ ضرّا منا
فليبغ في دار سواها خدنا	وما علينا أن سخا أو ضنا
وأن بكى من شؤمه أو غنى	أو أخلص الدعا لنا أو لعنا
أو خار من جوع وذلّ وهنا	أو قال صرنا بعد ما قد كنا
أنك يا مغرور لم تعشقنا	ولم تعرّ بنا ولم تشقنا
فلا جزاك الله خيراً عنا	

### بلوعة

لما فرغ الفاريق من تعبير الأحلام كلّف أن يترجم كتاباً للجنة في بلاد الإنكليز فترجمه لهم بلغتنا هذه العربية على ما اقتضته قواعدها. وأتفق وقتئذ أن سافر المطران أتناسيوس الحلبي التتوني مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة إلى تلك البلاد في بعض مصالح ثرقية. فتعرف باللجنة المذكورة وأفادهم أن لغة الفرياق فاسدة رأساً. وذلك لخلوها مما أشرطه على المترجمين والمعربين في كتاب المذكور. وأن النصارى يحبون الكلام المعسلط المعسلط. وأنه قد ربا في هذه الصنعة مذ عهد طويل وربى فيها كثيرين في مدرسة عين تراز وفي غيرها.

وأن لأسفار الكنيسة منهجا	يخالف أسفار الورى ويغاير
وأن لفي اللفظ الركيك يبركا	ويُمنّا لقوم عنهم العار ظاهر
وأن غناء اللحن في القول عندهم	لكان للحن في الإيقاع والأصل ظاهر
وإن نسبة المولى إلى الله منكر	ومن ولوا الأدبار كلّ يحاذر
وأن تكاة جمع متكئ أتى	وأن مصُوننا لا مصانا لنادر
وللشعب القوم معنى مشهر	وفي ملك لا في ملاك كبائر
وأن عبيداً لا عباداً مضافة	إلى الله أولى ما لذا الحكم ناكر

وأن عذاباً كالركاكات جمعه  
وما واعظيها قيل بل موعظيها  
ومن ردّ قل إن شئت صوغ اسم فاعل  
ويظهر يلغيه بيان نظيره  
وجمع مصفّ للآله مسبّح  
ومن بعد إذ جزم المضارع واجب  
وإثبات باء الأمر من ناقص كما  
وإثبات نون الرفع في الفعل بعد كي  
ومن بعد يعطى نصب نائب فاعل  
وإن لم يرادف باقي الشيء سائر  
ومن قال أدواً دون ودّوا مكابر  
مردّ كذا قال النصارى الأواخر  
وصرنا بنيّناً بالتدخّر كآثر  
وبعد كما للعطف واو تباشر  
ونعت المثني بالذي متواتر  
حكاه له قس الشوير المعاصر  
وأن مستفيض هكذا نص زاهر  
وجوباً وحذف الفاء في الشرط دائر

وطلب من اللجنة المذكورة أن يفوضوا إليه تعريب الكتاب الذي مرّ ذكره ليحظى عند النصارى بالقبول وإلا فلا. فلما رأوه ذا لحية ولا سيما أنه متحلّ بجلاء مطران والمطران عندهم لا يكون إلا علماً فاضلاً اعتقدوا فيه الفضل والعلم وفوضوا إليه العمل. ولهذا السبب خاصة بطل المعبر ولم يبق للفاريق إلا مرتبه من وظيفة إصلاح البحر. وهنا ينبغي أن يلاحظ أن الإنكليز أشد الناس حرصاً على الألقاب. فإذا زارهم أحد من البلاد الأجنبية متصفاً بلقب أمير أو شيخ أو مطران حظي عندهم الحضوة التامة. ولا سيما إذا كان يتكلم باللغة الفرنسية. أما لقب المطران فهو عندهم من الألقاب التي تغني صاحبها عن توصية وتنويه. إذ ترجمة هذه اللفظة تجري لديهم مجرى قولهم رئيس أساقفة. ومن حصل على هذه الدرجة منهم حصل على دخل أربعة آلاف ذهب من الليرة. فأما طول اللحية فهو عند العرب ليس بدليل على الحلم والنباهة كما يتبين من حكاية المأمون مع الفقيه علويه. ولكن عادة العجم غير عادة العرب.

ثم أن الفاريق لما آن وقت بطالته من إصلاح البحر وهو ثلاثة أشهر الصيف في كل سنة عزم على أن يسافر إلى تونس. فركب في سفينة رئيسها من أهل الجزيرة الذين هم بين السوقيين والخرجيين مرة. ومرة بينهم وبين الفلاسفة. وبعد سفر اثني عشر يوماً كلها خطر وعناء بلغوا حلق الواد. فكان بعض الملاحين يقول في أثناء الطريق أنه إنما وقع لهم ذلك بخلاف العادة لكون الرئيس سافر يوم الجمعة خلافاً لسائر الرّبّانيين فأنهم لا يسافرون فيه أصلاً أما احتراماً له أو تشاؤماً منه. لكن الفاريق كان يعلم حقيقة السبب وهو هبوط طالع. وأن نية سفره سواء كانت قرية أو غير قرية لا يبلغ إليها إلا في عدة اثني عشر يوماً. وإنما كتم ذلك عنهم. قال أما المدينة فإنها ضيقة الأسواق صغيرة الحوانيت. غير أنها طيبة الهواء والمأكول

والمشروب كثيرة الفواكه. وأهلها طيبون خيرون يكرمون الضيف ويحبون الغريب. رفيها من المغنين والعازفين بآلات الطرب كثير ومعظمهم من اليهود. ونساؤهم حسان سمان بيض دعج برغم النصارى القائلين أن الله لعنهم ومسحهم بعد صلبهم سيدنا عيسى عليه السلام ونزع منهم كل حسن باطني وظاهري. غير أني أظن أن القسيسين إذا نظروا يهودية جزلة بضّة رجلة يبدعون صاحب هذا المذهب ويفتدونه. وإنما يقول ذلك منهم من كان لزق النصرانيات ولم يرَ غيرهن. ومعلوم أن النفس ترغب في الحاضر الموجود عن الغائب المفقود. أو لعلهم يريدون أن المسخ إنما نزل بالرجال دون النساء فليُساءلوا. وأن كثيراً من هؤلاء الغير المسوخات غير بعيدات عن الغصن والحصن. ومن عادقن أن يمشين غير متبرعات مكشوفات السوق. ثم لما أرف رحيل الفاريق من المدينة قال له بعض معارفه من أهلها لو مدحت وإليها المعظم. فإنه أكرم من أعطى وأنعم. وأكثر الناس ارتياحاً إلى الجود والمعروف. قال قد نويت الآن السفر فلم يعدلي ممكناً غيره. ثم رجع إلى الجزيرة وكان من جملة الركاب الذين رجعوا معه رجلان نمساويان أحدهما ابن أحد التجار الأغنياء والآخر من قواد عسكر البابا. وكان هذا قد أخذ من الفاريق واحدة من هذه النبخت الدقاق فردها عليه بعد يومين. فلما استقر الفاريق بمقره خطر بباله أن ينظم قصيدة في مدح جناب المولى المشار إليه. فأنشأ قصيدة طويلة ذكر فيها كل ما شاقه هناك من المحاسن ولكن من دون تعرض لذكر محاسن نساء اليهود. فلم يشعر بعد أيام إلا والمولى المشار إليه بعث له بهدية من الماس تضمن بها الملوك على ندمائهم. ومعها كتاب من ناموسه المعظم ووزيره المفخم مصطفى باشا خزنदार. هذه صورته "الحبّ الذي رعى المودة شأنه. والكمال سجية قام بها عمله ولسانه. الأديب الأريب. الآخذ من كل فنٍ أوفر نصيب. حسن الأخلاق. والحائز في مضمار البلاغة قصب السباق. البارع الفاريق. لا زالت محاسنه نيرة الإشراق. وبلاغته كواكب آفاق. أما بعد نعمتنا ومولانا وسيدنا المشير أحمد باشا باي أمير الإيالة التونسية. لا زالت بوجوده محمية. بلغ لرفيع جناحه من آدابكم قصيدة تحلى بها شعركم. واتضح بها فخركم. ويدوم بها ذكركم. فله در منشيها ومبدعها وموشيها. حيث ملك من البلاغة دانيها وقاصيها وألقت لديه مقاليدها ونواصيها. والمولى أيده الله حسن لديه موقع خطابكم. وأثنى عن بلاغتك وآدابكم. روجه لكم من حضرته العليا حكمة تتذكر بها وداده وإيالاته وبلادته. فأقبلها من أفضاله ومن نزور نواله. والله يجرسكم بعين عنايته. ويسبل عليكم ستر عاقبته. وكتبه الفقير إلى ربه تعالى مصطفى خزنة دار الدولة التونسية في الرابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة 1257.

وفي أثناء ذلك قدم المطران التونجي إلى الجزيرة فبلغ الفاريق قدومه ولم يكن يعرف ما افتت عليه به عند الإنكليز فذهب ليسلم عليه وأدبه إلى وليمة أعدها له. وأقام المطران في بعض المنازل يشغل بترجمة ذلك الكتاب الذي زاحم الفاريق عليه. وظل الفاريق ينتابه حيناً بعد حين وهو غير موجس منه شيئاً. فلما

كان بعد أيام ثارت في الجو حاصب ومتشغزة ومنسبة منسبة ونكباء وهبوبة وخرجوج وخجوجاة ودرّوج وسهّوج وشجوجاة وبارح وسناخة وخنذيد وصرصضر ومشتكرة وأعاصير ومعتكرة وهبارية وروامس وزوابع وزعزعان وهيرع وجفجف ورفراف ومفسفة ومُسَنَفَة وعواصف وخرّفا وزحلق وسهّوق وحاشكة وساهكة ورعبليل وطيسل وعياهل وسهام وسفون وورهاء وميلاء وسافياء. ثم جاء على عقبها روائح هنيئة صُمّاحية زنجية سنخية إفاخية عبّادية خجرية ذفرية عدارية امدرية امدرية خُنّازية طَفّاسية حُطّاطية عَفّطانية شياطية ناضفية زَهْمَقِيّة خبّراقية صَلِيّة خيغامية صَنَمِيّة قنمية عجانية لُخْنِيّة نَجْوِيّة مختلطة بَطْمَطْمَانِيّة ولُخْلُخَانِيّة ورُتِيّة ولُغْلُغَانِيّة وقلقلانية وكسكسية وكشكشية. وإذا بالمطران المزبور قد غاص في بالوعة فوهاء في تعريب ذلك الكتاب. ولما كان جاهلا تصليح الطبع زيادة على جهله باللغة كان لابد من تبليغ هذه الروائح الخبيثة منزل الفاريق. فإن مدير المطبعة كان من أصحابه فكلفه بأن يصحح غلط الطبع من دون تعرض لتصحيح الغلط في الترجمة وح عرف سبب قدوم المطران ومكايده. فصرّ بعض هَبّات كريبه من تلك الروائح وبعث بها إلى اللجنة المذكورة وأقام ينتظر الجواب.

ثم اتفق بعد مدة أن قدم إلى الجزيرة السيد المعظم سامي باشا المفخم المشهور بالمناقب الحميدة. وكان للفاريق دالة عليه فسار إليه ليهنئه بقدمه. فكلفه المشار إليه بأن يمكث عنده مدة اعتزال فأخبر زوجته بذلك. فقالت له كم مرة أقول لا خير في الاعتزال. قال لا بأس به إذا كان مع أمير فإن شرف الاسم يكفي. قالت لا يغني الاسم عن الفعل شيئاً. قال فقلت بل اجتز به كثير. قالت أمتع جارٍ له. قلت لا أدري. قالت لو كان الاسم يغني لكانت المرأة تكتب على موضع من جسمها لفظة أمير. قلت أعوض ما يمضي. قالت وإلا فأمض على العوض. قلت ما أعجل النساء. قالت وما أحبهن للإبطاء وأن يكون صبوراً. قالت لو لم تكن النساء اصبر من الرجال ما كنّ يعمرن في الأرض أكثر منهم على ما يلحقهن من أوجاع الحمل والولادة. قلت ليس هذا هو السبب وإنما هو أن الصالح من الناس لا تطول حياته على الأرض بخلاف الطالح. قالت هل في الرجال صلاح وما من فساد إلا والرجال مخترعوه. هل تفسد الإناث في الإناث ما تفسده الذكور في الذكور. وهل يفسد النساء غير الرجال. ومن ذا الذي يتصبّاهن ويتألفهن ويتنقشن ويغازلن ويغويهن بالمال والوداد والوفاء غيرهم. حتى إذا استوثق أحدكم بأحدنا فأحرز سرّها ذهب في الحال وباح به وربما سكر مع بعض معارفه أو تسامر فأفتخر أمامهم بإفشاء ما يجب كتمانهم وبهتك ما يلزم صونه. إلا وإن الرجل الرجل منكم ليعتمد على ما خصّه الله به من القوة والبأس فيعتقد أنه الفضل على المرأة في كل شيء ولو كان الفخر بالقوة لكان الفيل افضل من الإنسان. نعم إنا ليسرنا أن نرى الرجل شيطماً أيّدا ولكن لا يليق به والحالة هذه إن يأتي امرأته الضعيفة المسكين فيعاملها بالخيرة



والدغمة والدنقرة والزنترة والزخرة والزجرة والشتررة والشنصرة والشنطرة والشمصرة  
والعجهرة والغذمة والغثمة والغيرة والخزربة والخطلبة والخطلبة والدحقة والدعربة والدنجة والزغدة  
والسقلبة والشغربة والشهجة والصرخبة والصعنة والطغربة والعثلبة والعصلبة والغسلبة والقحطبة  
والقرطبة والنيرة. ثم إذا ذهب إلى أخرى أو همها إنه أسيرها وعانيها وقتها ورقيقها وقينها وقتورها  
وماهنها وقتجلها ومملوكها وذليل حبها ودنف غرامها وعميد عشقها وصريع هيامها وميت هواها  
وشهيد حبها. وإن الله تعالى لم يخلقه في الدنيا إلا لمرضاها. قال فقلت إذا كان الرجل مخطئا في ذلك  
فالمرأة غير بريئة أيضاً لتصديقها إياه وانقيادها له. قالت إنما تصدقه من صفاء سريرتها وسلامة صدرها.  
فإن الصادق لا يرتاب في كلام غيره وإن الكريم ينخدع. ولو أن الناس سمعوا مثلاً بأن امرأة متزوجة تحب  
غير زوجها لأنكروا عليها ذلك كل الإنكار. واستفظعوه غاية الاستفظاع. فتطبل به الطبول وتزمر الزمور  
وتكتب الكتب. ولا يبقى في البلد أحد إلا ويروي عنها حكاية أو ترهة. فأما إذا سمعوا عن الرجل إنه  
يحب غير زوجته فإنهم يحملون فعله على وجه مرضي ويعتدرون عنه بقولهم أن امرأته غير زافنة. أو أنها  
جُحَنَة منفاض. أو ميرا ص أو منشاص. أو خذنفرة أو غبوق أو زحاجة حقوق. أو فتقاء غقوق. أو رتقاء  
غقوق. أو نجاجة فشوش. أو منخار حَضُون. أو جَحْواء أَخْجَى. أو جَحْراء رهوى. أو مُجْحرة ضحياء.  
أو ضَهْواء ضهياء. أو هرعة رفعاء. أو سَلْقَلِق أو متكاء. أو قَشْوراً أو مصواء. أو ناسعة شقاء. أو مهلوسة  
أو لصاء أو لثية. أو لَحْجَم. أو خَيْق ذات عَفْلَق أو قَلْذَم. أو حمق وعَفْل أو ذقناء. أو ميقاب أوفجواء أو  
لَقْوة أو خَثْواء. أو قَشْشورة أو ذناء. أو قرثع أو سلتاء. أو خرور أو قعماء. أو عائط أو شرماء. أو عنبله  
أو لحواء أو مجيأة أو رَمْضة وغير ذلك من العيوب ولا يرون في فعله هذا سماجة. مع إن للمرأة أسبابا  
تحميلها على الشطح أكثر من أسباب الرجل. قلت تفضلي بذكرها كي أجانها. قالت أولها ما إذا لم يقم  
الرجل بوفاء حق زوجته. وهو حق الزواج الذي من أجله تترك أباه وأمه وأهلها ووطنها وبلادها وغير  
مرة دينها. قلت اللهم لطفك وعصمتك ثم ماذا. قالت ومنها إهماله أمورها وقلة اهتمامه بما فيه راحتها  
وانشراح صدرها وتطيب خاطرها. وتلهيتها وتسليتها وترويتها وتحليتها وتدفتتها وتطريتها وتأسيسها  
وتقويتها وتمشيتها وتغديتها وتمزيتها وتمنياتها وتخليتها وتفتيتها وتوقيتها. قلت  
نعم وتعريتها وتمذيتها وتمريتها وتنديتها وتنفيها وتسميتها وتنحيها. قالت نعم كل هذا وأكثر حالة  
كونها أسيرة بيته طول النهار قائمة بخدمته متعهدة لأمره. وهو يطوف في البلد من مكان إلى مكان  
وينتقل من سوق إلى سوق. حتى إذا جاء منزله انطرح كالمغشي عليه وقال أن الشغل جهده والجهد شغله  
وإنه عرض له كذا وجرى عليه كذا. مع أنه هو الذي تعرض لذلك الكذا وجرى على ذلك الكذا. مع  
أنه هو الذي تعرض لذلك الكذا وجرى على ذلك الكذا. ومنها رقة فؤاد المرأة والشفقة التي فطرها عليها

الباري تعالى. فلا يمكن لها أن تقابل رجلاً عن مودته لها إلا بالوداد أو عن تملقه إليها إلا بالميل إليه والإقبال عليه. وناهيك ما في الرحم و الرحمة من الاشتقاق والمجانسة. قلت وأعجب من احتجاجك بهذا الاشتقاق التناسب بين معاني الكيس. قال في القاموس الكيس خلاف الحمق والجماع والطب والجود والعقل والغلبة بالكياسة. وبين السر والسرور والبسط والشرح والبضع والشعور والمشاعرة واللمج والقمط. وخصوصاً بين أبي اذراس وأبي إدريس دامت الفتها في اللفظ والمعنى. فقهرته وقالت شرف الله لغتنا الجامعة بين كل متناسين ومتجانسين. قلت ولكن قد يلزم ذلك أحياناً ما يسوء أو ما لا يليق. نحو أر فإنه بمعنى جامع ورمى بالسلاح. وجنح رمى ببوله ومسح جاريته. ومعط جامع واتف الشعر وحب. وجلج جامع وبطنه سحجه وفلانا بالسيف بضع من لحمه. بضعة. ومتخ جامع وبسلحه رمى. وملخ جامع وجذب الشيء قبضاً أو عضاً وتردد في الباطل. وملق جامع وضرب بالعصا وحظ جامع وطرد وصرع وبالغصة كظّة. وحج جامع وبسلحه رمى. ولخب جامع وفلانا لطمه. ومتر جامع وبسلحه رمى. وجلد جامع وفلانا ضربه بالسوط وأصاب جلده. وعصد جامع ولوى وفلانا أكرهه على الأمر. وضمن جامع وبغائطه رمى. ومحن جامع وضرب. ومشن جامع وخدش. وأسوى احدث وخزى وفي المرأة أوعب. وكذا حشاً وحطاً وحلاً وخجاً ورطاً وزكاً ولتاً وغير ذلك مما لا يحصى. قالت كل صعب في جنب ذلك يهون. ولا بدّ لجاني العسل من أن تأبره النحل. ثم إني فهمت من فحوى كلامك أن هذه الأفعال في لغتنا الشريفة أكثر من أن تعدّ. وإن أكثر المعاني قد وضع له فيها ألفاظاً كثيرة تسميها العلماء إردافية على ما ذكرت ليسابقاً. قلت لم اقل لك هذا وإنما قلت مترادفة. وإن هذا الفعل بخصوصه له أكثر من مائتي لفظة. فكل لفظ دل على دفع أو نحر أو ضغط أو إدخال دل عليه أيضاً. قالت فهل تستطيع أن تذكر لي حرفاً يدل بالخصوص على الامتناع عن النساء عفةً وتقوى. قلت لم يمرّ بي حرف بهذا المعنى وإلا لحفظته فإني مؤلّع بحب الحروف النسائية. والظاهر أن العرب لم تكن تعرف ذلك. غير إن تبتّل وبكّم يدلان عليه في أحد معانيهما. قالت في أحد لا يغني شيئاً. ثم استمرت تقول ومنها وهو مستفيض عند أكثر النساء إن المرأة إذا أحست بإعراض زوجها عنها أو بفدوره أو بالخفوة لها مع تحببها إليه وإقبالها عليه وحالة كونها له عطيفاً هلوباً بيعجاً عروباً متبّعلة رعبلياً أنسة باهشة متبشبهة متشههشة ذات رشرشة ومشمشة ونششنة ووشوشة مدربخة وازكة منصعة واكعة مصوصا حارقة إن لم أقل علوقا وغير عازمة مالت إلى غيره لتغيره وترده إلى قديم محبتها. فإن من الرجال الحمقى من لا يعرف قدر امرأته إلا إذا رأى الناس يحبونها. فتكون محبتها لغيره علاجاً لمحبتها هو. وهذا يسمى عندنا دغدغة وزغزغة وسغسغة. فأما عيوب الرجل فهي لعمري أكثر من عيوب المرأة ولو لم يكن به غير الزمالية لكفى. وهل والحالة هذه يجب حل عقدهما أو يجوز أو يمتنع أقوال. فالنصارى على منعه مع إنهم يقولون إن المقصود من الزواج

بالذات الإنتاج وحفظ النسل. والطبائعيون والفلاسفة على وجوبه أخذاً بهذا القول عينه ومراعاة لأداء حق المرأة الواجب على الرجل وهو أمر طبيعي لا بد منه ولا محيص عنه. وبقي الجواز في عهده غربي الزواج. إن شاء بقيا على ما هما عليه وإلا افترقا وهو الأصلح. ولعمري إن المرأة التي ترضي بأن تقيم مع زوجها من دون قضاء حقها لجديرة بأن يعيد لها عيد في رأس كل سنة. أليس أن أستاذك صاحب القاموس الذين تستشهد بكلامه في كل مشكل نسواني قد قال الرجل م والكثير الجماع. فإذا كان الزوج غير رجل فأنى يحل له أن يجوز عنده امرأة لا يؤدي لها حقها. أيحل لرجل أن يقني دابة إذا لم يقدر على علفها.

استغفر الله عن هذا التشبيه. أو لصاحب أرض أن يغادر أرضه غير محروثة ولا مزروعة ولا مسقية. أفلا يجب ح على الحاكم الشرعي أن يشتريها منه ويولي عليها من يتعهدا ويستغلها. وإذا كان الإنتاج وحفظ النسل مشتركاً بين الرجل والمرأة بل جل أركانه مختص بها ومتوقف عليها فلم لا يكون الطلاق مشتركاً بينهما أيضاً إذا اقتضت الأسباب ذلك. إذ الطلاق عندي من غير سبب إن هو إلا بطر وسفه. أقبح من ذلك إن رؤساء النصارى يأذنون في مثل هذه الحال في فراق الزوجين. ولكن لا يأذنون لهما في الزواج وإن يكن داء الرجل عضالاً لا يرجى له علاج في مدة انفصاله عن زوجته. فأبي حكمة في ذلك وأي ضرر من تزوجها بغيره ليولدها البنين والبنات. فلعلما يأتي من يفوق غيره بالكسل والركاكة فيصير راهباً أو مطراناً. وعسى أن يأتي من بناتها من تتحمس بالوساوس والهواجس والأحلام فتصير راهبة. هذا وقد ورد في التوراة حكاية عن الباربي تعالى أنه قال تكاثروا واملثوا الأرض على مبالغة فيه. فإن ملء الأرض بشراً يوجب خرابها لا عمراتها. وقال مار بولس إن المرأة تخلص نفسها بتربيتها البنين الصالحين. فهل تعليق الزوج والزوجة عن الزواج مطابق لنص هذين الحكمين. انظر إلى أهل هذه الجزيرة فإنك تجد أكثر الرجال منفصلين عن أزواجهم وعائشين بالسفاح. وقسيسوهم مصرّون على أن ذلك أوفق من الزواج الشرعي. مع أن القسيسين لا يعرفون الحقوق الزوجية لأنهم غير متزوجين. أصبح ترئيس رؤساء على الجند ممن لا يحسنون صنعة الحرب والمبارزة. فقلت لله درك من أين لك هذا كله وقد طالما اشتبه عليك الأمرد والمحلق اللحية عند قدومنا هذه الجزيرة. قالت رب شرارة أضمرت أتوناً. أبي كنت اعرف من نفسي أبي لا البث أن أنبع في هذا. وذلك لكثرة ما كنت أرى وسمع عن المتزوجين من الخلاف والمعاصرة. والشكو والمنافرة. لا سيما وقد رأيت الآن بلداً غير بلدي وأناساً غير ناسي. واختبرت عادات جديدة وأحوالاً غريبة. فتوهجت تلك الشرارة التي كانت مودعة في خاطري تحت دمان الوحدة والانفراد حين هبت عليها نكباء الأحوال المتغيرة والشؤون المتباينة. ولا سيما في ليلة الرقص التي لا

تنسى. ومذح خطر بيالي إن أملي عليك كتاباً في حقوق الرجال والنساء ولا بد من الشروع فيه. قال سأفعل ذلك إن شاء الله ولكن الأمير ينتظر قدومي عليه في المعتزل غداً فلا بد من التوجه إليه قبل إنشاء الكتاب. قالت قد تشقيت الآن قليلاً بما قلته فأذهب إليه وأرجو أن لا تعاودني هذه الاهتقاعة إلا وأنت هنا. فاستغاث واستوزع. واستعاذ واسترجع. ثم ذهب إلى الأمير المشار إليه وبعد أن قضى معه مدة الاعتزال سافر معه إلى إيطاليا ثم رجع إلى الجزيرة محفوفاً بإكرام الأمير وإنعامه.

### عجائب شتى

بُعَيْس حَدْبَنْدِي عِلْمَص خُزْغَبَلَة. فَلَقَ فُلَيْقَ عِبْرَة آدَبَ بَطِيطَ فَنَكَّرَ عَجَبَ فَنَكَّ ضَحْكَ بَهْرٍ هُنَّرَ هَكَّرَ إِذْ بُجِّرَ. زَوَّلَ عَيْشِي بَجَلٍ طَمَّ أَفْتٌ غَرَوْ فَرِيٍّ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ. هذه سيدي الرسحا المسحا الرقعا الرفعا الرصعا المردا المصلا المزوا العصلا الجخرا الزلاّ القعوا النطوا الضهيا الجخوا الجبّا المزلاج الكروا العَصُوبُ المُنْدَاصُ الفلسحة تتخذ المراقد والحشايا وكبة قطن تنفج به قميصها عن ثديها لتوهم الناس إنها دهساء وطباء. ولكن من أين جاءتك يا سيدي هذه الحلية المباركة وهذا اللحم القدي. ونحن نرى ذراعيك كاليراعة أو كعود الثكاعي. وعنقك كالعصا ويديك كالمشط ووجهك كالصابونة التي غسل بها القصّار ثياب القديدين والفدّادين والداجّ والداجة وترائيك كالقفص وكتفيك مؤلّتين مهلهلتين مرققتين مدققتين محدّتين مسرّبتين مسمرتين. فكيف غلطت فيك الطبيعة وسمنتك في هذين الموضعين الكريمين وعميت عن الباقي. وهذه سيدي البلقوطة الدُعشوقة الزُلُنْقطة الجَحْنيرة الرَبّازاء الجَعْبرة الحُرْقُفَة الدِنّامة الزَفَيان العَشْبَة الحُدْحَة الرُحْنَة الضُرْرة الزَوْنَة. البُهْرة الجُبّاعة القُمَهْزِيّة البُهْصُلة الدَّرّامة القَفْزعة القُرنبضة الفئثل القئثل القَعْبَة القنبعة القزّمة القذعْمة الجَبْنطة الدودري القُرزحة الكعْنة القلّي الجائز القنبضة القرزحلة الحزقة إذا مشت تطفر وتتب وتقطع وتتالع وتعسج وتبع وتطال وتشرّب وتصلهبّ وتشمل وتترقص وتزمهلّ. وتحسب إن الناظرين لا يشبرونها بأعينهم. ولا يفترونها ولا يذرعونها بخواطرهم. ولا يدرون أي فراش يليق بها. وهذه سيدي السوداء المسخّمة المدلّمة المطرّخة الفاتحة القاحمة الدهماء المدهامة الحتماء المبرطمة الدلّاء المدلّامة السحماء الدجناء الدخناء الحفدلس تطلي وجهها بالخمرة والغمرة والغمنة والخور والرينة. ثم تصعر خدها للناس وتنظر إليهم شزرا. وتتيه عليهم دلّالا وكبرا. فإذا حاولوا أن يروا موضعاً آخر من جسمها أدارت لهم ذلك الموضع المطلي المحمر المنقش المزورّ.. وجعلته شافعا في سائر أعضائها. وأوهمتهم أن المغطى منها أشدّ بياضا من المكشوف وإن لوّنها في الليل يكون أزهى منه في النهار. ولا سيما عند الخلوة. فإنه يزداد بهاء وجلوة. وربما حكّت حكاية طويلة تدل على أنها لما قامت

في الغداة لم يكن لها وقت لإصلاح شأنها. فلبست ثيابها على عجل وخرجت وهي لا تدري كيف خرجت. وهذه سيدتي العجوز المتهدّمة. القُحلة الشهيرة. الطهمل اللحية. العفثيل الصهصليق. الجلفزير الشفشليق. الخنظير الشمشليق. الدرديس الطرطيس. الشلمّق الجحوط. الشملّق الجحوط. الحريش اللطط. الهيعرون الكحك. الهرشفة الجليح. ذات القنثلة والنقثلة. والنعثلة والنغظلة. لم تزل حشورة عزهاة تتفتى وتتصبى وتحزّق ثوبها من عند خصرها. وتجلس إذا جلس إليها فتى في وكرها. وهذه سيدتي الجميلة البضة الغراء. السنيعة الغضة الفرا الصبيحة الزهراء العبير الغيداء. الخضلة الدعجاء. الخريدة الموقونة العجزاء. الرشوف الشنباء. الخنية الذلفاء. السلّمة الكاعب. المصقولة الترائب. الحلوة الابتسام. الرخيمة الكلام. التي تسكر بمغازلتها. وتفتن بمباعلتها. وتصي فؤاد من لم يصب عمره. وتبلة وتتيّمه. وتعبده وتهميه. وأن أخذ منها حذره واستحصر رشده وصبره ودينه وحجره. تراها تمشي والخفر قدنكس رأسها وغضّ طرفها فأذهلها عن أن تحس خطوها وتبدي زهوها. وليس بها شيء من التغنج والتضرج والتبرّج والتغوّج والتحلّج والتدبج والتخفج والتدعلج والتدحرج والتبغنج والتزرجج والتسرجج والتموج والتنفج. مع إنما لو دخلت على حضرة الملك لقام لها احتفالا. وناولها الميحر والمحصرة إجلالا. وانشدتها

فديتك من مملكة علينا

يحق لتحتها تخت الخلافة

خذي تاجي بأدنى لثمة من

أو على حضرة ناموسه المفخم. ووزيره المكرم. لدهش عن شغله إكبارا لها وإعظاما. وألقى إليها الخاتم استسلاما. وانشدتها

على أسرى أمير أو وزير

إليك الفصل في كل الأمور

إليك فهل سبيل للشغور

فما الدستور إلا دسّ تور

ولو دخلت مجلس قاضي القضاة. لا هدي إليها الكثر والدر وما ملكت يداها. وانشد:

حظان لا للذكر

لها عليّ في الهوى

فإن لي سؤالين منها ذا وذاك وطري

ولو دخلت على طبيب يعالج تيتاء لوصف له مسّ رأفتها. وشم سالفها. وأنشد:

رضاب فيك وللعنين ذي الفجل

دهن السفنقور والترياق للعلل

أرشفته الخمر نعم الخمر من بدل

حتى إذا لم يدع في الريق من وشل

ولو خطرت على منجم لرمي الاسطرلاب من يده حيرة وذهولا، وبليلة وغفولا. وانشد:

لسنا نرى إلا جمالك في الضحى  
قد بلبل الفلكي منك مفلك  
فهومنير بجنح ليل اظلما  
فعلبك تقويم الذي ما قوما

أو على فيلسوف لذهبت معه حكمته سدى. ولم يجد للصبر عنها رشدا.  
وانشد:

من حكاك الجسمين تقتدح النار  
وهي دعوى فإن جسمي إذا  
كذا مذهب الذي قد تفلسف  
احتك بهذي أسال ماء فأنزف

أو على مهندس لأشكلت عليه الأشكال. وتبلبل منه البال. وأنشد:

يفدي المكعب منك كل مكعب  
يا ليت ذا الشكل الهلالي الذي  
ومحدّب ومقعر في العالم  
فيك استقر على عمودي القائم

أو على منطقي لخرج عن القياس. وخط في الالتباس. أنشد:

على اللديدين مني ساقها وضعت  
أصبحت تاليها ابغي مقدمها  
يا حسن ذلك موضوعاً ومحمولاً  
إذ كان كل سرور فيه مأمولاً

أو على نحو لما ميز الفاعل من المفعول. ورأى أن معرفة ذلك من الفضول: وأنشد:

رويدك إنني ما جئت نكرا  
برئت من النحاة وحق ربي  
لديك وليس لي ذنب فيذكر  
لقولهم بتغليب المذكر

أو على عروضي لتقطع فؤاده، وكثر زحافه وإسناده. وأنشد:

هندتني يا ذات كل ملاحه  
أرعى النجوم الليل فيك وأنني  
وتركت قلبي بالغرام يعلل  
مستفعل مستفعل مستفعل

أو على شاعر لدلع لسانه تلزحاً. ثم تلمظ وتمطق ثمعض بنانه قسحا. وأنشد:

كم تاه صبّ بفرط العجب والنتيه  
إن يولني منك تجنيسي مجانسة  
لكن حياؤك تأليهي وتوليهي  
أحمدت توريتي واخترت توجيهي

إلا ولو أنها مسحت على عنق كل مني ومنك أيها القارئ لأغناها عن الحضيض. ومصح ما بهما من  
الورم والنفاخ والنفطة والغدد والعقد والقدم والقفد والحثر والعجر والعاذور والبحر والجدر والغير  
والكعر والشعر والزور والحبر والقصر والنعفة والسلع. والنكف والغيب والغلب والذريه والترؤد والعصل  
والمقط والقسط والتشنج والتحنج والتغضف والتغضن والتصعفر والتقبض والقفص والرّدن والتشنن

والكنع والتكريش والتكرش والتكمش والاشخاص والقره والقله والثأي والجما والحروة والتنج والذباح  
والرثية والضواة والزرة والخضعة والشاكة والادل والاجل والحدل والصمغة والقروح والخراج  
والدملوالعنبه والبثور والثآليل والخنازير والالتواء والهنع والحبون والندب والعثم والوكس والحبط والأجور  
والندم والعرب والعاذر والأثر والطلايا والعلب والعصب والقوباء والجرو والدغام والخذش والجلف  
والحشفة والحفت والقطوف والزرف والكدم والنسوف والغلصمة والحولق والحلاق والفرك والكتاف  
والهيض والخناق.

وهذه سيدتي الزنمة العنجد الدلغوس الألفة السلقة الملقاع الحففس الحنفس العنقص البلقع السلفع الهروم  
المهضضة الشنظيان البنظيان البهرج الطليف المسجل الظلف الفانكة المنملة المتياح المزجاج المعنة الخطالة  
الخالجة الردة الزلزة المخنثات الهلوك المتهاكة المتهتكة المستهترة الباغزة الحوسة العواسة الدرديم الدردب  
المتوهجة المتلعجة اللقوت العجينة المقفاطة الجلووط الخروط الخلطة الجليع الجلعة الخريع الحلقة الشنقة  
الشنيقة المعفاص المعقاص الجنبة البطرية البظير الدمراء القاشرة الجلبانة العنقفيز السلخوت الهجري  
النعارة الهيعة الهيرة الهوزورة الزاغية السعوة الساعية الخيتروغ الخيتعور العسوس الضنوط المماجن الحجة  
المالئة الشروب القعرة المستعربة المستضربة المستنخبة القفخة الوداح المدرجة المردة الضامد المستعقدة  
الفخذاء الثامدة المستدرة المستدرة المستضورة المستطيرة المستظيرة الشفرة القعرة القورور الهوسة المباس  
المنعظة الكرعة الواكعة التبعي المختلعة القمعة الهكعة الهقعة المتهقعة الضبعة الظالع الوتعة الهينغ المستولغة  
المراغة الصارف الحلقية المستحلقة المستودقة الحارقة الشبقة المتفككة المداركة المفلكة المستجعة المستوبلة  
المبذم المذم المبللم المهذم القطمة الهدمة العظمة المستحمة الغيلم المتوسنة المستأتية الحانية المتسداة التي قد  
علم كل واحد من أهل البلد حين تخطر في أسواقه وشوارعه وأزقته ودروبه وردوبه إنما تدعوهم بعينها  
وبجميع جوارحها إلى التمشير إلى القراب إلى الإشعار إلى الاقلعاف إلى الاشتمطاط إلى الاشتماذ إلى  
الإفضاء إلى الاقتعاء إلى الكفاح إلى العراض إلى التلفيع إلى الدهفشة إلى النشنشة إلى الهكاع إلى السباع  
إلى التشيط إلى الحصحصية إلى الاسواء إلى الايعاب إلى الرفش والقفش إلى المحش إلى المسح إلى الأجفان  
إلى الافطاء إلى الانقاش إلى القرب إلى الرك إلى البك إلى المهك إلى الهك والهكهكة إلى الرهك إلى الحرث  
إلى الهق إلى الزجل إلى الاماهة إلى الزعب إلى الخوق إلى الدعم إلى الرطم إلى الكوس إلى الاقحاط إلى  
الومس إلى الدعظ إلى الدعمطة إلى السغم إلى الاكسال إلى الاطمار إلى الغفق إلى الخفق إلى الوجس إلى  
الافهار إلى الظلم إلى التداوم إلى التنسي إلى القمقم إلى التجبية إلى الابراك إلى التديخ إلى الانسداج إلى  
الانسراح إلى الانشداح إلى التنوخ إلى الدربكة إلى الدهشرة إلى المشق إلى السلق إلى الصلق إلى السلقة إلى

المزد إلى الحرش إلى الشقية إلى المحارقة إلى الكشر إلى النخب إلى التفنسخ إلى الظهارية إلى الترفع إلى  
التفشغ إلى الفشاغ إلى المزمعة إلى القرفطة إلى القرفصة إلى الكابوس إلى الخط إلى لي العرفجه إلى التكويد  
إلى الشفر إلى التشفير إلى التدليص إلى التفخيز إلى التحييض إلى الحسف إلى التلجيف إلى دح إلى آر  
إلى أز إلى باظ باظ تقعد في مجلس رئيسة بنات النّقري وتطفق تعيب على جاراتها إنهن ينظرن من  
الشباك ويضحكن ويلبسن ويتعطرن ويتحلين ثم يخرجن ويمشين الخيلاء. ولكن أنسيت يا سيدي يوم قلت  
لشيخك ما أحد يعشق إلا ويتغير لونه عند ذكر معشوقه. فقال لك ليس ذلك بمطرد. فكابرت وأصررت  
على قولك فكابر هو أيضاً وأصرّ على إنكاره. فقلت له حتى تحجّيه لو انك ذكرت لي اسم - انتبهت  
وسكت. فقال لك وقد طنّ قرن دماغه اسم من. فضحكت وقلت لا أدري. ويوم خرج بك ليفرج  
عنك الهمّ في يوم راح فخرجت وقد كشفت نصف صدرك ولمعت الترائب والمفاخر واللوعة وهو لا  
يدري لغفلته. فلما التفت إليك ووجدك على هذه الحالة قلت أن الريح فعلت ذلك. ويوم كان يماشيك  
فقلت وأنت ذاهلة لغلبة الهوى افدي بروحي وجه من أهوى. فلما سألك قلت ما هو إلا أنت وما أنت  
إلا هو. ويوم أرسلت خادملك. ويوم بعثت خادملك. وغداة كتبت رقعة دعوت فيها من شافك وضحوة  
تأخرت. وعشية تعطرت. وساعة أعتذرت، وفينة فرّمت. وليلة أوهمت وجمجت. وتنة همت وهممت  
وهينمت. وتوة تبرجت وتعلمت. وتفته ارتمت. وفيئة زمت وسلمت. وحينه استحرمت حتى دعمت.  
ألم تكن هذه القوافي كلها مكافئة لنظر جارتك من الشباك.

وهذا المطران أنناسيوس التتوني قد صار الآن مترجماً معرباً كاتباً منشئاً وهو أضيّق أسّتا من أن يفعل. ولم  
ييال أن جرّ عليه بتعريبه أسّت الكلبة وقد حسب مضايق الحرف كلها سواء. وتعني وتعمل. ولهوج  
ولهوق. وطرمذ وطرطر. وتقيش وتحرش. وقرمش وفشفش. وهربج وهلج. وسفسف وهمرج. واخترص  
وئثم. وتورّه وضهياً. وأنها ونياً. وتكسّس وتزيب وتنفع ولبلب. وخرشب وخشرب. وتحذلق وتأبب.  
وتصوّك وترنج. وتندخ وترنخ. ومردل وافجس. ومرطل وعطرس. وتفهيّق وتشدق وعفك وبشك.  
وخرق وحزق. وربك ولبك. وصد ولقت. وهو أعظم في نفسه من المتشمة أليس في الكون من مرآة  
وزجنجل وسجنجل وعناس ومنظار ووذيلة ولجة ومارية وزلفة ومذية أو زجاجة أو صفيحة فتتظر  
سيداتي هؤلاء فيها وجوههن وما هنّ عليه من الأحوال. أليس في الشرق من سيبويه فيصفع. أما في  
الغرب من ابن مالك فيقدع. ألا أخفش فيغار على هذه اللغة. ويرضن رأس هذه الوزعة. كيف يظن  
الإنسان أنه علم ولم يتعلم. وأديب ولم يتأدب. وفقه ولم يتفقه. نعم أنه لا يرى جهله في مرآة كما يرى  
وجهه ولكن أليست الكتب هي مرآة العقل. فمتى قرأ كتب العلماء ولم يفهمها عرف حد ما وصل عليه



من العلم. غير أن المطران أتناسيوس التتوني مطران طرابلس الشام المقيم في جميع البلدان إلا فيها لم يطالع شيئاً من مؤلفات العلماء. فغاية ما علمه من النحو باب الفاعل والمفعول ومن البيان نوع التجريد. ومن الفقه باب النجاسات. ومن العروض الوند المتحرك. ومن البديع رد العجز على الصدر. هذا حد ما عرفه وتبحر به في مدرسة عين تراز حين كان قيم تلامذتها. فأما سبب فراره منها إلى رومية ثم من رومية إلى مالطة إلى باريس ثم فراره من باريس إلى لندرة ثم فراره من لندرة إلى مالطة. ثم فراره هذه السنة إلى لندرة من بعض مدن النمسا حين كان يطوف فيها وعلى عاتقه الشلاق. وتشهيره هناك وتجريسه في الأخبار اليومية حتى حرم من تعاطي هذه الحرفة التي ألفها منذ سنين كثيرة. وتسببه في زمن موسم لندرة في أن جمع جماعة مغنين ومغنيات من بيت أشق باش بحلب. وإغواؤه إياهم على أن يقصدوا الموسم طمعاً في الربح. ودخوله معهم ومع شركائهم أولاً في شروط المصروف والتجهيز. ثم استرجاعه المبلغ الذي كان أداه إليهم وأشترطه عليهم إياه في الفائدة من دون أن يشاركهم في التعب. وذلك في مقابلة إغوائه وسعيه هذا الذميمة الذي كان سبباً في تخسير رئيسي هذه الزمرة خسارة زائدة فلا يمكن شرحه في هذا الكتاب. وربما قال قائل هنا أنك أيها المؤلف قد عبت على الناس جهلهم أنفسهم. وقد أراك جهلت نفسك في هذا الفصل فأوردت فيه كلاماً لا يليق بالنساء فقد تجاوزت ابن عتيق وابن حجاج. قلت الحامل على ذلك أمران. أحدهما إبراز محاسن لغتنا هذه الشريفة. والثاني أي قصدت تشويق القارئ من ملئوا حيطان ديارهم من قصب التبغ إلى شراء كتاب في اللغة. فيا قارئاً ويا سامعاً. ويا راقئاً ويا عامساً. قل للمتعت أن من كان فيه مرارة لم يستطع الحلاوة. وبعد فإني أترامي على أقدام سيدتي المدقم وسيدتي الدعشوقة وسيدتي الفلحسة وسيدتي المسخمة وأطلب منهن العفو عن طغيان القلم إذ لا يمكن لي أن أبيت هذه الليلة وهن عليّ غضاب.

### سرقة مطرانية

لما رجع الفاريق من عند الأمير المشار إليه أخبر زوجته بما أحسن به إليه وبأنه وعده بوظيفة حسنة في مصر. فقالت أنا أسبقك إذا وأنت تنتظره هنا فأني قد اشتقت إلى أهلي فدعني أسافر إليهم. قال لا بأس. فلما أزعج الفراق أخذ يودعها ويقول: اذكري يا زوجتي أن لك في الجزيرة حليلاً يركك وخليلاً لا ينسأك. فقالت من لي بهذا. قال فقلت أي هذا تعنين. قالت إنما أعنيك. قلت بل المتبادر غيري. قالت هل الحقائق على بوادركم أنتم العرب. وما زال دأبكم نبش ما في صدور النساء من الأسرار. وفقس ما في يوافيخهن من الأفكار. ومؤاخذهن بالذث والوهم. ومعاملتهن بالحدس والقسم. ومعالجتهن بالهيجس

والزعم. والرضخ والرجم. والتذقح واللغم. والريسيس والوغم. بدل العمس والعسم. والجلهزة والرأم. والحزم والوزم والجمش والفغم. والضم والدعم ولو أن الله تعالى يؤاخذ العباد باللغو مثلكم لما بقي على وجه الأرض من بشر أكثر هذه المشاحنات ناشئ عن لغتنا فأن كل منها تحمل عدة معان لسعتها. قالت ليتها كانت ضيقة قلت وهذا أيضاً من ذاك. قلت وكذا ذاك في هذا. قلت وكذلك عليه. قالت وتحتة فالأولى إذاً السكوت. قلت ليس عند ذلك. قالت أنتم الرجال كلكم منخاريون فطافطيون رفثيون. قلت من أين علمت ذلك. قالت قد رجعنا إلى الوهم والقسم. قلت بل فلنعد إلى الوداع. قالت نعم أي أسافر وليس لي من آسف عليه. قلت هل أنا في جملة غير المأسوف عليهم قالت ما أنت كأحد الناس. قلت وهذا أيضاً مبهم الست برجل. قالت في أحد المعنيين. قلت هل بقي لك عليّ شيء. قالت جمعه. قلت أعندك حساب ذلك في دفتر. قالت نعم قد غرّنا تلحزكم في الشعر يا شعراء فرعنناكم قوالين فعالين. فإذا بكم لا تحسنون إلا الوصف. قلت ومن يحسن الفعل. قالت ومن لا يحسن الوصف. قلت وأين حق الأدب. قالت في مجالس العلماء لا في مجالس النساء. قلت ذلك يفضي إلى الانبتات. قالت وهذا إلى الانبتات. قلت كيف يمكن الفراق إذاً. قالت أن شئت الوزم الآن وإلا فدعه إلى أن تأتي مصر. قلت كيف يتأني وزم أعوام في ساعات أو أيام؟ وأشفق أن أحيان وعليّ ذبابة. قالت إذا كنت لم تخش من الدين، فما أخالك تخشى من الحين. قلت لقد أذكرت ناسياً وطالما حسبت الناس كلهم مثلي. قالت وأنت أنسيت ذاكرة لكوني لم أر لي مثلاً. قلت اذكري السطح واصفحي. قالت ليس الصفح إلا من ذكر السطح. قلت أي أردت السطح القديم. قالت إنما أريد الحديث. قلت يقال في الأمثال لا بركة إلا في قدم قالت يقال في الأمثال لكل جديدة لذة. قلت كيف الفراق وفي قلبك ضغن قالت يا حبذا الضغن. قلت إذا كان بمعنى الشوق أليّ. قالت نعم هي من الألفاظ الغريبة التي تعلمتها منك كالعقيون والفطحل والحبرة. قلت لعلك أنست من العقيون والعقيان ومن الفطحل الفحل ومن الحبرة الحبرة. قالت لا تأنس الحبرة بالحبرة. قلت قد وقع ذلك فأثم قالوا النعمة من النعمة. قالت وقالوا أيضاً التسديد من السداد. قلت لميرد في النهي عن ذلك أمر. قالت هو مقيس على نقيضه. قلت هذا بذر في أرض سباخ. قالت وذلك قراح بلا حرث. قلت الكلام على البذر. قالت لا يمرّ الطعام ما دام في الحلق ولا يسوغ الماء إلا إذا مرّ على الزلقوم.

ثم توادعا بعد مباراة الدّم وشيعها إلى سفينة النار ثم رجع إلى منزله كثيراً مستوحشاً. لأنها كانت كثيراً ما تدله على الرشاد وتنهجه له الرأي السديد. ثم لم يشعر بعد أيام إلا وروائح المطران قد انتشرت وهي أشد أذى من الأولى. فبعث منها آخر إلى اللجنة المذكورة وكتب لهم. أن لم تقطعوا هذه الرائحة من هذا

الجو شكاكم كل ذي خيشوم. فلما بلغهم كتابه وعرضوه على الطلاب العلم عندهم وجدوا أن قوله الحق. فبدأ لهم أن يسدوا مسام المطران عن إخراج ذلك الخبث. وأن يحضروا إليهم الفاريق لإعادة ترجمة الكتاب الذي تقدم ذكره. هذا وقد كان الفاريق ألّف في أحوال أهل الجزيرة كتاباً وعاب عليهم فيه بعض عادات ورسوم دينية ودنياوية مما تفردوا به على نصارى بلاده. وذلك كتغيطسهم أجراس الكنائس في ماء المعمودية وإطلاق أسماء القديسين عليها. وكخروجهم بالدمى والتمثيل نهاراً وإيقاد الشموع أمامها وما أشبه هذا. وكان قد أعار الكتاب المذكور رجلاً من المسلمين ممن كان المطران يتردد عليه. فاتفق أن زاره المطران يوماً فرأى الكتاب على الكرسي وقد عرف خط مؤلفه. فغافل الرجل حتى خرج من الحجرة وتناول الكتاب وقطع منه الأوراق التي اشتملت على ذكر تلك العادات. ثم بعث بها إلى رئيس مصلح البحر وكتب عليها باللغة الطليانية. أنظر أيها الرئيس أن كان قائل هذا الكلام يصلح لأن يكون تحت رئاستك أو لا. إلا أن الرئيس المذكور لما كان لا يعرف ما اشتملت عليه تلك الصحائف مع عدم قدرته على عزل المتوظفين في خدمة الدولة. كان لا بد من إعادة الأوراق إلى المؤلف. وكان المطران قد فر من الجزيرة قبل إعادتها وطهر الجو من روائحه. ولو بقي بعد ذلك لعوقب على هذه السرقة معاقبة تليق بأمثاله. ووقتئذ عزم الفاريق على السفر لقضاء تلك المصلحة أعني ترجمة الكتاب وأرسل إلى زوجته يعلمها بما استقر عليه الرأي. وأشار عليها بالرجوع إذ كان يرجو أنه يبقى في بلاد الإنكليز بعد إنهائه الكتاب. غير أنه جرت العادة في بلاد الإفرنج بأن مدرسي اللغات في مدارسهم الجامعة لا يكونون إلا منهم وأن كانوا جاهلين. وبعد أن رجعت الفاريقية تأهب الفاريق للسفر. وهاهو الآن يوعي القاموس والأشموي في صندوقه. وهاأنا منطلق لقضاء حاجة لا بد منها فاسمحوا لي أن أستريح قليلاً.

#### الكتاب الرابع

#### إطلاق بحر

من لم يسافر في البحار ويقاس فيها الأنواء والأمواج فلا يقدر ترفه المعيشة في البر حق قدرها. فينبغي لك أيها القارئ البري أن تتصور في بالك كلما أعوزك الماء القراح واللحم الغضبيض والفاكهة الطريئة والبقول الخضلة والخبز اللين أن إخوانك ركاب البحر محرومون من هذا كله. وإن سفينتهم لا تزال تميد بهم وتتقلب وتصعد وتهبط. فدون كل لقمة يسترطونها غصة. وفي كل رقدة يرقدونها مغصة. وأنه متى وضع بين يديك لون واحد من الطعام فلا تفكر إلا فيه. وأعتقد أن غيرك يغتذي بمثله في تلك الساعة بل بأقل منه. فبذلك يحصل لك التأسي والتسلي. فأما إذا نظرت إلى قصور الملوك والأمراء وصروح الوزراء

وفكرت فيما يأكلون ويشربون فإنك لا ريب تتعب نفسك وتعييها لغير فائدة. ولكن أتخسب أن المعتقة التي يشرها الأمير ألدّ من الماء الذي تشربه أنت. حالة كونك عارفاً بأمور المعاش والمعاد. مضطلعاً بإدارة مصلحة لك تكفيك وأهلك المؤونة. وحالة كون زوجتك تجلس قبالتك أو عن يمينك وشمالك. وولدك الصغير على ركبتيك. تارة يغني لك. وتارة يناولك بيده اللطيفة ما سألت عنه أمه. وإذا خرجت شيعاك إلى الباب وإذا قدمت صعدا معك وأجلسك على أنظف متكأ في الدار.

فأما أنت يا سيدي الغني فالأولى لك أن تسافر من مدينتك العامرة حتى ترى بعينك ما لم تره في بلدك. وتسمع بأذنيك ما لم تسمعه. وتخبر أحوال غير قومك وعاداتهم وأطوارهم وتدرى أخلاقهم ومذاهبهم وسياساتهم. ثم تقابل بعد ذلك بين الحسن عندهم وغير الحسن عندنا. ومتى دخلت بلادهم وكنت جاهلاً بلغتهم فلا تحرص بحقك على تعلم كلام الخنى منهم أولاً. أو تستحلي الأسماء من أجل المسميات. فأن كل لغة في الكون فيها الطيب والخبيث. إذ للغة إنما هي عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومعلوم أن في هذه ما يُحمد وما يذم فأجلك عن أن تكون ك بعض المسافرين الذين لا يتعلمون من لغات غيرهم إلا أسماء بعض الأعضاء وعبارات أخرى سخيفة. لا بل ينبغي لك حين تدخل بلادهم سالماً أن تقصد قبل كل شيء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب، أي الأماكن التي يخطب فيها العلماء في كل الفنون والعلوم فمنها ما هو معد للخطابة فقط ومنها ما يشتمل على جميع الآلات والأدوات اللازمة لذلك العلم. وإذا رجعت بحمده تعالى إلى بلدك فأجتهد في أن تؤلف رحلة تشهرها بين أهل بلادك لينتفعوا بها ولكن من دون قصد التكبّب ببيعها. ويا ليتك تشارك بعض أصحابك من الأغنياء في إنشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك من الكتب المفيدة للرجال والنساء والأولاد ولكل صنف من الناس على حدته. حتى يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق. سواء كانت تلك الكتب عربية أو معرّبة. ولكن أحذر من أن تخلط في نقلك عن العجم الطيب بالخبيث والصحيح بالمعتل. فإن المدن الغنّاء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل. نعم أن من هؤلاء الناس لمن يأبى أن يرى أحداً وهو على الطعام. وإذا اضطّر إلى رؤيته وهو في تلك الحالة فلا يدعوه للوُس شيء مما بين يديه. لكن منهم من يدعوك إلى صرحه في الريف فتقيم فيه الأسبوع والأسبوعين وأنت الأمر الناهي. وأن منهم لمن ييخل عليك برد التحية. وإذا دخلت دار صديق منهم وكان في المجلس جماعة من أصدقائه لم يعرفوك من قبل فما أحد يتحلحل لك في القيام. ولا يعبأ بك ولا يلتفت إليك. لكن منهم من إذا عرفك أهتم بأمرك في حضورك وغيابك على حد سوى. وإذا ائتمنته على سرّ كتبه طول حياته. وإن منهم أن ينيزك بالألقاب أول ما يقع نظره على شاربك ولحيتك أو على عمامتك أو يجذبك من ذيلك من وراء. ولكن منهم من يتهافت على معرفة

الغريب. ويرتاح إلى الرفق به والإحسان إليه ويرى أجارته وحمايته فرضاً عليه متحتماً. وإن منهم لمن يسخر منك إذا رآك تلحن في لغته. ولكن منهم من يحرص على أن يعلمك إياها مجاناً أما بنفسه أو بواسطة زوجته وبناته. وعلى أن يعيرك ما يفيدك من كتب وغيرها ويرشدك إلى ما فيه صلاح أمرك وتوفيقك. وإن منهم لمن يحسبك قد وافيت بلاده تسابقه على رزقه فيكلح في وجهك وينظر إليك شزراً. لكن منهم من يتزلك في بلده منزلة ضيف يجب إكرامه واحترامه والذب عنه بحيث لا تفصل عنه وفي قلبك أدنى ألم من أهله. وإن منهم لمن يسحرك أن تترجم له أو تعلمه ثم لا يقول لك أحسنت يا مترجم أو يا معلم. لكن منهم من لا يستحل أن يكلمك من دون أن يؤدي إليك أجرة فتح فمك وضم شفتيك. وإن منهم لمن إذا اضطر إلى أن يدعوكم إلى طعامه ثم أراك قد سعلت سلعة أو مخطت مخطئة أو فنخرت فخره قال لزوجته ألا إن ضيفنا مريض. فلا ينبغي أن تكثري له من الطعام. فتقوم عن المائدة متضوراً ويمتنّ هو عليك بين معارفه بأنه صنع لك وليمة في عام كذا وشهر كذا ويوم كذا فيجعل تلك الليلة تاريخاً. لكن منهم من إذا عرف أنك مقيم في إحدى قرى بلاده حيث لا بيع ولا شراء ولا شيء ينال من البقول والأثمار بعث إليك من مبالغه وحدايقه ما سد فاك عن الشكوى. كما كان دراموند يبعث إلى الفاريق حين قدر الله عليه بالسكنى في بعض تلك القرى فكانت شكواه منها تسمع مع دوي الريح.

ليت شعري أليس وجود مائة كتاب بدارك في الأقل خيراً من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ وكذا وكذا أركيلة. مع أن ثمن المائة كتاب لا يوازي ثمن ثلاث قطع من الكهرباء. أليس وجود مطبعة في بلادك أولى من هذه الطيالس الكشميرية وتلك الفراء السمورية وهذه الآنية النفيسة والحلي الفاخر. فإن الإنسان إذا نظر إلى الحلي لا يستفيد منه شيئاً لا لبدنه ولا لرأسه. وغاية فرحه به إنما هو الشهر الذي اشتراه فيه فإذا مضت عليه أشهر استوى عنده وسقط المتاع فلم يبق منه ما يسره من وجوده سوى بيعه. فأما الكتاب فإنه كلما مرت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه. أو ليس إطلاعك على التاريخ والجغرافية وآداب الناس زينة لك بين إخوانك ومعارفك تفوق على زينة الجواهر أليس تعليم اهلك وذويك شيئاً من ذلك ومن قواعد لازمة لحفظ الصحة من كتب الطب يكسبك عند الله أجراً ويؤمنك من مضار كثيرة تنطرق إليهم لجهلهم بها. فإن قلت إنه ليس عند الإفرنج مختصة بالنساء والأولاد يؤلفها الرجال الفاضلون المهذبون. فلم تشتري من الإفرنج الخزّ والمتاع ولا تشتري منهم العلم والحكمة والآداب. ثم إنك مهما بلغت في أن تبرقع زوجتك عن رؤية الدنيا فلن تستطيع أن تخفيها عن قلبها. فإن المرأة حيثما كانت وكيفما كانت هي بنت الدنيا وأمّها وأختها وضرّتها، لا تقل لي أن المرأة إذا كانت شريرة لا يصلحها الكتاب بل يزيدا شرّاً، وإذا كانت صالحة فما من حاجة إليه، فإني أقول إن المرأة كانت أولاً بنتاً قبل أن

صارت امرأة. وإن الرجل كان من قبل ولداً. ولا ينكر أحد أن التعليم على صغر كالنقر في الحجر. وإنك إذا ربّيت وُلدك في العلم والمعارف والفضائل والمحامد يربون على ما ربّيتهم عليه. وتكون قد أدّيت ما فرضه الله عليك من تأديتهم. فتفارقهم بعد العمر الطويل وخاطرك مجبور وبالك رخي مطمئن. فلم يبق لك إلا أن تقول أن أبي لم يعلمني وكذا جدي لم يعلم أبي وإني بهما أقتدي. فأقول لك أن الدنيا في عهد المرحومين جدك وأبيك لم تكن كما هي الآن. إذ لم يكن في عصرهما سفن النار ودروب الحديد التي تقرب البعيد، وتجدد العهد. وتصل المقطوع. وتبذل الممنوع. ولم يكن يلزم الإنسان في ذلك الوقت أن يتعلم لغات كثيرة فكان كل من يقول خوش كلدي صفا كلدي يقال فيه إنه يصلح لأن يكون ترجماناً في باب همايون. وكل من كان يكتب خطأ دون خطي هذا الذي سودت به هذا الكتاب، لا الذي تقرأه الآن فإني بريء من هذه الحروف، كان يقال عنه إنه كاتب ماهر يصلح لأن يكون منشئ ديوان فأما الآن فهيهات.

هذا الفاريق حين نوى السفر من الجزيرة إلى بلاد الإنكليز كان بعض الناس يقول له أنك سائر إلى بلاد لا تطلع عليها الشمس. وبعضهم يقول إلى أرض لا ينبت فيها القمح ولا البقول. ولا يوجد فيها من المأكول إلا اللحم والقلقاس. وبعض يقول إني أخاف عليك أن تفقد فيها رثتك لعدم الهواء. وبعضهم يقول أمعاك لعدم الأكل. وبعضهم صدرك أو عضواً آخر غيره. فلما سار إليها وجد الشمس شمساً والهواء هواء. والماء ماء. والرجال رجالاً والنساء نساء. والديار مأهولة والمدن معمورة. والأرض محروثة أريضة كثيرة الصوى والأعلام. خضلة الغياض والرُّبض والآجام. ناضرة المروج. زاهية الحقول. غضة البقول. فلو إنه سمع لأولئك الناس لفاته رؤية ذلك اجمع. فإن خشيت أن تفوتك هناك لذة الأريكة ولذة تكبيس الرجلين قبل الرقاد. فاعلم إن ما ترى هناك من العجائب ينسبك هذا النعيم. ويلهيك عما ألفته في مقامك الكريم. كيف ترضى لنفسك أن تفارق هذه الدنيا ولم ترها وأنت قادر على ذلك. وقد قال أبو الطيب المتنبي

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً      كنقص القادرين على التمام

أم كيف تقتصر على معرفة ربع لغة ولا تتشوق إلى علم ما يفكر فيه غيرك. فلعل تحت قبعته أفكاراً ومعاني لم تخطر بما تحت طربوشك. بحيث إنك إذا استوعبتها تودّ لو أنك عاصرت صاحبها وتشرفت بمعرفته وصنعت له مآدبة فاخرة زينتها بصحاف الرز والبرغل. وكيف تبلغ من عمرك ثلاثين سنة ولم تؤلف شيئاً يفيد أهل بلادك. فما أرى بين يديك إلا دفاتر بيع وشراء وفناديق دخل وخرج. ورسائل

فاسدة المعاني ركيكة الألفاظ تنظر فيها في كل صباح ومساء. فأما قصدت السفر لجرد التفاخر فقط بأن تقول مثلاً في مجلس زارك فيه أصحاب الكرماء وأقرانك العظماء. قد رأيت مدينة كذا وشاهدت شوارعها النظيفة الواسعة وديارها الرحيبة ومراكبها الحسنة وأسواقها البهيجة وخيلها المطهمة ونساءها الرائعة وعساكرها الجرارة. وأكلت فيها في اليوم الأول كذا وشربت في اليوم الثاني كذا. ثم ذهبنا بعد ذلك إلى بعض الملاهي ثم إلى إحدى الملهيّات. وبت معها على فراش وطئ.

بسلاسل الذهب. ولا يقتني النادر من الأثاث والماعون والفرش. بل إنما ينفق أمواله في سبيل البر وإغاثة الملهوفين وإمداد الأراامل واليتامى وفي إنشاء المدارس والمستشفيات. وفي تصليح الطرق وتحسين المدينة وإزالة الأوساخ والعفونات منها. وفي أن يربي ولده بالأدب والعلم والفضائل. فترى منهم من سنة اثنتا عشرة سنة يكلمك بما يكلمك به من سنه منا اثنتا عشرة سنة بعد العشرين. وبخلاف ما إذا تفضلت بذكره فقلت أن لكل إنسان عندهم ممن لا يعد من الأغنياء والفقراء خزانة كتب نفيسة في كل فن وعلم. وما من بيت إلا وفيه إضارة من صحف. وإن الرجل منهم أخبر بالبلاد الأجنبية مناهلها. وإن أكثر فلاحهم يقرءون ويكتبون ويطلبون الوقائع اليومية ويعرفون الحقوق الرابطة بين المالك والمملوك والحاكم والمحكوم وبين الرجل وامرأته. وإن من هذه الوقائع المطبوعة ما تبلغ عدة نسخه أربعة عشر مليوناً في العام. وما يدفع عليها لخزنة الدولة على طبع إجازتها يبلغ أكثر من خمسين ألف ليرة. وإنها لو عرّبت نسخة واحدة منها لجاءت أكثر من مائتي صفحة. وإن صاحب العائلة منهم إذا جلس صباحاً على المائدة مع زوجته وأولاده يقبل كلا منهم ويسألهم عن صحتهم. ويفيدهم بعض نصائح وتنبهات تكون لهم إماماً في ذلك اليوم. وإنهم يكلمونه وهم مبتهجون فرحون ويرون حضوره فيهم سلواناً. وإنهم لا يخالفون له أمراً ولا يستثقلون منه تكليفاً. وهم مع ذلك يدلون عليه بالبنوة ويهابونه للأبوة.

فهذا وأمثاله أصلحك الله ينبغي أن تشنّف به مسامع أصحابك الكرام. عسى أن ينشطوا إلى إنشاء مدرسة أو ترجمة كتاب أو لإرسال ولد لهم إلى بلد يتأدبون فيها بالآداب الحمودة والمناقب الكريمة. وإياك يا سيدي من أن تميل قبل كل هذا كله إلى أن تأخذ عن بعضهم الخصال الذميمة كالطيش والترق والبخل والفسق والكبر ومد الرجلين في وجه جليستك فقد ذكرت لك آنفاً أن البلاد التي تكثر فيها الفضائل تكثر فيها الرذائل أيضاً وإنه ليس من إنسان إلا وفيه عيب بل عيوب. غير إنه ينبغي لكل منا أن لا يزال يجد ويسعى في طريق الكمال وفي تهذيب أخلاقه وحواسه الباطنة بكل ما يبدو لحواسه الظاهرة. وكما أن لذة الحواس لا يشعر بها الإنسان إلا في مقدم جسمه دون مؤخره كذلك ينبغي لكل ذي جسم من الحيوان الناطق أن يعتمد على التقدم في المعارف والدراية. والمحامد إلى الغاية. وكنت أود لو أن أحداً من أهل بلادنا نقل فضيلة أو مآثرة عن هؤلاء الناس إلى إخوانه ومعارفه كما تنقل الأخبار والروايات. وبودي لو يستحيل أصناف الماس والزمرد والياقوت والدهنج والثعنع والدر والعقيان والكهرباء والمها وقلنسوة الراهب معها حالة كونها معدودة من الجواهر والتحف إلى كتب ومدارس ومكاتب ومطابع.

## وداع



لما حان سفر الفاريق أخذ يودع زوجته بعد أن أوعى القاموس والأشثوني في صندوقه ويقول. اذكري يا زوجتي أننا عشنا معاً برهة طويلة من الدهر. قالت ما أذكر إلا هذا. قال فقلت أذكر ناكراً أم شاكر. قالت نصف من هذا أو نصف من ذاك قلت يرجعنا النحت إلى الأول قالت أو يرجع الأول إلى النحت. قلت أي أول أضمرت؟ قالت ما لك ولتأويل المضمّر. قلت حسبي أن تبين الحقيقة ذلك. قالت إذا فكرت في أنك لي ولغيري كنت من الناكرين وإلا فمن الشاكرين. قلت أنك كنت نهيتني عن المعاملة بالقسم وهأنت الآن تأتيه. قالت بل هو يأتيني. قلت أما فيك لفظة لا. قالت أن لفظتها كانت نعم. قلت إن لا من المرأة إلى. قالت وأن نعم نعم. قلت أجعلت هذا دأبك. قالت ودأبت في هذا الجعل. قلت هذا لا يليق بذات ولد. قالت ولا تلد من لا تليق. قلت من مادة. قالت أن كانت المادة غير زيادة متصلة أحوجت إلى اختلاف الصور. قلت وكيف تبقى متصلة على اختلاف الأشكال. قالت لا أشكال في كيفية الأشكال فإن واحداً منها يغني عن الجميع. وغنما الكلام على رسم الكمية. قلت ما الحد. قالت في الجد الهزل وفي الهزل الجد. قلت رأيته لو أقمت نائباً عني في ذاك مدة غيابي. فضحكت وقالت على ما أحب أنا أم على ما تحب أنت. قلت بل على ما تحبين أنت. قالت لا يرضى الرجل بذلك إلا إذا كان غير ذي غيره ولا يكون غير ذي غيره إلا إذا كره امرأته وكلف بغيرها فأنت إذا كلف بغيري. قلت ما أنا بالكلف ولا بالطرف. لكن الرجل إذا كان شديد الحب لامرأته ودّ لو أنه يرضيها في كل شيء. على أن الغيرة لا تكون دائماً المحبة كما نصّوا عليه. فإن بعض النساء يغرن على أزواجهن عن كراهية لهم وأعنات. مثال ذلك إذا منعت المرأة زوجها عن الخروج إلى بستان أو ملهى أو حَمَّام مع عدة رجال متزوجين. وهي تعلم أنهم في هذه المواضع لا يمكنهم الاجتماع بالنساء فهي إنما تفعل ذلك تحكماً عليه ومنعاً لهم من ذكر النساء مع أصحابه والتلذذ بما لا يضيرها. وكذا إذا حضرته عن النظر من شباكها إلى شارع أو روضة حيث يكثر تردد النساء وكذا الحكم على الرجل لو فعل ذلك بامرأته. فهذا عند الناس يعدّ غيره لكنه في الواقع بغضة. أو ربما كان آخر الغيرة أول البغض كما أن إفراط الضحك هو أول البكاء وكيف كان فإن الرجل لا يمكن أن يحب زوجته إلا إذا أباح لها التلذذ بما شاءت وبمن أحبّت قالت أيفعل ذلك أحد في الدنيا. قلت نعم يفعل كثير في بلاد غير بعيدة عنا. قالت بأي هم ولكن ما شأن النساء أيفعلن ذلك أيضاً لأواجهن. قلت لا بد حتى يعتدل الميزان. قالت أما أنا فلا أَرْضى بهذا الاعتدال فليل عندي أحسن. قلت وكذا عندي في بعض الأحوال. قالت ولأحوال البعض. قلت فلنعد إلى السفر إنني أسافر اليوم. قالت نعم إلى بلاد فيها البيض الحسان. قلت أتعنيهم أم تعنيهن. قالت أعني نوعاً ويعنيني آخر. قلت ولم يعنك وأنتن المطلوبات في كل حال ولذلك يقال للمرأة غانية. قال في القاموس الغانية

المرأة التي تطلب ولا تطلب. قالت ما أحسن كلامه هنا لولا أنه قال قبل ذلك العواني النساء لأنهن يظلمن فلا يُنصرن. غير أن هذه النقطة شفعت في تلك. قلت حبكن التنقيط دأب قديم. قالت مثل دأب الرجال في التحريف وكيف كان فإن مطلوبيتنا هي أصل العناء. فإن المطلوبة لا تكون إلا ذات العرض والإحصان فويل لها أن خانت محصنها. وويل لها أن حرمت طالبها وباتت تلك الليلة مشغولة البال بجرمانه وخيبته وبكونها صارت سببا في أرقه وجزعه وحسرتة. والطالبة تعود غير مطلوبة. قلت ليست أخلاق الرجال في ذلك سواء. قالت إنما أعني الرجال الذين يطلبون ويكلفون بمن يطلبونه لا أولئك الطرفيين الشنقيين المسافرين الذين دأبهم التدوَّق والتنقل من مطلوب إلى آخر ونفع أنفسهم فقط دون مراعاة نفع سواهم. ولكن هيهات هل في الرجال من يقيم على الوداد ولا يميل عنه كل يوم. لعمري لو كانت النساء تطلب الرجال طلب الرجال للنساء لما رأيت فيهم غير مفتون. قلت هل في النساء من تقيم على الوداد ولا تتنج عنه كل يوم ألف مرة هذه الكتب كلها تشهد للرجال بالوفاء وعلى النساء بالخديعة. قالت من كتب هذه الكتب أليس الرجال هم الذين لفَّقوها. قلت ولكن من بعد التحري والتجربة، قالت من يأت الحكم وحدة يفلج قلت بل أوردوا على ذلك شواهد وكفى بما ورد عن سيدنا سليمان برهاناً ودليلاً.

فإنه قال قد وحت بين ألف من الرجال صالحاً فأما بين النساء فسلم أحد صالحة. قالت أن سيدنا سليمان وأن يكن قد أوتي من الحكمة ما لم يؤته غيره أن بائع المسك لطول ائتلافه بالرائحة القوية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة اللطيفة. وأما إيراد الأدلة من الرجال على النساء دون إيراد أدلة النساء على الرجال فمحض ظلم وبطر. قلت نعم كان الأولى مناقضة هذا الإيراد ولكن سبحانه الله أتئن تتهمن الرجال في كل شيء ثم تتهافتن عليهم. قالت لولا اضطراب الأحوال لما شغلن بذلك الأبوال. قال فضحكت وقلت أي جمع هذا قالت قسته على غيره. قلت وهل استوى المقيس بالمقيس عليه. قالت لا فرق. قلت بل كله فرق فإن اللغة لا تؤخذ بالقياس. ولو صح ذلك لم تكن مناسبة بين الذكر والأنثى ولا بين الأنثى والذكر. ولا بين تذكير حقيقة التأنيث وتأنيث ما هو غير مقابل بمثله. قالت وهذا أيضاً من بطر الرجال وتشويشهم فلا يكادون يأتون أمراً مستقيماً. قلت قد رجعت إلى لومهم. قالت والله، لقد حرت في الرجال. قلت والله لقد حرت في النساء.

ولكن فلنعد إلى الوداع إني أعاهدك على أن لا أخونك. قالت بل تخونني على عهد. قلت ما يملك على سوء الظن بي. قالت إني أرى الرجال إذا كانوا في بلاد لم يُعرفوا بها أفشحو غاية الإفحاش. ألا ترى إلى

هؤلاء الغرباء الذين يأتون إلى هذه الجزيرة كيف يتهتكون في العهر والفجور. فأول ما يضع أحدهم قدمه على الأرض يسأل عن الماخور. ولا سيما هؤلاء الشاميين ولا سيما النصاري منهم ولا سيما الذين أُلّوا بعلم شيء من أحوال الإفرنج ولغاتهم فأثم يخرجون من المراكب كالزنابير اللاسعة من هنا وهناك. قلت لعلمهم كانوا في بلادهم كذلك قالت ليس عندهم أسباب الفحش هناك. قلت أو كانوا فاسدين بالطبع. قالت نعم هو عرق فساد فأول ما يستنشقون رائحة بلاد الإفرنج ينبض فيهم. ولذلك تراهم أبداً يتلمظون بذكر بلاد الإفرنج وعاداتهم وأحوالهم. مع أنك إذا سألت أحداً منهم عن طعامهم قال لا يستطيعه. أو عن ألحانهم قال لا تطربه. أو عن كرماتهم قال لم تأدبه. أو عن حماماتهم قال لم تعجبه. أو عن هوائهم قال لم يلائمه. أو عن مائهم قال لم يسخ له. فيكون لهجتهم بذكر بلادهم وتنويههم بمحاسنها إنما سببه الفحش. وأنت من يضمن لي طبعك عن الفساد وقد أسمعك كل يوم تُهيم بذكر الرجراة والرضاضة والبضاضة والفضاضة والرجلة والرعوب والعطبول. وهي لعمري ألفاظ تسيل لعاب الحصور وتشهي الناسك. قلت إن هو إلا كلام. قالت أول الحرب كلام. قلت أترين أعدّي عن هذه الصنعة الشائقة، والحرفة العائقة. قالت إن لم تتصور ذاتا بعينها عند الوصف فلا بأس. قلت إن لم أتصور ذاتا لم يخطر ببالي شيء. قالت إذن هو حرام. قلت ما كفارتة. قالت إياي لا غير. قلت ولكن أنت خالية عن بعض الصفات التي لا بد من ذكرها قالت إذا كان الرجل يحب امرأته رأى فيها الحسن كله ونظر من كل شعرة منها امرأة جميلة كما أنه إذا أحب امرأة غيرها أحب لأجلها بلادها وهواءها وماءها ولسان قومها وعاداتهم وأطوارهم. قلت أو كذلك المرأة إذا أحب رجلاً. قالت هو في النساء أكثر لأنهن أوفر حبا ووجداً. قلت ما سبب ذلك. قالت لأن الرجال يتشاغلون بما ليس يعينهم. فترى واحداً منهم يطلب الولاية وآخر السيادة وآخر البحث في الأديان وفي ما غمض من السفليات والعلويات. والنساء لا شيء يشغلهن من ذلك. قلت ليتك تشاغلن مثلهم. قالت ليت لي قلبين في شغلنا. قلت أفتنظرين في الحسن كله كما زعمت. قالت أحسن فيك النظر: قلت فلنعد إلى الوداع لا بل فلنعد إلى التشاغل. فإني أريد أن أنهي هذه المسألة قبل أن أفصل من هنا وإلا فتكون لي شاغل الطريق وربما أفسدت شغلي عند القوم فأرجع باللوم عليك وعلى سائر النساء. قالت اعلم إن المرأة تعلم من نفسها إنها زينة هذا الكون كما أن جميع ما فيه إنما خلق لزيئتها لا لزينة الرجل. لا لكونه مستغنياً عنها بذاته أو لكونها هي مفتقرة إليها لتحلو بها في عين الناظر وإذن السامع، بل لعدم جدارة الرجل بها. فإن الزينة نوع من الأخذ والتلقي والاستيعاب والزيادة وهي أحوال أنسب بالمرأة منها بالرجل. وبناء على هذا أي على أن جميع ما في الكون خلق لها بعضه بالتخصيص وبعضه بالفضيل والإيثار. كان من بعض اعتقادها أن نوع الرجل أيضاً مخلوق لها. لا بمعنى إنها تكون زوجة لجميع الرجال. فإن ذلك محال من وجهين. أحدهما إنها لا تطيق ذلك

لأن سرية ذلك اليهودي "على ما ذكر في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة" لم تطق أهل قرية واحدة "هي جبعة" على قتلهم ليلة واحدة. بل ماتت في الصباح وسيدها يحسبها نائمة. وهذه الحكاية ذكرت ردعاً للنساء. والثاني إنه إذا ثبت لامرأة حق في حكر الرجال والاستبداد بهم ثبت الحق الباقي. ولكن بمعنى إنها أهل لأن تعاشر جميع الرجال وتتعرف ما عندهم. فتتلهى من واحد بتملقه ومن آخر بإطراء ومن غيره بمغازلة ومن آخر بمطارحة وما أشبه ذلك. مما لا يمنعها من محبة زوجها والكلف به. لا بل -قال فقلت أتمنى هذه اللابلية فإني أراها ترجمة لداهية من دواهي النساء وعنواناً على مكيدة من مكايدهن. فضحكت وقالت ربّما دلت على الرأي الظنون. غير إني أخشى من أن تأخذك لبيائها شفشفة ورعدة فتأخر عن السفر. أو أن تظن إن هذا دأبي معك. معاذ الله. إني لم أحنك بضمد ولا بغيره. وإنما علمت من النساء لأن النساء لا يكتنن بعضهن عن بعض شيئاً من أمور العشق وأحوال الرجال.

قلت أوجزي فقد قلقت وفرقت وعرقت. قالت أعلم إن بعض النساء لا يتحرّجن من وصال غير بعولتهن لسبيين. الأول لعدم اكتفائهن بالقدر المرتب لهن منهم. فإنهم يعودونهن أولاً على ما يعجزون عن أدائه إليهن آخراً. ولا يخفي أن من النساء المدقم وهي التي تلتهم كل شيء. ومنهن الشفيرة وهي القانعة من البعال بأيسره. ومنهن الضامد وهي التي تتخذ خليلين. ومنهن المطماع وهي التي تُطمع ولا تمكن. ومنهن المريم وهي التي تحب الرجال ولا تفجر وهو خلقي. قال فقلت اللهم أمين. قالت واللاعة وهي التي تغازل ولا تمكنك. والسبب الثاني لاستطلاع أحوال الرجال واختبار الأتبع وغير الأتبع منهم لمجرد العلم كيلاً يفوتهم حال من أحوالهم. ومنهن من تعتقد أن زوجها يخونها عند كل فرصة تسنح له. لما تقرر في عقول النساء إن الرجال لا شغل لهم إلا مغازلتهم ومباغمتهم. فهي على هذا لا تجد سبيلاً للشطح إلا وترّف فيه. اعتقاداً إنها أخذت بثأرها جزماً أي قبل وقته الموقوت. ومع ذلك فلا يحلن عن محبة بعولتهن. بل ربما كان ذلك الشطح أدعى لزيادة حبّهن لهم. قلت لا متعني الله بحب ناشئ عن مد قميه ولا ضمّد. ولكن كيف يكون هذا التخليط أدعى إلى زيادة الحبّ والمرأة إذا ذقت البكبك والعجارم والعجارم والقازح والكباس لم تقتنع بعد ذلك بزوجه حال كونه لا يحول عن الصفة التي فطر عليها. وكذا الرجل أيضاً إذا ذاق الرشوف والرصوف والحزنبل والعضوض والأكبس فإنه يرى زوجته بعد ذلك ناقصة. فضحكت وقالوا كانت هذه الصفات لازمة للمرأة وكان عدم وجودها فيها نقصاً لما كنت تراها في أفراد قليلة من النساء. فإن معظمهن على خلاف ذلك. فأما سبب زيادة الحبة فيما زعمن مع التخليط فهو أن الزوج لطول الفتة بزوجه وضاوته عليها وحالة كون مسّ أحدهما الآخر لا يحدث في جسم الماسّ والممسوس هزة ولا رعشة ولا ربوخية. يمكن له معها المماننة والإمعان والوقوف بخلاف الغريب فإنه

لشدة نهمه ودهشته أو لفرط مرواحة المرأة إياه على العمل. أو لكون الحرام لا يسوغ دائماً مساغ الحلال  
تفوته الصفتان المذكورتان. فاللذة معه جلّها ناشئ عن التصور. أي عن تصور كونه غير زوجها. كما أن  
نغصها مع زوجها جلّه ناشئ عن تصور كونه غير غريب. وإلا فالواقع أن اللذة في الحلال أقوى. غير أن  
التصور له موقع يقرب من الفعل. وبيانه لو اعتقدت رجل مثلاً أن امرأة غير امرأته تبيت معه ثم باتت معه  
امرأته بعينها وهو لا يعلم ذلك كما جرى لسيدنا يعقوب عم. لوجد امرأته تلك الليلة متصفة بجميع  
الصفات التي تصورها في غيرها. وكذا شأن المرأة. فبناء على ما تقدم من اعتقاد المرأة بأن جميع ما في  
الكون من الحسن والزينة والبهجة يناسبها كان تصورها صفات الحسن وتشاغلها به مطلقاً عاماً. غير إنه  
إذا كان لها خاص قريباً منها تناولت ذلك الخاص متناول العام. حتى أنه كثيراً ما يخطئ فكرها واحداً  
منهم بخصوصه. فيتجاذبه اثنان أو ثلاثة حتى تذهل عن الشاغل والأشغل. وهو في الواقع تحوف من اللذة  
كمن يريد أن يشرب من ثلاث قلال يضعها على فيه في وقت واحد. قلت كلامك هذا ينظر إلى قول  
الشاعر:

من الغيد عيني والجمال مفروق

إذا بت مشغول الفؤاد بما ترى

على قائمة أولى به ثم أشبّق

اركّب في وهمي محباً يشوقني

ولكن قد نهيتني آنفاً في التغزل عن تصور ذات بخصوصها وقلت أنه حرام فهلاً قلت بجرميّة هذا أيضاً.  
قالت إنما حرميه ذاك لكونه ذاهباً في الكلام سدى وسرفاً. على أن الغزل كله كيفما كان لا خير فيه ولا  
جدوى. فأما في الفعل من قبل النساء فإنه ينشأ عنه صاحبه الأولاد. ولذلك ترى انف بعضهم كأنف زيد  
وفمه كفهم عمرو وعينيه كعيني بكر. وهو أيضاً جواب لمن قال إن في رؤية الرجل نساء كثيرة مصلحة  
تعود على امرأته لاكتسابه منهن التشمير عند الإياب. بخلاف خروج المرأة فإن التشمير ملازم لها. فأما  
هؤلاء الحمقى الزاعمون أن تصوّر الرجل مؤثر في توزيع الولد فيلزمهم أن لا يروا امرأة أصلاً غير  
نسائهم. لئلا تأتي ذريتهم كلها إناثاً أو في الأقل خنثاءً. وذلك لمناغفة التّصوّر من قبل الأب والأم. وألا  
وإن امرأة لا تستبدل زوجها إلا بالفكر والتخيل لجديرة بأن تكون قبله كل مطرئ. وإن لا يفكر زوجها  
إلا فيها. قلت مقتضى كلامك إن النساء المقصورات عن رؤية العموم لا لذة لهن مع الخصوص. قالت أما  
بالنسبة إلى ناظرة العموم فلا.

وأما بالنسبة إلى العدم فنعم. فإن الماء مهما يكن سخناً يطفئ النار. قلت وبالعكس أي أن النار مهما تكن  
باردة تسخن الماء. قالت يصح العكس لكن الطرد أولى. قلت إلى كم قسم اللذة. قالت إلى خمسة أقسام.  
الأول تصورها قبل الوقوع. الثاني ذكرها قبله. الثالث حصولها فعلاً بالركنين المذكورين. الرابع تصورها

بعد الوقوع. الخامس ذكرها بعده. وكون لذة التصور قبل الوقوع أقوى أو بعده أقوال. فذهب بعض ألا أن الأولى أقوى. لأن الفعل لما كان غير حاصل كان الفكر فيه أجول وأمعن فلا يقف على حدّ. وزعم آخرون إن الحصول يهيئ للفكر هيئة معلومة وصورة معينة يعتمد عليها في قياس ما يترقب من الإعادة والتكرير. وكما حصل الخلاف في وقتي التصور حصل أيضاً فيه وفي الذكر. والعبرة بحدة التصور وذرب اللسان. فأما اصلح الأزمنة لها فالصيف عند النساء والشتاء عند الرجال. فأما الكمية فمن الناس الموحدون ومنهم المثنوية ومنهم أهل التثليث. قلت ومنهم المعتزلة والمعتطلون. قالت هؤلاء لا خير فيهم. وما هم جديرون بأن يعدّوا مع الناس. قلت ما شأن من يتزوج اثنتين وثلاثاً. قالت هو أمر مغاير للطبع. قلت كيف وقد كانت سنة الأنبياء. قالت هل نحن نبحت الآن في الأديان أو نتكلم في الطبيعيات. إلا ترى أن الذكور من الحيوانات التي قُدّر لها أن تعيش مع إناث كثيرة قدر لها أن تعيش مع إناث كثيرة قُدّر لها أيضاً القدرة على كفايتهن كالديك والعصفور مثلاً. وغيرها إنما يعيش مع واحدة ويكتفي بها. ولما كان الرجل غير قادر على كفاية ثلاث لم يكن أهلاً لأن يحوزهن. وبعد فلائي سبب حُظرت المرأة عنان تنزوج ثلاثة رجال. قلت إن في كثرة النساء للرجل كثرة النسل التي يتوقف عليها عمران الدنيا. وذلك مفقود في كثرة الرجال للمرأة الواحدة. على أي قرأت في بعض الكتب إن هذه العادة لم تزل مستعملة عند بعض الهمج. قالت مه مه أهؤلاء هم الهمج وانتم المتمدنون الكيسيون. فأما دعواك بتكاثر النسل في كثرة النساء فهل سكان الأرض الآن قليلون. ألم تضق بهم البسيطة وتثقل بهم بطونها وبمزق ادبمها. فما الموجب إلى هذا الإكثار سوى البطر والنهم. قلت قد عدت إلى لوم الرجال فلنعد إلى الوداع. أي مسافر عنك اليوم وتارك عندك فؤادي حتى إذا زارك أحد أحسّ به. قالت كيف تحس وما فؤادك معك. والناس يخصّون القلب بالחס والشعور. والحزن والسرور. قلت أن حسي برأسي. قالت من أي جهة. قلت من الجانب الأعلى من الرأس. قالت نعم الشيء إلى جنسه أميل. ولكن أين تتركه. قلت على العتبة كيلاً يخطوها أحد. قالت فإذا طفر فوقها. قلت في الفراش. قالت فإن يكن في غيره. قلت فيك. قالت ذلك أحسن مقراً.

إني أعاهدك على ما كنا عليه من الحب والوداد من أيام السطح إلى الآن. ولكن حين أحسّ واشعر من هنا بأنك تبدلت السطح بالسطح أقابلك بفعل مثل فعلك والبادي أظلم. قلت إنك كثيرة الوسواس شديدة الغيرة. فلعل شعورك يكون عن وسواس. قالت بل الأولى إن الوسواس يكون عن الشعور. قلت دار ما بينا الدور. قالت حاول إذا فكّه. قلت هو فرض فلا بد من قضائه. قالت وقضاء لا بد من فرضه. قلت أيعقد به العهد. قالت إذا عهد به العقد. قلت لا أرضى بهذه الصفة. قالت ومن لي بوصف هذا

الرضى. قلت هل كان العقد في الشرط. قالت كان الشرط بلا عقد. قلت مثلنا مثل ذلك الجنون. قالت لولا الجنون ما جمعنا الزواج: قلت أكثر الناس على هذا. قالت أكثر الناس مجانين. فقلت الحمد لله رب العالمين.

### استرحامات شتى

من كان من طبعه المين والافتراء أو من كان جاهلاً بالنساء ارتاب في هذا الوداع ونسبه إلى ترقيش الشعراء ومبالغتهم. ولكن أي منكر على من جعلت دأبها وديدها وشنشنتها ونشنتها ومُهوأها وهُذيرباها وأهْجورتها وفعلتها ومَطَرَتْها المحاضرة والمفاكهة والمساقطه والمطارحة والمجازرة والمجازرة وسرعة الجواب. بل كثيراً ما كان يجتمع الفاريق اثنان أو ثلاثة من أصحابه فإذا خاضوا في حديث انتدبت لهم وجارتم فيه وعارضتهم وما تنتهم. فكل فصيح أن تعارضه لم يُن وكل بليغ أن تساجله يرتك. وقد علم بالتجربة أن جواب المرأة أسرع من جواب الرجل. وأن المشتغل بالعلم يكون أبطأ جواباً من غير المشتغل به. لأنه لا يقدم على ذلك إلا بعد الفكر والروية. على أن هذه العبارات التي نقلتها هذه المرأة المبينة من غير قراءة البيان هي دون الأصل بمراحل. فإني لم أقدر في نقل الحركات التي تبدو منها. وعلى أن أصوّر للمطالع عيوناً تغازل وحواجب تشير. وأنفا يرمع. وشفاه ترمع. وخدوداً تتورد. وجيداً يلوي. ويداً تومئ. ونفساً يربو ويخفت. وصوتاً يخفض وينير. وزد عليه مسح المآق إشارة إلى الاستعبار. وتوالي الزفرات رمزاً إلى الحزن والانبهار. والتبلد إيذاناً بالأسف. والتنقل من جنب إلى جنب إعلاناً بالجزع واللهف. وغير ذلك مما يزيد الكلام قوة وبلاغة. وهذه ثاني مرة ندمتني على جهلي صناعة التصوير. والمرة الأولى جهالهن. ويمكن إنني أندم مرة ثالثة.

وهنا ينبغي أن أقف على قدمي منتصباً وأستمح الإجازة من ذوي الأمر والنهي لأن أقول. إنه قد جرت عادة جميع الولاة والملوك ماعدا ملك الإنكليز بان لا يدعوا أحداً يدخل بلادهم أو يخرج منها ما لم يدفع لدواوينهم أو لوكلاتهم المعروفين قدراً من الدراهم بحسب خصب مما لكم. محلها. وذلك بدعوى أن المسافر إذا نزل بلادهم ساعة أو ساعتين فلا بد وأن يرى قصورهم الفسيحة وعساكرهم المنصورة أو خيلهم النجدة ومراكبهم الفاخرة. فيكون كمن يدخل ملهى من الملاهي. إذ ليس يدخلها أحد من دون من الملاهي. إذ ليس يدخلها أحد من دون غرامة. فإن اعتراض أحد بقوله إنا في الملهى نسمع أصوات المغنين والمغنيات وآلات الطرب. ونرى الأنوار المزدهرة والأشكال المتنوعة ووجوه الحسان الناضرة وحركاكن الباهرة. ونضحك حين يضحكن. ونطرب حين يرقصن. ونشغف حباً حين يغازلن فأما في

رؤية إحدى مدنكم فإننا لا نرى شيئاً من ذلك. بل إنما ندخل لكي يغبننا تجاركم فتكون فائدتنا في الدخل قليلة. قالوا قد يتفق وقت قدومكم بلادنا أن تكون عساكرنا قد شرعت في العزف بآلات الطرب فهذا مقابلة في الطرب في الملهى. أما النساء فإننا نأذن لكم في التمتع بكل من أعجبتكم فاجروا وراء من شئتم بحيث يكون النقد على الحافز. ومع ذلك فلا ينبغي أن تشبه مدائننا التي تشرفت بحضرتنا ببعض الملاهي. ولا سيما أن هذه سنة قديمة قد مشت عليها أسلافنا طاب ثراهم. وتقادمت عليها السنون والأحوال حتى لم يعد ممكناً تغييرها. فإن الملك إذا أمر بشيء صار ذلك سنة وحكما ويشهد لذلك قول صاحب الزبور أن يد الرب على قلب الملك. بمعنى أن الملك لا يفكر في شيء إلا ويد الله عاصمة له فيه. هكذا شرح هذه الآية العلماء الربانيون في بلادنا ومن خالفهم فجزأوه الصلب. وبعد فإن الملك إذا أخذ في تغيير العادات وتبديل السنن فرما أفضى ذلك إلى تغييره. فيكون مثله كالديك الذي يبحث في الأرض عن حبة قمح فيثير التراب على رأسه. وصغر ذلك تشبيهاً. فالأولى إذا إقرارا كل شيء في محله. ثم لا فرق بين أن يكون قاصد بلادنا غنياً أو فقيراً. صالحاً باراً أو لصاً فاجراً رجلاً كان أو امرأة. فكلهم ملتزمون بأداء الغرامة وتحمل الغبن -ولكن يا سيدي ومولاي أنا امرأة معسرة قد اضطررت إلى المرور بمدينة السعيدة. لأن زوجي المسكين كان قد قدم إلى بلادكم الملكية ليدبر مصلحة فقضى عليه الله تعالى بالوفاة. فتركت صبية لي في البيت يتضورون جوعاً وجئت لأرى زوجي الميت حالة كونه لا يراني. ومع ذلك فإني أعدت من الحسان اللاتي يحق لهن من أمثالك العناية والإلطف. فكيف التزم بالغرامة فضلاً عن نفقة السفر وفقد زوجي الذي كان لي سنداً - ارجعي من حيث جئت فما هذا وقت الاسترحام. لأن القواعد التي تقرر في دفاتر الملوك لا تقبل التبديل ولا التحريف ولا يستثنى منها شيء - وأنا أيضاً يا مولاي رجلاً فقير رمانى الدهر بصروفه لأمر شاءه الله. فوافيت بلادكم طمعاً في تحصيل وظيفة تقوم بأودي. وما أنا من ذوي التغاوي والفتن ولا من الباحثين في سياسات الملوك وإيالاتهم. فقصارى منيتي تحصيل المعيشة. على إني أعرف شيئاً لا يعرفه أهل بلادكم العامرة فرما كان مقامي فيها مفيداً لدولتكم السعيدة. ولو صدر الأمر العالي بامتحاني واختباري فيما ادّعيه لأكرمتهم مثواي فضلاً عن الرخصة لي في دخول بغير غرامة - يا طائف يا عسس يا زبينية يا جلواز يا شرطي يا عون يا ذبي يا مسحل يا فارغ يا قليع يا تورور يا ثورور يا أثرو يا تترور أودع هذا السجن. إن هو إلا جاسوس قدم يتجسس - بلادنا. وفتشوه عسى أن تجدوا معه أوراقا تكشف لنا عن خبره - وأنا كذلك يا مولاي وسيدي غليتم مسيكين قد جئت لا نظر أبي إذ بلغني إنه كان قادماً من سفره فدخل بلادكم فأصابه هواؤها الحميد. بمرض شديد منعه من الحركة. فلما علمت أمي بمرضه أيضاً مما شملها من الحزن والكرب لطول غيابه بعثتني إليه لعلني أخدمه وأمرضه فيطيب خاطره برؤيتي ويخف ما به. فإن رؤية الأب أبه حال مرضه تقوم له مقام الدواء - ما نحن بمرضى الأولاد



ولا بلادنا مكتب لهم حتى يأتوا إليها ويخرجوا منها من دون غرامة. أذهب وكن رجلاً بأدائها على الفور - وأنا أيضاً يا عتادي وملاذي. وثمالي ومعاذي. وملجأى وملتحدي. وسندي ومعتمدي. وركحي وركني. وعزي وأمني. رجل من الشعراء الأدباء كنت قد مدحت بعض أمرائنا بقصيدة فأجازني عليها مائة دينار. فاشتريت بنصفها مؤونة لعيالي. ووفيت بربعها ما كنت استدنته لكسوتهم وبقي معي ربع. وإذ سمعت بمحاسن مملكتكم الخصية البهيحة وبما فيها من التحف والطرف التي لا توجد في بلادنا رمت أن أسرح ناظري وأنزه خاطري في هذا النعيم أياماً قليلة. عسى أن يخطر ببالي عند رؤيته معاني بديعة ما سبقني إليها أحد فأصوغ منها بادئ مديحة بليغاً في جنابك الرفيع. ومقامك السني. وانتشر الشاء عليك في جميع الأقطار. في الليل والنهار. وأجيد وصف مكارمك في الأسفار - ما أكثر الشعراء الغاوين في بلادنا وما أكثر أقاويلهم وأقل رزقهم. أما أن تدفع الغرامة وأما أن ترجع على عقبك وأما أن تؤويك إلى دار المجانين. ولكن هيهات أن تشرف مسامع المسترحم الحقيير من سيده الجليل الخطير بمثل هذه الأجوبة السلبية. فإن السلب من مقام الكبير منة. وإنما الغالب أن يكون جوابه برغم الأنف أو بالقفد. أو باللکم على الخرطوم. أو بهشم سن. أو بقر بطن أو بطنان ساق. أو بانتقاض ظهر. ولهذا لما عزم الفاريق وكان ممن لا يستغني عن أحد أعضائه التمس من خمسة قناصل أن يشرفوا جوازه بختومهم. فحتم عليه كل من قنصل نابلي وليكوره ومدينة أخرى في مملكة البابا وقنصل جنوا وفرنسا لأن سفينة النار تمر على مراسي هذه المدن كلها وترسي فيها بعض ساعات. أما مدينة نابلي فهي مشهورة بكثرة ما فيها من العجلات والمراكب والحدائق والغياض. وأما ليكوره فبطيب هوائها وارتفاع بنائها وكذلك مدينة جنوا قال وهي عندي أحسن منهما. وأنحس ما يكون مدينة البابا إذ ليس عليها رونق الملک ولا الملكوت وما بها شيء يقرُّ العين.

فلما وصل الفاريق إلى مرسيلية أخذ صندوقه إلى ديوان المكس وأشير إليه أن يتبعه. ثم طلب منه المكاسون أن يفتحوه ليفتشوه فظن أنهم يريدون أن يفتشوا في كرايسي ليعلموا ما فيها فقال. أنا ما هجوت سلطانكم ولا مطرانكم فلم تفتشون في كرايسي. فلم يفهمه أحد منهم وهو لم يفهم أحداً. فلما فرغوا أشاروا إليه أن أقفل صندوقك فثلج صدره. ثم أنبري واحد منهم يمسح بيديه على جنبه فظن أنه يتمسح به أي يتبرک لكونه وجد كرايسه بخط غريب. لكنه علم من بعد ذلك أنهم كانوا يفتشونه ليعلموا هل كان مدحراً من التبغ والمسكر.

ثم سافر من مرسيلية إلى باريس ففتش أيضاً هو وصندوقه في ديوان مكسها. فكان مكاسي هذه المدينة كما يحسبون أن رفاقهم في تلك قد ناموا عن قيام الليل. فبال الشيطان في آذانهم. فعمشت عيونهم عن

رؤية ما في الصندوق. أو أنهم يرتشون كسائر أصحاب الوظائف. فأقام في باريس ثلاثة أيام في داره سفارة الدولة العلمية وفيها حظي بتقريب أيدي الوزيرين المعظمين والمشيرين المفخمين رشيد باشا وسامي باشا.

## شروط الرواية

لم يمض على الفاريق في مدى عمره مدة هي أنحس وأشقى من المدة التي قضاها في تلك القرية. لأن قرى بلاد الإنكليز ليس فيها من محل لهو واجتماع وأنس وحظ البتة. وإنما اللهو والحظ في المدن الكبيرة. وفضلاً عن ذلك فليس في القرى شيء يباع للمأكل والمشرب سوى ما لا احتفال به. ومن كان عنده دجاجة أو طرفة بعث بها إلى إحدى المدن القريبة. فمن شاء أن ينقطع عن الدنيا أو يترهب فعليه بها. أما النساء هناك ففيهن من تشفي من القمة بل تمني بالقرم. إلا أن الغريب محروم منهن. إذ كل ذات ظلف ملازمة لفحلها فليس من سائب مبهل إلا العجائز.

ثم بعد مضي شهرين عليه وهو على هذه الحالة المشؤومة أنتقل إلى مدينة كامبردج مصدر القسوسة وعلم الكلام. فإن جل قسيسي الإنكليز يمحزون إليها أو إلى أكسفورد ليتعلموا فيها الإلهيات والمناظرة. وفي هاتين المدينتين أيضاً سائر طلاب العلم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم. ومن إحدى مدارس كامبردج نبغ نيوتون الفيلسوف المشهور. فاكتري الفاريق فيها مسكنين في دار كما هي العادة ومكث يترجم بقية الكتاب الذي مرّت الإشارة إليه سابقاً.

وكان في تلك الدار جارية دعجاء كاعب وكذا سائر الوصائف غالباً. فكان الفاريق يراها كل ليلة تطلع إلى غرفة أحد السكان ثم بعد هنيهة ليست بأطول من قولك عمت مساء يسمع لها نغمة إيغافية. وكانت صاحبة المنزل تراها نازلة من عند الرجل في الساعة العاشرة ونحوها من الليل ولا تكثرت بطلووعها ولا بتزولها. فإذا جاءت في الصباح لتصلح فراش الفاريق حملق فيها وحدق فلم يرَ علامة تدل على أنها كانت هي صاحبة النغمة. فيظن أن ذلك كان وهماً منه نشأ عن اللهج بالإيغاف. فإذا جاء الليل عادت النغمة وعاد اليقين. فإذا كان الصباح عادت الحملقة وعادت التصاون وعاد الشك والحيرة وهلم جرا. حتى كاد ذلك يشوش عقل الفاريق ويفسد عليه الترجمة التي طالما كان يخشى عليها الخلل والفساد من قضية ما نسائية. وهنا ينبغي أن أقرفص وأقول.

إن هذه المزية السنورية أي الأكل خفوة وأن يكن وجودها ملحوظاً في النساء على الأعم إلا أنها في نساء الإنكليز على الأخص. فإن المتصفة منهن بما اتصفت به السيدة المدقم في فصل حد نبدي تتظاهر في النهار

بصفات الورع والتقوى والنفورية والقذورية وتنظر إلى تبعها نظر المتجاهل. وتوهم الناقد إنها متبيلة معترلة للرجال. وربما حفظت أحاديث دينية وروايات نسكية تلقى عليها على الناس فيعظمونها ويعتقدون فيها الصلاح. وإذا دخلت بيتها وجدت على مائدتها التوراة والإنجيل وكتبا أخرى في العبادة والزهد. وربما وسّخت الظاهر من ورقها لتوهم إنها كثيرة الدراسة لها ولا يمكن للرجل أن يذكر بين يديها اسم عضو من أعضائه. فتكون لذة هؤلاء على مقتضى قاعدة الفارياقية غير تامة وذلك لخلوها عن ركن الذكر. وعنهما أيضاً أن ذكر اللذة لا بد من أن يكون مطابقاً للواقع فإن كان الوقوع مثلاً من ذي مقام ليلاً دُكرت فيه لذات مقام. وإن يكن من دون صباحاً ذكرت فيه لدون من النساء. وقس على ذلك سائر التباين في الأوقات والأشخاص. اللهم إلا أن خشي فوات الفرصة. أي إذا حصلت مثلاً ليلاً ولم يمكن ذكرها في الليل فيصح الذكر في الفجر أو الصباح. أو أن حصلت من ذي مقام ولم يتهياً وجود نظيره فيصح ذكرها لدون ولا يفسد لذة الذكر بذلك. فأما على فرض كونها لم تجد أحداً من هذه الأصناف فيصح ذكرها لنفسها. وذلك بأن تدخل رأسها في زير فارغ أو في بئر أو جبّ أو قبوة ونحو ذلك مما له صدى وتنطق بلسان فيصبح مبين بما مرّ لها. حتى إذا رجع الصدى قام لها مقام الندم الكليم. فأما إذا بقي في صدرها فيخشى عليها من الصدارة والذباح. ويشترط أيضاً عندها أن تكون الرواية مطابقة للفعل. فللنبرة نبرة. وللهمز. همزة. وللحركة. وللسكون سكون. وللمد مدّ. وللهذهذ وللترخيم ترخيم. وللترسل ترسل. وإن يبلغ التشديد على الذال إذا كانت الرواية بلغتنا هذه الشريفة. وأن يكون في العينين مغازلة. وفي اللعم فيضان. وفي اللسان بله. وفي اليدين تلقح. وبما تقرّر علمت من أن هذه الخلة المذكورة الموجودة في نساء الإنكليز إخلال بشرط اللذة. ويمكن أن يقال أن لذة التصور عندهن قوية جداً بحيث تقوم مقام لذتين. أو أنهن يضعن رؤوسهن في خابية ونحوها. وعن الفاريق أن الجمال في النساء على اختلاف أنواعه له نطق ونداء ودعاء وإشارة ورمز. فمنه ما يقول لناظره لست أبالي بالمراد. ومنه ما يقول إلا اغتنمت الآن الفرصة - للتأخير آفات - لن تراني من الكثير ملولاً - لا يغرنك الشفون - هيت لك - من لي به الساعة - ما أرى كفايتي عند أحد - أن دواء الشق أن تحوصه - أين أين المشبع - أين أين الغز - أين أين بني أذلغ - لدي يذل الصعب - بعد جهدك لا تلام - لكل مجتهد نصيب - من أطعم أشبع - من ذاق عرف - من مس هرف - من سبق فقد ربح - العود أحمد - من عدّ عاد - من وصل وُصل. ومنه ما يشير أن أستعمل الحيلة - تلتطف في الزيارة - كن من الجار على حذر - من تأني نال ما تمنى - بكر بكور الغراب وغير ذلك.

فجمال نساء الإنكليز هو مما عنوانه أين أين الغز. أين أين المشبع. لدي يذل الصعب. فإنك ترى المرأة

منهن تمشي وهي صفوف مترة سامدة مساندة شاردة معبدة شامرة نافرة جافلة جامزة آبرة نافزة نافزة  
معززة سارية عاسجة طامحة جامحة شامخة خانفة مشمة شافنة مُهْطعة مُرشقة منتالعة هابعة متعاطفة متطلقة  
مخرنطمة مستحفزة مجلوذة مجلوطة مذلعة مجرودة مرئدة مسمعة مسبيرة مسبكرة مسمهرة  
مشفزة مسجرة مسجورة متمهلة متمثلة مشمعة مصمعة مقلهفة مزلعة. ومع أن القدرة الخالقية قد  
حصت بآلاء ألا يا سابغة ضافية على ما روت الرواة فإنهن يتخذن لها المرافد ويعظمنها بما تعظيماً يوقف  
المستوفر بحيث يقف كالجابه الحيران. فلا يتماسك عن أن تصطك ساقاه تعجباً وأعظماً لهذا التعظيم. وأن  
تحترق أسنانه ويندلع لسانه. وتنضض لهاته. وتلتوي عنقه. وتنتفخ أوداجه ويحمر حملاقه. ويغان على قلبه  
ويطنى. وتأخذه القشعريرة والرعدة والأفكل والهزة والاضطراب والرجفان والنعشان والغشيان والغميان  
والفشيان والنحواء والدوار والميدان واللبم والأختلاخ والترنج والارتعاج والارتعاش والارتعاش والرغس  
والارتعاس والترأد والترجيد والأصيص والبصيص والكصيص والأرض والعُسوم والنفيسي والقل والأرزيز  
والزَمع والزقزقة والشفشفة والصعفة والقرقفة والققفقة. وتهيج به الأخلاط الأربعة فيطلب كل خلط  
عظامة. وتنهال عليه الخواطر والوساوس. وتتجاذبه عوامل الأمان. وتجرضه مجرصات الترة. وتطفره  
حوالج الشهوة. ويميل به ميل التشوق والتلهف على حد قول الشاعر:

علمتك البازل المعروف فانبعثت إليك بي واجفات الشوق والأمل

فبقى حائراً بائراً مبهوتاً مهفوتاً سادراً داهلاً مدهوشاً ذاهلاً. بحيث إذا رجع سالماً إلى منزله يحسب كل  
شاخص فيه عظامة أو ما عَظَمَ بها.

وكان الفاريق إذا خرج وأبصر هذه الروابي الخصيبة عاد إلى مأواه وفي رأسه ألف معنى يشغله. فمما  
أنشده في بعض هذه الفتن.

يا للعجاب وكل عجب فليقل يا للعجاب

ما أن يرى في ذا المكان سوى المرافد من روابي

كلا ولا من غوطة من دون ذياك الجنب

كلا ولا قرموطة تشرى سوى كعب الكعاب

من كل ذات تبهكن تدعو الحصور إلى الدعاب

الشوق يقدم بي وخوف العجز من غلم ناي بي

ماذا يقول الناس عمن خار عن ملء الوطاب

أم كيف تضعف معدة عربي عن قحف العقاب

بمنزلة الحباب	من لي بصُنْبور فأتّرعه
في ليلتي من ذي القباب	من لي بقبّة مرفد
من ذي الالايا في مآبي	من لي يحث ألية
قطم وهذا الداب دابي	هذا العمرك شأن ذي

## فضل النساء

وكما إن نساء تلك البلاد اختصن بهذه المزية كذلك اختصت رجالها بالطافهم الغريب بعد معرفتهم له. فأما قبل المعرفة فإنه إذا حيّى أحداً منهم فما يكون جوابه إلا الشزر والشصر. ولهذا لما سمع أحد طلاب العربية منهم بوجود الفاريق وكان قد قُري عليه حسبه ونشبه أتى ليزوره. وطلب منه أن يذهب معه إلى منزله فيقيم عنده مكرماً معزراً وكان مقامه بعيداً عن كامبردج. فأجابه الفاريق إلى ذلك لأن أهل المدينة على كثرة المدارس عندهم والمعلم هم أشدّ الناس نفوراً من الغريب. ولا سيما إذا كان مخالفاً لهم في الرّي. فكانوا يسخرون من قبعته الحمراء حتى كان كثيراً ما يقتبع في غرفته ولا يخرج منها إلا ليلاً. وقال في ذلك.

رمتي النوى في كمبريج ملازماً	لبيتي نهاراً أن تراني أوباش
فتبعث بي حتى إذا الليل جنّني	خرجت على أمن كأي خفاش

ولأن الكلاب أيضاً كانت تشم فروته وتلازمه. فقال فيها.

ولي فروة تأتي الكلام تشمها	ولم تندفع عنها إذا ما دفعتها
تهرّ علي تمزيق جلدي وجلدها	كأي من آبائها قد صنعتها

ولأن أهل الدار التي نزل فيها كانوا يشاركونه في طعامه ولا يشركونه في لحمهم وشحمهم. فقال فيهم:

ولي عيلة في كمبريج خفيّة	تؤاكلني من حيث ليس عيان
فعهدي باسم الآكلات فلانة	وعهدي باسم الآكلين فلان

ولأنه لم يقدر على أن يجرّد إلى إحدى تلك القبب. فقال فيها:

وما نفع الوثير من الحثايا	وليس عليه وثر إذ تهش
وما نفع الشعار بلا شعار	وحسن الحفش إن لم يلف حفش
وما نفع الحياة بغير حيّ	فنعشك دونه ما عشت نعش

فسارا في سكة الحديد وبلغا المنزل ليلاً وما كاد الفاريق يدخل حجرته التي أعدت له حتى رقصها بهذين البيتين:

الله درب الحديد كم كفل      ربا به والثدي قد رجفت

لو لم يكن غير تلك فائدة      لنا به دون أتوه لكفت

ثم لما قام في الغد رأى المنزل بعيداً عن الدار. فاستعاذ بالله واسترجع وأضرب على ما نفسه. لأن الشكوى ليس لها هؤلاء القوم إذن واعية.

حتى إنه لما شكى يوماً طول غيبته عن زوجته قال له صاحبه بعد أيام قد فرط منك بالأمس كلام فقلت إني مشتاق إلى امرأتي. وكان الأولى أن تقول إلى أولادي. فقال له الفاريق ما المانع من أن يذكر الرجل امرأته كما يذكر ولده. ولولا المرأة لم يكن الولد بل لولا المرأة لم يكن شيء في الدنيا لا دين ولا غيره. قال مه مه قد أفحشت. قال أرغن لما أقول. لولا بنت فرعون لم ينج موسى من الغرق. ولولا موسى لم تكن التوراة. ولولا المرأة لم يمكن ليوشع أن يدخل أرض الموعد ويستولي عليها. ولولا المرأة ما حظي إبراهيم عند ملك مصر ونال منه الصلات والهدايا فتمهد لليهود التزل إلى مصر من بعده. ولولا المرأة لم ينج داود من يد شاول حين أضمر قتله وإن كان ذلك قد تم بحيلة وضع صنم في فراشه. ولولا داود لم يكن الزبور. نعم ولولا المرأة أعني زوجة نابال ما تقوى داود على أعدائه ولولا حيلة بت شبع على داود لم يملك سليمان ابنه ولم يبن هيكل الله بأورشليم. ولولا المرأة لو يولد سيدنا عيسى ولم يذع خبر انبعاثه. ولولا المرأة لم يستتبّ مذهب الإنكليز كما هو اليوم. هذا وأن المصورين عندكم يصوّرون الملائكة بصورة النساء. والشعراء عندكم ما زالوا يتغزلون في المرأة ولولاها لم ينبغ شاعر.

قال أن أراك إلا هائجاً على النساء وكان العرب كلهم على هذه الصفة. قال نعم أنا راموزهم وقطاطهم وكل من ينطق بالضاد يكلف بالضاد. فاطرق ملياً ثم قال لعلكم ارشد من عدل إلى اليم. فقد بلغني أن في بلادكم قوماً مميّين يعدلون عن سواء السبيل إلى مضايق ذميمة وهو أقبح ما يكونوا أقبح من ذلك أن بعض المؤلفين من العرب قد ألفوا في ذلك كتباً وتحلّوا لا يراد أدلة على تفضيل الحرفة الميمية. قال نعم ومن حملتها كتاب عثرت به في خزانة كتب كامبردج ورأيت مكتوباً عليه عنوانه بالإنكليزية كتاب في حقوق الزواج. فكان شاريه لم يفهم مضمونه. ومن اسخف ما ورد من الأدلة على ذلك قول بعضهم:

أنا لست اجزم باللواط ولا الزنا      لكن أقول مقال من قد حررا

إن اللذاعة كلها في أفذر ال      جارين فأختر إن عرفت الأقذرا

وسبب تأليف هذه الكتب من مثل هؤلاء العتالة إما للعينية فإن النساء يعرضن عمن يتلى بذلك. أو للبخل لأن النفقة على المرأة أكثر. أو لقصر اليد عن هصرهن أو لفساد آخر. أما سليم الطبع فلا يميل عن هذا المذهب أصلاً.

ثم أن الفاريق لبث عند صاحبه مدة في خلالها آدب إلى مآدب فاخرة عند بعض الأعيان. ومن عادتهم في الولائم أن تقعد النساء على المائدة مكشوفات الأذرع والصدور بحيث يمكن للنظر أن يرى المفاهر واللبان والبادلة والبهو. وإذا تطالل واشرب وكان حسن الأهطاع رأى اللعوة أيضاً أي آية الحلم. وهي من جملة العادات التي تحمد من وجه وتذم من وجه آخر. حيث كان هذا الكشف مطّرداً للصبايا بل العجائز عند الإفرنج ولاسيما الإنكليز يكتشفن ويتفتن ويتعيلن أكثر الصبايا. ثم قلت الدعوات وكثر قلق الفاريق لأن من نظر إلى سحتته مرة لم يرد أن ينظر إليها مرة أخرى. فرأى الرجوع إلى كامبردج أوفق. فسافر إليها فوجد القبب قد ربت نحو ثلاثة قراريط. وذلك إما لبعد عهده بها أو لكون زيادة قرصة البرد أوجبت ذلك.

وهنا ينبغي ذكر فائدة وهي أن كامبردج واكسفورد لما كانتا مشهورتين بمدارس العلم كما ذكرنا آنفاً وكان جل الطلبة فيهما من الأغنياء وفي كل منهما نحو ألفي طالب. كانت البنات الحسان من قرى الفلاحين المجاورة ينتبن سوق هاتين المدينتين لترويج ما عندهن من الصبي والجمال. فترى فيهما من الجمال الرائع والحسن الباهر مالا تراه في سائر المدن. غير أنه لكل ساقطة لاقطة. فلهذا كانت مشايخنا الطلبة ينظرون إلى من زاد به عدد أهل البلد نظر الهرة التي يؤخذ منها جراًوها. فمن ثم ترحل الفاريق عن هؤلاء السنابير وهراتهم لا سيما وقد ورد في الأمثال إذا دخلت أرض الحُصيب فهورول وأقام في لندن نحو شهر.

### وصف لندن أولندرة عن الفاريق

هاهي ذات التيه والدلال. الخاطرة على الفحول من الرجال. تنظر إليهم شزرا. وتجر أذيالها وشالها جرا. كما قلت من قصيدة

جراً أضاف إلى العميد نحولا

قامت تجر من الدلال ذيو لا

وهي لا ترى لها من بينهم كفؤا. وتجلس منهم سخرية وهزواً ألا فاذكري إن بينهم الأقوى الأقدري. الأسرى الأيسر. الأسرع الأعسر. الأقرش الأقشر. الأصرع الأعصر. الأسرد الأدر. الأرشف الأشفر. الأبرز الأزبر. الذي إذا ضمّ زفر. وإذا شمّ نخر. وإذا هيج زار. أو غمز بدر. وإذا رأى طبلا زمّر. أو ذات

تدهكر دهشر. اذكري أن بينهم عربياً ذا غرام. وهيام وأوام. ومغازلة وبغام. ومداعبة وكعام. وتمشير وانكماش. واندساس في الأعشاش علام نتملقك وأنت معرضة كبرا. ونعدك فتتخذين كلامنا هترا. ألم تعلمي أنا إليك متودّدون. وعلى مثلك متعودون. كم من صعب رُضناه. ومتحكم أرضيناه. وأبي أملناه. وقرم أشبعناه. وجامح استوقفناه وشاك أشكيناه. وعاتب أعتبناه. وكم من متعتة آبت وهي شاكرة. ثم انثت زائرة. ألا لا يغويّتك الشطاط إلى الشطط. والعين إلى الشحط. والعيط إلى اللغط. وصهوبة الشعر. إلى إنكار القدر. وتغليج الثنايا إلى ألت المزايا. وتورد الحدين. إلى احتقار اللجين. وتغليك الكعب. إلى التيه والعجب. وبضاضة البشرة. إلى النهم والشره. وفعومة الساعدين. إلى عنجرة الشفتين. وجدل الساقين. إلى الاستنكاف من مض لناقد عين. وعميد غين. يكفتهما ويتطوق بهما أو يعتم بهما على زنبهما. ويتره زغبهما عن الحلت والتنف. والحصّ والحفّ. وعن مسّ السقف. ألا ولا يضلّتك الجاهض من وراء الازدراء. ولا النافج من أمام إلى منع التحية والسلام. أن لدينا من المزر والفقاع. ما يروي كل مقاع. ويسكر كل ذات قناع. ومن الشواء ما يزيل الخوا. ومن الدينار، ما ينفث في عقد الإزار. فيحلها حلاً. ويبلّها بلاً. فمن البل بلل. ومن الحل حلل. فبحق من أولاك هذه المحاسن. فتنة كل سامع ومعين. إلا ما أحسنت في عشاقك الظنّ. وأقللت لهم من هذا التزليق والفتن. فكلهم إلى وصالك حنّ ومن وصلفك أنّ. وبعدّ. فإن هي إلا مرّة. فإن أحمدت اللقاء فاجعليها عادة وأنت على كل حال حرّة. وإلا فما أكثر طرق هذه المدينة وما أطولها. وما أوفر القادمين إليها. وما أوسع حوانيتها وساحتها. وندحاتها وباحاتها: وحدائقها وغياضها. ومماشيها ورياضها. وما أبهج ملاهيها وملاعبها. وأجرى عجلائها ومراكبها. وما ارحب كنائسها وما احفل مجالسها. وما اعمر مساكنه. وامخر سفائنهما. فاجر فيها حيث يعجبك من هنا ومن هنا. كل امرئ يسعى ليدرك الهنا.

## محاورة

وبعد أن فرغ الفاريق من عمله في هذه المدينة الغاصة بالغواني سافر إلى باريس فأقام فيها ثلاثة أيام لا تكفي لمعرفة وصفها. فلهذا نضرب هنا عن ذكره فإن حق الوصف أن يكون مستوعباً. ثم سافر منها إلى مرسيلية ومنها إلى الجزيرة. وأتاح له الله بفضله العميم أن رأى زوجته في نفس الدار التي غادرها فيها. وقد كان يظن إنها طارت مع عنقاء مغرب أو مع الغنجل وبني بها هذه المرة السادسة. فإن المرة الثانية كانت بعد قدومه من الشام والثالثة بعد رجوعه من تونس والرابعة بعد خروجه من المعتزل مع سامي باشا المفخم والخامسة بعد رجوعها من مصر. ثم أنشد:

ينكح أزواجاً عديدة

من يُرد في زوجه



فقلت لكن المرأة لا ترى من زوجها بعد إيباه عرساً جديدة. قال فقلت إنما هو من مخالفتهن الرجال في كل شيء قالت نعم ولولا هذا الخلاف ما حصل الوفاق. قلت كيف يكون عن الخلاف وفاق؟ قالت كما أن المرأة خلقت مخالفة للرجل في الخلق كذلك كان خلافها له في الخلق. وكل من هذين الخلافيين باعث له على شدة الكلف بها والحرص عليها. إلا ترى أن المرأة إذا كانت تفعل كل ما يريد زوجها أن تفعله كانت كالألة بين يديه فلا يكثر بها ولا يقبل عليها إنما موقوفة على حركة يده أو عينه أو لسانه زيادة على حركة يده في الآلة. بخلاف ما إذا عرف منها المخالفة والاستبداد بأمرها فإنه يح بها ويداريها. قلت هذا غير ما عهد عند الناس. قالت بل هو معهود عند النساء من القديم. ولذلك تراهن جميعهن متحليات بهذه الحلية. قلت ولكن إذا كثر الخلاف وطال أورث التقاطع والملال. قالت أن عيني المرأة لا تبرحان ناظرتين أو حقهما أن تكونا ناظرتين إلى موضعي القطع والوصل. وإلا استطال أحدهما على الآخر فوقع ما قلت. قلت بل في دوام الوصل دوام الوفاق. قالت لا بل هو باعث على السامة والضجر. فإن الإنسان مطبوع على ذلك. قلت أي سامة من وصل الحبيب. قالت السامة غالبية على الإنسان في كل شيء بحيث يود تبديل حالته الحسنى بحالة سوءى. قلت أو قد سئمت من حالتك هذه. قالت ثم حلت عن السامة قلت ما بال الناس كلهم يقولون يا قرة العين. قالت نعم إن العين تقرّ بشيء ريشما يعنّ لها آخر فتطرف إليه. قلت وما شأن القلب قالت هو متقلب ومتحيز معها. قلت فما شأن العميان. قالت أن لهم في بصائرهم عيوناً أشد حملقة من العين الباصرة. قلت من أسرع الناس تقلب قلب. قالت أكثرهم فكرا فإن العجماوات اثبت واصبر من الناس إذ ليس لها فكر. قلت فإذا ينشأ عن النفع ضرر. قالت نعم كما إنه ينشأ عن الضرر نفع: قلت أي نفع في المرض. قالت سكون العقل والدم والفكر عن الهوى والشهوات. قلت أي نفع في الفقر. قالت الكف عن الشراهة والسرف المهلكين. فإن الذين يموتون من زيادة الأكل والشرب أكثر من الذين يموتون لقلتهما. قلت أي نفع في الزواج بامرأة دميمة. قالت كف رجل جارك عن دارك وصرف عين أميرك عن مراقبة حالك. على أنها لا تعدم طالباً مثلها ولكن بعض الشر أهون من بعض. قلت أي نفع في دمامة الأولاد قالت إذا علموا ذلك من أنفسهم رغبوا عن اللهو إلى العلم واقبلوا على تحسين خلقهم ليشفع في خلقهم. قلت وأي نفع من مشيب أعلى الإنسان قبل أسفله مع أن شعر الأسفل ينبت قبل شعر الأعلى. قالت أشعاره بأن الحيوانية المطلقة أقوى فيه من الحيوانية المقيدة. ولذلك كان أول ما يشيب فيه رأسه الذي هو محل الناطقية. وأقوى ما يحس منه باللذة

أسفله. قلت وما نتيجة ذلك قالت إقلاله من الفكر. قلت وما الفائدة في كونه يعوز إلى أوقية من اللحم يملأ بها وجهه فيجد رطلاً في عجزه. قالت هو من النوع الأول. قلت كأنك تقولين أن الرجل لم يخلق إلا لأجل المرأة. قالت نعم كما أن المرأة لم تخلق إلا للرجل. قلت أي نفع في تحنّ الأسنان. قالت الأكل على هينة فيمرؤ الطعام. قلت أي نفع في تعميش العينين. قالت عدم رؤية الحسان ليلاً فإنهن أروع فيه وافتن. قلت وأي نفع في العرج. قالت الراحة من الجري وراء القرصافة الزقزاقة. قلت أي نفع في السدة. قالت الدهول عن العقبة. قلت وفي الصمم. قالت عن الرمم. قلت وفي الجهل. قالت توفر الصحة للبدن والراحة للبال. فإن الجاهل لا يفكر في الأمور الدقيقة المتعبة. فإذا نام أهنأه النوم وإذا طعم شيئاً امرأة. لأكدابك في الهنيمة أناء الليل وأطراف النهار فما اسمع منك إلا تعديد قوافي. وذكر نؤيٍ وأثافي. ودوارس عوافي. وظغائن خوافي. وإذا جلست للطعام أتيت بالكتاب معك فجعلت الصفحة تلو الصفحة. فتأكل لقمة. وتقرأ فقرة. وتكرع من الشراب كربة وتتلو أسطورة. ولذلك - قلت قد فهمت من هذا الاكتفاء عدم الاكتفاء. ولكن كثرة القراءة ينشأ عنها كثرة التصور الباعثة على كثرة التشوق. قالت ولكن كثرة التشوق ينشأ عنها الترويلية أو الزمالقية والمقصود الجحادية للحكية. وقد طالما أحوج وجود الأولى إلى البحث عن وجود الثانية. ولكن دعنا من هذه الملاحك والمغامس.

كيف وجدت مدينة لندن. قلت رأيت فيها النساء أكثر من الرجال وأجمل. قالت لو ذهبت إليها امرأة لرأت بعكس ذلك فإن نساء الإنكليز في هذه الجزيرة لسن حسناً والحسن كله في الرجال. قلت هؤلاء نخبة البلاد انتقتهم الدولة حسناً ليخيفوا العدو في الحرب. قالت بل الأمر بالعكس فإن الجميل لا يخيف وأن يكن عدواً وإنما القبيح هو الذي يخيف. ألا ترى أنهم يقولون رجل باسل ومتبسل أي شجاع وهو في الأصل الكريه المنظر. قلت وقد قالوا أيضاً راعه بمعنى أعجبه وأخافه. قالت المعنى واحد فإنه مأخوذ من الروع أي القلب فرؤية الجميل تصيب القلب بل وسائر الجوارح. ثم قالت وكيف رأيت دكاكينها وأسواقها. قلت أما الدكاكين فملآنه من الخز والحريز والتحف البديعة. قالت هل من هو فيها. قلت فيها نساء بيض حسان. قالت أنا أسألك عن شيء وأنت تخبرني عن غيره. قد عرفت أنك زائع البصر فلن أسألك بعد عن الناس وما أسأل إلا عيني. هذه خصلة فيكم معاشر الرجال إنكم لا ترون في جنسكم حسناً. قلت هي مثل خصلتك معاشر النساء في إنكن لا ترين في جنسكن جمالاً. قد تكافأنا. قالت كيف تكافأنا وبيننا خلاء. قلت كل آت قريب. قالت وكل قريب آت. قلت لا أرضى بهذه الكلية بل قولي بعض القريب. قالت إذا ساغ البعض لم يغصّ بالكل.

ثم قالت اخبرني عن الأسواق فقلت طويلة عريضة واسعة نظيفة كثيرة الأنوار بحيث لا يمكن للرجل أن

ينفرد بامرأة أصلاً. حتى كان الضباب ينجلي بها في الليل أيضاً قالت هو من بعض المنافع الضارة. ألا ليت لي جداً فانظر مرة محاسن هذا المصر من قبل أن أقضي. قلت لا تقنطي فإني أرجو أن نسافر إليها جميعاً بعد مدة. قالت حقق الله لنا هذه الأمنية. فلما أمسى المساء وبات كل منهما ثملاً بذكر لندن على ما مال إليه خاطره قامت في الغداة تقول قد رأيت لندن في المنام وإذا برجالها أكثر من نسائها. وطرقها واسعة كما قلت كثيرة الأنوار. ولكن يمكن للرجل فيها أن ينفرد بامرأة وكأنك إنما تقولت هذا لكيل أسيء فيك الظن. ولكن ما كنت لأصدقك من بعد أن تحققت إنك غير أمين في الرواية الأولى ثم بعد محاورة طويلة باتا تلك الليلة على اسم لندن. فأصبحت تقول: قد حلمت إني اشتريت من أحسن دكاكينها ثوب ديباج أحمر أحمر أحمر. قال إنك لا تزالين لاهجة بهذا اللون وأهل لندن لا يحبونه لا في الحرير ولا في الآدميين. قالت ما سبب ذلك؟ قلت لأن الحمرة في الناس تكون عن كثرة الدم وكثرة الدم مظنة بكثرة الأكل والشرب. وهي دليل على الرغبة والنهم. وإنما يحبون اليلق الأمهق. وكذلك العرب يحبون هذا اللون فقد قال أعظم شعرائهم:

### كبر المقاتنة البياض بصفرة غذاها نمير الحي غير محلل

فقلت إن كان هذا الاستكراه من طرف الرجال فهو لخشية عزة النساء عليهم باللون الأحمر الدال على القوة والنشاط والاشر والبتع والكرع. فيوهمهم ذلك عجزهم عن كفايتهم. وإن يكن من النساء وقد نطقن به فما هو إلا موارد ومغالطة. فإن الإنسان بالطبع يحب اللون الأحمر كما يشاهد ذلك في الأطفال. وناهيك أن الدم الذي هو عنصر الحياة أحمر. قال فقلت ولكن خلاصة الدم وصفوته هو في ذلك اللون الذي يرغب فيه أهل لندن. قالت فهذا هو السبب إذاً. الآن قد حصص الحق وبأن. أما أنا فعلى مذهبي لن احول عنه. وللناس فيما يعشقون مذاهب. فقلت بودي لو كنت أحمر أحمر أحمر حتى تحبيني وإن كنت أحمر أحمر أحمر. قالت وما انتفاعك بالحببة إذا كنت أحمر. وإنما يعود النفع لي في تركك إياي مع الأحمر.

قلت أتزعمين أن العلم يمنع المرأة عن إجراء ما تضره وإن الحمق يمكنها منه. قالت لا والله بل ربما كان في الحمق لها أكثر. فإن الأحمر يلازم امرأته ويظل محملاً فيها والعالم يخلق في كرايسه وكيفما كان فلم ار اسفه ممن يجرّج على امرأته ويلازمها. فإن الرجل كلما اعنت المرأة ونكنك عليها بالملازمة والكنكنة زادت هي في تماديها فلا يردّها شيء عما أرادته سوى حشمتها وحيائها. وأكثر الرجال حمقاً وسخافة من إذا أوجس من زوجته الميل إلى شخص قال لها تزهيداً فيه. أن فلاناً متهتك مستهتر فاحش لا يبالي بما

يقول ويفعل. فإذا حضر مجلس ذوي الأدب فأول ما يفوه به قوله قد راودت فلانة وحببتها وفتنتها. وقد عشقتني وعشقتها. كأنه أي الزوج يحذرهما من الاسترسال إلى هواه مخافة أن تنفضح بين الناس أو أن يقول لها أن فلاناً ورع تقيّ يتقي مغازلة النساء اتقاء الأفاعي كأنه يقول لها أنك إن تعرضت له فيالهي جبهك وندهك وفضحك. فقد تقرر في عقول الرجال أن كل أمر من أمور الدنيا والآخرة يشين عرض المرأة ويهتك حجابها. مع أنه لا شيء يدغدغها مثل سماعها عن رجل أنه مسرف مشط في حال من الأحوال بحيث لا يلحقها منه أذى. فهي والحالة هذه تزيد حرصاً على فتنته لتصرفه عن تلك الحال إليها فيرجع إسراره في محبتها. قال فقلت نعم أن كيد النساء كان عظيماً.

### الطباق والتنظير

الإنسان كما قالت الفارياقية محبوب على السامة والملل. ومتى ظفر بالغرض استحوذ عليه الغرض. وما دام الرجل المتزوج جلس بيته ويسمع من زوجته هات واشتر وجدّد واصلح ودّ لو أنه يكون عزباً ولو راهباً في صومعة فإذا تغرّب عنها ورأى الرجال يمشون مع النساء سواء كن حليلات أو خليلات أنف من الصومعة. وهاج به الشوق إلى أن يكون له امرأة يماشيه مثل أولئك وإن كان مشيهم وقتئذ للتحاكم والتخاصم لدى جناب القاضي. فينبغي للزوج الملازم لكنه والحالة هذه أن لا يزال متصوراً إنه غريب في أرض بعيدة عند أناس يخدعونه ويغبنونه ويهيجونه بمرافدهم أو إن زوجته قد سافرت عنه إلى أناس يعاقرونها المدام ويرقدونها على فرش من ريش النعام. ويغازلونها فتغرلهم. ويباعلونها فتبعلهم. فإذا فعل ذلك هانت عليه نغمات هات واشتر وهذا جدول عن الفاريات يبين فيه الأحوال التي يقول فيها المتزوج: يا ليت ما عندي امرأة إذا تزبرقت وتزبرجت وتزلقت وتبرجت وتعطرت وتبغنجت وقالت له قم بنا إلى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص.

إذا خرج معها وقد نفّجت صدرها وأحكمت مرفدها ثم طفقت تتبازى وتوكوك وتميس وتزوزك وتميل عنقها ورأسها.

إذا مشى معها فرأت نقطة ماء في الطريق فشمرت عن ساقها لتبدو حماتها.

إذا سار معها في يوم ذي ريح وعمدت إلى كشف الثوب عن صدرها وعجزها.

إذا جعلت دأبها أن توقع مندليها أو تربط شراك نعليها ثم تكبّ فتبدي عجيزتها.

إذا جعلت شيئاً في فمها تلوكة وهي ماشية توهم من يعجبها من الفتيان إنها تشير بقبلة أو غمزت أحداً ورمزت ولمزت.

إذا صادفت رجلاً من معارفها في الطريق فطفقت تعاتبه على طول غيابه عنها ثم أمسكت بيده وغمزتها

غمزاً شديداً.

إذا لقيت امرأة في الطريق عليها ديباج نفيس فجعلت تسألها عن سعره وعمن يبيعه.  
إذا صادف أحداً في الطريق فأشارت إليه أن اتبعنا فأخذ يمشي عن يمينها فحولت وجهها عن زوجها  
وجعلت جلّ الكلام مع الزبون.

إذا رجعا إلى البيت وصرّحت له أو عرضت بشراء الديباج ولم يكن عنده دراهم تكفي.  
إذا قالت له وهما على المائدة لتغصصه ما أجمل فلاناً الذي ماشانا وما أطفه وأبرّه وأطرّه وأحرّه وأدرّه.  
إذا بات تلك الليلة وهو تعب موجه الرأس حتى إذا أغفى قليلاً أحسّ بحركة منها في جنبه فقضى دينه  
متكارها.

إذا سكن منزلاً وكان جاره الأدنى منه فتى جميلاً فجعل يتردد عليه بعة الجارية.  
إذا مرض ولزم فراشه وهو يشكو ويتن فلزمت هي الشباك وهي تمكو وتحن.  
إذا جاء وقت الصيف ففتر وفدر وجفر وحصر واسترخت عروقه فأثر أن يبيت وحده.  
إذا عنّ له سفر لا بد منه ولم يمكن له مصاحبة زوجته.  
إذا غاب رجل عن زوجته أو غابت هي عنه فجعلت تكتب له ما تغيره به وتكيده وتقهره.  
إذا قرأ في الكتب أن النساء كلهن خائنات وإن عقولهن في فروجهن.

إذا ركب الضفد فلم يقدر على كفاية عائلته ولم تكن امرأته جميلة لتنفعه.  
إذا جاء من محترفه وقابلته امرأته بالصخب والمشارزة والنقار والضجيج والجوار.  
إذا غاب عن بيته ورجع فوجد فراشه مشوشاً وشعر امرأته مشعثاً بعد أن كانت أصلحتهما قبل خروجه.  
إذا رآها تسارّ الخادم أو الخادمة وتأنس بهما وتتساهل معهما. وتحسن إليهما.  
إذا رآها تتوقف في المشي كلما مرّ بها جميل بدعوى ضيق نعلها أو غيره.  
إذا اضطجعت حتى ينظرها من هو أعلى منها أو أسفل وأشوق ما تكون المرأة ما إذا اضطجعت على  
جنبها.

إذا كانت ذات هوى وضلع مع جيل بخصوصه ولا تزال تلهج بذكره.  
إذا غاب عن بيته ثم رجع فلم يجد امرأته وإذا قرع الباب ولم تفتح له في الحال.  
إذا سمعت آلات الطرب فعدت تترنج وترقص وتقول آه آه آه.  
إذا كانت تسهب مع الفتیان في الكلام وتضحك معهم حتى تقول طيخ طيخ وعيناها إذ ذاك مغزلتان  
ووجنتاهما محمّرتان.

إذا كتبت على قميصها حروفاً أنكرها أو رأى في شفيتها أثر العض والكعام.  
إذا سمعها تذكر أسماء رجال في المنام أو إذا تحالت فذكرت ما كان يعجبه ويرضيه.  
إذا رآها تكره ولده وتلهى عنه وعن أمور البيت بزيتها وترجها.  
إذا قعدت بالشباك لتخيط شيئاً فجعلت تدرز درزة وتنظر منه نظرة حتى جاء عملها فاسداً فاضطرت إلى فتنة وإصلاحه.  
إذا وضعت القدر على النار لتطبخ شيئاً ثم شرعت في الغناء حتى تهوست فنسيت القدر والطبخ فتشيط.  
إذا تمنى أن تكون في المواضع التي يكثر فيها تردد الرجال كفندق وحن ونحوهما.  
إذا كانت تصرّح أو تعرض لزوجها بأنها تحب السمان الطوال من الرجال مثلاً وهو ليس منهم.  
إذا كانت تعيب على زوجها أنه غير متصف بالملثية ولا بالقُمُدية.  
نظرات وظفرات فجاء عملها محكماً من أول وهلة.  
إذا وافى منزله وقت الغداء أو العشاء ساغباً لاغباً فلم يجد شيئاً يأكله لأن زوجته لهيت عن الغداء بتصليح ثيابها زيّها وعن العشاء بلبسها وجلوسها بالشباك لتتظر وينظرها المارون.  
وما أشبه ذلك.  
ويا ليت عندي امرأة إذا سار وحده إلى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص ورأى النساء فيها متزبرات متزبرات الخ.  
إذا سار وحده ورأى من قد نفجت صدرها وأحكمت مرفدها ثم غدت تتبازى وتوكوك الخ.  
إذا مشى وحده فرأى من شمرت عن ساقها عند رؤيتها نقطة ماء في الطريق الخ.  
إذا سار وحده في يوم ذي ريح وأبصر من عمدت إلى كشف الثوب عن صدرها.  
إذا سار وحده فرأى من تكب لتربط شراك نعليها أو تلتقط مندليها فتبدي عجيزتها.  
إذا أبصر من تلوك شيئاً وهي ماشية وحسب ذلك إشارة إليه بقبلة ثم غدت تغمز وترمز وتلمز وتناز وتنفز وتنقر.  
إذا رأى امرأة تعاتب رجلاً على طول غيابه عنها ثم أخذت يده وغمزتها غمزاً شديداً حتى أحمر الغامر وأصفر المغموز أو بالعكس إذا لقي امرأتين تمس أحدهما الأخرى وتلك الملموسة تشير بيدها اللطيفة إلى مكان.  
إذا وجد رجل بين امرأتين أو امرأة بين رجلين ففي الحالة الأولى طلباً للمرازمة وفي الثانية ثقة بالكفاية لأن طعام اثنين يشبع ثلاثة.  
إذا رجع إلى البيت ورأى أن عنده مالاً وليس من تلبس الديباج وتجلس إلى جانبه.

إذا جلس للطعام وحده وجعل يفكر ويقول في نفسه ما أجمل فلانة التي رأيتها تمشي مع فلان وما ألطفها وأترّها وأطرّها وأدرّها.

إذا بات تلك الليلة وهو مستريح ناشط ثم أحسّ بحركة منه فمد يده فجأة على الحائط أو على مسمار أو وتد فدميت.

إذا سكن منزلاً وكانت جارتها فتاة جميلة ولم يمكن له أن يمت إليها بوسيلة الجارية.

إذا رأى جاره مريضاً في الفراش يشكو ويئن وزوجته بجانبه تحنّ وتحنّ.

إذا جاء وقت الشتاء واستدّ وامتد واختد ونبضت عروقه فأثر أن يبيت مع من تنفخ في وجهه.

إذا رأى جاره قد سافر وترك زوجته خبعة طلعة راغية ثاغية.

إذا غاب رجل عن زوجته أو غابت هي عنه فجعلت تكتب له ما تصبره به وتسليه وتمنيه.

إذا سمع عن امرأة أنها لم تحن زوجها وأنها ردت في حبه هدايا عشاق كثيرين.

إذا رأى امرأة جميلة تماشي ولداً لها صغيراً بزيعة فيقع في الأرض فتتهضه بيدها فيكي قليلاً حتى يحمر خداه.

إذا رأى جاره قد آب من محترفه فسمع له ولزوجته رثلاً وزجلاً وهمساً وركراً ومباغمة ثم رَفْشاً.

إذا رجع إلى البيت فائزاً بوطر ووجد فرشه موضوعاً وليس من تملأه شحماً ولحماً ثم رأى في جملة ذخائره خصلة شعر.

إذا رأى امرأة لا تسارّ الخادم ولا الخادمة ولا تبتسم لهما ولا تخلو بأحد منهما.

إذا رأى امرأة تماشي زوجها وطرفها إليه ولا يزعجها من يمرّ بها كائناً ما كان.

إذا رأى امرأة قد اضطرت إلى الاضطجاع وأبت ذلك حياء وحشمة سواء كان ذلك في حضور زوجها أو في غيابه.

إذا كانت المرأة غير ذات ميل وحذل مع أحد وعندها أن زوجها يغنيها عن غيره.

إذا رأى جاره كلما رجع إلى منزله وجد امرأته مقبلة على الشغل ولا يكاد يطرق الباب إلا يُفتح له.

إذا سمع امرأة تقول وقد سمعت آلات الطرب أن صوت ابنها الصغير أشجى منها.

إذا رأى امرأة تكلم الحاضرين كلاً بحسب مقامه ولا يسمع منها طيخ طيخ ولا يبدو في سحتها احمرار ولا اصفرار.

إذا سمع إن امرأة تكتب على قميصها اسم زوجها ولم يُرَ في شفيتها أو خديها أثر ما قط.

إذا بلغه أن جاره يكاعم امرأته ويشاعرها فلا تحلم له ولا يحلم لها.

إذا رأى امرأة تحب ولدها وتحمله ولا تلهي عنه ولا عن بيتها.  
إذا رأى امرأة تخطط لزوجها أو لولدها شيئاً من غير أن تتخلل الدرزات إذا رأى امرأة تضع القدر على النار ولا تلهي عنها فيأتي الطعام. قدياً مشهياً معيناً على ألباه والرقاد.  
إذا كانت تباعد عن المثابة ولا تشتهي أن تدخل في زحام ليقرصها واحد ويغمزها آخر.  
إذا كانت المرأة تقول زوجها أو غيره بأنها لا تحب الطوال من الرجال حاله كون زوجها قصيراً.  
إذا كانت امرأة مفسلة تعففاً وشكت من ملثية زوجها وقمديته.  
إذا وافى منزله وقت الغداء أو العشاء فوجد على مائدته كل ما تشتهي النفس فأكل وشرب وطابت نفسه ثم رأى من شبابه جارتها تلبس ثيابها وتنظر إلى ورائها لتعلم هل الثوب والعجيزة هما كشن وطبقة أو لا.  
وما أشبه ذلك.

### سفر معجل وهينوم عقمي رهبل

وظل الفاريق معالجا للبحر وقد ضاق ذرعاً. إذ لم يحصل من علاجهم فائدة فأصبح يحاول التملص من هذه الحرفة ولا سيما إنه كان مطبوعاً على الملل والجزع. واتفق في غضون ذلك أن سافر إلى فرنسا المولى المعظم أحمد باشا باي والي إيالة تونس المفخم. وفرق على فقراء مرسلية وباريس وغيرهما أموالاً جزيلة شاع ذكرها ثم رجع إلى مقامه. فرأى الفاريق أن يهنئه بقصيدة فنظم القصيدة. وبعث بها على يد من بلغها لجنابه. فلم يشعر بعد أيام إلا وربان السفينة حربية يطرق بابه. فلما دخل واستقر به المجلس قال الفاريق قد بلغت قصيدتك لجناب سيدنا الأكرم. وقد أمرني أن أحملك إليه في البارجة. فلما سمع ذلك استبشر بالفرج من حرفته وقال لعمرى ما كنت احسب إن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه. ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره. ألا فاهزقي يافاريقية المهزاق. واسلقي فما يضرني اليوم اسلاق. ونفجي ما استطعت أن تنفجي. وضرجي وضمجي ودبجي. هذا يوم يعبق فيه المكتنن. ويشق فيه من وهن. ويشمق منه ذو الددن. ويفاز بالغدن. هذا يوم تستحسن فيه الربوخ. ويلقح فيه من ملوخ. وتتم الجلهور والسقلق. وتنجب الشريم ثم العفلق. هلمي فاتخذي مذ اليوم ظيرا. فإني أرى في الزند أيرا.

فقال الربان وقد استعجم عليه الكلام ما هذه اللغة التي يتكلمون بها لعمر الله ما فهمت شيئاً مما قلتكم، أهذا اللسان تحمل في رأسك إلى تونس. وبهذه الألفاظ تخاطب سيدنا وأهل الفضل من رجال دولته. قال لا وإنما هذه لغة اصطللحنا عليها فلا نستعملها إلا نادراً. فقال الربان ينبغي أن تتأهب إلى السفر ولك أن تستصحب أيضاً عائلتك إذا شئت. فإن سيدنا أكرم لا يسوءه ذلك. فتأهب الفاريق هو وعائلته وركبوا



في السفينة وبعد مسير اثني عشر يوماً والرياح مخالفة كما جرت العادة بذلك بلغوا حلق الواد. فأمر المولى المشار إليه بتزولهم في أمير البحر.

وهنا ينبغي أن نلاحظ مزية الكرم التي خص الله تعالى بها جيل العرب دون سائر الأجيال. وذلك أن استدعاء الولي إليه لم يكن لجميع من دبّ ودرج بمثل الفاريق بل كان خاصاً به وحده إلا أنه بلغ مسامحة الكريمة قدوم مادحه بأهله لم يستأ من ذلك ولم يقل ما أقل أدب هذا المدعو وما أصفق وجهه لقدومه علينا مزوياً. ولم يقل لربانه قد خالفت القوانين السياسية والأوامر الملوكية فلنترعن عن كتفيك هذّاب منصبك حتى تكون عبرة لمن أعتبر. بل بقي الربان متشرفاً بهذّابه. والفاريق متمتعاً بأهدابه. وبوّئ أكرم ميوّاً في داره أمير البحر وأجرى عليه الرزق الكريم. والخير العميم. ولو أن أحد أعيان الإفرنج دعا شخصاً وأتاه ذلك الشخص ومعه غير نفسه لجبهه عند اللقاء بل لم يكن ليلقاه قط. لا بل نساؤهنّ لما كان يدعون الفاريق كن يقلن لها أنك أنت المدعوة فقط إشارة إلى عدم إزوائها بخادمتها وطفلها. وليت شعري أين من تكرم من ملوكهم بإرسال بارحة لاستحضار شاعر ولغمره إياه بالمال والهدايا النفيسة. فلعمري أن مادح ملوكهم لا جائزة له من عندهم غير تسفيهه وتفنيده. مع أنهم أشد الخلق حرصاً على أن يشكرهم الناس ويمدحهم. ولكنهم يأنفون من أن يمدحهم شاعر يريد نوالهم فلمن هذا المال الذي يدّخرونه. ولأية داهية من الدواهي يعتدون. وهم الطاعمون الكاسون. الحاسون اللاسون. أم يخشون أن يلّم بهم ضفف أو قشف. أم يحسبون أن صلة الشاعر من السرف. ولهذا أي لكون الكرم مزية خاصة بالعرب لم ينبغ في أمة من الأمم شعراء مفلقون كشعرائهم على اختلاف الأمكنة والأزمنة. وذلك من زمن الجاهلية إلى إنقراض الخلفاء والدولة العربية.

فإن اليونانيين يفتخرون بشاعر واحد وهو أوامبروس Homere والرومانيين بفرجيل Virgilius والitalianين بطاسو Tasso والنمساويين بشلر Schiller والفرنسيين براسين ومولير Racine et Moliere والإنكليز بشكسبير وملطون وبيرون Shakespeare Milton et Byron. فأما شعراء العرب المبرزون على جميع هؤلاء من أن يُعدّوا. بل ربما كان في عهد واحد في زمن الخلفاء مائتا شاعر كلهم بارع فائق. وذلك لأنّ اللهى كما قيل تفتح اللهى. على أنه لا مناسبة بين الشعر العربي وشعرهم. لأنهم لا يلتزمون فيه الروي والفاقية وليس عندهم قصيدة واحدة على قافية واحدة ولا محسنات بدعية مع كثرة الضرورات التي يحشون بها كلامهم. فنظمهم في الحقيقة أقل كلفة من نثرنا المسجّع. وما أحد من الشعراء الأفرنج إستحق أن يكون نديماً للملكه. فغاية ما يصلون إليه من السعادة والحظوة عند ملوكهم إنما هو أن يرخص لهم في إنشاد شعرهم في بعض الملاهي. فأني هوان يلحق جناب الملك المعظم

من اتخاذه نديماً وكليماً. أم يقال أن شعراء الإفرنج كثيرون بحيث لا يمكن لملك أن يختار واحداً منهم على غيره. أروني أين هم هؤلاء الكثيرون على خزنته السعيدة. كم في بلاد الإنكليز الآن من ناثر. وكم في بلاد فرنسا من ناظم. وهنا ينبغي أيضاً أن أضف ملاحظة أخرى فأقول. أنه قلما ينبغ شاعر عربي أو عجمي ويعجب الناس جميعاً. فأن من الشعراء من يجب الكلام الجزل الفخم دون ابتكار المعنى. وبعضهم يعني بالمعاني دون الألفاظ. وبعضهم يتحرى اللفظ الرقيق والعبارات المنسجمة. وبعضهم الغزل وغير ذلك. ولا تكاد تجتمع هذه المزايا في شاعر واحد أو تجتمع عليها أخلاق الناس كلهم. فإن من كان من بني نظري ذبَّ الرياء شحماً لحماً مُخضعاً متصنّداً زير النساء وخبيلهن وشيعهن ونسأهن وحديثهن وطلحهن وطلبهن وخذلن وعلهن ورثوهن وحرّ قوصهن فأقحها إياهن حيث سرن. وكارزا لهن أيان برزن، لاقمه الحماسة ولا منازلة الأقران. فعنده أن قال أمرؤ القيس:

**إذا ما بكى من خلفها انصرفت له      بشق وتحتي شقها لم تحوّل**

أحسن من قول عنتره:

**فطعنته بالرمح ثم علوته      بمهند صافي الحديد مخذم**

ومن يكن عرواً أو حصوراً أو عتولاً مُقطّعاً أو متابداً أو عنكشاً عثيلاً أو صيقماً صمكمكا كيّكا ليس به حمضة إلى العبهرة العجنجرة والعياذ بالله من ذلك. صرف ذهنه إلى الزهديات والحكميات. انتهى.

ثم الفاريق انتقل إلى المدينة وهناك تعرّف بجماعة من أهل الفضل والأدب. منهم من أدبه ومنهم كم أترفه وهناك حظي بتقبيل يد المولى المعظم ونال منه الصلات الوافرة. وسأله وزير الدولة هل تعرف اللغة الفرنسية. قال لا يا سيدي ما عنيت بها. فإني ما كدت أتعلم لسان الإنكليز حتى نسيت من لغتي قدر ما تعلمته منه. فقد قدّر على رأسي أن يسع قدراً معلوماً من العلم فمتى زاد من جهة نقص من أخرى. فلما أخبر زوجته بذلك قالت له ألم أقل لك غير مرة عدّ عن الغزل بالنساء وتعلم هذه اللغة المفيدة وما كنت لترعوي عن هواك. ماذا تريد من الغزل وعندك زافنة. قال فقلت نعم ورافنة. ثم ماذا يفيدك وصف العين بالحوّر ولست منهن تقضي الدهر من وطر. أليس وراءك مني رقيب قريب. قلت بلى والله أي ما خلوت قط بامرأة في الحلم إلا ورأيتك وراءها. حتى كثيراً ما شاهدتك تمزقين ثوبها وتنتفين شعرها ثم تتبوين مكانها وترسلينها فارغة. فقالت الحمد لله على أن ألقى رُعي في قلبك في اليقظة والمنام. قلت قد بدأ لي أن أنتقل من التغزل بالنساء إلى هجوهن فعسى أن أنتقل بذلك إلى حال أحسن. قالت أفعل ما بدأ لك ولكن إياك من أن تدخلني في الجملة. ولكن قف قف لا تذكر النساء لا في النسيب ولا في الهجاء.

فأنك أول ما تذكر اسمهن يدور رأسك وينبض فيك العرق القديم، كلاً ثم كلاً. قلت ولكن في مدح سيدنا الأمير قد ذكرت اسم امرأة. فقالت وقد اتقدت عيناها من الغيظ. من هذه الفاعلة الصانعة. قلت هو اسم عربي. قالت آه هو من ضلالك القديم. ولو كان اسماً عجمياً لقلت الآن واحترقت ديوانك هذا الذي هو عليّ أشد من الضرة لأنك تصرف فيه نصف الليالي. فقلت لكن هذا النصف ليس بمنع من كله. قالت لكن ذاك الكل حق لي وضعفي مثله. قلت صدقت ما خلّق الليل إلا للنساء وما خلّقن هن إلا ليل. قالت سلمت بالأولى ولا أسلم بالثانية. فإن النساء خلّقن للنهار أيضاً. قلت نعم ولكل ساعة منه وليس للرجل هم في الدنيا غير امرأته. قالت الأولى أن تقول اهتمام. قلت في كل اهتمام هم. قالت هذا عند الرجال من فشلهم وليس كذلك عند النساء. قلت هو من خفة عقولهن وثقل نهمهن فإن اللذة تذهلن عن الدين والدنيا معاً. قالت بل هن يجمعن بين الثلاثة في مكان واحد وآن واحد. وأما أنتم فمتى كلفتم بواحدة منها أغلقتكم الأخرى. وهذه من المزايا التي مزّانا بها الباري تعالى عليكم ألا ترى أن المرأة إذا سمعت مثلاً خطيباً جميلاً يخطب في الناس ويزيدهم في الدنيا تلذذت بكلامه وشغفت حباً بجماله وبكت زهداً في العالم. قلت بودي لو كانت النساء يخطبن على المنابر كالرجال قالت لأبكينهم دماً. ولكن هيهات فإن الرجال من أثرهم استبدوا بجميع الأمور المعاشية والمعادية ومرتّب العز والجاه. وحرّموا النساء من أن يشاركنهم فيها. فما كان أبهج الكون وأعمره لو كانت النساء تتولى هذه الرتب. وكما أن الدنيا مؤنثة وكذا السماء والأرض والجنة والحياة والروح والنفس والنبوة والرسالة والسعادة والخطوة والغبطة والعزة والنعمة والرفاهية والأبّهة والعظمة والخطابة والفصاحة والبلاغة والسماحة والشجاعة والفضيلة والمروءة والحقيقة والملة والشرعية والأيالة والولاية والزعامة والرئاسة والحكومة والسياسة والنقابة والنكابة والعرفاة والإمارة والخلافة والوزارة والمملكة والسلطنة وأخص ذلك المحبة واللذة والشهوة. فما كان أجدرها بأن تشرف بالنساء. قلت قد نسيت العفة والحصانة. قالت لم تخطر لي ببال وإلا لذكرتها. قلت ولكن البعال مذكر. قالت أين أنت من المبالغة. قلت والمكهكة. قالت وما المهكهكة. قلت مضاف هكّ هك أي هني هني أي طحز طحز أي فعل فعل. قالت هي أحسن مما تقدم. قلت فتقولي إذاً أخيراً وإلا فهو كفر وخمج. قالت على النساء لا حرج فإن منهن الفرج. قلت نعم للفرج إذا أبصرن ذا فرج. قالت والأرج. قلت والمرج. قالت وهنّ أحقّ بذي برج. قلت وعن نيرج. قالت الجميع بينهما بلج. قلت والثاني عند تعذر الأولى هو الأفلاج. قالت وبه اللسان الهج. ثم عزمنا على الرجوع فسفرهما المولى المشار إليه في سفينة النار.

## الهيئة والأشكال

وبعد أن وصل الفاريق إلى منزله جاءه بعض معارفه وسأله عن سفره. فأسرَّ إليه وعينه ناظرة إلى الباب غرفة زوجته أن النساء اليهود في تونس ما زلن حسناً. وأنه وأن يكن قد أنزل بهذا الجليل مسخ كما تزعم النصرى فإنه إنما نزل بالرجال فقط. فقالت امرأته من وراء الباب ما تقول بل المسخ وقع على النساء. قال حيث قد سمعت بنحوانا ولا يخفى عليك مني خافية فضمي نفسك إلينا لنخوض في هذا الحديث المستجب. قالت أجل أنه ما يخفى عن أذني همهمة. ولا عن عيني سمسة. ثم أنها تصدرت في المجلس وقالت. قد أعجبتني من زي الرجال في تونس أن سراويلهم قصيرة بحيث تظهر سيقانهم. قال فقلت بل زي النساء أعجب وأشوق. فإن الرجال قد يكسون سيقانهم من الجوارب ما يغطيها ومع ذلك فالسراويل تخفي خصوصهم وما يلبها. فأما النساء فسوقهن بادية ولا شيء يستر حقائبهن. فترى المرأة تمشي في أوان الحر وثوبها يشف عما تحته عما من مكَّيب ومقَّيب. ومعقب ومقَّوب. ومكَّعب ومكَّعب. فقالت بودي لو كان زي النساء كهيئة أجسامهن. قلت هذا يكون فاحشاً من وجهين. لأن المتزينة به أن كانت ركراكة عندلة لفاء كانت فتنة للناس وعطَّلت عباد الله عن أعمالهم. وأن كانت دردحة أو رسحاء كانت وباء على الناس وأحجرهم في بيوتهم تطيراً منها. قالت ما سبب كون الرجال في هذا البلد يتزيون بزي كهيئة أجسامهم ولا لوم عليهم ولا محظورة من رؤيتهم. أفكل ما تفعله الرجال يسوغ وما تفعله النساء يغصّ به. لعمري أن هذا الزي أحسن من زي رجال بلادنا.

فإنك ترى من له سراويل منهم بمشي كالشاة للحلب. وكثيراً ما تلتف عليه من قدام ومن خلف فتعوقه عن المشي فضلاً عن الجري. ولو أنه كان مثلاً في محترفه وقال له زارك اليوم في منزلك فتى غسانى فرهد. ولما لم يحبك لبث ينتظرك وما هو الآن هناك -وقد احتفلت به زوجتك وهشت إليه وبشت وهي التي تبطته وأمرت الخادمة بأن تمرض أو تتمارض حتى تنفي عنك الشبهة. إذ أو بعثتها إليك وخلا لهما المكان لراك أمرها واعتقدت أن زيارته لها إنما كانت عن موعد. وإنما هي المقصود بهذه الزيارة لا التشوق إلى رؤية سحتك. وغير ذلك من الكلام الذي يفور به الدم ويتنفخ منه الحمالق. فكيف يمكن له والحالة هذه أن يحفد إلى منزله وبين فخذه ما يذهب به هنا وهناك. ثم ضحكت وقالت نعم ترى منهم من له جبة يمشي ويكنس الأرض بأذيالها فيلصق بها كل ما في الأرض من النجاسة والقذر حتى إذا وافي بيته ملاءه بالرائحة الخبيثة فعلق بزوجه منها ما يرد الطرف عنها وإن كانت عبقة. لأن الرائحة الخبيثة تغلب على الرائحة الطيبة كما يقال. وفضلاً عن ذلك فأن جبه واحدة يعمل منها كثير من هذه التي تلبسها الإفرنج إلى خصوصهم. وليس للرجل إذا لبسها من هيئة ولا شارة فإنها تخفي قوامه كله فلا يرى له خصر ولا

غيره. وما خلق الله الإنسان على هذه الصورة إلا واردة أن تكون ظاهرة كما هي. قلت قد رأيت الإفرنج في بلادهم صيفاً وشتاء فإذا هم يسترون أديبارهم بهذه الجلب المزينة. ولا يمشي أحد منهم في الخارج ظاهر الدبر كما يمشي هؤلاء القوم القليلو الحياء في هذه الجزيرة. قالت والبطون والأفخاذ قلت ظاهرة قالت قد شفيع هذا في ذاك فأما سترهما معاً فشنيع لعمرى أن الناس لم يهتدوا إلى الآن إلى زي حسن يوافق هيئة الجسم ويلائم للعمل وبه شارة. فإن هذه البرنيطة لا تعجيني وليست ملائمة للوجه لا في النساء ولا في الرجال لأنهما أشبه بالقففة أو الزنبيل أو القرطالة أو السلة أو العيبة أو العكم أو المرجونة أو الجوالق أو الحربة أو اللبید أو الجرجة أو الغفر أو الجف أو القفعة أو الجللة أو القشع أو المدارة أو القلع أو الكنف أو القنعب أو المخرف أو القنعب أو الزكية أو الجواء أو القوصرة أو الفود أو التليسة أو الوفيعة أو الجلف أو الخصفة أو الدوخلة أو السفط أو الحفص أو الميضة أو الصنوت. وهذه العمائم دونها في القبح. وهذه الحبر التي تلبسها نساء مصر لا حسن فيها فضلاً عن غلائها. واقبح من ذلك كله هذا الحرام الذي تحزم به الرجال فإنه يملأ الخصر والصدر ويمنع الطعام عن المضغ. واقبح منه هذا الشريط الذي يربطون به سراويلاتهم من تحت ركبهم فإنه يوقف الدم عن سريانه فيا لأرجل. وليس زي نساء الإفرنج حسن إلا كونه ملائماً للمرافد وقد طالما بت مشغولة البال بهذا وحاولت أن أخترع زياً يكون فيه حسن وتشويق وخفة وطلاوة وجلالة مع موافقة هيئة الجسم ما أمكن فلم يفتح الله عليّ إلى الآن وعسى أن يتجه إلى ذلك عن قريب فأكون معدودة من جملة المستنبطين في هذا العصر. قلت وهل لم يخطر ببالك الاقتصاد قط في استنباطك. قالت لا فإن خير المال ما أنفق على المرأة. قلت بل على هذه. الخزانة وأشرت إلى سهوة الكتب. قالت أو تعانق الكتاب في ليلك وتشاعره. قلت أن الرجل حين يشاعر زوجته ليلاً لا تكون متزينة باللباس والحلي بل تكون عريانة عند قوم. وفرجا أو متفضلة أو هلا عند آخرين. فيصدق عليها ما قيل شعر

حتى يفوز بغادة في ليله

يتفخل الإنسان جل نهاره

جهواء مثل التيس تحت ذيله

فإذا أستقر في الفراش بدت له

قالت بل في تبرج المرأة وزينتها نهاراً تشويق وتهيج لزوجها ليلاً. قلت نعم ولجارها أيضاً. قالت بل ولنفسها كذلك. قلت ما فهمت هذا المعنى البديع هل المرأة إذا نظرت إلى زينتها تكرر. قالت لاشك فإن الزينة حسن وكل حسن فإنما يذكر بالحسن. حتى لو نظرت جواداً مطهماً أو متاعاً نفيساً أو شيئاً آخر من زينة السماوات والأرض لكان أول ما يخطر ببالها شخصاً متصفاً بالجمال. قلت فهو إذاً تصور مطلق

غير معين. قالت إن كان الأشوق في العيان. فهو الأسبق إلى الأذهان وإلا فأَي كائن كان. قلت وعلى فرض حضور الزوج وشرط كونه عليه مسحة من الجمال، فهل له خطور بالبال. قالت إذا وفق إلى التمليق والتعريب فقد يخطر ولكن لا بالصفة العينية بل بالصفة المطلقة. قلت قد لحت إلى هذا المعنى سابقاً وفهمته حق فهمه. ولكن أسألك سؤال متحرّر غير ذي ضلع ولا صغا. هلا يجب على المرأة أن تقدم زوجها في الذكر والتصور من حيث أن له المزية والقفّة. وحالة كونه شيخها وأباها وحليها ونفاحها وكميعها وكفيحها وضجيعها وعقيدها وعهيدتها وأكيلها وشريها وجليساها وسميرها وحليفها وعشيرها وأليفها ونجها وضمينها ووليها وكفيلها وكليمها وعنيقها ونديمها وخليطها وعميلها وشريكها وخليها. قالت نعم ورقبيها وسبيها وشغبيها وعقيها وغضيها وكليها ولتيها ووثيها وفحيصها وخصيمها ولزيمها وزحيمها ونبيزها ولقيسها وفقيسها وفقيسها وجاسوسها وعاسوسها وجاروسها ونقوسها وفانوسها وكابوسها وناطورها وناقورها. قلت قد قال مولانا صاحب القاموس دل المرأة ودلالها تدلها على زوجها تريه جرأة عليه في تغنج وتشكل كأنها تخالفه وما بها خلاف. وقال أيضاً تبعلت المرأة أطاعت بعلها أو تزينت له. وفي موضع آخر تقيأت تعرضت لبعليها والقت نفسها عليه "انتهى" فهذا الدليل على إن حركات المرأة كلها ينبغي أن تكون مقصوداً بها الزوج لا غير. قالت لا غرو إن يكون صاحبك قد قيد هذه الحركات بالزواج تفردا بها من عنده. أو أنه تابع بعض أهل اللغة المشفشين على ذلك. فإن الرجال دأبهم أن يدّعوا أن المرأة لم تخلق إلا لإرضاء زوجها وتعليه وتمليقه. وإن اللغة إنما وضعوها استبداداً منهم عن النساء وافتتاتا كما هو دأبهم في غير ذلك. مع أن اللغة أنشئ ولو كانت من وضع النساء وهو الأولى إذ كل إنتاج ووضع لا بد له من ماهية أنثوية لكن وضعن ألفاظاً تدل على من لا يفكر في غير امرأته. وعلى قصر طرف الرجل عن النظر إلى سواها وعلى مرضه لمرضها وزحيره لزحيرها وعلى إلباسه إياها ونضوها من ثيابها. وعلى تمشيطه وإحراز مراطة منه للنظر إليها إذا غاب عنها ساعة ما. وعلى بذل جميع ما تحت يده لرضاها وعلى من يرى زوجته أحسن النساء ومن يزيد حبه لها بازدياد رؤيته لغيرها أو على من يغمض عينيه إذا تعرضت له أخرى أو يغشى عليه أو يكبّ على وجهه أو يأخذ الدوار أو الهیضة. وعلى من يتخذ صورتها فيعم بها حيطانه وكتبه ومتاعه. فتكون مرة قائمة ومرة مضطجعة ومرة مستلقية وأخرى مكبة.

وبعد فقد تركنا لكم اللغة تتصرفون فيها كيفما شئتم فلم لا تتركون لنا خواطرن وأفكارنا وهي ليست من الحركة ولا السكون. فأما دعواك بالمزية والقفّة فإنني أخبرك خبر من لا يجمجم عليك رثاء أو حياء. إنه لا مزية للرجل على المرأة في شيء. إذ ليس من قفّة للرجل إلا وللمرأة مثلها. فأما كفالته إياها فينبغي

أن أقول لك هنا دقيقة قلّ من تنبه لها. وهي انه قد يجتمع مثلاً شخصان في شركة أو دعوة أو زواج ويكون قد تقرّر في بال أحدهما إن له منّة على صاحبه. وذاك الممنون عليه يعتقد باطناً وظاهراً إنه مظلوم. مثال الزواج ما إذا كانت البنت قبل زواجها تهوى شاباً ولم يمكنها أن تتزوج به فتزوجت آخر. فرأت من أفعاله وأطواره ما انكرته، فيخطر ببالها ذلك الذي فاتهما فتقول في نفسها لعله كان مستثنى من هذه الأخلاق. فلو إنني تزوجت به لكنت الآن في اهناً عيش وزوجها يظن إذ ذاك أنه أسدى إليها منة عظيمة بكونه تزوجها بعد أن فاتها خليلها الأول، فكان ينبغي للرجال والنساء أن يمنعوا النظر في أحوال الزواج قبل أن يرتقبوا فيه. وعلى الرجل أن لا يتزوج من كانت تهوى آخر قبله. وعلى المرأة أن لا تتزوج بمن كان يعاف الزواج خوف الإنفاق والإملاق. أو من كان يهوى أخرى وهو أعزب. ومثال الشركة ما إذا كان أحد الشريكين هو الذي قدم رأس المال من عنده وألقى عبء المصلحة على رفيقه، فكل منهما يحسب إنه ذو منة على شريكه. ومثال الدعوة ما إذا دعاك أحد إلى الغداء في العصر وكانت أن تتغذى في الظهر. أو إذا قدم لك من الطعام ما تعافه. فقد ركز في طبع كل إنسان إن يحسب ما يستحسنه هو حسناً عند غيره. أو إذا تكرم عليك وقت الغداء بفديرة وكسيرة وجريعة غير عالم أن المآدب تكبر معدته عند الأدب وتتسع أوعاؤه. أو إذا دعاك إلى منزله وكان بعيداً عن المدينة فلزمك أن تكتري مركباً بما يساوي غذائين وعشائين عنده. أو إذا كنت مثلاً عند أحد أكابر الإفرنج لمصلحة له وعلم أنه قد مضى عليك عدة ساعات من غير أكل فأمر خادمه بأن يقدم لك لهنة من الخبز ومن هذا الجبن اللّخنيّ. وبك إذ ذاك قرم إلى أكل دماغه فأيكما والحالة هذه الممتنّ والممتن عليه. أو أن يكون أحد في خدمة أمير فالمخدوم يعتقد أن خادمه ممنون له لكونه يأخذ ماله. والخادم يرى أن مخدومه هو الممنون لكونه يأخذ منه شبابه وصحته. أو أن يكون أحد قد زار صديقاً له ليسامره وبالزور همّ وقلق فكل من الزائر والزور يحسب إنه متفضل على صاحبه وقس على ذلك المعلم والمتعلم والمادح والمدح والمغني والمغنى له. فمن ثم لا ينبغي للرجل أن يحسب أن مجرد إطعامه المرأة وإلباسه إياها منّة منه عليها. فإن حقوق المرأة أكثر من أن تذكر.

قلت قد لحنت ذلك على طوله وعرضه فقولي لي أي الرجال أحب إلى النساء. قالت أن أقل لك تعربد. قلت قولي لا بأس فإنما هو بساط حديث نُشر فلا يطوى حتى نصل إلى آخره. قالت يوم النشر إذاً. فاعلم إن الكاعب من النساء تحب الغلمان والإحداث بشرط كونهم حسانا. والمُعصر تحب الشبان بالشرط المذكور. وقد تأنس بالكهل اعتقاد أن يكون بها أرق وأعشق. ولكن ذلك لا يسمى محبة لأنه يؤول إلى نفع نفسها. ومن شرط المحبة أن تكون مجردة عن الاستنفاع. ولكن هيهات فإن كل محب إذا تحقق دوام حرمانه من محبوبه وعدم الانتفاع به ملّه بل ربما كرهه فعلى هذا فالحبة عندي لفظ يرادفه الفائدة. فقول

القائل أنا أحب فلانة حقيقة معناه أنا استفيد منها. فأما العانس فتحب الصنفين المذكورين ومن جاوزهما في السن قليلاً بالشرط المذكور. وإما النصف فتحب الثلاثة والكهل أيضاً بذلك الشرط. وأما العجوز فتحب الجميع.

قلت ما قولك في الشوارب. قالت هي زينة الفم كما أن الحواجب هي زينة العيون. قلت وفي اللحى. قالت حلّى الشيوخ. قلت وفي العارضين. قالت بخ بخ هما زينة الناظر والمنظور إليه. قلت أي حسن فيهما وخصوصاً مع حلق الشاربين قالت هما بمنزلة الأكمام للزهر. أو الورق للغصن. أو القطيفة للشوب. أو السياج للحديقة أو الهالة للقمر.

وبينما هما في الكلام وإذا بطارق يطرق الباب ففتح له وإذا برجل معه كتاب من اللجنة المذكورة سابقاً يتضمن استدعاء الفاريق وأهله إليهم. فلما طالع زوجته بذلك كادت تطير فرحا وسرورا. وقالت ما أحلى صباح هذا اليوم وما أيمن شمس. ثم قامت إلى الصندوق فأوعت فيه لوازم السفر ماعدا القاموس. فقال لها الفاريق: رويدك فإن دون هذا السفر أموراً كثيرة. فاقعنفزت وقالت أذكرها لي جملة حتى آلي بنفسى جُلها. قال اطمئي واصبري فإنك قد شوشت عقلي بكلامك الأخير. وأعوذ بالله من أن يكون سبباً في فساد ترجمة الكتاب. فتركته واشتغلت بأمرها. وأنا كذلك اتركه إلى وسواسه في العارضين إذ ليس علي أن أشاركه فيه.

### سفر وتفسير

من جملة ما لزم لهذا للسفر ما عدا القاموس كان هذا الشرط. وهو أن يغيب الفاريق عن الجزيرة عامين وإذا رجع يوظف في وظيفته الأولى. فمن ثم كتب عرضاً للحاكم وأقام ينتظر الجواب. وبعد أيام ورد الجواب بقبول هذا الشرط. فوجد كل شيء ناجزاً للسفر لأن زوجته لم تكن في تلك المدة تمهل شيئاً. فلم يبق عليهما إلا تشريف الجواز بختم القناصل وأداء الغرامة الحتمية الحتمية. إلا إنه بقي محتوم عليه من قنصل ليكورنه. فلما بلغوا مرساها أراد الفاريق أن يدخل البلد فأعترضه صاحب ديوان المكس. فقال له أنا أعطيك هنا ما كان يحق أن أعطيه للقنصل في الجزيرة. قال لا بل تعطي هنا ضعفين فأبى وعزم على الرجوع إلى السفينة. فرآه وزوجته رجل يدير زورقاً فلما علم بقضيتهما قال لهما أنا أدخل بكما البلد بنصف ما طلب منكما هذا المكاس الحرامي. فركبا في زورقه وعرج بهما من مكان خفي حتى دخلا البلد. ثم رجعا إلى السفينة فسارت بهما إلى جينوى ثم إلى مرسلية ثم سافرا إلى باريس. وفيها اجتمع



بمسبو لامرتين الشاعر المشهور في اللغة الفرنسية. وأقاما فيها أياماً تحوفت من الكيس جانباً "فائدة إذا كنت في بلاد فرنسا فلا تتزل خاناً للإنكليز وإذا كنت في بلاد هؤلاء فلا تتزل خاناً لأولئك" ثم سافر إلى لندن المحلوم بها. فلما رأت المدينة وما فيها من التحف العجيبة. والرغائب الغريبة. ومن الأنوار المزدهرة. والحوانيت النضرة. قالت إيه إيه لقد قصرت الأحلام عن اليقظة. نعم الدار هي مقاماً. وحبذا العيش فيها دواماً غير أي رأيت من نساها أمراً بدعاً. قال فقلت الحمد لله على إنك بدأت بالنساء فهو من جد طالع الكتاب الذي يراد ترجمته. ولكن أي بدع هو. قالت كنت أسمعك تحكي عن بعض الأئمة أن عقول النساء في فروعهن. وقد أرى نساء هذه الدنيا الصغرى عقولهن في أدبارهن قلت فسري فلاني لم أفهم ما أردت. قالت إذا كانت المرأة توقع نفسها بين قهاتر الصنعة والفطرة مع الاستهتار. أي أنها تفخم شيئاً بالصنعة وهو في الحلقة غير عظيم المقدار. وتهيج الناس على إكباره والفضل كله للجار. أي إذا كانت تقول بلسان الحال إن لديّ عنصر عصار كالإعصار، لا يجدي معه الاعتصار. وطبلاً فيه زمارة لكل زمار. وصفارة في حالي الشبع والصفار ودناً مقعاراً يحتاج إلى صمام إذ قد مليء إلى الأصمار وزوراء تستدعي بالزيار. وخرتا حريا بالدار. وجحراً أو دحلاً ينحجر فيه الخاذر أي انجحار. وحشة ذات أكوار وأوكار وورباً يأوي إليه من ليس له وجار. ووابة مؤتبة في الليل والنهار. ونقرة ذات تنقير ونقر على ابتدار. وصرف فرث ذات صرير وصرار. وأنقوعة اشتملت على صلة ولا سيما عند الإهجار. وعزلاء لو انحل وكاؤها لمت بالدمار. ووطباً لوفش لا كفهر منه الجواري اكفهرار. وكبيراً يتطايير من نفخة الشرار. وهيفاً إذا هبت في الصيف قال الناس الفرار الفرار. أي إذا كانت خلقت وما تارها أحد فاتخذت لها ترباً وراءها. ليغني غناها. أي إذا جعلت دأبها كله في تنسيم المسطح. وتقبيب المفلطح أي إذا استحتمت الناظرين إليها. وأشارت إليهم أن عندي قعيدة أو نضيدة يقعد عليها. أي إذا رمزت إليهم إن الرّكاز. تحت الجراز أي إذا استحقت المصادع ثم جعلت تمشي وتنظر إلى حقيبتها وتعجب منها ونزهي بها وتنافس فيها وتحرص عليها وترتاح لها وتشوق إليها. فوجدت أخرى تفخرها في ذلك ثم وجدت هذه أيضاً من غلبتها في الاستحقاق فأجدر أن يقال أن عقولهن في الحقائق. هذا معنى ما قالته والجرار عبرت عنه بالقرع، والترب بالردف والحقية بالعدل. ولفظة أي في الأصل. قلت هذه عادة فلا تشاحني في العادات فإن لنسائنا أيضاً عادات كثيرة مكروهة في هذه البلاد. وذلك كالتكحيل والتزجيج والتخضيب والتحنية واليرناة والشمع والتسيير والتوقيف والاعتماس والترقن والترثن والتقفز والتطريف والوشم والتنور والامتهاش والجمش والتحف والنمص والحلت والاستعانة والتفريب والضيق والفرم والإلهاط والاستطابة والتصنيع والتسمين وعقص الشعر وتقليم الأظافر وتدريبها. وكشف الصدر وتحريك الخصر لمن قرصت أو قرزت أو مرصت أو مرزت أو غمزت. والحقي به أيضاً العُقر وبيضة العقر والاختفاض

والإهتجان وغير ذلك.

قال فما كدت أتمّ كلامي هذا الوجيز حتى استشاطت غيظاً وأحرنفشت. ثم قالت لقد أبسلك إلى التهلكة مقولك وفضحك عندي وعند الناس فضولك. من أين علمت أنهن لا يغجنن، إذا خلجن. ولا يرقصن، إذا قرصن. ولا يستعملن الضياق والفرم، إذا كان الفلهم ذا لهم. أو إذا كان قوأبا، ذا بقبة مقببا. أو إذا كان العفلق، يسمع له جلنبلق. والحنق أحب إلى الحق لولا إنك جربت منهن ذلك. قلت هذا أمر شائع مستفيض نبه مشهور منوه به ذو دالة وبثلة وتشير لا يخفى على أحد. فهو كقول القائل السماء فوقنا والأرض تحتنا وهو عند النحاة ليس بكلام أف تغضبين مما لا يصح أن يسمى كلاماً. قالت مالي وللكلام إنما غضي عن الفعل. إنك عندي قوال. وعند غيري فعال. ما هذه صفة المتزوجين. ما هذا شأن المحصنين. يا للعجب أنت لا تستحي أن تطلب. وأنا أستحي أن أطلب. إلا ليت قاضياً يقضي بين الرجل وامرأته حتى يبين للناس كافة من الظالم والمظلوم منا قلت فقولي إذا ليت قاضية. لأن القاضي من حيث كونه والحمد لله ذكراً يحكم للرجل على المرأة. قالت بل الأمر بعكس ذلك فإن القاضي لا يرى الحق إلا للمرأة على الرجل ولا سيما إذا جاشت إليه وأجهشت وكذا كل رجل إلا نفسه قلت لله درك من امرأة خبيرة بأمور الرجال ومن رجل خبير بأحوال النساء. أي على مذهب سيدنا القاضي فأني كنت أحضر خصام رجل وامرأة وأرى الرجل منتوف اللحية مخرق الجيب ما كنت لأنظر إلى المرأة إلا نظر المبري. ولا سيما إذا أجهشت فكنت أود لو أفديها بروحي. ولكن رويدك لا تزئري ولا تزخريولا تجذري ولا تجظري ولا تجزري ولا تقدحري. إني لم يبق لي الآن إلا النظر فأما التفدية فلا حكم لي اليوم على نفسي.

ولكن أخبريني ما هذه الخصلة الغريزية فيكن معاشر النساء. إنكن تبكين وتضحكن أيا شئت من أي شي كان. ونحن معاشر الرجال لا نبكي إلا منكن ولا نضحك إلا لكن ومن أجلكن. قالت سبب ذلك هو كون النساء أرق طبعاً وأكرم خلقاً وأدق فيهما وألطف تخيلاً. وأرأف قلباً وأحنى فؤاداً وألين جانباً وأسرع سمعاً ونظراً. وأنفذ فكراً وأعجل تأثراً. وأخف يداً وأعلق بالدنيا والدين. وأقبل للتلقين وأبدر إلى الرسيس. وألقف للعلق النفيس. قلت مهلاً مهلاً. وأروق بالاً. وبعالاً. قالت وأبلغ حَيلاً. قلت وتعلملاً. قالت وأوفى صلة وغربة قالت وأعجل الطافاً. قلت وإيعافاً. قالت وأكثر ترفقاً. قلت وشبقاً. قالت وأوفر كرمًا. قلت وغلمًا. وقالت وأطول حباً. قلت وقباً. قالت وأبقى وجداً. قلت وزرداً وعصداً. قالت وأشهى عتاباً. قلت وقراباً. قالت وأبدع شمطاً. قلت ولمظاً. قالت وأرحم منطقاً قلت وحمقاً. قالت وأسبق شعوراً. قلت وشغوراً. قالت وأحلى تحدثاً. قلت ورفثاً. قالت وأغرب رثلاً. قلت وعَفلاً.

ثم قلت قد كان حديثك أولاً في الحقائق بما يذهب بصير أيوب. ويتزي المسمود والمنجوف والمنجوب. والآن أخذت في تفضيل النساء على عادتك وفي تعداد محاسنهن وستنتهين إلى كشف المغطى منهن. فهل تريد أن أقدم على صاحبنا مجنوناً أو ذا لم فتفسد ترجمة الكتاب. قالت أن كنت تجن هنا فلا يكون لك في البيت قرصعة كما في الشام. فإن المجانين الذين هم في بيوتهم هناك أكثر من الذين هم في أديار الرهبان. قلت لعل ذلك هو الذي أغراك بهذا التشويق المعذب. فكفّي عن هذا الحديث الملهب المحرب. بحق من أعطاك هذا اللسان الذرب وتأهبي للأشخاص إلى من يكون عنده شغلي.

قالت أليس هو بلندن. قلت لا بل هو في الريف. قالت ويلي على الريف. وعلى الفلاحين من يطيق السفر من هذه المدينة ليسكن بين الهمج فإن الفلاحين في جميع البلاد سواء. قلت ثم نتقل من هنالك إلى مدينة غاصّة بالرجال قالت فيها رجال بلا نساء. قلت بل فيها نساء. وإنما هن قليلات بالنسبة إلى كثرة الرجال. قالت أن القليل من النساء كثير.

ثم إنهما سافراً في غد ذلك اليوم وإذا كانا سائرين في درب الحديد ذكر المنبّه اسم القرية التي يقصداها فلم ينتبه الفاريق لا اشتغال باله بتلك المساجلة. حتى إذا ساراً طويلاً وسأل أحد السكوت عن رحلته قال له قد فاتتك. فخرج ح وهو آسف على غفلته عن تذكير المنبّه. وما بلغوا القرية إلا بعد مشي مسافة طويلة وتعب كثير.

"تنبيه دروب الحديد في بلاد الإنكليز مثل خطوط الكف يسير فيها المسافر إلى أي موضع شاء طويلاً وعرضاً شرقاً وغرباً"

### ترجمة ونصيحة

ثم لبثا في تلك القرية وشرعت الفاريقية في تعلم لسان القوم. فقال لها زوجها ذات يوم أي أريد أن أنصح لك في أمر يختص بتعلم هذه اللغة الجليّة. قالت هات ما عندك فهي لعمرى أول نصيحة خرجت من فمك إلى مسمعي. قال ومن قلبي أيضاً. قالت قل. قال من شأن المبتدئين بعلم اللغات الأجنبية أن يتعلموا بادئ بدء ما يؤول إلى جسم الإنسان من العروق والعضلات والربلات إلى آخره. قالت قد لحنت ما تعنيه فما هذه بنصيحة. قال فقلت سبحان الله خلّق الإنسان من عجل. إنما أريد أن أقول لك أن من شاء أن يتعلم هذه اللغة ينبغي له أولاً أن يتدبّر بأسماء من في السماوات لا بمن على الأرض. فإن القوم يتظاهرون بالتقوى والصلاح. حتى إن البغيّ منهم تجأر وهي مستلقية بالدعاء مرة وبالرفث أخرى. قالت وقد قلقت أو هنا بغايا؟ قلت لا فإن أهل القرى الصغيرة في هذه البلاد يتزوجون كسائر الناس ولا

يمكنهم السفاح. ولكن المراد أن أقول أنهم جميعاً يبدون التورّع. فلا ينبغي الآن والحالة هذه أن تسألني  
الربلات. وستعرفين ذلك كله بعد قليل. بل لا ريب عندي في إنك تعرفينه دون معرفّ محفّظ وذلك  
بطريق الافتخار أو الإلهام. فأن لقنك وحدة ذهنك وقوة قريحتك يسهّل عليك كل أمر عسير. قالت  
لعمرى لو كان مثل هذا الكلام نصيحة لكنت الحكمة أرخص ما يكون. أناشدك الله كم بلغت من  
السنين. قلت ما هذا الاستفهام عقب هذا الكلام. قالت أي فصل هذا الذي نحن فيه. قلت فصل  
الخریف. قالت فالذنب إذاً على الفصل. قلت أترعميني قد حرقت. قالت وإلا هذا القول الذي زحرت  
به وتحسبه نصيحة. قلت افعلي ما بدأ لك فلقد وعظت من لم يتّعظ وزحرت من لم يترجر.  
ثم لما مضت أيام جاءت ذات غداة تقول للفاريق. ألا ما أحسن هذه اللغة موقعاً في السمع وال خاطر وما  
أخفها على اللسان. فلقد حفظت اليوم منها بيبي شعر من دون تكلف غير إني لم أفهم معناهما. فهل لك  
أن توقفي عليه. قال أهلاً بك إليه أن شئت الآن فأبرقي حتى أمطر. قالت أي لُقعة أنت ما عنيت إلا  
المعنى قال فقلت وما المعنى إلا ما عنيت فإني أعلم عين اليقين إنك لم تضمري غيره أنشدني ما حفظت  
فقلت: Up up up thou art wanted She is weary and tormented Do her justice she is hunted By her husband she has fainted

شي إز ويرى أند طرمانتد

أب أب ظاو آرت وانتد

بي هر هز بند شي هز فانند

دُهر جُسُس شي إز هنتد

فقلت أن الشاعر هنا يشكو من شطط امرأة عليه. ولكن لست أدري أية امرأة هي فيقول ما معناه

إذيفتح الثاني لسدّ الأول

تبغي لكاعي سدّ سمّيتها معا

وتظل هائجة إذا لم تفعل

كالإذن أن أحكت تهيج أختها

فتمعّر وجهها غيظاً وقالت ما هو إلا تقوّل منك. فإنكم معاشر الرجال أبداً لهجون بالسدّ. فقلت كما  
أنكن معاشر النساء أبداً لهجات بالفتح. قالت أن القوم لا يقولون هذا الكلام وليس في أشعارهم هجر  
وفحش كما في أشعار العرب قلت أليست أجسامنا وأجسامهم سواء. قالت الكلام هنا على الكلام لا  
على الأجسام. قلت من أين يأتي الفحش إلا من الأجسام. فحيثما وجد الجسم وجد منه الفعل. وحيثما  
وجد الفعل وجد عنه القول. هذا دين سويقت مع أنه كان في درجة هي دون درجة إلا سقف ألف  
مقالة طويلة في الأست. وكذا استرن فإنه كان قسيساً وألف في الجون. فأما جون كليلاند فإنه ألف كتاباً  
في أخبار فاجرة اسمها في. هل جاء فيه من الفحش والجون بما فاق به ابن حجاج وابن أبي عتيق وابن

صريع الدلاء ومؤلف كتاب ألف ليلة وليلة. فمما ذكره عن فحش أهل لندن أن زمرة من أعيانها كانوا قد انشعوا ماخوراً جمعوا فيه عدة زواني. وكان بعضهم يفجر ببعضهن بمرأى من الباقي مناوبة. وأول من نهج طريقة المجون فيما أظن كان ربلي الفرنسي المشهور وهو أيضاً من أهل الكنيسة. قالت ألم تقل لي أنفاً إنهم متلبسون بالورع والتقوى؟ قلت بلى ولم أزل أقول غير إن هذا التلبس قد جرى عندهم مجرى العادة. فإن الملبس عليه يعلم ما أنطوي عليه الملبس. ليت شعري لو أن أحداً لبس مثلاً عشرة أثواب ليوهم الناس إن ليس له قبل ولا دبر أفيخفي علم ذلك الناظر. قلت لا فإذا هم مدهونون بالدهان. قلت نعم هذا النوع ينمي في هذه الأرض كثيراً.

فتأوهت وقالت ويلي على المداهنين. كيف أطيق عشرتهم وأنا كسائر أهل بلاد المشرقية منبسطة النفس واللسان. لا اكتم ما في صدري عن عشيري. قلت إياك وذلك. وإنما ينبغي لك التكتم والتحرز دائماً. وإياك أيضاً والإهراق فإن ضحك القوم أهملات وغت وإهلاس وإهناف وإرتاء وانتداغ وارتاك وزقرقة وهرنفة وانتاغ وهنبصة. وإلا فكوني من التاغيات. قالت كيف تأمرني أن أكون من الطاغيات. وأنت لا تزال تشكو من النساء طراً حتى من العادلات. قلت بل المراد أن تغالي الضحك يقال تغت الجارية - فابتدرتني وقالت يكفي يكفي ما أريد أن تذكر لي الجارية ولا الجارة. قلت نعم وأكلهم نأج وتدلّس وتوجّس وهمّس ومدش وتبرّض وهرمزة ومطع وتذوق وتطعم وتغذم. وشربهم غنّرة. ولماظ وترشف وتزحن وتزنج وترنج وتقنح وترمق وتمقمق وتمزق وتمزق وتممص. ومتى تكلمت يجب أن تغضي طرفك وتخفّضي صوتك وتبدي غاية ما يكون من التزرن والتوقر والتحرز والتحذر. والتظرف والتكيس. والتلطف والتنطس. والتأدب والتخضع. والتعزف والتخشع. والتخفر والتقزز. والتعوذ والتعزز. والتزّه والتقوش. والتمنع والتجهش. والتنسك والتنقع. والتأوّه والتنطع. والتجوب والتذمم. والتخرج والتأثم. والتحنث والتحشم. والتدلّس والتكتم. والتخنث والتأنق. والتودد والتملق. والتحسب والتحري. والتوقي والتحشي. والتوخى والتخشي. والتبري والتذكي. والتحدلق والتحصي. والتوقف والتحمي. والتصلف والتكلف. والتأسف والتلهف. والتجشف والتحنف. والتعفف والتأنف. والتخيف والتخوف. والتنطف والتنظف.

فقالت ويك ويك ما هذا لعلك أتيت بي هذه البلاد لتسبكي وتصوغ مني امرأة أخرى. قلت فديتك فأسمعي ولا يكن كلامك في هذا الفصل من السنة إلا إحقاقاً أي قليلاً. وفي الفصل القابل تريدين عشرين في المائة. وإن حدثك رجل أو امرأة وجب عليك أن تستحسني المحدث وتجبّذه عند ختام كل جملة. وتؤمني له وهيمي أي تقولي له آمين آمين بسلاً بسلاً. وتنعميه أي تقولي نعم نعم. وتبجليه أي

تقولي بجل بجل. وتوجيهه أي تقولي أجل أجل وتبسله أي تقولي بسل بسل. ولا ينبغي لك في يوم الأحد أن تطبخي شيئاً وإنما نأكل مما فضل من يوم السبت بارداً كما تفعل اليهود. لأن الطعام الساخن يسخن الدم ويهيج الحرارة. ولأن سيدنا موسى رجم رجلاً وجد يجمع حطباً في السبت ولا ينبغي لك الحركة في يوم الأحد. آية حركة كانت الحنت ذلك. قالت لحت. قلت لا ولا ترفعي فيه الستائر عن الشبابيك لئلا يراك الناس فيكون ذلك باعثاً أيضاً على الحركة. الحنت هذا أيضاً. قالت وقد لحتته وزكنته. وفهمته ولقنته. وعلمته ودريته. وأدركته ووعيته. ولكن ما سببه وهذا اليوم عندنا يوم الفرح والسرور. والتزاور والحبور. قلت أنهم يموتون فيه لكون سيدنا عيسى أنشر فيه من الموت. ثم أن عليك أن لا تفتري من ذكر يوم السبت أي الأحد. فإن المسمى قد يتغير بتغير اسمه. وذلك بأن تقولي مثلاً ما كان اشرف السبت الماضي وما أجله. من لي بالسبت القابل حتى أخلو فيه مع ري. يا ليت كل يوم فيه ساعة من ساعات السبت أن يوم السبت ليوم عظيم. مهيب كريم. جليل وسيم. كيف كان الناس يعيشون ولا سبت لهم. كم من سبت في السنة. وكم في ساعات السبت من دقائق. وكم في دقائق السبت من ثواني. إلا ما أبهى شمس وقمره. وغلسه وسحره وأزهاره وأطيّاره. وحره وازمهراره.

وإذا أنكرت فعلة من فعالهم فأياك وأن تذكريها لهم. وأطري ما أمكن على عادتهم وأطوارهم ومعالمهم ومشاعرهم وماكلهم ومشاربهم ومآدبهم وملابسهم. وعلى طول أظفارهم وأظفارهن وعلى عظم مرافدهن وعلى تفتيل سوافهن. وعلى المنفش من شعرهن أعني على قُذهن. وعلى كشف أديبارهم للاصطلاء. وكلما رأيت شيئاً في بيوتهم من إناث وغيره فاستحسنيه وأعجبي به فقولي وأنت مدهوشة. آه ما أجمل هذا. آه أجمل ذاك. ما أبهى هؤلاء آه ما أملح تلك إلا ما أذكى مراحيضكم. وأشدى بواليعكم وأنقى مرافقكم. وأنقى مثاعبكم. وأنظف أعتابكم ووصدكم. وأهجم نفقكم وسربكم. فهذه هي الذريعة التي يتذرع بها الغرباء هنا لاستجلاب مودتهم وكب رضاهم. وأعرف كثيرين قد استعملوها ونجحوا بها ثم ينبغي لك إذا دعينا إلى وليمة عند أحد أكابرهم أن تأكلي هنا من قبل أن تذهبي. فإن المدعوين لا يأكلون عند آدبهم حتى يشبعوا ولكن يشبعون حتى يأكلوا. وكما أن أدب الأدب عندنا أن يغضب ضيفه على الأكل ويحلفه برأسه ولحيته وشواربه أن يأكل فخذ دجاجته أو ست كُبيبات أو يلقمه إياها في فمه. كذلك كان أدب الأدب عندهم أن يراعي حركات فم الأكل ويديه ليعلم هل هو سرطم أو ذو لقف ونقف. وكلما تحرك فم أويده على المائدة- قال فابتدرني وقالت وخصر. قلت وكفل بل أي عضو كان. وجب عليك أن تقولي لذي العضو المتحرك أنت مشكور على ذلك. أنت ممدوح. أنت محمود. أنت مفضل. أنت محسن. أنت برّ. أنت ذو منّة وما أشبه ذلك مما يؤذن بضعة المأدوب ولده وحقارته أهوانه ودّله وخساسته وهطرتة وكفره وتسكسه. في مقابلة رفعة الأدب وعظمتته وجلاله وأجته وشرفه وكرمه

وبذخه وعزته. والحذر الحذر من أن تمدي يدك إلى زجاجة الخمر أو إلى جفنة الطعام فتأخذي منهما ما شئت. فإن ذلك يكون انتهاكاً لحرمة المائدة والمجلس والقرية بل وللملكة بأسرها. وإنما ينبغي أن تنتظري من كرم الآدب إن يوعز إليك في ذلك. وإذا قدم لك بضعة من أرنب قد خنق مذ شهر وعلّق فيالهواء حتى انتن فأثني على الأرض التي نشأ فيها جنس هذا الحيوان النفيس وعلى خانقه وطابخه. وإذا رأيت شيخاً ذا وقار وهيبة يخدم عجوزة فلا تنكري ذلك كما أنكروه بعض الشعراء المفرّكين بقوله

ورُبَّ عجوز تحاكي السَّعالي      تشير وتتهي وتأمّر أمراً  
يقابلها شيخها بامتثال      ويسعى لخدمتها مستمراً  
وتقعد تحكي كلاماً سخيلاً      ومستمعوها يقولون سحراً  
تقول بداري كلب وهرّ      وللهرّ ذعر إذا الكلب هراً

ويرقبني الهرّ إن كنت آكل      يُمني ليمني ويُسري ليسري  
وبنتي ليزا تؤاسيه مما      لديها فمنها يلزم حجراً  
وقد كان عندي من قبل جرو      تلون بطناً وصدرًا وظهراً  
وكنت عليه لفي غاية الحر      ص اسقيه ملء كؤوسي دراً  
فجاءت عزيزة قوم إلينا      فرامته مني والعين شكري  
وكان ينام على فخذي      ويلحس رُغفي إذا ما اسبطرا  
وكان فلان أتانِي عام كذا      بُجريّ فما عاش شهراً  
وتسأل أن تنس تاريخ      ذاك النهار المعظم زبداً وعمراً

إلى أن قال.

فأما النساء فمما اختصن      به أكل ما أشبه التين نحراً  
ويأكلن والراح منهن بالجلد      مستترات ويمضغن سرّاً  
وتسمع للشاي قرقرة من      معاهن تحكي هنا قرّاً قرّاً  
وتأخذ في صحنها بالمشكة      قدراً من اللحم يشبه ظفراً  
فتعلكه برهة من زمان      ليماً من بعد أن يتهرّاً  
وزوج المضيف تقول له خذ      عزيزي مما أمامك وزراً

فيشكرها ويقول لقد  
وتجلس تقسم أكل الضيوف  
وفي كل نزر تتال تطأطي  
وإن يك لونان قالت لك اختر  
كان لم يجز بين دينك جمع  
كأنك ناكح أختين تترى  
كثير الفضل منك عليّ ودراً  
فتعطيك من ذاك نزراً فنزوراً  
رأسك رغماً وتشكر شكراً  
نصيبك مما هنا وتحرراً  
كأنك ناكح أختين تترى

فقلت هذا تكليف فوق الطاقة فما أنا بالذائقة عندهم شيئاً ولو كان المنّ والسلوى. قلت ومع ذلك فهم ذوو محامد شهيرة. وفضائل كثيرة. ليست في غيرهم من الإفرنج منها إنجاز الوعد وصدق الوفاء في الحضرة والغيبة. وتوفية أجر من يعمل لهم ومراعاة حرمة أي إكرامه لا أنهم يعفون عن زوجته. قالت لا تتكلف التفسير فما ذلك بشذوذ عن القاعدة.

قلت ومنها إنهم قليلو الكلام كثيرو الفعل. حسنو المعاطاة للأمور بالترتيب والسياسة. والرشد والكياسة. ومن يأت إلى بلادهم فلا يسأل عن جواز ولا إجازة. ولا يهمه أن كان جاره قاضي القضاة أو وزير الوزراء أو شرطياً أو جلوازا. ولا يخاف أن يسكن داراً أو يدخل مثابة فيها بعض الشرطة فيرهقوه بكلام ونحوه مما يكون سبباً في سجنه أو غرامته فكل الناس في الحقوق البشرية عندهم متساوون. هذا وإنهم يحبون الغريب ما خلا أو باشهم. ويشفقون على الفقير ويغيثون المحتاج. ويكرمون ذوي السيادة والمجد ويعرفون قدر ذوي العلم. ويعينون على إدراك العلوم والمعارف في البلاد الأجنبية. وعندهم جمعيات منعقدة لإجراء كل نفع وخير. وإزالة كل شر وضير. وكثير من الأطباء هنا يداوون المرضى مجاناً ما عدا المستشفيات الميثوثة في كل قطر و صقع من بلادهم. ومن يتزل نزلاً لديهم أو يستأجر غرفة في منازلهم فإن صاحبة المنزل تؤانسه وترفق به وتحفه وترفه وتمرضه. وتدعوه إلى مسامرتها ومجالستها من غير أن يستاء زوجها لذلك. وإذا اتفق وقتئذ أن زارها بعض معارفها تعرفهم به وتنوه باسمه. وإنه إذا قدم إلى بلادهم أحد بكتاب توصية احتفل به الموصي إلى منزله وجعل اسمه نصبها عند إخوانه ومعارفه. ولا يدع شيئاً في وسعه إلا ويبدله لراحته ورفاهيته ونخله له الود والنصح حاضراً وغائباً. فرقة وصاة بيد صاحبها تفيزه عندهم بأب وأم وأهل وأخوان. وفي الحملة فإن كفة محامدهم ترجح كفة مذامهم. وليس الكامل إلا الله وحده سبحانه وتعالى. وليس شيء من هذه المزايا الحميدة موجوداً في غيرهم من الإفرنج لأن غيرهم محاحون ملثيون مراوغون، ذوو أيادي مغلولة والسنة مطلقة. فهم ليسوا كل صحابنا في الرشد والاستقامة ولا مثلنا في الأناكس والكرم. قالت قد فهمت هذا كله فينبغي أن نعود إلى تفسير البيتين بشرط أن لا تأتي بشيء من عندك فإني أعرف تزيدك في الكلام. قلت كأنك تقولين إني ذو فضول غير فعول



كما ذكرت ذلك غير مرة. قالت إذا كنت قد الفته فما يضررك الآن وإلاّ فعدها فلتة. قلت دونك تفسيرهما من دون ترتّب.

وأبلغ إربا منها جهدك

قم عجلًا قم سؤلي عندك

يبغي أن يعسلها بعدك

فلقد ضجرت ولها بعل

فقلت أنت قلت إن الشاعر يشكو من امرأة وهامو يشكو من نفسه. وليس المرأة بملمومة على ضجرها في مثل هذه الحال. قلت لمثلئك تلقى مقاليد الشرح. قالت ومنه يرجى تخفيف البرح.

### خواطر فلسفية

ثم لما مضت مدة على الفارياقية في بلاد الفلاحين حيث لا أنس للغريب ولا حظ غير خضرة الأرض عيل صبرها وضاق صدرها وعرتها السامة والقلق. فقلت لزوجها ذات يوم: يا للعجب من هذه الدنيا ومن أحوالها. واعجب ما فيها هذا الحيوان الناطق الماشي على ظهرها كف تمر عليه الليالي والأيام والأمانى تغره. والآمال تشغله وتعلله. وكلما جرى وراءها ليدركها تقدمته وبعدت عنه كظله. وكل يوم يحسب إنه في يومه أعقل منه في أمسه. وإن غده يكون خيراً من يومه.

قد كنت احسب ونحن في الجزيرة أن الإنكليز احسن الناس حالاً. وانعم بالاً. فلما قدمنا بلادهم وعاشرناهم إذا فلاّحوهم أشقى خلق الله. انظر إلى أهل هذه القرى التي حولنا وأمعن النظر فيهم تجدهم لا فرق بينهم وبين الهمج. يذهب الفلاح منهم في الغداة إلى الكد والتعب ثم يأتي بيته مساء فلا يرى أحداً من خلق الله ولا يراه أحد. فيرقد في العشاء ثم ييكر لما كان فيه وهلم جرا. فهو كالألة التي تدور مداراً محتتة فلا في دورانها لها حظ وفوز ولا في وقفها راحة. فإذا جاء يوم الأحد وهو يوم الفرح واللهو في جميع الأقطار لم يكن له حظ سوى الذهاب إلى الكنيسة. فيمكث فيها ساعتين كالصنم يتشاءب ساعة ويرقد أخرى ثم يعود إلى بيته. فليس عندهم مثابة ولا موضع للسمر والطرب. وليست أيضاً عيشة المتمولين في الريف بأنعم من عيشة الفلاحين إذ لا يعرفون من المطاعم غير الشواء وهذا القلقاس. ولكن هيهت أين المتمولون في القرى فإنك لا ترى فيها مثيراً إلا القسيس وخولي الأرض وهو الذي يضمن المزارع والحقول من مالكها. وهما أيضاً بمثابة الفلاحين.

ومع ذلك فإذا دخلت قصور الملوك وطففت في أسواق المدن وعانيت ما فيها من الصنائع البديعة والتحف

العجيبة والآلات الظرفية والفرش النفيس والثياب الفاخرة والأواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن، علمت أن صناعتها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرمون فإن دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة إنه يشقى ويكدّ النهار كله ولا حظ له في الليل سوى إغماض عينيه. فكيف يزين هذا الصنف من الناس هذه الدنيا ويهيجونها ويعمرونها وهم عطل عنها ومحدودون منها. والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء وربما لم يكونوا أيضاً يحسنون الكلام. وإذا كان الناس عباد الله في أرضه على اختلاف أحوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف ما فيه من الأعضاء الجليلة والحقيمة فلم لا يجري العدل بينهم كما يجري بين الأعضاء. فإن الإنسان إذا أكل شيئاً أو لبس شيئاً فإنما يفعل ذلك يفعل ذلك لإصلاح الجسم كله. أم يزعم المثلون إذا وسعوا على هؤلاء الضناك الصعاليك. ونفّسوا عنهم الكرب الذي يكابدونه من جهد المعيشة ومن عدم قدرتهم على تربية أولادهم أنهم يحملونهم على إهمال شغلهم وعلى تركهم الأرض بوراً فتتعطل وتمحل فيهلكون جوعاً فما بال ذي الدولة إذا يولي المبالغ الجسيمة والجوائز الجزيلة لمن يقلده عملاً ويرقيه مرتبة ولا يخاف أن يفسد عليه بكثرة ما يعطيه. لا بل أن الفقير إذا كفاه واليه أو سيده المؤونة وهو شيء بالنسبة إليه هيّن فإنه يؤدي ما يجب عليه من الخدمة والعمل عن طيب نفس. ويدعو له بزيادة الخيرات والبركات بدل ما إنه يبيت الليالي شاجاً يديه بالدعاء عليه لتيقنه إن حقه ضائع عنده وأن هزاله وضواه ذاهب في تسمين غيره. وفي حمله على البطر والعتو واقتناء ما لا تلزم قنيتة من الخيول المطهمة والمراكب النفيسة والأثاث المنضد. فيأكل الغني لقمته والحالة هذه مغموسة بدعاء الفقير عليه. أم يحسبون أن الله تعالى إنما خلق الفقراء لخدمتهم فقط. لعمرى أن حاجة الغني إلى الفقير أشد حاجة الفقير إلى الغني. أم يأنفون من النظر من مقامهم الرفيع السامي إلى ذوي الضعة والحمول خشية أن يسري إليهم من بؤسهم ما يسوءهم. كمن ارتقى شرفاً باذخاً وتحت هوّة عظيمة فهو يأبى من أن يتطأطأ وينظر إليها لئلا يلحقه من ذلك دوار أو غشيان فيهبط من شرفه. ليت شعري هل جرب الأغنياء حيناً من الدهر أن يسعدوا الشقي بمالهم. وينعشوه برفدهم. ثم وجدوه مقابلاً نعمتهم عليه بالكفران والبطالة وإهمال ما فرض عليه من قبل الله والطبيعة. وإنما هو محض وهم دخل في رؤوسهم مع الرحيق فخرج هذا ولم يخرج ذاك. ألا فليمكنوه من أن يذوق لذة العيش ويرى الدنيا كما هي عليه شهراً واحداً في عمره في الأقل أو يوماً في العام حتى يموت راضياً قرير العين. وإذا كانوا يخشون منه الفساد لكسله وتعطله. فخوفهم من فساد نيته لفقره ومن كراهته إياهم أولى. لأن الشقاوة ادعى إلى الفساد من السعادة.

إلا ترى إلى هؤلاء الألوفاً من البنات اللاتي يجرين في أسواق لندن وجميع المدن العامرة بأخلاق من الثياب، كيف يتهافت على الرائحة والغادي رجاء أن ينلن ما يتقوّتن به ويتجملن به من الثياب. ولا سيما

هؤلاء النواشي اللائي لم يبلغن بعد عمر خمس عشرة سنة. فهذا لعمري الاهتجان بعينه. فكيف يعيرون علينا هذه العادة في بلادنا وهي مستعملة عندنا على وجه الحلال وعندهم بالحرام. فلو كنّ مكفيات المؤونة لما فعلن ذلك. لأن البنت في هذا الحدّ من السن لا تكرر إلى الرجال. ولا تبضع للبعال. ولا سيما في البلاد الباردة. ولسلم من كيدهن وتهافتهن جشعاً إلى المال أناس كثيرون جلب عليهم شرهم إليهن مضارّ كثيرة. وماعدا ذلك فإن هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة وأهل الكنيسة يُعنون بتجهيزهن بما يقدرن على الزواج الشرعي بعد تربيتهن وتهذيبهن، لكنّ يلدن الأولاد الصباح فيزين المملكة بإثمار أرحامهن كما تقول التوراة. بخلاف ما إذا بقين على حالة السفاح فما يتولد منهن إلا الخبائث والرذائل. فهن كالشجرة الناضرة التي فضلاً عن كونها لا ثمر تلثى بالسم الناقع لمن تذوقها. وكم لعمري من بنت حبلت أوّل مرّة من مبادئ شوطها في ميدان العهر. ثم أسقطت جنينها خوف الفقر. وأن منهن لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء الباردة لعدم مأوى لها. أو أهما تبيت مع بنت أخرى على فراش واحد وهي عادة مستفيضة في لندن. وذلك لعدم قدرتها على أن تستقل بفراش وكنّ خاصّ بها. فلا تأمن والحالة هذه من أن يلحقها أذى من ضجيعتها ليلاً. نعم أن أولاد الزنا يأتون في الغالب شياظمة جبابرة كيفتاح الجلعاذي الذي حلّ عليه روح الرب فأنقذ إسرائيل من بني عمون. وكوليم الفاتح الذي فتح هذه البلاد أي بلاد الإنجليز. إلا أن النفع الأكثرى مع الاقتصاد والاعتدال أحق بالمراعاة والتقديم من النفع ألا ندرى مع الإسراف والأرغال أليس يعاب صاحب أرض أريضة يغادرها بوراً ومتمرغاً للوحوش. أو صاحب أشجار مثمرة يتركها دون سياج ولا ناطور عرضه لهم كل متفكة.

نعم لا ينكر أن وجود الغني والفقير في الدنيا لا بدّ منه كوجود الجميل والقيبح. ولولا ذلك لوقف الكون عن الحركة وتعطلت المصالح كما أفاده المتكلمون. إلا أن الكلام هنا في الفقر الذي لا يقال فيه أنه عيش مؤدّ إلى الشره والبطر. لا في الفقر المدقع الذي يلقي الهموم والأحزان الدائمة في قلب صاحبه. فيفضي به مرة إلى الانتحار ومرة إلى الإغراق أو الحنق كما شاع فعل ذلك في هذه البلاد. أليس من العار على الرجال في هذه الأرض أرض العلوم والصنائع والتمدن والتحضّر انهم لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان عندها الجهازان. وأقبح من ذلك أن الكبراء هنا لا يتزوجون عن حب بل عن طمع في زيادة المال. فإن من كان دخله مثلاً مائة دينار في كل يوم يريد أن يتزوج من دخلها مائة دينار أيضاً تماماً. ولو كان تسعة وتسعين لم يصح. ولذلك فكثيراً ما ترى شاباً جميلاً قد تزوج نصفاً شوهاء. وهيهات فإن الرجال هنا أكثرهم مصاييف. أي لا يتزوجون إلا إذا دخلوا في حيز الكهول فيقصون شبابهم في السفاح ومن حدّ الثلاثين والأربعين في البحث عن عندها جدة وغنى. وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الاضافة من

عار. مع مراعاة الولد في حق الزوجية من اعظم الأسباب الباعثة على الزواج على ما ذهب إليه الربانيون. وإن يكن توزيع الولد يتم مرة واحدة في مدة تسعة أشهر. أعني أن أولاد النصف الشوهاء لا يأتون صباحاً أصحاباً كأولاد الفتية الجميلة. وفضلاً عن ذلك من تزوج وهو في سن الثلاثين سنة مثلاً امرأة في سن ثماني عشرة فمتى بلغ الخمسين وكانت امرأته بعد لفوتاً متلعجة كان له من ولده رقيب عليها. فلا شيء زيادة المال لمن أغناه الله بفضله. ومن يكن له في كل يوم مائة دينار فما الفرق بينه وبين من له خمسون أو عشرون. فإن من لم يكتف بهذا القدر لم يكفه ملء الأرض ذهباً. هذا وإن المرأة إذا كانت غنية فلا بد وأن يتبع غناها عناء. لأنها تتعمد حِجِّ الولايم والمآذب والمحافل وأن تزور وأن تزار. وأن تتخذ لها من الخدام من تقرر عينها بترارته وبضاضته.. وكلما اختلج منها عضو تمارضت وتوحمت على السفر أو الأرافة. وهناك حالة كون زوجها فائر الدماغ بالأمر السباسب أو البواعث المالية ي مقره تخلو بمن تخلو وتلهو بمن تلهو. وببد خادمها من الدينار ما يعمي عينيه ويصم أذنه ويقطع لسانه. أليس هؤلاء الأغنياء يُمنون بالأمراض والأدواء كالفقراء. أليس الموت يفاجئهم وهم في غمرة لذائهم منهمكون. وإن كثيراً منهم لسرفهم ورغبتهم ونهمهم وفسادهم واستهتارهم في الشهوات يموت عن غير ولد. أو أنه إذا رزق ولداً يعيش ما عاش ضاواياً نحيفاً شقوة له وكمداً على أبويه. وقد قال أحد مؤلفيهم أن من ترى من أولاد الأعيان والأمراء هنا تاراً قوياً فإنما هو من إلقاح بعض الحشم. وترى أولاد الفلاحين صباحاً أقوياء الرطب واليابس. ولعمري لو لم يكن لهم هذا الجزاء من الله تعالى أي رؤية أولادهم حولهم معافين محبين لكانوا في عداد الموتى.

كيف بُني هذا العالم على الفساد. كيف يشقى فيه ألف رجل بل ألفان ليسعد رجل واحد. وأي رجل. فقد يكون له قلب ولا رحمة. ويدان ولا عمل. ورأس ولا رشد ولا نهية. وكيف يقع هذا في البلاد التي ضربت بعدها الأمثال. لا جرم أن فلاح بلادنا اسعد من هؤلاء الناس بل التجار هنا أشقياء على غناهم وثروتهم. فإن أحدهم يقضي النهار كله وهزيعاً من الليل واقفاً على قدميه. وقد سألت واحداً مرة فقلت له لم لا تقعد على كرسي وعندك كراسي كثيرة. فقال لي أنها للذين يشرفوننا بالزيارة ليشترؤا من عندنا. فإذا قعدت مثلهم صرت منهم. فأما في يوم الأحد فيلبثون خدري الأبدان والأفكار. سدري البصائر والأبصار فأين هذا من التاجر عندنا يعقف إحدى رجله على الأخرى بعض ساعات على أريكته. ثم إذا حان العصر كبّ جبته وراءه وذهب إلى بعض المنازه وهو يمشي الخيلاء. فإن كان التمدن والعلم قد سبب هذا فالجهل إذاً سعادة. غير أن الفلاحين هنا في غاية الجهل زيادة على بؤسهم.

ومن أين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكّد والترقح وليس عندهم مدارس. قد كنت أظن إنهم جميعاً

يحسنون القراءة والكتابة فإذا هم لا يحسنون النطق بلغتهم. فإني أقرأ في الكتاب شيئاً وسمعه منهم مخالفاً لحقيقة استعماله. وناهيك أن أكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا. وقد قيل لأحدهم مرة أن الملك أمر بتسفير خيل في سفن لحرب العدو. فقال أي أعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل. وكأني بهم لجلهم يحسبون أن سكان الأرض بأسرها دونهم. أو يظنون أن الرجال في غير البلاد يبيعون نساءهم أو يأكلونهم أكلاً. أو إنهم يتقوتون بالجدور والبقول. ولو إنهم عرفوا أحوال الأمم وخصائص البلدان لعلموا إنه لو كان لهم من لذات العيش أضعاف مالنا مع شدة بردهم ومنكر هوائهم ودكنة جوهم لما وفي ذلك لهم. وإن غناء الصنعة عندهم لا يقوم مقام غناء الطبيعة عندنا من طيب الهواء والماء وصفاء الجو وزكاء الأرض وعذورها ومراعتها ولذة المطعوم والمشروب والتزهة في الرياض والحدائق. والأكل عند المياه الجارية تحت الأشجار الناضرة والتردد على الحمامات والسهر في السمر واستماع آلات الطرب. يعرف ذلك منهم من زار بلادنا وألف حظنا ونعيمنا. غير أن اللبيب من استخراج من كل ضر نفعاً، وأعتبر بكل ما جرى عليه فاستفاد وارعوى.

قد تعلمت الآن مما لقيت من الوحشة في بلادهم كيف أعيش في بلادنا أن رجعت إليها سالمة. وكيف أن الطخطة والقرقرة والهزر والكركرة والتجلق والهرة والأغراب والكدكة والآهى والمزقة والأنراق والزغرية وطبخ وطبخ وعيط وعيط وتغ وهاه هاه لأفرج للهم عن القلب من أواني موضونة ومباني مرصونة. فخير البلاد ما ألفت هواءها وألفت فيها مخلصاً لك ودّه. وكيف يكون خلوص الود من دون كشف السرائر. وكيف تنكشف السرائر وتعلن الضمائر من دون إطلاق اللسان في ميدان الكلام. والقوم هنا يتكتمون ويرون أن في ذكر الإنسان ما يحس به وما يحبه وما يكرهه طيشاً وهوجاً. إنما مثلي كمثلي الثعلب الذي كان يسمع لطبل تضربه أغصان شجرة صوتاً عظيماً. فلما أتاه وعالجه حتى شقه وجده فارغاً. لا جرم لا عدت أملك خاطري سمعي. أو كراكب البحر وهو ظمآن يرى الماء حوله ولا يمكن أن يروي غليله منه. إني أرى وجه الأرض هنا أخضر ولكن لا شيء من هذه الخضرة يبيّض الوجه عند الأكل. إذ ما به من الطعب شيء لأن كل ما ينبت عندهم فإنما تغصب الأرض تنبته غصباً من إفراط التدمير. فلو كان أحد هنا من اللاطة لسألناه عن طعم بقولهم ما هو. هذا ما عدا خلطهم المأكول والمشروب وغشهم وإفسادهم ما من الله تعالى به عليهم سائغاً طيباً. وناهيك أن الخبز الذي هو قوام هذا البدن لا طعم له. فإنهم يخمرونه برغوة نبات ويخلطونه بهذه البطاطا ثم يخفقونه بعد الاختمار خفقاً. فماذا يفيد القائل قوله إني كنت في بلاد الإفرنج وهو لم يجد فيها إلا الوحشة والنكد. بل ذكر ذلك له فيما بعد غصّة. إلى مصر إلى الشام. إلى تونس ذا العام. فهناك تلقى من يزورك أو تزوره. وهناك تلقى البشر دون تصلّف والفضل دون توقف وتكلف. إلى آخر ما ذكرت لي من التأنف والتأفف. لا يطيب العيش

للإنسان إلا إذا كان يتكلم بلغته. ليس العيش بطول الليالي ولا بكثرة الأيام ولا برؤية أرض خضراء ولا بمشاهدة أدوات وآلات. وإنما باغتنام أنس الأحباب. وعشرة ذوي الآداب الذين تصفو منهم السرائر في الحضرة والغياب. وتخلص لك مودتهم في الابتعاد والاقتراب. إنما الدنيا مفاكهة. قال فقلت ومناكهة. قالت ومنادمة قات ومشامة. قالت وملاءمة. قلت ومطاعمة. قالت وملاينة. قلت وملاسنة. قالت ومطايية. قلت ومراضبة. قالت ومخادنة. قلت ومحاضنة. قالت ومراءة. قلت ومفاغمة. قالت وملاطفة. قلت وملاغفة. قالت ومخالقة. قلت ومعانقة. قالت ومحاضرة. قلت ومحاصرة. قالت ومباغمة. قلت ومكاعمة. قالت ومعاشرة. قلت ومشاعرة. قالت ومؤانسة. قلت وملامسة. قالت ومساجلة. قلت ومباعلة. قالت ومخالطة. قلت ومخارطة. قالت ومطارحة. قلت ومشارحة. قالت ومجارزه. قلت ومراهزة. قالت ومداعبة. قلت ومزاعبة. وهنا كان ختام الملاعبة.

### مقامة ممشية

حدث المارس بن هشام قال. كنت سمعت كثيراً عن النساء حتى كدت أمني بالنساء فمن قائل أن المحصن أطيب من العزب. وأسلم عاقبة من المزاحمة على منهل دونه مذب. أو المكابدة للوب واللهب. أو التعرض للتجبية والعطب. وأنه كلما صدى قلبه من الكرُّرب، جلاه بابتسامة من زوجه عن شنب وارتشافه من رضاب كالضرب. وسماع نامة تغني عن آلات الطرب ومدام ذات حجب. فإن مما خص الله تعالى به المرأة من المزايا، وفضلها به من السجايا أن صوتهما الرخيم لا يبرد عليه نكد. ولا يبدو معه هم وكمد. فأول ما تحرك شفتيها. تسكن القلوب إليها. وعند مغازلة عينيها، تنهال المسرات على من هو بين يديها. فيحنش ويحنش. ويحفش وينتفش. ويدركل ويدرقل. ويسجل ويدوقل. ويحنشل ويدربل. وحين تمشي في بيتها متبذحة. تقول لها الأقدار فديناك من مغناج مرحة. إن شئت رفعنا زوجك إلى قرن الغزالة. لينعم بالك بأحسن حاله. وإن شئت بقاءه عندك الليلة. لم تُعينا من ذاك حويلة. وإن شئت أن نزيّن له السفر عاماً أو أكثر إلى طرح ذي أمن أو خطر. فأنت لدينا أكرم من نهي وأمر. فما عليك إلا نضنضة لسان. أو إشارة بنان. وحسبنا بطرفة عين من بيان. قال وأن الزوج متّعه الله بإحصانه. وهنّاه بنظرة بستانه. وحنّ تفاحه ورمانه. وزاده من آلاته وإحسانه. يبعث بحضرة زوجه باللذات كما شاء. أن توخى مساً مس وأن أشتهى نشوة نشا. وأن شاء داعب ولاعب وأن أبي الجد فالجد طوع له كما أحب. وأن له منها مثرها "ولكن غير بعيد عن الماء" تغيب فيه الأتراح. وتطلع منه الأفراح. وبشائر النجاح. وسراً تُزفُّ به الدنيا إليه بمعرض بشر. ومهدي كُشّر. أن التوى عليه أمر قومته بمهارتها. وسددته بإشارتها. وإنها إذا

تدعّبت عليه وتقيأت. وتبعّلت له وفيأت. زاده الله نضرة ونعيمًا. وزادك صبراً وجموماً. خُيل له أنه ملك الدنيا بحدافيرها. وفاز بجميع لذاتها وحبورها.. وأنه قد قام مقام العاهل الأعظم. خليفة باري الأمم. فلو رأى وقتئذ قاضي ماراً على بلغته، حسبه من أتباعه وخدمته. ولو رأى كافها أو وافها، لأنف من أن يكلمهما مشافها. فبعث مكانه إلى جانب الأول وصيفاً وإلى حضرة الثاني وصيفة وقال لهما أن لديّ لكل فاتح قاهر ولاية شريفة ولكل سائل شاكر وظيفة. ولو إن امرأً أغلظ له وحاشاه في الكلام. وسفه فبادره بالتقريع والملام. أو رأى والعياذ بالله أن يمسه له قذالا. ويسومه عليه قفئدا وإذلالا. فزع إلى زوجته أعزها الله ففت عنه كل كرب. وأمنتته من كل رعب. وردّت عليه حجره من حجرها. وصدارته من صدرها. وقالت له لا تحش من كيده وغلّه. فإنما يدفع كل استحصاف بمثله. فرجع إلى ما كان عليه من الأنفة والفخار. والعز والذرار. حتى لو رأى قيلا أو ردفا، لهاء بنفسه عن أن ينظر إليهما نظر الأكفاء. فهو الراتب المنفق. المترف المتملق. الأكل وتلقاه من درر الثنايا ومرجان الفم، ما يخيل إليه من الكامخ خير مطعم. والمسيخ أهناً مغنم. وأن الأجاج والزعاق. أشهى من مدام الاغتياق. ألا ولو أنه بات معها على فرش حشوه شظايا. وماس منها زغابة لكان له من أوطأ الحشايا. فكل ضرّ معها يستحيل إلى فنع ونفع. وكل شظف بقرها فهو قصوف ورّع: ومن قائل لا بل عيش العزب أهناً. واللذات أجنى. فإن السيدات يحسبه في كل وقت ذا جموم. وعندهن أن نبة واحدة منه تنفي جميع الهموم. إذ ليس له من تلزه كل ليلة للعطال. وتورّقه من الليل على مثل ذي الحال. ليتذكر دائماً أنه محصن ذات قرطق وخلخال. فهو على هذا محبب عند البنات. محروص عليه من السيدات المتزوجات. مشار إليه بالبنان من الأرامل الهائجات. وأنه إذا رجع إلى منزله رجع ويده خفيفة. ورائفته نظيفة. فلا من تقول له هات. أو تلومه على ما فات. ولا من تستوحيه عن المستقبل وتستفتيه في المصالح المهبل. ولا من ترجره عند قيق غيرها له وجلجه إليها بحف. أو تنجفه قبل مفارقتها أياها أي نجف. أو تقول له نراف نراف. وإلا فالإزهاف. ولا من ييكي بين يديه وهو عاجز هن كفالتة كما يحق عليه. فتراه أبد الدهر مياحا مفراحا. متعرضا للنساء متياحاً. شراحاً سداحاً. رفيقاً بالمُحجّ منهن مساحاً. وقد قيل في الأمثال السائرة سير العجاج، في كل فجاج. من لم يكن ذا زوجة كان ذا أزواج. قيل فمن ثم كانت خطوات العزب أوسع. وحركته أسرع. وكلامه أنجع. وأناؤه أترع ونغمته أرحم.

ونهمته أضرم. ونهزته أقوى. ومزته أروى. وسنانه أذلّ. وسهمه أخسق. ونشره أعبق. ووجهه أعلق. وطعمته أطيب وأوفر. ومادته أسكب وأغزر. وقد نسوا أن تبعق حوضه في غير سقي واحد هو عين السبب في تنكيزنزه ونزته. وتفتير شرزه ولنزته إلى ذلك مما لا يليق أن تقابل به مومسة ولا حصان. ولا

يوصف به دالف ولا تيقان. قال الهارس فلما تراجع المذهبان. وتكافح المطلبان. قلت في نفسي من لنا اليوم بالفارياق. فيفتينا في هذا الأمر الرباق. فإنه أعلق بالنساء من الرية. وأعرف بأحوالهن من ذي شية وشبية. فلقد ذاق منهن الحلو والمر ولقي من حبهن النفع والضر. فلو كان حاضراً لدينا لجلا عنا ما ألتبس علينا. فسرت إلى بعض أصحابي. لا طلعه على ما بي. فما كدت اقرع الباب. حتى هوى إليّ ويده كتاب. ثم قال بشرى بشرى فهذا كتاب من الفارياق بلغني أمس ولم يحو إلا شعراً فتلقفته من يده فإذا فيه. أما بعد فإن:

القرطبان هو الذي	يقرو البلاد بعمره
وبها الحسان الغيد	يستشين نفحة فلسه
من كل ذات تدهكر	شحاذا نابي ضره
شداد رخو فقاره	نعاشه من تعسه
وبها الفحول الهائجو	ن إلى تسديعنسه
وإلى اشتفاف جميع ما	في قعبه أو عسه
ولربما نبرزه بالأد	ساف أقبح رجسه
حتى يعود وما له	أس لمعضل ألسه
أن اللبيب من استشا	ر منجداً في لبسه
لا سيما شأن الزوا	ج وحمل فادح وقسه
من شاقه تمويهه	ومذاق لذة رغسه
فليبعلن في قسه	كي يستبد بحلسه
حيث السفاح مخصّص	من يشرب للحسه
إن الغريب أضر من	متهتك في جنسه
أو لا ففي حال العزو	بة وهو مالك رأسه
صون لدرهمه وحر	مته وراحة نفسه
بل من تزوج يومه	خير له من أمسه
إذ كان في حال التعزّ	ب موحشاً من إنسه
لكن بشرط نفوره	عن رية في حدسه



فالبضعَ ثم البضعَ لا

تتشاغلن عن قَسِّه

ما أن يضر ختام ما

قد طاب نافع رَسِّه

لكنما يجب التحرُّ

زمن بواعث نحسه

قال المارس فلما تصفحت الأبيات. وزكنت ما فيها من الإشارات. قلت لله دره ما أفصله لأمر النساء  
ناظماً وناثراً. وما أحوجنا إلى استفتائه فيهن غائباً وحاضراً. لكنه لم ينبس عن حاله إلا فيما هو من  
مشكل الزواج. فكأنه رأى كل أمر دونه فإنما صوانه الإعجاج. ثم انصرفت مشياً عليه.. وقد زاد تشوقي  
إليه.

"حاشية: صغا المارس مع الفاريق فلذلك لم يعب عليه بعض أبياته فإنها مضطربة العبارة. وليس من شأني  
التدليس على القاري فقد صار بيننا صحبة طويلة من أول هذا الكتاب. فليتنبه لذلك".

### رثاء ولد

قد عُرس في طبع كل والد أن يحب ولده كلهم على كثرتهم وبرقتهم وغيوبهم وإن يراهم أحسن الناس.  
وأن يحسد كل من يفوقه في المحامد والمكارم إلا أباه وابنه. ومتى شاخ الرجل وضعف عن التمتع بلذات  
الدنيا فحسبه أن يرى ابنه متمتعاً بها. ولا لذة للمتزوج اعظم من أن يبيت مع امرأته على فراش واحد  
وبينهما ولد صغير لا يؤرقه بكائه وصراخه ولا يبلبله. كما إنه لا شيء أوجع لقلبه من أن يراه  
مريضاً غير قادر على الشكوى بلسانه ليعلم ما ينبغي أن يداوى به. بل الأطباء أنفسهم يحارون في مداواة  
الأطفال وقلما يصيبون الغرض. وكان الأولى أن يعين لعلاجهم أطباء اختصوا بمزاولة ذلك عهداً طويلاً.  
وأن ينوّه بمن نبغ منهم فيه كل كلام مستطر ومطبوع. ويجب على الوالد أول ما يرى ولده قد مرض أن  
يتعهده ويراعي أحواله وما يطرأ عليه ويقيد ذلك في كتاب ليخبر الطبيب به أخباراً مبيناً. فرما أغنى ذلك  
عن كثير من الدواء الذي يجازف به الأطباء أحياناً لامتحان حال المريض. ومن أهم ما يستنهض عناية  
الوالدين في حق ولدهما أمر الطعام. لأن الطفل لما كان لا يدري حدّ الشبع الذي يقف عنده الراشد كان  
أكثر أسباب مرضه من الأكل. فليس من الحنوّ والشفقة أن تطعم الأم ولدها كل ما يشتهي. وإنما الأولى  
أن يلهي عنه أشياء من اللعب والصور المنقشة والآلات المزوقة وما أشبه ذلك. وما أحلى الولد يطلب  
شيئاً من أبيه وقد حُمّر الخجل وجنته أو غص الوجل طرفه. وما أحبه وهو مطوق عنق والده أو والدته  
بيديه اللطيفتين ويقول إني أريد هذا الشيء لأكله. ومن سوء التدبير أيضاً أن يحرم ما يشتهي. ويكي

لأجل ما لا ضرر فيه. ولعمري أن من أغفل رضى ابنه حتى أبكاه وأجرى دموعه لغير تأديب كان بمعزل عن الأبوة. وينبغي أن يدرّب الطفل على الخفيف من الطعام بعد ولادته بستة أشهر مع بقاء الإرضاع قليلاً. فإن الطعام يغذّيه ويقوّيه فضلاً عن أنه يحفظ صحة والدته. بل ربما مناهها طول إرضاعها إياه بمرض ولم يفده شيئاً كما هو مذهب الإفرنج وهم أكثر الناس ذرّة. ولا ينبغي أن ترضعه وهي غصبي أو مذعورة أو مضطربة أو مريضة.

ثم إنه ما دام الرجل عزباً أو كان لم يربّ قط لم يشعر حق الشعور بالحنو على أولاد غيره. بل لم يقدر والديه اللذين ربّياه حق قدرهما إلا بعد أن يصير هو والدّاً مربّياً. والأمّهات اللاتي يرضعن أولادهن يكن بالضرورة أحنّ فؤاداً عليهم من اللاتي يستأجرن لهم المراضع. ولا جرم أن من كان له ولداً وقرأ قول الشاعر. وربّ أمّ وطفل حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان. لم يتمالك أن يذرف الدمع لوعة وتحسّراً. وكذا لو قرأ قصصاً فيها فجع الآباء بقتل أولادهم الصغار الأبرياء كقتل أطفال مدين بأمر موسى على ما ذكر في الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد سواء كان أبوا الطفل مؤمنين أو كافرين. ومن لم يكن قد تحلى بصفة الأبوة كالراهب وأمثاله ودعاك: يا بُني أو يا ولدي فلا تثق بكلامه ولا تعول على دعائه لأنه لا يعلم معزة البنوة إلا من كان ذا أبوة.

وكان الفارياب ممن أذاقه الله حلواء البنين ثم تجرّع مع ذلك مرارة الشغل. فقد كان له ولد بلغ سنتين وكأنه قد سبك في قالب الحسن والجمال فجاء لم يعدّه شيء مما تقر به العين. وكان على صغر سنه ينظر نظر المميز بين المؤنس والموحش ويألف من تملق له ولو بإشارة. فكان أبوه إذا رنا إليه ينسى في الحال جميع أشجانه وهمومه. ولكن لم يلبث أن يغشاه عارض من الكآبة إذا كان يوجس إنه لا يدوم له على عين الدهر اللامّة. ويرى نفسه إنه غير جدير بأن يتملى بتلك الطلعة الناضرة. وكان يحمله على ساعديه مسافة ساعة وهو يناغيه ويغني له. حتى ألفه الطفل بحيث لم يعد يشأ أن أحداً غيره يحمله أو يلهيه أو أنه يأكل وحده على انفراد. إلى أن قدر الله ربّ الموت والحياة أن أخذ الصبيّ سعال في تلك القرية. ولما كانت قرى الإنكليز الصغيرة كغيرها من قرى البلاد من أنه لا يوجد فيها أطباء مهرة وكان لا بدّ من مشاور طبيب على أية صفة كان، استشار أبواه أحد المتطببين هناك. فأشار عليهما بأن يتداركاه بالاستحمام بالماء الساخن إلا رأسه. فعملاً بوصيته أياماً. ولم يزد الصبيّ إلا سقاماً. حتى كان إذا أنزل في الماء بعدها يُغشى عليه ويُرى فوق قلبه لطخة حمراء كالدّم على شكل القلب. ثم أشدّ بع الداء حتى احتبس السعال في صدره وخفت صوته. وكان يعاوده مع ذلك الرعدة والهزة. وبقي في حالة التزعّ ستة أيام بلياليها وهو يئن أنيناً ضعيفاً وينظر إلى والديه كالشاكّي لهما مما يقاسيه. استحال الورد من خديه

عبراً. وغارت عيناه النجلاوان. ولم يعد شيء من الغذاء والدواء يسوغ في حلقه إلا تكلفاً. وكان الفاريق في خلال ذلك يذرف العبرات ويجأ بالدعاء إلى الله ويقول: ربّ اصرف هذا العذاب عن ابني أليّ إن كان ذلك يرضيك. أني لا مأرب لي في الحياة من بعده ولا طاقة لي على مشاهدته في هذا الترع الأليم. فأمّنتي قبله ولو بساعة حتى لا أراه يجود بنفسه. آه عظمت ساعة. وأن كان لا بدّ من نفوذ قضائك به فتوفّه الآن ولعل الفاريق هو أول والد دعا على ابنه بالموت عن شفق وحنوّ. فإن رؤية الطفل يغرغر ستة أيام مما لا يطاق. وبعد أن تُوفيّ الولد، وأبقى في قلوب والديه الحسرة والكمد، استوحشا من مقامهما إذ كان كل شيء فيه يذكرهما فقدّه ويزيد في لوعتهما. ففصلا منه إلى لندرة على حين غفلة وقد وضعاه في صندوق فلما دفناه واستقرا في منزل قال أبوه يرثيه:

والذكر ما وأراك تربُّ وارِ	الدمع بعدكما ذكرك جارِ
تصلي من الحشرات كل أوار	يا راحلاً عن مهجة غادرتها
ما في حشاي سوى لهيب النار	خطأ وهمتُ فأين بعدك مهجتي
فكأنه وقر من الأوقار	رَمَقاً أقل الجسم مني فادحاً
عيناً على الآثار والأذكار	ما كان ضرّ الدهر لو أبقاك لي
شيء من الظلمات والأنوار	ما بعد فقدك رائعي أو رائقي
طلع الصباح وأنت عني سار	سيان أن جنّ الظلام عليّ أو
من مطمع فيه إلى الأسحار	يا بنس ذاك الليل إذ لم يبق لي
حُرمتُ خمسي واستطبت شعاري	أرقتني من قبله ستاً وفيه
حكممنية في البرية جار	أبني ما يجدي التصبر قولهم
ما هذه الدنيا بدار قرار	كلا ولا بي قرّ بعدك من حمى
تورحتُ ثمت حُرْتُ خير محار	كم قد حملتك فوق راحي إذ غدو
أغنى بكاي عليك أو أسهاري	ولكم سهرت الليل من جزع فما
ولغير نفع كان طول جؤاري	ولكم جأرت لبرء دائك ضارعاً
يطراً عليك من الحوادث طاري	ولكم حضنتك في الحنادس خوف أن
في روضة أنف ضحاء نهار	وجمال وجهك لي يخيّل أنني
صُورَت بالمأثور من أشعاري	أن لم يصورك المصور لي فقد

أو أن يكن وأراك لحد ضيق  
أو أن تكن عني حجبت فإنما  
لا أنسينك أو أحين فما أتى  
ولا رثينك ما بقيت وأن أمت  
يا حسرة عدم التبصر بعدها  
كثر المعاین لي وقل معاوني

فالأرض عندي اليوم أضيق دار  
بقيت حلال خوالج الأفكار  
حين عليّ خلا من استذكار  
فليتلون رثاك عني القاري  
عدم التبصر في احتمال خساري  
وكوت حشاي شماتة الزوار

فرويتُ بيتاً قاله من ذاق ما  
جاورت أعدائي وجاور ربه  
يا فجعة نزلت فحطم كاهلي  
في ليلة فارقت فيها ناظري  
لا غرو أن يك قد سرى جنح الدجى  
قد كنت أطمع أن يعيش مهناً  
ووددت لو أن ذقت حتفي قبله  
وسدته بيديّ رغماً ليته  
عيني إليه رنت وما لي حيلة  
قصرت يدي عن كف ما أودى به  
لهفي عليه وطرفه لي يشتكى  
لهفي عليه على السرير موسداً  
لكن أدنى اللمس كان يزيده  
ويئنّ أنه مستجير واجفاً  
حتى خشيت الدمع يؤلم جسمه  
يا رعدة أودت به قد أورثت  
ليت النفوض أقرّ عيني بعد أن

قد ذقت من ثكل ووحشة جار  
شتان بين جواره وجواري  
تأويقها وأبان قصم فقاري  
أبدا وفارقتني على إجبار  
عن ناظريّ فكل نجم سار  
بعدي ويبلغ أطول الأعمار  
لكن خيار الله غير خياري  
هو كان وسدني على إثاري  
يا ليت من نظر منى إنظار  
أن القصور مظنة الأقصار  
إذ كان لم يقدر على الأخبار  
ولو استطعت لكان فوق يساري  
ألماً فكان يؤوه من أشعاري  
كالطير قرّ فبات دون قرار  
لما عليه همي كودق جار  
قلبي الوجوب ولوعة التذكار  
سختت بنفض فيه ذي إقرار

لهفي عليه في الظلام معانقي

لهفي عليه والغناء ينميه

لهفي عليه وهو يأخذ من يدي

لهفي عليه وهو لائق رُذنه

يا يوم أنشبت المنية فيه

يا خطة عالت فسوت بين

قد كان يحلو العيش حين يلوح لي

لا البعد يسليني ولا طول المدى

ما تنقضي الحسرات أو أقضي أمي

كلا ولا تطفي أوارى عبرتي

فالنار إلا النار تكل تنطفي

يا ليت راهي العيش يوماً راجع

فأكون فادي عمر نجلي لاقيا

داريت ما لا ضير فيه لأجله

أن المنية والأمانى بعده

فلتفعل الأيام بي ما تشتهي

ولتذهب الآمال عني أنني

من ذاق تكللاً مثل تكلي فاجعا

وليبيكين معي ويحملني على

ما هذ ركن الصبر مثل الثكل أو

الطفل يقضي مرة لكنما

تمروه في نزع أبنه وخفوته

هيهات من قد أشبهت أطواره

أو أن في سوء الأسى لي أسوة

وكراي من شفق أليم غرار

وإذا سكت صبا إلى الإكثار

ويعيد ما يعطوه لاستغزار

بلآلي وضاحة ودراري

طفلاً لا يطيق عوالق الأظفار

حتفي والحياة إلى مدى مقدار

والآن مرّ فصار ذا أمرار

وتخالف الأعصار والأمصار

فبذا عليّ جرى قضاء الباري

ولئن همت في الصب كالأمطار

والماء إلا الدمع ضد النار

وفداء مربوب أبوه الهاري

حتفي لقاء القانع المختار

فالיום لست لما بضير أداري

سيان مستويان في استثنائي

ما بعد هذا الخطب من أضرار

لم يبق لي في العيش من أوطار

فليُقصرنَّ اليوم عن أصباري

فرط البكاء بمدمع مدرار

حسَم المطا كحسامه البتار

يقضي أبوه قبله بمرار

أدوار حين أيما أدوار

في فقده أوطاره أطواري

أو أن في طول الحياة قصاري

لن ينفع الإنسان شيئاً حرصه  
 الموت غاية كل حيّ يستوي  
 والسابقون يضعهم يوم  
 لكن يوم الطفل أفجع حيث لم  
 ما لذّ طعم العيش إلاّ من عداه  
 فالرزء في الأموال مثل الشعر تر  
 فليهنّ من عاشت بنوه عيشه  
 بعض الزوايا قد يساغ وبعضها  
 كلّ إلى أجل على مقدار  
 به ذرو الأيسار والأعسار  
 مع المتأخرين إلى ثرىّ منهار  
 يعرف له مضمار سعي دار  
 الثكل لا من كان ذا أيسار  
 زأه فينبت خلفه الأطوار  
 وليصف مورده عن الأكدار  
 يبقى شجا يشجي مدى الأعصار

### الحداد

ثم لما يكن بدّ للفاريق من السكنى بالقرب من تلك القرية المشؤومة سافر بأهله إلى كامبردج. وبقوا مدة طويلة يمشون وجفوفهم ما بين منطبة ومنفتحة. لأن شدة الحزن تصرف القلب عن الشهوات أو بالعكس. ثم تراخت عقدة الحزن قليلاً عن العيون لا عن القلوب. لأن العينين لا تطاوعان القلب دائماً. كيف وقد قيل وضعيفان يغلبان قويا. فاستحلّ كل منهما أولاً الصأصة والوصوصة والتضيض والتضيض والتحصيص والتبصيص والوبص والتبصير والتفقيح. ثم اللوح واللمح والنقد والخزر والتخازر والشُّطور والمخاوة والمخاوصة والملاوصة والتحشيف والعرضة والرَّمق والحَدَل والزَّر والايماض واللحظ والالتفات والدنفسة والتشاوس والمغاضنة والمخاوة. ثم الايشام والنظر والبغو والصَّرو والاجتلاء والتجلية والرَّناء والبصر والمعانة والمشاهدة والرؤية والبغي والبقاوة والبقى. ثم الرأرة والآلة والتبريق والبشق والتحديق والتحديق والتجحيظ والتجحيم والتجحيم والتجحيم والحملقة والعسكرة واللتء والضَبَر والتبَخُّص والاسفاف والارغاف والورورة والحر والطنفشة والاثَّار والحدقلة والطفرة والزهرة والبندقة والبنق والتجنيص والتفصيص والتهصيص والارشاق والرعام والبرشمة والبرهمة والجرسمة. ثم الشخوص والطمس والحجم والاشياء والتطاوُل والتطال والاشرباب والاسلطاء والاشتياف والاستيضاح والاستشراف والاهطاع والتدنيق والترنيق والحتء والحتش والصدء والاسجاد والتأمل والتكثلة والتفرس والتطلع والرنو والترني. ثم تصالحت العيون والقلوب، فعدت تلك تترجم عن هذه والكمد مع ذلك مخيم في اطرافها.

غير إن الإنسان خلق من نطفة أمشاج وركب من عدة أخلاط وجواهر وأعراض مختلفة. فهو لا يزال ابد الدهر ماشحاً هذا في ذاك وخالطاً جداً بهزل وفرحاً بترح. فتراه ساعة قانطاً وأخرى كأشعب. وآونة مفراحاً وأخرى مبتئساً. ويوماً طرباً شنفاً ويوماً أو بعض يوم عزها. فهو بشر خلقاً وغول خلقاً. وأكثر ما ترى منه غملجيته هذه في أمر النساء. فإنه أن تزوج بمليحة قال ليتني كنت تزوجت بقبيحة وسلمت من ضيزية معارفي وجيراني. وأن تزوج قبيحة قال ليتني تملّحت بمليحة لأكون ذا وجاهة ونباهة. وإن كانت امرأته بيضاء قال ليتها كانت سمراء. فإن السمر أخف حركة واسخن في الشتاء. وإن كانت سمراء قال ليتها بيضاء فإن البيض ارتطب أبداناً في الصيف. وإن كانت كمكامة مكتثرة قال ليتها كانت ممشوقة هيفاء. فإن الهيف أقل مؤونة. وإن سافر عنها قال ليتها هي التي سافرت وبالعكس. إلا في مدة وضعها فإنه لا يتمنى أن يكون في موضعها وقس على ذلك من الأحوال النسائية ما لا يمكن حصره. إذ أخفى شيء من المرأة إنما هو بحر لا يمكن البلوغ إلى قعره. والحاصل إن القلب شؤناً كثيرة وأحوالاً متباينة لا يزال يتقلب بها. أو لا تزال هي تتقلب به. وعلى كل فتسميته قلباً دالة عليه. ويستثنى من هذه القاعدة شيء واحد وهو ثبات الإنسان في كل حال وشان. وإصراره في كل زمان ومكان على تفضيل نفسه على غيره. فلو كان فاجراً حسب أن لا بره عند الله إلا بره. وإن كان فظاً غليظاً رأى كل كيس ريز دونه. وإن كان بخيلاً ظن إن كل حرف يفوه به هو مئة كبرى. وإن كان دميماً ذميماً لم ير اللوم إلا على نظر الناظرين له. وكما أن عين الإنسان تنظر كل ما واجهها ولا ترى نفسها كذلك كانت بصيرته مبصرة بعيوب الخلق كافة إلا عيب نفسه. ولو طاف الدنيا بأسرها لما رأى فيها من المحاسن ما في مدينته أو قريته. ثم ليس من المحاسن في بلده ما في بيته. ولكن ليست هي أحد من أهله كما هي فيه. فتحصل من ذلك إنه أفضل من في العالم كله. ولو أنه كان شاعراً أو بالحري شعوراً لا يحسن إلا الإطراء على بخيل أو التغزل بهند ودعد. ثم رأى علماء الرياضة والمهندسة يخترعون من الأدوات مثلاً ما يطوي شقة خمسمائة فرسخ في يوم واحد. لحسب أن شعره أنفع من ذلك وألزم. ولو كان مغنياً أو لاعباً بآلة من آلات الطرب ورأى جاراً له طبيباً نطاسياً يداوي في كل يوم خمسين عليلاً ويرثهم بإذن الله لاعتقد أن صنعته أشفى وأنفع. ولم يخطر بباله قط أن الإنسان يمكنه أن يعمر في الأرض دهرًا طويلاً من دون سماع غناء أو عزف بآلة. فمتى يتعلم الإنسان أن يعرف نفسه. وإن يفرق بين الحق والباطل وأن لا يخلط الحزن الكامن في القلب بالتحديق والحملقة.

وأقبح من ذلك أن كل واحد من الناس يظن أن غيره أيضاً يفعل كذلك فهو معذور عند نفسه بكونه

حاذياً حذو غيره. ومثله قباحة شأن من تلبس الحداد على ميّت لها وهي في خلال ذلك يزدهيها الرناء ويستخفها ذكر الذكران. وترتاح إلى رؤية اللون الأسود وتطربها نغمة القائل لها أن فلانا مشغوف بحبك. وأنتك جديرة بأن تقعدي على منصبة وتأمري وتنتهي الوصائف من حولك أو بالحري الوصفاء. وإن لا تتناولي شيئاً بيدك هذه الرخصة. وأن لا تخرجي من دارك ماشية على رجلك هذه اللطيفة. وأن لك في كل مكان عشاقاً كثيرين بحيث لا تعدمين في كل وقت من يحوطك ويخدمك ويلطفك وينسيك حزنك. وغير ذلك من الكلام الذي هو انتهاك لحرمة كل من الموت والميّت. قال الفاريق قد رأيت كثيراً من النساء الحوآد في بلاد الإنكليز وغيرها وهن أكثر خفة وطرباً وازدهاء وضحكاً من العروس وأمهات ولم أرَ بينهن من كانت تنظر إلى ثيابها السوداء إذا ضحكت لتتذكر أن كركرتها في غير محلها. أما في أمر الزواج فرما يطلب لمن الحليم عذراً بأن يقول مثلاً: لعل زوجها كان يخونها في الليالي الحالكة فتزديها السواد إنما هو لتتذكر سوء أفعاله معها في سواد تلك الليالي. أو أن أيامها معه كانت كلها سوداً كالليالي. فأما في أمر الولد والأب وغيره فلا عذر لمن أحدثت وهي مرارئة مهزقة. ثم أن الحدّ عند الإفرنج مطلوبة للرجال مرغوب فيها بمزلة العروس. إذ الفحول يتزاحمون على تسليتها وتلهيتها لعلمهم بما تحت ذلك السواد. وبأن هذه العادة هي من جملة العادات التي خالف استعمالها وضعها. والظاهر أن لفظة الحدّ في لغتنا هذه الشريفة مشتقة من حدّ السكين وأحدّها وحددها أي مسحها بحجر أو مبرد فحدّت تحدّ. فكأن لابسة الحداد تحدّ شهوة الناظر إليها إذ يرى عليها آثار الحزن والكآبة والانكسار وهو أشوق ما يكون في النساء. ويؤيده إن صنفاً من الثياب السود يسمى إسباداً. وهذا الحرف يجيء أيضاً بمعنى حلق الشعر كالسبد وأنت بتمام المعنى أدري. وتسمى أيضاً سلاباً والسلب هو المستلب العقل. فكأن المرأة إذا تسلبت أي أحدثت ولبست السلابا سلبت عقل ناظرها. فأول ما يقع نظره عليها يقع قلبه معه فيقول لها أو في نفسه. فديتك بأبي أنت وأمي. لله أنت. وفاق الله. وهبني الله فداك. إن شئت أن أكون أول من توسل لحو هذا الحزن من صدرك فعلت فإني أنا أقدر منك على تحمل المكاره. فالحق عليّ هذا الهمّ القادح وكوني أنت مهتأة مسرورة. أن لدى آلة طرب عظيمة وخزعبيلات كثيرة تفرّج عنك الكرب. فلو زرتني مرة أو سمحت لي بأن أزورك لم يعد يخطر ببالك شيء من الأشجان. إنك رخصة رعبوبة وأرى هذا الخطب قاسحاً عليك فلا يزول إلا بقاسح مثله. ليتك تعلمين ما عندي من الأسى والوجد لأجلك. وإني عتيد لأن أحرم نفسي من جميع المسرات بحيث أراك تفترين عن ذلك الشنب الأشهى. وتبينين في خديك عند الضحك تلك النقرة التي طالما نقرت قلوب العشاق. أي قلب لا يذوب لهذا الانكسار. وأية عين لا تزف الدمع على هذا الإزار. قدني حزناً لحزنك وحسبي أن أجلو عنك صداً هذا الهم.

وكذلك المرأة الحدّ فإنها تعلم وهي ماشية ما يخطر ببال ذلك المشفق عليها فتقول له أو في نفسها. نعم



والله إني محتاجة إليك لتخفف عني ما أجده اليوم من الوحشة والسدم. وقد بت البارحة وأنا غريقة في غريقة في بحر الأفكار والأكدار. وارك جديراً بأن تعاقربي وتسامرني وتعاشربي وتبادرني وتباكرني وتجاورني وتحاصرني وتذاكرني وتساورني وتسايرني وتداورني وتشاعرني. فالحمد لله الذي هداني اليوم إليك وهداك إليّ وقيضك لي. لأني امرأة منكسرة الخاطر ولا بدّ لي ممّن ينفس عني ويؤنسي. حتى إذا نسيت ما أكابده وألمّ بك كرب كان عليّ أن افرج عنك فإن عندي مصدر اشتقاق الفرج. ومي تنال أتمّ الحبور، واعمّ السرور. فهلمّ إذا إلى المخالطة والمراوحة. والمساجلة والمكافحة. فهذا ما ينشأ عن لبس الحداد. ولذلك كان كثيراً من النساء يؤثرون الثياب السود ثقة بأنّها تقوم في تشويق من يلاقينه من الرجال مقام الحداد. ولذلك كانت الإفرنج أيضاً يحبون اللون الأسود في الملابس ولا يتجاوزونه. ولذلك كان لباس القسيسين والأئمة أسود.

### جود الإنكليز

لما فرغ الفاريق من علمه في كامبردج سافر إلى لندرة على عزم أن يرجع إلى الجزيرة واستصحب معه حمى نافضا. غير أن أحد الأطباء الخيرين في هذه المدينة نفضها عن ظهره ولم يتقاضه شيئاً. ثم أصيب الفاريقية بخفقاني القلب واللسان. فإنها كانت وقتئذ مهترت في لغة القوم. ثم أصيب هو بخفقاني العقل والرأي. وذلك إنه لما تصرمت مدة غيابه عن الجزيرة وأزف وقت رجوعه رأى أن العود إليها غير أحمد. لأن أحوالها تغيرت عمل كانت عليه من الخصب والبحبة في المساكن. وتلك عادة الفاريق إنه لا يدخل بلداً حصياً إلا ويفارقه ممحلاً كما تقدمت الإشارة إليه. ولأنه فاته فيها بعض فوائد فحرم منها لطول غيابه. فمن ثم قصد مدينة اكسفورد ومعه كتاب توصية إلى أحد أعيانها وعلمائها وهو من أهل الكنيسة. فرأى الوصول إليه متعذراً فإن العلماء في هذه المدينة ليسوا كعلماء مصر في رقة الجانب وبشاشة اللقاء. بل هم أشد فظاظاً من العامة. وعندهم إن الغريب لا يأتي إلى بلادهم إلا والشلاق على عاتقه. ولذلك لما ذهب الفاريق ذات ليلة ليرى بعض هؤلاء العلماء صادفه أحدهم بباب المدرسة فقال له: من تقصد؟ قال فلانا. قال أين تسكن؟ قال في محل كذا. قال أعندك دراهم لتفي أجرة المسكن. قال ما أنا بمطران ولا راهب حتى تزعمني أي قدمت إليكم متسولاً.

ثم لما تعذر عليه الوصول إلى جناب ذلك القسيس المعظم ولم يجد فيها أهلاً للخير سوى رجل من الطلبة يسمى وليم سكولتوك Williams Scoltock وآخر من التجار كان الفاريق اشترى منه قطعة جبل ليربط بها صندوقه فأبى التاجر أن يأخذ منه ثمنها فكأنه ظن الفاريق لم يشتريها إلا بعد أن استخار

الله في أن يخنق بها نفسه. رجع إلى لندرة وفاوض زوجته في ذلك فقالت له أن الجزيرة أقل خيراً من أكسفورد وإني مللت منها كل الملل. فقد أضعنا فيها زهرة عمرنا ولم نحصل منها على ثمرة. فما الرأي أن نعود إليها. فقرر رأي ح على أن يستعفي من خدمته فيها وكتب كتاباً إلى كاتب سر الحاكم يؤذن بذلك. ثم أشتد بالفارياقية الخفقان فرأى إن مقامها بباريس خير لهما. وذلك لما شاع عند الناس إن هواء باريس أصح من هواء لندرة. وإن المعيشة فيها أرخص والحظ أوفر. إن الفرنسيين أبش بالغريب من الإنكليز وابر. وإن لغة العرب عندهم أكثر نفعاً واشهر. وغير ذلك من الأوهام التي تدخل أحياناً في رؤوس الناس ولا تعود تخرج إلا مع خروج الروح.

ولكن ينبغي قبل سفر الفاريق من هذه المدينة أن نعيد عليك بعبارة وجيزة وصف ما فيها من المحاسن والجلود على أهلها أي على أهل الجمال. لتعلم هل رحيل الفاريق حلال أو حرام. وليكون ذلك وداعاً من الإنكليز. فإن الكتاب قارب أن يتم ولم يبق من مجال للإسهاب. لأني أخشى من أن يأتي هذا الكتاب الأخير أكبر من الأول فيكون ذلك موجباً للقدح في من وجهين. أحدهما إن مطالعيه يقولون إن المؤلف كان يؤلف الفصول في أوله قصيرة والآل ينشئها طويلة. فكأنه كان أولاً غير ذي دربة بالتأليف أو أنه يريد أن ينسب إليه مضمون قولهم جري المذكيات غلاء. والثاني إنه كاد أن يلحق نفسه بالطرّادين وهو لم يشعر ولم يدر. فلقد مللنا من كلامه وإعادة قوله قيل وقال وكان وصار فهو قد تبوأ صهوة الجدل منه وإليه. ولم يغادرنا نراجعته ونعترض عليه. فما جزاء الثرثار من المؤلفين إلا إلقاء كتابه في القمين.

قال الفاريق تصوّر في عقلك إنك ساكن في حارة من حارات لندره ذات صفين متوازيين متصاقبين متناوحين. في كل صف عشرون داراً. ولكل دار باب ولكل باب عتبة. وأمام كل عتبة درج أو وصيد مبلط. ثم مثل لعينك هداك الله أربعون بنتاً من الرّمم النواهد. والجثم الخرائد. والعُبن المواعد. والرّجح الثوامد. ذوات التبهكن والمرافد. والمراضب والمشانِب. والصلوتة والسجاجة. والاسولة والصباحة. واللباقة والملاحاة. والكثمة والترارة. والوثامة والنضارة. والوضاعة والبشارة. والقسامة والشارة. والطلاوة والوثارة. والوثامة والبضاضة. والطرّاة والغضاضة. والغرض والمسألة. والملد والعبالة. ومن الزهر والغر والفر والصهب والصبح والصح والعفر والفضح والمغر والادم والخلس والبره والوده والعين والنجل والشهل والبرج. والشكل والدعج والجلود والبج والفرق والزج والجبه والبلج والبلد والذلف والخنس والشم واللّمس والحو واللمى. ومن كلّ رغبوبة شطبة تارة أوبيضاء حسنة رطبة حلوة أو ناعمة. وكان حق هذا الحرف أن يوضع في جدول الكتاب الثاني لكن رأيت الحكايات أولى به لتحقيق معناه فيهن. ولّبة لطيفة.

وذات وجه مصفح المصفح من الوجوه السهل الحسن.  
 وبمُصَلَّة شديدة البياض.  
 وربلة عظيمة الرِّبَلات والرِّبلة ويحرك كل لحمه غليظة والربالة كثرة اللحم.  
 وربحلة ضخمة جيدة الخلق طويلة.  
 وربيل ناعمة لحيمة.  
 وذات شعر رجل بين السبوبة والجعودة.  
 ورفلة أي تجرّ ذيلها جرّاً حسناً.  
 وزولة خفيفة ظريفة فطنة.  
 وذات عين سبلاء طويلة الهدب.  
 وسبحل ضخمة كالسبحل.  
 واسحلانية المرأة الرائعة الطويلة الجميلة.  
 وطفلة رخصة ناعمة.  
 وعيلة عثة ضخمة فخمة.  
 وعيطل طويلة العنق في حسن جسم.  
 وعطبول فتية جميلة ممتلئة طويلة العنق.  
 وعيطبول طويلة القدّ.  
 وعميثلة البطيئة لعظمها وترهلها ومن تسبل ثياها دلالة.  
 ومكتلة مدورة مجتمعة.  
 وهيضلة الضخمة الطويلة.  
 وهيكله عظيمة.  
 وهولة المرأة تموّل بحسنها.  
 وعيهل طويلة ومثلها العيطبول والغلفاق والعنشطة والعنطنطة والعلهبة والسَّلهبة.  
 وعندلة ضخمة الثديين وهي أيضاً الطويلة.  
 وعر طويلة حسنة الشباب والقدّ.  
 وعرندلة طويلة صلبة شديدة.  
 ومجدولة لطيفة القصب محكمة الفتل.  
 وختلة ضخمة البطن.

وهركيل حسنة الجسم والخلق والمشية كالمركولة.  
ومأرومة حسنة الخلق مجدولته.  
وجريمة عظيمة الجسد ونحوها الجسيمة.  
وجمّاء العظام كثيرة اللحم.  
وحمامة جميلة.  
ودرماء لا تستين كعوبها ومرافقها "من تغطيه اللحم لها".  
ورعموم ناعمة.  
وسلمة ناعمة الأطراف.  
وشغوم طويلة مليحة كالشغمومة.  
وضخمة عريضة اريضة ناعمة.  
ومطهمة السمينية والبارعة الجمال والمدورة الوجه المجتمع.  
وفعمة استوى خلقها وغلظ ساقها.  
وقسيمة جميلة وكذا الوسيمة.  
وكثمة ريا من شراب وغيره.  
ومكلثمة مجتمعة لحم الخدين بلا جهومة.  
وكمكامة قصيرة مجتمعة الخلق.  
ووثيمة مكتتزة لحما.  
وموشم أو شمت المرأة بدا ثديها.  
وهضيم الهضم خمس البطن ولطف الكشح.  
وبثنة حسناء بضة.  
وبخدن ناعمة.  
وبادن معروف كبادنة.  
وبهانة الطيبة النفس واللين في عملها ومنطقها والضحاكة الخفيفة الروح.  
وبهكة شابة غضة ويقال للعجاء تبهكنت في مشيتها.  
وجهانة شابة.  
وحبناء ضخمة البطن.  
ذات شعر حجن متسلسل مسترسل.

وخليف المرأة التي أسبلت شعرها خلفها.  
 وراقنة حسنة اللون.  
 ومسنونة الوجه حسنته سهلته أو في وجهها وانفها طول.  
 ومشدونة العاتق من الجوارى.  
 وذات عسن الطول مع حسن الشعر.  
 وعكّناء تعكن بطنها.  
 وغيسانة ناعمة.  
 وفينانة كثيرة الشعر.  
 وقتين جميلة.  
 وملسنة القدمين الملسنة من الأقدام والنعال ما فيها طول ولطافة كهيئة اللسان.  
 ووهانة بما فتور عند القيام.  
 وبرهرة البيضاء الشابة والناعمة أو التي تُرعد رطوبة ونعومة والبره الترابية.  
 وذات رهرة الرهرة حسن بصيص لون البشرة ونحوه وترهره جسمه "والأحرى جسمها" أبيض من  
 النعمة وجسم زهراء ورهروه ورهره ناعم أبيض.  
 وفارهة الجارية المليحة والفتية.  
 وودهاء المرأة الحسنة اللون في بياض.  
 وموهوه التي ترعد من الامتلاء.  
 وسجواء الطرف ساجيته أي ساكنته.  
 وعابية حسناء من عبا يعبو أي أضاء وجهه.  
 وحسنة العرية أي المجرد والمعارى حيث يرى كالوجه واليدين والرجلين. تأخذ بيديها اللطيفتين مكشطا  
 وصابونة ودلواً فيه ماء حميم. ثم تحشو على ركبتيها المدملجتين وتطفق تحك عتبة الدار ووصيدها وهي  
 تتذبذب وتضطرب وتتحثث وتتعثث وتمثمث وتتبعج وتحلج وتخلج وترجرج وتمخج وتمعج  
 وتمنجنج وترتجج وتضحضض وتئاود وتتخذد وترعد وتميد وتتأطر وتندهر وتترززر وتسجهر وتمرمم  
 وتململ وتمور وتتحيز وترجز وتتلزلز وتمزمز وتهزز وتهسحس وترهس وتمخس وترخش وتمغش  
 وترتعص وترقص وتنصنص وتوخص وتتخصخص وتلضلض وتمخضض وترتع وترع وترع وتمنوع وتمغضف  
 وترقرق وترق ووتركرك وتروه وتريه وتلوه وتتلوى وتصرى. وربما أُنْفَقَ مع رؤية ذلك سماع آلات  
 الطرب يعزف بها في الشوارع فيا حسن ذلك منظراً ومسمعاً.

ولكن يا أغنياء لندن وأعيانها ألم يكن لكم من وسيلة لمشاهدة هذه الشواخص والجواهرض إلا باذلة عزة الحسن المصون. أيجل لكم انتهاك حرمة الجمال وأجمال أيدي هؤلاء الحسان وركبهن لتلامس أعتابكم. ما بال حيرانكم الفرنسية لا يفعلون ذلك وأنما يسومون خدمتهم تنظيف درج الديار من داخل فقط. فيضع الخادم شيئاً كالقبقاب أو النعل في رجله ويكشط به ما قدر عليه وما لم يقدر عليه يتركه إلى المرة الثانية أو الثالثة. ونحن كذلك لا نكلف نساءنا هذا التنطس الذي لا معنى له. وإنما نكل البهن ما آل إلى الفقش والرفش أي الطعام والفرش. ومع ذلك فترعمون أنكم تحترمون النساء وتعرفون قدرهن أكثر منا. لقد كبر ذلك قولاً. فأما تسريحهن في الليالي ليظفن في كل زقاق وشارع وتسفيرهن إلى البلاد الشاسعة وحدهن فلا يعدّ عندنا من الإكرام لهن في شيء: بل هو أخرى أن يكون ديوية وقرطانية وكتنبانية وديوثية وقمعوثة وقوادية وتوريّة وسقريّة وصقريّة وعزورية ولياسية وطزعية وطسعية وقنّدية وقنّدية ودُسفانية وإدسافية وإمذائية ومُمانويّة. وشعنبية وشقحطبية وأدفاثية وأرفحّية. ليت شعري كيف يكون قلب الخادمة حين تأمرها مخدومتها في كل يوم قائلة حكّي العتبة. أو حين تسألها رفيقتها هل حككت اليوم عتبة سيدتك. نعم لو كانت العتبة وردت عندكم بمعنى المرأة كما هي في لغتنا هذه الشريفة لكان لا يبعد أن يسبق وهما عند السؤال إلى ذلك إلا أن لغتكم يابسة قاسحة لا تحتل التأويل ولا التخريج. ولست أرى لهذه العادة المشطّة من سبب سوى أن أحد كبرائكم كان قد أخذ خادمة رعبوبة والله أعلم منذ ثلاثمائة وخمسين سنة. وكانت امرأته دميمة فغارت السيدة منها فكلفتها حك العتبة والوصيد في كل يوم إذلاً لها في عين سيدها كأنّ القلب لا يعلق بهوى الجميلة المسكينة كما يعلق بهوى الفُنُق. أو كأنّ الشيء الممجمج يحتاج إلى مرفد. أو الشيء المتدملك إلى وشيعة من القطن. أو الغيل إلى غلالة من الخز. أو المكّرة إلى جوارب من حرير. فسرت هذه العادة الذميمة في جميع كبرائكم إلى عصرنا هذا عصر التمدن والرفق بالنساء. وأنتم أسارى العادات والتقليد. فمتى الفتم فعلة لم يمكنكم أن تنتقلوا عنها. وذلك كتكليف الفتیان من خدمتكم ذرّ رماداً أبيض على رؤوسهم حتى يكونوا كالشيوخ من فوق. وككشف عجائزكم في الولاثم عن ترائبهن وأذرعهن. مع أنه لا مناسبة بين أوقات القصوف والحظ ورؤية ترائب منجرد تمّني القوم بالقمة. فأما مواطأة الناس على ما اخترعه الأمراء والأعيان على العادات السيئة فهو غير خاص بكم. بل هو عام أيضاً عند سائر الأمم الأفرنجية.

## وصف باريس

كان وصول الفاريق إلى هذه مدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب فكانت عيناه معمشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص. فلما أصبح أخذ يطوف في شوارعها كالمتفرغ المتبطل فإذا بها ملائنة من المزالج والمزالق والروامج والروامق والجرائي والأطناء والرباي والممؤات والجدّابات والرُجَب والروب والفخوت والحراج واللبج والبياحات والنصاحات والمصايد والفخاخ والشواصر والنوامير والقحازات والدحاحيس والمفاقيس والشصوص والبيضاوات والقفّاعات والمجازف والخواطيف والعواطيف والكُفّف والربق والطبق والعوادق والنشّق والعلاليق والأوهاق والشباك والأشراك والشودكات والأحاييل والكواييل والشهوم والمصالي. فظهر له أن قوام كل شيء وعتاده وملاكه وقطبه العاصمة متوقف على وجود امرأة. فجميع الصُّوب والكُلب والحوانيت والكُفّت والقرايج والكرايج والكناديج والمفاتح والمحاسب والمثابر والأنبار والمخازن والمحارف والمصانع والفناتق والفنادق والدكاكين والقرايق والبلانات والمنامات والحانات والخانات والأفدية والمطاعم والمشارب تديرها نساء وأي نساء. وما من كَعْب أو تأريج أو أوارجة أو أنجيدج أو بُرجان أو جذاء أو برنامج أو عهده أو محضر أو جذر أو صر أو قط أو نداق أو صك أو فذلكة أو سيّال أو ترقيم أو ترقين أو جداء إلا وتتعاطاه المرأة هنا. واللييب من الرجال من أتخذ في حانوته أو محترفه راجماً مليحاً يلوّح به للشارين والمجتازين في السبيل. ولا فرق بين أن يكون ذلك الرامج من أهل بيته أو غريباً وإنما العبرة بانفقاس الفخ على أعناقهم.

هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركنهن فيها أحد من نساء الإفرنج. فمن ذلك أنهن يتكلمن بالغة والحنة والنشيج والهزامج والترنجح والتطريب والسكت والخبرة والنبرة والأجشّ والتعثيث والرجيع والأضجاع والقُطعة والتغريد والتهويد والمد والترسيل والترتيل والفصل والوصل والرجل والهلهلة والإدغام والترخيم والتدنييم والترنيم والروم والإشباع والتفخيم والإمالة والتنعيم والتنعيم والتحزين والحنين والجدن والتلحين والطنن والشجو والترنية. حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن أزرارة أوفقاره. ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء فلو لبست إحداهن مثلاً عبعباً أو حزقت ثوبها لعبّ الناس حب ذلك الععب و صار التحزيق سنة فيهم. وعنهن يؤخذ أيضاً تقصيب الشعر وسبته وتسريحه وتسميده وتجميره وصفره وتطويره وتنفيشه وعفصه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفرقه وكدحه وكدهه وأدراؤه وجدله وتفتيله وتغييته ومشطه الكُعْكُبة والمقدّمة واتخاذ قصة منه أو قرّعة أو قرّعة وجعله مكرهفاً أو مسبلاً. ومن ذلك أنه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطان مرقصاً. فترى المرأة منهن تمشي في الأسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك. ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البلّكي والمازركي والسوتشكي والكدريل والريدوقي والفلس

وغيرها من ضروب الرقص حتى أوريها عنه هنا في حق الماشيات في باريس. ومن ذلك تحكمهن على الرجال وتعزهن عليهم في كل حال وبال. فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها. وإذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلبة القاضية. وهو المصحب المصاحب المدرج المدليح المدمج المكبوح المعنوج المصوب المدبّخ المتزيخ المختضد المسجد المعتسر المشروس المتضع. ولا يزلن طول الدهر وحاماً ولا حبّلاً. وبرمن أن يكون لمن كل شيء صهايباً مؤرباً مرفلاً موفراً مؤفلاً مسبغاً ضافياً مرتباً وافياً تاماً كاملاً. حتى أن اللغة الفرنسية مبنية على هذا الروح. وذلك أنهم يحذقون في اللفظ أواخر جميع الألفاظ المذكورة وينطقون بها في المؤنثة. وعلى ذلك قول الفاريق.

عند الفرنسيين المؤنث واجب

تبلغ آخره إلى الأسماع

وهو الدليل على تروق نسائهم

أو أنه صفة الكمال لهن أن  
وكان أحد التيتانيين من نحاهم غاظه ذلك فجعل من بعض قواعد لغتهم تغليب المذكر على المؤنث. ولكن هيهات فإن امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكراً. ومن ذلك عنوان جمالهن مكتوب على جباههن نظماً ونثراً. فمن النظم

ملك الجمال أعز من ملك له

جند وأعوان وعرش أرفع

ذو الملك تتبعه الجنود تكلفاً

ولذي الجمال الناس طوعاً تتبع

من حارب العين خائنته مضاربه

فمضرب السيف مشحوذ على حجر

وليس يجديه شحذ السيف عن جلده

ومضرب الطرف مشحوذ على كبده

ومن الشر. الكلام بالغة، شفاء من العنة. فرط التهيد أبلغ في التهيد. الخذل جلاء المقل. ضخمة الحماية يفتح للهاة. صغر الأقدام يقزح الأدام. كم صريع في السوق من كشف السوق. أن إبراز الترائب كاشف غمّ النوائب أن العبّأ أملاً للعين واحب. أن الأعجان داعي الافتتان. أن التوق أصل الشنق. لا تفكن إلا ويزيله التبهكن. التهميم أدعى للتهيم والتتيم المغاضنة دليل المحاضنة. غلائل الصيف أمضى من السيف. لا فرار بعد الافترار. لا عاصم بعد كشف المعاصم. توهج الطيب. أشوق للحبيب. رب ابتسامة جلبت غرامة. العين غزالة. والقامة فتالة. الحسن معبود. والدينار منقود. الدينار فكلك الأزرار. من أكثر من الصلة نال ما أمله البضع لذي الدنيا والدنيا لذي البضع. من ذاق عرف ومن غازل هرف. إلى الملهى إلى الملهى. فبادر ثم لا تله. وعللها بكاس ثم عما شئت فاسألها.



والحاصل أن الفرق بين عنوان جمال الفرنساويات وجمال الإنكليزيات هو إن الأول من قبيل التداوي من الشيء بضده. والثاني من قبيل التداوي منه بجنسه. وذلك أن العنوان الأول هو ناطق عن الوبى والفتور والترهل والتربخ والاسترسال والاسترخاء والاسترخاخ والرشحاف والرششة والنشنة والانحرار والشمطة والشمطة والخنت والهنبة واللثة والهلات والابتجاج والطرشحة والامرحداد والترترة والتختر والفيشوشة والتعة والخراعة واللخع والطريقة والرهوكة والثرطلة والغدن والانتطاء المستدعية لنقائضها من الاشتداد والتصلب والاثمثار والتأتب والتقسح والتقسب والتوتر والتعلب والتعرد والتعلد والانراز والتأدد والعص والاستعزاز والتأيد والكأن والاتكاع والتكلد. وجمال أولئك عنوان على هذه الصفات المستدعية لنظائرها وكلاهما في المرأة حسن. ومن ذلك أنهن يرين التقليد في الحب والزى معرة فكل واحدة منهن تجتهد في فنا حتى تصير قدوة لغيرها. أما في الزى فمنهن من تقبب صدرها بقدر ما تقبب نساء الإنكليز بتائلهن. ومنهن من تتخذ لها قبتين من قبل ومن دبر. حتى تكون إذا مشت عاتقة أساتما ومواجهها. وكشف الساق لإبراز الحماة ونظافة الجوارب مطرد لهن. فأما في الحب فمنهن من تريد على صفات المدقم الصفة التي ذكرها أبو نواس في الهمزية. ومنهن من يؤثر التجضم الكمري أو الامتلاج القني. وأكثر الناس حرصاً على هذا الشيوخ المحنكون. فإمصاصهم وتبظيرهم ليس من السب في شيء. ومنهن من تجمع بين اللذتين الخرنوفية والفنقورية ولها سهران. ومنهن من تريد على ذلك ما أراد الشيخ جمال الدين ابن نباتة من شوص الفرخ وله ثلاثة أسعار. ومنهن من تريد عليه الشوص بالأخصمين وله أربعة. ومنهن من تمكن من قفط النودلين وثغر ما بينهما مجرداً. ومنهن من تضيفه إلى اللذتين المذكورتين مع شوص الفرخ بأنامل وأحامص وهو أغلى ما يكون. ومنهن من تتفاحل وتتقدم على أخرى مثلها. وهذا النوع عزيز لا يراه إلا الموسرون. ومنهن من تتعاطى الحرفة الترسية وهو قرع الترس بالترس. ومن أغرب ما يكون أن بعض شيوخ الفرنساوية الذين يشب فكهم وتخيّلهم لهرم أجسامهم ووهن حركتهم يؤثرون على جميع الأنواع المذكورة التلمط بالعدرة وذلك بأن يتضجع أحدهم وهو عريان ويأمر من تستوي فوقه وتماًلأ فمه. ومنهم من يستغني عنه بشرب الزغرب من مشخبه زُغلة زُغله أو بمص القنب. وقد يجتمع رجال بواحدة فيقيمونها بين أيديهم عريانة ويقعد لدى قبلها ودبرها اثنان. ويأخذ آخر في صب الشراب من فوق صدرها وظهرها. فيبادر إليه الرجلان فأغرين أفواههما ويشربانه عند مروره على السمين والنساء المثریات المغتلمات يستعملن رجالاً يقودون إليهن كل من رأوه أبتع من الرجال ولا سيما من أهل الريف. فيدخلون عليهن في بعض الديار وهن متبرقات كيلا يُعرفن ثم يأجرهن على ذلك. وفي الحملة فإن كل ما يخطر ببال النحرير من أمور الفسق يراه الإنسان في باريس بعينه بالعين.

وأعلم أن أهل باريس قد اصططحوا على أمور في المعاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم. أما في المعاش فإن من يأكل منهم في المطاعم الشائعة فإنه يشارط صاحب المحل أو بالحري صاحبه على أن يعطيها في الشهر قدراً معلوماً ويأكل عندها شيئاً معلوماً. فتعطيه تذاكر تؤذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيؤدّي عن كل غداء أو عشاء تذكرة. فيتوفر عليه في ذلك ربع المصروف. وقس عليه الحمامات والملاهي وما أشبهها. فأما أمر النساء فإن أصحاب البيع والشراء لما كانوا قد اتخذوا لإدارة أشغالهم نساء حسناً كما سبقت إليه، فإذا خرجن في الليل بعد انقضاء أشغالهن ترصدتهن الرجال ودعوهن إلى مواضع الأكل والقهوة والرقص واللعب. فتذهب كل واحدة مع من تحب. فمتى رافقته إلى أحد هذه المواضع علم أن حقه صار لازب. فأما أن يستوفيه منها تلك الليلة فقط أو يوافقها على إعادة الوصل في كل أسبوع مثلاً مرتين أو ثلاثاً وإن يعطيها في آخر الشهر أجره معلومة. وما بقي لها من الساعات فإنها تؤجره لآخرين بأجرة معينة. فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهن في أوقات مختلفة من الليل والنهار. ومع ذلك فلا تزال تلقب بدموازل وهي كلمة تطلق على الأبقار على وجه التعظيم. ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص. فيعمد الرجل إلى بنت ويدعوها للرقص. فإذا أعجبتة وأعجبها دعاها للشراب في موضع مخصوص في المرقص وعقد عليها عقد الزيارة الشهري. ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليها نصف ما ينفقه لو قضاها على مرة على حدتها وللنساء رخصة في باريس إن يدخلن جميع المراقص العمومية من دون أن يدفعن شيئاً اجتذاباً للرجال بكثرتهم. ولكن عليهن أن يرقصن معهم إذا استرقصوهن. إلا إذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأن تقول المدعوة مثلاً قد دعاني آخر من قبلك فلا بد لي من أن أرقص معه أو نحو ذلك. ثم لا حرج أيضاً على من اكرت في منزل بيتاً مفروشاً كان أو غير مفروش إن تزوره صاحبه في مسكنه. سواء كانت من النوع الذي ذكرناه أعني من النساء اللائي بمتزلة بين الحرائر والزواني أو من غيره. وإن تبنت عنده على علم من الجيران والسكان. فإن متزلة هذا عند متزلة أهل باريس كمتزلة المتزوج. ولا فرق عند أهل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهن في تقوى الله وطاعة الملك وبين قحبية تتبع عرضها لكل ابن سبيل وتفتنخش لكل مجتاز في الطريق كما تقول التوراة.

وهناك أسباب أخرى كثيرة للفساد في الديار. وذلك أنه لما كانت جميع الأشغال في باريس تديرها النساء وكان منهن غسالات وخدمات لهن يأخذن ثياب السكان وخياطات وفرّاشات وبياعات للمأكول والمشروب والملبوس، أمكن الرجل أن يصاحب واحدة منهن فتأتيه مياومة إذا شاء بحجة إنها تقضيه شيئاً

أو تباع له حاجة أو ملايلة أو مشاهرة أو مساوعة أو محاينة وذلك ممنوع في لندرة. بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها. لأن ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات وكان أصغرهما يحوي في الأقل عشرين ما بين رجال ونساء. أمكن للرجل أن يعاشر إحدى جاراته. بل المتزوجون المقيمون في هذه الديار لا يأمنون على نسائهم وبناتهم لأن الرجل إذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره إلى زوجته مائة مرة في اليوم لم يمكنه أن يعلم ذلك لقرب ما بين المسكين. ولهذا كان أهل باريس أقلّ غيرة على نسائهم من جميع الناس. لأنهم ربوا على هذا ولا مناص لهم منه. ولا يمكنهم أن يربوا أطفالهم عندهم خوفاً من تضجر الجيران منهم. وإنما يبعثونهم إلى الريف من أول أسبوع ميلادهم فيربون في أحجار المراضع وهي عادة حميدة من جهة أن الأطفال يتقوّون هناك بطيب الهواء. وهناك سبب آخر أن المطفل بترشيحها ولدها وتربيته تخسر من نفع حرفتها أكثر مما تعطيه للظئر لأن نساء باريس يباشرون الحرف ولا يرين في التكسب عاراً بأي وجه كان. وهن في البيع والشراء أشط من الرجال ومن تكن جميلة تتقاضى على النظر إلى جمالها شيئاً زائداً على الثمن. ثم أن حالة الرجال مع النساء على المنوال الذي ذكرناه تعد عند هؤلاء الناس من المصالح المهمة المرتبة المطردة. بمعنى أنه ليس من دار إلاّ ويحصل فيها وصال بين الرجال والنساء مع مراعاة حرمة كل من الزائر والمزور. ومع عدم الإخلال بالوقت الموقوت لكيلا يحصل تعطيل للمزور في شغله. ومع مجانبة ما يسوء الجيران من لغط وعريضة. ولا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة أو مومسة تطوف في الليل وهي سكرى كما ترى في لندرة. وندر وجود إحداهن في متأخر الليل. وقلّ من آذت زائرها أو قاصدها.

وهناك فرق آخر بين نساء الفرنسيين والإنكليز من جهة الخلق لا الخلق فالظاهر من نساء الإنكليز في الغالب الكبر والأنفة والصلف. والظاهر من نساء الفرنسيين اللين والبشاشة. إلا أن نساء الإنكليز لا يتدللن على الرجال ولا يجشمهن الترف والتحف والولائم والملاهي والمنازه والفرج. فأكلة من الكباب وكرعة من المزر تكفيان في استجلاب رضاهن. وليس عندهن من الورم والحال. والخلب والاحتال. والدها والنكر والاحتيال ما عند نساء باريس. فيما أن تحب إحداهن مثلاً وترضى معه بالكثير والقليل وأما أن تصرمه. فأما نساء باريس فمهما يظهر منهن من الملاينة والمباغمة، والملاطفة والملاءمة. فإذا عاشرت واحدة منهن وشعرت بأنك ارتبقت في هواها ورُقبت تبغجت عليك وتدللت. وتصلّفت وتمحلّت. وأوهمتك أن مجرد كلامها معك منّة. وأن إرضاءها والخضوع لها سنة وإن كثيراً في عشقها مقيمون ناحلون هائمون ناسمون. حتى تستقل عليها كل كثير من الصلات والهدايا فتقبل منك ما تقبل وأنت لها من الشاكرين. وإذا دعوتها لوليمة فلا بد من إرواتها من الرحيق المختوم. وتوحيهما بأفخر المطاعم. فتلتهم ما تلتهم وتشتفّ ما تشتفّ وهي متشبعة متعففة. متمنعة متظرفة. فإذا ضحكت حسبت

أن ليس لضحكها من نظير. وإذا مشت ودت لو كان خطوها على الديباج والحرير. حتى إن هذا التصلف أيضاً صفة ملازمة للمتزوجات. فإن المرأة المتزوجة في باريس تغرم زوجها على كسوتها فقط ما ينفقه المتزوج من الإنكليز على جميع أهله. فدأب الرجل في باريس وهمه وشغله إرضاء زوجته وهيئات أن ترضى وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

لا يعجب الزوج إلا أن تكون بمن  
وكيف يرضى أمرء يحمي حقيقته  
تحب محفوفة أولاً فاعنات  
بالقرن والقرن أفتوا بها النات

وقال

وداخلة الإنسان تفسد كلها  
ويخرج عنه الحلم لو قيل مرة  
إذا أصبحت زوج له أم خارجه  
له هي في البيت الفلاني والجّه

ولهذا يقال في المثل السائر عند الفرنسيّة أن باريس نعيم النساء ومطهر الرجال وجحيم الخيل. ولما كانت حالة الرجال مع النساء هكذا كان ثلاثة أرباع سكان باريس مسافحين. ونصف الربع الأخير متزوجين زواجاً شرعياً والباقي منقطعون عن النكاح. كذا أخبرني من يوثق بكلامه. ثم أن المومسة من الإنكليز تعرف نفسها أنها حرة أيضاً أن الناس يعرفونها كذلك. فلا تكلفهم احترامها. ولا تسومهم إعظامها. فإما البغي من الفرنسيين فعندها إن مجرد استبضاعها للبضع يؤهلها لأن يكرمها الناس ويداروها. ويجلوها ويسانوها. وذلك لعدم استغنائهم عنها. وجرمهم النفع منها. وقد تقدم أن الفرنسيّة لا يفرقون بين الحرية والبغي وبقي هنا أن نقول أنهم أشد الناس شبقاً إلى البعال. وأقربهم إلى السفاح. وناهيك إنهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة 1793 أقاموا امرأة عريانة على مذبح إحدى الكنائس وسجدوا لها. فصور لحاطرك أيها القارئ كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء البارد الطويلة وكم من ملهى يغص بهم وبهم وكم من مآب. وكم من مائدة تميد لهم بالطعام والشراب. وكم من سرر تهمز. ومضاجع تأز. وأجناب تلز. وأوطاب تمز. وأوتار تتر. أنشدني الفاريق لنفسه في وصف باريس وأجازني روايته:

وفي باريس لذات كما في  
ولكن شأنهن دوام طمث  
جنان الخلد جبر وحوار عين  
لكل أربعون من القرين

وقال في الراقصات

لله در الراقصات لنا على  
نغم المثنائي حيث تجلى الكوب

لو كان يوماً وطؤون عليّ لم

تثقل لديّ من الزمان خطوب

وقال في رامج

ذي الباريزية طلعتها

كالصبح بها قلبي مغرم

في الليل أريد تحيتها

فأقول لها بُنْ جُورْ مادم

قال وكما أن الغريب المسكين ينشرح صدره وينجلي بصره بمشاهدة تلکم الحكايات للأعتاب في لندرة على الصفة التي تقدم ذكرها. كذلك تقرر عينه أمثالهن في باريس طائفات في الشوارع والأسواق من دون غطاء على رؤوسهن ولا ساتر لخصورهن وما يليها. بخلاف عادة النساء في لندرة فإنهن لا يخرجن إلا ملتحفات. قال وعندى إن هاتين الخلتين وهما حك الأعتاب والخروج من دون التحاف هما السبب في قلة وجود العميان في هاتين المدينتين السعديتين. وقلما ترى في رجالها حول أو أزور أو أحوص أو أخص أو أرمص أو أكمس أو أعشى أو أخفش أو أعفش أو أعمش أو أعشب أو أغمش أو أرمش أو امتش أو دادوش أو مدش أو طخش أو غطش أو غفش أو طفنش أو غطمش أو مغطرشاً. أو مطغمشاً أو مطرفشاً أو مطفرفشاً أو مدنفشاً أو مدنقشاً. فعلى كل من كان في بلادنا أعمش ذا عين أن يقصد هذه البلاد ليجلو بصره بهذه المناظر الأنيقة. وليستصحب معه أيضاً لهذه الجلاء جلاء أي لقباً يبيّن عن شرف وسيادة. فإن القوم يعظمون هذه الزنمة ولا يرون للإنسان فضلاً بغيرها. وعلى فرض تحرجه من الانتحال والتزوير فإن غناه يكسبه إياها من عندهم. لأنه متى كان غنياً وجعل دأبه أن يتردد على مواضع اللهو والخط لم يلبث أن يتعرف بزمرة من الكبراء السعداء وإن يزورهم في مغانيهم. وح يسمونه بسمه شرف تشريفاً له وتشرفاً به إذ لا يزورهم إلا الشريف مثلهم. فأما حرص النساء على هذه الزنمة وخصوصاً نساء الإنكليز فهو أوسع من أن يحصر في هذا الكتاب.

### شكاة وشكوى

ثم رام الفاريق أن يستأجر شقة دار يسكنها هو وأهله فأروا عدة أماكن لم تخل من عيوب. وكانت الفاريق في خلال ذلك تتمتعص من ارتقاء الدرج فإن بعضها كان يشتمل على مائة وعشرين درجة فأكثر. حتى إذا تبوعوا محلاً وجدوا موقده رديئاً. فلم يمض على ذلك أيام حتى طفقت تشكو وتقول: يا للعجب كيف تنخدع أحياناً بشيء وتنوه به دون تحقق معرفة حاله. ومتى يستقر ببالهم وجوده على حال من الأحوال يعد تغيير وهمهم عنه محالاً. حتى أن تغيير الوهم من خاطر يكون أصعب من تغيير القين. لأن من تيقن شيئاً فإنما يتيقنه عن علم ومن طبع العالم أن ينظر دائماً في الحقائق وأضدادها ولا يزال

باحثاً عن الصحيح والأصح. فأما الوهم فلا يدخل إلا رأس الجاهل. ومتى دخل فلا يكاد يخرج منه مثال ذلك وهم الناس أن مدينة باريس هي أجمل مدينة في الدنيا. مع أني رأيت فيها من العيوب ما لم أره في غيرها. أنظر إلى طرقها وإلى ما يجري فيها من الدم والنجاسة ومن المياه المتنوعة الألوان. فمن بين أخضر كماء الطحلب واصفر كماء الكركم واسود كماء الفحم.

ويتلاحق بها جميع أقدار المطابخ والمرافق. ورائحتها ولا سيما في الصيف أشد أذى من رؤيتها. فهلا جعل لها مثاعب تحت الأرض أو أبيات تنف منها إلى نهر أو غيره كما في لندن. وأنظر إلى مبلط هذه الطرق حيث تجري المراكب والعجلات. فإنك ترى حجارته قد اختلت وتباعد بعضها عن بعض حتى عاد سير العجلات عليها كطلوع عقبة أو درج فهي لا تزال تهمز واضطرب. وسبب ذلك أن البلاط هنا يفرش فرشاً غير مرصوص ولا منظم بعضه إلى بعض فإذا أتت عليه السنون زاد تباعداً وتخلخلاً. فأما في لندن فإنه يرص بعضه على بعض قائماً فتسير عليه العجلات سيراً سريعاً سهلاً بل قرقرة ولا اضطراب. وأنظر أيضاً إلى برازيق الطرق هنا أي حيث تمشي الناس. فما أضيقتها وأقذرها وأقل جدواها. ففي كثير من الحارات لا يمكن لأثنين أن يمشيا معاً على حافة واحدة منها. بل هي لا توجد رأساً في كثير من الطرق أو توجد غير كاملة من الأول إلى الآخر فتراها قد تعطلت في موضع واختلت في آخر. وأنظر إلى هذه الأنوار القليلة في الأسواق وإلى فوانيسها البارزة من الحيطان وإلى بعد المسافة ما بينهما. فقد يمشي الإنسان في أكثر الطرق من فانوس إلى آخر أكثر من من مائة وعشرين خطوة. وانظر إلى صغر هذه الحوانيت وقلة أنوارها وبؤس أهلها وشحهم. فقلما تجد عند أحدهم ناراً. مع أن هذا الشهر هو من أبرد الشهور. وتأمل هذه الديار وعلو طبقاتها وكثرة درجها ووسخها وفساد ترتيب مرافقها ومراحضها. فقد تجد في الدار الواحدة عدة مراحيض بجانب المساكن وعدة مصاب للماء والأقدار. وناهيك ما يخرج منها صباحاً من الروائح الخبيثة. ومع كون هذه المراحيض قدرة نجسة خالية عن لوالب الماء فليس لها مزاليج من داخل ليأمن الإنسان في حال خلوته من انبعاث أحد عليه. فكثيراً ما يدمق عليه دامق ولما يكن أتى على آخر ما عنده فيلحقه بالبدغ والأمدرد أو الماصع أو الجازم أو الراطم المزرم وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي أن صاحب الدار إذا كان متورعاً يتخرج من وضع المزاليج خفية أن يدخل بعض الساكنين والساكنات معاً ويتحصنوا بها. ومن أقدر ما يرى في حيطانها آثار أصابع مختلفة فكان الفرنسيون يستطيعون الاستطابة بأصابعهم. وحين ينظفونها ليلاً تخرج رائحتها الخبيثة وتنتشر في الحارة كلها. فلا يمكن للإنسان أن يبيت إلا مسدود المنخرين. ثم أن هذه الديار ماعدا كونها تشتمل على ست طبقات فأكثر. وعن ذلك وعن ذلك وعن فساد التبليط يسمع لمرور العجلات قرقرة زائدة كما لا يخفي. وما

عدا كونها تحوي سكاناً كثيرين مابين فاجر فاجر وفاجرة ومستهتر ومستهتره. فإن كثيراً من مساكنها لا يصلح للسكني لخلوه من النور والهواء. ولا يكاد الإنسان يستريح في محل منها. فإنه أما أن يجده قريباً من المرحاض. أو يجد موقده رديئاً. أو يجدي فيه فأراً أو جرداناً. أو يجد جاره ذا صخب ووقاحة يغني النهار والليل أو يعزف بآلة طرب. أو يخلو بالمومسات على هرج ومرج وقرقرة وكركرة. وإن من داخلها ما يضحك ويبيكي. فالمضحك ما يرى من الخلل في هندمة الأبواب والشبابيك وفرش المبلط بالآجر واتصال بعض المساكن ببعض. والمبكي رؤية هذه المواقف فإنها مبنية على شبه القبور وذلك أول ما يخطر ببال الداخل إلى مسكنه. فهي جديرة والحالة هذه بأن تكون صوامع للرهبان المتبتلين لا مضاجع للناس المتزوجين. وأغرب من ذلك أن أبواب الديار لا تزال مفتوحة. وإن البوابين يتعاطون الحرف والصنائع في كنّ لهم يلزمونه ليلاً ونهاراً. فمنهم من يشتغل بالخياطة ومنهم بحذو النعال ونقلها أو غير ذلك. بحيث أن كل إنسان يمكنه ارتقاء الدرج بلا مانع. وقل أن يبصر البواب من كنه أحد لأن عينيه أبداً ملازمتان للإبرة أو الأشفى. ولذلك كانت دواعي الفساد في باريس أكثر منها في لندن. وما يرى هنا من الديار البهية والطرق الواسعة الحسنة فإنما هو حديث عهد. فكيف كان لباريس شهرة في الزمن القديم وديارها العتيقة وطرقها العهيدة مما ينبو عنه الطرف وتقذره النفس فأين هذا من شوارع لندن الرحبية الوضيئة ومن دكاكينها الواسعة الظرفية المزججة بأحسن الزجاج وأنفسه. ومن ديارها النظيفة المهندمة. قال فقلت ومن حكاكات أعتابها. فقلت ومن أعتاب حكاكاتها. ثم استمرت تقول ومن مساكنها الأنيقة ومن دراجاتها الحسنة التي لا تزال مكسوة بالزرابي الفاخرة. أيم الله أن صعود خمسين درجة منها لأهون على من صعود عشر درجات هنا. وأين تلك المواقف البهية المصفحة بالحديد اللامع المجلو في صباح كل يوم. وتلك الشبابيك والطبقان المحكمة التزجيج. وأين تلك المطابخ التي لا يزال فيها نور الغاز متوقداً والماء الساخن عتيداً للسكان. وكم فيها من وصائف خُرَدَ يتمنى أعظم المخدومين عندنا أن يكون لإحداهن خادماً أو طبّاحاً. قلت بل لا بجا. قالت أو لاحساً.

إلا وأين حسن نهر تامس وما فيه من سفن النار التي تسير إلى ضواحي لندن في الصيف وفيها آلات الطرب. فتراها ملائمة بالرجال والنساء والأولاد فكأنما هي رياض مزينة بالأزهار. وأين تلك الحدائق الكثير وجودها في كل جهة في المدينة وهي التي يسمونها تراييع. ومن يسكن في غرفة مطلة عليها يخيل له إنه مريف. فإذا مشى بعض خطوات وراها رأى الناس وازدحامهم إقبالا وادباراً. ثم أين تلك الأنوار المتوقدة. في كل من الطرق والدكاكين بحيث أنك إذ كنت في أول الشارع وسرحت نظرك إلى آخره أدهشك حسننها وازدهارها. وظننت أنها نسق كواكب قد نظمت في سلك واحد وإنما يمدح باريس من لم يكن قد رأى لندن أو من رآها بعض أيام ولم يعرف لسان أهلها. ثم أين ملاطفة مكريات المساكن

ورفقهن بالنازل عندهن غريباً كان أو لا. فإن الغريب إذا تبوأ منزلاً عندهن يصبح وقد صار واحداً من أهل البيت. لأن كلاً من صاحبة المنزل ومن الخادمة وما أدراك ما الخادمة. تلاحظه وتؤانسه وتقوم بخدمته وتطبخ له وتشتري له ما شاء من السوق. وتطلع إليه كل يوم بالماء الساخن وتضرم له النار وتمسح نعاله. لعمري أن النازل عندهن يمكنه أن يتعلم اللغة الإنكليزية بمحاورته معهن في أقصر مدة. فأما في باريس فإن النازل في أحد المساكن قد يموت في ليلته ولا يعلم به أحد. فإن بينه وبين البواب بعداً بعداً. وفي أكثر المساكن هنا لا يجد الإنسان جرساً ليطنه فيتحرك له البواب. ثم أين استقامة تجار لندن وصدقهم في البيع والشراء وتودّدهم إلى الشاري وأنهم معه من تجار باريس الذين لو قدروا على سلخ جلد المشتري ولا سيما إذا كان غريباً لما تأخروا. وإنهم قد حاكوا تجار لندن في وضعهم بطاقة الثمن على البياعات. ولكن هيهات. فإن من سعر حاجة بمائة فرنك مثلاً يبيعها بثمانين. وقد يضعون في وجوه الحوانيت أصنافاً من البضاعة مسعرة فإذا أردت أن تشتري شيئاً من ذلك الصنف جاءك بصنف دونه في الجودة. وحلف لك إنه من عين ذلك الراموز ولا يزال بك مبريراً مثرثراً وحالفاً وحائثاً حتى تشتريه حياءً أو خصماً للتراع. وغير مرة يعطون الشاري فلوساً أو دراهم زائفة. فأما باعة المأكولات والمشروبات فإنهم أكثر غشاً وشططاً في هذه المدينة من سائر الناس. ولهم في الوزن لباقة لم أرها عند غيرهم. وذلك أن من باعك شيئاً موزوناً يطرحه في كفة الميزان. وأول ما تميل به الكفة يرفعه بلباقة ويسلمه لك. ولو أرسلت إليه خادمك أو أبنك لباعه نفاية ما عنده وكان على السنجة اشد غضباً. هذا ما عدا غشهم المأكول والمشروب وتغييرهم الأسعار بتغيير الأوقات والأحوال. وهذه البلباقة معروفة أيضاً عند باعة الأصناف كيلاً وذرعاً.

فأما ما يقال في مواضع التره والحظ في باريس وذلك كحديقة قصر الملك وما يليها فلعمري إن من رأى حدائق كريمون وفكس هال ورجفيل التي في ضواحي لندن ماعدا **Cremorne Gardens** حدائق **Vauxhall Rosherville** كثيرة في حاراتها فلا يطاوعه لسانه بعدها على ذكر غيرها. نعم إن حديقة القصر هنا حسنة على صغرها لكونها في قلب البلد وتلك منحازة عن الوسط. ولكن آه من قلب هذا البلد. كم من فاسدين وفاسدات تجمع هذه الحديقة في كل يوم فهي عبارة عن حابور. لأن النساء ينتبنها ليتصيدن منها الرجال. إذ تجلس المرأة على كرسي بجانب ممن أعجبها وهي لا تعرفه. ويكون بيده كتاب يطالعه ويبيدها منديل تخيطه أو نحو ذلك. فيطفق هو يقرأ في الكتاب كلمة وينظر إليها نظرة وهي كذلك تملّ ملة وتهجل هجلة فلا يقومان إلا وهما متعاشقان. حتى إذا كان اليوم القابل تبدّل كل منهما مقامه وعشقه. أما الجمال فليس من مناسبة بين جمال نساء باريس ونساء لندن فالذابة أو الخفوت هناك تعد هنا عبهراً ولعزة الجمال هنا صار عزيزاً فإن الشيء متى عزّز فكان كلف الناس به أكثر



وتنافسهم فيه أشد. ومن أعجب العجب عندي أن الجملة الرائعة في لندن تطوف بأخلاق من الثياب. والدميمة الشوهاء في باريس ترفل بالحرير والكشميري فأما مواضع الرقص فإنها في لندن تفتح كل ليلة وفي باريس ثلاث مرات في الجمعة لا غير. وفي أكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جوارى حسان وآلات الطرب ليلاً ونهاراً من دون غرامة ولا كلفة. وليس كذلك في باريس إلا ما ندر.

وغاية ما يقال في التنويه بباريس وفي تفصيلها أن فيها مواضع للشراب والقهوة ظريفة يجلس داخلها وخارجها الرجال والنساء متقابلين ومتدابرين. فهل مجرد القعود على كرسي يحكم لها بالفضل وتشهر عند الخاصة والعامة من أعصر متعددة بأنها أجمل مدينة في العالم. ثم أين حشمة فتیان الإنكليز وتأديهم مع النساء سواء كانوا في البيوت والشوارع من فتیان الفرنسية هؤلاء الهصاهيص الذين يهصهصون في النساء حرائر كن أو بغايا. ومتى ينظروا امرأة مكّبة لربط شراك نعلها يطيفوا بها فيصيروا لخلقتها حلقة ولحارها حتاراً. ولا سيما حين يأتون إلى هذه المناصع ويبدون فيها منادفهم - قال فقلت استمري في الحديث وقولي ما شئت بحيث لا تقفين على المنادف. قالت أتغار علي أيضاً من الوقوف بالكلام. وإنما وقفت بُهراً من هذه الدنيا المبينة على النادفية والمندوفية. لا جرم لو إني كنت في مقام ملك أو أمير لما أكلت ممّا مستّه أيدي الرجال شيئاً.

وبينما هما في الكلام إذا برجل يطرق الباب ففتح له الفاريق وهو مستعيز من حوله على ذكر المنادف. وإذا به يقول. قد سمعت بقدومك فأنتيك رغبة في أن أقرأ عليك في العربية شيئاً وأعطيك في مقابلة ذلك خمسة عشر أفرنكاً في الشهر. فلما سمعت الفاريقية أغربت في الضحك على عادتها وقالت لزوجها. دونك أوّل دليل على كرم أصحابنا هؤلاء الذين طبل بذكرهم العالم ورمّز. فقال له الفاريق ما أريد منك مالاً وإنما تبادلني الدرس في لغتك عن لغتي. فرضي بذلك. ثم زاره أحد علماء باريس بعد أيام وقال له قد بلغني قدومك وإنك مُوَلَّع بالنظم. فلو أبياتاً على باريس وذكرت ما فيها من المحاسن لقام ذلك عند أهلها مقام توصية بك. لأن الناس هنا يحبون الإطراء والتمليق أي يحبون أن الدخيل فيهم يطريهم بالإطراء. وإذا كانوا هم دخلاء في غير بلادهم أطروا على حكام تلك البلاد ونالوا عندهم الوجاهة والمكانة. فأجابه الفاريق إلى ذلك ونظم قصيدة طويلة في مدح باريس وأهلها سماها الهرفية لأنه مدحهم بحازفة من قبل أن يعرفهم. وسيأتي مع نقيضتها الحرفية ومع نبذة مما نظم به باريس في الفصل العشرين. فلما وقف العالم الموما إليه على معانيها أستحسنها جداً وترجمها إلى لغته. وتوصل في أن طبع الترجمة في إحدى الصحف الأخبارية وجاء بنسخة منها إلى الفاريق وهو يقول. قد طبعت ترجمة قصيدتك في الصحيفة وقد وعدتني جمعية العلم الآسيوية "نسبة لآسيا" بأن تطبع الأصل العربي في صحفهم العلمية. لكونك أول شاعر مدح باريس باللغة العربية. فشكره الفاريق على ذلك وقال له إني أريد نسخة من

هذه الترجمة. قال أنها في مكان كذا بنحو ثلثي أفرنك فसार وأشتري نسخة.

ثم قدم عليه بعد أيام بعض من قرأ تلك الصحيفة وهو يقول. قد قرأت ترجمة قصيدتك وأعجبتني. فهل لك في أن تبادلني الدرس؟ قال هو كما أريد. فأستمرّ يتردد عليه أياماً في خلالها عرّفه بالعالم المشهور مسيو كترمير Quatremere وهذا العالم عرّفه بمدرّس اللغة العربية مسيو كسّان دُبرسُفال Caussin De Perceval ثم تعرف أيضاً بالمدرّس الثاني مسيو رينو Reineaud ولكن كانت معرفته بهم كأداة التعريف في قولك أذهب إلى السوق وأشتري اللحم. ثم زاره أيضاً أحد الأعيان الذين يتقدم أسماءهم أداة دُ وهي علامة النبالة والشرف وهو مسيو دُ بوفورت De Beaufort وكان له أخت في دارها مدرسة تعلم فيها بنات الكبراء. فلما حان وقت امتحانهم في العلم صنعت مائدة في بعض الليالي وأدبت إليها الفارياقية وزوجها. فقال الفارياق لزوجته. هاك مثلاً على كرم القوم فقد مضى عليك مدة وأنت تشكين من الوحدة ومن بخل من تعرّفت بهم وتقولين أنهم لم يؤدّبوك قط. وقد كان يؤدّبك في بلاد الإنكليز من كان يعرفك ومن لم يعرفك، حتى أنك كثيراً ما كنت تتضجرين من ذلك. لما أنه كان يلزمك له تغيير زيك ووقت غذائك وحرمانك من الدخان. فأبشري الآن أن أصحابنا بالخير قمينون حريون. قلت كل منهم قمين حري. ثم سهرنا تلك الليلة عند أخت "الد" الموما إليه على أحسن حال وأصفى بال. فرجعت الفارياقية إلى منزلها بقلب آخر وهي تقول. نعم لقد تفضل بوفورت وأحسن كل الإحسان. وقد رأيت من نساء الفرنسيات من البشاشة والطلاقة ما لم أكن أصدقه. نعم ويعجبني منهن هذه الغنة والحنّة التي تكثر في كلامهن وهذا هو الذي جعل اللغة الفرنسية فيما أظن مستحبة. وهي من الأولاد أشجى وأطرب. فقلت الظاهر أن العرب أيضاً تحب هذه الحنّنة. فقد قال سيدي صاحب القاموس نخم وتنخم دفع بشيء من صدره أو أنفه. ونخم لعب وغنى أجود الغناء. فضحكت وقالت أظن صاحبك كان يهوى مخنّنة وإني أشفق من أنك لا تلبث أن تسري إليك عدواه. سلمت بان الغنة بل اللثغة بل اللدغة تستحب من الغلمان والجواري. ولكن هل يطيق فتى أن يسمع عجوزاً خفخافه تخنّخن عليه في أنفه. وهل تطيق شابة خنّة شيخ هرم في خياشمتها.

نعم ويعجبنيمن العامة في باريس أنهم لا يسخرون من الغريب إذا رأوه مخالفهم لهم في زيه وأطواره بخلاف سفلة لندن فأهم يسلقونه بالكلام. ربما تكلف الواحد منهم أن يناديه من مكان بعيد حتى ييح وما ذلك إلا ليقول له أنك يا غريب دموي ملعون. ولعلي في ذلك مخطئة. قال فقلت بل مصيبة فإن جميع الناس يثنون على أدب الفعلة وسائر العامة في باريس وعلى حسن كلامهم. لبثا مدة وهما يقابلان محاسن باريس بمحاسن لندن. فمما كرهت الفارياقية في باريس غاية الكراهة هو إن النساء يرخصن لهن في دخول

الديار مهما يكن من تخالف أنواعهما. وزعمت أن ترتيب الديار في لندن بهذا الاعتبار أحسن. فقال لها الفاريق لا ينكر أن ديار لندن أحسن ترتيباً باعتبار أن درجتها قليل وإن سكانها قليلون ملازمون للسكون. وإن أعتابها تحك في كل يوم. وإن في مطابخها ربات قديمة وإن داخلها مهندم مفروش بالبسط الجيدة إلا أنها بلون النار. فأما ديار باريس فأما أبقى على الأحوال ومنظرها في الخارج أزهى. فأما مع المومسات عن دخول تلك وترخيصهن في دخول هذه فهو في دليل على أتصاف المومسات في باريس بالأدب. بخلاف مومسات لندرة فإنهن يتهتكن في الشرب والمومس. ولذلك منعهن من الدخول إلى السكان. وهناك سبب آخر وهو أن بغايا باريس معروفات في ديوان البوليس وأسماءهن مقيّدة فيه. فلا يتجرأن على التفاحش والتهتك وإن كن فواحش. فأما بغايا لندره فقد خُلّين وطباعهن.

ثم مضت مدة على الفاريقية وهي تقاسي من الخفقان ألماً مبرحاً. فكان يلزمها أياماً متوالية ثم يخف عنها. وفي خلال ذلك أدبت مرة أخرى عند أخت "الد"، فسارت معزوجة وهما متعجبان من هذا التكرم الذي لم يجدا له في باريس نظيراً. ثم أشتد بالفاريقية المرض ولزمت الفراش فأحضر لها طبيبين من النمساوية فعالجها مدة حتى أفاقت قليلاً. وكانت أخت الد قد تزوجت برجل اسمه **Ledos** فلما جاء أخوها ذات يوم إلى الفاريق على عادته وجد الفاريقية تئن وتشكو من بلوغ الألم منها. فقال لزوجها لو استوصفت صهري دواء لزوجتك فإنه خبير بخصائص النبات وقد أبرأ كثيرين من هذا الداء. فسار إليه الفاريقية وسأله أن يأتي معه ليرى زوجته. فقال له أي غير مرخص لي من الديوان في مداواة المرضى ولكني لا آبي أن آتي معك رجاء أن يحصل شفا امرأتك على يدي. ثم أتى ووصف للفاريقية أن تشرب ماء بعض أعشاب تغلى وبعث لها من ذلك بستة قراطيس. فلما فرغت وطلب الفاريق غيرها جاءت أخت الد أعني زوجة المتطبب تقول. أن زوجي يتقاضاكم خمسين أفرنكاً ثمن القراطيس. فلما سمعت الفاريقية ذلك تراجع إليها نشاطها وبادرهما أجمع وقالت لها. أما تستحيين أن تطلي هذا المبلغ على ستة قراطيس من العشب وزوجك ليس بطبيب. فقال لها زوجها ولكن اذكري أن المرأة أدبتنا إلى شرب القهوة والشاي مرتين وقد تخلصناهما بأشياء من الحلواء والكعك فلا ينبغي مقابقتها. ثم جدال طويل ونزاع وبيل رضيت أخت الد بأن تأخذ نصف المبلغ المذكور فأقبضها إياه الفاريق فولت وهي مدمدمة وأنقطع أخوها عن الزيارة. ومن هؤلاء المتطبيين من إذا رأى غريباً بش في وجهه واحتفى به ودعاه إلى منزله وواصل زيارته إلى أن يراه يشكو من سعال أو غيره فيصف له دواء. ثم يتقاضاه غرامة رابية على كل زيارة جرت بينهما من أول تعارفهما. ويأتي بجيرة المحل شهوداً على الرجل في إنه كثير التردد على منزله وأدعى أن مرضه كان مزمناً. وحامل لواء هذه الزمرة اللئيمة هو دلكس **Dalex** المتطبب المقيم في لندرة

في Beners Street No 61 Oxford Street ثم رجع الطبيب النمساوي إلى مداواة الفارياقية فلما نفهت شار عليها بالسفر من باريس فاستقر الرأي على تسفيرها إلى مرسلية. فقالت لزوجها قد طاب الآن لي السير من أرض ما فيها خير. هؤلاء معاركك الذين أتيتهم بكتب توصية من لندن والذين تعرقت بهم بعد ذلك هنا بوسيلة علمك لم يدعك أحد منهم إلى باريس على كرسي في بيته. وهذا لامرتين الذي أبلغته كتاب توصية من الشيخ مرعي الدحداح في مرسلية كتبت إليه تسأله عن أمر فلم يجبك. مع أنك لو كتبت إلى الصدر الأعظم في دولة الإنكليز لأجابه لا محالة سواء بالسلب أو بالإيجاب. وهذا المتطبب صهر الدَّغَرْمَا على ستة قراطيس خمسة وعشرين أفرنكاً مع إن هذا الطبيب النمساوي وصاحبه قد عاجلني مدة وعنيا بي ولم يتقاضياك شيئاً. وكذلك تفعل أطباء لندن جزاهم الله خيراً. أفكل الناس يكرمون الغريب ويرفقون به إلا أهل باريس. لقد كنت أسمع أنه يوجد في الدنيا جيل ملاذون وملاثون ملاقون ولآذون ولثيون محاحون مرامقون ملقيون ممدقون غملجيون مبدخون مطرطرون مطرمذون خيتعوريون مبهلجون مرامقون مذكعون طرفون خيدعيون قشعون مقطاعيون اعفكيون مجذاميون جذامريون كموصيون هملعيون منبجيون تلماظيون بذلاخيون وما كنت أدري أي جيل هم.

فالان أغنى الخبر عن الخبر. وتحققت أن هذه الصفات التي كنت استكثرها إن هي إلا بعض ما يقال في أهل هذه المدينة. فإن مودتهم يقطينية أي تنبت سريعاً كالقطين ولا تلبث أن تذوي. ومواعيدهم عرقوبية طالما وعدوا فأخلفوا. ومنوا فأزهفوا. وحالفوا فحشوا. وعاهدوا أفنكثوا ييشون بالمغتر بهم ويهشون. ثم هو إن لازمهم ملوه. وإن غاب عنهم نسوه. وما ينجزه غيرهم بنعم ولا فهم يرتبكون فيه أياماً وليالي يبدؤونه بأساطير طويلة. ويختمونه بتهاتر وبيلة. فأما بخلمهم على غير المراقص فيضرب به المثل. وناهيك إن نارهم في الشتاء كنار الحباحب. ولو أنهم أوقدوا ناراً كنار الإنكليز لرأيت جوهم أكثر دجنة ودكنة من جو أولئك. وإنهم في الصيف لا يستسرجون وما عندهم غير هذين الفصلين من فصول السنة فأما بردعارم وأما اغتم ملازم. إلا وإن أحدهم ليتزل إلا فرنك أجرة من يعمل له منزلة الدينار عند الإنكليز. على أن بلدهم أغلى أسعاراً من لندن في لوازم المعيشة أو مثلها. أرأيت إنكليزياً يعمل لحسابه بالفلس كما يعمل أهل باريس حسابهم بالصنتيم؟ بل أن كثيراً من الإنكليز لا يعلمون كم في صلديهم من فلس. نعم وإن "أي أهل باريس" ليكتب إليك مكتوباً في شأن مصلحة تقضيها له ولا يدفع جعله. ولقد يضحكني من فخرهم أنهم يأكلون ابشع المأكول ولا تزال أعاؤهم ملثا من شحم الخنزير. ثم هم إذا خرجوا إلى المحافل والمثابات بالغوا في التفخل والرفلان غاية ما يمكن وإن كثيراً منهم يغلقون في الصيف كواهم وشبابيهم ولا يفتحوها أبداً. يوهمون الناس إنهم قد ساروا إلى بعض منازة الريف ليصيفوا فيه كما تفعل

كبراًؤهم. وإن كثيراً منهم ليتقوتون بالخبز والجبن نهاراً ليبدوا في الملاهي والملاعب ليلاً. وإن أشرفهم وذوي الدّ منهم يأكلون مرتين في اليوم ويفطرون على محار البحر. والناس كلهم يأكلون ثلاث مرات والإنكليز أربع مرات.

ولكن معاذ الله أن تكون الفرنسية كلهم كاهل باريس. وإلا فيخسر ما ضاع الثناء عليهم كما ضاع ماء الورد في غسل مرحاض.

فأما نساء باريس المضروب بأدبهن وظرافتهن المثل فلعمري إنهن جنح بمخبرات وأكثرهن لا يسوغن ولا يتلجن ولا يعتركن ولا يشمذن ولا يستنجين ولا يتخذن الفرام ولا المعايئ ولا الفراض ولا الثمل ولا الجدائل ولا المماحي ولا الربد. وليس لهن من نظافة إلا على ما ظهر منهن من نحو قميص ومنديل وجورب. ولذلك تراهن أبداً يكشفن عن سيقانهن وهن ماشيات في الأسواق صيفاً وشتاء. بدعوى رفع أذيالهن عن أن تمس النجاسة في الأرض. فمتمكن منهن سوقاء افتخرت بساقها وبجوربها معاً ومن تكن نقواء افتخرت بالثاني. وليس في نساء الأرض كلها أكثر منهن تيهاً وعجباً وزهوا وإرباً وتعنفصاً أخذاً ومجاجة وغطرفة وتبغنجاً. سواء كن قباحاً أو ملاحاً. طوالاً أو قصاراً وهو الغالب فيهن. عجائز أو صبايا. حرائر أو بغايا. ذوات لحى وشوارب أو نقيات الخد. مذكرات الطلعة والسحنة أولاً. على أي لم أر في جميع النساء تذكيراً إلا في نساء باريس وأيرلندا غير إن هؤلاء لسن مزهوات مغانيج كالباريسيات وإنما الذي صيرهن إلى ذلك هو شدة شبق الرجال عليهن. وقرمهم إليهن. فترى الفرهد الغساني مخاصراً لسعادة منهن ومتدلاً ومطيعاً لها. فلقد أصاب الذين يتزوجون منهم في بلادنا الجوّاري السود تخلصاً من أسرهن وسرفهن. وقد رأيت عامتهن لطاعات أي يمحصن أصابعهن بعد الأكل ويلحسن ما عليها. فأما ذوات الشرف فإنه يغسلن أيديهن في فنجانة على المائدة بحضرة المدعوين ويتمضمضن بالماء ثم يقذفنه فيها. فهل ذلك يعد من الظرافة والأدب. أليس فعلهن أفظع من التحشئ عندنا. وإنما يمدح محاسنهن ويهيم بهن من الفت عينه النظر إليهن بعد مدة. وهب أن نساء باريس ظريفات كيّسات ولكن ما شأن هؤلاء النساء اللاتي يقدمن من السواد والبراغيل والراذانات والرساتيق والمذارع والدساكر والفلاليج. فمنهن من تغطي رأسها بمنديل فلا يبين منهن إلا شعيرات من عند فوديهها. ومنهن من تلبس طرطوراً من القماش على رأسها. حتى أن أهل باريس لا يتمالكون أن يضحكوا حين يرون واحدة من هؤلاء الباديات. وأقبح من ذلك لهجتهن. وفي باريس كثير من النساء يكنسن الطرق ويتعاطين أعمال الرجال. وفي بولن وكالي ودياب وهافر وغيرها من الفرض تجد النساء يحملن أثقال المسافرين على ظهورهن ورؤوسهن. وليس في بلاد الإنكليز كلها من حمالات إلا لأصحاب الأثقال. وزيهن كلهن سواء. فكيف

يزعم الفرنسيون إنهم جميعاً متمدنون. ولعمري لو كانت النساء في بلادنا يخرجن في الأسواق سوافرن ويبدن قوامهن وخصورهن وسوقهن كنساء باريس، لما تركن هن أن يذكرن معهن بالجمال والظرفة أصلاً. إلى مصر إلى مصر بلاد الحظ والأرب. إلى الشام إلى الشام. معان الفضل والأدب. إلى تونس نعم الدار فيها أكرم العرب. كفاي من الإفرنج ما قد لقيتُه وعندي إن اليوم في قريهم عام. ألا دعني أسافر من بلاد أسقمت بدني بمأكليها ومشربها وبرد هوائها العفن. فقال لها الفاريق إن كنت تطيقين السفر فشأنك. فقالت لموتي في الطريق إلي أشهى من التخليد في دار اللثام. فمن ثم تأهبت له. غير أنه حصل لها في غد ذلك اليوم من الضعف والألم ما منعها عن الحركة. وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي:

### سرقة مطرانية ووقائع مختلفة

لما نكبت نصارى حلب وجرى عليهم من نهب المال وهتك العرض ما جرى، اجتمعت رؤساؤهم في الدين وارتأوا أن يبعثوا من طرفهم وكلاء إلى بلاد الإفرنج ليجمعوا لهم من دولها وكنائسها ومن أهلها الخيرين مدداً يقوم بأودهم. فاختارت الكنيسة الرومية الأرثوذكسية الخواجا فتح الله مراش واختارت الكنيسة الرومية الملكية المطران اتناسيوس التتوني مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة. ورجلاً آخر معه يقال له الخواجا شكري عبود. فاقبلوا يجولون في البلاد حتى انتهوا إلى مملكة أوستريا فجمعوا منها مبلغاً. وكان معهم منشور من مطراني الكنيستين المذكورتين في حلب يؤذن بوكالتهم من الطائفتين في هذه المصلحة. فلما فرغوا في بلاد النمسا قدم الخواجا فتح الله المزبور ورفيقه الخواجا شكري عبود إلى باريس ومعهما ذلك المنشور. وبقي المطران هناك على عزم أن يجتمع بهما في بلاد الإنكليز. وإنما لم يقدم معهما إلى فرنسا مع أنه هو وكيل الكنيسة الملكية وهي على مذهب الكنيسة الفرنسية. لما أنه كان سابقاً ارتكب فيها من إساءة الأدب وتعدّي طور أمثاله ما أوجب حبسه ثم طرده منها مدحوراً. فخشى والحالة هذه أن يشهر أمره هذه المرة فيها فيحقيق به سوء عمله. فلما أبرز رفيقه منشور الوصاة المطران باريس والتمسا منه المعونة عجب من رؤيته اسم المطران التتوني مذكوراً فيه دون رؤية سحنته. فقال لهما ما بال وكيل الكنيسة الملكية لم يحضر معكما. فاعتذرا عن غيابه بأعذار لم يقبلها منهما المشار إليه. وتذكر ما كان فعله التتوني من قبل فردّهما خائبين. وكان الخواجا فتح الله مراش ورفيقه يترددان على الفاريق مدة مكثهما في باريس. لكن تردد الأول أكثر. وإنما أنس به الفاريق مع علمه بأنه رفيق التتوني لكونه لكونه رآه من ذوي المعارف والدراية ماعداً كونه متزوجاً وله عيال. وقلّ من كان على مثل ذي الحال وانطوى على غش ودخل. لأن العلم بلطف العقل والعيال ترقق القلب. ثم أرتبك المطران في رطمه في بلد

من بلاد أوستريا وهو فيما أظن بولونيا. ففصل منه على نكظ وخزي وسار إلى بلاد الإنكليز مجتدياً. ويومئذ أرسل إلى رفيقيه المذكورين أن يلحقا به. فما مضت بعد سفرهما أيام قليلة حتى ورد إلى الفاريق كتاب من كاتب اللجنة "أي جمعية أخوية" وفي ضمنه كراسة من كتاب كان قد عربه الفاريق من كتب العجم وفيها ما يسوء اللجنة. فأيقن حينئذ بأن أحد رفيقي المطران عند تردهما عليه سرقها من مخدعه بإشارة المطران. وإنه لما أجمع به في لندن سلمها له فأهداها المطران إلى اللجنة طمعاً في إيصال الضرر من جانبهم إلى الفاريق. غير أن اللجنة المذكورة لما كانت منطوية على أخلاق كريمة ردت الكراسة على الفاريق. إذ لم يكن لهم بحفظها من مصلحة. وكان ورود الكراسة يوم عزمت الفاريقية على السفر. فبلغ منها الغيظ والحزن كل مبلغ حتى لزمت الفراش. فأما المطران فإنه تصدى له في لندرة بعض رؤساء الكنيسة الباباوية ومنعوه من تعاطي الحرفة الساسانية. حتى أن شنعته وشهرته هناك عطلت أيضاً على غيره ممن كان يجتديهم لمصلحة من مصالح الكنيسة. فحسبوا كل قادم إليهم من بلاد الشرق منافقاً.

أما الفاريقية فلما نقتها بعد أيام وصممت على السفر فكتب لها زوجها كتاب توصية إلى المولى المعظم سامي باشا المخم في مدينة القسطنطينية. ثم شيعتها وسفر معها اصغر أولاده تسلياً لها. ولما حان حان الفراق توادعاً وتباكياً وتواجداً حتى إذا لم تعد العين تجيبهما بالدمع وهي العسقة والعسقية والتبغيض رجع إلى منزله مستوحشاً مكتئباً. وسافرت هي إلى مرسلية فزال ما كان بها وشفيت أتم الشفاء. لكنها لم تغير نيتها عن السفر إلى إسلامبول. ثقة بأن هذا الفراق يكون سبباً في وشك اللقاء. فلما بلغت مقام المولى المشار إليه وأدت كتاب التوصية لولده النجيب الحسيب صبحي بيك إذ كان والده حينئذ غائباً، أكرم مثواها وأحسن إليها غاية الإحسان. وهذا مثال آخر على الكرم الشرقي ينبغي أن يبلغ مسامع الأمراء الغربيين من الإفرنج. وفي غضون ذلك نظم الفاريق للموما إليه قصيدة يمدحه بها على كرمه ومعروفه. ولزوجته أبياتاً أودعاً ذكر ما لقي من وحشة النوى وستأتي كلها في الفصل التالي الذي هو خاتمة هذا الكتاب. ثم أنتقل من منزله ذاك إلى غرفة وجعل دأبه في كل يوم نظم بيتين على بابها. ثم بلغه قدوم السيد الأكرم الأمير عبد القادر إلى باريس فأهداه أيضاً قصيدة وتشرف بمجلسه. ثم عيل صبره من الوحدة فاستماله بعض معارفه إلى اللعب بهذه الأوراق المزوقة فصار من زمرة المقامرين. لكن جهله بها كان غير مرة يبعث شريكه على العربة عليه. فكان يرضى بأن يكون حرضه فقط. "الحرضة أمين المقامرين" ثم تعرف برئيس تراجم الدولة وهو الكونت ديكرانج فأما غيره من التراجميين وشيوخ العلم ومدرسي اللغات الشرقية فلم يطأ لهم عتبة. لأنهم نفسوا عليه بمائهم وبضيجهم وبودهم وكلامهم

ولقائهم حتى إنهم أبوا أن يطبعوا له قصيدته التي مدح بها باريس بعد أن وعدوا بذلك. وما كان خلفهم إلا حسداً ولؤماً.

## نبذة مما نظمه الفاريق من القصائد والأبيات

### في باريس على ما سبقت الإشارة إليه

أي فاريق، قد حان الفراق فإن ذا آخر فصل من كتابي الذي أودعته من أخبارك ما أملني والقارئين معي. ولو كنت علمت من قبل الأخذ فيه بأنك تكلفني أن أبلغ عنك جميع أقوالك وأفعالك لما أدخلت رأسي في هذه الربكة. وتجشمت هذه المشقة. فقد كنت أظن أن صغر جثتك لا يكون موجباً لإنشاء تأليف كبير الحجم مثل هذا. وأقسم إنك لو تأبطته ومشيت به خطى على قدر صفحاته لنبذته وراك وشكوت منه ومن نفسك أيضاً إذ كنت أنت السبب فيه. وما تمنعني صداقتي لك إذا وقفت على أحوالك بعد الآن إن أولف عليك كتاباً آخر. ولكن إياك وكثرة الاسفار، والتحرش بالقسيسين والنساء في الليل والنهار. فقد مللت من ذكر ذلك جداً. ولقيت منه عناء وجهداً. والآن قد بقي عليّ أن أروي عنك بعض قصائدك وأبياتك. ولكن قبل الشروع فيه ينبغي أن أذكر حكاية حالي.

وهي إنني لما كنت في هذه السنة بمدينة لندرة وشاعت أراجيف الحرب بين الدولة العلية ودولة روسية نظمت قصيدة في مدح مولانا المعظم وسلطاننا المفخم السلطان عبد المجيد أدام الله نصره وخلد مجده وفخره وقدمتها لجناب سفيره المكرم الأمير موسورس فبعث بها جناب فخر الوزراء سيدي رشيد باشا بلغه الله ما شاء فلم تمض أيام حتى بعث المشار إليه الأمير السفير يخبره بأنه قدّم القصيدة للحضرة السلطانية في وقت رضى وقبول ووقعت لديها موقعاً حسناً. وإنه صدر الأمر العالي بتوظيفي في ديوان الترجمة السلطاني. فكان هذا الخبر عندي أسراً ما طرق مسمعي. فينبغي لي الآن إن أتأهب للسفر لا تشرف بهذه الوظيفة. ولكن أعلم أيها القارئ العزيز إنه لما كان همي وقصاري مرامي كله إنجاز طبع هذا الكتاب قبل سفري إلى القسطنطينية وكان مكثي في لندرة موجباً لتأخيرته. لأن أجزاءه المطبوعة كانت ترسل إليّ فيها لأصححها آخر مرة من قبل الطبع. أشار إليّ الخواجا رافائيل كحلا الذي ولي طبع الكتاب بنفقته إن أسافر إلى باريس تعجلاً لطبعه فأجبت إلى ذلك. وكان وقتئذ في مرسى لندرة سفينة نار للدولة العلية يراد تسفيرها بعد مدة. فالتمست من صاحبي الخواجا نينه الذي قدم مع الخواجا ميخائيل مخلع في مصلحة متجريه بأن يراقب وقت سفر السفينة ويخبرني بذلك لئلا تفوتني فرصة السفر معها.



وكان للخواجاج نينه المذكور بعض حاجات ومآرب في باريس جلها بامرأته فوكل بشرائها بعض معارفه هناك. حتى إذا اشتراها له أوعز إليه في أن يسلمها لي وكتب إليّ كتاباً يقول فيه أن السفينة لا تلبث أن تسافر فالأولى سرعة رجوعك إلى لندرة. فصدقت قوله وأقبلت أسعى إلى لندرة وأنا موجس أن تكون السفينة قد سافرت دوني. وتركت التصليح على عهده الخواجاج رافائيل الموما إليه. فلما وصلت إلى لندرة تبين لي أن نصيح صاحبي لم يكن مقصوداً به حاجة حضوري ولكن إحضار حاجته معي ليتوفر عليه بذلك جعلها ومكسها ولتتزين بها زوجته قبل انقضاء أوانها. فإن السفينة بقيت في المرسى مدة طويلة لتصلح آلتها على علم من ناصحي. فكان قدومي إلى لندرة هذه المرة الثانية سبباً في تأخير الطبع أيضاً لأجل لزوم إرسال الصحائف إليّ لأنظرها قبل الطبع كما سبقت الإشارة إليه. ولولا ذلك لنجز الكتاب سريعاً. غير أنني أحمد الله تعالى على أنه لم يعرض له من الأمور النسائية إلا ما أوجب تأخير طبعه فقط دون أبطاله ونسخه بالكلية. فقد طالما أشفقت عليه من ذلك كما أن الفاريان يشفق على فساد ترجمته من أمثال هذه العوارض. وهذه القضية مصداق على ما قالته الفاريانية في الفصل التاسع من الكتاب الرابع من أنه قد يجتمع اثنان في زواج أو في شركة أو غير ذلك ويكون قد تقرر في بال أحدهما إن له منة على صاحبه. فمتى وردت على سمعك يا صاحبي نصيحة من أحد فأنشر طيها وأسبر غورها لتعلم هل الغرض منها نفعك خاصة أو نفع ناصحك وحده أو نفعكما معاً. ولكن لا تبتدئ بنصيحتي هذه فإني لم أقصد بها إلا مجرد نفعك فقط. وأعلم يا فاريان إنه قبل تشرف قصائدك وأبياتك بإدماجها في هذا الكتاب يجب عليّ أن أشرفه والقارئ أيضاً بالقصيدة المشار إليها وهي:

الحق يعلو والصلاح يعمر	والزور يمحق والفساد يدمر
والبغي مصرعه ذميم لم يزل	آتيه عرضة كل سوء يثبر
والوغد تبطره من النعم التي	يغنى بها الحرّ الكريم ويشكر
طغت الطغاة الروس لما غرهم	في الأرض كثر سوادهم وتجبروا
كادوا ويرجع كيدهم في نحرهم	فطلاهم دون القواضب ينحر
المعتدون ولا نهى تنهاهم	الظالمون القاسطون الفجر
نقضوا العهود وكان ذلك دأبهم	لؤماً وللعنوان بغياً اضمروا
حتى أرى بعض المآثر رأسهم	بخس الحقوق وساء من يستأثر
أيظن أن الدولة العليا السويد	وإنه هو بطرس المتأخر
كلّا ليرتدعنّ ثم ليعلمنّ	أن ربّها من يبتغيها يثار

يا مسلمون تثبّتوا أن جاءكم  
لا يغررَنَّكم كثير جموعهم  
يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا  
هذا جهاد الله يحمي عرضكم

في لنّ تتالوا البر حتى تنفقوا  
وتمسكوا بالعروة الوثقى من  
يغنيكم التكبير والتهليل عن  
فألقوهم بهما كفاحاً تظفروا  
واغزوهم بحراً وبراً واحشدوا  
لو لم يكن منكم سوى نفر لما  
من كل فتاك إذا اعترضت له  
انتم عباد الله حقاً فاعبدوا  
وأحموا حقيقتكم فحفظ ذماركم  
غاروا على الإسلام حتى ترفعوا  
لا تسمع الأجراس في أوطانكم  
وليسمعن اليوم في أرجائكم  
فلذاك أشجى من غناء مطرب  
لكن يد الله القوية معكم  
ما أن يقاويكم بهم من عسكر  
قد قال في الذكر المفصل ربكم  
ما الله مخلف وعده لعباده  
قد كان مولاكم وهاهو لم يزل  
ولربما شرعوا الرماح عليكم

نبأ عن الروس العدى وتبصّروا  
فالحق ليس يضيره المستكثر  
متطوعين إليه حتى تؤجروا  
فاسخروا عليه بكل علق يُدخر

مما تحبون الدليل الأظهر  
الصبر الجميل على القتال وذمّروا  
إن تعملوا فيهم سلاحاً يبتز  
وعليهم صولوا وطولوا وانفروا  
ركباً وفرسانا ونسرههم أنسروا  
غلبوا فكيف بكم وأنتم أكثر  
يوماً شعوب يُدمر  
للدين فهو بكم يعزّ ويجبر  
فرض عليكم ليس عنه تأخر  
أعلامه فلکم به أن تفخروا  
بدل النداء ولا ينجس منبر  
قرع القوانس بالظبي أو تخدروا  
بمسامع القوم الذين به ضررا  
توليكم أيداً فلن تتقهقروا  
لو أن ملء الأرض طراً عسكر  
حقاً علينا نصرهم فتذكروا  
أن هم بعصمته أتقوا واستنصروا  
وزراً لكم أيّان كنتم يخفر  
لكن على إنفاذها لن يقدروا

لن يعمل البتار إلا أن يشا  
والنار منهم أن يُرد إطفأؤها  
وإذا يشاء يثّل عرشهم فلن  
غاروا على حرم مخدرة لكم  
أيقودهن اليوم علج فاجر  
ولئن يكن نجسا ورجساً مسها  
الصبر محمود ولكن حين تنتهك  
لا خير في عيش يقارف ذلة  
شهد الإله بأنه مولاكم  
والله قد وعد المجاهد منكم  
ويوئى الشهداء خير مبوّاً  
الحرب بينكم سجال فأنبتوا  
في أهل بدر عبرة لكم ألا  
أبُلوا ليرضى ربكم عنكم فمن  
كم بين من يأتي القتال تطوعاً  
يقتاده ويسوقه مولى له  
ويبيعه لو شاء للنخاس مع  
لا عرض يمنعهم ولا كرم لهم  
يتترعون إلى الفواحش حيث مع  
وكذا الطغام إذا عدتهم مدحة  
سعدوا ولكن ربّ سعد ذابح  
ولعل نسرهم المدموم واقع  
لن يفلح العاثون ما عاشوا ولا  
أو لم يعوا ما جاءهم عن طغى

الله ما شيء سواه مؤثر  
برد فلا تلظى ولا تتسعر  
يستقدموا عنه ولن يستأخروا  
قد طالما أخصنّ عن يعهر  
وسيو فكم بدمائهم لا تقطر  
فبخوضها قد حلّ أن تتطهروا  
المحارم لا أرى أن تصبروا  
حاشاكم أن تفشلوا أو تدبروا  
ونصيركم فبحمده فاستظهروا  
فتحاً مبيناً في الكتاب فابشروا  
جنات عدن ملكها لا يغبر  
والنصر عقبى أمركم فاستبشروا  
يا قوم فليتنكر المتذكر  
أبلى فعند اللاتمية يعذر  
ومسخر كرها عليه يجبر  
فظرنيم غاشم متغشمر  
ولد له وبزوجه يتسرّر  
يثنيهم في الناس عن أن يفجروا  
أهل المحامد فاتهم إن يذكروا  
ودّوا بأية شهرة أن يشهروا  
للفائزين به إذا لم يشكروا  
فمن الهلال علاه ضوء يبهـر  
العاثون ما رعدوا ولن يتيسروا  
من قبلهم بطراً وأنى دُمروا

أم يعجزون الله إذ يملئ لهم  
أو أن يمدهم بجند لا ترى  
لو أن تخرمهم وهم مرحون في  
أو يرسل الطير الأبابل التي  
ما كان عبّاد البعيم ليغلبوا  
من كان يُرضي الله خالص سعيه  
من لم يصخ أذنًا لنصح وليّه  
من أبطرته نعمة المولى عتا  
من لم تكن تغنيه قسمة رزقه  
من يتكل سفها على جند له

من ظن أن يقوى بقوة بأسه  
من غالب القهار عاد مخشياً  
من سرّه في يومه كفرانه  
من كان يوماً راغباً في عاجل  
من كان من بين الورى سلطانه  
سلطاننا الأسمى الذي سعدت به  
نشر العدالة في البلاد فكلنا  
ولكلّ جيل في ممالكه يد  
ما أن عداهم عدله وأمانه  
أنا إذا أتخذ العدى طاغوتهم  
لسنا نروم بغير طاعته إلى  
كلّا ولا في غير خدمتنا له  
كفر المبايع غيره والمعتدى

عن أن يغار لقومه أن ينصروا  
وبمنشئات مخر لا تبحر  
أمن رخيو البال ريح صرصر  
قد أهلكت أمثالهم لأكثروا  
قوما على إيّاك نعبد يُحشر  
في الناس فهو بكل خير يجدر  
ركب الضلال ولم يُفده المنذر  
عسفاً وغشمة يمين ويغدر  
فاذا اشرأب إلى الزيادة يخسر  
دون الإله يحق به ما يحذر

وسلاحه وذويه فهو مغرّر  
مستضعفاً وكلا يُذل ويقهر  
وأفاه في غده العذاب الأكبر  
عن أجل أودي به ما يؤثر  
عبد المجيد فإنه لمظفر  
أيامنا وزهت فدته الأعصر  
مستأمن في ظله مستبشر  
منه وآلاء تعمّ وتغمر  
سيان هم أعسروا أو أيسروا  
ربّاً لناتمر الذي هو يأمر  
الرحمن من زلفى ولا نتخير  
عرض وإخلاص لنا وتبرّر  
بغياً وطغياناً عليه اكفر

من ذا يحاكيه على ومناقبا  
لو أنه اقترح الوجود تحكماً  
من جوهر الإخلاص صورّ ذاته  
ولاه أمر الدين والدنيا معاً  
وهو الذي بين الملوك مقامه  
وهو الذي بين العباد محبيب  
يستدفعون الضر فيهم باسمه  
أن قال لم يستثن مما قاله  
ليس الفرنج مشايخي أعدائه  
أفمن يكون على هدى من ربه  
أم من له الخلق الكريم يقاسم  
أم يستوي في العرف والإمكان من  
أيه أمير المؤمنين ومن دعا  
سد بالمعالي فائقاً كل الورى  
وسعت عوارفك العميمة سؤلنا  
حتى لقد كلّت خواطرنا بما  
نطق العبي بفرض مدحك مفصلاً  
ولقد أضاء الكون مجدك كله  
نظر الطغاة إليك نظرة حاسد  
أن يجلبوا فالله ما حق جيشهم  
إن المحال من المحال إذا جرى  
ما كان جمعهم سوى كسف هبت  
ليست فروق لغير عرشك وهي ما  
أنت الذي بمديح وصفك تتجلي

ومن الذي فضلى حلاه ينكر  
ما زاد فيها غير ما تنتظر  
رب قدیر كيف شاء يصور  
فهو الإمام الحاكم المتأمر  
الأعلى يكرم هيبة ويوقر  
ومعظم ومبجل ومعزز  
وعلى المنابر حمده المتكرّر  
أحد وأن يفعله فهو مخير  
ما هم لهم حزب ولاهم معشر  
كغوي استهواه جبت منكر  
بالنكد اللئيم جبلة وينظر  
يهب الجزيل ومن يشح ويضمّر  
أيه أمير المؤمنين فقد سرّوا  
مجدا وشأنك البغيض الأبتّر  
الأقصى وما بالبال منا يخطر  
اقترحنا وأنت منقل لا تضجر  
حتى الجماد يكاد عنه يعبر  
حتى استوى في العمي والمبصر  
فتجروا مضضاً بها وتحسروا  
أو يمكروا فلمكر ربك أكبر  
بخلاف طبيّته وحق مقدر  
والشمس ليست بالهباء تستر  
بقيت على الفرقان ليست تقفر  
عنا الهموم وافقنا يتعطر

وتصحّ أحلام الأمانى في غد  
ما أن يفى نظم اللآلى مدحة  
لم يبق ما بين الورى من ناطق  
حرس الإله جنابك الأعلى ولا  
وأدام دولتك العلية ما سرى  
أنشدت تاريخين هجريين في  
عبد المجيد الله أركى ضده  
اللاهى بها والدهر انكد اعسر  
لك باللهى من سحب كفك تنتثر  
إلا وعن آلاء فضلك يخبر  
زالت عبادك في حماه تخفر  
نجم وما زخرت كجودك أبخر  
ختمي مديحك وهو حظي الأوفر  
سلطاننا خير بجد ينصر

سنة 1270 سنة 1270 القصيدة الهرفية في مدح باريس أذي جنة في الأرض أم هي باريس ملائكة  
سكانها أم فرنسيس وهل حور عين في منازلها ترى وإلا فكل حين تخطر بقلبي وهل ذي نجوم ترجم  
الهم في الدجى عن البال أن يخطر به أم نباريس وهل زهرة الدنيا ترى في هودج تمر كبرق خاطف أم  
طواويس نعم أنها خلّد النعيم وشاهدي رياض وحوض دافق وفراديس ونهر وعليون فيها كواعب على  
سرر مرفوعة واعاريس وفاكهة مع لحم طير ونضرة وراح وريحان وروح وترغيس وأعمدة تحبو السحاب  
دونها كان لها فوق السماكين تأسيس هنيئاً لمن منها تبوّأ منزلاً وطوبى لمن فيها له تاح تعريس إذا شدة أو  
كربة بك برحت فحجّ إليها فهي للكرب تنفيس  
فتونس منها وهي تونس غبطة فين المقامين اتحاد وتجنيس وإن تك يوماً قانطاً من لبانة فرؤيتها أطلاب ما  
منه ميئوس بما ما يقر العين من كل إربة وما تشتهي نفس وما تألف التوس وفي ذكر ما فيها تلذ لذادة  
تطيب بما عن غير وهو محسوس هي المنهل المورد من كل ظامى القصيدة الحرفية في ذمها أذي عبقر في  
الأرض أم هي باريس زبانية سكانها أم فرنسيس وهل ذي نساء في مواحلها ترى وإلا فكل حين تخطر  
جاموس وهل ذا شرار يجلب الهم في الدجى إلى البال أن نبصر به أم نباريس وهل زهرة الدنيا ترى في  
هودج تمر كعير ظالع أم مطافيس نعم أنها مأوى الجحيم وشاهدي شقيون في ساحاتها ومناحيس وفسق  
وعليون فيها فواجر على سرر مرصوعة وتناجيس وأكل من زقوم يحبث طعمه وشرب من الغسلين يسقيه  
إبليس وأعمدة تلقي الشياطين عندها كان لها فوق الخبائث تأسيس شقاء لمن منها تبوّأ منزلاً وتعسا لمن  
فيها له تاح تعريس إذا شدة أو كربة بك برحت بما فأنا عنها فهو للكرب تنفيس وبرّز عليها أن يفتك  
مبرّز فين المقامين اتحاد وتجنيس وإن تك يوماً طامعاً في لبانة فرؤيتها يأس لما هو محدوس بما ما يسوء من  
كل إربة وما تحتوي نفس وما تكره التوس وفي ذكر ما فيها يسوء إساءة تفوق على ما خفته وهو  
محسوس هي المنهل المسموم حتف لظامى ولزائريها الخير أجمع مبجوس هي الأمن من جور الخطوب فما

على عرير بما ضميم يُحاذر أو بؤس نعم هي من عين الزمان تميمة فما أمها ذو عسرة وغدا في سو فما  
نعمة فيها تشان مجاسد ولا صفو لذات يقانيه تسجيس ولا نجس ذي حق من الناس حقه فيا حسن دار  
حيث لاحق مبخوس فلا ذام فيها يستبين لعائب سوى هادم اللذات ما دونه طوس عليها بماء الملك والعز  
والعلی ومنها سخاء المجد والفخر مقبوس إلى مثلها يُنضى الرشيد مطيه إذا كان يُلقى مثلها وتجي العيس  
هو العيش فأغنم طيبه في ربوعها فإنك فيها ما أقمت لمرغوس وإنك منها لست يوماً بواجد بديلاً ولو  
أمسى وراءك برجيس وأنت فيها ضارب كُرة الأسي بمحجن بشر ليس يتلوه تعيبس وأنت منها مجتن ثم  
المنى فإن بما الفوائد مغروس إذا رث العمر منك فأنت من قشيب حظاها ريق العيش ملبوس فبت آمنأ فيها  
وقم باكراً إلى مراتع لهُ لم تشبه وساويس ولا ترغب عنها إلى غيرها تكن كمن شاقه بعد السعادة أنكيس  
فدهرك فيها ما أقمت مسالم وللزائريها الشر أجمع مبجوس هي الخوف من كل الخطوب فما على عرير  
بما إلا المخاطر والبوس نعم هي في عين الزمان قذی فما أتاها أمرؤ إلا ومنها غدا في سو فما نعمة فيها  
خلت عن محسد ولا وطر إلا وقاناه تسجيس وتبخس ذا حق من الناس حقه فيا قبجها دارا بما الحق  
مبخوس فلا روح منها يستبين لناصب سوى هادم اللذات ما دونه طوس عليها ظلام الكفر والظلم والخنى  
ومنها أوار الفسق والفحش مقبوس وعن مثلها ينضى الرشيد مطيه إذا كان يُلقى مثلها وتجي العيس هو  
العيش فأغنم طيبه في سوائها فإنك فيها ما أقمت لمنحوس وإنك لا تلقى لها من مُشابه برجس ولو أمسى  
وراءك برجيس وأنت فيها ضارب كرة المنى بمحجن ياس تلوه الدهر تعيبس وأنت منها مجتن ثم الأسي  
فإن بما أصل المحارم مغروس إذا كان ثوب العزّ عندك معلماً فمن نغص في عيشها هو مطلوس فبت صابراً  
فيها وقم باكراً إلى نعيم سواها لم تشبه وساويس ولا ترغب فيها ولو ليلة تكن كمن شاقه بعد السعادة  
أنكيس فدهرك في دار سواها مسالم وقدرك مرفوع وشملك محروس فآثر بما ليلاً على عام غيرها على  
فرض أن الليل إذ ذاك آدموس ولا غرور أن تزداد في العمر حقبة ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس لقد  
كنت أخشى الحين في غير منشأى فقدني بما بشرى إذا أنا مرموس وقد طالما عللت نفسي برغدها فبت  
ولي أحلام خير وتغليس فالفيتها يربو على الوصف حسنهما فما ثم أشباه لها ومقاييس وفيها من العزّ الكرام  
أعزة جحاح ضرابون يوم الوغى شوس لقد فطروا طبعاً على الودّ والوفا جميعاً فما يعرفهما عوض تلبس  
لئن سُبِقوا سبق الوحود فانه ليسبقُ جسماً ظله وهو مدعوس لهم في سماء العلم شمس براعة وفي الأدب  
الطامي العباب قواميس فكهم فيهم من عالم متقن له لتطليس آثار المعارف تطريس  
إذا أغطشت آفاق أمر فإنما يجليّه لفظ موجز منه مهموس وكم فيهم من فاضل ذي استقامة تقيم قوام  
الدهر إذ هو منكوس وتمسكه أن لا يجور كأنما وتعدّل في كلتا يديه قساطيس وربّ خطيب لفظه فوق  
منبر يبين ولو بُلغته وهو معكوس يشف خفي الغيب عما يقوله وقدرك مرفوع وشملك محروس فآثر بما

ليلاً على عمر بذي على فرض أن الليل إذ ذاك آدموس ولا غرو أن تزداد في العمر حقبة ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس لقد كنب أخشى الحين في غير منشأي فيا شقوتي فيها إذا أنا مرموس وقد طالما حذرت نفسي فسادها فبت ولي أحلام سوء وكابوس فألفيتها يربو على الوصف قبجها فما ثم أشباه له ومقاييس وفيها من القوم اللئام ثعالب ولكنهم أن يؤدبوا أسد شوس لقد فطورا طبعاً على الغدر والجفا جميعاً فلا يغرك في ذاك تلبيس لئن سَبَقوا سبق الوجود فانه ليسبق جسماً ظله وهو مدعوس لهم في بحور الشك وطالما تغشّتهم منه ضلالا قواميس فكم فيهم من مدّع صلف له لتطريس آثار المعارف تطليس إذا ما انجلت آفاق فانه ليخفيه لفظ موجز منه مهموس وكم قيهم من فاضل من فضوله اعتدال قوام الدهر أحذب منكوس يحاول لوماً أن يميل به فلا تعدل في كلتا يديه قساطيس وربّ عيى لفظة فوق منبر يسوء ولو بلغته وهو معكوس يشفّ خفيّ العيب عما يقوله فيبصره من طرفه بعد مطموس وكم فيهم من خير صالح له أنا الليل تسبيح طويل وتقديس وكم فاتح منهم وما بارح الحمى كتائبه أقلامه والقراطيس وكم بينهم من ليث حرب إذا سطا جريء له فيها احتناك وتضريس حمام إذا هيجوا حياة إذا اتقوا أسود إذا صالوا جابرة هيس إذا سمحوا لا نوا وإن حمسوا فسّوا ويرثون فضلاً أن بغيرهم قيسوا أولو همّة دانت لها همم الورى وفخرهم في ذاك كالدهر قدوموس بشاشتهم للضيف خير من القرى وما لقراهم لو تأخر تبنيس وأكرمهم مثنى الغريب سجية فيغدوا أقناه أهل وتأنيس مديحهم يشدو به كل رائح وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس لقد أكرموا هذا اللسان وأهله فمال زال يحظى عندهم وهو مدرّوس وقد ألفوا فيه تأليف جمّة وجلّت لهم فيه شيوخ وتدرّيس يعزّ الفتى بالمال عند سواهم وعندهم تغنيك عنه الكراكيس فقل لمباريهم تحدّوا لغيرهم فإن مجارة المجلّين تمويس شعارهم حرّية وأخوة وتسوية كلّ بذلك ناموس فلا فرق بين الدون والدون في القضا فيبصره من طرفه بعد مطموس وكم فيهم من فاسق عاهر له أنا الليل تجديف طويل وتنجيس وكم طامع في الملك منهم سفاهة كتائبه أقلامه والقراطيس وكم من طفيلي لكل وليمة جريء له فيها احتناك وتضريس حمام إذا زيروا حياة إذا اجتدوا أسود إذا لاسوا جابرة هيس إذا سألوا لا نوا وإن سئلوا قسّوا ويربون شحاً أن بغيرهم قيسوا أولوا جشع من دونه جشع الورى وصيتهم في ذاك كالدهر قدوموس بشاشتهم للضيف في زعمهم قرى وفي وعدهم مّين ومطل وتبنيس وإكرامهم مثنى الغريب سجية إذا كان ذا زوج وبالزوج تانيس هجاؤهم يشدو به كل رائح وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس لقد جهلوا هذا اللسان وأهله فما زال يخفى عنهم وهو مدرّوس وقد لفقوا فيه أساطير جمّة وشطّط لهم فيه شيوخ وتدرّيس يعزّ الفتى بالعلم عند سواهم وعندهم ليست تفيد الكراكيس فقل لذوى الدعوى المبارين منهم لعمرى مجارة المجلّين تمويس شعارهم حرّية وأخوة وتسوية لكن عدا ذاك ناموس فلا فرق بين الدون والدون في القضا وإريسهم في اليسر والرفة أريس ترى كلّ فرد منهم كيساً له



مشاركة في العلم والفضل ما كيسوا وإن لهم من سيمياء وجوههم دلائل أن الخير منهم مانوس وأن لهم رزقاً كريماً رضوا به فما هم مسقى ما رب فيه تدنيس فتحسب كلاً حلّ صرحاً ممرّداً تحيته فيه سلام وتقليس فما نظرت عيناى فيهم صاغرا ولا عن الخيرات والرشد مرجوس أراى سعيداً محبّراً في جوارهم ومن لم يزر هذا الحمى فهو منحوس عفوت عن الأيام سالف ذنبها فقد شفعت فيها وفي الناس باريس فلا فرق في الدون والدون في القضا وأريّسهم في الأمر والنهي أريّس ترى كل فرد عاتياً طاغياً له مشاركة في الحكم مع إنهم خيسوا وإن لهم من سيمياء وجوههم دلائل منهم أن الشرّ مانوس وأن لهم رزقاً حراماً رضوا به فشأنهم أسفاف ما فيه تدنيس فتحسب كلاً حلّ ماحور رية تحيته فيها سلام وتلقيس فما نظرت عيناى فيهم فاضلا ولا من عن الآثام والرجس مرجوس أراى كثيراً نادماً في جوارهم ومن زار يوماً أرضهم فهو منحوس وجدت على الأيام عتياً بعيشها فقد أخبثته والبرية باريس وقد كنت في مدحي لها قبلُ مخطئاً فهذا له كفارة وهو مركوس

### القصيدة التي أمتدح بها الجنب المكرم الأمير عبد القادر

#### بن محيي الدين المشهور بالعلم والجهاد

ليس السرور يخاطر في خاطري	ما دام شخصك غائباً عن ناظري
حبي له والشوق ملء سرائري	يا من على قرب المزار وبعده
ما ضرني أن كان غيرك غادري	أن كنت لي يوماً فديتك وافيّاً
وإذا وصلت فلم أبال بهاجر	فإذا رضيت فكل سخط هيّن
لم أخش شيئاً بعد ذلك ضائري	وإذا بقربك كنت يوماً نافعي
وكماله وجماله ذا الزاهر	يا فانتني بدلاله وشماله
لا جيد مدح شمائل لك باهري	عقلي سلبت ومهجتي فأرددهما
في وصف حسن حلاك وصفة شاعر	وليعلم العذال إنني صادق
أرأيت قبلي محرقاً بالفاتر	يا محرقى شوقاً بفاتر جفنه
يا شمس حسن قد تملك سائري	يا بدر تمّ لاع قلبي حبه
لكن له طبع الغزال النافر	يا ظبي أنس شاق عيني شكله
ووعدتني عدة ولو في الظاهر	هلا رثيت لحالتي ورفقت بي

كَلَمَ الحشا مني وعيدك قَسْوَة  
وفطرت قلبي بالجفا عمداً فلا  
أفْهكذا فعل الحبيب بحبّه  
لو كنت تدري ما لقيت من النوى  
مذ غبت عنك أرتد عن طرفي الكرى  
وأزداد سقمي واستثيرت لوعتي  
أنّي وحق هواك غاية مطلبي  
من يوم لحتَ لناظري ما لا قنى  
ما كان حسن سواك يوماً شائقي  
أهوى لأجلك من حكاك بشكله  
كيف اصطباري اليوم والأجل انقضى  
وبمهجتي إنّي أراه ساعة  
هَبّه أتى فلقد يراني ساهراً  
أنسيت عهدي حيث ملت مع الهوى  
أما أنا فكما علمت على النوى  
شيثان لست أطيق صبراً عنهما  
هو ذلك الشهم شهدت له  
ومناقب محمودة وشمائل  
هو ذلك المولى الممدح سعيه  
هو ذلك الفرد الذي أفعاله  
وهو المهيّب لدى الملوك نزاهة  
من معشر العرب العريق نجارهم  
العاملين بمحكم التنزيل في  
الناحرين إذا دَعَوْا وإذا دَعُوا

قبل الفراق بأن تكون معاسري  
عجب إذا ما قلت أنك فاطري  
أم صرت بعدي عاذلي لا عاذري  
لرحمتي وودت أنك زائري  
من بعد ما هدى ارتداد الكافر  
وبدا بحبك ما تكن ضمائري  
وسنا محيّاك الصبيح الناضر  
شيء ولم يملأ جمال الناظر  
كلا ولا لحظ لغيرك ساحري  
لا شكله إذ ذاك دون النادر  
وأبيت إرضائي بطيف زائري  
قبل الممات معانقي ومسامري  
والطيف ليس براقد مع ساهري  
ولقد عهدتك ما ذكرتك ذاكري  
والقرب صبّ فيك غير مغاير  
ذكرى هواك ومدح عبد القادر  
كل البرية بالفعال الفاخر  
مرضية ومحامد ومآثر  
عند الإله وعند كل مفاخر  
أمدوحة البادي وفخر الحاضر  
والنازح الصيت الكريم الطاهري  
أهل المكارم كابرا عن كابر  
التحريم والتحليل حزب الحاشر  
يا للبراز فنحرمهم للناحر

المؤثرين على خصائصهم وقد  
ولرُب قوم يحسبون خلاقهم  
ولديهم ردُّ التحية مِنَّة  
يُحيي الليالي بالدعاء تهجداً  
ويروع أفئدة الرجال لقاءه  
في قلب كلِّ محنِّك من رُعبه  
وبكل حرف من بليغ كلامه  
الفضل شيمته وسيمته التقى  
يولى الندى قبل السؤال وبشره  
يغنيهم عن أن يمتوا عنده

نظروا إلى الدنيا كشيء غابر  
فيها وغابر لهوها كالغابر  
كبرى بها أحياء عظم ناخر  
فيميت في الأعداء أي جماهر  
حتى يخوروا عن نداء الناصر  
ما عنه يحجم كل ليث زائر  
حرف يقلِّهم كحرف الباتر  
لله واسترباح أجر الصابر  
لزائريه مؤذن ببشائر  
بضرورة وخَتِّهم وأواصر

جهد الزمانَ غلاؤه فكبا ولم  
ولقد يكون النسر يوماً واقعاً  
فاللَّه ينصر من يغار لدينه  
واللَّه غز يداول الأيام ما  
سكن الأمير وطارق في الدنيا اسمه  
فالعجم بين موقر ومبجل  
يا ناصر الدين العزيز وحزبه  
يا خير ناهٍ عن تعاطي مُنكرٍ  
لا تخش من بأس فربك قاهر  
كن كيف شئت فإن أجرك ثابت  
لك حيث شئت عناية صمدية  
فاذا مدنت فأنت أعظم خادر

يبرح لديه وفيه سورة آفر  
ويعود بعدُ إلى مطير الطائر  
واللَّه يخذل كل عات فاجر  
بين العباد لسابق ولقاصر  
وروى المعالي عنه كل معاصر  
والعرب بين مُفاخر ومنافر  
يا خير صَبَّار وأعظم شاكِر  
وبخطة المعروف أفضل أمر  
بدعائك الميمون جيش الجائر  
في اللوح وهو أجل زخر الذاخر  
ترعى حماك ونصر ربِّ قادر  
وإذا ظعننت فأنت أكرم سافر

القصيدۃ التي أمتدح بها الجناب المكرم النجيب الحسيب صبحي بيك

## في إسلامبول

أرى الدهر صافاني ومال إلى الصلح  
وأصغي إليَّ الجد حين دعوته  
أتاني على الإبحار والبرِّ برّه  
فلم تكُ إلا دعوة فأجابني  
ولو لم يجرنني من زماني بفضله  
وحنت بأشجاء التمني فإن لي  
فلي في نهار جهد سبح وخرفة  
إذا كنت لا أشكو إليه فمن عسى  
ومن ذا الذي تلقاه في الناس مسجحاً  
خلائق لا يوفي الثناء بوصفها  
أغار على أوصافه الغر إنها  
هداني له جدِّي وقد كنت غاوياً  
وكان زماني مازحاً فمزحته  
فصار لشعري رونق وطلاوة  
وقد كان في سوق الأعاجم كاسداً  
فكم بتُّ أنضي خاطري لمديحهم  
ولم يغن عني ما مدحتهم به  
ولم ينقدوا كفارة الكذب الذي  
ولو أنني راسين عصري فيهم  
فها أنا ذو ربح ولست بمفتر  
فحل يا زماني بين فوزي ومطلبي  
فلي باسمه استفتاح كل قضية  
ألا فليزرنني اليوم من كان مزريراً

ومن بعد حرمانني أثنائي بالنجح  
ولاحت تباشر المنى لي من صُبحي  
بأسرع من شكوى احتياجي إلى السمح  
إجابة صنو وهو لي سيد لح  
لا صحت في بؤس وأمسيت في برح  
لجرحاً ممضاً دونه ألم الجرح  
وفي ليلتي حبس وحُرف عن السبح  
يكون إليه مشتكى الضرِّ والترح  
سواه إذا أضطر المضميم إلى السجح  
ولو كنت حسنّ البلاغة والفصح  
تشاركها أوصاف آخر في المدح  
مع الشعراء البائرين ذوي الكسح  
فلما تعاطى الجدّ ملّت عن المرح  
وحُقَّ له الإملاء في ملأ فصح  
مقالي واطرائي عليهم بلا ربح  
فقمّت وبني ربح وأعيت كالطلح  
فتيلاً وما ازدادوا سوى البخل والشح  
عليّ بأعلى اللوح ما هو بالمحمي  
وملطن ما استنقّت منهم سوى النشح  
ثناء وإطراء وكنت بها ألحي  
أن أسطعت واستعد الخطوب على فدحي  
ويمناه أقليد السعادة والفتح  
بشأني يجد كوشي اعزّ من الصرح

علا بمعالیه مقامی ورتبتی  
إذا أبصرت عینای من هو مخفق  
وقلت له أبشر بما أنت طالب  
هو الماجد النائي مدى الدهر صيته  
فليس علي بعد يؤخر رفته  
هو الحازم النحرير طلاع أنجد  
مليل أجلّ الخلق سامي الذري الذي  
أميري ومولاي الكريم وسيدي  
تظنيت فيك الخير والفضل كله  
أتاني وعد عنك إنك منزلي  
ولا ريب عندي أن وعدك منجز  
فهاك مني المدح خدمة مخلص  
ودم كهف عزّ للذليل وملجأ

وصرت إلى أقصى الأمانی ذا طمح  
كدأبي من قبل انتحلت له نصحي  
فمن يدع يوماً باسمه فاز بالسبح  
قريب من الداعي على القرب والنزح  
وليس على قرب يمل من المنح  
كريم نزيه النفس ذو خلق سجع  
مناقبه الغراء تغني عن الشرح  
ومن هو بعد الله لي سند الركح  
فحققت ظني فهو دوني في صح  
لديك كما أنزلت أهلي في ندح  
وأني لا أحتاج معه إلى فسح  
فجد بالرضى عنه فديتك والصفح  
لقاصده ما انجاب ليل من الصبح

وكتب إلى الفاضل اللبيب الخوري غبرائيل جباره أرسلها إليهم باریس إلى مرسيلیه وهو أول شعر مدح  
به قسيساً

قف بالطول أن أسقطت قليلاً  
ساروا وأبقوا وحشة لك دونها  
طلل عهدت به الخلاعة والصبي  
وجررت أذيالي وتهت على المنى  
وخلعت من نعم ولذات على  
واحسرتاه متى يعود العيش في  
لم يبق إلا ذكر أفرحي به  
أن غيرت آثاره الأيام أو

وأسأل عن الركب المغذّ رحيلاً  
غصص المنون وحسرة ونحو لا  
وشربت فيه سلسلاً مشمولاً  
واقنتت منها ما استعزّ ذليلاً  
أهل الهوى ما كنت منه ملولاً  
عرصاته وألذّ فيه مقيلاً  
ومضى كأمس نعيمه مبتولاً  
أن عطلت أعلامه تعطيلاً

فبخاطري تذكره متجدد  
 من بعد حسادي عليه الريح قد  
 تبدي الحنين به وأنه تاكل  
 تسقي تراب فئائه وكأنما  
 عجباً وقد بلته مني عبرة  
 أم قد درت نكب الرياح بأنه  
 أم مثل عيني أعين الجوزاء قد  
 ما كدت أدري رسمه لولا شذا  
 نؤي الحبايب للمحبّ أعز من  
 وسويعة مع من تحب أجل من  
 قلبي السمندل يصطلي نار الهوى  
 لله كم منه يعذب عاشق  
 لو رق من عشق كلام رتل  
 أو لو تداوى الناس منه بالبيكا  
 حاولت قلب القلب عن علل الهوى  
 مني ابتداء الشوق كان وختمه  
 قد قانتني المولى عليه كما على  
 هو ذلك الحبر المهذب خلقه  
 الطيب الأصل الكريم الفعل لن  
 يهب الجزيل وعنده كالجزل ما  
 المرتدي ثوب العفاف مطرراً  
 طلق المحيا واللسان طلاقة  
 يستدرك الأشكال فصل خطابه  
 فلكل ريب قضية ما زال مسئولا

ولقد يظل بأنسهم مأهولا  
 حامت لديه بكرة وأصيلا  
 فأزيد فيه زفرة وعويلا  
 تهفو به لتخله الإكليلا  
 أن صار فوق عنانها محمولا  
 أولى بأن يثوي السماء مقيلا  
 رمدت فتستشفي به تكحिला  
 عرّف إليه كان منه دليلا  
 صرح لديه لا يصيب خليلا  
 دهر به تلقى أخاك عدولا  
 وسلوه العنقاء عز وصولا  
 ولكم به يمسي البريء قتيلا  
 القراء قلوي في الدجى ترتيلا  
 لشفيت كل شج يبيت عليلا  
 فأجاب أنك قد ضللت سبيلا  
 بي لست عن دابي أحول حوولا  
 حب المكارم قان غبرائلا  
 وعليه يبدو خلقه دليلى  
 تلقاه إلا مرشداً ومنيلا  
 يحجوه جزلاً غيره منقولا  
 بتقى يقي التحريم والتحليلا  
 تدع الأسى من قيده محلولا  
 وبعلمه يستخرج المجهولا  
 وللراجي ندَى مأمولا

صافي السريرة حيث آي وفائه  
ما أن يزال إذا دنا وإذا نأى  
كانت مشورته هدى وسعادة  
ودعاؤه في الضرّ أعظم عاصم  
ليس المنيخ ببابه قنطاً ولا  
مولى تحرّى الزهد في الدنيا وقد  
فنجاره ما زال ملجأ لاجئ  
جبر الخواطر من جبارة يرتجي  
سمح الزمان بقربه لي سبة  
حتى أرى قصر الأيادي بعده  
ولقد علمت أن كل الطرف  
مارست دهري واختبرت صروفه  
هلاً أتاني من قبل أن  
هل من ممار أن شخصاً واحداً  
أم منكر أن ليس يذكر سيّد  
ولئن أفض في ذكر آلاء له  
أدب وإحسان وبشر دائم  
ما كنت في مدحي له بمبالغ  
ولو استطعت لكنت أنظم  
من حاول الإسهاب فيه فإنما

لن تقبل التحريف والتبديلا  
براً نصوحاً وأصلاً مستولاً  
للمستشير ونصحه منخولاً  
لك فأطمئنّ به وكن مكفولاً  
من يستغيث بجاهه مخذولاً  
دانت له لو شاءها تبتيلاً  
يلقي الأمانى عنده والسولاً  
وبفرعه كل الفخار أنيلاً  
ما كان أحلاها وعاد بخيلاً  
ومن استطال بفضله مفضولاً  
مقصوراً عليه ذلك التأويل  
فإذا به لا يستفيق غفولاً  
يقضي الفراق وكان فيه عجولاً  
يحوي الفضائل كلها تكميلاً  
مع ذكره إلا وكان ضئيلاً  
فاضت عليّ أملّ عنه طويلاً  
وسماحة تستغرق التمثيلاً  
ما قلت إلا بعض ما قد قيلاً  
كل دريّ له مدحاً أو التنزيلاً  
هو موقد وقت الضحى قنديلاً

بشرى لمن يحظى بقرب جنباه  
ولمن له يهدي التحية والتنا

ولمن يقبل ذيله تقبيلاً  
والحمد والتعظيم والتبجيلاً

### القصيدة القمارية

جمعتنا الشيوخ ما بين أص  
في مقام جيرانه لا يبيحو  
بعضنا شاطر وآخر غرّ  
لم أقم قطّ غالباً غير ليل  
ظل سعدي يقوى على النحس حتى  
وشريكي له نشاط إلى قنص  
فانتتى ساحر المزوق حيرا  
وبعد من سماته ما يحاكي  
بلغ اللعب منه ما يبلغ الجدّ  
فغدا بالكلام يقرص والإصبع  
لم بيت ليلة وأصبح يشكو  
جاره ذو الزلاّت وهو أنا لم  
بعد ستّ وأربعين ولم يبلغه  
ما عليه أن كان يغلب أو  
فكره في اختلاق أكذوبة عن  
يسهر الليل مطرئاً فإذا ما  
لو أطاق المسير من هذه الأر  
ربما ينفع التغفل يوماً  
ليس يدري ما اللعب إلا بشعر  
وبشعر من شاربیه إذا حا  
وإذا سامه أمرؤ سهر الليل  
لم يدعها تطول حتى تحاكي  
عن قريب يخضّب البيض منها  
ليس ينفك ذا ملال وشكوى

وكول وفرشخ هو شقصي  
ن هُتاف المغلوب أو بعض نبص  
خصي أثّنين غابن ثم لصّ  
بات فيه للاصّ ظفري كشصّ  
خلتني في القمار شيخ ابن بعص  
ملوك يدينها أيّ قنص  
ن عليه تأليفه متعصّي  
بعضه خايماً وبعض كفص  
والهاه عن مداراة خلص  
من جاد رمية كل قرص  
من دوار أمضه مع مخص  
يبدؤ منه في الرمي خطة نقص  
عن بنده احتجاج بنصّ  
يُغلب أو لزّه الشريك بشرص  
ذي علاء ما أن وجود بجص  
أصبح الصبح خار من فرط خمص  
ض لما حلّ غير بلدة حمص  
ويضر الإنسان زائد حرص  
عنه ما عاش ليس بالمتقصّي  
ول شعراء ينحى عليها بنمص  
أتاها من غيظه بالمقص  
نصّة الخود ذات ضفر وعقص  
بمدادٍ أو زعفران وحُصّ  
وعلى كل نعمة ذا غمص



وشريك له تربّع في الدست  
أو كمن ينقد الدراهم للسلطان  
أن يجد هفوة يصح ويولول  
بيذل الأصّ بذله المال لكن  
حيث في الأول اضطراراً وفي الثا  
أخذ العلم عن شيوخ مشاهير  
لا كبعض الغواة خريج بصاً  
ليس يدري سوى الخديعة والمكر  
يفرز الغالبات في اللعب لكن  
ليس في حارة اليهود سواه  
قد حكاهم في أكله ذات ظلف  
أن يكن غالباً تجده طروباً  
وإذا فاز خصمه ودّ لو كلّ  
ولذات التلث يعطوا بكلتا  
فاغراً فاه كالذي لاح ماء  
ما لعمرى دهاؤك اليوم مُنَج  
قد حباك المزوّقات ولكن  
أنّ بعض العطاء حلو شهى  
يالها زمرة قماريّة ما  
غير كون اجتماعها خارجاً عن  
شكلها شكل بيضة ولهذا  
من بناها أوصى بهذا وشأنى

كشيخ مسائل العلم يُحصي  
من شأنه تمام النقصي  
ويُقم للجدال قيم فحص  
ثمّ فرق في بذل هذين أصّى أصلي  
ني اختياراً لغير كسب وربص  
ذوي حكمة ومحص ولحص  
قين كلّ أعمالهم عن خرص  
وما يجمل الخداع بشخص  
يتعاطى جدّ الأمور بخبص  
من يجيز الحرام والحقّ يعصي  
فوق ساق وفي الدهاء الأخصّ  
ضاحكاً ذا غمز ذا وقرص ورقص  
خبير سواه باللعب مخصي  
راحتيه وللثمانى بقبص  
ثم لم يرو منه غلاً بمص  
لك أن كدت شيخنا أو محصّي  
ليس يعفيك من نكال مخص  
ثم من دونه مرارة عقص  
عابها جهيز ولا حبر قص  
غرفتي فالحرام فيها بققص  
فالمعاصي من جوفها ذات فقص  
كل حين إمضاء عهد الموصي

### الغرفيات

أنا الولي على كل المفاليس

يأتي بهم زُحَل القوَاد سدَّتْها

ومنها

وغرفتي ذي مزار للمناحيس

وثم تصرعهم ريح الكراكيس

لا يدخلنّ مقامي ذو حجى أبدا

يلفون فيه أكاذيب المديح على

ومنها

فإنما هو منتاب المآفك

زَمّارة أو على نذل من النُوك

يا طالعاً درجات قدرها مائة

إن كنت من حركات طالباً فرجاً

ومنها

إليّ ماذا ترجيّ بعد ذا الدرج

فإنني بسكون طالب الفرج

ما زارني إلاّ خليع ما جن

أن الحياء أخو النفاق وما صفت

ومنها

فدع الحياء إذا حضرت حصيري

دون المجون سرسرة لعشير

يا زائري رأسك أحفظ

فما بكسري هذا

ومنها

من ضرب زيد وعمرو

يصاب جابر كسر

أيها الزائري لفائدة لا

راح علمي في طلب الجدّ

ومنها

ترم المستحيل ما ذاك عندي

والجدّ شرود فضاع علمي وجدّي

للناس نار بلا دخان

فها أنا اليوم منه قار

ومنها

ولي دخان بغير نار

ضيقي وفيه أبييت قاري

إن للصالحين معجزة أن

عكسُ ذا اليومَ معجزاتُ دخاني

ومنها

يجملوا أن شاءوا الضرير بصيرا

أنه يجعل البصيرا ضريرا

تجود عليّ زواري ولكن  
تُقلّ نعالهم لي تربَ كُحلّ  
أكافئهم بواء وهو شأني  
فأكحلهم بشيء من دخاني

ومنها

نعم لي غرفة عليا ولكن  
فكيف أطيق أصعد مرتقاها  
بأسفل سافلين هبوط نجمي  
وأحمل حمل أشجاني وهمي

ومنها

ومن يكن مثلي رفيع الدرجات  
من معاطاة فضول الشعر في  
فهو أولى بمفاعيل السّراة  
فاعلات فاعلات فاعلات

ومنها

كل زواري ذكور  
أفما في الكون من  
ليس فيهم من إناث  
أنثى ولا جنس الخناث

ومنها

قصرت عن الورى  
فلا عجب إذا ما قلت  
وآمنت منهم سبّة غدرا  
صارت غرفتي قصرا

ومنها

إذا زارني ملو نظيري أمنتّه  
فإني أدري بالمناحيس كلهم  
وإن يك ذو جدّ حذرت محاله  
وما فيهم من أجهل اليوم حاله

ومنها

من أوى إلى البيت  
ضاق صدره سدما  
مثل بيتي الحرج  
وأنزوى مع الهمج

ومنها

ولي داخل البيت جثة قطّ  
وقد كنت أحسب أن بالعظام  
وخارجه صيت فيل عظيم  
تكون العظام وأهل العلوم

ومنها

تعالوا وأفقهوا عني ثلاثاً  
تعلّمكم مراعاة النظير  
خلاقِي ثم جسمي ثم بيتي  
صغير في صغير في صغير

ومنها

أمسى بيتي قبراً حرجاً  
لكن زواري أحياء  
مع أنني لست أرى فيهم  
حيّاً لي منه إحياء

ومنها

إذا عصفت ريح ونارت زوابع  
وهدت رعود والغيوم مواطر  
ومادت زوايا غرفتي وتزلزلت  
علّمت بأن عندي يشرف زائر

ومنها

ارفعوا لي حاجاتكم فأنا اليومَ  
مُدّيتي لإنتحارهم أو دَواتي  
أن يكن مُفلسون فليستعيروا  
رفيع المقام والدرجات

ومنها

يقولون إني لضعفك وجاريَ  
وأجدر بشيء إذا ما تبعثَ  
من ضيق أن يكون قويا  
قدرك شعري وصار ركياً

ومنها

مقامي بذِي الغرفة  
فمن زارني فيها  
لحرمان ذي الحرفة  
فلا يُرجون ترفه

ومنها

أصبحت في غرفتي رهن الهموم فما  
أرى لكل امرئ أنثى تؤانسه  
وليس عندي من أنثى سوى النار  
يعتادني غير أشجاني وأوطاري

ومنها

ألا لا يطمعن أحد  
بأنّ لديّ مأدبة  
لكوني صاحب الغرقة  
له من فيضها غرفة

ومنها

حقّ المزور على الزوار أنهم  
وما عليه لهم حقّ ولو جلبوا  
يؤمنون له في الصدق والكذب  
إليه من سباً وسقا من الذهب

ومنها

ولي حرفتان فلا أحذر  
أصوغ القوافي في ليلتي  
البطالة عندي أن ترسخا  
وفي الصبح أستقبل المطبخا

ومنها

طبخ المحاشي رائج في عصرنا  
من أجل ذلك صرت طباحاً فما  
لكنما طبخ القوافي كاسد  
أنا شاعر فالشعر شيء فاسد

ومنها

حوت غرفتي كتبتي ورزقي كله  
إذا غبت عنها خلّتني أفقر الوري  
فبرنطتي فيها عزاء وسلوان  
وأن جئتها أوهمت أنني سلطان

ومنها

يفوح من حجرتي عرف الشواء على  
فمن يكن جائعاً ينعشه أولها  
عرف القريض ومعه عرف ميّان  
ومن يكن كاذباً ينعش من الثاني

ومنها

أرى في الحلم أنني ساقط من  
فأصبح في الفراش ولا قوى لي  
مهدّم طاقتي في مثل غار  
فلست إلى المعبرّ ذا اضطرار

ومنها

بيني وبين دخاني ألفة ثبتت  
وأن يزرني أمرؤ غطّى على بصري  
أن نمت نام وإلا فهو لم ينم  
إذ عنده رؤية الزوّار كالسقم

ومنها

لي غرفة ملأى من الكذب الذي  
لم يبق فيها من محلّ فارغ  
أنفقته في مدح كل بخيل  
للزائريّ ولا مقيل خليل

ومنها

قالوا نزورك حيث كنت خليلنا  
قد محّص العرفان عن أخلاقكم

ومنها

فأجبتهم لا ريب فيه زور  
وخلاقكم فلکم بذا التعزير

أقول لزائريّ قفوا قليلاً  
فإنني في الخليع أرى خليعاً

ومنها

إلى أن ألبس الثوب القشيبا  
وفي لبس القشيب أرى أديبا

لبابي صريف حين يفتح هائل  
فهذه عدوى كفكم فيّ قد سرت

ومنها

يقول لزوّاري دعوني مغلقا  
ولم يُعَدِّكم داب افتتاحي مطلقا

كانت مقاماً للكواعب غرفتي  
ما زال فيها من عبير العشق ما

ومنها

والآن صارت معدن التشبيب  
هاج المحبّ إلى عناق حبيب

يراني الناس في كرج حقير  
فهل يا قوم عندكم المعالي

ومنها

فيحتقرون منزلتي احتقارا  
علوّ مباءة تحوي حمارا

من زارني ورأى مكاني ضيقاً  
أهلاً به للنار والأصلاء مع

ومنها

فلبرّه صدري يكون رحيبا  
كسف الدخان ونعم ذاك نصيبا

طوّقت بابي بأبيات منمّقة  
فصار كنز علوم غير ذي رصد

ومنها

لما بدأ عطُلاً من خير زوّاري  
تنقير أظفاره في نقر أظفار

ألا يا داخلين أليّ مهلاً  
أعجبكم له شكل فجئتم

ومنها

لأسألكم سؤالا عن مزارى  
لتبنوا مثله دار القمار

نعم المهندس من بنى  
هو كالمثلث والمربع  
كوخي بأشكال وهندس  
والمخمس والمسدس

ومنها

من جاءني تعباً وأبصر سدتي  
فالناس تعرف من تزور إذا هم  
نسي الذي قاساه من أتعابه  
نظروا ولو لمحا إلى أعتابه

ومنها

لا يطلعن إليّ اليوم مشئوم  
ومن يكن واحداً مثلي فليس له  
فطالعي بضروب الشؤم موسوم  
لطالعين احتياج قاله اليوم

ومنها

يחסدني الناس على غرفتي  
مع إنها تحوي جهازاً له  
لشبهها أعينهم ضيقاً  
طول وعرض بلغا الشيقا

ومنها

قروّت المصر بيتاً ثم بيتاً  
يرد الشمس إن تدخله كبراً  
فلم أر مثلاً مجلسي الشريف  
لرؤيته لها فوق الكنيف

ومنها

ولي في غرفتي أدوات طبخ  
وإن يكسر من الأدوات شيء  
على مقدار أسناني جميعاً  
أصاب الكسر أسناني سريعاً

ومنها

ليس بالرفس فتح بابي ولا  
فهو من جوهر الزجاج لطيف  
بالقرع فأعلم لكن بنفر خفيف  
لا يسنى إلا لكل لطيف

ومنها

مقامي أول في القدر لكن  
فلا تلووا على شيء سواه  
أتى في الصيف عن خطأ أخيراً  
إذا جئتكم إليه ولو كبيراً

ومنها

إذا صعدت في درجات كوشي  
وجاوزت الأخيرة وهي أعسر  
يخيّل لي بأني طالع كي  
أؤذّن صارخاً الله أكبر

ومنها

لا يراني الناس في غرفتي  
لا أرى من غرفتي الناسا  
ربّنا يعلم من لذّ من  
بيننا البينَ ومن قاسى

ومنها

سمّوا على منزلي قبل الدخول ولا  
تستعجلوا بعد فتح الباب واحتشموا  
فإنه حرّم ذو حرمة ولئن  
لم يُلفَ لي حرمة فيه ولا حرّم

ومنها

أن قلت سمّوا على مقامي  
فلمست أعني سمّا يميته  
وإنما القصد أن تقولوا  
تبارك الله عز صيته

ومنها

لا تنتظرن ملاوصا يا زائري  
من ثقب مفتاحي إلى إعراضي  
كالعرض لي عرضي ومن ينظر  
إلى الإعراض لم يأمن من الإعراض

ومنها

بشرى لمن ينظر المفتاح في بابي  
دليل أني موجود بأثوابي  
أو لا فإنني في فرشي أغطّط أو  
إني خرجت وأمن الله أشعّ بي

ومنها

أنا ساكن في غرفتي متحرك  
لزلازل العجلات تجري تحتها  
لكن بحمد الله ليس بواطيئ  
من فوق رأسي من يحاول نحتها

ومنها

إلى الله أشكو ما أرى تحت طاقتي  
أموراً غداً تكليفها فوق طاقتي  
أرى كل يوم ألف ماشٍ مَخَصراً  
لأنّني على أني مَخَصَرٌ فاقتي

ومنها



لي غرفة ما شأنها شيء سوى  
وغنيت عن هذا بما يجري  
أن ليس تجري تحتها الأنهار  
من العجلات تحسد من بها الأقمار

ومنها

عجبت لكم يا قوم مع ضعف دينكم  
كأنني بكم تلهون عنها بحرّ من  
وشدة برد كيف لم تعبدوا النارا  
تذيقكم في حبها النار والعارا

ومنها

شرط الزيارة من بعد الطعام على  
ومن يزرنني صباحاً فهو في خطر  
حكم المزور وأن لا تمنع الشغلا  
أن لا أقول له أهلاً ولا سهلاً

ومنها

رأوا دخان قميني صاعداً فجرى  
فقال بعض أفين أنت قلت نعم  
بالماء قوم ليطفوا سورة اللهب  
أفين شعراً وعندي معمل الكذب

### الفراقيات

خليلي لا تستنكر عائل الوجد  
ولا تعذلاني في الغرام فأنني  
ومن ذا الذي يرضى البلاء لنفسه  
وهل ينعمن عيشاً مكابد وحشة  
نأى سكاني عني وعوضت عنهم  
كأنّ زماني شاء في كل حالة  
فماضي نعيمي لم يكن من مضارع  
فماذا دهاني بعد حظ غنمته  
وماذا على الأيام لو كان طولها  
أفي الناس مثلي في مقام فؤاده  
وغيري أراه فاقد الوجد وهو في  
وهل في سبيل الله راحم لوعة  
إذا كنت ممن درى لائع البعد  
على خير ما أهوى غريم له وحدي  
وتركو له حال مع الحزن والسهد  
مشتت شمل ضائع والقصد  
يحيرة مقت ليس قربهم يجدي  
يراني فرداً يا لشأني من فرد  
له حيث هم في الحسن جلوا عن الندّ  
وقد كنت فيعيش بقربهم رغد  
له لا سواد من مطالعها يُعدي  
وفي غيره جُثمانه واحد الفقد  
نعيم له جدّ مُعين بلا جدّ  
تعاودني لا بل غرتني كالجد

وَهَلْ مَبْلَغَ عَنِي النَّسِيمَ تَحِيَّةَ  
أَهْمٍ بِمَا كَانَتْ تَرَاهُ أَحْبَبْتِي  
وَأَلْهَجَ بِالْقَوْلِ الَّذِي لَهَجُوا بِهِ  
يَحِقُّ لِي التَّشْبِيهُ مَا دَمْتُ شَاعِرًا  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِي مَطْمَعٌ فِي لِقَائِهِمْ  
وَلَكِنِّي أَرْجُو زَمَانًا يَسِّرَنِي  
يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرِي  
لِعَمْرِكَ سُلْطَانُ الْهَوَى قَاهِرٌ فَمَا  
أَلَا لَيْتَ دَمْعِي حَيْثُ هُمْ وَاقِفُونَ قَدْ  
فِيْمَنْعُهُمْ عَنْ أَنْ يَسِيرُوا وَيَبْعِدُوا  
أَحِبَابُنَا هَلْ وَدَّكُمْ بَعْدُ سَالِمٌ  
أَرَى بِكُمْ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ أَرَاكُمْ  
أَتَى الْعِيدَ بِالْأَفْرَاحِ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ  
وَمَا لِي لَا أَشْكُو وَقَدْ طَالَ بُعْدُكُمْ  
وَمَاذَا الَّذِي أَرْجُوهُ بَعْدَ فِرَاقِكُمْ  
فِيَا حَبْذَا عِيدِ انْبِعَاثِي إِلَيْكُمْ  
وَلَوْ زَارَنِي قَبْلَ الْلِقَاءِ خِيَالُكُمْ  
إِذَا نَظَرْتُ عَيْنِي الْبَرِيدَ فَأَنْ لِي  
فَإِنْ كَانَ لِي مِنْكُمْ كِتَابٌ لَثَمْتُهُ  
فَمَا كَانَ مِنْ آثَارِكُمْ فَهُوَ مُؤَثَّرٌ  
فَلَيْسَ سِوَاهُ الْيَوْمِ عِنْدِي تَعَلَّةٌ  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَجَرُّ الدَّمُوعَ لَمَّا جَوَى

إِلَيْهِمْ وَمَا بِي مِنْ غَرَامٍ لَهُمْ بِيَدِي  
وَأَنْ يَكُ مِنْ بَعْضِ الْجَمَادِ أَوْ الضَّدِّ  
فَتَذْكَارُهُ ذِكْرِي وَإِيرَادُهُ وَرْدِي  
بِهِمْ لَا بَهْنَدَ أَوْ بِمِيَّةَ أَوْ دَعْدَ  
لَأَثَرْتُ تَوْسِيْدِي مَذَ الْيَوْمِ فِي لَحْدِي  
بِهِمْ عَنْ قَرِيبٍ وَهُوَ أَشْهَى الْمَنَى عِنْدِي  
وَلَسْتُ إِلَى نُورِ التَّبَصُّرِ أُسْتَهْدِي  
نَجَا مِنْ مِغَاوِيهِ الرَّشِيدِ وَلَا الْمَهْدِي  
جَرَى وَلَدِي أَقْدَامُهُمْ قَامَ كَالْحَدِّ  
فَحَسْبِي مِنْ سِيرٍ وَحَسْبِي مِنْ بُعْدٍ  
وَهَلْ أَنْتُمْ بَاقُونَ مِثْلِي عَلَى الْعَهْدِ  
بِهَا أَنْ شَأْنِي الْيَوْمَ حَيَّرَهُ ذِي الرَّشْدِ  
وَمَا اعْتَادَنِي فِيهِ سِوَى الْهَمِّ وَالنَّكَدِ  
وَمَا بَيْنَنَا مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالْوَحْدِ  
وَعِنْدِي اسْتَوَى شَأْنَا التَّرَفُّهُ وَالْجَهْدُ  
كَمَا يُبْعَثُ الطَّيْرُ الْغُلِيلُ إِلَى الْوَرْدِ  
وَعَانَقْتُهُ لَيْلًا فَلَذَلِكَ مِنْ جَدِّي  
لَقَلْبًا مِنَ الْأَيْجَاسِ يَخْفِقُ كَالْبَنْدِ  
وَأَقْرَرْتُهُ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ عَلَى كَبْدِي  
عَلَى الْعَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْعَيْنِ وَالنَّقْدِ  
وَمَا غَيْرُهُ أُلْفَى لِحَرِّيٍّ مِنْ بَرْدٍ  
وَأَرْتَدَّ عَنْهُ كَالْعَدِيمِ عَنْ الرِّفْدِ

### وقال

أو ما كفاني اليوم طول تناء  
يا راحلين وفي الفؤاد مقامهم  
ولكم أعاتب سوء حظي فيكم  
سافرتم للبرء مما نالكم

عن أحب ولات حين لقاء  
كم ذا أقول سكنتم أحشائي  
لكن دهري لا يجيب ندائي  
فمتى يكون بقربكم إبرائي

يتيح لي الزمان لقاءكم  
شرقتم فأنا بغصّة غربتي  
يا من يرق لذي جراح مدنفٍ  
فصفن لي ما أنت واصفه لمن  
لا يغرنك ما ترى من بزّتي  
أنا والذي يحيي ويفنى لست في  
أنا أن سلت عني الأحبة لم أكن  
إني على ما بي أرق لعاشق  
ما البعد يخمد نار شوقي إنما  
ما أن يحل حشاشتي من بعدهم  
حال الورى طُراً تحول وحالتي  
الدمع موقوف على جريانه  
وأرى الذي مثلي بكى من فرقة  
عجباً لدهري لم يزل بي مُبْصراً  
عجباً لدمعي مدنفي استحمامه  
عجباً لعمرى كيف طال من النوى  
عجباً لليل الناس يسرع صبحه  
تبنى الرجاء خواطري فيه على  
ويخيّل الشوق المقيم بأضلعي

ويكف كف البين عن إيذائي  
في الغرب ذو شرق وذو أشجاء  
أنا ذو الجراح ملازم الأدواء  
أشفى وكن فطناً إلى الأشقاء  
تحت القشيب طهامل الأعضاء  
الهلّكي أعدّ ولا مع الأحياء  
أسلوهم في البؤس والضراء  
مثلي وأن هو كان من أعدائي  
بُعد الغزالة علة الإحماء  
حب وليس يحلّ نسخ وفائي  
هي ما ترى في غدوتي ومسائي  
والعين مُعفاة من الإغفاء  
مع من مناه بعده بيباء  
وضناي وأراني عن الرقباء  
والناس يشفيهم حميم الماء  
والأرض ضاقت عن مدار رجائي  
وصباح ليلى دائم الإبطاء  
أسّ المحال فبئس آسّ بناء  
لي أنني مغف وهم ضجعائي

حتى إذا أصبحت بأنت إنها  
يا أهل ودي ليس من داء لكم  
سقمي من الطرف السقيم ومنحلي  
ما أن أكلفكم سوى ذكر أسم من  
لو كان يجدي الفال كنت اليوم من  
إذ كل غاد باسمهم متفوّه  
أم بعض ما ذا الوجد يوجد أنه  
يا ليت قلب الناس لي أو جدّهم  
أوليت أحبائي بما بي قد دروا  
حاشاهم إن يهجروا كلفاً بهم  
ومع النوى يرى النوى سهلاً كما  
لهفي على زمن تولى وانقضى  
فلأبي بث بعدها ورزيّة  
كيف التصبر للفراق وما ترى  
إن أشك لم أجد امرأ لي مشاكياً  
وإذا سكنت توهم السلوان بي الرأبي  
يا ليت شعري ما أمال أحبتي  
بخلوا عليّ بنفحة من فيهم  
أن أستمّر حديد قلبهم على  
لعلهم وجدوا عليّ ملامة  
هيني أسأت فها أنا مستغفر  
بُرئي عليهم هين وهو الرضى  
إن لم يصرح فيه قول فلينب  
أنى بحسن القصد منكم قانع

لي لم تكن إلاّ حبال هباء  
عدوى فعودوا واثمنوا من دائي  
الخصر النحيل عداكم أعدائي  
أهوى فحسبي ذاك عن أسماء  
أحظى الأنام وأسعد السعداء  
أم ذاك وسواس الهوى الغواء  
يلهي بمعدوم من الأشياء  
إن عزّ طعن فالتزم عزاء  
فيسارعوا شفاً إلى أنجائي  
يكفيه ما يلقي من الإقصاء  
أن الدنوّ مع الجفوّ تناء  
معه السرور لديهم وهنائي  
أبقتني الأيام شرّ بقاء  
عيني شبيههم من الأرناء  
وشماتة المشكين شرّ بلاء  
وذلك دون فعل الرائي  
عني من التحذير والإغراء  
تأتي الصبا نحوي بها لشفائي  
نار الهوى بي لم يلن لدعائي  
فأرتهم الحسنى من الأسواء  
والعفو مأمول من الكرماء  
سيّان فيه من دنا والنائي  
إضمار ذكر عنه فهو كفائي  
ولئن يكن قد فاتني إرضائي

## وقال في المعنى

أتاني كتاب من خليل منمق  
تتشيتُ وجدا إذ تتشيتُ عرفه  
فيا حبذا ذاك العبير وحبذا  
إلى الله أشكو ما لقيت من النوى  
أقمت وأحبابي ابروا وأبحروا  
فما زلت مذ بانوا حليف صباية  
ففي قلبي المأسور أدخر الهوى  
كئيب نحيل وأجد متشوف  
ولست بذى صبر فيؤمل أجره  
على كل حرف منه حسن ورونق  
ولم لا ومنه عاطر الورد يعبق  
نسيم به نحوي التباشيري يسبق  
وحرّ جوى كادت به النفس تزهرق  
على غير ما أهوى وشملي مفرّق  
إذ حان سبوح كدت بالدمع أغرق  
ومن طرفي المسجور دمعي أنفق  
غريب عليل فاقد متشوق  
ولست بذى سلوى إليه موفق

وليس بمأمون زماني على اللقا  
أحن إلى لقياهم متلهفاً  
وإن درّ قرن الشمس أوهمت إنها  
فأني أرى فيها علامات حسنهم  
أعلل قلباً بالأمانى هائماً  
يطير اشتياقاً بي إليهم وإنني  
ويخفق من ذكر أسمهم فكأنما  
وأسكب دمعاً كان يجري بقربهم  
متى يجمع الله المحبين ساعة  
ورب بعاد كان منه دوام ما  
فله أسرار يعزّ بيانها  
وهل يؤخذن يوماً على الدهر موثق  
إذا ما سميري النجم لاح واقلق  
تبلغني عنهم سلاماً وتنطق  
وفي كل حسن ذكر ما القلب يعشق  
ولم يبق فيه للتمني مصدق  
أسير هوى فيهم ببيني موثق  
يخيل لي أن مضجعي منه يخفق  
فكيف وباب الوصل دوني مغلق  
وحجب النوى بعد الوصال تمزق  
يؤمل من قرب الأحبة شيق  
وللدهر أطوار تسوء وتونق

## وقال

أموّدعي والدمع كاد يحولُ  
كيف التصبّر بعد بعدك موحشاً  
قد كان يشجيني غيابك ساعةً  
والآن غبت على حسابي صبابتي  
إن تتسنّي أذكرك أو إن تشجني  
يا ليت طيفك في الكرى يعتادني  
فلزوره منه أحبُّ إليّ من  
أذهلت في حبّيك عن ألم النوى  
إنسانُ عيني أنت جبرٍ ومهجة  
لو في رضاك بذلتُ كل جوارحي  
ألقاك في كل الجمال مصوراً  
وإذا سمعتُ بمفرد في حسنه  
وأبيت أسأل عنك سيّار الدجى  
يا فانتني بدلاله لم يبق لي  
ما كان غيرك مالئاً طرفي ولا  
وإذا الورى شغلّتهم دنياهم  
فيك الدليل على توحّد مبدع  
أرسلتُ دمعِي مع كتابي عالماً  
يا عاذلين على الهوى لا تعذّلو  
سبق الفؤادُ الطرف مني في الهوى  
أسفاً على وقت الوصال فيا ترى  
لولا ادّكار نعيمه لقضيت من  
ساعُ التعانق ليس يُنسي ذكرها  
ولربّ يوم مسرّة يغنيك عن

ما بيننا ولظى الغرام تهول  
وبقيت لا أرب ولا مأمول  
وأخال أن قد عزّ منك قفول  
دهراً قليل المبتلين طويل  
أشكرك لست الدّهر عنك أحول  
أو كان يغفى الطرف حين أليل  
لذات وصلٍ من سواك يطول  
ولقد يريح العاشقين ذهول  
للقلب ما لهما لديّ بديل  
كنتُ الضنينَ وما بذلتُ قليل  
فيطول فيه مني التأميل  
أيقنت في هذا لك التأويل  
لو كان ينفع سائلاً مسؤل  
في العيش بعدك بنةً تعليل  
أعتقد الضمير بأن سواك جميل  
فأنا الذي بك دائماً مشغول  
إن عزّ عند الفلسفيّ دليل  
إن لا ينوب عن الحبيب رسول  
فبلائي هذا أصله التعجيل  
فهويت فيه فعاذلي معذول  
للبين يغدو مثله تأجيل  
مجد فكم بالوجد طُلّ قتل  
وخطورها بالبال قطّ حوّل  
عمر بأكدار البعاد يطول

فَلاَ فطمنَ النفسَ عن لذاتها  
يا منكرًا لحقيقة الغول اعتقدُ  
وليشجني بعد الغناء عويل  
من لم يذُقْ ألمَ الفراق فما له  
إنَّ النوى هي في الحقيقة غول  
فلكل رزءٍ غيره سلوى لذي  
يوماً إلى عتب الزمان سبيل  
يا لوعة الشوق أسكني في مهجتي  
رشد وطبُّ بالعزاء كفيل  
ما فاتني ممَّن أحبَّ وصول  
خفقان قلبي من سكونك دائم  
ولعلَّ عن كتبٍ بلاي يزول

هذا ما انتهى إلينا من أخبار الفارياب. مما أقضي الآن إيداعه بطون الأوراق. فمن شاء أن يدعو له أو عليه فجزأؤه يوم تلتفت الساق بالساق. ويقال إلى ربك يومئذ المساق. فأما من دعا له يعود زواجه هذه المرة وفي الحياة أرقام. فإني أضمن له إن يدعو له إلى مأدبة حولها وفيها كل ما شاق وراق. مما ذكر في هذا الكتاب بالانتساق على سرر وأطباق.

### ذنب للكتاب

ينتظم به لآلئ أغلاط الرؤوس العظام الأساتيد الكرام مدرّسي اللغات العربية في مدارس باريس قال الكسندر شدةزكو "Alexandre Chodzko" في فاتحة كتاب ألفه في نحو اللغة الفارسية سنة 1852 ما ترجمته "حصلت بلاد أوروبا منذ زمن طويل على كل ما يلزم لعلم اللغات الشرقية إذ فيها خزائن كتب ومدارس وعلماء جديرون بإدارتها حتى أنه باعتبار فن أدب لغات آسية وما يلحق بها من الفلسفة والتاريخ أصبح أستاذ الفرس ومعلم العرب وبراهميّ الهند وبهم افتقار إلى أن يتعلموا من أساتيدنا كثيراً" انتهى". وأنا أقول أن هذه الدعوى كذب ومن إفك وافتراء وترّهة وتزوير وبهتان وأبعاط وشحط وشطط وفرط وهتر وعضيهة واختلاق وتزهق وتصلّف وتزبّب. وأن قائلها ينبغي أن يدمج مع من جهلوا أنفسهم في حد نبدي لأنه جهل نفسه بل حمل غيره أيضاً على الجهل بنفسه. أما أولاً فلأنه أي قائل هذه المقالة لا يعرف اللغات الشرقية ولا يعرف مقدار ما نتف منها هؤلاء الأساتيد حتى يشهد لهم بالفضل والبراعة. وأنه في نقله للرسائل الفارسية التي أثبتتها في كتابه أرتكب أغلاطاً كثيرة فاضحة سواء في النقل والترجمة. فمن ذلك قوله في صفحة 198 قانع صفصف وهي في الأصل قاع صفصف اقتباساً من قوله تعالى "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا". فلما جهل المعنى بدّل قاع بقانع وترجمه باللغة الفرنسية بقوله ويُقنع نفسه برمل البريّة. فكيف أستحلّ هذا العالم أن يملأ الكلام بالرمل واستكبر أن يسأل أحداً من أهل العلم عن المعنى. لكنها عادة له ولأسلافه ولأساتيده في إنهم حين يشتبه

عليهم المعنى يعمدون إلى الترفيع والترميق والتلفيق. والثاني إن هؤلاء الأساتيد لم يأخذوا العلم عن شيوخه أي عن الشيوخ محمد والملا حسن والأستاذ سعدي وإنما تطفلوا عليه تطفلاً وتوثبوا توثباً. ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج على القس حنا والراهب توما والخوري متي. ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه وتوهم إنه يعرف شيئاً وهو يجهله. وكل منهم إذا درّس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخطب فيها خبط عشواء فما أشبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء. وما كان بين الشبهة واليقين حدّس فيه وخمن فرجّح منه المرجوح وفضل المفضول. وذلك لأنه لم يوجد عندهم من تصدّى لتخطئهم وتسوئتهم. وقد قال أبو الطيب:

### وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الحرب وحده والنزلا

ولأنهم إنما اعتمدوا على اتصافهم بنعت مدرسين فاجتزأوا بالاسم عن الفعل وعن حقيقة ما يراد من التدريس. فإن المتصدي لهذه الرتبة الجليلة ينبغي أن يكون صادق النقل متبناً في الرواية. متخرجاً من التهافت على ترجيح ما استحسّنه هو دون مراد المؤلف. متروياً في سياق الحديث وسباقه وقرائنه وعلاقته. مضطرباً باللغة والنحو والصرف والأدب. فأين هذه الصفات كلها من هؤلاء الأساتيد كلام ذي جد فقد وجب عليك بعد قراءة جدول أغلاطهم الفاضحة أن ترجع عما تبهلقت فيه وتزيت من دون علم. وإن تكذّب نفسك في طاعة كتاب آخر تؤلفه في نحو اللغة العربية إن شاء الله. وإلا فإن أثم أفجاسك هذا في عنقك. فأما إن كان مزاحاً وأردت به السخرية من هؤلاء الأساتيد المشاهير والأساطين المذاكير فهم أولى بأن يجيوك. غير أني أراهم قد سكتوا عنك. فكأن دغدغة هرفك هذا لهم قد أعجبتهم. فما مثلك إلا مثل ذلك الأبله الذي عشق امرأة ولم يقدر وصلها حتى أدفعه عشقها وهيمه فلم يستطع بعده حراكاً. فعاده رجل داهٍ مثلك وأخذ يهنته على قضاء وطره منها. فقال له الأبله كيف وأنا مغرم بما وكلما زدت شوقاً إليها ووجدًا زادت أعراضاً عني وصدًا؟ قال قد رأيتك بعيني تعانقها بالأمس ثم خرجت من دارها وأنت مبتهج متهلل. وراك غيري أيضاً وهم كثيرون. فإن أنكرت فيها هم كلهم يشهدون لي، وما زال به حتى أقنعه وحمله على أن يسلوها. فأفاق من مرضه. إلا أن بينك وبين هذا الداهي فرقاص عظيمٌ وذلك أنه إنما استعمل دهاءه للإصلاح. وأنت إنما استعمله للإفساد. لأن كتابك هذا ربما يقع في يد بعض أرباب السياسة الذين يجهلون الفارسية والعربية. ولغفلته يظن أن مشايخ مصر وأساتيد الفرس محتاجون الآن إلى أخذ العلم عن أصحابك. ومتى تمور أحد هؤلاء الوجوه في ضلال تمورت معه الرعية بأسرها.



فأما قولك إن في البلاد الإفريقية خزائن كتب كثيرة. كأنك تقول أنه يوجد فيها من الكتب ما لا يوجد في بلادنا لأن نواب الدول لا يزالون يشترون من بلادنا أنفس الكتب. فهو ليس بدليل على وجود العلم عند وجود الكتب فأين حمل الأسفار هداك الله من العلم. لأن العلم في الصدور لا في السطور ولكن أفندي ما بال هؤلاء الأساتيد لم يؤلفوا في اللغات الشرقية شيئاً قط. فغاية ما صنعوا إنما هو أحدهم ترجم من لغتنا لغة الأَطْيَار والأَزْهَار فخمن فيها وحس ما شاء. وآخر ترجم محاوره يهودي وأحمق من التجار. وآخر مسخ أمثال لقمن الحكيم إلى الكلام الركيك المتعارف في الجزائر. وآخر تعنى لطبع أقوال سخيصة من رعا ع العامة في مصر والشام. وترك ما فيها من اللحن والفساد كما هو استذراعاً بقولة كذا رأيتها في الأصل. فيظن بذلك إنه تنصل من تبعة اللوم والتنفيذ. فما سبب هذا التهافت على ترجمة مثل هذه الكتب وطبع مثل هذه الأقوال من لغتنا إلى اللغة الفرنسية سوى توخُّم ملفقيها على الانحراف فيسلك المؤلفين. ولم لم يتعن أحد منهم لترجمة شيء من الكتب الفرنسية إلى العربية ليظهر براعته في هذه حالة كونه شيخ طلبتها وإمام أميها. على أن في اللغة الفرنسية كتباً جلييلة القدر في كل فن. وأعجب من ذلك إنه لم يخطر ببال أحد منهم قط أن يترجم نحو لغتهم إلى لغتنا. فهل من سبب آخر غير التحذّر من أن يعرضوا أنفسهم للتحقيق والتنفيذ والتحميم. فإن عبارة النحاة والمعرّبين لا بدّ من أن تكون محرّرة صحيحة ولا عذر لهم معها أن يقولوا كذا وجدناه في الأصل. ويا ليت شعري ما الفائدة في كون أحد هؤلاء الأساتيد يؤلف كلاماً معلّسطاً فاسداً في لغة أهل حلب ويسميه نحواً. ثم يذكر فيه انحق بيكفي وايشلون كيفك حيّو وهلكتاب وقوي طيب. وفي كون آخر يكتب بلسان أهل الجزائر كان في واحد الدار طوبات بالزاف الطوبات كشافوا وكيناكل وراهي وانتيئا وانتيا ونقجم وخمم باش وواسيت شغل المهايل ويوا لم أي يلائم وماجي أي جاء وكلي أي كأنه وحرامي أي بستاني والستاش أي السادس والدجاجة ترجع تولّد زوج عظمت وما أشبه ذلك من المشوّ. فما بالكم يا أساتيد لا تؤلفون كتباً بكلامكم الفاسد الذي تسمونه بَنَوَى. وهل تشيرون على عربيّ أقام بمرسيلية مثلاً أن يتعلم كلام أهلها أو كلام أهل باريس. ولو كان فعلكم هذا فعل رشيد لوجب أن تقيّدوا جميع الاختلافات والفروق الموجودة عند المتكلمين بالعربية. فإن أهل الشام يستعلمون ألفاظاً لا يستعملها أهل مصر. وقس على ذلك سائر البلاد الإسلامية. بل أن لأهل صقع واحد اصطلاحات شتى. فكلام أهل بيروت مثلاً مخالف لكلام أهل جبل لبنان. وكلام هؤلاء مخالف لكلام أهل دمشق. وذلك يفضي بكم إلى هوس وإلى إفساد هذه اللغة الشريفة التي من بعض خصائصها إنها بقيت ثابتة القواعد قارّة الأساليب على انقراض جميع ما عداها من اللغات القديمة. وإن المؤلفين فيها يومنا هذا لا يقصرون عن أسلافهم الذين انقضوا مذ ألف ومايتي سنة. فهل حسدتمونا على ذلك وحاولتم أن تحيلوها وتلحقوها بلغتكم التي لا تفهمون ما ألف فيها مذ ثلاثمائة

سنة. ويا ليت شعري هل تأذن أرباب السياسة عندكم لرجل أراد أن يفتح مكتباً يعلم فيه الصبيان في أن يتعاطى ذلك من دون أن يُمتحن أولاً. فمن الذي امتحنكم أنتم ووجدكم أهلاً لهذه الرتبة التي هي أرفع من رتبة معلم كُتّاب ومن ذا الذي عارض ما ترجمتم ولفقتم ورمقتم بالترجم منه. وكيف رُخص لكم في أن تطبعوا ذلك من دون الوقوف على صحته. ولعمري أن مدرساً لا يحسن أن يكتب سطرًا واحدًا صحيحاً باللغة التي يعلمها لجدير بأن يرجع إلى المكتب من ذي أنف. على أن من هؤلاء الأساتيد من لا يفهم إذا خوطب فضلاً عن جهل التأليف. ولا يفهم إذا قرأ. ولا يقوم الألفاظ في القراءة وقد سمعت مرة بعض التلاميذ يقرأ على شيخه في مقامات الحريري ولا يكاد ينطق بحرف واحد نطقاً بيناً من هذه الحروف التي خلت منها لغتهم. وهي الثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظا والعين والغين والقاف والهاء. وشيخه ساكت لما أنه يعلم أن تصحيحه له لا يكون إلا فاسداً. فكيف يمكن لمن لم يسمع اللغة من أهلها أن يحسن النطق بها. كيف لا وأن من ألف منهم في نحو لغتنا شيئاً فإنما بنى نحوه كله على فساد. فإنهم يترجمون عن الجيم بلساننا

بحرفي الدال والجيم بلسانهم. وقد جهلوا إنه ليس عندنا في العربية حروف مركبة كما في اليونانية. فإن الابتداء بالساكن مرفوض عند العرب إذ لم نقل إنه، و يترجمون عن الثاء بالطاء وعن الذال بالزاي وكذا عن الظاء. فأما سائر الحروف فالعين والهاء والحاء عندهم همزة والحاء كاف والصاد سين والضاد دال والطاء تاء والقاف كاف. وينطقون بالسین إذا تقدمتها حركة كالزاي وعلى ذلك المطران الخطيب اقطعوا الأزباب كما مرّ. فأما الهمزة فإنها وأن وقعت عندهم في أوائل الألفاظ فلا تقع متوسطة ولا متطرفة ولا يمكنهم النطق بها إلا ملينة. بل أعظم مؤلفيهم لا يدري أن الألف في أول الكلام لا تكون إلا همزة. وليس الغرض هنا تعليمهم الهمز فإنهم همازون. وإنما الغرض أن أبين لهذا الرملي الهارف المتملق مناضلة عن شيوخه الذين أخذت عنهم من العلم ما أخذت إن شيوخه لا يحسبون في عداد العلماء وإنه ليس من علماء مصر وتونس والغرب والشام والحجاز وبغداد من هو محتاج لأخذ حرف واحد عنهم. نعم أن لهم باعاً طويلاً في التاريخ فيعرفون مثلاً أن أبا تمام والبحري كانا متعاصرين. وأن الثاني أخذ عن الأول. وأن المتنبّي كان متأخراً عنهما. وأن الحريري ألف خمسين مقامة حذا بها حذو البديع وما أشبه ذلك. إلا أنهم لا يفهمون كتبهم. ولا يدرون جزل الكلام من ركيكة وثبته من مصنوعه. ولا المحسنات اللفظية والمعنوية. ولا الدقائق اللغوية. ولا النكات الأدبية ولا النحوية. ولا الاصطلاحات الشعرية. فغاية ما يقال إنهم تنفوا تنفة من علوم الصرف بواسطة كتب ألف بالفرنساوية. فهل يسلّمون لعربي تعلّم لغتهم من كتب لغته بأنه كعلمائهم وإنهم محتاجون إلى التخرج عنه. ثم لا ينكر أيضاً أن مسيو دساسي "De Sacy" حصل بقوة اجتهاده ما أقدره على فهم كثير من كتبنا بل على الإنشاء في لغتنا أيضاً

ولكن ما كلّ بيضاء شحمة. على إنه رحمه الله لا يُنظم في سلك العلماء المحررين. فقد فاته أشياء كثيرة في الأدب واللغة والعروض. وأني طالما والله أثبتت على براعته وأعظمت علمه وفضله. إلا أنه لما صارت مهارته وبراعته هذه سبباً للفساد فإنها هي التي جرأت غيره على التصدر للتدريس بلغتنا وسوّلت لهذا المفتري أن يتناول على أهل العلم، كان من الواجب عليّ رعاية لحق العلم وأهله أن أسطر أسمه من بين أسماء الشيوخ في البلاد الإسلامية كافة. فدعا لمن تترس باسمه واستذرع بعلمه عن الدعوى والانتحال ولولا فحش قول هذا النّقّاع المتحذلق وكذب دعواه لما تعرضت لتخطئة أحد منهم. فإني أعلم إنهم لن يرعوا عن غيهم وما يزيدهم كلامي هذا إلا غروراً. بل الشيوخ الذين قضوا عمرهم في طلب العلم يتورعون من أن يقولوا مقالته. لأن الإنسان كلما زاد علمه زادت معرفته بجهله. ولعل كتابي هذا يقع في يد أستاذ فارسي أو هندي فيكون باعثاً لهما على الانتداب لتخطئتهم أيضاً في هاتين اللغتين. لأني أعلم عين اليقين إنهم فيهما أشد جهلاً. لأن الذين سافروا منهم إلى بلاد العرب أكثر من الذين سافروا إلى غيرها. ومع ذلك فلم يتعلموا منها سوى الركاكة والخطل وأعلم أيها القارئ العربي إنني لم أجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا جديراً بالانتقاد سوى مقامات الحريري. وإني لضيق وقتي حالة كوني على جناح السفر لم يمكن لي النظر إلا في أبيات الشرح فقط. وقد وكلت غيري في نقد الباقي كما وكلني العلماء في نقد الأبيات ثم عثرت بعد ذلك برحلة العالم الأديب الشيخ محمد بن السيد عمر التونسي مطبوعة على الحجر عن خط مسيو بيرون وقد شحنها كلها بالتحريف والغلط مما لا تصح نسبته إلى أدنى تلامذة الشيخ المذكور. أيمكن لأحد من الطلبة فضلاً عن العالم أن يقول جوده ناسخ لكل الوجود أي لكل الجود. وإن يكتب العصا بالياء غير مرة - وأعلى أفعل التفضيل بالألف نحو عشرين مرة - ونجا بالياء - واتعمى العالمون الضياء أي أعمى العالمون - وآمنين مطمئنين حاله كونهما مرفوين - وفلاحين مصر - ومحموين السيرة - واستوزر الفقيه مالك - ولا يعصا - ولا أرى سوء رأيك أي لا أرى سوء رأيك ويتعدا رأيه - وأني عشر ملك - ومن حيث أن أبا دima والتكنياوي متعادلين لم أي متعادلان فلم - وتجد الرجال والنساء حسان - ودعى لنا - وعجوبة - وصواحبتها وصواحبها - ولغة فيها حماس - وأنهما متقاربتي المعنى - وحتى تأتي أرباب الماشية فيقبضون - فهل أحدى منكم - ويرفعون أصواتهم بذلك حتى يدخلون - وماشيين - والمسميين - وحتى يشقون - ومنحنيون - وأنهم يكونوا - ولا اعتاض - أي لأعتاض. أو أنه يجهل بحور الشعر فيجعل الكامل هزجاً والطويل مديداً وما شبه ذلك. ومن العجب أن الشيخ الموما إليه أورد هذين البيتين وهما:

هذه طيبة هذه الكُشْبُ

أبرك الأيام يوم قيل لي

### هذه روضة طه المصطفى

### هذه الزرقا لديكم فاشربوا

قال والياء في هذي بدل عن الهاء فلما قرأهما بعض التلامذة على مسيو كُسان دو برسفال "Caussin De Perceval" أحد المدرسين العظام أصلح قوله طه بوطا وفسرها بوط الرجل. وأبدل الهاء من قوله هذه الزرقا ياء وذلك لقول الشيخ والياء في هذي بدل عن الهاء فانكسر الوزن. وترك لفظة الزرقا غير مصححة فإن مسيو بيرون وضع بعد الألف همزة فانكسر بها الوزن أيضاً. وحق وط أن تكتب بغير ألف.

### تم الذنب

تنبيه من عادة الأساتيد المزبورين ومن أشبههم ممن ألف في العربية شيئاً أن يعتذروا عن أغلاطهم الفاضحة بالتورك على الطباع أو على صفاف الحروف بأن يقولوا أن وقوع الغلط إنما ينشأ عن جهلهم باللغة كما ذكر لي ذلك الكنت الكس دكرانج "Allix Desgrange" نقلاً عن الأستاذ كسان دبرسفال وهو عذر أقبح من ذنب فإن الصفاف كيفما وجهته اتجه ومهما ترسم له يمثله ألا ترى أن المسيو بيرو "M. Perrault rue de Castellane 15 Paris" ومع كونه لم يعرف من اللغة العربية شيئاً فقد امثل كل ما رسمنا له في كتابنا هذا من التصحيح والتبديل بغاية التأني وبذل مجهوده في صف الحروف وجودة الطبع حتى جاء بحمد الله أحسن ما طبع بلغتنا في البلاد الإفريقية فلهذا ننوه باسمه عند كل من شاء أن يطبع شيئاً بالعربية ولا شك أنهم يحمدون سعيه ويرضون عن صنعه وإن لم يكن في المطبعة السلطانية وكفى بحسن العمل وصاة.

## الفهرس

2	تنبيه من المؤلف .....
3	فاتحة الكتاب .....
8	الكتابُ الأوّل .....
8	إثارة رياح .....
15	انتكاسة حاكية وعمامة واقية .....
17	نوادير مختلفة .....
20	شروع وطنبور .....
22	قسيس وكيس وتجليس وتلجيس .....
27	طعام والتهم .....
29	حمار نفاق وسفر وإخفاق .....
31	خان وإخوان وخوان .....
34	محاورات خانية ومناقشات حانية .....
38	إغضاب شوافن وأنشاب برائن .....
42	الطويل والعريض .....
45	أكلة وأكال .....
49	مقامة .....
50	مقامة في الفصل الثالث عشر .....
53	سرّ الاعتراف .....
55	قصة القسيس .....
58	تمام قصة القسيس .....
63	الثلج .....
66	النحس .....
73	الحس والحركة .....
75	نوح الفاريق وشكواه .....

77	عرض كاتب الحروف.....
82	الفرق بين السوقيين والخارجين.....
84	الكتاب الثاني .....
84	دحرجة جلمود .....
93	سلام وكلام .....
100	انقلاع الفاريق من الإسكندرية.....
107	منصة دونها غصة.....
112	وصف مصر .....
115	في لا شيء.....
115	في وصف مصر .....
117	في أشعار أنه انتهى من وصف مصر .....
120	فيما أشرت إليه .....
122	طبيب .....
124	إنجاز ما وعدنا به .....
126	أبيات سرية .....
130	مقامة مقعدة .....
134	تفسير ما غمض من ألفاظ هذه المقامة ومعانيها.....
169	في ذلك الموضع بعينه.....
171	القسم الأول في تهيئة الجواهر .....
173	القسم الثاني في عمل الحلي .....
176	القسم الثالث في عمل الطيب واتخاذ المشموم .....
180	القسم الرابع في عمل الآنية والأدوات والمتاع والفرش .....
184	القسم الخامس في عمل الثياب .....
195	رثاء حمار .....
198	ألوان مختلفة من المرض .....
200	دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب.....
203	معجزات وكرامات .....

206.....	الكتاب الثالث
206.....	إضرام أتون
220.....	العشق والزواج
229.....	القصيدتان الطيختان
231.....	الثانية
233.....	الأغاني
234.....	غيره
235.....	غيره
235.....	غيره
236.....	غيره
236.....	غيره
237.....	غيره
238.....	غيره
238.....	غيره
239.....	العدوى
244.....	التورية
246.....	سفر وتصحيح غلظ أشتهر
253.....	وليمة وأبازير متنوعة
258.....	الحرّة
258.....	الأحلام
260.....	الحلم الثاني
261.....	التعبير
261.....	الحلم الثالث
263.....	التعبير
264.....	إصلاح البخر
268.....	سفر ومحاورّة
279.....	مقامة مقيمة

285.....	جوع دَيَّقوع دهقوع
287.....	السفر من الدير
290.....	النشوة
290.....	الحض على التعري
293.....	بلوعة
300.....	عجائب شتى
305.....	سرقة مطرانية
307.....	الكتاب الرابع
307.....	إطلاق بحر
312.....	وداع
319.....	استرحامات شتى
322.....	شروط الرواية
325.....	فضل النساء
327.....	وصف لندن أولندرة عن الفاريق
328.....	محاوره
332.....	الطباق والتنظير
336.....	سفر معجل وهينوم عقمي رهبل
339.....	الهيئة والأشكال
344.....	سفر وتفسير
347.....	ترجمة ونصيحة
353.....	خواطر فلسفية
358.....	مقامة ممشية
361.....	رثاء ولد
366.....	الحداد
369.....	جود الإنكليز
374.....	وصف باريس
381.....	شكاة وشكوى



390.....	سرقة مطرانية ووقائع مختلفة
392.....	نبذة مما نظمه الفاريق من القصائد والأبيات
392.....	في باريس على ما سبقت الإشارة إليه
401.....	القصيدة التي أمتدح بها الجناب المكرم الأمير عبد القادر
401.....	بن محيي الدين المشهور بالعلم والجهاد
403.....	القصيدة التي أمتدح بها الجناب المكرم النقيب الحسيب صبحي بيك
404.....	في إسلامبول
407.....	القصيدة القمارية
409.....	الغرفيات
417.....	الفراقيات
418.....	وقال
421.....	وقال في المعنى
421.....	وقال
423.....	ذنب للكتاب
428.....	تم الذنب
429.....	الفهرس

To PDF: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)